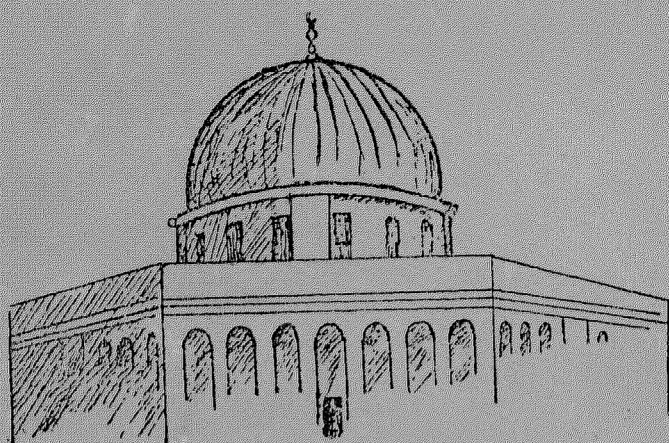


تاريخ الدولة العبرية

من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية



تأليف الدكتور الألماني
يوليوس فلهنوزن



ترجمته :
دكتور حسين مؤنس

نقله عن الألمانية وعليه عليه :
دكتور محمد عبد الحمادي البوري

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد الجسويني

الإسكندرية

تأليف الدولة العجيزة
مِنْ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ إِلَى نِهَايَةِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

٩٥٩, ٥٩

٧٦٣١

فله

٢

(١٣٦)

الإلف كتاب

تاريخ الدولة العباسية

مَنْ ظَهَرَ الْإِسْلَامَ إِلَى زَيْلَةِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ

تأليف المستشرق الألماني

يوليوس فلهوزن

راجع الترجمة

دكتور حسين مؤنس

بجامعة القاهرة والمعهد المصري بمطريه

نقله عن الألمانية وعلق عليه

دكتور محمد عبد الهادي بوريه

بجامعة القاهرة والجامعة الليبية

نشرته

مجلس النشر والترجمة والنشر

القاهرة سنة ١٩٦٨

١٠٥٣٨٣

هذه ترجمة كتاب :

Das Arabische Reich und sein Sturz

تأليف

von

Julius Wellhausen

الطبعة الثانية

١٩٦٨

مختویات کتاب

صفحة

ج	كلمة المترجم عن مؤلف الكتاب
ز	كلمة المترجم عن الكتاب
ق	كلمة تمهيدية للمؤلف
١	الفصل الأول : مقدمة
٧٠	الفصل الثاني : على ^١ والحرب الأهلية الأولى
١٠٧	الفصل الثالث : السفينايون والحرب الأهلية الثانية
١٩٦	الفصل الرابع : بنو مروان الأوّلون
٢٥٩	الفصل الخامس : عمر بن عبد العزيز والموالى
٣٠٢	الفصل السادس : المروانيون المتأخرون
٣٥٦	الفصل السابع : مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة
٣٨٠	الفصل الثامن : القبائل العربية في خراسان
٤٦٧	الفصل التاسع : سقوط الدولة العربية
٥٣٥	فهرس الأشخاص
٥٥٣	فهرس الأماكن والمواضع
٥٦٥	فهرس الموضوعات والمواد

كلمة عن مؤلف الكتاب

يوليوس فلهوزن : عالم ألماني مبرز في ميدان الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس ، بقسميه القديم والجديد ، وباحث محقق في ميدان التاريخ العربي .

ولد في مدينة هامبورغ ، على نهر القايزر (وستفاليا) في ١٧ مايو ١٨٤٤ ، ودرس اللاهوت في مدينة جوتينجن ، وفي هذه المدينة نفسها ، بدأ حياته الأكاديمية في سنة ١٨٧٠ ، مدرساً في ميدان تاريخ العهد القديم ، وفي سنة ١٨٧٢ صار أستاذاً لللاهوت في جامعة جرايفسفالد ، لكنه استقال من هذه الوظيفة في سنة ١٨٨٢ ، بعد عشر سنين من البحث والتفكير في العهد القديم ، تبين له في أثناءها ، أنه لا يستطيع فيما بينه وبين ضميره أن يظل متمسكاً بفكرة أن الكتاب المقدس وحى إلهي . فصار أستاذاً للغات الشرقية في مدينة هاله ، ثم انتقل في سنة ١٨٨٥ إلى جامعة ماربورج ، وفي سنة ١٨٩٢ إلى جامعة جوتينجن ، وتوفي في ٧ يناير ١٩١٨ .

وترجع شهرة فلهوزن إلى دراساته النقدية في ميدان دراسات العهد القديم وتاريخه . وهو قد كان مفكراً متحرراً ، يعتد بالعقل ويعنى في دراساته بالنقد . وقد نظر في الكتاب المقدس خصوصاً الأسفار الأولى من العهد القديم ، متبعاً منهج النقد العلمي ، ودرسه كما يدرس النص ، فوجد أنه تنقصه الوحدة والانسجام ، سواء من حيث الفكرة أو من حيث الأسلوب والعبارة ، فلا يمكن أن تكون نسبته إلى من ينسب إليهم صحيحة ، أي أنه ليس وحياً إلهياً أصيلاً ، بل كتبه الناس . وبهذا وصل فلهوزن بالنقد إلى نهايته ، وفتح الطريق أمام الدراسات النقدية للكتاب المقدس . ورغم أنه قد عاداه وعارضه كثير من علماء وشرّاح الكتاب المقدس ، فإنه قد تبين ما في رأيه وطريقته من الصواب ، وعدل علماء

الكتاب المقدس عن التطرف في التمسك بالفكرة القديمة ومميزوا بين المعنى والفكرة باعتبارهما الوجداني ، وبين اللفظ والعبارة باعتبارهما للبشر .

ولما لم يستطع قلهوزن أن يظل أستاذاً للأهوت ، تحول من الميدان الذي بدأ حياته بالتخصص فيه ، إلى ميدان الدراسات العربية ، فعنى بدراسة الوثنية العربية في كتاب قيم عنوانه : « بقايا الوثنية العربية » (١) ، واعتمد فيه خصوصاً على ما كان معروفاً في ذلك الوقت من مقتطفات كتاب الأصنام لابن الكلبي ، لكنه رجع أيضاً إلى مراجع كثيرة ، مكنته من جمع مادة غزيرة متنوعة في الميدان الذي أراد توضيحه ؛ وعنى بدراسة الفترة المدنية من الدعوة الإسلامية ، فترجم كتاب المغازي للواقدي بعنوان : « محمد (عليه السلام) في المدينة » (٢) ، ونشر بعض أشعار المهديين ، وعمل دراسات أخرى كثيرة ، واهتم خصوصاً بتاريخ الدولة العربية ، فأثمر جهاده الكبير هذا الكتاب العظيم الذي نشره في مصر بالعربية ليكون في متناول المحصلين والباحثين العرب ، بعد أن ظل زماناً طويلاً في أصله الألماني وترجمته الإنجليزية ، مرجعاً أساسياً في تاريخ صدر الإسلام عند الأوروبيين .

برهن قلهوزن ، بهذا الكتاب ، على أنه مؤرخ من الطراز الممتاز . وقد أشاد العلماء بموهبته في كتابة التاريخ . والحق أن هذا العالم الألماني الفذ ، ظهر في ميدان تاريخ العرب مؤرخاً من نوع نادر وجديد ، فلقد كتب كثير من العلماء الأوروبيين في تاريخ صدر الإسلام ، أعنى تاريخ الفترة التي انتهت بسقوط دولة بني أمية ، لكن قلهوزن فاقهم جميعاً من وجوه كثيرة ، فهو بدلاً من أن يعتمد على مؤلفات المستشرقين الذين سبقوه ، رجع إلى

(٥)

المصادر العربية الأصلية ، فقرأها قراءةً شاملةً . وتمثل مادتها تمثلاً كاملاً ، وهذا بالنسبة للمؤرخ ، كما لاحظ المستشرق الألماني بيكر (C. H. Becker) هو الطريق الوحيد الصحيح ، لا الطريق الوحيد الممكن .

وهو قد استقبل البحث من غير تعصب ، وخصوصاً من غير مجموعة الأفكار التي يقبلها بعض الباحثين مقدماً ، فتفسد عليهم تصور الوقائع وفهمها ، وتقديرها التقدير الصحيح ، وإنما كانت طريقته أن يستوحى النصوص ، لا أن يحاول بكل الوسائل أن يستغلها في إثبات آراء أو فروض قد بدأ بها من عنده ، كما فعل بعض من كتب في تاريخ العرب وتاريخ الإسلام من المستشرقين . لكن ليس معنى هذا أن فلهوزن أخذ النصوص على علاقتها ، بل هو انتفع بها في كثير من التحليل والنقد ، وهو في الكلمة التي مهد بها لكتابه ، قد وصّف الروايات التاريخية العربية في شخص ممثلها الكبار وأبان عن طريقته ، ثم جرى في ثنايا كتابه على منهج النقد للروايات ، واختيار ما يطمئن إليه المؤرخ الحريص على الحكم الصحيح . ومما امتاز به فلهوزن على أسلافه من المؤرخين الأوروبيين وغير الأوروبيين الذين كتبوا عن الدولة العربية ، أنه إلى جانب اعتماده على المراجع العربية ، رجع إلى مراجع غير عربية معاصرة للحوادث التي تناولها والأشخاص الذين تعرض لهم ، مثل كتاب تيوفانيس المؤرخ البوزنطي ، وكتاب الصلة لتاريخ ايزيدور ، وبعض ما كتبه المؤرخون السريان .

وهو وإن كان غير مولع بالنقد فإنه قد اضطر إلى نقد بعض أسلافه من المؤرخين الأوروبيين ، أمثال دوزي ، وفون كريمر ، واولتر . ولو نظرنا فيما خالفهم فيه ، لتبين لنا الفرق واضحاً بين روحه وروحهم ، وطريقته وطريقتهم .

كان فلهوزن عالماً يتمسك بروح البحث العلمي ويعتمد بالوقائع ، وإذا كان بعض من شاركه في ميدان البحث قد جرى أحياناً وراء الخيال ، أو عمد إلى

التهويل بالألفاظ والأساليب المنمقة ، فإنه هو لم يبلغ إلى شيء من هذا الذي قد يحاول به البعض أن يستروا ما في علمهم من فجوات .

لقد أشار العالم الألماني ك . ه . بـ كـ ر - في كلامه (١) عن فلهوزن - إلى هذا الذي ذكرناه ، وزاد على هذا بأن عقد مقارنة قصيرة بين فلهوزن في كتابه عن الدولة العربية (الدولة الأموية) ، وبين الراهب اليسوعي ه . لامانس في كتاباته عن العصر الأموي ، ولاحظ بحق أن لامانس رغم حداثة قد فشل فيما نجح فيه فلهوزن : فكتابات لامانس أشبه شيء بمجموعات من « القششات » ، أما كتاب فلهوزن فهو بناء ضخم ، ولامانس يلوّن شخصياته التي تكلم عنها جزءاً جزءاً ، لكنه يقع على اللون غير الصحيح ، أما فلهوزن فهو يزهد في جمع القطع الملونة الأخاذة ، وكأنما ينمحت شخصياته من الحجر الأصيل .

والحق أن فلهوزن في كتابه الذي تقدمه اليوم لقراء العربية ، قد جمع بين الجهد العلمي والعمق والعدالة ، إذا قورن بغيره ، وهو كما لاحظ بـ كـ ر ، قد جمع بين روح العالم وموضوعيته ، وبين روح الفنان وذاتيته . وهو يقرأ المراجع ويستوعبها استيعاباً تاماً ، ويدرك جملتها بحس عميق ، وهو من أبرع من عرفت في الاختصار الذي يلم بجوهر الموضوع ، وهو يكتب مستوحياً حلسه الكلي وسط المادة التي جمعها ، وهو بارع أيضاً في تصوير الأشخاص تصويراً دقيقاً لا يخلو من طرافة .

كان فلهوزن طويل النفس في بحثه ، يسر بيانه للحوادث كما يسر النهر الكبير ، وأنت تحس تمام الإحساس ، وهو يأخذك معه أخذاً قوياً ، أنه حين يصل إلى نهاية النقطة التي يعالجها ، لا يكون قد بقي شيء تشعر أنه غير موجود ، وهذا صحيح ، سواء فيما يتعلق بوصف الحوادث أو بتصوير الأشخاص .

المترجم

محمد عبد الهادي أبو ريدة

(١) في الجزء الثاني من كتابه Islamstudien ، ص ٧٤ فا بعدها .

كلمة المترجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه
إلى يوم الدين - وبعد :

فهذا كتاب في تاريخ دولة العرب ، من لدن ظهور الإسلام إلى سقوط
أسرة بني أمية وقيام أسرة بني العباس في المشرق ، فهو يشمل ما يقرب من
قرن ونصف من تاريخ العرب ، وهذه هي فترة مجدهم الخالد ، وفترة
التجربة الكبرى في تاريخهم .

يبيّن المؤلف في هذه الفترة كيف قامت دولة العرب العالمية على أساس
الدين وقوة الإيمان به ، وعلى أساس قوة الجنس العربي وخصائصه وصفاته ،
وكيف خالف سياسة العرب تلك المبادئ الاجتماعية والتنظيمية التي جاء بها
الإسلام ، خصوصاً مبدأ المساواة بين المسلمين ، وكيف لم يستطيعوا التخلص
من سلطان الانقسام القبلي والعصبية والقبلية ، فتنازعوا ، ثم خرج منهم قوم
على دولتهم ، واغتنم أعداؤهم الفرصة فضربوا بعضهم ببعض ، وأسقطوا
تلك الدولة العتيدة التي كان يمتد سلطانها من داخل أرض الصين في المشرق ،
إلى الجنوب الغربي من فرنسا في المغرب .

على أنه رغم سقوط هذه الدولة لأسباب كثيرة بعضها ما ذكرناه فإن
عهداها كان عهد تجربة تاريخية كاملة :

في تلك الفترة ظهر العرب بوصفهم أمة ، عماداً لدولة عالمية من الناحية الحربية

(ح)

والإدارية ، واستطاعوا بفضل شجاعتهم النادرة ، وبطولتهم الفائقة ، وتضحياتهم الهائلة في ميادين القتال المترامية ، أن يفتحوا الدنيا وأن يقهروا الأمم واستطاعوا بفضل مواهبهم الممتازة وهدى دينهم القويم ، أن يؤسسوا إمبراطورية عالمية تكونت لها شخصيتها المتميزة ، ونظامها السياسى والإدارى والاقتصادى ، وتحقق ذلك كله على يد خلفاء سياسيين ، وقادة عسكريين ، وحكام إداريين جديرين جميعاً بأن يدخلوا فى التاريخ العالمى ، ويتبوؤوا أرفع مكان فيه ، وفى هذه الفترة نشر العرب دينهم وأسسوا الحواضر التى صارت حواضر الحياة الفكرية والدينية ، دون أن يحاولوا القضاء على دين أو استئصال أمة .

فى هذه الفترة نجد التجربة كاملة فيما يتعلق بجميع مظاهر حياة الدولة : كيف تنشأ وتقوى على أساس مبادئ إن خالفها لم تستطع البقاء ، وكيف تضطر اضطراراً إلى الخضوع للمقتضيات التى لا بد من مراعاتها إذا أرادت المحافظة على قوتها ، وكيف تقع الفتن والثورات والحروب الداخلية بسبب قوة العناصر وضرورة الصراع بينها ، وكيف يكون النجاح والفشل ، ويظهر الشر والنقص ، وتتجلى الخصال العالية ، وتبين الأبصار السليمة كوامن الأخطار المؤدية إلى الانهيار ، فلا يمكن تفاديها ، وتنفذ القوانين التى تحكم حياة الدول . . . وهكذا .

لا شك فى أن الكفاح من مظاهر الحياة على هذه الأرض بإطلاق معنى الحياة ، وهو ظاهرة جوهرية فى الحياة البشرية وحياة الإمبراطوريات الكبرى ، وهو فى الإمبراطورية العربية الأولى ، قد كان بين الفكرة العليا وواقع الحياة الناقصة ، بين فكرة الدولة الدينية وواقع الدولة الدنيوية ، بين النزعات والمشاعر الخاصة وسلطة الدولة ، بين المصالح والاعتبارات القبلية أو الفردية ومقتضيات الواجبات العامة والاجتماعية ، بين القومية العربية والقوميات غير العربية التى اشتملت عليها الإمبراطورية . فلا غرابة أن يشتمل تاريخ الإمبراطورية العربية

(ط)

على كثير من ضروب الفتن والمنازعات والثورات ، ومن ضروب الصراع
الفردى والقبلى والإقليمى وصراع الأجناس والقوميات ؛

ولكن كان لدولة العرب أعداء حاولوا الكيد لها من أول الأمر ،
وتلبسوا لذلك بكل صورة ، واغتنموا له كل فرصة سانحة . وأشنع ما فى
الأمر أنهم استغلوا المواقف التى ما كانت تحتاج إلا إلى الإصلاح ، فجعلوها
سبيلاً للثورة وسفك الدماء . واستغلوا الروح القبلية وما يترتب عليها من
إحساسات ، فجعلوا منها وسيلة لتفريق كلمة العرب وصدع وحدتهم ،
حتى تعذر عليهم الاتحاد ، وأظهروا العطف على من حسبوا أنفسهم
مظلومين ، فانضووا تحت لوائهم بغية ضرب عناصر الدولة بعضها ببعض .
وكانت هذه بالإجمال هى الصورة التى عليها سقطت إمبراطورية العرب
الأولى ممثلة فى دولة بنى أمية فى المشرق الإسلامى ، وقامت على أنقاض
مجدها السياسى والحربى العظيم دولة بنى العباس ، غير معتمدة بالعرب ، بل
يجند من الأعاجم صاروا مع مرور الأيام عماد الدولة ، وأصبح الأمر فيها
وفى الخلفاء أنفسهم .

لا شك أن فى دراسة التاريخ وتأمله عظة وعبرة ، والعظة من تأمل
تاريخ دولة بنى أمية يجب أن تكون كاملة وبالغة ، لأن التجربة أو المحنة
التي مرت بها هذه الدولة كانت كاملة أيضاً .

إن العرب أمة ، أراد الله لهم أن يكونوا وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ،
وهم أيضاً أمة ، قد وضعت على كاهلهم رسالة ، هى رسالة الإيمان بالله الحق
وبكرامة الإنسان الذى كرمه الله ، واستخلفه فى الأرض ليعمرها بالحق والعدل
والخير والرحمة . وهم لكى ينهضوا بهذه الرسالة ، لابد لهم من أن يحافظوا على
كيانهم وقوتهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا الاعتصام بحبل الاتحاد والتعاون على
البر والتقوى ، لا على الإنم والعدوان . والسبب فى ضرورة هذا الاتحاد أن رسالة
العرب لم ترق من أول الأمر - ولا تروق حتى اليوم - لكثيرين من الخلق ممن

يكبره العدل والحق ، فعادوا العرب من حيث هم أمة ، ومن حيث هم دولة ، ودأبوا على محاولة كسر شوكتهم بتفريق كلمتهم وإشغال نار الفتنة بينهم . وإذا كان أحد أصحاب النظر الصائب البعيد والإحساس العربي العميق^(١) ، في أواخر أيام بني أمية ، لما تكشف الخطر الداهم من جانب أعداء العرب ، وأفلح هؤلاء في صدع بناء الوحدة العربية ، قد قال هذه الأبيات :

أبلغ ربيعة في مرو ولاخوتها	أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ما بالكم تُلقيحون الحرب بينكم	كأن أهل الحجى عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلمكم	من تأشب لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم	ولا صميم الموالى ، إن هم نُسبوا
قومٌ يدينون ديناً ما سمعتُ به	عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فن يكن سائلي عن أصل دينهم	فإن ديتهم أن تُقتل العرب

فإن فكرة هذه الأبيات ستظل - ولا بد أن تظل - أمام عقل العرب وأمام أبصارهم ، ما داموا يريدون المحافظة على كيانهم كأمة ، وما داموا يحرصون على تحقيق رسالتهم في التاريخ ، وسط الصراع بين الأجم ونظم الحياة والمثل العليا الروحية والإنسانية التي يتمسك بها الناس ، وما على العرب إلا الأخذ بأسباب الإصلاح الذي يجعلهم منطقيين مع أنفسهم ، وعلى وفاق مع أساس شأنهم التاريخي ، ومع طبيعتهم وخصالهم وفضائلهم ومشاكلهم العليا المميزة لهم .

* * *

إن هذا الكتاب ، الذي يبين لنا كل ما تقدم ، هو من تأليف عالم أوروبي . جليل اعتمد كل الاعتماد على المراجع العربية ، وهو في بيانه للمسائل قد تابع هذه المراجع متابعة دقيقة ، ونقل نصوصاً طويلة أو قصيرة ولخصها ، وفي بعض الأحيان

(١) هو نصر بن سيار حاكم خراسان من قبل بني أمية .

(ك)

فهم النصوص فهماً إجمالياً ، محيطاً بجوهر الموضوع ، ثم عبر بعبارة ألمانية موجزة وبحسب طريقة الألمان في التصور والتعبير ، وقد ينجل للقارئ أحياناً أن تفكيره شخصي ، لكنه في الحقيقة يتضمن المعنى العربي ؛ ولذلك لم يكن بدُّه عند الترجمة من الرجوع إلى المصادر العربية في كل شيء ، ومن إعادة الكلام إلى وضعه الأصلي المباشر ، ومن اختيار العبارة في ضوء النصوص الأصلية . وكل ترجمة لهذا الكتاب لا تتابع النصوص أو لا تستنطقها وتستوحيها — كما فعل المؤلف نفسه في بيانه للمسائل — لا يمكن أن تعبر عن الحقيقة والواقع التعبير الصحيح ، بل ربما أدت إلى تحريف أو خطأ أو كانت غير مفهومة أصلاً .

وأيضاً قد عمد المؤلف في بعض المواضع من كلامه إلى الإيجاز الشديد ، وأغلب الظن أنه فعل ذلك مراعاة للقارئ غير العربي الذي قد لا يحتاج في بعض الأحيان إلى التفصيل ولا إلى تصور الموقف كله ، أو هو قد لا يسهل عليه تصوره ، ومن أجل هذا كان لابد للمترجم في مواضع معينة ، ومن مراعاة القارئ العربي بذكر الشيء مفصلاً بالقدر الذي لابد منه ، لكي تتكون في ذهنه الصورة الكاملة الواضحة للحوادث والمواقف والأشياء ، وهذه الطريقة التي جريت عليها هنا ، هي الطريقة التي جريت عليها من قبل ، في ترجمة كتاب العلامة الأوروبي آدم منز عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، والتي أعتقد أنها عادت على القراء والباحثين بمعظم الفائدة . وقد أشرت في العادة إلى التفصيل الذي قُت به ، لا من عندي ، بل معتمداً على النصوص التي أشار إليها المؤلف وأخذ منها كلامه المحمل الذي قدمه للقارئ غير العربي ؛ ومن غير هذا التفصيل قد لا يكون الكلام مفهوماً . وإذا كان هناك من قد يخطر له أن يقابل بين الترجمة والأصل الألماني ، فإنه في بعض المواضع سيجد الزيادة من نقطة معينة ، وما عليه إلا أن يعضي قليلاً ليتصل كلام المؤلف بعد التفصيل .

(ل)

وأسلوب فلهوزن في لغته الألمانية أسلوب علمي ، وإن كان ليس غير
رشيق في نظري . وإني لأعترف أنه قد جاء ملائماً لما أحبه من التعبير العلمي
الذي لا يصل على كل حال إلى الجفاف : وهو أيضاً أسلوب صعب بعض
الشيء بسبب علميته وإحكامه وتركيزه . ولم يكن بدّ في بعض الأحيان من
ترجمة المعنى ترجمة دقيقة وافية بالغرض ، دون تعنت في التمسك بالترجمة
اللفظية ، وخصوصاً إذا كانت الألفاظ العربية المؤدية للمصطلحات الألمانية ،
لم تنوطن بعد في أذهان غالبية القراء العرب ، لأنها لم تنوطن بعد كمصطلحات
في اللغة العربية .

لكنّ هنا شيء أحب أن أنبه عليه : قد يلاحظ بعض القراء العرب
غرابة في بعض الألفاظ أو العبارات أو صيغ التفكير والتعبير ، فليعلم القارئ
أن بعض ذلك يرجع إلى النصوص العربية ، التي كانت أساساً اعتمد عليه كل
من المؤلف والمترجم — ولم أشأ أن أبعد بالقارئ عن الجو الذي لا بد له عند
المزيد من البحث والتحقيق من الرجوع إليه ؛ أما بعضه الآخر فهو تجديد
في التصوير والتعبير دعت إليه ضرورة الترجمة الدقيقة ، وهو ليس عجزاً
عن الأخذ بالأسلوب العادي المؤلف .

وأيضاً إذا كان القارئ في مواضع قليلة ، قد لا يتحرر أمامه وجه
الكلام بسهولة ، فذلك مقصود من جانبي ، لكي تسمح العبارة العربية بما تسمح
به العبارة الألمانية من احتمالات المعنى ، لأن المؤلف قد انتقل إلى جوار ربه ،
وهو وحده القادر على تحديد معنى كلامه التحديد الدقيق ، فلم يكن بدّ من
تفادي تصوير فكرته على وجه قد لا يكون صحيحاً .

ولقد كانت الترجمة تقتضي الاجتهاد في الاطلاع على جميع النصوص
التي رجع إليها المؤلف : وقد عزّ على أن يضع كل هذا الجهد سدى ،
فذكرت النصوص حيث يحتاج إليها القارئ سنداً لكلام المؤلف ،
وذكرتها أحياناً مكررة بغية توضيح الفكرة أو تفصيلها أو إصلاحها ،

(م)

وأشرت إلى مواضع في المراجع لم يذكرها المؤلف ، وإن كان قد رجع إليها^(١) .
وقد أردت بذلك إرضاء حاجة القارئ الباحث ، وتوفير كثير من العناء
الذى كان لا بد أن يحتمله ، إذا أراد البحث عن النصوص ، كما أردت
أيضاً تشويق القارئ لمواصلة الاستفادة من النصوص في دراسات أخرى .
وبما دعاني إلى ذكر النصوص أيضاً رغبتى في تأكيد سلامة الترجمة أمام من
قد يعترض عليها .

وفى أثناء هذا كله صححت كثيراً من الأخطاء دون الإشارة إلى ذلك
تجنباً للفصول وتطويل الكلام ، وقد ذكرت أسماء الأعلام كاملة أو أكمل
سما ذكرها المؤلف على كل حال .

* * *

ومؤلف الكتاب مفكر متحرر ، لكنه يسرف في تحرره أحياناً ، كما
يسرف أحياناً أخرى في تطبيق تصوره الشخصى ، فلم يكن بد من التنبيه على
ذلك ، ومن الرد على بعض كلامه المجانب للحق . فعلقت على ما رأيت أن
لحقاق الحق يدعو إلى التعليق عليه ، لكن دون أن أسرف أو أبالغ في ذلك ،
تاركاً للقارئ أيضاً نصيبه من النقد والتعليق .

وكذلك أحسست بعد الاطلاع على النصوص بحاجة ملحة إلى تعليق يشبه
التعليق التاريخى ، وإن كان إنما يمس بعض الأحكام المتعلقة بالوقائع
أو الأشخاص . وكان هذا التعليق فى الغالب تحليلاً للموقف أو بياناً لعناصر
الحكم الأقرب للصواب ، وكان بعضه إكمالاً وتفصيلاً للموضوع لا بد منه للقارئ

(١) على أنه رغم الاجتهاد البالغ فى البحث عن النصوص بقيت مواضع قليلة جداً أشار
إليها المؤلف فجاءت الإشارة خطأ فى أغلب الظن ، فلم أهتد إليها .

العربي ، أو تصحيحاً لا بد منه طبقاً للنصوص : وإنما أردت بهذا مساعدة القارئ على إدراك الموقف التاريخي أو لاتجاه التاريخي .

* * *

لقد تم طبع هذا الكتاب منذ أكثر من عام ، لكن سفرى للخارج إلى جانب ضرورة إعادة طبع شطر كبير منه ، حال دون ظهوره قبل اليوم .

وهذه الترجمة العربية أصح وأدق وأصدق تعبيراً عن الموضوع من الترجمة الإنجليزية ، لأنني استطعت مراجعة الأصول العربية ، وهو ما لم يكن أمراً سهلاً على صاحبة الترجمة الإنجليزية رغم جهدها المشكور .

وتفترق ترجمتي أيضاً عن ترجمة الزميل الأستاذ الدكتور يوسف العشري التي ظهرت في سوريا . ولا شك أن أسلوب كل كاتب أمر شخصي لا معنى للمشاحة فيه . وقد تم طبع ترجمتي قبل ظهور ترجمته ، ولكنني وجدت عند المقارنة كثيراً من الخلاف الذي ليس لفظياً في الغالب . على أن الزميل الفاضل قد ترجم عن الإنجليزية ، وهو وإن كان يراجع النصوص فقد كان أمام عقبة لم تكن أمامي ، ولا سبيل إلى معرفة حقيقة كلام المؤلف إلا بالرجوع إلى الأصل الألماني في ضوء النصوص العربية .

* * *

بين المؤلف كيف سقطت دولة العرب الأولى - وهي الدولة الأموية في رأيه - بسبب الصراع الداخلي والنزاع والقتال بين العرب ، وكيف كان أعداؤها - وهم الأعاجم - قد دأبوا من قبل على تأليب الشعوب على بني أمية ، بدعوى أنهم محادوا عن مبادئ المساواة التي جاء بها الإسلام بين معتقيه ، ففرقوا بين العرب والأعاجم ، وميزوا الأولين على الآخرين ، ثم جاءت مطامع العباسيين فاستغلها الأعاجم ، وشقوا صفوف العرب بأن اجتذبوا قوماً منهم إلى اعتناق قضية .

المظالمين : وسقطت دولة بني أمية التي كانت تعتمد على العرب والعروبة ، وقامت دولة بني العباس التي اعتمدت على الأعاجم من الفرس وغيرهم ، على أساس مبدأ المساواة الإسلامي . ويرى المؤلف بناء على هذا ، أن دولة العرب بإطلاق المعنى قد سقطت وانتهت بانتهاء حكم بني أمية ، وهو لذلك عنون كتابه هكذا : « الإمبراطورية العربية وسقوطها » : ومعنى هذا أن دولة بني العباس ليست دولة عربية بل إسلامية فحسب ، لكن في هذا تساهلاً كبيراً ، لأن العباسيين كانوا عرباً ولأن الأمويين كانوا مسلمين ، هذا إلى أن دولة بني أمية قامت في الأندلس والمغرب من جديد ، ولم يزل للعرب منذ ظهور الإسلام دولة موحدة أو دولة متفرقة . ورغم أن القيادة الحكومية ، العسكرية والإدارية ، في الدولة الإسلامية قد آلت إلى أجناس غير عربية ، كالترك على تنوعهم ، فإن العرب بوصفهم أمة لم يخففوا ، وظهروا كدول بمجرد تصدع الإطار الخارجى الظاهري للأجناس الأخرى . وكانت قوة الدولة - أو الدول - العربية ، على قديم الأيام وحديثها تستند إلى دعامتين أساسيتين : الإسلام كعقيدة ونظام في الحياة ، وللعروبة العرقية الحضارية بالنسبة للعرب الخالص أو العروبة اللغوية والحضارية بالنسبة للأجناس التي استعربت . وقد امتزج العرب بغير العرب على مر الزمان امتزاجاً كبيراً ، مما جعل للعروبة بمعناها التاريخي والحضاري ، بل والإنسان والسياسي ، معنى خاصاً لا ندخل فيه هنا :

ونظراً لأن تعريب العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه تعريباً حرفياً ، يؤدي إلى اللبس ولا يتفق مع الواقع ، فلم يكن بد من اختيار ترجمة للعنوان بحسب الموضوع المحدد الذي اختاره المؤلف ، وهو : تاريخ الدولة العربية ، من ظهور الإسلام إلى سقوط أسرة بني أمية وقيام دولة بني العباس في المشرق الإسلامي ، وهذا ما راعيته من حيث المبدأ ، في ترجمة عنوان كتاب « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » ، فقد كان عنوانه بحسب الترجمة

(ع)

الحرفية هو : « نهضة الإسلام » والمقصود هو العصر الذى يقابل من ناحية الحضارة والتنظيم عند المسلمين ، عصر نشأة الدول الأوروبية الحديثة أيام حركة إحياء العلوم والنظم القديمة .

ومن أجل هذا كله وبعد تفكير طويل ، اخترت للكتاب عنوان « الدولة العربية ، تاريخها من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية » ، وجعلت العنوان الألمانى وترجمته الحرفية فى ظهر الغلاف .

* * *

قرأتُ هذا الكتاب القيم فى لغته الأصلية ، أيام دراستى فى جامعة بازل بسويسره واستمعى إلى محاضرات أستاذى المحبوب الدكتور رودولف تشودى عن تاريخ العرب والأمم الإسلامية . وقد أعجبت بالكتاب فى تلك الأيام لأنه أكثر من كتاب تاريخ بالمعنى العادى ، فهو قد جمع بين روح العلم والفن والفلسفة وبين العناية بحقائق التاريخ ووقائعه عناية موضوعية وتصوير الأشخاص والمواقف والأحداث تصويراً فنياً رائعاً ، وبيان القوانين المتنوعة والعوامل التى تحكم ظهور الأحداث وتطورها من وجهة نظر كلية ، مع استقصاء العلل والأسباب وبيان النتائج التى تلزم عنها ، ومع الاهتمام البالغ بوضع المشكلات وتحديددها ، مما هو جدير بأن يجعل كتابه تاريخاً بالمعنى العلمى ، دون أن تعوزه صبغة فلسفية من بعض الوجوه ، ومع أن اهتمام المؤلف كان متجهاً خصوصاً إلى الناحية السياسية ، فإنه لم يهمل الناحية الاقتصادية والإنسانية الاجتماعية .

ولذلك فإنه لما عرضت على إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ترجمة هذا الكتاب ، قبلت المهمة على ما فيها من مشقة ، وكان مما رغبتى فى إحتمالها ، قلة من يجمع بين معرفة اللغة الألمانية ، والصبر على متابعة المؤلفين الأوروبيين فى انتفاعهم بالمراجع العربية .

(ف)

وقد راجع الترجمة زميلي الأستاذ الدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة ، ومع ذلك فإنى أعتبر أنى المسئول الأول عن الترجمة ، وأنا المسئول الوحيد عن التعليقات لأنها من عملى وحدى .

وفما يتعلق بترجمة ما فى الكتاب من نصوص يونانية ولاتينية ، استعنت بعالمين مختصين هما : السيد الدكتور هـ . فون دن شتتين ، بقسم الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، والسيد الدكتور أمين سلامة . صاحب الخبرة الجيدة باللغتين القديمتين . وقد جمعت بين الاستفادة من خبرة هذين العالمين توخياً لليقين ، ومع ذلك فإنى إلى جانب الترجمة ، قد ذكرت النصوص بلغتها الأصلية ، لكى يرى فيها من يعرف اللغات القديمة ما يشاء .

وأيضاً فيما يتعلق بالنقط الملتبسة أو الصعبة من ناحية اللغة ، رجعت إلى الأستاذ فون دن شتين وإلى أستاذنا الفاضل العلامة المتواضع الدكتور روبرت ران ، المستشار الثقافى بالسفارة السويسرية بالقاهرة .

فأحب أن أعبر عن شكرى العميق لهؤلاء العلماء جميعاً ، لصدق معاونتهم ، وحسن إرشادهم ، وتضحياتهم بوقتهم الثمين .

وقد قرأ الكتاب بعد تمام طبعه زميلي الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، فلاحظ ملاحظات قيمة ستكون موضع الاهتمام ، فله الشكر الجزيل .

هذا وقد اشترك معى أخى الأستاذ عبد الفتاح أبوريدة فى تصحيح شطر من تجارب الطبع ، وفى إعداد مادة الفهارس المتنوعة التى زودت بها الكتاب ، فله التقدير والشكر .

وأخيراً أحب أن أشير إلى المؤلف طويل النفس ، قسم كتابه إلى أقسام رئيسية لها عناوينها ، ثم قسم كل قسم إلى أجزاء أعطاها أرقاماً ، وتكاد تكون

(ص)

الحمل الأولى من كل جزء مشتملة على عنوانه وموضوعه . ولما كان الكتاب مرجعاً للبحث ، لا كتاباً دراسياً بالمعنى الخاص ، فقد تركت تقسيم المؤلف كما هو ، ولم أتدخل بينه وبين الباحث والقارئ بإضافة عناوين تفصيلية ، وإن كان ذلك قد خطر لى . وإنما أردت أن أترك الباحث والقارئ يسير كلاهما مع المؤلف ويأخذ من كلامه ما يشاء فى الموضوع التفصيلى الذى يعنيه ، وهذا ما جريت عليه أيضاً فى كتب ترجمتها من قبل . والمهم أن الكتاب فى ترجمته العربية مزود بفهارس مفضلة كافية .

أما المراجع العربية التى رجع إليها المؤلف واعتمدت عليها فهى بحسب الطبقات الأوروبية .

لقد بذلت جهدى فى ترجمة الكتاب والتعليق عليه والإشراف على طبعه ، ولكن نظراً لكثرة أسماء الأشخاص والأشياء وتشابهها ، ولضرورة الاستعانة بالإملاء فى « تبييض » هذا الكتاب الطويل ، فقد وقعت أخطاء قليلة استدركتها فى آخر الكتاب^(١) . وإنى أبعد ما أكون عن أن أدعى لنفسى كمالات أو عصمة من الزلل ، فكل جهد إنسانى دون الكمال ، والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى . والله أسأل أن يحقق بعملى النفع ، ويحسن به العظة ، ويجعله خالصاً لوجهه ، وهو ولى التوفيق .

المرجم

محمد عبد الرهادى أبو ريرة

بنغازى فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٧٧ هـ
٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م

(١) صححت الأخطاء فى الطبعة الثانية هذه .

كلمة تمهيدية

إن الروايات القديمة المتعلقة بعصر بني أمية توجد حتى اليوم على أوثق ما تكون عليه عند الطبري ، لأنها لم تختلط ولم تذناولها يد التوفيق والتدقيق ، وهي في القسم الجيد من كتابه ، أعني الجزء الذي ظهر منذ ما يقرب من عشرين عاماً في السلسلة الثانية من طبعة ليدن . والطبري قد حفظ لنا خصوصاً قطعاً كبيرة جداً من روايات أبي مخنف ، الراوية المحقق ، فحفظ لنا بذلك أقدم وأحسن ما كتبه ثائر عربي نعرفه . وكان أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف من أزد الكوفة ، وبدل نسبه الطويل على أنه كان ، من حيث نسب أبيه ، من أصل نابه . والأغلب أن مخنف بن سُلَيم ، رئيس الأزد في موقعة صفين ، كان جدّه ، وأن محمداً وعبد الرحمن ابني مخنف كانا أخوين لجدّه ، ونحن لا نعلم متى ولد أبو مخنف ، ولكنه لما قامت ثورة ابن الأشعث في سنة ٨٢ هـ كان في سنّ الرجال ، وكان صديقاً لمحمد بن السائب الكلبي (الطبري ج ٢ ص ١٠٧٥ و ١٠٩٦) . ويرجع لابن الكلبي المشهور ، وهو ابن محمد بن السائب ، الفضل الأكبر في حفظ كتب أبي مخنف وروايتها وتوريثها للأجيال . والطبري في العادة يذكر روايات أبي مخنف بحسب رواية ابن الكلبي لها . وقد عاش أبو مخنف حتى شهد سقوط خلافة بني أمية في دمشق ، وآخر الروايات المأثورة عنه تتعلق بحوادث سنة ١٣٢ هـ .

على أن أبا مخنف يذكر في بعض الأحيان رواة آخرين أقدم منه أو معاصرين له ويعتمد على رواياتهم ؛ مثل عامر الشعبي وأبي الخارق الراسبي ومجالد بن سعيد ومحمد بن السائب الكلبي ؛ أما في الأغلب فإنه لم يأخذ ما رواه عن أقرانه من الرواة المتقدمين ، بل هو جمع رواياته من سماعه لها بنفسه ومن

السؤال عنها في مختلف مظانها وعند كل من استقها من مصادرها أو حضرها بنفسه من الناس ، وعلى هذا فإن الإسناد الذى تقوم عليه رواياته كان لا يزال عنده شيئاً حقيقياً ، ولم يكن مجرد صيغة أدبية ؛ وسلسلة الرواة الذين يذكرهم هى دائماً قصيرة جداً ، وهى أخيراً تنكمش انكماشاً تاماً ، نظراً إلى أن المسافة التى تفصل بينه وبين الأحداث التاريخية التى روى أخبارها كانت لا تزال تقصر شيئاً فشيئاً ، هذا إلى أن سلسلة الرواة تتنوع بحسب اختلاف الأحداث وتنوع الروايات الخاصة بها ، بحيث نجد أمامنا طائفة كبيرة جداً من أسماء رواة نجهلهم جهلاً تاماً . وهؤلاء الرواة الذين شهدوا الحوادث لا يدركون ما يروونه إدراكاً كلياً شاملاً ، بل هم يذكرون أقل الحوادث شأناً ولا يغفلون عند وصف الحادثة ذكر الأسماء المتصلة بها ، وهم يجعلون الأشخاص فى أفعالهم وأقوالهم فى المحل الأول ، كما أنهم لا يزالون فى مختلف الروايات يذكرون الشيء نفسه من غير اختلاف إلا فى أشياء قليلة الشأن . ومن أجل ذلك صار التقدم فى الرواية بطيئاً جداً ، ولكن وفرة التفاصيل من شأنها أن تعوض هذا العيب الذى فى الرواية . وإلى جانب ذلك حفظ لنا الأثر المباشر الذى أوجدته الحوادث فى النفوس وكذلك أول ما قيل عنها . ثم تبيىء الصيغة الشعبية للرواية فتزيد فى حيويتها . وكل الروايات تذكر فى صورة حديث بين الأشخاص الذين كانت تدور حولهم الحوادث ، وكل الروايات وصفٌ لمسرح هذه الحوادث . وقد ذكرت أمثلة تبين ذلك فى بحث لى عن الخوارج والشيعة (بمدينة Göttingen سنة ١٩٠١) خصوصاً ص ١٩ و ٦١ فما بعدها (١) .

وقد قال مومسين (Mommsen) مرة إنه لا حاجة حتى بالنسبة لغير العلماء

(١) [يشير المؤلف إلى بحث يجد القارئ عنوانه الكامل بعد قليل فيما يلى . والمواضع التى يحيل القارئ إليها فى أثناء كلامه عن الخوارج والشيعة هى فى البحث نفسه - المترجم] .

(ش)

إلى إثبات أن روايات الأحداث إذا أخذها الراوية عن الأشخاص الذين
اشتركوا فيها ، هي في العادة روايات غير صحيحة ، ولكن ينبغي للإنسان
أن يتمنى ألا يسرف غير العلماء في استعمال العقل السليم . ولو أن أبا مخنف
لم يكتب لخسر التاريخ خسارة كبيرة ، وكيف كان يمكنه أن يسلك فيما
كتب طريقاً غير الذي سلكه ؟ فلم تقدم له المصادر المكتوبة مادة كبيرة
يستطيع أن يعتمد عليها ، وهو قد انتفع بها ما كانت في متناول يده ، ولكن
من غير أن يجتهد في البحث عنها وفي جعلها أساساً على نحو منظم ، وأكثر
ما يرويه في معرض ذكر الشواهد التي تؤيد رواياته قصائد وأبيات من
شعر الشعراء ، وأهم ما صنع من حيث تقدير قيمة الروايات هو أنه جمع
طائفة كبيرة من روايات متنوعة ومن أخبار عن الشيء الواحد مختلفة في
مصادرها ، بحيث يستطيع الإنسان أن يوازن بينها ويعرف الصحيح المؤكد
منها من غيره . وأبو مخنف قد توصل بذلك إلى أن صارت الأشياء الثانوية
تتوارى ، لأنها لا تظهر إلا مرة واحدة ، كما صارت الأشياء الأساسية
لا تزال تزداد بروزاً ، لأنها تتكرر في جميع الروايات ، وهو يرتب
الروايات المختلفة التي تتناول الشيء الواحد ترتيباً ملائماً بحيث لا يزال
ما بينها من ارتباط يزداد وضوحاً . على أنه في مثل هذا الجمع للروايات لا يمكن
تفادي شيء من التخير لها والتوفيق بينها ، ولا يظهر هناك تناقض في النقط
الجوهرية ، والروايات تتضافر حتى يخرج منها إجماع على ما فيها . والصورة
الإجمالية التي تتكون عند الإنسان ثابتة متسقة ، وليس هذا فيما يتعلق بالوقائع
فحسب بل فيما يتعلق بالأشخاص أيضاً . ورغم ما في مادة الروايات المختلفة من
غموض واضطراب بادي بين فإنه ترفرف فوقها خطة المؤلف والفكرة الإجمالية التي
كوّنها لنفسه . ومع ذلك فإن أبا مخنف لا يتناول برواياته فترة كبيرة من الزمان
وهو لا يربط بين أجزائها ربطاً يراعى الوقائع كما هي ويراعى ترتيبها التاريخي ،

(ت)

وبعوزه ترتيب الحوادث ترتيباً تاريخياً مُطَّرداً ، فهو لا يذكر إلا تواريخ متفرقة ، وفي كثير من الأحيان لا يذكر إلا اليوم الذي وقعت فيه الحوادث بين أيام الأسبوع من غير ذكر الشهر والسنة ؛ فهو لا ينظم الحوادث في خيط يصل بينها ، بل يصف كل حادث على حده مستقلاً عما عداه ، ويسهب في ذلك أكبر الإسهاب من غير أن يهتم بالاختصار على ما هو جوهري ، ويذكر ابن النديم صاحب كتاب الفهرست لأبي مخنف اثنين وعشرين كتاباً بعنوانها .

ومما يتميز به أبو مخنف أن رواياته لا تبتدئ بصدر الإسلام ، بل هي لا تبدأ إلا بعصر الفتوحات ، وأنه يخبرنا في الأغلب عن فترة كان هو نفسه يعيش فيها ، وهي تبدأ بموقعة صفين . ويرجع إلى ذلك أن اهتمامه اقتصر على المكان الذي كان يعيش هو فيه ، أعنى على العراق وعاصمته الكوفة . أما فيما عدا هذه الفترة المحددة وهذا المكان المحدد فليس عنده علم صحيح يختص به . ونظراً إلى أن الكوفة والعراق كانت مقر الحزب المعارض لحكومة الدولة فإن أبا مخنف يتكلم خصوصاً عن ذلك ، والموضوعات التي يتناولها بتفصيل وشغف خاص هي ثورات الخوارج والشيعة ، التي كان على رأسها المستورد بن علفة التيمي وشيب بن يزيد وحجر بن عدى والحسين ابن علي وسليمان بن صرد والختار الثقفي ، وثورة أهل العراق بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث . فأبو مخنف يمثل الروايات العراقية ، وهواه في جانب أهل العراق على أهل الشام وفي جانب علي بن أبي أمية ، ومع ذلك فإن الإنسان لا يلاحظ عند أبي مخنف شيئاً من الإغراض يستحق الذكر أو هو على الأقل لا يلاحظ لإغراضاً من شأنه تزييف الوقائع تزييفاً إيجابياً . وكل ما يمكن أن يقال هو أن أبا مخنف ، فيما يظهر ، قد أغفل في بعض الأحيان شيئاً مما لا يعجبه كما غفاله مثلاً أن عقيل بن أبي طالب كان في موقعة صفين يحارب في صفوف أعداء أخيه علي بن أبي طالب .

(ث)

وقد اعتمدتُ على أبي مخنف خاصة في بحثي الذي كتبته عن أحزاب المعارضة الدينية - السياسية في صدر الإسلام^(١). أما في تاريخ الدولة العربية الذي هو موضوع هذا الكتاب فلإن أبا مخنف لا يقدم المادة العزيرة التي يستطيع المؤرخ أن يستفيد منها ، وليست الروايات الكوفية هنا هي أحسن مرجع ، بل أصدق مرجع هو للروايات المدنية ، فهي أهم الروايات القديمة ، وهي من حيث أصولها أقدم من الروايات الكوفية ، غير أن أصحابها الذين وصلت إلينا عنهم روايات كافية أحدث عهداً من أبي مخنف ، وهم لم ينبغي إلا في العصر الذي بدأت فيه حركة التأليف تنتقل من المدينة إلى بغداد . وأهم حملة هذه الروايات المدنية هم خصوصاً ابن إسحاق ، وهو مولى ، وأبو معشر ، وهو مولى أيضاً ، والواقدي ؛ وهم لم يكونوا يجمعون مادة الروايات من مصادرها الأصلية ، كما فعل الرواة قبلهم ، بل إنما وصلت إليهم الروايات من حفظ رواية العلماء لها ، وهؤلاء نظروا فيها ونخلوها وكتبوها من جديد ومزجوا بينها ؛ ولكنهم ، خصوصاً ، ربطوا بينها ربطاً أوسع وأدق مما كان قبلهم ، وهم في الوقت نفسه رتبوها ترتيباً زمنياً مطّرداً ، بحيث خرج على أيديهم من الروايات المفككة لأخبار الأحداث الكبرى المتفرقة تاريخاً متصل . ويمكن أن يُعتبر ابن إسحاق مؤسس هذا التاريخ ، وهو يتميز ، هو ومن جاء بعده ، بكتابة التاريخ في صورة ذكر الأحداث التي وقعت في كل عام ، وهي الصورة التي أصبحت متبعة . أما ترتيبهم للحوادث بحسب تاريخ وقوعها فهو يقوم على بحث علمي وعلى موازنة . ولم يقصر علماء المدينة في ذلك ، بل وصلوا إلى نتائج ثبتت أمام التمهيص إلى درجة تسترعى النظر ، ويجوز أنهم قد استطاعوا

(١) [يشير المؤلف إلى بحثه بعنوان *Diereligiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam* ، وهو ضمن رسائل الجمعية الملكية للعلوم في مدينة جوتينغن ، القسم الفيلولوجي التاريخي ، السلسلة الجديدة ، مجلد ٥ عدد ٢ ، عام ١٩٠١ - المترجم] .

(خ)

في بعض الأحيان ، أن يعتمدوا على ما كتبه رهبان النصارى وخصوصاً السريان ، وذلك ، على سبيل المثال ، فيما يتعلق بذكر تاريخ الزلازل وغيرها من الأحداث الطبيعية . ويلاحظ الإنسان كيف ازداد شأن الاهتمام بوضع الحوادث موضعها في الترتيب الزمني . ثم جاء خلفاء ابن إسحاق فزادوا عليه في كمال الترتيب التاريخي (Vaqidi p. 15s.)^(٢) . أما أبو معشر فيظهر أنه لم يكن له اهتمام ولا مقدرة إلا في معرفة التواريخ ، وهذا الاهتمام هو الغالب أيضاً على الواقدي . وليراجع القارئ فيما يتعلق بالصلة بين هذين المؤرخين الطبري (ج ٢ ص ١١٧٢ س ١٠ و ص ١١٧٣ س ٦) .

وكانت المدينة نواة الجماعة الإسلامية وقلب الدولة العربية ، وقد كان ما للمدينة من أهمية كبرى نظراً لما كان يتولد فيها من عوامل التطور في التاريخ العالمي هو الذي جعل للروايات التي نمت فيها طابعها الخاص . وكان أول ما اهتمت به الروايات المدنية بطبيعة الحال هو ذكرى أوائل ذلك العهد الحبيب المقدس ، أيام كان الإسلام لا يزال وحدة غير منفصمة العرى من الناحية الدينية والسياسية ، وكان يطمح لأن يُوحّد العالم كله تحت رايته ، وكانت الموضوعات الكبرى التي يظهر أن ابن إسحاق قد اقتصر عليها من تلك الروايات هي السير والمغازي - أعني سيرة النبي عليه السلام وتأسيسه للأمة الإسلامية وتأسيسه هو وخلفاؤه من بعده للدولة الإسلامية في فترة الفتوحات . ولكن الروايات المدنية لم تُعْغِلَ ما يتعلق بقلب الدولة وبسائر أنحاءها ، حتى بعد أن انتقل مركز الثقل في الدولة من المدينة إلى دمشق ، فلم تنتقل الروايات نفسها إلى دمشق ، بل بقيت - المدينة ، وظلت المدينة ، حتى في أيام بني أمية ، مقر الطبقة الأرستقراطية من العرب ، وليس هذا فحسب ، بل ظلت أيضاً المركز الروحي للثقافة الإسلامية إلى أن حلت بغداد من

(٢) يقصد المؤلف كتابه بعنوان *Muhammed in Medina* ، وهو ترجمة مختصرة لكتاب المغازي للواقدي ، وقد ظهر في برلين ١٨٨٢ م .

(ذ)

هذا الوجه محلها . وقد استرعى اهتمام علماء المدينة تاريخ الدولة العربية ، حتى فيما يتعلق بتطوره السياسى الدينى الخالص ، وإن كان علماء المدينة لم يكونوا راضين عن الحكومة . ولقد كان اهتمامهم بالشام أكثر بكثير من اهتمامهم بالعراق أو حتى بخراسان ، ونجد أنه عند أبى معشر والواقدى لا تزال تتكرر بانتظام الأخبار الرسمية - إذا صح التعبير - كالمعلومات المتعلقة بتواريخ ولاية الخلفاء وتواريخ وفاتهم ، ومتى كان يُعين أهم الولاة ومتى كانوا يُعزلون ، ومن الذى كان يحج بالناس فى كل عام ، ومن الذى كان يقود الحملات الحربية التى كان يوجهها الخلفاء لمحاربة الروم . وهذه المعلومات تكون سدى كتب التواريخ المدنية التى تذكر حوادث السنين ، وإنما يزيد ما ينسج حولها من مادة الروايات إذا كانت هذه تتعلق ببعض الأزمات والأعمال الكبرى ، أما فى العادة فهذه المادة ليست غزيرة ، واهتمام العلماء متجه إلى الوقائع الجافة ، بحيث لا يجد الإنسان كثير شئ من الولوع بالتفاصيل ومن التحمس للحوادث ومن العطف على الأشخاص الذين تدور حولهم الروايات . ولم يكن فى المدينة ميل لبنى أمية ولا لأهل الشام ، فلا يستطيع الإنسان أن ينتظر منهم أكثر من الحكاية الموضوعية :

ولا شك أنه قد كان هناك عند أهل الشام أيضاً ، أعنى عند عرب الشام ، مآثور من الروايات ، ولكن هذا المآثور ضاع ولم يصل إلينا . ويجد الإنسان آثاراً له عند البلاذرى ، وربما وجدها أيضاً عند عوانة الكلبي ، الذى كان يقطن الكوفة ، ولكن كانت له من طريق قبيلته صلات بالشام ، ويذكره الطبرى فى كثير من الأحيان عند روايته لأخبار الشام ، وذلك بحسب رواية ابن الكلبي عادة . أما روح هذا المآثور الشامى فيستطيع الإنسان أن يعرفه أحسن معرفة إذا رجع إلى كتب التاريخ النصرانية خصوصاً إلى كتاب الصلاة لتاريخ إيزيدور (Continuatio des Isidor von Hispalis) . فالأمويون فى هذه الكتب

(ض)

النصرانية يظهرون في ضوء آخر مغاير كل المغايرة لما في الكتب الأخرى ، وهو يظهرهم على صورة أحسن بكثير من الصورة التي اعتدنا أن نراهم عليها . أما في كتب التاريخ العربي فقد كانت الكلمة الأخيرة لأعدائهم ، وقد ألحق ذلك بتاريخهم ضرراً كبيراً .

والمدائني يتبوأ ما يشبه أن يكون مكاناً وسطاً بين أبي مخنف وبين مؤرخي المدينة ؛ فهو مؤرخ عالم ، لكنه يُسهب في الرواية ، وله اهتمام إقليمي ظاهر فما يتعلق بالبصرة وخراسان ، وتكاد كل الروايات المتعلقة بهما تكون مأخوذة عنه ، هذا إلى أنه يمثل وجهة النظر العباسية تماماً ، وهو يروى سقوط بني أمية وقيام الأسرة المباركة رواية تتمشى مع ذلك .

والى أكتفى بهذا القدر من الكلام في بيان ما يختص به هؤلاء الرواة الكبار عند الطبري ؛ وهو في بعض أجزاء كتابه يروى عن كثيرين من الرواة الآخرين الذين ضاعت كتبهم ولم تصل إلينا ، ولكني لا أريد في هذا المقام أن ألمّ إلماً وافياً بأقدم تدوين كان للتاريخ العربي ، غير أنه قد بدا لي أنه لا بد من إرشاد القارئ إلى أصول هذا التاريخ ، وفي هذا يكفي ما قدمته ، ويستطيع القارئ إذا أراد الاستكمال ، أن يرجع إلى فهرس فوستنفلد في المجلدين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من رسائل جمعية جوتينجن

(Abhandlugen der Göttinger Societät)

وقد كان مقصودي في أول الأمر أن أتناول عصر بني أمية على نحو ما تناولت عصر الفتوحات الكبرى في القسم السادس من كتابي (Skizzen und Vorarbeiten وأن أعنونه بنفس العنوان (وهو Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams = مقدمة لدراسة تاريخ فجر الإسلام) ، ولكنني هناك استطعت أن أكتفى بأن أضع ما ذكره سيف بن عمر لزاء سائر

(ظ)

الروايات الأخرى المذكورة عند الطبرى ، وأن أبين أنه تحويل مُغرض لهذه الروايات . ولكن ما يذكره سيف ينتهى عند موقعة الجمل ، ومنذ تلك الموقعة لا يمكن القيام بالنقد التاريخى طبقاً لوجهة نظر تظل ثابتة هى ، ولا يستطيع الإنسان منذ تلك المعركة أن يسير مهتدياً بما دُوّن من روايات ، بل يجب عليه أن يحكم على الحوادث حكماً يستند إلى أسس من الواقع ، مهتدياً من واقعة إلى واقعة غيرها ، كما يجب عليه أن يتعمق فى بحث قيمة ومبررات كل قضية وأن يسير على طريق فيه كثير من النقد والتخير بين الروايات وفيه أيضاً كثير من محاولة التوفيق بينها . على أن الراة يتفاوتون دائماً فى مقدار استحقاقهم للثقة ، ولكنهم لا يختلفون فى رواياتهم إلا بين آونة وأخرى ولا يختلفون دائماً فى الاتجاه الواحد . وإذا أمكن التحييص ولم يكن منه بد فإنه يصبح أشد صرامة وأقل سماحة ، ولكنه ليس دائماً ممكناً ، لأن المادة التى تحت يد الباحث لا تكفى لذلك ، وهو أيضاً ليس دائماً ضرورياً ، لأن الرواة متفقون أو هم تكمل رواية بعضهم رواية البعض الآخر . وفى كثير من الأحيان يمكن ، ويجب ، أن يستعاض بذكر الروايات كما هى عن التحييص لها . وإذا أردنا أن نقارن بين ما كتبناه أولاً وبين ما نكتبه الآن فإننا نقول إن ذكر الروايات كما هى هو الغالب فى هذا الكتاب ، أما إذا عيب علينا المزج بين طريقى الرواية والتحييص فإننا نقبل ذلك على أنفسنا ، فقد كانت ضرورة مراعاة ما فى الروايات من تنوع الخصائص هى السبب فى تنوع طريقتنا فى بيان الموضوع . على أنه فيما يتعلق بمعالجة كثير من المسائل لم تدعنى إلى ذلك مادة البحث بقدر ما حفزنى إليه سلفى من الكتاب ، ولم يكن لى بد من أن أجيب فى بعض المشكلات لإجابة تختلف عن إجابتهم :

فَلِهَوَزَن

جوتينجن فى يولييه ١٩٠٢

الفصل الأول

مقدمة

١ - نشأت الجماعة السياسية في الإسلام من الجماعة الدينية ، ويكاد أن يكون اعتداء محمد [عليه السلام] إلى طريق الحق^(١) قد حدث مع نهوضه لتبليغ الرسالة . نعم ، هو قد بدأ بنفسه ، وكان أول ما استولى على قلبه اليقين بالله القادر على كل شيء واليقين بيوم الحساب . ولكن ذلك اليقين الذي ملأ نفسه كان من القوة بحيث فاض عنها ، فلم يجد بداً من أن يرشد إخوانه إلى نور الهدى وإلى الصراط المستقيم ، ليخرجهم من ظلمات الخيرة وينقذهم من مناهات الضلال ، ولم يلبث حتى أنشأ في مكة جماعة دينية صغيرة^(٢) .

وكان الذي يؤلف بين قلوب هذه الجماعة هو الإيمان بإله واحد ، لا تدركه الأبصار ، خالق هذا العالم ، ومحاسب كل نفس بما كسبت ، كما كان يجمع بينها عبداً خلق بلزم عن ذلك ، وعماده أن يعبد الإنسان الله ، لا يشرك به شيئاً ، وأنه

(١) [يستعمل المؤلف كلمة *Bekehrung* ، ومعناها الانتقال من عقيدة إلى عقيدة ، ويجوز أن يقصد شيئاً من قبيل ما جاء في القرآن من قول الله للنبي عليه السلام « ووجدك ضالاً فهدى » أو من قبيل ما يؤثر عن النبي متعلقاً بكيفية بدء الوحي ، على أني لا أعرف من مصنفات المؤلف الأخرى سوى اعتباره النبي عليه السلام أحد الحنفية الذين أعرضوا عن الشرك الجاهلي . أما الحق فهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كالرسل قبله . ولا يوجد دليل على رسالة الرسل إلا وهو موجود على رسالته ، والقرآن هو الدليل على رسالته ، وهو مهما اشترك مع التوراة والإنجيل في بعض المادة فهو يختلف عنهما - المترجم] .

(٢) [وفي رأى المؤلف في كتابه عن الوثنية الجاهلية أن تأسيس جماعة دينية هو الفارق بين النبي عليه السلام وبين الحنفية . والحق أن الحنفية بحسب الشواهد التاريخية ، هم بقايا دين إبراهيم عليه السلام ، وهو الدين الذي كان لا يزال حتى عهد النبي موجوداً في مكة . والفرق كبير بين الحنفية وبين النبي ، كما أنه كبير بين اليهودية والنصرانية من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى - المترجم] .

يسعى إلى نجاة روحه من شرور الدنيا ، زاهداً في حطامها ، وأن ينشد الحق والعدل والخير والرحمة ، ولا ينشد متاع الدنيا . وللتوحيد ، كما يتجلى في أقدم سور القرآن ، صبغة خلقية كاملة ، وهي لا تنقل في قوتها عما نجده عند عاموس النبي أو في خطبة الجبل (١) . والإيمان بالخالق لا يكاد يدخل القلب حتى يبعث فيه ، كما هو الحال في الإنجيل (٢) ، فكرة أن كل إنسان ، بعد مفارقتها هذه الحياة ، مسئول عما كسبت يده . وهذا الإيمان من شأنه أن يستولى على الروح استيلاء تاماً ، وهو لا يكتفى بأن يبعث في نفس الإنسان الرضا بإرادة الله ، بل هو يدفعه أيضاً إلى العمل بما يريد الله . والإسلام الأول ليس استسلاماً (Fatalismus) ، بالمعنى السائر لهذه الكلمة ، وليس إلهية عبارة عما يسمى « المطلق » (Das Absolute) ، أعنى أن الإسلام ليس إيماناً بشيء غير مفهوم ، هو إلى السلب منه إلى الإيجاب أقرب ، بل إله الإسلام هو الذات التي لها القدرة على كل شيء ، والخير والعدل في حقها ملازمان للقدرة ، لا ينفكان عنها . ويزن في القرآن شأن القدرة الإلهية تارة وشأن العدل الإلهي تارة أخرى ، وذلك بحسب ما كان يحس به النبي [عليه السلام] ، دون مراعاة للتوازن بين الطرفين ، ولا يشعر محمد [عليه السلام] بما في ذلك من تناقض ، لأنه لم يكن فيلسوفاً ولا واضعاً للمذهب نظري في العقائد (Dogmatiker) (٣) .

(١) [كلام عاموس النبي موجود في التوراة ، وخطبة الجبل هي من كلام السيد المسيح عليه السلام ، وهي في الأناجيل - المترجم] .

(٢) [ويقصد المؤلف أن هذا في الإسلام ، لأن الكلام هنا عن الإسلام أولاً وقبل كل شيء - المترجم] .

(٣) [يقصد المؤلف أن الذات الإلهية في الإسلام ذات حقيقية لها صفات الخلق والتدبير والعناية ، وذلك في مقابل إله الفلاسفة الذي هو أشبه بمعنى مجرد - أما ما يقول عن رجحان الكلام عن القدرة في القرآن تارة ورجحان الكلام عن العدل تارة أخرى بحسب آحوال النبي النفسية فهذه نظرية بعض المستشرقين في الآيات المتشابهة في القرآن سواء آيات الصفات الإلهية أو الآيات المتعلقة بالمشيئة الإنسانية وعلاقتها بالمشيئة الإلهية (مسألة الجبر والاختيار) . والحق أن القرآن منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه ، وهذا المتشابه هو تفصيل الحكم ، ولو تأمل الإنسان القرآن تأملاً عقلياً فلسفياً لوجد أنه فيما يتعلق بذات الله يتكلم عنها في ذاتها أحياناً ، =

وكان يربط بين الجماعة الإسلامية من الخارج القيام بعبادات واحدة ؛ وإذا كانت أقدم تسمية أطلقها على المسلمين من لم يدخل في زمريهم هي تسميتهم بالصائبين ، فلا يمكن أن يكون لها سبب غير ذلك (١) . وتدل أقدم سور القرآن على وجود صلوات وركوع وسجود وتهجد في الليل ، غير أنها لم تكن قد حددت ونظمت على النحو الدقيق الذي نجده فيما بعد .

وكان أول من اتبع محمداً [عليه السلام] أفراد ، من أصدقائه وأقربائه ومن الموالي والرفيق ، غير أنه كان يعتبرهم طلائع لاتباعه ، لأن طموحه كان منذ البداية متجهاً إلى ضم أهل مكة جميعاً إلى دعوته : عشيرته من بني هاشم وعبد المطلب ، وقومه قريش . ولقد كان محمد [عليه السلام] عربياً ، فكانت له ، بحكم ذلك ، إحساسات بالعشيرة والقبيلة (أعنى ما يقابل الأمة) على النحو الذي نخس به نحن بما يربطنا بالأسرة في نطاقها الضيق . [أما الدولة] من حيث هي نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها في وظيفته ، ومن حيث أن لهذا النظام سلطاناً يخضع له الناس ؛ فلم يكن بعدُ وجد بين العرب ؛ بل كانت الدولة عندهم هي الجماعة في جماعتها (Collectivum) ، ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص (Institut) ولا كانت لها أرضٌ محدّدة . فلم يكن هناك في الحقيقة دولة (Staat) وإنما كانت هناك

= وهو أحياناً أخرى يتكلم عنها مجازاً للدلالة على صفاتها ، وهذا هو معنى الآيات التي فيها ذكر اليد والعين بالنسبة لله ، ولوجد أيضاً أن القرآن فيما يختص بأفعال الإنسان ومشيتته يتكلم عن دخول ذلك في دائرة المشيئة والقدرة الإلهية - وهذا صحيح وهو الحق في أمر الخالق والمخلوق وليس في القرآن مطلقاً ما ينفي مشيئة الإنسان وفعله ومسئوليته ، بل فيه ما يؤكد ذلك ، ولكن بحيث لا يشعر المخلوق أنه مستقل عن خالقه في الفعل والمشية ، لأنه إذن لا يكون مخلوقاً ؛ فلا تناقض في القرآن بل فيه بيان للعلاقة بين المخلوق والخالق - راجع ما قلناه في هذا في تعليقه على فكرة شبهة بما يقوله المؤلف هنا - وذلك في كتاب « تاريخ الفلسفة في الإسلام » لدى بور ص ٤٦ - ٦٦ من الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٤٨ - المترجم .

[ربما يكون قصد المؤلف ما لوحظ من شبه بين بعض عبادات الصابئة وبعض العبادات الإسلامية وما قيل من أن الصابئة هم الخنفية أتباع دين إبراهيم عليه السلام - راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور ص ١٩ (هامش) - المترجم]

أمة (Volk) ؛ فلم يكن هناك نظام [سياسى] من صنع الإنسان ، بل كان هناك كيان اجتماعى طبيعى بالغ درجة النماء ؛ لم يكن هناك موظفون يدبرون شئون الجماعة بالمعنى الذى نعرفه فى الدولة ، وإنما كان هناك رؤساء العشائر والبطون والقبائل^(١) ؛ ولم تكن الأمة تتميز عن الأسرة إلا بأنها أكبر من الأسرة . أما اللحمة التى كانت تؤلف بين أفرادها فهى نفس اللحمة التى تربط بين أفراد الأسرة ، أعنى لحمة الدم ، فكانت وحدة الجماعة تقوم على لحمة الدم وعلى تقديس هذه اللحمة ، دون حاجة إلى قوة من خارج تقهر الجماعة على التماسك . وكان للاشتراك فى النسب أو للاعتقاد بهذا الاشتراك — وهما من حيث النتائج العملية شئ واحد — ما للدين من تأثير ، وكان هذا الدين بمثابة الروح التى تجعل القبيلة كالجسد الحى الواحد . وإلى جانب روابط الدم والنسب كانت هناك روابط الاشتراك فى شعائر دينية ظاهرة ، ولكن لم يكن هناك دين له من قوة الإلزام هو وثيق أو أواصر الوحدة بين الناس شئ يغير ما لتأثير رابطة الدم والنسب . ولقد كان فى وسع محمد (عليه السلام) ، من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتققيها الدائرة التى ترسمها رابطة الدم ، أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها ، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة ، هذا هو الذى جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها . ولكن محمداً [عليه السلام] لم يرد ذلك ، ومن الجائز أيضاً أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية فى حدود غير حدود رابطة الدم^(٢) ، ولذلك فإنه لم يرَ أن رسالته هى أن

(١) ولا يزال أهل البادية حتى اليوم ميالين إلى أن يتصوروا الدولة ، أعنى الدولة التركية ، على أنها قبيلة وإلى أن يقيسوا قوتها بحسب ما تملكه من الإبل (Doughty 1, 230) . وكذلك الحال بالنسبة للمدن ، فلم تكن المدينة (Polis) هى الوحدة السياسية بل كانت القبيلة هى هذه الوحدة ، مثل قریش فى مكة وثقيف فى الطائف . وكان كل من القرشيين والثقيفيين يشعرون بأنهم مرتبطون من الناحية السياسية ، حتى عندما كانوا يقطنون خارج مكة أو الطائف .

(٢) [هذا يخالف الواقع ، لأن الدعوة الإسلامية جاءت للناس كافة ولأن القرآن والحديث قد أعلنوا أن الناس جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم كلهم أمة واحدة ومنشورهم من أصل =

يضم إلى دعوته أتباعاً متفرقين هنا وهناك . نعم ، كان لابد له أن يبدأ بضم أفراد ، لكنه كان يرمى إلى ضم الجماعة كلها فكان يطمح إلى أن يجعل أمته العربية كلها جماعة دينية له ، أما إنشاء جماعة دينية صغيرة مضطهدة (ecclesiola pressa) في مكة فهذا ما لم يكن ليُرضى طموحه :

فلما لم يوفق إلى هداية قومه قريش في مكة إلى الإسلام ، حاول أن يتصل بقبائل ومدن أخرى . وقد أتاحت له الأسواق والأعياد التي كانت تعقد حقول مكة سبيلاً إلى ذلك ، فعرض على شيوخ ثقيف في الطائف أن يدخلوا في الإسلام هم وقومهم جملة . وأخيراً وضع قدمه في يثرب ، أعنى المدينة ، وكانت هجرته إليها حادثاً جديلاً ، بدأ به عهد جديد ، على أن هذا العهد الجديد لم يكن معناه التنصل من الماضي تنصلاً مقصوداً ، لأن محمداً [عليه السلام] لما صار رئيساً سياسياً ، بعد أن كان مباشراً ونديراً لم يتنكر لنفسه ، وذلك أنه منذ البداية لم يكن يرمى إلى اجتذاب أفراد ، بل إلى ضم القبائل بجماعتها ، وكان من أول الأمر أيضاً يرى أن النبي هو الرسول الذي يرسله الله ليكون على رأس قومه ، ولم يكن يفصل بين الجماعة السياسية والجماعة الدينية . وهو إذا كان قد أراد أن يظل في المدينة على ما كان عليه في مكة من قبل ، وهو أن يكون نبي الله ورسوله ، فلم يكن ذلك منه لعباً ولا نفاقاً ، لكنه في مكة لم يوفق . أما في المدينة فقد نجح وشق الطريق . هو كان في مكة ثائراً على قومه مخالفاً لما هم عليه ، أما في المدينة فقد بلغ ما كان يرمى إليه : وقد أحدث هذا تغيراً كبيراً لا مجرد فرق ظاهري ، وذلك أن

« واحد وإن أكرمهم عند الله أتقاهم » وكان غرض الدعوة الخروج بالناس من ضيق المصيبة القبلية والجنسية إلى أفق الإنسانية الموحدة . وهذا ما صرح به في القرآن والسنة . أما الاعتماد على مؤمنين يحملون الدعوة وينشرونها ويمدونها من أعدائها بفضل ما يكون بينهم من التحام بالنسب وبفضل ما ينشأ عن ذلك من قوة فهو لا يتعارض مع الغاية الكبرى التي تحققت فعلاً . ومعنى المواطن في الدولة الإسلامية هو المؤمن بالله والمتبع لوصي أنزله الله سواء كان مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً ، غير أنه في الدولة الإسلامية تكون مهمة حكم الدولة والدفاع عنها للمسلمين وحسبهم ، ولهذا فرضت الجزية على أهل الكتاب لأنهم معفون من الواجبات الحربية - المترجم [.

المعارضة دائماً تتغير عندما تصل إلى الرياسة (١) وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيراً عن الفكرة التي عليها ، لأن تقديرها للأشياء يكون في أول الأمر بحسب الإمكان لا بحسب الواقع . ولا تستطيع جماعة لها تاريخها أن تتشكر للأسس الموجودة التي تقوم عليها تنكراً تاماً ، والقوة — إذا أرادت أن تحافظ على كيانهما وأن تزداد — لا بد لها من أن تجرى على سنتها الخاصة بها ، وهذا هو الذي يفسر لنا أن النبي صار رئيساً سياسياً تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحاً في الرياسة ، وأن الحكومة الشيوقراطية (Theokratie) ، من حيث السياسة الفعلية ، تغيرت عنها لما كانت فكرة . وعلى هذا صار الطابع السياسي يزداد بروزاً والطابع الديني يزداد تراجعاً ، ولكن على الإنسان مع هذا ألا ينسى أبداً أن الدين والسياسة امتزجا وسار يداً بيد ، وإن كان قد جعل تمييزاً بين السياسة الدينية والسياسة الدنيوية ، وبقي للتقوى إلى جانب ذلك مكانتها في القلوب .

٢ — وكانت اليهودية والنصرانية قد مهلتنا الأرض في المدينة لمحمد [عليه السلام] ، فكان هناك كثير من اليهود ، وكانت المدينة تقع على حدود ذلك الجزء من جزيرة العرب المتعرض للتأثير اليوناني — الروماني والنصراني — الآري . أما الأحوال السياسية فكانت مواتية له أكثر من ذلك ، ففي مكة كان يسود الهدوء والنظام ، وكانت العوامل التي تربط بين الجماعة تؤدي وظيفتها على نحو مرض ، ولذلك أحس المكيفون بأن الشيء الجديد الذي أراد النبي أن يدخله في مكة نظام يهدد حياتهم ويكدر صفوها ، فعملوا على القضاء عليه . ولكن

(١) [إن المؤلف هنا وفيما يلي يسرف في القياس السياسي . ولقد كانت رسالة النبي عليه السلام أن يؤسس ديناً ويكون أمة وينشئ دولة ، وقد تم له ذلك كله . وقد كان لهذا بطبيعة الحال مقتضيات فرضتها طبيعة الأشياء وطبيعة التطور في الدين وتكوين الأمة وإنشاء الدولة ، وكل ذلك بإرشاد إلهي هو الذي نجده من أول الأمر إلى آخره مسجلاً في القرآن . ولا يصح أن يسرف المؤرخ في اعتبار التطور تغيراً وتحولاً ولا وضع النظام السياسي ظنياناً على الصيغة الدينية — المترجم] .

دروهاط الدم والنسب لم يكن له في جميع أجزاء جزيرة العرب من القوة ما كان له في مكة ، وهو لم يكن في جميع مراتب التلاحم في النسب بقوة واحدة ، بل كان في الدوائر الصغرى للنسب أقوى منه في الدوائر الكبرى ، فكان في الأولى طبعياً وفي الثانية التزامياً ، ولذلك كان ما من شأنه أن يجمع الشمل يصبح سبباً من أسباب الانحلال ، إذا تعارضت مصلحة الأسرة مع مصلحة العشيرة أو مصلحة القبيلة ، وخصوصاً لم تكن الأسرة تستطيع أن تتخلى عما يوجبها عليها الأخذ بالنار حتى من الأسر التي يجعلها النسب وإياها قبيلة واحدة ، وعند ذلك تتوارث القبائل إحسان الترات وحروبها ، لأنه لم تكن هناك قوة فوق قوة المتخاصمين تستطيع أن تفرض السلم على الناس وتعاقب من يخلف به منهم . وهذه الأحوال كانت قد طرأت في المدينة ، فانتقسمت الجماعة فيها إلى معسكرين متعادين ، هما الأوس والخزرج ، فكان القتل والسفك شيئاً مألوفاً ، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج من حريمه دون أن يعرض نفسه للخطر ، وسادت المدينة حال من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة ، فكانت الحاجة ماسة إلى رجل يدخل في الفرجة المفتوحة بين الفريقين ويقضي على الفوضى لكن كان لا بد أن يكون رجلاً محايداً ، لا تشوبه شائبة التورط في المنافسات الداخلية بين القبيلتين ، ولذلك جاء النبي من مكة في الوقت المناسب ، وكأنما نودى لذلك ، ولما كانت حمة الدم قد فشلت في أن تكون رباطاً يوئلف بين الناس ، فقد أحل النبي محلها رابطة العقيدة ، وهو قد جاء ومعه قبيل من المؤمنين ، هم الذين هاجروا معه من مكة ، وقد كوّن في المدينة على أساس الدين جماعة موحدة ، من حيث أنها « أمة الله » ؛ ولكن ذلك لم يكن دفعة واحدة ، ولا كان بدون مراحل متعددة ، بل هو تحقق بخطى مستمرة ثابتة ، ولم يكن محمد [عليه السلام] يستطيع أن يؤسس جماعة لها رئاسة دينية (١) ،

(١) [يقصد المؤلف إنشاء رئاسة دينية يتحدد موقفها إزاء الرئاسة السياسية التي تكون عند ذلك قائمة ، كما تحددت الرياسات الدينية الناشئة في داخل الدولة أيام انتشار النصرانية - المترجم] .

حتى لو أنه كان يريد ذلك ، لأنه لم تكن هناك دولة بعد [ولا رئاسة على الإطلاق] .
وكان الأمر اللازم إذ ذاك هو الواجب الأول الذي ينحصر في إقامة النظام والسلام .
والقانون . ولما لم تكن هناك سلطة أخرى غير سلطته ، فقد أخذت السلطة الدينية
مكان الصدارة وصارت لها القوة وتوطدت أركانها بفضل أنها حققت ما كان
يُرجى منها . وقد أبدى محمد [عليه السلام] مواهب شخصية ، وذلك بأن أثبت
في تدبيره للأمور جدارةً كاملة : وكان إذا ارتاب في أمر ، يسأل أهل ذلك
الأمر ، وكان من حسن حظّه أنه وجد بين المهاجرين معه في مكة ، وكانوا هم
أقرب دائرة تحيط به ، رجالاً يعتمد عليهم ويستطيع أن يثق بهم .
وفي هذه الأحوال تجلت قوة الدين ، ولها طابع سياسي غالب ، فأنشأ جماعة
وأوجد فوقها سلطة مُطاعة . وكان الله هو رمز رئاسة الدولة ، والشئ الذي
يحدث عندنا اليوم باسم الملك كان يحدث هناك باسم الله . وكان الجيش يسمى
« جيش الله » : وكانت النظم تسمى بأن تُنسب إلى الله . وهكذا ظهرت بين العرب
من طريق الإيمان بالله فكرةُ الرئاسة بعد أن كانت حتى ذلك الحين بعيدة عن
أذهانهم ، وقد ظهرت بظهور ذلك فكرةً أخرى ، هي أن الحق في السيادة
لا ينبغي أن يكون لقوة إنسانية تفرض نفسها على الناس من خارج ، بل هو
إنما يكون لسلطة فوق الإنسان ، يعترف بها الإنسان في قرارة نفسه . والحكومة
التيوقراطية معناها إنكار الملك [الدنيوي] الذي يوضع في يد الإنسان ، وليست
السلطة المخولة للحاكم قسْيةً خاصةً يتصرف فيها صاحبها على النحو الذي يعود
عليه بالنفع ، بل الملك لله ، ولكن وكيله الذي يعرف ما يريد والذى ينفذه
هو النبي ، فليس النبي مجرد مُبلِّغ للحق ، بل هو أيضاً الرئيس السياسي
الشرعي الوحيد على الأرض ، ولا يوجد إلى جانبه مكان الملك ، بل ولا
لنبي آخر ، ولا يوجد في كل زمان سوى نبي واحد . وفكرة النبي - الملك
هذه ترجع إلى اليهود في عصرهم الأخير ، وهي تتجلى على نحو
مميز في الفرق بين صموئيل وشاول ، كما نجد ذلك في الكتاب .

المقدس : صموئيل الأول ، إصحاح ١١ و ٨ . فالنبي هو ممثل السيادة الإلهية في الأرض ، والله ورسوله يُذكران معاً دائماً ، وهما يدخلان معاً في العقيدة ، ويستطيع الإنسان أن يُعرّف الحكومة التيقراطية بأنها الجماعة التي لا يكون على رأسها ملكٌ أو سلطة مغتصبة أو موروثه ؛ بل يكون على رأسها نبي الله وشرعُ الله .

والذي كان راجحاً في فكرة الألوهية هو العدل لا القداسة^(١) ، وكان معنى السيادة الإلهية هو سيادة الحق والعدل ، فكانت الحكومة التيقراطية من هذا الوجه هي حكومة العدل ، ولكن لا يصح أن يخطر ببال إنسان هنا [أن معنى سيادة الله هو] سيادة قانون نظري مجرد لا علاقة له بإرادة ذات حقيقة تريده ، ذلك أنه لم يكن هناك قانونٌ بعد ، وكان « الإسلام » موجوداً قبل نزول القرآن^(٢) . وأيضاً لم تكن الحكومة التيقراطية تشبه نظام الحكومة الجمهورية بأي وجه ، رغم القول بأن جميع رعايا الله يقفون أمامه سواسية ، وذلك أن المميز الأكبر لنظام الجمهورية ، وهو الانتخاب والاقتراع من جانب الشعب ، لم يكن موجوداً بالكلية ، ولم تكن قوة السيادة للشعب ، وإنما كانت للنبي ، فكان له وحده وظيفة ثابتة بل مقدسة ، وعن السلطة المخولة له كانت تنفرع أنواع السلطان التي دون سلطانه . ولكنه لم يكن يعين موظفين بالمعنى الحقيقي ، وإنما كان يكاتف من يشاء بمهام معينة يؤدونها ، وهم بعد أدائها يعودون إلى ما كانوا عليه من تلقاء أنفسهم ، وكان مستشاروه أيضاً رجالاً ليسوا بموظفين ، بل أصدقاء اصطفاهم وجعلهم من خاصته .

(١) [لا يمكن أن يقصد المؤلف أن الله ليس مقدساً . بل المقصود هو أن تصور الناس له يغلب عليه الشعور بعدالة الله . ولكن لا يمكن أن يجد المؤلف من النصوص الإسلامية سنداً لما يقول - المترجم] .

(٢) [يقصد المؤلف غالباً ما جاء في القرآن من أن الإسلام لله دين الأنبياء جميعاً هم ومن اتبعهم وأنه دين الكائنات كلها - المترجم] .

وأبعد ما يمكن أن يُقال في وصف الحكومة الإسلامية الأولى أنها كانت حكومة قديسين (Hierokratie) ، فهي لم تأخذ طابع منظمة ذات قداسة خاصة ومن هذا الوجه لم تكن شبيهة بالحكومة الدينية اليهودية بعد نفي اليهود (١) ، ولم تكن بين المسلمين طبقة من الرهبان ، ولا كان هناك تمايز بين الرهبان وبين غيرهم ولا بين الأمور الدينية والدنيوية . فكانت الكلمة لله في كل وظائف الجماعة ومنظمتها على حد سواء ، وكان للقضاء والحرب من القداسة ما للصلاة ، وكان المسجد يقوم مقام مكان الاجتماعات العامة ومقام ميدان التدريب العسكري ، وكانت الجماعة هي الجيش أيضاً ، وكان الإمام في الصلاة هو القائد .

ولم تتمخض فكرة السيادة الإلهية عن أية صورة خاصة من صور الدستور (٢) ، ولكن عنصر النظام الذي أدخله محمد [عليه السلام] وسط تلك الفوضى كان على كل حال سبباً في توحيد القوى والعناصر ، لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين . وقد بدا كأنما قد ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة المقدسة القائمة على رابطة الدم ، ولكن تلك الجماعات بقيت في الحقيقة كما هي ، وإن كان الشأن الأول قد انتقل منها إلى الجماعة الكبرى ، فدخلت الطوائف التي كانت موجودة حتى ذلك الحين ، أعني القبائل والبطون والعشائر ، في الجماعة الكبرى الجديدة ، ولم ينشأ عن الإيمان بالله وسيلة من شأنها أن تُحِلَّ محلَّها شيئاً

(١) إن حكومة القديسين عند اليهود بعد نفيم كانت نتيجة للسيادة الأجنبية عليهم ، ولم يكن لها استقلال سياسي ، فكانت لذلك تختلف عن الدولة وإن لم يكن ذلك بدرجة اختلاف الكنيسة المسيحية في مرحلة البداية ، وذلك لأنها ، على الأقل ، كانت شاملة للأمة . ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هناك وجه للمقارنة بالدولة - الكنيسة ، لأن الكنيسة لم تكن دولة بل كانت لها دولة (W. Sickel) . والحكومة الدينية الإسرائيلية القديمة هي وحدها التي تشبه الحكومة الدينية العربية شياً كبيراً ، رغم أن فكرة أن الرئيس الحقيقي في الحكومة الدينية هو النبي لا الملك كانت بعيدة عن الحكومة الدينية الإسرائيلية في مبدأ الأمر .

(٢) [إن الله بحسب القرآن هو الشارع والمهادي للإنسان ولكنه يقول في حق المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) ويقول للنبي : (وشاورهم في الأمر) - المترجم] .

آخر: ومبدأ المساواة السياسية بين المسلمين، وهو المبدأ الذى يلازم عن فكرة الحكومة
التيوقراطية، لم يُطَبَّقْ على النحو الذى من شأنه أن يمحوا الفوارق التى كانت
موجودة بالفعل، فبقى المكيون الذين جاءوا مع النبى [عليه السلام]، وهم المسمون
المهاجرة، على حدة، وبقيت إلى جانبهم قبائل العرب التى كانت تسكن المدينة،
وهم المسمون الأنصار، على حدة، وكذلك بقيت قبائل اليهود فى المدينة على
حدها، وبقى التابع تابعاً والمولى مولى والنزيل نزيبلاً، وإن كانوا قد
اعتنقوا الإسلام.

وقد حفظت لنا الأيام من العصر الأول بعد الهجرة، قبل موقعة بدر،
كتاباً^(١) لخميد [عليه السلام] يبين بعض النقط الكبرى فى القانون الذى ينظم
الحياة العامة والسياسية وكان معمولاً به فى المدينة أول الأمر. ويتجلى من هذا
الكتاب إلى أى حد قد تغيرت الأحوال القديمة، وإلى أى حد لم تتغير، وذلك
إذا عرفنا أن المدينة قد أصبحت منذ ذلك الحين أمة واحدة. وكلمة « الأمة »
هنا ليست اسماً للجماعة العربية القديمة التى تربطها رابطة النسب، بل هى تدل
على الجماعة بالمعنى المطلق. وهى تدل فى العادة على جماعة تقوم على الدين، ولم
يكن ذلك منذ ظهور الإسلام فحسب، بل كان قبل ذلك أيضاً، (ديوان النابغة،
قصيدة ١٧، بيت ٢١)^(٢). وللممة فى هذا الكتاب صبغة دينية أيضاً^(٣)، فهى

(١) [ويسمى أيضاً السجفة]، والكتاب موجود بنصه فى سيرة ابن هشام بحسب رواية
ابن إسحاق - المترجم] .

(٢) [إن البيت الذى يشير إليه المؤلف فى قصيدة النابغة هو هذا :

حلفت فلم أترك لنفسك رية وهل يأمن ذو أمة ، وهو طائع
ولكن كلمة : أمة ، هنا - وهى تضبط على أكثر من وجه - لا تدل على الأمة بالمعنى
الذى نحن بصدده ، بل على الاستقامة والدين - المترجم] .

(٣) رأس الأمة هو الإمام ، ولكن كلمة الأمة وكلمة الإمام لا ترتبطان ارتباطاً
مباشراً ، وربما لا يكون بينهما ارتباط على الإطلاق ، فالأمة مشتقة من الأم ؛ أما الإمام فن
فعل أم بمعنى تقدم .

جماعة الله التي ترعى مبادئ السلام ومبادئ حماية الجار [ونصر المظلوم] والله هو الشهيد الذي يشرف عليها ، ومحمد [عليه السلام] يشرف عليها باسمه ، ولكنه مع ذلك لا يوصف قط بأنه نبي (١). فالإيمان هو رباط الاتحاد ، والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم أول من يجب عليهم الوفاء للاتحاد ، وهم في الوقت نفسه أول من يتمتعون بالحقوق التي يخولها لهم . وأيضاً فالأمة لا تشتمل على المؤمنين وحدهم ، بل هي تتألف أيضاً من كل من يتبعهم ويحارب معهم ، أى من كل أهل المدينة . والأمة لها منطقة من الأرض إجمالية ، فكل جوف المدينة ينبغي أن يكون حرماً وأرض سلام ، لا يعتدى فيها أحد على أحد . وكان بين الأنصار قوم " مشركون ، لكنهم يستباعدون من الأمة ، بل أدْمِجُوا فيها بنص صريح ، وكذلك اليهود شملتهم الأمة ، وإن كانوا لا ينتمون إليها انتماء وثيقاً كالمهاجرة والأنصار ، وإن كان اليهود أيضاً لا تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق . وعلى هذا فليست درجة الانتماء للأمة واحدة ، بحيث بقي ما يشبه التمايز العربي القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل . ومما له نفس الأهمية أن الأمة رغم أنها كانت تشمل المشركين واليهود ، فإنها لم تكن تتكون من أفراد ، وإنما كانت تتكون من جماعات ، فالفرد لا ينتمى إلى الأمة إلا من طريق العشيرة والقبيلة . فقد جاء في الكتاب الذي نحن بصددده أن تبقى القبائل كما هي . وأن تدخل في الأمة كما هي ، ولم ينظر على الأذهان قط إمكان تقسيم للجماعة بحسب مبدأ جديد مغاير لما هو معروف ، وكذلك ترك رؤساء القبائل كما هم ، ولم يحل محلهم موظفون دينيون .

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد ساطة كل منهما وواجباتها فقد بقيت على القبائل النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة وخصوصاً دفع

(١) [ولكن يوجد في أول الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قریش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم » . . . المترجم] .

الدية وفداء الأسرى ، ذلك أنه لم تكن قد وجدت بعد خزانة للأمة . وكذلك
يتميت للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء ، فلا يسوغ لأحد أن يدعو مولى إلى مخالفة
مولاه . بل إن حق الإجارة لم يُقيّد ، فلكل فرد الحق في أن يجير شخصاً غريباً ،
وهو بذلك يُلزم الجماعة كلها ، وإنما حرمت [على أهل هذا الكتاب]
إجارة قريش الذين كانوا الأعداء الألداء لمحمد [عليه السلام] .

وبمتمضى ذلك أصبح واجباً على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر
فيما بينها ، أعنى من قبائل المدينة ، لأن أول غاية للأمة هي منع الحرب في
الداخل فإذا قام نزاع وجب أن يعرض على القضاء . وجاء في هذا الكتاب :
« وأنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد عليه السلام ،
وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن
مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله صلعم » . فإذا تعكر السلام في الداخل
بسبب الثأر أو الفساد وجب لا على المحيى عليه أو على قبيلته وعلى الجماعة
كلها فحسب ، بل على أقرباء الخاني نفسه ، أن يهبوا متكاتفين عليه وأن
يسلموه إلى صاحب الثأر لكي لكي يقتاد منه بالعدل . وعلى هذا أصبح
لا يمكن أن يتحول الأخذ بالثأر إلى ثأر يجر ثأراً ؛ بل انكسرت شوكتة الخطورة
التي كانت تهدد السلام ، وهذب فئار عقاباً بالمثل ؛ وكان هذا العقاب
بالمثل موجوداً قبل الإسلام ، ولكن الأخذ به كان نادراً ، وذلك أن جملة
القبيلة كانت معادلة لأجزائها وملتبسة بهذه الأجزاء بحيث لم يكن لها قوة القهر .
أما في المدينة فقد نُفِدت مبدأ العقاب بالمثل تنفيذاً صارماً ، لأن الله في
المدينة فوق في رابطة الدم ، وكان معزفاً له بسيادة حقيقية من حيث
المفكرة على الأقل ، ولم يكن العقاب بالمثل قد صار عقاباً بالمعنى الحقيقي ،
لأن تنفيذه كان متروكاً للمعنى عليه ، وكان له أن يثأر لنفسه أو أن
يتنازل عن الثأر ويأخذ الدية . ولكن العقاب بالمثل مع هذا صار نقطة
الانتقال من الأخذ بالثأر إلى الأخذ بمبدأ العقاب ؛ وذلك أنه بانتقال حق التأديب
من الفرد إلى الجماعة حدثت خطوة هامة في سبيل الأخذ بالثأر شأناً

من شئون الدولة وجعله عقاباً من هذا الطريق : وكانت خطوة كافية لتفادى الترات الداخلية ؛ ولذلك لكي يسود السلام في داخل منطقة المدينة ويكون شاملاً لا استثناء فيه . وعلى هذا لم تكن هناك جماعات تراعى السلام وحماية البحار ، متعددة بتعدد القبائل ، مما جعل حمايتها غير كافية أو على الأقل غير فعالة . على الوجه المرضي خارج حدود القبيلة ؛ بل أصبح هناك سلام واحد شامل ، هو سلام الأمة .

أما الغرض الثاني للأمة فقد كان اتحاد القبائل لردّ العدوان من الخارج ، وعلى المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضاً دون « الناس » ، وهم يتعاقلون بينهم ، وهم أمة من دون للناس ، يدهم على من سواهم ، وهم على من بغى منهم . وليس واجب الأخذ بالثأر من الأعداء واقعاً على كاهل الأخ ليشأر لأخيه بل على كاهل المؤمن ليشأر للمؤمن . والحقيقة أنه بذلك خرجت الحرب عن أن تكون داخلة ضمن الثأر للدم ، بعد أن كانت من قبل هي والثأر للدم شيئاً واحداً ، بل أصبحت الحرب حرباً فحسب . وكذلك صار السلام مع قوم أجنب ، شأنه شأن الحرب ، أمراً يعمّ بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يعقد سلاماً لنفسه لا يكون سلاماً للجميع .

ورغم هذا فإنه لم يُقنص على حق العشيرة والقبيلة بالأخذ بالثأر من سواها قضاء تاماً ، وأمر هذه المفارقة هو أمر مفارقة أخرى مقابلة لها ، وهي أن حق الإجارة أيضاً ، وهي التي تضمن للغريب حق التوطن في المدينة لم يكن قد نُزع بعد من الفرد ، وإن كان يتلزم الجماعة كلها ويجب لذلك بطبيعة الحال أن يكون من حقوق سيادة الأمة ورئيسها ، أعني الإمام (١) . وليس كل شيء واضحاً تماماً في هذه العلاقة بين الجماعة وأجزائها ، فلم تكن الأمة قد تكونت بعد تكويناً

(١) ومثل هذه المفارقات كان موجوداً عندنا إلى عهد قريب ، فقد منح الدكتور Schnelle بحكم ما كان له من حق أيام الاتحاد الألماني لوفمان فون فلورلين (Hoffmann von Fallersleben) الذي طرد من كل مكان حق التوطن في ضيعته بوخهولتر التي كانت له باعتباره فارساً في مقاطعة ميكلينبورج . ويلاحظ الإنسان أن شيئاً كهذا له مزاياه .

تماماً ، ولكن كان المؤمنون وعلى رأسهم النبي هم روحها ، فكانوا هم الخميرة والعنصر الروحي الأقوى الناهض ومنه كانت تصدر الحركة والدعوة ؛ وكلما كان الدين ينتشر كانت أركان الأمة تتوطد أيضاً .

٣ - أما أعداء الأمة البارزون في هذا النظام الذي تكلمنا عنه لجماعة المدينة فهم قريش الذين فرّ منهم النبي [عليه السلام] وأتباعه من مكة . وقد نشأت من غارات صغيرة حربٌ لم تَلَن قناتها . وهذه الحرب ساعدت أكبر مساعدة على توطيد أركان الأمة في الداخل ، وانتهى أول اشتباك كبير عند بدر في السنة الثانية من الهجرة بانتصار محمد [عليه السلام] انتصاراً لم يكن في الحسبان ، وأحسن الناس أن هذا النصر المبين برهانٌ إلهي على صحة الدين ، فأحدث أثراً لا يُمحى ، وكان له أكبر تأثير معنوي ، فساعد مساعدة غير مألوفة في زيادة نفوذ محمد [عليه السلام] وفي كسر شوكة خصومه وفي تثبيت قدم الإسلام في الأمة تثبيتاً تاماً وفي إدماج العناصر الأجنبية التي مُنح لها حتى ذلك الحين بالدخول في الأمة الإسلامية أو في إخراجها منها . ولم يبق الإسلام على تسامحه ، بل شرع في الأخذ بسياسة الإرهاب في داخل المدينة ، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول ؛ فلم يسمح للمشركين بأن يبقوا داخل الأمة على شركهم كما كان الحال حتى ذلك الحين ، وكان لا بد لهم تحت ضغط الظروف من أن يعتنقوا الإسلام ، ولكنهم اعتنقوه بقلوب تتنازعها مختلف الإحساسات ، وكانوا لا يخفون شماتتهم إذا بدا أن الحظ لم يستمر مواتياً للنبي ؛ ولكن موقف اليهود كان أسوأ من موقف المنافقين ، فيقول الواقدي إنه تحول بعد وقعة بدر إلى غير مصلحتهم تحولاً كبيراً ، وحاول محمد [عليه السلام] أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد (١) .

(١) [يؤخذ من كتاب المغازي للواقدي (ص ١٦٧ و ١٨١ من طبعة كلكتة) أن النبي عليه السلام لما قدم المدينة وادعته اليهود ، فكتب بينه وبينهم كتاباً ألحق فيه كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم ، وكان بما شرطه ألا يظهروا عليه عدواً =

وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات متمسكة كالقبائل العربية . وقد التمس لذلك أسباباً واهية ، وأعطى ما كان لهم من مزارع النخيل الخصبية إلى المهاجرة الذين لم تكن لهم حتى ذلك الحين أرض ولا ممتلكات ، بل كانوا يعتمدون على كرم الضيافة من جانب الأنصار باعتبارهم نزلاء عندهم أو كانوا يعيشون من التجارة أو الغزو ، وبذلك أغناهم عن الأنصار وجعلهم مستقرين وأصحاب أرض في المدينة ، وبهذه الطريقة أيضاً زاد في قوته هو ، لأن المهاجرة كانوا أشبه بحرسه الخاص ؛ هذا إلى أن التوتر الذي لم تكن كل آثاره قد زالت بين قبائل الأنصار ، وهم الأوس والخزرج ، جعل للمهاجرة شأنًا راجحاً .

وبعد أن هزمت قريش عند بدر جمعت قوتها وتوجهت ، تحت قيادة أبي سفيان بن حرب بن أمية ، في حملة للانتقام من محمد [عليه السلام] . وقد انتصرت عليه بالفعل عند جبل أحد قرب المدينة ، ولكن قريشاً لم تستفد من هذا النصر ، بل اكتفت برد شرفها وقفلت راجعة ، ولذلك فإن هذه الهزيمة لم تضر النبي كثيراً ، فاستطاع أن يحتملها وأن يعيد إرهاب سلاحه ؛ ثم إن قريشاً فشلت في هجوم ثان قامت به على المدينة وحالفت فيه المشركين واليهود . ثم اتخذت قبائل صغيرة مجاورة للمدينة تنضم إلى الجماعة الناشئة فيها انضماماً سياسياً خالصاً في أول الأمر ، ثم انضماماً دينياً بعد ذلك ، وشق الإسلام طريقه ، وأخذ يخرج شيئاً فشيئاً من طور الدفاع إلى طور الهجوم ، وكانت الجزيرة العربية تتطلع

— فلما انتصر عليه السلام في موقعة بدر حسده اليهود وأظهروا الفش والاح منهم ما زلزل ثقة النبي في وفائهم له ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، واستمروا على إظهار العداء ونبد العهد . وحدث أن عبث يهودي بامرأة من الأنصار كانت جالسة عند صائغ ، فنقض درعها إلى ظهرها ، وهوى جالسة لا تشعر بذلك ، فلما قامت بدت عورتها ، فضحك منها الناس . فقام رجل من المسلمين فقتل اليهودي ، فتجأش اليهود وقتلوا الرجل ، فعاصرهم النبي وأجلهم وأخذ أموالهم — هذا ما وجدته عند الواقدي في هذا الصدد — المترجم] .

باهتمام شديد إلى ما سيتجلى عنه الصراع الكبير بين المشركين وبين المؤمنين بالله ، وهو الصراع الذى كان قائماً بين مكة والمدينة .

وفي أثناء هذا الصراع الذى كان دائراً في الظاهر بين الإسلام وبين الوثنية العربية تم على نحو يستلقت النظر تعريب داخلي للإسلام نفسه . وقد كانت نقطة البداية في دعوة محمد [عليه السلام] اقتناعه ، في أول الأمر ، بأن ما جاء به من دين يتفق مع اليهودية والنصرانية ؛ فكان ينتظر طبقاً لهذا الاقتناع ، أن يهود المدينة سيستقبلونه مرحبين . ولكنهم لم يعترفوا له بأنه نبي ، ولم يعترفوا بأن الوحي الذى أنزل إليه هو الوحي الذى عندهم ، وإن كان اليهود دخلوا في أول الأمر ، من الوجهة السياسية ، في الأمة التى أسسها محمد [عليه السلام] ؛ وعلى هذا خاب أملاه في اليهود خيبة مريرة . ولما كانوا لم يعتبروا اليهودية مثل الإسلام ، بل جعلوا منها خصماً له ، فإنه من بجانبه جعل الإسلام خصماً لليهودية ، ثم خصماً للنصرانية أيضاً . فجعل لدينه علامة تبدلوا لنا غير ذات معنى وإن كانت في الحقيقة عظيمة الأهمية ؛ ونهى لاتعبر عن الانفاق بين الإسلام وبين الشريعتين المؤنختين له ، بل تعبر عن تمايزه عنهما . فجعل يوم الجمعة ^(١) ، بدلا من يوم السبت أو الأحد ، يوم الصلاة الجامعة ، وجعل نداء المؤذن بدلا من الأبواق والأجراس ، وألغى صيام يوم عاشوراء الذى هو يوم صوم الغفران عند اليهود ، وأحل صيام شهر رمضان محل صيام الأربعين (Quarantana) عند النصارى . وهو إذ جعل الإسلام يقوم على أسسه الخاصة متمسكاً بهذا المظاهر اليهودية والنصرانية ، قد أخذ يقترب بالإسلام في نفس الوقت من دين إبراهيم اقتراباً إيجابياً ^(٢) ، وكان لا يزال من

(١) [جاء في الحديث الشريف ما يدل على فضل يوم الجمعة وأنه اليوم المقدس الأسلى ، راجع مثلاً فتح البارى ٢ - كتاب الجمعة - المترجم] .

(٢) [كان دين إبراهيم معروفاً في مكة حتى عهد النبی ، وتدل النصوص الكثيرة على ذلك ، كما يدل المأثور العربى الذى لاشك فيه على أن إبراهيم هو الذى أسس البيت الحرام ليكون بيتاً يمد فيه الله ، ولا شك أن التوراة لم تتضمن كل تاريخ إبراهيم ، فلاس فيها شيء يذكر عن إسماعيل . ومن غير الممتنع على كل حال أن يظل دين إبراهيم مقصوداً على الطرف الشمال من جزيرة العرب - المترجم] .

قبل يعتبر نفسه النبي المرسل إلى الغرب خاصة الذي يتلقى الوحي الموجود في التوراة والإنجيل ويبلغه بلسان عربي^(١) . ويظهر أيضاً أنه لم ينكر أبداً ميله الطبيعي للكعبة في مكة ولرب الكعبة ، أما الآن فإنه بحكم تأثير الظروف قد خطا خطوة حاسمة في هذا الاتجاه ، فغيّر القبلة وأمر الناس بأن يولوا وجوههم في صلاتهم ، لا إلى بيت المقدس ، كما كان يفعل ، بل إلى مكة^(٢) . وصارت مكة بدلاً من بيت المقدس تعتبر البيت المقدس حقيقة وبيت الله الحقيقي على الأرض ، وأصبح الحج إلى الكعبة ، بل تقبيل الحجر المقدس ، من الشعائر الدينية المفروضة . وبذلك دخل في الإسلام مركزاً للشعائر وعيد وثنى شعبي ، وكان لا بد في تبرير هذا الصنيع من الاستشهاد بالتاريخ ، كما هي العادة ، فقبل إن البيت الحرام في مكة والشعائر الدينية المكية كانت في أول الأمر للتوحيد ، وإن إبراهيم هو الذي

(١) [إن الدعوة الإسلامية موجهة إلى الناس كافة ، وهذا ثابت بنص القرآن في سورة مكية - سورة ٢٤ (سبأ) آية ٢٨ . ومنذ أول الأمر يصرح القرآن بأنه جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، ولكنه يكمل الوحي السابق ويهيمن عليه - المترجم] .

(٢) [كان النبي عليه السلام وهو في مكة يصل متجهاً إلى بيت المقدس ، وفي رواية ابن عباس أنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس . فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة أمره الله أن يصل متجهاً إلى بيت المقدس تألفاً لليهود ، كما يقول المفسرون ، ولبت على ذلك ستة عشر شهراً . وقبل موقعة بدر بشهرين أمره الله بالاتجاه في صلاته إلى البيت الحرام . وفي أثناء الفترة التي كان فيها وهو بالمدينة يصل متجهاً إلى بيت المقدس لم يقبل اليهود الدعوة الإسلامية ، فكان في ذلك شيء من الحرج ، وخصوصاً أن اليهود كانوا يمتنون أن يظل النبي متجهاً إلى قبلتهم ، وكان النبي يقلب وجهه في السماء منتظراً الأمر الإلهي بتحويل القبلة إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم عليه السلام ، ولأن البيت الحرام أول بيت وضع للناس ، فنزل القرآن بتحويل القبلة إلى البيت الحرام . ورغم ما في هذا كله من سياسة إلهية حكيمة في التآلف وفي الامتحنان فإن البعض منذ عهد النبي عليه السلام تساءل ، في شيء من الاستنكار ، عن سبب تغيير القبلة ، فوصفهم الله بأنهم « سفهاء » ونههم إلى الحكمة في ذلك . والإسلام قد أراد جمع كلمة أهل الديانات المنزلة كلهم فلم يستجيبوا له ، فأراد تجارز الخلاف بينهم بالتمسك بدين إبراهيم والاتجاه إلى البيت الذي رفع قواعده إبراهيم ، لأن أهل الديانات الثلاث ينتسبون إليه - راجع تفسير سورة البقرة آية ١٤٠ فما بعدها - المترجم] .

أسسها ، ولكنها بعد ذلك فسدت وصارت وثنية (١) . وبذلك انتزع إبراهيم ، أو التوحيد من اليهود وجعل مؤسساً لإسلام عربي قبل الإسلام ؛ واعتُبرت مكة هي مركز هذا الإسلام . ومن هذا الطريق فُصل الإسلام عن اليهودية فصلاً نهائياً وجُعِلَ ديناً عربياً قومياً .

وهكذا أدعت مكة في الإسلام من الناحية الروحية قبل أن تُفتتح . أما فتحها فقد جاء بعد ذلك ، في العام الثامن من الهجرة ، وقد تم فتحها صلحاً ؛ بأمان أُعطى سرّاً لأبي سفيان . أما ما كان هناك من خوف من أن تفقد مكة ، بسبب الإسلام ، جاذبيتها الدينية عند العرب ، وهي الجاذبية التي كانت مصدر حياتها الاقتصادية ، فقد زالت أسبابه مُقَدِّماً . والحق أن مكة قد استفادت أكثر مما كانت تستفيد من قبل ، وذلك لأنها وحدها هي التي بقي لها بيتها المقدس عند العرب ولأنها احتفظت بالعيد الذي يقام قريباً منها ، على حين أنه قد قضى على جميع الأماكن الأخرى التي كانت للشعائر الوثنية القديمة . وقد ألحقت الحرب بين قريش وبين محمد [عليه السلام] أضراراً كبيرة بقريش ، فلما انتصر حرص على أن يثبت لهم كم من الخير لهم أن يكونوا له أصدقاء ، فوهب لكبارهم عطايا كبيرة ،

(١) هذا رأى المؤلف ، وليس عليه برهان أصلاً . ومن أين عرف أن إبراهيم لم يؤسس البيت الحرام ، إذا كان العرب يعرفون ذلك قبل الإسلام . ولو فرض أن النبي عليه السلام هو الذي أخبر بذلك ، فلماذا لم يعارضه العرب على شدة حرصهم على معارضة الحق ! إن العرب هم وحدهم الذين يعرفون من الذي بنى البيت الحرام بمكة ، والمرووف أن المؤلف في كتاب آخر له يعمل ظهور الإسلام تعميلاً طبيعياً ويجعل التوحيد العربي ثمرة للعقيدة العربية وتأثير يهودي نصراني ، وأين هذا كله بالنسبة للدين الجديد المبين في القرآن . إن الإسلام الذي جاء به محمد عليه السلام شيء آخر غير ما في اليهودية والنصرانية ، وإن كانت هناك وجوه شبه عامة وظاهرية بين الإسلام من جهة ولديانتين السابقتين عليه من جهة أخرى . والتوحيد الساسي لا يمكن أن يكون قد ظل مقتصرًا على شمال جزيرة العرب ، فلا بد ، بحكم جميع ظروف الجوار والاتصال من أن يتسرب التوحيد الساسي من الشمال إلى الجنوب ، كما تسربت اليهودية والنصرانية بعد ذلك ، أما ما يسمى الوثنية العربية في مكة فهو التوحيد القديم شابهة شوائب وثنية ، ويعرف مؤرخو العرب - وهذا ما يدل عليه القرآن أيضاً - أن العرب كانوا موحدين ، ولكنهم كانوا يتقربون إلى الله بأصنام أو آلهة اتخذوها وسيلة لذلك - المترجم] .

وفعدهم بآيات كرمه ، وسمى هذه الطريقة لإقناعهم بالإسلام « تألف القلوب » .
وكان حبه الفطرى لوطنه الذى ولد فيه يلعب دوراً فى ذلك ، وقد ذهب فى سعيه
إلى تألف القرشيين بإظهار رضاه عنهم بكل الوسائل إلى حد أن الأنصار خافوا
من أن يجعل مكة مقر الرئاسة ويترك يثرب : ولكن هذا الإشفاق لم يكن له
ما يبرره ، فبقيت يثرب عاصمة الحكومة ، ولم ينتقل محمد إلى مكة ، بل هاجر
القرشيون الطامحون الذين أرادوا التقرب منه ومن الحكومة ، إلى المدينة ، وكان
أبوسفیان وبنو أمية من أول من هاجر إليها . ولكن هذا لم يكن فى مصلحة
الأنصار ، لأن المهاجرة^(١) صاروا يزدادون باستمرار فى مدينتهم ، آتين لامن مكة
فجسب ، بل من جميع أنحاء جزيرة العرب ، وصارت للمدينة جاذبية كبيرة أثرت فى
ذوى الطبائع المتوثبة الذين أرادوا تجربة حظهم ، وقدر حبهم للنبي كما يرحب
يقبول ما تزداد به قوته ، دون مبالاة بما كانوا عليه ، ولو كان وراء أحدهم ماضٍ
غير نبي تماماً .

وقد انتظرت القبائل العربية حتى ذلك الوقت . وبعد فتح مكة وما أعقبه
بسرعة من إخضاع هوازن أذعنوا للمنتصر قبيلة بعد الأخرى واعتنقوا الإسلام ،
ولم يكن الأفراد هم الذين فعلوا ذلك ، بل فعله أمراء العرب بالنيابة عن قبائلهم ،
وصالح رؤساء العرب وشيوخهم محمداً [عليه السلام] ، وحاولوا ما استطاعوا أن
يصلوا إلى شروط ملائمة لأقوامهم ولأنفسهم أيضاً . فإذا كانت إحدى القبائل
مثلاً قد انقسمت بسبب النزاع حول الإمارة فإن أحد الفريقين المتخاصمين كان
يحاول من طريق الدخول فى الإسلام ، أن يتقوى على الفريق الآخر ، وكثيراً
ما عرضت هذه الفرصة للملائمة لمحمد [عليه السلام] . وعلى هذا كان الدخول فى
الإسلام عملاً سياسياً وانضماماً إلى الأمة فى المدينة ، وكان الأمر مقصوراً على قبول

(١) [يستعمل المؤلف نفسه هذه الكلمة وهى موجودة فى كتب التاريخ ، لكن
الأشهر هى كلمة المهاجرين ، وقد استعملها القرآن - على أننا لم نغير ما اختاره المؤلف -
المترجم] .

مظاهر الإسلام وعلامات سيادته، خصوصاً الصلاة والأذان ودفع الزكاة، حتى إذا تمّ الاتفاق على دخول الإسلام بعث النبي إلى بلاد القبائل من يقيم الصلاة بينهم ويعلمهم أصول الدين وأحكام الشريعة ، فكان الاعتراف باللسان كافياً ، وكان الإيمان ، في أقوى درجاته ، إيماناً ضمنياً (fides implicita) .

وكانت خاتمة لإدماج جزيرة العرب كلها في الإسلام تلك البراءة التي كانت في السنة التاسعة من الهجرة وأيضاً حجة الوداع في السنة العاشرة ، فأعلن أن الحج إلى مكة وأن العيد الذي يقام إلى جوارها أشياء إسلامية خالصة ، فلا يصح للمشركين أن يحجوا إلى مكة ، وبذلك أبعدوا عن ميراثهم الخاص ، وهو الميراث الوثني الخالص^(١) . ولم يكف هذا ، بل اعتبرت جزيرة العرب كلها أرضاً للإسلام وحده ، فأما جميع العرب الذين كانوا لا يزالون على الشرك فقد أُنذروا بذلك وبأهم لا عهد لهم ولا ذمة بعد أجل حدّد لذلك^(٢) ، وأما الذين دخلوا في الإسلام وحكومتهم التيوقراطية فلهم السلام من الله ، ولا يجوز أن تكون بينهم حروب . وكان الإسلام قد جرت القلم على الماضي وعلى أسباب الحرب من قبل ، أما الآن فهو أعلن أن كل مطالبة بدم سابق أو بديّة سابقة يجب أن تكون تحت الأقدام^(٣) .

(١) [لا يزال المؤلف يتكلم على أساس نظريته ، وهي أن التوحيد العربي تطور عن الوثنية ، وهذا عكس الواقع في مكة ، فالتوحيد هو الأصل والوثنية طارئة ، وكما قلنا من قبل لا يعقل أن يبقى دين إبراهيم أو التوحيد السامي دون أن يتسرب إلى داخل جزيرة العرب في المصور القديمة ، كما أن اليهودية ، والمسيحية بعدها ، تسربت في عصور تالية ، هذا إلى أن في مأثور العرب أنفسهم ما يدل على أن الوثنية التي كانت في مكة جاءت قبل الإسلام بقرون قليلة ، بل إن اسم من جلب هذه الأصنام معروف . والمؤلف نفسه يعرف ذلك كما يدل عليه ما يذكره عن كتاب الأصنام لابن الكلبي ، وهو قد ذكر ذلك في كتابه : بقايا الوثنية العربية ، والمرب هم الحجة في معرفة تاريخهم ، وكل الفروض والاستنتاجات مهما كان فيها من الخلق لا تقوم حجة على العرب - المترجم] .

(٢) [هذا ما تدل عليه الآيات الأولى من سورة براءة ، فليرجع إليها القارئ وإلى تفسيرها والروايات المذكورة في ذلك - المترجم] .

(٣) [يشير المؤلف إلى ما جاء في خطبة حجة الوداع من وضع أي إلناء دماء الجاهلية وما كان فيها من ربي ، ومن تقرير بده حياة جديده ليس فيها ثأر ولا عصبية ، وهذه الخطبة =

وكان ذلك ضرباً من إسقاط الديون (Seisachtie) مغايراً كل المغايرة لما فعله سولون وأبعد منه أثراً وأوسع نطاقاً . ومن المدينة انتشر سلطان الدولة التيقراطية على كل جزيرة العرب ، وبقيت القبائل على محالها ، وبقي أشرفها على ما هم عليه ، ولكن كان لأصحاب النبي الذين أرسلهم فيهم ضرب من الإشراف عليهم في كثير من الأحيان ، ودخلوا جميعاً في بناء دولة واحدة ، مقر حكومتها في المدينة : وكان تأسيس هذه الدولة التي قضت على الفوضى وأزالت الفرقة التي شملت جزيرة العرب ، إن كانت دولة مفككة ، هي الحجر الأخير في البناء الذي شاده محمد [عليه السلام] . فهو لم يَمُتْ كما يموت شهيد مضطهد ، بل هو مات وهو في أوج النجاح ، وليس ثم ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه أنه حقق لإنشاء مملكة الله [في الأرض] على الأساس الطبيعي الذي وجدته أمامه فهو وإن كانت الضرورات العملية ، في كثير من الأحيان ، قد اضطرت له أو هي انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدسة^(١) ، من غير أن يسند ذلك لا إلى الله ، فلا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقاً .

٤ - وقد حسبت قبائل العرب أنها إنما بايعت للنبي فحسب ، وساد بين العرب الرأي القائل بأن هذه البيعة لا تربط صاحبها إلا بشخص من أعطيت له ، فبعد أن توفي النبي ارتدوا عن الإسلام ، ولكن ارتدادهم لم يكن عن الإيمان بالله ، بل هم أرادوا التنصل من حكومة المدينة . وكان الموقف في داخل المدينة نفسها موقفاً حرجاً ، ولكن الحكومة التيقراطية تغلبت على الموقف الحرج

بما تضمنته من إعلان الحقوق وبيان الواجبات المتنوعة وثيقة من أهم الوثائق في تاريخ الإسلام ، فليراجع القارئ هذه الخطبة في كتب التاريخ والحديث والأدب - المترجم] .

(١) [كالحرب أو إخراج اليهود الذين خانوا في مكة في رأي المؤلف ، كأنما يعتبر ذلك وسائل غير مقدسة وغير صحيحة ، والحق أنها هي الوسائل التي لا بد منها في الدفاع عن الحق ودرء خطر الباطل عليه . ولا يوجد دين حق إلا وقد اضطُر أن يدافع عن نفسه بالجهاد والاستشهاد . وينبغي ألا يفكر الإنسان في ذلك بقدر ما يفكر في عناد أهل الباطل ، وأنه لا يمكن درء شرهم إلا بالدفاع عن النفس بالقوة - المترجم] .

الذى نشأ على أثر تغير الحاكم ، وأرغمت جزيرة العرب على الطاعة مرة أخرى (١) ، وبدأ أن خير وسيلة لأب الصدع هي التوسع نحو الخارج ، هذا التوسع الذى أعقب إخضاع التمرد الداخلى على الفور . وكان الجهاد ، وهو الحرب فى سبيل الله ، وسيلة إلى جعل القبائل المتمردة تحرص على مصلحة الإسلام وجعلها ترضى به . ولم يكن الجهاد لنشر الدين أكثر من ذريعة وتعلة للحرب (٢) ، كما لم تكن دعوة أعداء الله إلى الدخول فى الإسلام قبل محاربتهم إلا مسألة شكلية (٣) ، لأنه لم يكن ينتظر منهم أن يلبوا هذه الدعوة حقيقة ، أما فيما يتعلق بما عدا جزيرة العرب فقد كانت هناك قاعدة غير القاعدة التى اتبعت بالنسبة للعرب ، ذلك أنه لم يترك للعرب مجال للاختيار ، بل كان لا بد لهم أن يدخلوا فى الإسلام . وكان المقصود من هذه السياسة هو أن لا يكون فى جزيرة العرب كلها دين " إلى جانب الإسلام " (٤) . وقد ذهب اعتبار الإسلام والعروبة شيئاً واحداً إلى حد أنه لم يكن من الممكن أن يدخل أحد فى الإسلام دون أن يلحق بقبيلة عربية أو يندمج فيها . أما غير العرب فلأنهم لم يُكرهوا على الدخول فى الإسلام ، بل كان أول ما يُظن هو فى الواقع أن يبقوا على دينهم السابق . وهم ، من حيث أنهم ليسوا عرباً ، لم يكن ينطبق عليهم معنى العضو المواطن الأصيل فى الدولة التيوقراطية ، ولا

(١) [يقصد المؤلف انتقاص العرب بعد وفاة النبى عليه السلام وعصيانهم مما أدى إلى حروب الردة - المترجم] .

(٢) [ولكن الاتجاه نحو الخارج كان مواصلة لسياسة النبى نفسه عليه السلام ، فهو قد ذهب إلى شمال جزيرة العرب درماً لفزو محتمل أو لمعرفة أحوال الحدود . ولو لم يغز العرب من حولهم لفزاهم من حولهم - المترجم] .

(٣) [هذا لا يصدق على الفتوحات الأولى ، وقد حدث فيما بعد أن بعض القواد كان يؤثر الفتح عنوة على الصلح لما يجره الأول من غنيمة ويوطده من سلطان - المترجم] .

(٤) [أما تغلب التى سمح لها أن تبقى نصرانية ، فقد كانت تقطن أرض الجزيرة . [وفى حديث عن النبى عليه السلام أنه قال : لا يبقى دينان فى جزيرة العرب . ولا شك أن هذا كان لأجل حماية الإسلام فى موطنه الأول . ولذلك أجلى عمر بن الخطاب نصارى نجران لما خالفوا شروط الصلح التى كانت بينهم وبين النبى وصاروا خطراً يتمرب منه الفساد إلى المسلمين - المترجم] .

كان يجوز لهم أن يدخلوا أعضاء مواطنين فيها ، وإنما كان يجب أن يدعونا لسيادتها فحسب : وكان هذا هو الغرض من محاربهم (١) .

وهكذا نشأت من الدول العربية التي كان قد أسسها محمد عليه السلام إمبراطورية بعد موته ، أعنى دولة تيوقراطية سادت العالم . وكانت هذه الدولة تشتمل على طبقتين من المواطنين ، متمايزتين من الناحية السياسية ومن الناحية الدينية : وكان سادة هذه الدولة هم العرب من حيث هم مسلمون ، وفي الوقت نفسه من حيث هم محاربون وفتحون ؛ وتحولت الجماعة المحمدية إلى جيش تحولاً تاماً ، وصارت الصلاة والصيام وبقية الشعائر الدينية في المرتبة الثانية بعد الجهاد ، وأشرق الإسلام في نفوس أهل البادية على هذه الصورة ، فكان بمثابة الراية التي تقودهم إلى النصر والغنيمة ، وعلى أسوأ الاحتمالات إلى الجنة . وفي الظروف والأحوال التي جاءت بعد ذلك بدأ تنظيم الدولة التيوقراطية في البلاد المفتوحة ، كما ينظم الجيش تماماً ، فكان سجل المواطنين المشتمل على أسمائهم هو سجل ديوان الجيش ، وكانت القبائل والعشائر هي التي تؤلف فصائل الجيش وكتائبه ، ولم يكن جميع

(١) [هذا غير صحيح ، بل الصحيح الذي وقع وسبقوله المؤلف في أكثر من موضع في كتابه هو أن من أسلم صار عضواً في الدولة الإسلامية له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . ومن لم يسلم من أهل الكتاب فعليه الجزية في مقابل تمتعه بحريته في دينه وماله وإعفائه من الواجبات الحربية . أما غير هؤلاء فلا بد أن يدخل في الإسلام أو دين منزل آخر . والمؤلف يصور الإسلام على أنه دين العرب وحدهم ، مع أن القرآن والحديث صريحان في أن النبي عليه السلام أرسل إلى الناس كافة وأن الأديمين من أب واحد وأم واحدة وهم سواء ، وأن القرآن دعا كل الناس من أهل الكتاب ومن غيرهم إلى الدخول في الإسلام ، وأن النبي عليه السلام جعل مولاة ، ولم يكن عربياً ، قائداً على كبار العرب ... الخ ، وإنما انزلت قدم المؤلف بسبب أنه نظر في مسألة فرض الإسلام على العرب ففان أن الإسلام = العروبة ، وأن الإسلام = دولة العرب على من عداهم ، والحق أن إلزام العرب الدخول في الإسلام كان لحماية الإسلام في داخل وطنه ، وأن الإسلام يعطى صاحبه الحق في أن يكون مواطناً في الدولة الإسلامية . أما إذا كان العرب لم يرضوا أن تكون الخلافة في غير العرب واقتتلوا عليها فهذا شيء طبيعي ، وكيف يكون الأمر طبيعياً لو أن العرب حملوا الإسلام ودافعوا عنه وأسسوا دولته عشرات السنين ثم تولى أمرهم غير عرب لم يعرف الإسلام بهد ، مع أن الدولة دولة دينية — المترجم] .

العرب يقيدون في ذلك الديوان بل المقاتلة منهم فحسب ، وكان المقاتلة يسمون ،
تميزاً لهم عن يبقون في ديارهم « بالمهاجرة » أى الذين ينتقلون إلى المعسكرات
الكبرى التى منها كانت تُنظَّم الحرب وتوجَّه ، وذلك أن الهجرة لم يكن لها معنى
الحرب بل الهجرة (بالأهل والولد) إلى المراكز السياسية الحربية لأداء أعمال^(١) ،
ولم يكن يستطيع الإنسان في الإسلام أن يتمتع بما للمواطن من حقوق كاملة إلا في
الجيش وفي المدن ومعسكرات الجيش الكبرى . أما الأعراب الذين بقوا لا يعملون
شيئاً ، في ديارهم ومع قطعانهم ، فلم يكونوا يعتبرون مواطنين بالمعنى الكامل ،
وكادوا ألا يعتبروا مواطنين على الإطلاق^(٢) . وكانت دار الهجرة الأولى أو دار
الإسلام هى المدينة ، وإليها كان يسير فيض أهل التوثب والطموح ، ثم أضافت
إليها عواصم الأقاليم (مصور ، جميع مصر) فكانت الهجرة إليها ، من حيث
المعنى ، ممكنة . وكانت توجد في الشام من قديم مدن اختيرت لذلك . أما في
غير الشام ، فقد بنيت مدن حربية ، كالفسطاط في مصر ، والقيروان في إفريقية
الرومانية ، ونخصوصاً البصرة والكوفة في أرض العراق .

ومن هذه المدن التى كان العرب قد تجمعوا فيها فرض العرب طاعتهم على
البلاد التى فتحوها ، وكان الأمر أمر سيادة حربية صرفة ، وكان الأمراء الذين

(١) نجد هذا المعنى للهجرة في كتاب الحفاصة مثلاً ، ص ٧٩٢ بيت ٣ :

فما جنة الفردوس هاجرت تبتنى * ولكن دعاك الخبز ، أحسب ، والتمر
قارن أيضاً ديوان القطاى . ق ٤ ، بيت رقم ٢٥ :

فليس من الأحياء إلا مسود * ربيعة ، أعرابية ومهاجره

(٢) كتاب الخراج ليعقوب بن آدم ص ٥ م ١٨ ، ص ٥٩ م ١٥ - ٢٠ ، قارن مقال
عن النوارج (في Göttinger Ges. der Wiss. 1901, p. 9.) [في المواضع التى يشير
إليها المؤلف من كتاب الخراج حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم في أمر أعراب المسلمين أنه
ليس لهم في الفئ والعنينة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فن لم يجاهد ولم يك فقيراً أو شغل
بتجارة أو عمل غير ذلك فلا شيء له في العنينة والفئ ، إلا أن تصيبه حاجة فيدخل مع أهل
الحاجة - المترجم] .

تُفتَح بلاد تحت قيادتهم هم أول الولاة الذين يعينون عليها . وكذلك كان من جاء بعدهم قواداً حربيين قبل كل شيء ، ولكن كما أن الجيش كان في نفس الوقت هو الأمة ذاتها ، فكذلك كان الأمير هو الإمام ، إمام الصلاة في المسجد ، خصوصاً يوم الجمعة ، وفيه كان يُخطب خطبة الجمعة ؛ فكان يُعيِّن على الحرب والصلاة ، وكانت الحرب والصلاة معاً من اختصاصه ؛ وإلى جانب ذلك كانت له بطبيعة الحال السلطة التنفيذية ، ولحق بها الفصل الأعلى في أمور القضاء ، لأن من مقتضياته القوة القاهرة على فرض السلام . وكان الأمير يباشر القضاء بنفسه في أول الأمر ، ثم صار يعين قاضياً في العاصمة (١) .

وكان الأمير يترك الإدارة الداخلية ، والقضاء إلى حد ما ؛ لمن يليه في حكومة ولايته . وكذلك احتفظ العرب في الأقاليم التي فتحوها بنظامهم القبلي السابق ، غير أن فرقاً ظهر بالنسبة لما كان الحال قبل . ففي الوطن العربي الأول لم يكن يتألف اتحادٌ حقيقي إلا من جماعة صغيرة نسبياً ، وهي الجماعة التي كانت تحمل للرعى معاً وترتحل معاً ، وكانت تعدّ نفسها مع غيرها من القبائل تابعة لجماعات أكبر فأكبر ؛ ولكن هذه الجماعات لم يكن لها من هذه الناحية العملية كبير شأن . أما بعد أن اجتاز العرب حدود صحرائهم على نطاق واسع فقد تغير هذا الوضع ، ولم تكن القبيلة كلها تهاجر إلى الخارج وتقيم مجتمعة في مكان واحد بعينه ، وإنما كانت أجزاء من القبيلة تخرج إلى هنا وإلى هناك ولا تستطيع أن تعيش وحدها فكانت لذلك تنضم إلى أجزاء أخرى من قبائل قد هاجرت أيضاً وتشترك معها في نسب أعلى ، وذلك لكي يتسنى الوصول إلى الانسجام الذي لا بد منه في الجماعة . وكان هذا أسهل ما دام لم يكن للقبائل ما كان لها من قبل من مكان

(١) لم يكن يوجد في عهد عمر الأول [عمر بن الخطاب] مثل هذا القاضي ، ويرى أنه في ذلك الوقت لم تحدث منازعات على الإطلاق ، وأول ما سمعه عن وجود قاض في الكوفة في عهد معاوية أو ابنه يزيد . وفي طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٩١ أن شريحاً كان قاضياً عينه عمر بن الخطاب على الكوفة .

رحب تنتشر عليه وما داموا يعيشون معاً مجتمعين في معسكرات ومتصلين فيما بينهم اتصالاً وثيقاً ؛ ففي الكوفة مثلاً ، كان هناك ما يشبه خريطة حقيقية تبين توزيع القبائل التي هاجرت من البادية ، على تفرعها الكبير ، وهذا يفسر كيف أنه من طريق نوع من أنواع الاندماج صار لبعض الجماعات التوسلية الكبيرة شأن جديد لم يكن لها من قبل ولم يكن لها من بعد في جزيرة العرب نفسها . ولم يزل هذا الاتجاه إلى تكون جماعات من القبائل يزداد نطاقاً بتأثير طروء أحوال أخرى ، حتى أصبح عاملاً خطيراً في التاريخ الداخلي للدولة العربية .

وكان موقف غير العرب بالنسبة للأرستقراطية الحربية العربية هو موقف الرعايا^(١) الخاضعين ، وكانوا هم الدعامة المالية للدولة ، فكان لابد لهم أن يساهموا في الحياة لسادتهم من طريق الخراج المفروض عليهم والضرائب التي يدفعونها كرهاً والتي كانت تُشعرُ بالغضاضة وكانت وطأتها عليهم أشد من وطأة الزكاة التي كان يدفعها المسلمون . وكان تدخل الدولة العربية في شئونهم الداخلية — إذا لم تدع إلى ذلك حاجة — أقل من تدخلها في شئون القبائل . أما في الجهات التي كانت من قبل تابعة للدولة الرومانية فكثيراً ما بقي الأساقفة رؤساء مدنيّين لطوائفهم الدينية ، كما كانوا من قبل . وفي فارس ظل الدّهاقينة رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء من أهل البلاد ، أينما وجدوا ، هم المسئولين عن الضرائب . ولم تكن الحكومة يهتمها سوى حمل الخراج إلى بيت المال على المقدار المفروض له ، وكان على الوالي أن يفرض الطاعة على الرعايا ، حتى يؤتوا الخراج ، ثم صار يضم إليه في بعض الأحيان عامل على الخراج مستقلٌ بذاته ، ولم يكن ذلك مما يُسرُّ له الوالي ، لأن عمله عند ذلك كان يصبح مقصوراً على أن يمسك البقرة من قرونها حتى تسكن ، على حين يحلبها شخص آخر .

(١) إن استعمل كلمة : رعايا (Untertanen) بهذا المعنى الضيق في مقابل العرب ، أصحاب السلطان الحقيقيين في الدولة .

وكان الأساس لفرض الضرائب على الرعايا ولتنظيم مركزهم القانوني بوجه عام هو قانون الغنائم العربي القديم ، في الصورة المعدلة بعض الشيء والتي أقرها محمد [عليه السلام] بحسب القرآن . فكان إذا خَصَصَتْ مدينةٌ أو أرضٌ للمسلمين صلحاً بغير قتال أصبح أهلها آمنين على حياتهم وحريتهم وما يملكون ، لكن كان يجب عليهم في مقابل هذا الأمان وفي مقابل الحماية من جانب الدولة أن يدفعوا إتاوة بمقدار معلوم بحسب قاعدة يُنصُّ عليها في كتاب الصلح^(١) . أما إذا سلموا عنوةً فإنهم يقعون تحت طائلة قانون الحرب ، أعنى أنه يسقط كل حق لهم ، فكانوا يعتبرون هم وكل ما يملكون غنيمة للمنتصر ، وكان الخمس يؤخذ لله ، أى للدولة ، وكذلك كانت صوافى الملوك والضياع والقرى التي يتركها أهلها ويهربون عنها تصبح للدولة^(٢) . أما ما عدا ذلك ، لا الممتلكات المنقولة فبحسب ، بل الأرض والناس أيضاً ، فكان ينبغي ، طبقاً للقانون ، أن يُقسَّم ، لكن لا على جميع المسلمين ، بل على مقاتلة الجيش الذي قام بالفتح . ولكن هذا القانون لم يمكن تنفيذه ، لأن مثل هذا التغير الهائل في الممتلكات كان مستحيلاً ، حتى لو لم يصب أهل الطبقات الدنيا إصابة كبيرة ، لأنهم لم يكونوا يملكون الأرض ، وإنما كانوا يزرعونها . ولم يكن العرب يستطيعون أن يقتسموا فيما بينهم نصف العالم ، إلا إذا كان يرادُ له أن يتحول إلى أرض خربة ، ولا كانوا أيضاً يستطيعون أن ينتشروا في تلك الأرض الواسعة لكي يزرعوها ، بل كان لابد لهم أن يتجمعوا في معسكرات إن أرادوا المحافظة على سلطانهم . ويروى أن النبي عليه السلام قال^(٣) : « جُعِلَ رِزْقُ أُمَّتِي فِي سَنَابِكِ خَيْلِهَا وَأَزْجَةِ رَمَاحِهَا ،

(١) وفي بعض الأحيان كانوا يقومون بخدمة عسكرية على حدود الدولة ، وعند ذلك كانوا يدفعون من دفع الإتاوة لأن الإتاوة كانت تعتبر مقابلاً للإعفاء من الخدمة العسكرية وقيام العرب بها .

(٢) يحيى بن آدم ص ٤٥ .

(٣) يحيى بن آدم ٥٩ .

ما لم يزرعوا ؛ فإذا زرعوا كانوا من الناس . وفوق هذا كان لابد للعرب أن يُفكِّروا في المستقبل ، فلو أن كل شيء قُسم على الفور بين الفاتحين الحقيقيين ، لتبددت الغنيمة التي حصلوا عليها بالسرعة التي غنموها (١) . ولذلك اعتُبرت الأرض بمثابة رأس مال ثابت وأُعيرت لملاكها الأصليين على أن يزرعوها ويؤثروا غلتها (٢) . وهذه الغلة وحدها هي التي كانت نصيب العرب المحاربين ومن يرثهم من ذرائعهم ، فهم لم يكن لهم رأس المال ، بل ما يخرج منه . وعلى هذا النحو لم تكن المدن والقرى التي فُتحت عنوة بأسرها حلالا ، في الحقيقة ، من المدن التي سلّمت صلحا ، وكذلك كان اسم الإتاوة في الحالين واحدا (٣) ، غير أن الإتاوة في الحال الثانية كانت تحدد في شروط الصلح وكان لا يجوز تغييرها على الهوى (٤) .

وهكذا نشأ التمايز بين الغنيمة والفسيء العصر الذي جاء بهد محمد [عليه

(١) [جاء في كتاب الخراج ليعقوب بن آدم ص ١٣ من ١٢ - ١٧ ، أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد حين افتتح العراق : « أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ؛ فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس به إلى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بق بعدهم شيء - المترجم] .

(٢) وكذلك نجد في سفر التكوين ، ٤٧ ، أن الضريبة التي كان على الزراع المصريين أن يدفعوها لفرعون علامة على أن أرضهم ملك لفرعون وأهم عبيد له .

(٣) يقول يعقوب بن آدم (ص ١١) إن كل أرض سقتها الأنهار أو سيق إليها الماء منها فهي أرض خراج ، راجع أيضاً : ص ١٣ ، ٣٣ ، ٣٥ فأبعدها .

(٤) لكن الآخرين أيضاً افتملوا لأنفسهم ، فيما بعد ، واثاق تسلّم ، ولم يكن هذا عسراً نظراً لقلة المعرفة بالدبلوماسية والغموض التاريخي الذي سرعان ما أحاط بعصر الفتوحات المضطرب [وفيما يتعلق بعدم جواز التغيير فيما صولح عليه أهل الصلح الذين خلى بينهم وبين أرضهم ، راجع كتاب الخراج ص ٦ و ٩ : على أهل الصلح أن يؤدوا ما صولحوا عليه ولا يرضع عليهم شيء ، ما أدوا عليهم ؛ فإن عجزوا عنه خفف عنهم ، وإن احتملوا أكثر مما يؤدون فلا يزداد عليهم شيء ، ولا يطرح عنهم شيء ، موت من مات أو إسلام من أسلم منهم ، ويؤخذ بجملة ما عليهم من بق منهم ، ما كانوا يطبقونه ويحتملونه . فالقاعدة هي أنه لا يزداد عن أهل الصلح شيء ، ولا يخفف عنهم شيء من خراج أو جزية إلا إذا عجزوا عنه . أما القاعدة العليا فهي ألا يكلفوا فوق طاقتهم - المترجم] .

السلام] فكانت الغنيمة هي الممتلكات المنقولة التي تُحمل إلى العسكر ، وكذلك الأسرى الذين كانوا يقسمون بين المحاربين كما كانت الحال من قبل . أما الفتيء فكان هو ما يُغنم من أرض ثابتة هي ومن عليها من السكان ، وهي لم تُقسَّم بل تُركت للمالكين القدماء في مقابل إتاوة ، بحيث كان لا ينال مالكوها الحقيقية بحسب قانون الحرب إلا غلتها^(١) . ولكن الدولة كانت

(١) كلمة التي مأخوذة من القرآن (سورة ٥٩ (الحشر) آية ٦ و ٧ . لكن لم يكن يفرق فيه بين الغنيمة والتيء ، بل هذه التفرقة غير جائزة ، ومعنى الكلمة هو في الحقيقة معنى الكلمة اللاتينية : *reditus* أي : العائد المردود كرجح . . . (يجب ص ٣٣ - وابن هشام ص ٨٩٠ من ٧) . ولكن لا تستعمل في الدلالة على ما يرتفع من الغلة فحسب ، بل أيضاً على رأس المال الذي يأتي منه التيء ، والفقهاء المسلمون يعتبرون ، بطبيعة الحال ، أو الفرق بين الغنيمة والتيء فرق قديم ، ولا يسلمون بأنه لم ينشأ إلا فيما بعد ، عند التطبيق العملي ، خلافاً لما يؤخذ من القرآن . [وأهم الآيات التي ورد فيها ذكر التيء والغنيمة هي : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » (سورة الحشر (٥٩) آية ٧) ؛ « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم اتى الحمعان ، والله على كل شيء قدير » (سورة الأنفال (٨) ، آية ٤١) . فالآية الأولى تفصل بيان أصحاب الحق في التيء ، والثانية تبين نصيب أصحاب الحق في الغنيمة على الإطلاق ، وهم أصحاب الحق في التيء تماماً . ومن الواضح أنه بحسب هاتين الآيتين لا فرق بين الغنيمة والتيء ، من حيث دلالة اللفظ . ويؤخذ مما جاء في كتاب الخراج ليعقوب بن آدم (ص ٣ - ٥) أن الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة ، وهي جميع ما أصابوا من شيء ، قل أو أكثر ، حتى الإبرة . أما التيء فهو ما صولح عليه المسلمون بغير قتال ، من جزية أو خراج ، وهو كله لمن سمى الله من المستحقين له ؛ والغنيمة فيها الخمس لله ، وهو مردود من الله على من ذكره من المستحقين له الذين هم أصحاب التيء أيضاً ، ولا يصح أن يوضع في غيرهم ، والإمام يعطيه لمن حضره منهم بعد اجتهد الرأي وتحرى العدل ، أما ما بقى بعد الخمس فهو ، من حيث المبدأ ، للذين غلبوا عليه من المسلمين وأوقفوا عليه ، راجلين أو بحيل وركاب .

أما الأرض التي تؤخذ عنوة ، فللإمام إما أن يأخذ الخمس منها ليكون فيئاً ويقسم الأربعة الأخماس الباقية على من ظهر على أرض العنوة من جيش المسلمين ، وإما أن يقفها كلها على جميع المسلمين . ويروى أن النبي [عليه السلام] وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها وأنه قسم بعض ما ظهر عليه ، فللإمام بحسب ما يرى من المصلحة أن يقف أرض العنوة كلها فيها جميعاً فيئاً ، كما صنع عمر بن الخطاب بأرض السواد في العراق ، وإما أن يقسمها ، بعد أن يأخذ

تجبي هذه الغلة بواسطة موظفيها ، ولم تكن بعد ذلك تعطى الغلة الكاملة في كل عام للمقاتلة أو لوارثيهم ، بل كانت تدفع لهم أعطيات وأرزاق ثابتة ، على حين يبقى ما يفضل عن ذلك في بيت مال الدولة .

وعلى هذا ظل التنظيم الإداري في البلاد المغلوبة جزءاً من نظام الاحتلال العسكري إلى حد كبير ، مما يؤدي إلى استغلال الرعايا . على أن ذلك لم يغير من الوضع الذي كانت عليه الأشياء حتى ذلك الحين إلى قليلا . فتغيرت السيادة ولكن موقف سواد الشعب البائس الذي يحتمل عبء دفع المال (misera contribuens plebs) بقي كما كان تقريباً واقتصرت الإدارة العربية على الناحية المالية ، وكان ديوان إدارة الدولة ديوان حساب ، وقد احتفظ العرب بالكتّاب اليونان والفرس . وكان هؤلاء الكتّاب هم الموظفين الفنيين الوحيدين الذين عندهم ، وهم أيضاً قد احتفظوا في الحملة بأسماء الضرائب القديمة وأنواعها ، ولم يغيروا كثيراً في وضعها وجبايتها . ويروى ما كان من أمر الرجلين اللذين كانا قد قدما من المدينة لمسح أرض العراق وفرض خراجها أنهما كانا من الحكمة بحيث فعلا أقل ما يمكن واقتصادا في استعمال مواهبهما كل الاقتصاد^(١) . وفي كثير من الأحيان

= خمسها . ومن الواضح أن لكل من الاحتمالين سنداً في القرآن : فأية سورة الحشر تجعل النوى في مستحقين بعينهم ضماناً لتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً ، وآية سورة الأنفال تجعل خمس الغنيمة - ويظهر أن المعنى هو المعنى المطلق - لأصحاب النوى أيضاً . أما بقية الغنيمة فهي للمسلمين الذين حصلوا عليها ، ويدخل في ذلك - إذا أريد الاستنباط الدقيق - كل غنيمة من أرض أو غيرها . ولكن عمر جعل أرض السواد فيئاً ، وقسم ما ليس أرضاً ، أعنى الغنيمة بمعناها الضيق - وشم أشياء من أرض أو غيرها ، هرب أهلها وتركوها من غير قتال ، فهذه للإمام يضمها حيث يرى ، كما فعل النبي من قبل ، فيستطيع الإمام ، إن شاء ، أن يقيم فيها من يعمها ويؤدي عنها شيئاً إلى بيت مال المسلمين ، ويستطيع ، إن شاء أيضاً ، أن يستأجر من يقوم فيها ويكون فضلها للمسلمين ، ويستطيع ، إن شاء أخيراً ، أن يقطعها رجلاً - المترجم] .

(١) [هذه ترجمة حرفية بقدر الإمكان لكلام المؤلف ، وهو لم يشر إلى أي مرجع يمكن الرجوع إليه لفهم ما يريد - المترجم] .

كان الخليفة بقر الإجراءات المؤقتة التي يتخذها قواده ، وكان هؤلاء يضطرون إلى الأخذ بالأوضاع الحالية .

وقد تمت معظم الفتوحات في عهد عمر ، وهو يعتبر المنظم لها . على أنه يتضح مما تقدم أنه لم يكن مُبَدِعاً لنظام جديد ، لكن يرجع له الفضل في أنه نحتى قانون الغنائم العربي جانبا ، وأنه أدخل الدولة بين الجيش وبين الأمم المغلوبة ، فحمى الرعية بعض الحماية ، واستند إلى تقوية الدولة على الجيش معتمداً على الخراج الذي كانت تدفعه هذه الرعية .

هـ - ولم يستطع القانون السياسى أن يلاحق في نموه نخطى القوة السياسية المتزايدة ، ولم يكن في التراث العربى القديم ما يمكن أن يؤخذ منه قانون عملى لتنظيم الحياة العامة للدولة ، ولا كان يمكن أن يؤخذ هذا القانون من مجرد فكرة الحكومة التيقراطية ، ولم يلبث أن أحس المسلمون بهذا النقص عند ما نشأت المشكلة الخطيرة ، مشكلة من الذى له الحق فى الرئاسة العليا الدولة الدينية .

ولم تظهر هذه المشكلة فى حياة النبى [عليه السلام] ، فكان هو خليفة الله والرئيس الدينى الحقيقى ، وكانت الحكومة التيقراطية مرتبطة بشخصه ارتباطاً وثيقاً ، ولم يحدث ما كان يظن من أن ساعة القيامة ستجىء مع موته ، فلم تنزه الدنيا ، وتوفى هو دون أن يكون قد تلافى ترك رعيته من غير راع . نعم ، لقد ترك القرآن والسنة ، ولكن لم يرد فى القرآن والسنة من الذى يعين خليفة بعده . على أن ذلك لم يكن معناه إمكان الاستغناء عن خليفة بالكلية ، بل كان لابد من إمام بعينه يؤم الناس فى الصلاة ويرأس الحكومة ، ولم تكن توجد طريقة للانتخاب المنظم ولا كان هناك حق وراثة النبوة (١) .

(١) [بعد أن قرر القرآن مبدأ المساواة بين المسلمين ، وقرر أن « أمرهم شورى بينهم » وأوصى النبى عليه السلام بأن يشاور أصحابه ، لم يكن هناك ما يدمو إلى النص على خليفة النبى =

وقد بدا أن موت النبي [عليه السلام] معناه القضاء على الحكومة
التيوقراطية ، وكان بين المؤمنين من لم يرد أن يصدق إمكان موت النبي (١) ،
وارتدت قبائل العرب عن الإسلام ، وكان الانقسام يهدد المدينة نفسها . ولما
لم يكن أمر الخلافة بعد النبي قد اتُّخِذَتْ له الأهمية من قبل فلم يبق في الإمكان
إلا التصرف الحازم . وكان أقرب الناس إلى الحكومة في عهد النبي عليه السلام
هم أتباعه وأصدقاؤه القدماء من أهل مكة ، وكانوا رجالا قلائل ، وكانوا يحكم
سابقهم في الإيمان هم أشراف الحكومة التيوقراطية ، وكانوا أشرافاً من أصل
إسلامي حقيقي ، وذو روح إسلامي حقيقية . وهم وإن لم تكن لهم مناصب
رسمية ، فإنه قد كان منهم في الحقيقة « مجلس » الرسول ، وكان لهم مكان كبير
عنده . فلما زالت عنهم حماية النبي لم يدعوا أمر الحكومة يفلت من أيديهم ،
بل قبضوا على أزمته بقوة عندما وقعت من يديه . وكان رئيسهم وعقلهم المفكر
هو عمر بن الخطاب ، وهو الرجل الذي يمكن أن يعتبر مؤسس الحكومة
التيوقراطية الثانية ، الحكومة التيوقراطية من غير نبي . وكان عمر آدم مشرفاً

عليه السلام ، وما ذلك إلا لأن الإسلام يريد نظاماً ديمقراطياً ويريد أن يجعل الاختيار للإمام
من حق الأمة ، ولذلك لم ينص النبي عليه السلام نصاً صريحاً على من يخلفه ، ولكنه عليه السلام
كأنما أراد أن يعرب عن رأيه هو في ذلك حيناً عهد إلى أبي بكر بالصلاة بالناس ، وعلى الوظيفة
الدينية الكبرى ، وكان من الطبيعي أن يخلفه أبو بكر بحكم سابقته في الإسلام وطول صحبته له .
ولقد كان من الحكمة السياسية البعيدة التي يغفل عنها كثير من النقاد أن النبي لم يعين له خليفة
تاركاً الأمر للمسلمين ، لأن الناس لا يخضعون لرئيس معين خضوعهم لرئيس يختارونه ، وهذا
هو الذي يدعو إلى الاستقرار . هذا ولم يكن النظام الديمقراطي بمعناه المعروف في العصر الحديث
شائعاً في ذلك الزمان ، بل كان اختيار الرئيس باتفاق كلمة كبار الرجال ، وهم المسلمون « أهل
الحل والعقد » ، وهذا ما قد حدث عند مبايعة أبي بكر رضي الله عنه ، فهو وعمر لم يكونا
مقتضيين للخلافة ، بل حريصين على ما هما أهل له ، وقد رضى الناس بهما ، طوعاً من جانبه
من عرف قدرهما وكرها من جاذب الحاسدين الطامعين فيما ليسوا أهلاً له . - المترجم] .

(١) [يشير المؤلف إلى ما يحكى من أمر عمر بن الخطاب وذهواه واضطرابه لما قيل له
إن النبي عليه السلام قد مات . - المترجم] .

على الناس من طوله ، كأنه راكب . وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع ، والروايات تصوره دائماً والدرة في يده ، ولم يكن ليناً ، ولا كان يتكلم رويداً ولا يتصدد في مشيه كما يصنع النساك المتكلفون ، ولكنه كان مع ذلك يخاف الله حقيقة ، ولم يكن غافلاً قط (١) ، ولكنه قدم أبا بكر ، أخص أصحاب النبي . ولما توفي أبو بكر ، بعد فترة قليلة (٢) ، تولى الخلافة عمر ، فصارت له الرئاسة من حيث الاسم أيضاً (٣) ، وقد عهد إليه أبو بكر بالخلافة في وصية له قبل موته (٤) . ولكن هذه الوصية لم تكن من جانب أبي بكر أكثر من إقرار لشيء طبيعي . وكان أبو بكر وعمر يعلمان أنهما لم يتوليا الخلافة بفضل حق شرعى ، بل من طريق الاغتصاب ، وهما لم يستطيعا أن يسبغا على رياستهما ، التي كانت غير شرعية في أول الأمر ، ثوباً شرعياً إلا فيما بعد ، وذلك بأن سارا في الحكم على المبادئ التي تقضى بها الحكومة التيقراطية ، ولما كانت حكومة النبي عليه السلام ، وهو الوكيل الحى لله والحاكم باسمه ، قد انتهت فإن أبا بكر وعمر جعلوا الحكم لله بأن جعلوا مرجعتهما في الحكم على الأشياء الأخذ بما في القرآن ، وهو كلام الله ، واتباع سنة النبي عليه السلام . فهما لم يريدوا سوى أن يكونا خليفتهين لرئيس الحكومة التيقراطية الشرعى الحقيقى الوحيد ، وهو النبي ، وقد عبّر عن ذلك باللقب الذى اختاراه لأنفسهما ، وهو لقب الخليفة . وقد سمي أبو بكر نفسه خليفة رسول الله ، وسمى عمر نفسه خليفة خليفة رسول الله ، حتى بدا في ذلك

(١) [راجع صفات عمر وسيرته عند الطبرى مثلاً ج ٢ ص ٢٧٢٨ فها بهذا - المترجم]

(٢) [كانت مدة خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام - المترجم]

(٣) [يشير المؤلف إلى ما كان لعمر من نفوذ كبير في أيام أبي بكر - المترجم]

(٤) وصية الميث عند العرب قديمة ، وكان يجوز للأمر في الحرب ، بل كان يجب عليه ، أن يعين خليفة له ليتولى الأمر بعد موته ، بل كان أحياناً يعين خليفة لخليفته وهكذا ، وكان المسلمون يشعرون دائماً أنهم أشبه بجيش . قارن كتاب Contin. Isidori Hispana ط Mommsen

شئ من التكلف والتطويل في التسمية فصار لقب الخليفة ، مع إسقاط المضاف إليه ، لقباً قائماً بذاته ، وإلى جانب ذلك كانا يلقبان بلقب : أمير المؤمنين (١) ، وقد خرج الخلفاء الأولون من صفوف قدماء الصحابة وكبارهم ، فكان أهل عشيرتهم وهم قريش ، يشاركونهم فيما لهم من نفوذ ، ولم يكن ذلك مقصوراً على القرشيين الذين هاجروا إلى المدينة عام الهجرة ، أو على الأقل قبل فتح مكة ، بل كان يتمتع به القرشيون الذين لم يدخلوا في الإسلام إلا مكرهين ، بعد أن كان قد تم له النصر . وعلى هذا احتفظ النسب والدم بقوتها إلى جانب الدين .

والقرشيون ، وإن كانوا قد عارضوا الإسلام ما استطاعوا ، فقد كانوا يشعرون بأنهم يحملتهم أصحاب الحق في رئاسة الدولة التيقراطية ، لأن محمداً عليه السلام منهم ، وقد شد أزهرهم فيما طمحووا إليه النبي نفسه بالفعل وأصحأ به من بعده . ومن جهة أخرى كان العرب في الحملة لا يرون بأساً في أن تبقى الرئاسة في العشيرة أو القبيلة ، وإن لم تتبع في أسرة بعينها ، معتبرين أن السيادة ملكاً لهم جميعاً ، وإن كان لا يتولاها إلا شخص واحد . ولم يعارض في تقدم قريش إلى المرتبة الأولى معارضة جدية إلا الأنصار . فهم قد استقبلوا القرشيين في أول الأمر ، عندما هاجروا إليهم ، استقبالا كريماً . وقد هيئوا لهم المقام والمعاش والحماية ، ولم يعارض الأنصار أيضاً في أول الأمر في أن يختص النبي أتباعه المكسيين من وجوه شتى ، ولا في أن يقع على كاهلهم هم العبء الأكبر في القتال ولا في أن يكون لأولئك نصيب الأسد من الغنيمة ، كما حدث مثلاً عند تقسيم أرض الجماعات اليهودية التي أجلييت عنها . ولكن بمرور الأيام أخذ يزداد بينهم الشعور بأن هؤلاء القوم الذين اجتلبوهم أصبحوا أقوى منهم ، فقاموا بمحاولات لكي يظهرُوا

(١) [جاء في الطبري ج ١ ص ٢٧٤٨ : لما ولي عمر قيل له :

يا خليفة خليفة رسول الله ، فقال عمر : هذا أمر يطول ، كلما جاء خليفة قالوا : يا خليفة

خليفة رسول الله ؛ بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم ، فسمى : أمير المؤمنين - المترجم]

أنهم سادة في ديارهم ، وأنهم لا يحبون أن يرضوا بكل ما يفعله ضيوفهم ، وانفجر تدمرهم في مناسبات كثيرة ، وقد أذكاه بنوع خاص سيد من قبيلة الحزرج كان له نفوذ كبير من قبل ورأى أنه بعد مجيء النبي عليه السلام ، قد نُحِيتْ جانبا ، ولكن غيرة القبيلة الأخرى ، قبيلة الأوس ، لم تلبث أن تحركت ضده ، وذلك لأن الانقسام الخطير القديم بين القبيلتين لم يكن قد زال ، وكان مفيداً للطرف الثالث الذي كان فوق النزاع . وكان من السهل على النبي في هذه الظروف أن يهدئ الأنصار دائماً ، وقد كانوا في الحقيقة أيضاً مدنيين له بالشكر ، لأنه أنقذهم من إفناء بعضهم بعضاً بما كان بينهم من مسافك ، فكانوا إذا عادوا إلى صوابهم يقرّون بأنهم ليس لهم عن النبي غنى^(١) . وقد أقلقهم كل الإقلاق ما كان يُظن من أن النبي بعد أن تمّ له فتح مكة سيترك مدينتهم ويعود إلى مكة . وهكذا سارت الأمور إلى أبعد مما ابتدأت به ، ولم تزل أقدام القرشيين تزداد في المدينة رسوخاً ، وازدادت قوتهم بفضل مهاجرين كثيرين جاءوا إلى المدينة من قبائل أخرى ، وكانوا يسمون أيضاً : مهاجرة . وأشرف الأنصار على فقدان الكثرة العددية في المدينة وصاروا باستمرار ينزلون إلى المرتبة الثانية . وكانوا عند وفاة النبي عليه السلام قد تحركوا بحركة قوية لكي يحصلوا على حقهم في السيادة في مدينتهم أو ليحافظوا على الأقل على استقلالهم فيها ، ولكنهم نسوا أن المدينة ، منذ زمان ، لم تعد مدينتهم ، بل صارت مدينة الرسول التي جعل منها الرسول شيئاً آخر غير ما كانت عليه من قبل ، فجعلها عاصمة جزيرة العرب وعاصمة الإسلام . وقد فوجئوا بحزم عمر وغيره من الصحابة ، ولم يلبثوا أن انقسموا بسبب ما كان بينهم من عداوة قديم ، وفقدوا الغالبية العددية ، بعد تدفق

(١) [راجع مثلاً سيرة ابن هشام ، ط . جوتنجن ص ٨٥٨ لترى كيف تدخل النسي

عليه السلام فأنقذهم من التقاتل - المترجم]

المهاجرين من أعراب المناطق المجاورة إلى المدينة ، وقد أخذ هؤلاء الأعراب جانب المهاجرين .

وكان من حسن الحظ أن بدأ في ذلك الوقت التمرد الكبير على سلطان المدينة من جانب قبائل العرب ، فاختفى الانقسام الداخلي بين أهل المدينة أمام الخطر الخارجي الذي كان يهددهم جميعاً . وكان الأنصار أوفياء لتعاليدهم ، فأخذوا مرة أخرى مكانتهم في الطليعة في محاربة العدو ، وكان لهم أيضاً الفضل الأكبر في الفتوحات ، خصوصاً في فتوح الشام . ومنهم كانت تتألف نواة الجيش الإسلامي ، وإن لم يكونوا هم القواد . ولقد بقوا معارضين بعض الشيء للحكام ، ولكن معارضتهم اندمجت في التيار العام المعارض للحكومة القائمة بالحكم ، وهو التيار الذي كان يتزعمه أهل التقى من المتمسكين بسلامة نظام الحكومة التيوقراطية . وصارت المدينة مقر التراث الإسلامي وملاذ الطبقة الأرستقراطية الإسلامية التي أزيلت عن مكانها . وكانت معارضة المدينة للحكومة تظهر فيما بعد ذلك معارضة إجماعية دائماً . ومن أكبر الخطأ أن يخطر الأنصار وحدهم على بال الإنسان في هذا المقام ، فإنهم في أثناء التمرد الكبير الذي انتهى بموقعة الحرة^(١) كانوا يقاتلون إلى جانب المهاجرين لهزيمة بني أمية ، فهم قد اتبعوا أصحاب الحق من قریش ولم يظهروا حزباً خاصاً^(٢) . على أن سيادة قریش نالت اعتراف جميع العرب عدا الخوارج ، وإن كان اعترافاً غير برىء من التلذذ . وقد وقعت قریش

(١) [يقصد المؤلف ارتداد بعض العرب عن الإسلام وامتناع بعضهم عن أداء الزكاة مما أدى إلى حروب الردة التي انتهت بموقعة الحرة - المترجم]

(٢) يقال إن الأنصار كانوا مصدر حزب المعارضة الذي كونه اليمينيون فيما بعد . ولا أعرف سند هذا القول . وقد كان يمن الشام هم قبيلة كلب . أما في الكوفة فكانوا همدان ومنسج وكندة ، وفي البصرة وخراسان كانوا أزد عمان . وكان هؤلاء أشدهم تدمراً ، ولم يكن للأنصار علاقة بهم جميعاً ، وكذلك لم تكن لهم مشاركة كبيرة في تكوين حزب الشيعة ، وإن كانوا قد تعلقوا به في حياته ، أما أن العلويين كانوا يعتبرون المدينة وطناً لهم وكانوا فيها موضع الإجلال ، فهذا شيء آخر .

من التنافس بين القبائل موقفاً محايداً ، ومهما كان سخط القبائل العربية على سادة قريش العزيمين في الرياسة والمحترمين لها ، فإن حظ القبائل المتتالية في الحصول على حق الرياسة كان أقل من حظ قريش .

ولم تكن قريش في الحقيقة تؤلف وحدة متماسكة ، فلم يكونوا في أول أمرهم [في المدينة] سوى أصحاب النبي عليه السلام والرجال الذين يلونه في الأمر ويعتد بهم . ولم تبلغ قريش شأنها في الإسلام إلا بفضل هؤلاء الصحابة ، لأن قريشاً قبيلتهم وقرابتهم في النسب . ولكن نشأ بينهم ، بين أفراد هذه الأرستقراطية الإسلامية الحقيقية التي تتألف من الصحابة ، أخطر تنافس .

وحدث ذلك بعد موت عمر ، فقامت عند ذلك الوقت مشكلة الخلافة من جديد . ولم يكن عمر قد أوصى لعلي . وكان لعلي ، بحكم أنه ابن عم النبي وزوج ابنته ، مطامع في الخلافة ، بل هو كان يشعر من قبل أنه قد تُخْطِطُ . أما الذي فعله عمر فهو أنه أوصى بأن يكون تعيين الخليفة الذي يخلفه من طريق الاختيار ، ولكن أصحاب الشورى [الذين كان عليهم أن يختاروا الخليفة] لم يكونوا جماعة المسلمين ، ولم تدخل الأمصار في ذلك ، فكانت المدينة وحدها هي المدينة الرئيسية التي تتقرر فيها أمور الدولة ، بل في المدينة نفسها أغفل شأنُ الأنصار إغفالا تاماً . ومن جهة أخرى لم تدخل قريش بجملتها في الأمر ، وكان أصحاب الشورى هم أقدم ستة كانوا لا يزالون أحياءً من أصحاب النبي : وكان عليهم أن يتنقوا على واحد من بينهم ، كأنهم مجلس من الكرادلة (Cardinalscollegium) أما بقية أهل المدينة فلم يكن لهم إلا الحق في المبايعة لمن يُنْتَسَخَبُ ، أو هم بالأحرى كان يجب عليهم ذلك . فكان لا بد من أن تجيء البيعة بعد الانتخاب ، وكان لا بد أن تتم البيعة في المدينة .

وتخطى أصحاب الشورى الستة ، هم أيضاً ، علماً ، لأنهم لم يشاءوا أن يعترفوا له

بأنه صاحب الحق الأول ، فانتخبوا الصبحاني المسنّ عثمان بن عفان ، من بيت أمية ، وكان أقل الستة تميزاً وشأناً ، وهو كما كان قد رشح نفسه لديهم عندما قال لهم : لأن تعينوا محبجراً خيراً من أن تعينوا مرة أخرى رجلاً مثل عمر . ولكن النتيجة جاءت مُخَيِّبَةً لظنّهم ، لأن ما كان عليه عثمان من ضعف لم يجيء مفيداً لهم ، بل مفيداً لبيته ، لأنه خضع راضياً أو مجبوراً لتأثير بيته . وكان الأمويون ، شأنهم شأن أسرة النبي عليه السلام ، من بيت عبد مناف ، لكنهم كانوا أشد قوة وأكثر مالا وأعظم نباهة من بني هاشم وبني عبد المطلب ، وكانوا منذ موقعة بدر قد احتلوا مكان قبيلة مخزوم ، بعد أن انكسرت قوتها في معركة بدر^(١) ، وكانوا أيضاً قد توصلوا إلى السيادة في مكة بفضل زعيمهم الماهر أبي سفيان ، وهم الذين ظلوا يترعمون الحرب التي استمرت سنوات بين قريش من جهة والمدينة ومحمد عليه السلام من جهة أخرى ، وهم وإن كانوا قد هزموا في هذه الحرب ، فإنهم لم يفقدوا مكانتهم وما كان لهم من نفوذ ، بل هم أنقذوها ودخلوا بها في الجماعة الجديدة التي اضطروا أن ينضموا إليها ، وقد يستر محمد عليه السلام لهم هذا الانتقال ، وحرص على أن يبين لهم أنهم لن يخسروا بذلك : ولما كانت مكة قد فقدت قيمتها السياسية ، فإنهم هاجروا إلى المدينة ، ولم يلبثوا فيها أن صاروا قريبين من دفة تدبير الدولة . ونظراً لأنهم جروا مع ريع العصر وقبلوا الدين بحسب ما كانت تقتضيه الظروف ، فإنهم ارتفعوا عالياً بفضل قوة الموجة التي كانت توشك أن تبتلعهم . ومنذ عهد أبي بكر وعمر نجّد يزيد بن أبي سفيان ، ونجّد بعد موته أخاه معاوية أشخاصاً لهم شأنهم الكبير ، وإذا كان بروزهم لم يكن في المدينة فقد كان في الأمصار . فلما تولى عثمان وصل الأمويون إلى الخلافة بالفعل ، لأن رئاسة عثمان كانت رئاسة بيته ، فاتخذ ابن عمه مروان بن الحكم

(١) راجع فيما يتعلق بالمنافسة بين مخزوم وعبد مناف ، سيرة ابن هشام ص ٢٠٣

كاتباً له في المدينة ، وترك له الأمر ، فلأ مروان كل مناصب الولاية بأهل قرابته ، وبهذا أثار عثمان على نفسه زملاءه ، بقية أعضاء مجلس الشورى ، وكانوا خمسة : على بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطاحنة ابن الزبير والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص . أما سعد فلم يكن له طموح سياسي^(١) ، وأما ابن عوف فقد مات قبل عثمان ، ولكن حات محلها السيدة عائشة أرملة النبي الشابة التي كانت تعتبر نفسها من أكبر أهل الرأي في الإسلام ، وكانت تتمتع باحترام عظيم . وأحسن كبار الصحابة أن ارتفاع شأن أسرة حاكمة ، [أعنى بيت بنى أمية] ، يمدد مكانتهم التي كانت لهم حتى ذلك الحين ، وكان هذا هو سبب عداوتهم للأمويين^(٢) ، فهل يرضون لأنفسهم ، وهم خلاصة المؤمنين في الدولة التیوقراطية وأصحاب التقدم الراسخة في الإسلام ، بأن تزيدهم عن مكانتهم أسرة من الأشراف الوثنيين القدماء بعد أن كانت هي التي تزعمت قريشاً في حربها للإسلام؟^(٣) فمحاول كبار الصحابة ، في بادئ الأمر ، أن يبعدوا بين الخليفة وبين بطانته ، كما قالوا ،

(١) [قارن الطبرى مثلاً ج ١ ص ٣٣٥٥ - المترجم] .

(٢) كأن المؤلف لا يعترض أن هناك إسلاماً في قلوب هؤلاء الصحابة ولا حرصاً على العمل بأحكامه من إقامة العدل والتسك بالخير والحق ، فهم في الحقيقة لم يعادوا أحداً إلا حرصاً على الدين وعلى الحكم العادل ، وإلا فكيف يفسر المؤلف الفكرة التي قام عليها كتابه وهي أن الثورات التي قامت على الأمويين وانتهت بإسقاطهم كانت تستند إلى الدين . إن المؤلف مؤرخ ولكنه أحياناً ينظر للتاريخ نظرة سياسية أكثر مما ينبغي - المترجم] .

(٣) [يحكى الطبرى مثلاً (ج ١ ص ٢٩١٩) أن أحد ثوار العراق الذين ذهبوا إلى معاوية بالشام قال له في أثناء المناقشة : إنا نأمرك أن تبرز عملك ، فإن في المسلمين من هو أحق منك ! قال : فن ؟ قال : من كان أبوه أحسن قدماً من أبيك ، وهو بنفسه أحسن قدماً منك ، في الإسلام .

قارن أيضاً رأى على بن أبي طالب في معاوية وأبيه أبي سفيان عند الطبرى ج ١ ص ٣٢٧٨ - ٣٢٧٩ . وهذا يدل على الأساس الذي عليه كان الصحابة يعارضون بنى أمية ، ولم يكن الطموح السياسى وحده هو السبب في المعارضة ، كما يؤخذ من كلام المؤلف فيما سبق - المترجم] .

فلما لم يصلوا من هذا الطريق إلى غرضهم انقلبوا عليه هو ، فتعمدوا تقويض هيبته في المدينة ، وغذوا مسخط الساخطين عليه من العرب في الأمصار .

٦ - ومهما يكن من شيء فقد بدأ التحفز للثورة في الأمصار (١) ، أعنى في المدن التي كان يسكنها العرب : وكانت الظروف ، بعد أن توقفت حروب الفتوحات الكبرى ، قد تغيرت ، وجاء الهدوء بعد الهياج ، والتفكير المتزن بعد الاضطراب ، وتنفس المحاربون العرب بعد أن كانت الحروب المتواصلة لا تترك لهم إلى الراحة سبيلاً ، فوجدوا فراغاً للتفكير : وطالما كانت الغنيمة ، وكانت في الحقيقة نهباً مستمراً ، تتدفق من غير انقطاع إلى أيدي الجند من طريق الحملات الحربية المتواصلة ، فإنهم كانوا لا يبالون ولا يهتمون أن تضع الحكومة يدها على النوى وعلى الناس وعلى الممتلكات الثابتة في البلاد المغلوبة ، لأن الجند ما كانوا ليعرفوا ما يضعون بذلك . أما الآن فقد أدركوا أنهم ، من غير أن يشعروا ، قد تركوا غيرهم وسط الهياج والاندفاع في ذلك العصر ، يستحوذ على خير ما في الغنيمة . فلو أنهم أعطى لهم ، على الأقل ، كل مال الفسء ، أعنى جملة مال الخراج الذي يدفعه المغلوبون كل عام ، لرضوا بذلك . ولكن حتى هذا لم يحدث ، كما رأينا ، فكان الخراج الذي يدفعه المغلوبون يجري كله ، مع بقية أنواع دخل الدولة ، إلى بيت المال العام ، ولم تكن الحكومة تعطى للمحاربين العرب من ذلك سوى إعطيات فرضتها لهم ، فاستولت الحكومة على الأموال التي كانت في الحقيقة من نصيب الجيش : واستطاعت الحكومة بفضل الحكومات التي تمت على يد الجيش ، والتي هي ، بحكم القانون ، غنيمة له ، أن تستقل عن الجيش وتتخلص من سلطانه ، وذلك لأنهم لم تقسم الأرض والناس على المحاربين ، بل استولت

(١) [يستطيع القارئ أن يتتبع تاريخ الثورة على عثمان عند الطبري مثلاً ج ٩

ص ٢٩٠٧ فما بعدها إلى شطركبير من الكتاب - المترجم] .

على الخراج الذى يرتفع من الأرض والناس ، فنزل الجيش إلى مرتبة الافتقار للحكومة والاعتماد عليها عن طريق أعطيات كانت الدولة تستطيع أن تمنحها بالمقدار ، وإلى المدى ، الذى تشاؤه ، وكانت تستطيع أن تمنعها أيضاً فبعد أن كانت الحكومة تعيش من يد الجيش ، أصبح الجيش يعيش من يد الحكومة ، فلا عجب أن يعتقد المقاتلة أن الدولة قد غلبتهم على حقوقهم وعرضتهم من أموالهم وأخذتها لنفسها وأنها تستند إلى الخزانة ، ففتتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم . فزعوا أن المال الذى يجتمع من الخراج ، إنما هو لهم وليس للدولة ، وقالوا إنه مال المسلمين وليس مال الله (الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٨ وما بعدها)^(١) ، وتمسكوا بدعوى أن أموال الفتىء يجب أن تقسم ، وفى بعض الأحيان نهبوا بيوت المال فى الأمصار . وهم على أى حال لم يرضوا بأن يُحمل ما يفضل عنها إلى بيت المال الكبير للدولة ، وكانت غيرتهم من الدولة سبباً فى إثارتهم بطبيعة الحال على عمالها الذين كانوا يتصرفون فى سلطان الدولة ومالها ، ورأوا أن العمال يبعدونهم عن الحيوان ، فسخطوا ذلك^(٢) .

(١) [هذه قصة أبى ذر الغفارى مع معاوية فى الشام وقصته فى المدينة أيضاً ، من دعوة الناس إلى الزهد ومن نهيه عن اقتناء الأموال ، وحضه الأغنياء على الخروج عن أموالهم إلى الفقراء . والذى يؤخذ لنا حكاية الطبرى أن ابن السوداء وهو عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أظهر الإسلام وأحدث الفتنة بين المسلمين هو الذى أوحى إلى أبى ذر بما فعل فقال له يوماً : يا أبا ذر ، ألا تعجب لمعاوية ! يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين . وكان هذا بحسب رواية الطبرى ، نقطة البداية فيما فعله أبى ذر فى الشام وفى كلام معاوية هناك وفى ولوع الناس بكلام أبى ذر حتى لحق الأغنياء من الفقراء شيء من المنع . ويجد القارئ قصة ذهاب أبى ذر إلى المدينة ، إلى عثمان ، بعد أن شكوا إليه معاوية أمره ، وأمر عثمان بتوجيه أبى ذر إليه فى المدينة ، وكذلك ما كان من تطور حياة أبى ذر ، كل ذلك عند الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٨ - ٢٨٦٢ - المترجم] .

(٢) إن الاسم الذى يؤى للحكومة أو للرياسة أو للدولة هو كلمة سلطان ، أما فى نظر الدين فالسلطان والملك لله . وكلمة « سلطان » ذات أصل آرائى ، ومعناها فى الحقيقة هو : $\alpha \nu \tau \acute{o} \tau \eta \varsigma \epsilon \xi \alpha \nu \alpha \tau \iota \alpha$ لا $\alpha \nu \tau \acute{o} \varsigma$ فى اليونانية .

وكان هذا في الواقع اعتراضاً موجهاً إلى النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ، لأن عمر هو الذي كان قد انتزع الفء من يد الجيش من حيث لا يشعر الجيش ، وجعله للدولة ، مخالفاً للقرآن في ذلك . وإن كان متفقاً مع اتجاه في النظام المالي اتبعه النبي عليه السلام إلى حد كبير^(١) . أما إن المعارضة لذلك لم تظهر في عهد عمر نفسه ، ولم تشتد وعلو صوتها إلا في عهد عثمان ، فلا يمكن تفسيره بمجرد تغير ظروف العصر ، بل بتغير شخصية الحاكم أيضاً . ولقد قال عثمان بحق إن الشيء الذي ما كان أحد يجرؤ على أن يعيبه على عمر أصبح يعيبه عليه^(٢) .

ولقد كان يعوز عثمان ما كان لعمر من هيبة السلطان ، ولذلك تجلّى السلطان الأمراء والعلماء في عهده وتجلّى جترأئهم وراء مصلحتهم الخاصة على نحو أكثر سفوراً مما كان في عهد عمر ، لأنهم كانوا يخشون بأس عمر^(٣) . وقد كان أثر

(١) وكان النبي من قبل قد جعل بيت المال ما يقع في يد المسلمين من غير حرب ، وهو قد سبق عمر أيضاً في مصادرة الأحماء (جمع حمى) القديمة وفي المنع من جعل أحماء جديدة تكون مراعى لإبل الصدقة وبيعها ، وبذلك أعطى النبي مثالا لمصادرة الأراضي ، راجع كتابنا *Reste arabischen Heidentums* (١٨٩٧) ص ١٠٧ فابعدا .

(٢) [راجع ما قاله عثمان لعمر بن العاص بعد أن بدأ في هذا التشجيع على عثمان - الطبري ج ١ ص ٢٩٦٦ وقارن ص ٢٩٣٩ - ٢٩٤٠ . قال عثمان لعمر مثلاً : والله لو أخذتلك بما أخذك به عمر لاستقيمت ، ولكني لنت لك فاجترأت على - المترجم] .

(٣) [لما كلم علي بن أبي طالب عثمان في استعماله أقاربه ، احتج عثمان بأنه إنما وصل رجلاً وسدّ خلة وآوى ضائعاً وولى شيباً بمن كان يوليهم عمر ، فقال له علي : إن عمر بن الخطاب كان كل من وليّ فإنيما يطأ على صاحبه إن بلغه عند حرف جلبة ... وأنت لا تفعل ، ورفقت على أقربائك . فلما قال عثمان إن عمر عين معاوية قال له علي : أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرقأ ، غلام عمر ، منه ؟ قال عثمان : نعم ! فقال علي : فإن معاوية يتطلع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس : « هذا أمر عثمان » ، فيبذل ذلك ولا تقرر على معاوية - راجع الطبري ج ١ ص ٢٨٣٨ - ٢٨٣٩ . أما فيما يتعلق بخشية الناس بأس عمر فهي تتجلى من كلام لعثمان قاله لعلي بعد أن دخل عليه ونهيه إلى بعض ما يؤخذ عليه : « فقد والله عيتم على بما أقررتكم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضر بكم بيده وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحبينم وكرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كفى وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم على - الطبري ج ١ ص ٢٩٣٩ - المترجم] .

ذلك في النفوس شديداً ، وخصوصاً أن عثمان جرى على اختيار الأمراء
والعمال من آل بيته ، وبدا كأنما قد تحولت الدولة ، من كل الوجوه ،
مأكلةً لطائفة ممتازة لها أن تجني خيرات الأمصار .

وقد اتقى على البغض لبطانة عثمان أهل الأمصار وكبار أصحاب النبي في
المدينة ، وكانت الغالبية الكبرى في العاصمة ، خصوصاً الأنصار ، وراءهم .
وكان على رأس الصحابة على طاحه والزبير . على أن غضب الصحابة على
بطانة عثمان كان له أسباب أخرى ، وقد كان من السهل عليهم أن يجعلوا
لنفسهم تلك البطانة الصبغة الدينية اللازمة ، وأن يظهروا مدافعين عن
الكتاب والسنة ، وأن يستغلوا السخط السائد لمصالحهم . ولكن بالرغم من
جرائرتهم على عثمان وعدم احترامهم له ، فإنهم لم يشاءوا أن يستعينوا بأهل
المدينة ويحاربوه هم أنفسهم حرباً سافرة تحت سمعه وبصره ، بل هم آثروا
أن يقدفوا النار في الأمصار ، وفي الأمصار كانت تتركز ، على
كل حال ، القوة الحربية والمالية للدولة . فأما المدينة فلم يكن مركزاً فيها
سوى السلطة الأدبية للإسلام . ففي عام ٤٤ هـ (٦٥٤ - ٦٥٥ م) كتب
الصحابة إلى أهل الأمصار : إن كنتم تريدون الجهاد فكأنه الآن في المدينة (١) .
وكان كلامهم مُلهِياً للكوفة قبل غيرها ، وكانت الكوفة أكبر مركز لمعارضة

(١) [هذا ما يقوله المؤلف ، نقلا عن الطبري في الغالب ، وهو كلام عام ، وغير كاف
في وصف الموقف ، أما الطبري فهو يقول ، نقلا عن الواقدي : « لما كانت سنة ٣٤ هـ
كتب أصحاب رسول الله صلعم بعضهم إلى بعض أن أقدموا ، فإن كنتم تريدون الجهاد فعدنا
الجهاد . وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد ، وأصحاب رسول الله صلعم
يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفر منهم زيد بن ثابت ... » ، ويقول
الطبري في موضع آخر : « لما رأى الناس ما صنع عثمان ، كتب من بالمدينة من أصحاب النبي
صلعم إلى من بالآفاق منهم ، وكانوا قد تفرقوا في الثغور : إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا ، في
سبيل الله عز وجل ، تطلبون دين محمد صلعم ، فإن دين محمد أفسد من خلفكم وترك ، فعملوا
فأقيموا دين محمد صلعم . فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه » . المترجم نقلا عن الطبري ج ١
ص ٢٩٣٦ - ٢٩٨٣] .

المقاتلة للحكومة . وبينما كان الولاة في آخر عام ٣٤ هـ (يونيو ٦٥٥) عند الخليفة في مكة ، قامت الثورة في الكوفة يقودها مالك الأشتر ، وهو من كبار اليمانيين الموالين لعلي بن أبي طالب . ولما عاد إلى الكوفة سعيد بن العاص أميرها من مكة وقف ألف من أهل الكوفة أمام مدينتهم ومنعوه من الدخول فيها . فعزل عثمان سعيداً دون تردد ، وعين على الكوفة عاملاً يرضاه الثوار ، وبذلك هدأهم مؤقتاً^(١) :

ولكن ثوار أهل مصر جاءوا إلى المدينة بدلاً من الكوفيين . وكان عثمان قد عين ابن عمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، رغم أن النبي عليه السلام كان قد طرده وأباح دمه ، مكان فاتح مصر عمرو بن العاص ، ولذلك احتقد عليه عمرو ، وهو الرجل الداهية الخطر ، وكان يحرض عليه في المدينة ، ولعله أيضاً لم يخل من التحريض عليه في مصر^(٢) . وفوق هذا ثار في مصر محمد بن أبي حذيفة ،

(١) [حكى الطبري في حوادث سنة ٣٣ هـ (ج ١ ص ٢٩١٥ - ٢٩١٦) أن سعيد ابن العاص والى الكوفة من قبل عثمان ، قال وهو في مجلس من وجوه أهلها ، فيهم مالك الأشتر : إنما هذا السواد بستان قريش ، فقال مالك الأشتر ، وكان حاضراً : أنتزعم أن السواد الذي أفاء الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ، والله ما يزيد أوفاكم نصيباً إلا أن يكون كأحدنا ! ثم قامت مناقشة بينهم وبين الوالي ، فتدخل صاحب الشرطة ، فوثبوا عليه ووطئوه وطأاً شديداً حتى غشى عليه ، فأخرجهم سعيد من جماعة سواره ، فصاروا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم ويشتمون عثمان وسعيداً ويؤلبون عليهما ، واجتمع الناس إليهم . ثم تطورت الثورة واتهم مالك الأشتر سعيداً إلى جازب زعمه أن السواد بستان قريش بأنه يريد إنقاص الأعطيات المفروضة للرجال والنساء فلما عاد سعيد من مكة خرج أهل الكوفة يسوفهم لرده ، فرجع إلى عثمان فعزله وولى أبا موسى الأشعري استصلاحاً لأهل الكوفة وإسقاطاً لحجتهم . وكتب إليهم كتاباً بذلك . ولم يرض أبو موسى أن يصلي بهم إلا بعد أن اعترفوا بالسمع والطاعة لعثمان - المترجم . نقلنا عن الطبري ج ١ ص ٢٩٣٠ - ٢٩٣١ ، ٢٩٣٤ ، ٢٩٣٦] .

(٢) [يحكى الطبري (ج ١ ص ٢٩٦٦ فا بعدها) : أن عثمان عزل عمرو بن العاص عن الخراج واستعمله على الصلاة واستعمل عبد الله بن سعد على الخراج ، ثم جمعا له ، فلما قدم عمرو إلى المدينة جعل يعطى على عثمان ويؤلب عليه الصحابة والحجاج ويحرض عليه جميع الناس حتى الراسي في غنمه في رأس الجبل ، كما يقول عمرو نفسه . وبعد أن حوضر عثمان خرج عمرو من المدينة وظل يترقب أخبار الفتنة ، فلما بلغه مقتل عثمان قال : أنا أبو عبد الله ، إذا حككت قرحة فكأنها - المترجم نقلنا عن الطبري ج ١ ص ٣٢٥٢] .

وكان من قبل يقيم في حجر عثمان^(١) ، كما ثار محمد بن أبي بكر ، أحد أولياء على المتحمسين ، وكانا في المعركة البحرية الكبيرة^(٢) التي كانت بين المسلمين والهرقل (اسمه Contsans) قرب شواطئ لوقية ، فانهضوا بمركبهما عن الأسطول العربي قائلين : أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً ، وقد عابا على عثمان ما عابه غيرهما في العادة ، خصوصاً أنه ملأ جميع المناصب التي تدر الخيرات بأبناء عمومته ، وبذلك بذروا بذوراً خطيرة للمفتنة ، وكان ذلك عام ٣٤ هـ . وفي العام التالي لبي خمسمائة عربي من مصر ، الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله لقتال العدو الداخلي ، فظهروا أمام المدينة في حوالى الشهر العاشر من عام ٣٥ هـ (يونيه ٦٥٦ م) وطالبوا الخليفة بأمر وهددوا باستعمال القوة إن هو لم يستجب إليهم . وقد وقف أهل المدينة ، إلا القليل ، إلى جانبهم وأيدوهم . لكن لما لم يكن تحت تصرف عثمان ، وهو رئيس أقوى دولة على الأرض في ذلك الحين ، حرس في مقر دولته يحمونه بالقوة ، فإنه رضى لمفاوضة الثوار ، وأفلح في إقناع أهل مصر بالانصراف ، بأن وعدهم بإزالة أسباب شكواهم ، لكنهم ما كادوا يتعدون حتى جاء مروان بن

(١) [كان محمد بن أبي حذيفة من أقارب عثمان وكان يتولى أيتام أهل بيته ويحتمل كما هم . أما سبب ثورته على عثمان فهي ترجع ، بحسب حكاية الطبرى ، إلى أن محمداً بعد أن تولى عثمان الخلافة طلب من عثمان أن يوليّه عملاً ، فلم يجده أهلاً لذلك ، فطلب الخروج طلباً للرزق ، فأذن له عثمان وجهزه من عنده وحمله وأعطاه . فلما وقع محمد بن أبي حذيفة إلى مصر كان من تغير على عثمان ، لأنه منعه الولاية - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ١ ص ٣٠٢٩ ، قارن أيضاً ص ٣٢٣٥] .

(٢) [يشير المؤلف إلى الغزوة المشهورة بغزوة الصواري التي كانت عام ٣١ هـ (الواقدي) أو عام ٣٤ هـ (أبو معشر) ، وكان فيها عبد الله بن سعد بن أبي سرح هو القائد البحرى ومعاوية بن أبي سفيان القائد البرى . ولما التقى الأسطولان آمن الجيشان بعضهم بعضاً حتى قرئوا بين صواري السفن . وقد انشق محمد بن أبي حذيفة انشقاقاً روحياً سياسياً أكثر منه حربياً ، وأخذ يعيب على عثمان بعض ما صنع ، خصوصاً استعمال عبد الله بن سعد ، فنهذه عبد الله ، فقاتل وحده - راجع الطبرى ج ١ ص ٢٨٦٧ فما بعدها - المترجم] .

الحكم ونفّر من بنى أمية فجعلوه يرجع عما كان منه . وفي يوم الجمعة التالي خطب في المسجد قائلاً : « إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان قد بلغهم عن إمامهم أمرٌ ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم رجعوا إلى بلادهم » . وعند ذلك قامت عاصفة من الغضب عليه من جانب أهل المدينة ، وكانوا يؤثفون جمهور المصلين ، فلم يكتفوا بأن رفعوا أصواتهم معترضين على ما قاله ، بل هم حصبوه حتى صُرع عن المنبر مغشياً عليه . واحتُمل إلى داره ، وكان هذا آخر ظهور لعثمان في الناس في مسجد المدينة .

ثم أخذ أهل المدينة^(١) يتجمعون بكثرة أمام دار عثمان^(٢) ، وكانت إلى جانب المسجد ، ولم يستجيبوا للدعوة من دعاهم إلى التفرق والانصراف . وبعد أيام قلائل وصل المصريون فجأة ، وأحضرُوا خطاباً من الخليفة إلى عامله بمصر يأمره بقتلهم وصلبهم أو جلدهم وحبسهم ، وأطلعوه عليه فأقسم بالله أنه ما كتبه ولا أملاه ولا أشار به ولا علم به . فقالوا لهم وجدوه مع غلامه وعلى جملة وهو بخط كاتبه وعليه خاتمه ، فأجاب أن كل ذلك بغير علمه وأمره وأن الخط قد يشبه الخط وأن الخاتم يجوز أن ينتقش مثله ، فقالوا : أيُجسّرُ عليك ، فيبعث غلامك على جملك ويُنتقش على خاتمك ويُكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام ! فإذا أن تكون ضعيفاً مغلوباً أو غافلاً لا يصح أن يلي أمور المسلمين ! ثم طلبوا منه أن يعزل ويخلع نفسه : ولكنه رفض ذلك رفضاً حاسماً ، وقال : « لست خالِعاً قبيصاً

(١) [هذا ما يقوله المؤلف ، والغالب أن الذين تجمعوا هم والثوار من أهل الأمصار .

المترجم] .

(٢) الدار جملة بيوت أو حجرات متصلة ذات باب واحد ، ولا يفرق العرب بين مجموعة البيوت أو مجموعة الحجرات .

كسانيه الله عز وجل» (١) ، ومنذ ذلك الحين أصبح عثمان مُحاصراً بالمعنى الحقيقي وكان يحميه في داره غلماناً وحشمته وبعض أقاربه . وخلق أهل المدينة بين المصريين وبين ما أرادوا أن يفعلوا ، ولم يتدخلوا بينهم ، ولو أنهم أرادوا ذلك لما شق عليهم أن يقضوا على مئات قليلة من الثوار ، فأهل المدينة بدأوا بإثارة العاصفة على الخليفة ، « ولأننا تركوا لإتمام الثورة إلى ثوار من غير أهل المدينة ، بل هم ، خصوصاً بعض الأنصار ، ساعدوا الثوار بالفعل . أما كبار الصحابة الذين كانوا يحملون أكبر الوزر في اندلاع نار الثورة ، وهم على وطلحة والزبير ، فلم يبدؤوا أى جهد لإخادها ، وربما كان موقفهم من الخليفة هو أنهم أظهروا أسفهم أنهم لا يستطيعون مساعدته لأن أيديهم مقيدة ، ولكنهم إنما كانوا يظهرون غير

(١) [راجع تفاصيل الفتنة ومقتل عثمان عند الطبري ج ١ خصوصاً ص ٢٩٦٥ وصفحات كثيرة تالية .

والمؤلف قد اقتضب هنا اقتضاباً كبيراً وأعفل ذكر الدور الذى كان لعبه الله بن سبأ (ابن السوداء) في إثارة الفتنة أولاً وتنظيم الاتصال بين الثوار في مختلف مدن الأمصار . ومهما قيل في دور ابن سبأ فهو مذكور في كتب التاريخ ولا يصح إغفاله . وتجد أخبار الفتنة كلها عند الطبري مثلاً ج ١ ص ٢٩٠٧ - ٣٠٥٠ . ولا بد للباحث هنا من نقد الروايات وترتيبها وإبراز مختلف العوامل من دينية واقتصادية ، وعوامل الدس والإفساد من جانب العرب وغير العرب ، وإبراز الدور الذى كان لأهل المدينة ومساعى كبار الصحابة لتهدئة الفتنة وإفساد مروان بن الحكم وقومه خطط الصحابة . وعلى كل حال فالذى يؤخذ من الروايات في جعلها أن حاشية عثمان من بنى أمية استغلت نفوذها باسمه وأنه لم يكن عند عثمان حرس يحميه ، فعرض عليه معاوية أن يذهب معه إلى الشام ، فأتى بإثارة منه البقاء في المدينة إلى جوار رسول الله صلعم . وأيضاً أتى عثمان أن يتنازل عن الخلافة خوفاً النزاع عليها في أثناء فتنة ، مما قد يؤدي إلى حرب أهلية ، وخصوصاً أن هوى كل مصر من الأمصار كان مع أحد الصحابة الكبار . وقد حاول الصحابة أن يتدخلوا فنصحوا لثمان وكان ينتصح ، ولكن حاشيته من بنى أمية كانت تؤثر عليه حتى مل الصحابة ذلك وقروا ألا يعودوا إلى الكلام معه . وتدل القرائن على أن الخطابات التى استند إليها الثوار كانت مزورة على عثمان . وأخيراً لما تفاقم الأمر وأوشك القتال أن ينشب أمر عثمان من في داره ألا يدافعوا عنه بخافة ازدياد الفتنة ، فاستسلم لأمر الله وقتل . وكأنما كان أمر الفتنة قد تفاقم وأصبح لإيقافها مستحيلاً وأصبح التدخل لإيقافها بالقوة أعظم منها شراً ، فلم يتدخل الصحابة وتركوا الحوادث تسير سيرها إلى النهاية المحتومة ، وكل شئ بقدر - المترجم] .

ما يُبطنون ؛ أما الحقيقة فهي أنهم لم يعملوا أبداً على إيقاف سير الحوادث
آملين أن تنتهي بالفائدة لهم ^(١) .

وجاء التحول الحاسم نحو الشر ، أعنى أول إراقة للدماء ، من قبل
المدافعين عن الدار ، وذلك أن واحداً منهم رمى حجراً فأصاب رأس أحد
الصحابة ، وكان شيخاً كبيراً واقفاً خارج الدار ، بين الجمع المحتشد ، فقتله .
ثم امتنع عثمان من تسليم القاتل ، فشر محاصروه عند ذلك أن لهم الحق ،
بل عليهم الواجب ، ألا يبالوا بكل الاعتبارات ، وشرعوا يقتحمون
الدار . وكان يقودهم عبد الرحمن بن عديس البلوى من أهل مصر ،
ملتحجاً بظهره إلى المسجد ، وقد قاتل خالصاً عثمان دون باب الدار ،
بل هم حاولوا ، عندما أشعل الثوار النار في أبواب الدار أن يصدوا
المهاجمين ، ولكن جماعة من هؤلاء اقتحموا الدار آتين من الدور التي

(١) [لاشك أن في هذا مبالغة كبيرة ، فالثابت من الروايات أنهم لعبوا دوراً جدياً
في إزالة الفتنة ، ولكن خططهم لم تنجح . ولو أنهم تدخلوا بالقوة ، مع علمنا بوجود أسباب
حقيقية للشكوى استند إليها الثوار ومع علمنا بأن الثوار من قبائل شتى ، لكان معنى ذلك أنهم
يريدون الفساد الذي صنعه حاشية عثمان من جهة وكان معناه الحرب بين العرب على نطاق واسع
يشمل الأمصار من جهة أخرى . وقد اندش بعض الصحابة من قتل عثمان - وهذا ثابت في
الروايات - لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يجترأ الثوار على قتله . ويظهر أن القتل كان
تطوراً أخيراً أفلت زمامه حتى من يد القاتلين أنفسهم .

وإذا كان للإنسان أن يعجب فله أن يعجب من تأخر معاوية عن نصرة عثمان ، مع أنه رأى
أوائل الفتنة ومع وجود جند الشام تحت يده وطوع أمره ومع أنه توقع اشتداد الفتنة حتى
لقد أوصى الصحابة بعثمان ، ولكن كان معنى هذا وقوع الحرب في المدينة ، في عاصمة دولة
لا تزال حديثة العهد .

الواقع أن مقتل عثمان يرجع إلى الدرجة التي بلغها نمو الدولة نفسها ؛ فلم يكن هناك جيش
في المدينة ، ولا كان هناك حرس خاص يحمي الخلافة ، ولا كان هناك مجلس يراقب أعمال حاشية
الخلافة . ولا يصح أن ينسب المؤرخ أننا في عاصمة دولة ديمقراطية تقوم على فكرة أكثر مما تقوم
على جيش ، ودستورها فكرة أيضاً . وكانت الفتنة ، إلى حد كبير ، قائمة على فكرة القضاء على
فساد حاشية الخلافة ، تمسحاً مع فكرة العدل ومع ضرورة القضاء على المحسوبية . ولا تستطيع قوة
أن تقف في وجه فكرة أكثر من وقوفها أمام سيل جارف . ولم يكن الصحابة يريدون قتل
عثمان جرياً وراء فائدة لهم ، بل هم لم يكونوا يتوقعون القتل ولم يريدوا إذكاء الفتنة - المترجم

حولها ، واندفعوا إلى غرفة الخليفة نفسه ، وكان يصلي ، واضعاً القرآن أمامه ، غير مُبْسَل بما كان يجري خارج الدار . وكان محمد بن أبي بكر ، ابن صديقه وسلفه ، أول من امتدت يده إليه ، ثم اتبعه كنانة بن بشر التميمي بالضربة القاتلة ، وطعن آخرون الخنثة إطفاء لما في نفوسهم . بعد هذا لم يصبح لمقاومة المدافعين معنى ، واستطاع من بقي منهم أن ينجوا بأنفسهم من غير مشقة . وكان ذلك يوم الجمعة ثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (١٧ يونيو سنة ٦٥٦ م) وتأخر دفن الخليفة المقتول أياماً ، إلى أن تجاسر على دفنه ، بعد رجاء شديد من جانب أرملة نائلة الكلبية ، جماعة من الخلفاء ، ودُفِنَت الخنثة بسرعة بين المغرب والعمرة من غير أن تُغسل ، وحملت على باب ، كانت رأس الخنثة تقرعه ، ورجعها البعض بالحجارة وتكلموا بكلمات السوء . ودعا الحال إلى دفنها في موضع كان اليهود يدفنون فيه موتاهم ، بل لم يسمح الأنصارُ بدفنها في مقابر المسلمين وهكذا دفن الخليفة كما يدفن غير في مزبلة^(١) .

٧ - كان مقتل عثمان حادثاً حاسماً لا يكاد يدانيه في خطره حادث آخر في التاريخ الإسلامي . فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل في أمر رئاسة الحكومة التيقراطية : وفتُح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك أبداً انسداداً تاماً^(٢) ، ولم يمكن منذ ذلك الحين المحافظة على وحدة ممثلة في شخص إمام على رأس الجماعة إلا في الظاهر على الأكثر ، وبالقوة والقهر . فالحقيقة أن الجماعة قد انشقت .

(١) [الواقع أن الطريقة التي تم عليها دفن عثمان لا تليق به . وقد دفن في مكان يسمى حش كوكب ، وحمل على عجل مخافة اعتراض السفهاء للنش ، وكان ذلك في الليل على ضوء السرج ، ودفن في مكان شبه مجهول مخافة أن ينش قبره . ولما جاء معاوية أزال الحائط الذي كان حول القبر وأمر الناس ، خصوصاً بنى أمية ، بدفن موتاهم حول قبره حتى اتصل بالبقع بمقابر المسلمين - المترجم] .

(٢) ولذلك يسمى الخليفة المقتول بالباب المفتوح [ليراجع القارئ كلمات عثمان التي وجهها لمحاصريه ينذرهم بالفتنة المتصلة والفرقة ، وهي موجودة عند الطبري في المواضع التي أشرنا إليه من قبل - المترجم] ..

وتفرقت شيعاً وأحزاباً ، كل منها يحاول أن يفرض سلطانه السياسى وأن يلجأ للسييف تأييداً لإمامه على الإمام الحاكم بالفعل ، وكانت المشكلة مؤلة لأهل الديانة والورع^(١) ، فكانوا بين أن يتراجعوا فيسُخِلُوا بما أوجبه الإسلام وشدّد فيه من إعلان الرأى والدفاع عن الحق بالقول والفعل ، وبين أن ينضموا إلى فريق فيخالفوا أصلاً أساسياً من أصول الحكومة التيقراطية ، وهو ألا يحارب المؤمنون إلا الكافرين ، وألا يحارب بعضهم بعضاً ويرقى بعضهم دماء بعض . وكانت الإجابة عن سؤال : ما قولكم في مقتل عثمان ؟ هى التى تكشف عن اختلاف الناس فى آرائهم :

أما ثمرة تلك الفعّلة المُحمّلة بالبلاء فقد وقعت فى حِجر على . وذلك أن علياً ، ختن النبي ، كان بعد موت أبى بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف أكبر الصحابة غير مدافع ، وكانت له مكانة أكبر مما كان لطاحه والزبير ، وكان فى أثناء حصار الدار هو الذى يصلى بالناس كما أنه هو الذى حج بهم ، وكان فى نظر كافة أهل المدينة ، خصوصاً الأنصار ، هو الخليفة الطبيعى لعثمان ، وكان هوى المصريين معه أيضاً ، ومن أجله كانوا يعملون لا من أجل غيره ، وكانت كلمتهم ، فى تلك الساعة المضطربة ، هى الكلمة الفاصلة : وقد تلقى البيعة العامة فى المسجد ، فى نفس اليوم الذى قتل فيه عثمان ، ولكن كان من الطبيعى أن تعقب الهياج والاضطراب حركة نكوص . فلاحق النقوس شئ من الانقباض ، ولم يهتل أهل المدينة للخليفة الجديد الذى تلقى البيعة وسلطان الخلافة من أيّد غير بريئة من الإثم^(٢) . وهم لم يؤويده تأييداً قوياً ، وكأنما كان من حسن حظّه أن طامحة

(١) ومن أجل ذلك تسمى الحرب الأهلية بالفتنة .

(٢) [جاءت فى الطبرى (ج ١ ص ٣٠٦٦) أخبار مبايعة الناس لعلى وما روى من امتناعه ثم قبوله وما قيل فى بيعة طامحة والزبير طوعاً أو على كره منهما . ويظهر أن علياً قد اضطّر إلى قبول الخلافة ، بعد أن كان يرى أن تترك للشورى ، بسبب الموتف ، وهو أنه لو رجعت الوفود إلى الأمصار بعد الحج من غير أن يكون هناك خليفة لوقع انقسام كبير . ويجد القارئ =

والزبير ، وهما اثنان من الثلاثة الكبار بين الصحابة ، انقلبا عليه انقلاباً مخزياً ، لأنه بتلقيه البيعة نال دونهما نجاحاً قانونياً . وهما في حياة عثمان لم يألوا جهداً في الكيد لعثمان . وكان يبدو أن ذلك لأجل على ، فقد قدماه على أنفسهما ، لكنهما الآن خرجا عليه خروج المنافسين ، واتهما بأنه هو الذى دبّر مقتل عثمان وأنه هو الذى استفاد منه . فتركا المدينة وانتقلا إلى مكة . وكانت هناك عائشة أم المؤمنين ، وقد انسحبت من الثورة على عثمان ، بعد أن اشتركت فيها بالفعل اشتراكاً قوياً^(١) ، والتجأت إلى مكة قبل أن يبلغ الأمر غايته ، وذلك لتعلن براءتها من دم عثمان وتستطيع أن تكيّف موقفها بحسب ما يوول إليه أمر الفتنة . على أنها كانت تبغض علياً^(٢) ، فلما سمعت أنه تلقى البيعة لم تتردد في تقديس عثمان ، وناذرت إلى الأخذ بالثأر له من الخليفة الجديد^(٣) ، وقد التف حولها عدد من الهُرَّاب الذين تساقطوا إلى مكة ، اختلف الحكم في أمرهم اختلافاً كبيراً . وانضم إليهما طلحة والزبير واستترا وراءها ، وكانوا ثلاثتهم رؤساء وقواد الثورة على علي في جزيرة العرب . ولكنهم لم يستطيعوا أن يبدأوا محاربته من مكة ، لأنه كان في المدينة ، وكانت المدينة أكثر عدداً من مكة بكثير ، فقرروا أن

= كل ما يتعلق بأحداث خلافة علي عند الطبرى ج ١ ص ٣٠٦٦ - ٣٤٧٤ . ونظراً لأن كثير من هذه الأحداث معروف مشهور فقد أضربنا عن ذكر بعض النصوص مكثفين بالإشارة الإجمالية إليها . والمؤلف اقتضب في عرضه للحوادث اقتضاباً كبيراً ، ونظراً إلى المسألة بمنظار سياسي خالص وأغفل روايات أصحاب الحديث ، ومنها ما جاء عند الطبرى ج ١ ص ٣١٦٩ فما بعدها والروايات التي تدل على رغبة كبار الصحابة وعائشة في الصلح وعلى إفساد قتلة عثمان خططهم (الطبرى ج ١ ص ٣١٨١ - ٣١٨٦) وعلى الدور الذى قام به السبئية وعلى عامل الإخراج في الحرب - المترجم] .

(١) [راجع مثلاً الطبرى ج ١ ص ٣٠٩٨ من ٧ - ٩ و ص ٣١١٢ - المترجم] .

(٢) [راجع ، خلافاً لهذا ، الطبرى ج ١ ص ٣١٧٠ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى مثلاً ج ١ ص ٣٠٩٦ فما بعدها : قالت عائشة في خطبة لها بمكة إن الذين قتلوا عثمان هم غوغاء أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة وإن « أصبح عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم » ، ثم دعت إلى الاجتماع على قتال القتلة « حتى يشكل بهم غيرهم ويشرد من يمدحهم » ودافعت عن عثمان ودعت إلى الأخذ بثأره - المترجم] .

(٤) [الطبرى مثلاً ج ١ ص ٣١٠٢ ، ٣١٠٤ - المترجم] .

يخرجوا من جزيرة العرب وأن يقصدوا البصرة ، وكان لهم بها صنائع
ولأهلها هوى في طالحة ، فاستطاعوا أن يستولوا على البصرة وأن يستقروا
فيها . وإزاء ذلك رأى على^١ أيضاً أنه لا يستطيع البقاء في المدينة ، فأتبعهم
إلى العراق ، وقصد الكوفة أولاً ، وكان مالك الأشتر ، ذلك اليماني
صاحب الكلمة النافذة ، قد مهد الأرض هناك ، وخرج على أهل
الكوفة ، وهاجم أهل البصرة ، فانتصر عليهم على مقرية من مدينتهم ، في
موقعة الجمل^(١) . (٩ ديسمبر سنة ٦٥٦) ، وهي تسمى بهذا الاسم لأنها
كانت تدور رحاها حول الجمل الذي كانت عليه عائشة . فأما طالحة
والزبير فقد وقعا قتيلين ، وأما عائشة فإنها بعد هذا الإخفاق انسحبت من
على المسرح . ثم صالح أهل البصرة علياً ، وباع له أهل العراق جميعاً
فأقام هناك وجعل الكوفة مقراً له .

وقد كانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان هي أن الخلافة القديمة قد انتهت
في مدينة الرسول ، وأن الخلافة الجديدة جعلت مقرها بعيداً عن المدينة
وقضت على قداسة الخلافة ، وصار الحكم في النزاع عليها إلى السيف
ولكن قوة الدولة كانت في الأمصار ، وكانت غالبية القبائل قد هاجرت
إلى مدن المعسكرات ، وانتقل مركز الثقل في جزيرة العرب من وسطها
إلى أطرافها . وكان أهل المدينة أنفسهم قد خطوا الخطوة الحاسمة في ذلك ،
لأنهم دعوا أهل الأمصار إلى مدينتهم وخطبوا بينهم وبينها ، يفعلون فيها
ما يشاؤون . وبذلك تنازل أهل المدينة عن سيادتهم التي كانت شاملة
ويكن القول إن كبار الصحابة ، بنوع خاص ، قد ارتكبوا انهياراً
سياسياً ، لأنهم هدموا السيادة الأدبية التي كانوا يستندون إليها ، وذلك لأنه
إذا كان الأمر أمر القوة المادية ، فإن غيرهم كان أقوى منهم . ومنذ ذلك
الحين نزلت جزيرة العرب عن مستواها الذي كان لها قبل الإسلام نزولاً

(١) [الطبري ج ١ ص ٢٢١٨ : كانت وقعة الجمل في جمادى الآخرة سنة ٦٣٦ هـ -

الترجم]

كبيراً ، وذلك بسبب هجرة العرب منها على نطاق واسع ، وبسبب ما لحقها من خراب على أثر الهجرة . ونجد صدئى للبكاء الأليم على ذلك فى القصائد القديمة^(١) . فلم تعد المدينة عاصمة الدولة ، وكل الجهود التى بُذلت لاسترداد مجدها المفقود ذهبت سدئى ، ولم يبق لها من الشأن سوى أنها أصبحت داراً للتراث الإسلامى الذى صار موضوعاً لمصنفات العلماء ، كما أنها غدت ركناً تنزوى إليه الطبقة الساخطة التى تندحر جانباً والى كان الفضل فى تكوينها للنبي ؛ فكانت من معزلها هناك تحاول من حين إلى حين أن تصل إلى تحقيق مطامعها : على أن المدينة قد احتفظت بجاذبيتها من حيث أنها وطن لقوم يحبون أن يقيموا أينما شاءوا ، أو لقوم أخفقوا فى دورهم السياسى ، أو لقوم انسحبوا لأسباب أخرى . وهكذا صارت مدينة أهل الصلاح والديانة مدينة الطبقة الغنية من أشراف العرب الذين أرادوا اللهو ، ومدينة التسلية والموسيقى والغناء واللهو والمجون .

واستطاع على^٢ ، من مقر خلافته فى الكوفة ، أن ينشر سيادته على جزيرة العرب كلها ، عدا الشام وحدها : وقد كان لهذه الولاية مركز انفردت به ، لأن معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا إليها مهاجرين كغيرهم . وكان لهم ، إلى جانب ذلك ، تقاليد غير التى كانت لأهل الكوفة والبصرة ، وكانوا منذ زمان طويل واقعين تحت التأثير اليونانى الرومانى ؛ وكانوا قبل الإسلام تابعين لدولة هى دولة الغسانيين ، ولذلك كانوا متعودين على النظام والطاعة بعض التعود ،

(١) فيشكو البريق بن عياض شاعر الهذليين من أنه بقى وحده شيخاً هرمًا ومعه قليل من النساء والأطفال فى بلاد كان يعمرها ناس كثيرون ، ويردد ذلك أبو خراش وغيره . ويرى أن قى جاء إلى عمر يطلب اللحاق بالجيش ، فقال له عمر إن بقاءه برأ بوالديه خير من الهجرة . وهذا هو ما يتضمنه إنجيل مرقس (الإصحاح السابع ، الفقرة ٧ فابعدا) [ويجد القارىء شعر البريق هذا فيما نشره المؤلف من شعر الهذليين ، ضمن الجزء الأول من كتابه *Skizzen und Vorarbeiten* ، برلين ١٨٨٤ ، ص ٢١ - ٢٣ من القسم العربى - المترجم] .

قلم يشوروا على أميرهم مع أنه كان أموياً ، وهو معاوية بن أبي سفيان : وكان معاوية قد لبث على ولاية الشام عشرين عاماً ، ورضى عنه الناس جميعاً ، فلم يَبْسُدْ له عند ذلك أن يخلى المجال ويباع لعلّ ، وكان موقفه إزاء على يختلف عن موقف طلحة والزبير ، وكان أكثر موثاة له من موقفهما ، وهو لم يكن من المستحقين للخلافة ، ولا هو طالب بها ، بل اختط لنفسه في تلك الولاية التي كان يدبر شئونها سياسة خاصة ، فهو لم يعتبر أن ولايته قد انتهت بمقتل عثمان ، وحافظ على منصبه إزاء الثورة . وقد استطاع أن يسجل على رايته الولاء والطاعة للحكومة الشرعية ؛ وذلك خلافاً لأصحاب الفتنة التي لم تزل لها صفة الفتنة ، وإن كان الذين قد أثاروها هم أهل الدين والصلاح باسم الإسلام . وقد كان مما أفاده أنه كان ، بحكم أنه ابن عم الخليفة المقتول ، صاحب الحق في التأثير لمقتله ، وأن واجب التأثير يقع على عاتقه . وإنما كان على معاوية هذا الواجب دون غيره من أقارب عثمان ، لأنه كانت لديه دونهم جميعاً الوسائل الكفيلة بالوصول إلى ذلك ؛ فقد كانت له الإمرة في الشام على جيش وطني بالمعنى الحقيقي .

وبعد موقعة الجمل أسرع على في أهل العراق قاصداً أهل الشام ، فالتقى بجيشهم على حدود الفرات . وهناك عند صفّين ، وقعت معركة حامية الوطيس ، ومال النصر فيها أخيراً إلى جانب على . حتى إذا رأى أهل الشام أنهم على وشك الهزيمة ، رفعوا المصاحف على أسنة رماحهم : وفهم أهل العراق المقصود من ذلك : إنكم تريقون دمّ قوم مسلمين ، هم مثلكم ينضوون تحت راية كلام الله . ولقد كان لهذا أثره في أهل العراق ، وذلك أن القيام لأجل الحق في الحكومة التيقراطية ساقهم إلى قتال عثمان ، ثم محاربة عائشة وأهل البصرة ، وهو الآن يسوقهم إلى محاربة معاوية وأهل الشام ؛ وإذن فالجماعة الإسلامية قد انشقت على نفسها ، فمن الذي منهم على الحق ؟ ولما كان هذا الموقف الملتبس قد تبين لهم ،

في ساحة مضطربة ، على صورته الواضحة ، فإنهم اضطربوا وتحيروا ؛ فكان أهل الدين الموجودون في المقدمة والذين يضربون المثل لغيرهم ، هم أول من خفض السلاح أمام القرآن ، فحذا الآخرون حذوهم ، وأجبروا علياً أيضاً على الكف عن القتال وعلى ألا يجعل تقرير أمر الخلافة للسيف بل للقرآن ، أى على يد محكمين يصدرون في حكمهم عن القرآن ؛ فلما مانع في ذلك همدوه بأن يكون مصيره مصير عثمان . ولكنهم لما خرجوا من صفين ، وكانوا في طريقهم إلى الكوفة أدرك جند علي كلهم أنهم قد خلدوا عن النصر خدعةً تعسة ، وكان أشدهم ندماً أولئك الذين كانوا أول من وقع في شرك الخديعة فأضلوا غيرهم ، واعتبروا أنه قد كان من أكبر الإثم أنهم سمحوا للاضطراب أن يتطرق إلى إيمانهم وأنهم تحيروا حيناً في اعتقادهم بمشروعية الثورة على عثمان . ولكنهم ، من جهة أخرى ، لاموا علياً أيضاً ، لأنه قبل التحكيم ، ولأنه بقبوله إياه قد جعل القضية العادلة التي كانوا يحاربون من أجلها موضع شك بالفعل . فطلبوا منه أن يبادر بالرجوع عن الخطوة التي كانوا هم أنفسهم أجبروه على أن يخطوها ، وأن ينقض المعاهدة التي عقدها مع أهل الشام ؛ فلما لم يكن في استطاعته أن يتبعهم ولا أن يتأرجح طبقاً للغممة التي يضربونها ، عند ذلك خرجوا عليه ونزلوا معسكراً خاصاً بهم في حروراء ، فسُـمِّـئوا لذلك بالحرورية . أما الاسم الشامل الذي يطلق عليهم فهو اسم الخوارج .

ولكنهم في هذه المرة لم يأخذوا سواد الناس معهم ، وذلك أن أهل العراق — ويجب أن يكون المفهوم عند إطلاق هذه التسمية هو أهل الكوفة دائماً وقبل كل شيء — ظلوا في الحملة مواليين لعلي ، ولكن موقفه بينهم كان مغايراً لموقف معاوية بين أهل الشام ، ولم يكن موافقاً له موافقة مكانة معاوية عند أهل الشام ؛ وذلك أن معاوية لم يصل إلى منصبه مرفوعاً من أسفل ، بل هو عين من فوق ، من قبل الخليفة ؛ فلم يكن في منصبه مديناً لمن دونه من الرعية ، وكان موقفه منهم

موقف المستغنى غير المحتاج . وكان أهل الشام يطيعونه إذا أمر ، وكانوا أيضاً ، بطبيعة الحال ، مقتنعين بأنه على الحق في محاربته قسيلة عثمان ، على أنه مهما كانت الظروف فإنهم كانوا ، بلا شك ، جاعلين قضيتهم قضيتهم . وكانوا يعرفونه ويُسجلونه منذ سنين طويلة ، وكانوا ، إلى جانب هذا ، قد اعتادوا من قبل شيئاً من النظام الحربي : أما على فقد كان لاصقاً به أن مصدر خلافته يرجع إلى الثورة ، ولم يكن لديه لا الزمن الكافي ولا المقدرة على التغلب على هذا النقص بصفات شخصية ممتازة . ولم ينس له أهل العراق أنهم هم الذين رفعوه إلى منصبه ، وكانوا أبعد عن روح النظام ، أو هم كانوا أكثر تديناً وورعاً من أن يطيعوا خليفتهم حيثما يوجههم . ولقد ندموا بعد صفين أشد الندم ، لأنهم أفسدوا عليه سياسته ، ولكنهم لم يريدوا أن يصلحوا ما ارتكبوا من خطأ ، فيؤيدوه إذا استوثق القتال مع أهل الشام تأييداً قوياً ، بعد أن تبين أن التحكيم انتهى بمهزلة . فلم يستطع على أن يستنضمهم إلى حرب جديدة ، ولم يطيعوه طاعة الجند ، رغم شدة الحاجة عليهم في ذلك ، وتركوا معاوية بفتح مصر ويقاق العراق بفريق من جيشه تغير مسرعة حتى تقترب من الكوفة . حتى إذا جمع أهل العراق همهم أخيراً وكانوا على أهبة المسير ، قُتل على . وأخس ابنه وخليفته الحسن أنه أضعف مما يقتضيه منه الموقف ، فباع حقه في الخلافة لمعاوية ، وتمكن معاوية من دخول الكوفة واضطر أهل العراق إلى أن يبايعوه ، وانتهت بذلك الحرب الأهلية :

٨ - وهكذا توصل الأمويون إلى الخلافة ، ولكن أقدامهم لم تكن راسخة إلا في الشام (ومعها الجزيرة ومصر) . أما فيما عدا ذلك فكانوا يصطدمون بمعارضة خفية وسافرة ، فلم يستطيعوا أن يحافظوا على سيادتهم إلا بالقوة ، وكان عليهم دائماً أن يعملوا على تفادي الثورة عليهم أو على إخمادها . وكان موطن الثورة عليهم في العراق ، خصوصاً في مدينة الكوفة ، كما كان الحال من قبل .

ولقد هُزم أهل العراق في الحرب مع أهل الشام ، أو هم ، على الأقل ،
فقدوا الجولة . وكان من أثر ذلك أن انتقلت الخلافة ، وانتقل معها في الوقت
نفسه بيت مال الدولة ، من الكوفة إلى دمشق . وكان لهذا وقعٌ أليم في نفوس
أهل العراق ، بعد أن كان قد سبق السيفُ العدل : فقد كانت لهم الدولة ،
أما الآن فقد نزل شأنُ بلادهم ، فصارت مصراً من الأمصار ، وخرج
من أيديهم ما كانت تدره البلاد التي فتحوها من خيرات ، وأصبح لا بد لهم
أن يقنعوا بفتنات الأعطيات التي تتساقط من مائدة سادتهم . وقد اضطروا
إلى الإذعان بسبب حاجتهم إلى الدراهم ، وكانت هذه تنقص بحسب إرادة
مانحها ، أو كانت تُقَطَّع أيضاً . فلا عجب أنهم كانوا يرون في سيادة الشام
عليهم نيراً قاسياً ، وأنهم كانوا مستعدين أن يطرحوه إذا بدا لهم أن الفرصة
مواتيةٌ لذلك . وكانت أعنف الثورات على الأمويين تأتي من جانب أهل
العراق ، لا من فريق معين ، بل من جانب جميع العرب المقيمين هناك ،
لأنهم كانوا مجتمعين على الحق بسبب ضياع ما كان لهم من سيادة ، ومجتمعين
على البغض لمن غصبهم إياها . فكان لابد للدولة دائماً من عمال ذوي
حنكة ممتازة لإلزام تلك الولاية الجاحدة حدود الهدوء والطاعة . على أنه
بمضي الزمن أصبح ذلك غير مُستطاع إلا نتيجة الجند المحليين وباجتلاب
جنود احتلال من أهل الشام وإقامة سيادة حربية بالمعنى الحقيقي ، لم يكن
مقرراً في العاصمة القديمة للبلاد ، بل في مدينة حصينة جديدة أنشئت
لفرض السيادة عليها (١) .

ثم بدأ أهل العراق يعملون قضيتهم قضية الإسلام نفسه ، وجنّدوا الدين
ومبدأ الحق والعدل في محاربتهم للقوة الغاشمة ، وهكذا تحالفت المعارضةُ الدين
على الدولة الأموية . ومن الواجب على المسلم أن يأمر بالمعروف ، وأن ينهى عن
المنكر بلسانه ويده ، ولا يسوغ له أن يكتفى هو نفسه بالامتنال لإرادة الله ، بل

(١) [يقصد المؤلف إنشاء مدينة واسط على يد الحجاج - المترجم] .

يجب عليه أن يعمل على أن تكون إرادة الله هي العليا في المجتمع ، فلا محل
للسكوت على الأوضاع الفاسدة ، لأن الدين يلزم الفرد بالتدخل في الحياة
العامية ، وذلك أن الدين يعتبر الفرد مسئولاً عن نصيبه فيما يجب عليه للجماعة ،
وميدان النشاط الديني هو السياسة ، وهذا هو معنى الحكومة التيوقراطية^(١) ،
ومن جهة أخرى كان في الإمكان أيضاً استخدام الدين من حيث أصوله
في تأييد النظام الذي كان قائماً ، وفي تنبيه الناس إلى ما يجب عليهم من طاعة
أولى الأمر ومن المحافظة على وحدة كلمة الجماعة . ولكن معظم قوة الدين
كانت في الواقع ، في جانب المعارضة ، وكانت مبادئ الحكومة التيوقراطية
لا تقر صورة الحكم التي كانت عليها الجماعة الإسلامية إذ ذاك ، فكانت تلك
المبادئ حائلاً دون ضرورة التسليم بأن التاريخ له من القوة ما يجعل بعض
الأوضاع مشروعة ، وبأن للدولة أن تصغي إلى « عقلها » الخاص ، وأن
تتوخى من الأغراض ما يحفظ من كيانه ويزيد من قوتها ، وأن الدولة التي
كانت قائمة ما كانت لتستطيع أن تتفادى ذلك بسهولة . ولكن أحداً ، من
جهة أخرى ، لم يتنسَ أبداً للأمويين أنهم كانوا من أول أمرهم أخطر
أعداء النبي [عليه السلام] ، وأنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا في الساعة الأخيرة
مكرهين ، وأنهم عرفوا بعد ذلك كيف يجنون لأنفسهم ثمرة انتصاره
وسيادته ، وذلك من طريق استغلال ضعف عثمان أولاً ، ومن طريق
المهارة في استغلال مقتله بعد ذلك . وقد كان أصل الأمويين لا يجعلهم أهلاً
لقيادة الأمة المحمدية ، وكان من السخرية بفكرة الحكومة التيوقراطية أن يظهر
الأمويون مُحمَّسِينَ بِهَا الأَعْلَمِينَ ، فهم كانوا مغتصبين ، وظلوا كذلك ، ولم يكونوا

(١) كانت العبرة التي أخذت من مفاصل السياسة سبباً في أن ظهر في الإسلام أيضاً اتجاه
شبيه بالاتجاه الإنجيلي ، وهو يريد أن يبتعد عن السياسة باعتبار أنها فتنه ، ولا يثق بمزاعمها
الدينية . وكان لهذا الاتجاه ممثلون بلغوا غاية النبيل ، منهم سعيه بن المسيب في المدينة ، والحسن
البصري في البصرة .

يستندون إلا إلى قوتهم الخاصة ، إلى قوة أهل الشام . ولكن قوتهم لم تستطع قط أن تصير حقاً شرعياً . ولقد زاد في البغض للأمويين قِدمُ الشكوى من « السلطان » وأفعاله ، وظلت هذه الشكوى موجهة إليهم خاصة ، باعتبار أنهم أصحاب السلطان في ذلك الزمان ، وكانت موضوعات الشكوى هي : أن العمال يسيئون استعمال سلطتهم ويظلمون الناس ، وأن أموال الدولة تجرى إلى جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها ، على حين أن معظم جيوب غيرهم تبقى خالية ، وأن الزنا والعهر والشراب والميسر أصبحت لذات السادة لا يُعاقبون عليها ، لأن الحدود معطلة (١) .

وكان لسانُ حزب أهل الدين والورع الساخطين على الحكومة هم الفقهاء والقراء ، أعنى علماء الشريعة وعلماء القرآن . وكان موقفهم من الأمويين شبيهاً تمام الشبه بموقف علماء الكتاب والفاروسيين من اليهود إزاء بيت الحشمونيين . وكان الحق الذي يعارضون به القوة الحاكمة أيضاً حقاً إيجابياً ثابتاً تماماً ومكتوباً ومأثوراً ، وكان موجوداً في القرآن والسنة . وكانوا يستنبطونه بالتأويل من الكتاب ؛ وكانوا يضعونه في الأحاديث النبوية ، لأنها لم تكن في ذلك الوقت في صورتها الأخيرة الثابتة ، وذلك بأن كانوا يدعون أن الفصل في المسائل السياسية التي لم تكن قد ظهرت إلا فيما بعد قد ورد على لسان النبي [عليه السلام] ، ولم يكن ذلك يخالو بطبيعة الحال من تناقض .

وكان أشد ممثلي المعارضة الدينية تطرفاً وأتقى الاتقياء ، هم الخوارج . فقد أخذ الحق الديني عندهم صورة مبدأ ثوري بالمعنى الكامل ، وكانوا يفخرون بأنهم

(١) الظلم والاستثثار (بالقوة) وتعطيل الحدود . وكذلك طولب بأن يُسأل العمال عن أعمالهم ، وأن يعطوا القود من أنفسهم في الظلم الذي يرتكبونه هم في مناصبهم . ولم يستعجب الخلفاء إلى هذه الشكوى ، لأن محاسبتهم لم كانوا يبعثون بهم من العمال كانت مقصورة على محاسبتهم على أن يحملوا إلى الخلفاء من الأموال أكثر ما يستطيعون .

هم أصحاب الفِعلِمة الثورية الكبرى ، وهى مقتل عثمان ، فبينما كان هناك قوم يخرجون من هذه الكائنة بعد أن وقعت ، جعل الخوارج الاعترا الصريح بها شعاراً لهم وقد اشتركوا مع بقية أهل العراق وفى الثورة على معاوية أولاً ، لأنه لم يسلم بأرائهم . ولكنهم كانوا قد عارضوا علياً أيضاً عند ماساوم وفارص فى حق الله ، وانشقوا عليه لذلك . وهم وإن كانوا قد عملوا على تأييده ، فإنهم لم يريدوا أن يكونوا حزبه بالمعنى الذى كان به أهل الشام حزباً لمعاوية ، لأنهم قالوا إن الدين ليس لمعاوية ولا لعلى ، بل هو الله وحده ، ومن ضحى فى أمر من الأمور بعقيدته الدينية السياسية من أجل صاحب الأمر ، أو جعل طاعته مقدّمة على طاعة الله ، فقد اتخذ صملاً له ، وعُباد الأصنام عباد أصنام وليسوا بمسلمين . فكان الخوارج يرون أنهم وحدهم هم المسلمون ، ورأوا أن اسم المسلمين لهم وحدهم . ولذلك أراقوا دماء غيرهم من المسلمين دون تخرج ، ولم يجاهدوا إلا المسلمين ، وإلا المسلمين وحدهم : أما تهمة تمزيق الجماعة على هذا النحو فلم يروا أنها تصدق فى حقهم ، وكانوا ثائرين على مذهب « الجماعة » الفاسد الذى لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز الغث من السمين ، وكانوا يرون أنهم وحدهم ، وهم الخارجون على الدين ، هم « الجماعة » بالمعنى الحق ، وأن الإسلام لا يتجاوز حدود معسكرهم . وقد هاجروا من ديار « الجماعة » المزيّفة ، متأسين بهجرة النبي [عليه السلام] . وهم وإن لم يكن من مبادئهم التمسك بأسرة حاكمة ، فإنهم هم أيضاً ، من حيث أنهم ممثلو الجماعة الموحدة للمؤمنين ، كان لهم خليفتهم أو إمامهم الذى يصلى بهم ويقودهم فى الحرب لكنهم كانوا يراقبون حركاته وسكناته ، ويعرضون عليه إذا أخطأ ، فى نظرهم ، ويخرجون عليه ويعتبرونه كافراً ، إن لم يرجع عما فعل . ولذلك افترقوا ، فيما يتعلق بمسألة معرفة الإمام الحق ، لا عن سائر المسلمين فحسب ، بل هم سرعان ما انقسموا فيما بينهم أيضاً ، وكان انقسامهم من أجل خلافات فى الرأى ليس لها كبير شأن . وقد تطرفوا فى الأخذ بمبدأ الحكومة التيقراطية وجعلوه

مسألة اعتقادية وموضوعاً للنيتة المخصصة ، حتى ذهبوا به إلى الحال ، وحتى صارت فكرتهم عن الدولة ، إن لم تأخذ صورة ملطفة معقولة ؛ غير صالحة لتكوين جماعة وغير مؤدية إلا إلى الفساد والهدم . وقد وضعوا كل قوتهم في محاولة تحقيق غاية لا يمكن تحقيقها ، فسار بهم تديشهم إلى سياسة نشيطة كل النشاط ، ولكنها سياسة يائسة مخالفة تماماً لكل سياسة . وهم لم يجعلوا النجاح غرضاً لهم ، وإنما كانوا يريدون نجاة أرواحهم من شرور الدنيا . وقد قنعوا بطلب الشهادة في ميدان الجهاد ، فباعوا أرواحهم لله في سبيل الجنة . ورغم هذا ، وربما من أجل هذا نفسه ، كانوا يغلبون جيوشاً كبيرة . وقد أربوا العالم الإسلامي في بعض الأحيان . ورغم أنهم كانوا دائماً يؤلفون جماعة صغيرة ، فإنه لم يمكن القضاء عليهم ، كأنما كانوا كلما قضى عليهم ينبتون من الأرض نباتاً . وكانت لأرائهم جاذبية متجددة دائماً . أما مقاومة غيرهم للحكومة القائمة فإنها ، مهما لبست ثوب الدين والورع ، كانت دائماً مدخولة بأغراض دنيوية ، وكانت لذلك تتلون بألوان شتى . وكثيراً ما كان يستغلها رجال من أهل الطموح والتغائب ، لا يقصدون سوى الوصول إلى السلطان : وفي وسط اضطراب الحركات والأغراض تمسك الخوارج بالمبادئ الأساسية التي رسمها الإسلام ، ولم يحيدوا عنها . وكانوا في جهادهم في سبيل « دولة الله » أشد ما يكون المجاهدون إخلاصاً وأقواهم عزمًا . ولكنهم كانوا في حربهم ، بطبيعة الحال ، أشد ما يكون المحاربون قسوة ، وذلك من أجل وضع خيالي لا يتيسر لبني الإنسان .

وكان الشيعة يختلفون عن الخوارج اختلافاً تاماً ، وإن كان منشوهم هم أيضاً يرجع إلى الثورة على عثمان . وكان الشيعة أشد من الخوارج بغضاً لبني أمية ، لكن بغضهم هذا لبني أمية لم يكن يرجع إلى أنهم كانوا ينكرون أن تكون الحكومة التيقراطية في أسرة ما ، بل لأنهم أرادوا أن يزيلوا الأسرة الزائفة ويحلوا محلها الأسرة الصحيحة صاحبة الحق الشرعي ، أعني بيت النبي [عليه السلام]

الذى يرأسه بعد وفاته ابن عمه وختنه على بن أبى طالب . واسم الشيعة اختصار
 لعبارة : شيعة على . وكان شيعة على ، فى أول الأمر ، هم أهل العراق فى الحملة ،
 وذلك فى مقابل أهل الشام ، شيعة معاوية . وقد ظل على عند أهل العراق ،
 حتى بعد وفاته ، رمز سيادتهم المفقودة ، ولم يكن تشييعهم يـَعْدُ وأن يكون
 تعبيراً عن شعور العداء لبني أمية من جانب ولاية العراق المغلوبة ، خصوصاً
 الكوفة ، وهى العاصمة التى نزلت مكانتها . وكان رؤساء القبائل والعشائر فى
 الكوفة يشاركون غيرهم هذا الشعور فى بادئ الأمر ، ولكن مركزهم
 كمسؤولين اضطّرهم إلى الحيلة ، فلم يشاركوا غيرهم فى ثورات لا ينتظر لها
 النجاح : وكانوا يسكنون زمام سواد الناس إذا أرادوا الاستجابة لمن يريد
 أن يستخفّهم معه ، ووضعوا نفوذهم باسم الهدوء والنظام فى خدمة الحكومة ،
 لكيلا يعرّضوا مركزهم للمتعاب ، وبذلك نفّروا من كان من الشيعة أكثر
 صراحة وأميل إلى العمل الإيجابى وأثاروا عداوتهم ، هؤلاء الشيعة الذين
 لم يقبّلوا فشلتهم فى مظاهرات عاطفية خيالية قاموا بها من تعلّقهم بآل بيت
 النبى ، بل زادهم تعلّقاً بهم . على أن معارضة الشيعة لسيادة الطبقة
 الأرستقراطية من زعماء القبائل قد زادت من تقاربهم وتشددهم ، فسلكوا
 طريقاً غير طريق سائر العرب ، وبذلك ارتفع فى الكوفة شأن الحزب كان ،
 حتى ذلك الحين ، متوارياً فى الظلام ، واتخذ اسم السبئية . وقد غيّر هؤلاء
 السبئية الإسلام من أساسه ، وذلك بأن جعلوا من شخص النبى شيئاً إلى
 جانب القانون المستقل عن الأشخاص (كما هو فى القرآن والسنة) وفوق هذا القانون
 الذى رضى به الناس بعد وفاة النبى ، وكان خصوصاً عند الخوارج هو الحجة التى
 لا يكون إلى جانبها أى تقديس أو تأليه لأحد من الناس ؛ فذهب السبئية إلى أن
 شخص النبى لم يموت بموت محمد [عليه السلام] ، بل هو باقى سلالاته واحداً بعد
 واحد ، وبنوا مذهبهم على القول بتناسخ الأرواح ، ووجهوه توجيهاً خاصاً ،
 فقالوا إن روح الله الذى يسرى فى الأنبياء ينتقل بعد موت كل نبى إلى النبى

الذى بعده ، وإن روح محمد [عليه السلام] خاصة انتقل إلى عليّ ، وإنه باق في سلالته ؛ وعلى هذا فإن علياً لم يكن في نظرهم هو الخليفة الشرعي لمن قبله وحسب ، بل كان في مرتبة أعلى من مرتبة أبي بكر وعمر اللذين يزعم الشيعة أنهما دخلا يدينه وبين محمد [عليه السلام] واغتصبها حقه ، بل ذهب السبئية إلى أن علياً هو الروح الإلهي المتجسد وأنه وارث النبوة ؛ ولذلك فلا يمكن في زعمهم أن يكون بعد وفاة النبي خليفة غيره في الدولة التيوقراطية ، لأن هذه لا يمكن أن تخلو من ممثل حتى لله يكون على رأسها (١) . ويقال إن السبئية سموا بذلك من اسم يهودى يعنى هو عبد الله بن سبأ ، وكانت لهم أوكار في بعض قبائل العرب في الكوفة ، لكنهم بعد ذلك درجوا منها وانتشروا في الكوفة نفسها ، خصوصاً بين موالى الفرس الكثيرين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام . وإذن فإن انتشارهم إنما كان بين قوم من غير العرب ، وقد صار لهم شأن سياسى على يد المختار ، أحد أشراف ثقيف ، وهو الذى اتخذهم جيشاً له ، ثم استمال قدماء الشيعة أيضاً وعمل حيناً من الدهر على اغتنام ما تجدد من فوضى وانقسام ، فأراد أن يسقط الأرسطراطية العربية في الكوفة من على عرشها ويقيم هناك تحت رئاسته حكومة يُقضى فيها بفضل التشييع على التمايز بين العرب والفرس وبين السادة والرعية . ولكن نجاحه كان قصير الأمد ، فتم القضاء على شيعته ، ولكنها توصلت إلى النصر فيما بعد على الطريق الذى شقّه لها .

٩ - ولكن المعارضة الدينية ، أو المعارضة التى لبست ثوب الدين ، ما كانت لتكون لها تلك الخطورة على حكومة الأمويين لولا ما انضاف إليها من تنافس بين القبائل العربية ، وهو تنافس لم يكن له بالحكومة التيوقراطية شأن ، بل عروقه ضاربة في الروح العربية نفسها . وقد زاد هذا التنافس بعد ذلك الملك

(١) وهم وإن كانوا قد جعلوا اسم النبي لمحمد وحده ، فإنهم في الواقع جعلوا ورثته مساوين له في المرتبة ، واعتبروا أن لهم سلطة إلهية ، وقالوا بأنهم معصومون .

العريض الذي وصل إليه العرب بسبب الفتوحات زيادة تجاوزت كل ما كان معروفاً أيام الجاهلية . وقد زاد عمال الدولة خاصة من حدة هذا التنافس ، لأنه لم يكن تحت تصرفهم مباشرة سوى عدد قليل من الشرطة ، وكان جندهم ، فيما عدا ذلك ، يتكونون من المقاتلة في الولاية ، أى من مقاتلة القبيلة ، وكان العمال يستطيعون ، بالسياسة الماهرة ، أن يضربوا القبائل بعضها ببعض ويجعلوا أنفسهم فوقها . ولكن لم يفلح في هذه السياسة إلا القليلون من الولاة ، وفي أول العصر الأموي خاصة . أما الذي كان يحدث في الغالب فهو أن يستظهر الوالي بقبيلة واحدة على غيرها ، وكان يستظهر خصوصاً بقبيلته هو ، وكان هو الذي يأتى بها معه أحياناً . وعند ذلك كانت قبيلته التى يتخذها حدة له في ولايته تشاركه في الحكم وفي المزايا التى كان يكتسبها التصرف في المناصب والأموال . ولكن كانت تتولى دفعة الأمور مع كل عامل جديد قبيلة جديدة ، فكان الأمر ينتهى بأن تقع القبيلة المخلوعة في العداء المرير للقبيلة الحاكمة . وهكذا سرى السم إلى الفوارق والخلافات القبلية من جراء السياسة والنزاع على المغامرات السياسية . وأسوأ ما تجلّى ذلك في ولاية خراسان التى كانت ملحقة بالبصرة . فهناك ارتفع شأن قيس على يد عبد الله بن حازم . كما ارتفع شأن أزد عمان على يد المهلب ، وحل محل التنازع القديم بين بكر وتميم التنازع بين قيس وتميم أولاً ، ثم بين الأزد وقيس ، وأخيراً بين ربيعة وقيس - تميم ، أما في الشام والجزيرة فقد تنوع موقف قيس وكلب من النزاع حول الخلافة ، فأخذوا جانب ابن الزبير حيناً وجانب الأمويين حيناً آخر ، وقد اتخذ نزاعهم صورة دامية ، وبقيت العداوة بينهم إلى بعد زوال سببها السياسى الأصلى بزمان طويل . وما زاد في خطورة النزاع على كل حال ميل كان موجوداً عند القبائل إلى تكوين مجموعات كبرى^(١) .

(١) قارن ما تقدم ص ٢٤ والصفحات التالية .

وقد لعبت قيس في الشام وفي خراسان دوراً سياسياً كبيراً ، وكانوا منتشرين في كل مكان ، وكانوا بفضل ما ينتمى إليهم من ثقيف يشغلون كثيراً من المناصب العليا ، وكانوا أشد ما تكون القبيلة اتحاداً ، وكانوا أول من كوّن عصبة بالمعنى الحقيقي في جميع أنحاء الدولة . وقد شتوا طريقهم إلى الحكم بأشد الوسائل خزيّاً . وكانت تميم تنتمي أيضاً إلى الجماعة الكبيرة التي كانت تنتمي إليها قيس ، وكانت تميم أكثر ما كانوا عدداً في البصرة وخراسان ، وكانوا يتميزون بشعور قبلي زهوّ جاء مواتياً لهم ، فلم يكن طموحهم كبيراً إلى تولي المناصب ، وكانوا قلّ ما يتدخلون في السياسة العليا ، ولم يكونوا على وئام مع قيس في مبدأ الأمر ، لكنهم اتحدوا معهم أخيراً وانضموا إلى حزب مُضَرّ الكبير . ومن جهة أخرى كان أزد عمان ، في البصرة وخراسان ، ألدّ أعداء قيس و تميم ، فانضموا إلى بقية اليمنيين الذين كانوا في خراسان ، يشتملون فيما يشتملون ، على قبائل ربيعة (بكر) . وفي آخر الأمر دخلت في هذه المجموعة قبائل قضاة (كلب) الشاميين ، وقد اعتُبروا يمينيين ، أما لأنهم كانوا كذلك فهو موضع شك : وإنما الذي ألقاهم بين أذرع حزب اليمنيين فهو في الحقيقة عداوتهم لقيس (١) . وهكذا كان نطاق الانشقاق والخلاف الخطر لا يزال يتسع (٢) . ولم يستطع القرشيون والأمويون أن يرتفعوا بأنفسهم عن هذا الانقسام الذي شقّ العالم العربيّ إلى معسكرين .

ودخل الأعاجم في الفرجة التي انفتحت بين المعسكرين ، فدخلوا في الإسلام زرافات ، وخصوصاً تلك الطوائف الكبيرة من أسرى الفرس في

(١) قارن القطان (ط . بازل) ص ٢٩ ، ٥٦ ، ٩٣ ، فاما بعدها .

(٢) ولكن التحزب لم يكن ثابتاً تماماً ، بل كان يختلف بحسب البواعث المعارضة في بعض الأحيان ، فكانت القبيلة تؤكد هذا الوجه أو ذلك من نسبها لكي تثبت ارتباطها بخاصة قوي يهيمها أن تنال عطفه ، أما الشعراء خاصة فإنما كانوا يتزلفون إلى أكبر رأس .

الكوفة والبصرة . ولقد توصلوا بذلك إلى الحرية في أشخاصهم^(١) ، لكنهم لم يصلوا إلى التمتع بالحقوق المدنية للمواطنين ولا بالحقوق الحرية ومزاياها المادية ، فاعتُبروا موالى للقبائل العربية ، ولم تتسع لهم الدولة التيقراطية إلا على هذه الصورة ، أعنى على صورة التبعية للقبائل العربية . ولم يكن الإسلام وحده كافياً في ضمان المساواة لهم ، ذلك لأن الدولة التيقراطية الإسلامية كانت في الواقع دولة عربية خالصة ، دولة العرب التي جعلتهم فوق الأمم المغلوبة ، وكان هذا في ذاته مناقضاً لفكرة الحكومة التيقراطية ، فهي لا ينبغي أن تكون مُلكاً ولا يجوز أن يكون لها مظاهر المُلك . وأشد ما تكون المناقضة إذا ظلت حقوق السادة من العرب قائمة بالنسبة للمسلمين من غير العرب : ذلك أن الإيمان بالله والاعتراف له وحده بالمُلك كان من شأنه أن يدعو إلى تَسْبُد كل تمايز بين الأمم من أساسه ، وكان من السهل استخدام مبادئ الإسلام وسيلة لإعطاء الموالى نصيبهم في الدولة التيقراطية وفي انتزاع حقوقهم من يد العرب ، وكان أهل الديانة والورع من العرب أنفسهم يفتقون إلى جانب الموالى في مطالبهم بحقوقهم ، وحاولت أحزاب المعارضة ، بنوع خاص ، أن تجد لها فيهم خلفاء على بنى أمية ، وكان ينو أمية في الواقع يمثلون سيادة الأمة العربية لاسيادة الإسلام^(٢) . وقد سبق

(١) على أن إطلاق الأسرى أحراراً إذا اعتنقوا الإسلام لم يكن واجباً بل عادة حسنة ، ولم يطبق المبدأ القائل بأن المسلم ، بحكم إيمانه بالله وبحكم شريعة الله ، لا يمكن أن يكون عبداً لمسلم . ولكنه كان البديهي أن يتبع العبد دين سيده خصوصاً إذا ولد في بيته .

(٢) [لا شك أن حكومة بنى أمية كانت حكومة عربية إلى أكبر حد ، وما كان غير ذلك ممكناً ولا طبيعياً ، لأن العرب هم الذين أقاموا دولتهم ووسعوا رقعتها وأغفوا المكان الطبيعي لهم في رئاسة الدولة وفي إدارتها وفي قيادة جيشها . وكان لا يمكن إعطاء مناصب الرياسة والإدارة للموالى ، على حداثة عهدهم بالإسلام ومعارضتهم لسيادة العرب ، إلا إذا أريد للدولة الانهيار المبكر . وكان في العرب أنفة واستعلاء لها أصلهما ومبررها . فاستبداد العرب في أيام الدولة الأموية كان ضرورة طبيعية وسياسية ، أما القول بأن سيادتهم لم تكن سيادة الإسلام فهو قول مبالغ فيه ولا يصح أن يقال إلا من جهة أنهم لم يسووا بين الموالى وبين أنفسهم . ولكن هل كان « عقل الدولة » يسمح بذلك ؟ لم يكن يسمح ، ولا يصح من أجل هذا أن يقال إن دولة بنى أمية لم تكن إلا دولة العروبة ، فقد كانت دولة الإسلام التي يمثلها العرب - المترجم] .

الخوارجُ إلى ذلك ، فقبلوا الموالي في جماعتهم وفي جيشهم ، وجعلوهم على قدم المساواة مع العرب . وقد ترسّم الشيعةُ خطي الخوارج في ذلك ونجحوا أكثر منهم بكثير . وقد رأينا كيف أن حزباً شيعياً^(١) اتخذ في الكوفة مع من فيها من الموالي ، فاستطاع بذلك أن يرتفع وأن يرفع الأعاجم معه في نفس الوقت ؛ ولكن لم يلبث أن مضى العربُ على هذا الحزب في الكوفة نفسها ، فاخفى في الظلام ، ولكنه انتقل فيما بعد من الكوفة إلى أرض الأعاجم الحقيقية ، إلى خراسان ، وانتشر هناك بين من دخل في الإسلام من سكان تلك البلاد ، وتحت راية الإسلام ، أغنى تحت راية التشيع ، استطاع الخراسانيون أن يطردوا العرب من أرضهم أولاً ، وأن يقضوا بعد ذلك على السيادة العربية جملة ، وأن يُحِيلوا العباسيين محلّ الأمويين .

١٠ - إن الآراء المألوفة عن الشرق والروح الشرقية تحتاج في الحملة إلى تصحيح كبير . ويجب ، مهما كان الأمر ، ألاّ يكون لها اعتبارٌ فيما يتعلق بتاريخ الإسلام طول الفترة التي كان العرب فيها هم الأمة الحاكمة . وإن السياسة ، لا أى شيء آخر ، كالحضارة مثلاً ، هي الموضوع الذي يحتمل هنا المكان الأول ويستأثر بالاهتمام . ولم تكن سياسة العرب عبارة عن فكرة الشرقيين عن القدر المحتوم (Fatum) باديةً في ثوب الحكم الاستبدادي المطلق ، بل هي كانت شأنًا مقدساً عند جميع المسلمين ، اشتركوا فيه بأرواحهم وجوارحهم ، وإن كانوا لم يفهموا طبيعة الجماعة الإنسانية وحدودها^(٢) .

وقد تحكمت في هذه السياسة نزعات عامة ، دينية وقومية واجتماعية . ونظراً

(١) [يقصد المؤلف المختار الثقني وأتباعه - المترجم] .

(٢) [يظهر أن المؤلف يقصد أن العرب لم يفهموا أن أعضاء الجماعة التي تكون الدولة يجب أن يكونوا سواسية بحيث لا تكون هناك طبقات متبايزة ، وأن من طبيعة الجماعة السياسية أنها لا تقبل الفوارق والتبايز السياسي - المترجم] .

لتشابك هذه النزعات ، ونظراً لصراعها مع نظام الحكم الذى كان قائماً ،
والذى كان ينسدر أن تُمسَّكْه حكوماتٌ طويلة الأجل أو أشخاص أطول
عمرًا (١) ، فقد حدث اضطرابٌ كبير ، وكان الاتساع الهائل للمسرح تلك
السياسة ، واشتغال ذلك المسرح على أمم وبلاد من المحيط الهندى إلى المحيط
الأطلسى لا يجعل الإلمام بها والإشراف عليها جميعاً أمراً سهلاً .

وقد بدا لنا أن هذا الفصل التمهيدى ضرورى لإعداد ذهن القارئ
وتوجيهه ، حتى يفهم ما يلى ولا يفقد الخيط الذى يهديه ، لكن مقصده
أيضاً هو أن ينبّه من قد يخطئ فيعتبر أن الفصول التالية تستوعب تاريخ
صدر الإسلام ، وذلك أن هذه الفصول تدور في جوهرها حول دولة
الأمويين ، وحول الصراع الذى قام بين هذه الدولة التى تمثل السيادة العربية
وبين القوى التى كانت تعارضها ، وحول سقوط هذه الدولة أمام الثورة
التي لم تزل قائمة منذ انتهاء الخلافة في المدينة . فأمّا تناول الأحزاب والأقاليم
بالبحث تناولاً مفصلاً ، كلٌ منها على حدة ومن زاويته الخاصة ، فهذا
ما لم يمكن أن يتسع له المقام هنا ، وإن كان تناول الأحزاب والأقاليم
بالبحث ليس قليل الشأن في فهم أحوال الدولة الإسلامية . وقد جُمِعَتْ
روايات عن ولاية خراسان ، التى لها أهمية خاصة ، وجعلتها داخلة في أحد
فصول الكتاب . أما فيما يتعلق بالخوارج وبالشيعة وكذلك بالحروب مع
الروم في ذلك العصر ، فإنى أنبّه القارئ إلى مقالاتى التى نشرتها ضمن
رسائل وأخبار جمعية العلوم في جوتنجن ، في القسم الفلسفى التاريخى
عام ١٩٠١ .

(١) كان معظم الخلفاء وأمراء الأمصار صفراء ، ولم يمتد بهم الأجل إلى الكبير .
أما معاوية ونصر بن سيار فكانا أشبه بالثى الشاذ . وكان حكم الخلفاء والأمراء قصيراً أيضاً
في العادة ، وإن كان تغير الأمراء قد كان أكثر من تغير الخلفاء .

الفصل الثاني

على والحرب الأهلية الأولى

١ - يحكى المدائني عن أبي مخنف (الأغاني ج ١٥ ص ٧١) أن نائلة زوجة الخليفة المقتول عثمان كتبت إلى معاوية وقصت عليه خبر مقتل عثمان وبعثت بقميصه الملطخ بالدم ، وذكرت لمعاوية الآية التاسعة من السورة التاسعة والأربعين [الحجرات] (١) : أما سيف فهو في روايته التي حفظها لنا الطبري (ج ١ ص ٣٢٥٥) يحكى أن النعمان بن بشير قدم إلى دمشق بقميص عثمان الذي قتل فيه ، مخضباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم وشيء من الكف . وإذن فأمر الأصابع شيء جديد ، ولذلك فليست نائلة ، بحسب هذه الحكاية ، هي التي بعثت بالقميص . ويمضي سيف في روايته فيقول : إن معاوية وضع القميص على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد ، وثاب إليه الناس ، وظل القميص يوضع كل يوم على المنبر والأصابع معلقة في أردانه سنة كاملة ، ذلك أنه كان بين مقتل عثمان وبين معركة صفين عام "كامل . وكان قصده معاوية أن يُشير أهل الشام (٢) . أما المدائني ،

(١) [هذه هي الآية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي ، حتى تنفك إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » - المترجم] .

(٢) [وقد بلغ معاوية غايته ، وذلك أن رجال أهل الشام بكوا عثمان وآلوا ألا يقر بوا النساء حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء ، واتهموا علياً بأنه قتل عثمان وآوى قتلته ، وصمموا على ألا ينتهوا عنه ، حتى يقتلهم أو يقتلوه - المترجم ، نقل عن الطبري ج ١ ص ٣٢٥٥] .

تقلاً عن عوانة (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٤ وما بعدها ؛ قارن الكامل ص ١٨٣ فما بعدها ؛ والدينورى ص ١٦٦ فما بعدها) فهو يقتصر على حكاية أن علياً وجّه جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية ، يدعوهُ إلى بيعته ، وأن معاوية أظهر لإجماع أهل الشام على الأخذ بنار عثمان (١) ، وأنه بذلك أحدث في نفس الرسول الأثر الذى أرادهُ . وعلى هذا فقد صارت المسألة ، فى الحقيقة ، مجرد مناورة تفلق علياً وتضايق نفسه ، فلا يهجم على معاوية . أما الذى يؤخذ من رواية الواقدي (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٢ فما بعدها) فهو أن قوماً حرضوا معاوية على أن أكثر مما حرض معاوية نفسه الناس على أن يفتقدوا فى أبيات حفظها لنا الطبرى (ج ١ ص ٣٢٥٨) أن الوليد ابن عقبة ، ابن عم معاوية ، يلوم معاوية على إضاعته الوقت فى مكاتبة علي ، وعلى عودهِ فى دمشق وتوآنيهِ عن القيام بما يقضى به واجب القرابة من الثأر لمقتل عثمان . لكن معاوية كان سياسياً بطبعه ، ولم يكن متعجلًا ولا متلهفًا على محاربة أهل العراق ، لأنه كان فى ذلك الوقت مُهدّدًا من قبل الروم ، وبمُخصوصاً من قبل أهل مصر الذين كانوا فى جانب علي . ولم يكن بطمّح إلى الخلافة ، وإنما كان غرضه الأول هو ، على الأقل ، أن يحافظ على ولاية الشام ، وأن يستولى على مصر ، التى كان لا يصح أن يتركها لخصومه ، إن أراد أن يحمى ظهره (٢). وقد دفعهُ إلى ذلك عمرو بن العاص خاصة ، وكان عمرو

(١) [لا نجد هنا إثارة معاوية لمشكلة مقتل عثمان ، بل نحن نجدُها فى مناسبة أخرى

— راجع الطبرى ج ١ ص ٣٢٧١ وص ٣٢٧٥ - ٣٢٧٦ - المترجم] .

(٢) [وأيضاً لعظم خراج مصر وقيمتها فى تقوية شأن من يظهر عليها - راجع الطبرى

ج ١ ص ٣٣٩٦ ، ٣٤٠٩ . وكان قيس بن سعد بن عبادة والياً لعل على مصر وكان أميراً

ساحزاً ناجحاً ، فكان أقل خلق الله عل معاوية . وكان معاوية يخشى أن يقبل عليه عل فى أهل

الكوفة وأن يقبل قيس فى أهل مصر فيقع بينهما معاوية ، الطبرى ج ١ ص ٣٢٣٨ -

المترجم] .

قد اشترك في الثورة على عثمان^(١) ، وأراد أن يتخذ من ذلك وسيلة إلى استعادة ولايته القديمة مصر. وبعد مقتل الخليفة المسين حالف عمرو معاوية على قتال على حلفاً أشبه ما يكون بالتحالف بين الصبية الأشقياء^(٢) ، وذلك لكي يبلغ غرضه (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٣ فما بعدها ، قارن الدينورى ص ١٦٧ وما بعدها) . فتوجه معاوية وعمرو قاصدين مصر أولاً ، ونجحا في استدراج محمد بن أبي حذيفة إلى مصر من قبيل على ، حتى أخذه أسيراً (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٢ فما بعدها وص ٣٤٠٧ فما بعدها) ، ولكنهما اضطررا إلى الرجوع لكي يتوجها إلى قتال على نفسه . وكان على هو المهاجم ، وكان يعتبر نفسه صاحب الحق في الخلافة^(٣) وفي رئاسة جميع المسلمين ، فبعد أن استوثق من العراق واستكمل عدته خرج آخر عام ٣٦ هـ . (أوائل صيف ٦٥٧ م .) من معسكره في الشخيلة^(٤) ، قرب الكوفة ، حيث كان يوجد عدد من أهل البصرة أيضا ، وسار متجهاً إلى الغرب . وكان معاوية وعمرو ينتظرانه على حدود الشام في سهل صفين على الفرات ، غير بعيد من الرقة^(٥) .

- (١) راجع إلى جانب ما تقدم ذكره من تحريض عمرو بن العاص على عثمان ، الطبرى ج ١ ص ٢٤٠١ - المترجم] .
- (٢) [حالفه حل أن تكون لعمرو ولاية مصر طعمة ما بقى - الطبرى ج ١ ص ٣٣٩٧ - المترجم] .

- (٣) [راجع كلامه عند الطبرى ج ١ ص ٣١١٠ ، ٣٢٧٨ - ٣٢٧٩ - المترجم] .
- (٤) إلى الغرب أو إلى الشمال من الكوفة على الطريق إلى الشام (الطبرى ج ١ ص ٣٣٤٥) . وكانت تقع هناك أيضاً بويب ، وتسمى موقعة بويب أيضاً موقعة النخيلة .
- (٥) بين Barbalissus و Caesarium (تيوفانيس في أخبار حوادث سنة ٦١٤٨ من تاريخ الخليفة) و Barbelissus هي Sa Balis (= بالنسبة للبلاذرى ص ١٥٠ فما بعدها ، Assem. Balis O. 2 332) . واسم Sapphin المذكور عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٥١ ، وفي النقوش الشامية في حثش (Juorn As. 1900 II. 285ss) في عهد السلوقيين (Sel. 968) يسمى Sapphe أو Sepphe في stat. emph. ، وكذلك عند العالم الكوسموجرافى الرافى ، حيث نجد أن Sephe و Barbalission يذكران معاً .

ولا نكاد نجد من أخبار موقعة صفين عند الطبرى إلا ما يذكره أبو مخنف : سلك على مع حملة جيشه الطريق الحربى العادى مع نهر الدجلة ، ثم اخترق أرض الجزيرة ، وعند قرقيسيا لحقت به مقدمة جيشه التى كان عليها أن تسير مع الشاطىء الأيمن للفرات ، وبعد أن عبر على الفرات عند الرقة التقت مقدمة جيشه بطلائع جيش الشام عند سور الروم . وانصرفت طلائع جيش الشام قبل اللقاء السيوف . فلما طلب على موضعاً لعسكره تبين أن أهل الشام أخذوا عليهم الطريق إلى الماء ، أى الفرات . ولما لم يستجب أهل الشام إلى أن يُخَلُّوا بين جيش على وبين الماء بالحسنى ، قاتلهم جيش على حتى غلبهم على الماء وأراد منعهم منه ، لولا تدخل على وممنعه من ذلك بعد أن انتصر جيشه (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٩ - ٣٢٧١) . وعسكر الجيshan أحدهما أمام الآخر شهرين كاملين ، ذا الحجة سنة ٣٦ هـ والمحرم سنة ٣٧ هـ [لم يكن بينهما من قتال إلا مناوشات كثيرة فى ذى الحجة ، أما المحرم فتوابع فيه الجيshan طمعاً فى الصلح] . وأخيراً بدأ القتال على أوسع نطاق يوم الأربعاء ٨ صفر سنة ٣٧ هـ (١) ، واستمر صباح الخميس كأشد ما يكون القتال ، وكان أهل الشام أحسن عدة ، وكان مظهرهم أكثر تضامناً من أهل العراق (الطبرى ج ١ ص ٣٣٢٢) ، وانكشف يمين الكوفة أمام أهل الشام ، وكانوا على ميمنة على ، وذلك رغم استماتة قرأتهم ، ولكن لما اقترب المساء أوقفهم مالك الأشر ، ثم أخذ يرددهم خطوة خطوة على أعقابهم ، وظل يكشفهم ، حتى ألحقهم بالصفوف المحيطة بمعاوية (٢) ، وانتهى بهم إلى عسكرهم ، ودام القتال طوال الليل حتى ارتفع الضمحي ، وكانت هذه هى ليلة الهرب الحقيقية ، لا ليلة

(١) الأربعاء ٢٦ يولييه سنة ٦٥٧ م . = ٦١٤٨ من تاريخ الخليفة = ٦٦٨ من حكم السلوقيين ؛ قارن الهامش المتقدم .

(٢) [كان من أهل الشام قوم بايعوا معاوية على الموت فمقلوا أنفسهم بالعائم والقوا صفوفاً كثيرة أحاطت بمعاوية - الطبرى ج ١ ص ٣٢٨٣ ، ٣٣٠٠ - المترجم] .

تهاون^(١) وفكر معاوية في الفرار منهزماً ، ولاح النصر للأشتر ، وعند ذلك اضطر أن يترك النصر يضيع من يده وأن يغمد السيف ، بعد أمر متكرر من علي . وذلك أن أهل الشام رفعوا المصاحف على أسنة رماحهم ، لكي يخرجوا من الاحتكام إلى السيف الذي أوشك أن ينتهي إلى غير مصلحتهم ويلجأوا إلى حكم كلام الله ، وقبيل أهل العراق أن يُخذعوا ، وأكرهوا علياً على الكف عن القتال وعلى أن يفاوض معاوية ، وهددوه بالقتل إن لم يقبل ذلك . واختير ، بناء على اقتراح معاوية ، حَكَمَان ليحكمما بحسب القرآن في مسألة من له الخلافة : واختير عمرو بن العاص نائباً عن أهل الشام ، وأبو موسى الأشعري نائباً عن أهل العراق . وتقرر أن يصدر الحكم في رمضان التالي ، في مكان واقع بين الشام والعراق .

وحكاية أبي مخنف لموقعة صفين طويلة جداً في الحقيقة ، وهي من طراز أخبار مواقع القادسية ونهاوند . ويحتلُّ الكلام عن مقدمات المعركة ، قبل بدء الالتحام الحقيقي ، فراغاً كبيراً . على أن المحرم ، على كل حال ، يبقى خالياً من القتال ، ولا يذكر قتال إلا في الشهر الذي قبله والشهر الذي بعده ، وذلك على نحو واحد : فيحكى أولاً أنه بدأت مفاوضات الصلح ، وأنه بدأت بعد ذلك ، عند فشل المفاوضات ، مبارزات فردية ، كان فيها مناسبة لإظهار الأنصار البارزين لكل من معاوية وعلي . أما أن أسماء الأشخاص الذين قاموا بذلك تختلف في هذه الرواية ، فإن ذلك لا يغير من مادة الحكاية . ويميل الإنسان إلى الاعتقاد بأن ما جرى أولاً في شهر ذي الحجة هو في الحقيقة ما جرى في شهر صفر ، وهو غير

(١) الطبري ج ١ ص ٣٣٢٧ ، الكامل ص ٧٥٣ ، ويجب أن يكون ذلك ليلة الجمعة ؛ ولكن الطبري يذكر أن ليلة موقعة صفين كانت ليلة الخميس ، وكذلك في رواية لأبي مخنف . قارن كتاب أنساب الأشراف ص ٣٤٩ س ٣ .

منفصل عن المعركة الحقيقية طُول شهر المحرم^(١) وعلى هذا تكون فترة الانتظار قبل الواقعة أقصر كثيراً مما يُروى . ولا يصحح ، بطبيعة الحال ، أن يكون هناك شك في أن كلا من الفريقين كان مشفقاً من حسم النزاع بحمد السيف (الدينورى ص ١٩ س ٥ ، ١٩٥ س ٩ ، ٢٠١ س ١٥) ولم يكن أحد يتعجل البدء في الحرب ، وربما كان للتخوف الموروث قديماً من إراقة الدم في شهر المحرم شيء من التأثير في عدم الإسراع إلى القتال ، وإلى ذلك يشير بيت مذكور عند الدينورى ص ١٨٢ والمسعودى ج ٤ ص ٣٥٠ ، وهو :

فما دون المنايا غير سبيح
بقين من المُحَرَّم أو ثمان
ونحن لا نظفر ، فيما يتعلق بسير المعركة الحقيقية ، بصورة واضحة ، ففي وصفها من الاضطراب الكبير مثل ما كان في مجراها . نعم ، نحن نجد في كثير من الأحيان معلومات دقيقة عن تقسيم الجند وترتيبهم وقيادتهم ، ولكن هذه المعلومات غير متفقة فيما بينها ، ولا تكاد تكون لها ، من أجل ذلك ، أية قيمة عملية فيما يتعلق بمجرى القتال الحقيقي . ويتكون وصف هذا القتال من مجرد روايات متفرقة لحوادث عرضية ، وهى روايات لا تبين إلا ناحية واحدة ، ولا ينجح الكاتب في محاولته أن يجعل منها وحدة منسجمة الأجزاء ، فوصف المعركة يعوزه ارتباط بين الأجزاء ، كأنما يتبين الإنسان أشجاراً متفرقة من بعيد ولا يتبين أنها في الحقيقة غاية . وكل من شهد المعركة يميل إلى أن يعتبر أن المكان الذى كانت فيه قبيلته هو النقطة المركزية ، وإلى أن يجعل الفضل كله

(١) لا يذكر الدينورى أمر المبارزات الفردية إلا مرة واحدة ، وهو يجعلها في المحل الثانى ، بحيث تصبح مقدمة للاشتباك . وهو بالإجمال يذكر كل شيء ، خصوصاً التفاصيل الصغيرة ، أدق مما نجده عند أبى مخنف ، فيقول إن أول مصحف رفعه أهل الشام كان مصحف دمشق الأعظم ، فربط على خمسة أرماع يحملها خمسة رجال . فروايته شبيهة برواية سيف ، وهو يتفق معه في الرواية . والأبيات التى يذكرها الدينورى قيمة جداً على كل حال .

لأبطال قبيلته ؛ ونهاية المعركة هي وحدها ، التي تبين بوضوح أن مالكاً
الأشتر كان البطل الحقيقي في ذلك اليوم . لكن لا يصفه بأنه كان كذلك وصفاً
واضحاً إلا النجاشي الشاعر في أبيات له (الدينوري ١٩٨) ، وقد اشترك
النجاشي بنفسه في المعركة ، فهو يقول :

رأيتُ اللواءَ كظل العقاب يحميه الشاميُّ الأخرُّ
دعونا له الكباشَ ، كبش العراق ، وقد خالط العسكرَ العسكرُ
فردَّ اللواءَ على عقبه وفاز بحظوتِها الأشترُ

أما فيما عدا ذلك فهو لا يزيد على كثيرين غيره ممن ذكرت أعمالهم
المجيدة بتفصيل لا يقل عن تفصيل أعماله^(١) . وإذا صرفنا النظر عن قواد
المعركة وجدنا من الأبطال الذين برزوا في القتال على بن أبي طالب نفسه
وابن عمه عبد الله بن عباس . ويوصف قتالُ القرأ وثباتُهم ، عند فرار
غيرهم أمام جند الشام ، كما يذكر أنهم اقتحموا الموت من أجل على ،
فهم بدمائهم شهوداً له ، وهم أقوى دليل على أنه على حق ؛ ويذكر من
قادتهم عبد الله بن بديل بن ورقاء وهاشم بن عتبة وخصوصاً عمار بن ياسر
الصحابي المسنّ الذي يروى أن النبي عليه السلام قال فيه إنه ستَقْسُأه الفشة .
الباغية (ابن هشام ص ٣٣٧) . وبذلك يصبح الأشتر في مكان أقل
بروزاً ؛ والمتأخرون لا يميلون إليه ، وربما كان ذلك لأنهم ، مثل سيف ،
كانوا يعتبرونه ثائراً ؛ ولا يريد المسعودي واليعقوبي أن يذكرنا من أمره .
شديداً ، وهما يجعلان كل الفضل لكفاءة على في القيادة . والطبري أيضاً يفعل .

(١) ومنهم أيضاً من يظهر أنهم لم يكونوا قط حاضرين مثل قيس بن سعد بن عبادة ،
قارن ما يلى قسم ٣ . أما ما ينسب إلى أبي الدرداء الصحابي الورع فقد اخترعه الدينوري (ص
١٨١) [يحكى الدينوري أن أبا الدرداء حضر صفين وتدخل في سبيل الوصول إلى حل النزاع
بين علي ومعاوية ، فلم يوفق ، فانسحب ولحق هو وأبو أمامة ببعض السواحل - المترجم] .

ذلك (ج ١ ص ٣٣٢١ فما بعدها) : أما أبو مخنف فهو لا يذهب إلى هذا الحد ، بل هو يصف بإعجاب كبير ، ذلك المظهر الحربى الرائع للبطل اليمنى (الطبرى ج ١ ص ٣٢٩٧) ، ووصفه يُشعر بأن البطل قد أقام الدليل على ما كان لشخصه من شأن . فكان لا يقف حيث يضعه على ، بل على رأس قبيلته ، نفع ، وقد جعله إقدامه واستباقه العدو على نحو مفاجئ قائداً لهُمدان ومذججاً معاً ، واستطاع بهم أن ينتزع النصر من يد أهل الشام . وكان هو وحده أيضاً الرجل الحكيم ، عند ما قبل الآخرون أن يُخذلوا وأن يؤخذ منهم النصر ، فكان عربياً نبيلاً بإزاء أهل الورع القصبى النظر ، وإزاء أهل التراخى أو المكر من الساسة .

ولم تصل إلينا حكاية للمعركة من الجانب الشامى ، فلعلها كانت تختلف عن حكاية أبى مخنف ، وإن كان يبعد أن تكون أجدر بالثقة من رواية أبى مخنف ، كما يؤخذ من حكاية تيوفانيس ، فهو يقول (فى أخبار سنة ٦١٤٨) : « إن من كان مع معاوية تغلبوا ، واستولوا على الماء ، ومن كان مع على تركوا القتال وفرّوا بسبب العطش : على أن معاوية ، لم يكن يريد أن يقاتل ، لكنه أحرز النصر بدون مشقة » ومن البين بنفسه أن أبا مخنف يتمحيز إلى أهل العراق وحزب على على أهل الشام ومعاوية ، فعلى فى نظره هو صاحب الحق وأنصاره هم أهل الديانة ، أما حكاية أن أخاه حنظل بن أبى طالب كان يحارب فى صفوف العدو^(١) فلا يذكرها أبو مخنف ، على حين يذكر أنه كان فى أهل الشام أبناء أبى بكر وعمر ، إلى جانب أربعة آلاف من القرّاء ، ومعنى هذا أن القرّاء لم يكونوا فى جانب على وحده ، كما يذكر أن أهل الشام كانت ضمايرهم مطمئنة كأهل العراق ، فلم يكن هؤلاء جميعاً مقتنعين بحق على اقتناعاً راسخاً ، وكانوا يطلبون الأدلة ، وكانوا يتجادلون فيما بينهم ويجادلون خصومهم مجادلات استمرت

(١) البخارى طبعة بولاق ١٢٨٩ ج ٢ ص ٦٧ فما بعدها و ص ١٣٩ و ١٤٥ و ج ٣ ص ١١ ، راجع أيضاً مجلة : Deutsche Morgenl. Zeitschr. (DMZ) 1884 83.

إلى ما بعد صفين بزمان طويل ، بل هي وصلت إلى الدار الآخرة^(١) . ولم يكونوا متحمسين للقتال مع إخوانهم في الدين وفي النسب ، وقد سرهم وقف القتال . فكانت الخصومة بين الحزبين لينة في أول الأمر ، وإنما اشتدت مع تطور الحوادث^(٢) :

٢ - وفيما يتعلق بمجرى الحوادث بعد ذلك يحكى لنا أبو مخنف :
رجع أهل العراق إلى أنفسهم ، وهم في طريق العودة من أقرب طريق على الشاطئ الأيمن من الفرات ، ولام بعضهم بعضاً ولاموا علياً أيضاً ، وإن كان لم يوقف المعركة إلا مضطراً . ولما دخل الكوفة خرج عليه اثنا عشر ألف رجل ، وعسكروا في حروراء ، فسموا الخوارج أو الحرورية^(٣) ، وكان شعارهم عبارة احتجاج على التحكيم ، وقالوا : لا حكم إلا لله . وكان رؤسائهم شيث بن ربيع الرياحي وعبد الله بن الكواء الليشكري ويزيد بن قيس الأرحبي ، وهم أكبر رجال قبائل تميم وبكر وحمدان الكبيرة في الكوفة . وقد نجح على أن يعيد هؤلاء الرؤساء إلى جانبه ، وقد وعد أحدهم بولاية إصفهان والري وأعطاه إياها . ثم عاد

(١) ترمى لعقمة النخعي أخوه الذي قتل في صفين في المنام وقال له : إن قتل أميل العراق وأهل الشام تنازعوا بعد قتلهم أيهم كان على الحق وأن الله أحق أهل العراق . وتحير رجلاً في المشكلة ، فأحاطها حذيفة المدائني إلى ما يحكى عن النبي من أن عمار بن ياسر تقتله الفئة الباغية . أما فيما يتعلق باطمانان ضحائر أهل الشام فتجد شاهداً من أشعار كعب بن جهميل وغيره من الشعراء عند الدينوري ص ١٩١ فإبعدها وص ٢٠٦ [لا يشير المؤلف إلى المراجع التي اعتمد عليها في كلامه في أول هذا الهامش - المترجم] .

(٢) [راجع موقف أهل العراق من علي وخروجهم عليه وما كان من مناقشات بينه وبين الخوارج وقلة رغبة أتباعه في الحرب معه وعدم استجابتهم له وتدخلهم في سرية المكتاتبات في أيام التحكيم ونحو ذلك في مواضع كثيرة عند الطبري في حوادث سني خلافة علي ؛ خصوصاً ج ١ ص ٣٣٣٣ ، ٣٣٥٠ - ٣٣٥٤ ، ٣٣٨٧ - ٣٣٨٨ ، ٣٤٠٩ ، ٣٤١١ - ٣٤١٢ ، ٣٤١٩ وغير ذلك من المواضع - المترجم] .

(٣) قارن فيما يتعلق بأحزاب المعارضة السياسية - الدينية في صدر الإسلام

الحرورية إلى الكوفة وانضموا إليه ، لكنهم انتظروا ، وزعموا أنه وعدهم أن يقودهم ، دون إبطاء ، إلى محاربة أهل الشام ، فلما لم يفعل ذلك بل بعث أبا موسى لإنفاذ الحكومة في دومة الجندل في رمضان عام ٣٧ هـ ، اعتبروا ذلك خلفاً منه للوعد ، فخرجوا عليه من جديد وعينوا منهم خليفة عليهم استقلوا به عن عليّ ، هو عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي ، وبايعوه في اليوم العاشر من شوال عام ٣٧ هـ . (٢١ مارس سنة ٦٥٨ م .) ثم خرجوا من الكوفة وحداًئاً مُستخفين واجتمعوا في النهروان على الجانب الآخر من دجلة (١) ، وهناك أيضاً عرضوا على خوارج في البصرة - وكانوا خمسمائة رجل - أن ينضموا إليهم تحت قيادة مسعر بن فدكي التيمي .

وبعد أن انتهى التحكيم كما تنتهي المهزلة ، شعر عليّ أن له الحق في أن يستأنف القتال مع أهل الشام ، فجمع جيشه في معسكر النخيلة ، ودعا الخوارج أيضاً للانضمام إليه ، لكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، وطالبوه بأن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم ويستقبل التوبة - وهذا هو تصورهم لاستجابته مرغماً لقبول التحكيم في صفين - فأراد عليّ عند ذلك أن يدعهم ويمضى إلى قتال أهل الشام ، ولكن جيشه ألحّ عليه في أن يقاتل الخوارج ، لأن خوارج البصرة ، وهم في طريقهم إلى النهروان ، قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت ، ابن أحد السابقين الأولين من الصحابة (ابن هشام ص ٢٣٤) ، بقروا بطن أم ولده عما في بطنها [وقتلوا آخرين واعترضوا الناس . فاضطر عليّ أن يستجيب لإلحاحهم ، وحاول ، عبثاً ، أن يقنع الخوارج بأن يدفعوا إليه القتلة ، كما حاول هو [ورجاله] عبثاً أن يبين لهم أنه وإياهم في الحقيقة غير مختلفين ، وأنه إنما يريد أن يجعل السيف

(١) النهروان (Naqba) اسم للنهر المعروف في بلاد جوغى من أعمال المدائن (الطبرى ج ٢ ص ٩٠٠) ، وهو أيضاً اسم لمكان يسمى بأدق هو : جسر النهروان (الدينورى ٢١٧ . وفيما يتعلق بأرض جوغى انظر الطبرى ج ٣ ص ٢٧٥ و ٣٨٥ و ٤٠٦ .

حكماً بينه وبين أهل الشام أعدائه وأعدائهم ، فأجابوهم : لو بايعناكم اليوم
حكماً متى غداً ، يقصدون أن علياً وشيعته سيفعلون ما فعلوه في صفين من
قبول التحكيم ، ولم يقبلوا أى شيء ، وتهبثوا للقتال ، فنادوا : الرواح
الرواح إلى الجنة !

ويقول أبو مخنف إن موقعة النهروان كانت عام ٣٧ هـ ، قرب آخر هذا
العام ، لأن الخوارج لم يخرجوا من الكوفة إلا في شوال ، أى في الشهر
العاشر . وقد تركهم قوادهم الذين كانوا في حروراء ، واشترك شبت في
محاربتهم حرباً شديدة ، وكذلك فعل الأشعث الذي كان أول الأمر على
مذهبهم . وهم أيضاً لم يكونوا بالكثرة التي كانوا عليها في حروراء ، فلم يزد
عددهم على أربعة آلاف ، ومن هؤلاء رجعت طائفة متفرقين ، فنزلت
الكوفة ، وانتقل منهم نحو من مائة رجل إلى جانب عليّ علانية ، وانحاز
خمسائة فارس على رأسهم فروة بن نوفل إلى الدسكرة ، وقتل الباقر
حتى لم يبق منهم إلا ثمانية أشخاص .

على أنه بعد القضاء على الخوارج اعتقد أهل الكوفة أنهم قد فعلوا ما فيه
الكفاية ، ولم يبق لهم أى ميل إلى محاربة أهل الشام . واضطر عليّ إلى الإذعان
للواقع . ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى النهوض لإخضاع ثوار آخرين تعلموا
أيضاً بمسألة التحكيم ، لكن على نحو مغاير تماماً لما عند الخوارج . وكان
الخيريت بن راشد ، من قبيلة ناجية ، قد تبع علياً إلى الكوفة بعد موقعة الجمل
ومعه ثلاثمائة رجل ، وحارب مع عليّ في صفين والنهروان أيضاً . فلما لم يعترف
عليّ بحكم المحكمين جاهره الخيريت بالخروج والعداء ، واتجه معه أصحابه إلى
الأهواز من طريق المذار ، وتلاحق بهم قوم من أصحابهم ، كانوا معهم في الكوفة ،
وانضم إليهم طائفة من العرب يرون رأيهم ، واجتمع إليهم علوج وأكراد من أهل
الأهواز ، لم يريدوا أن يدفعوا الخراج ، وبعد أن هزمهم جيش كوفي تحت قيادة

معقل بن قيس التميمي عند رامهرمز ، رجع الخريت إلى بلاده في البحرين ، وأخذ يولب قومه من بني ناجية ، وكانوا قد امتنعوا منذ عام ٣٧ هـ من دفع الصدقة (الزكاة) ، بل هو أخذ أيضاً يفسد قبائل عبد القيس [ومن والاهم من سائر العرب] ويولبهم على عليّ : وكان يقول لكل صنف من الناس ما يرضيهم ويُسِرُّ إليهم أنه على رأيهم ؛ فكان إذا تكلم مع الخوارج أظهر أنه على رأيهم وأنحى على عليّ لأنه حكّم الرجال في أمر الله ؛ وإذا تكلم مع الآخرين أظهر لهم رأيه الذي كان رآه حين خرج من الكوفة ، وهو أن علياً ما كان ينبغي له أن يرفض حكم المحكّمين بعد أن رضى بالتحكيم واختار نائباً عنه ؛ وإذا تكلم مع من امتنع من دفع الصدقة قال لهم : شدّوا أيديكم على صدقاتكم ، وزاد على ذلك بأن أوصاهم أن يصلوا بها أرحامهم وأن يعودوا بها على فقرائهم ولا يعطوها إلى بيت المال ؛ وكذلك استطاع أن يضم إليه نصارى كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا إلى النصرانية لما رأوا الخلاف بين أفراد الأمة الحمديّة وسفكهم الدماء ، وذلك بأن نبههم إلى أنهم ليس لهم أن ينتظروا من عليّ عقاباً على ارتدادهم عن الإسلام إلا أن يضرب أعناقهم . ولكن معقل بن قيس ، بعد أن طرده من الأهواز ، لم يدعه يثبت سلطانه في البحرين ، فلاحته وقاتله ؛ وصمدت قبائل بني ناجية ، فصمدت ثلاث مرات هجوم جيش يزيد عليها في العدد ، حتى إذا قتل الخريت ومعه مائة وسبعون رجلاً ، تفرق الباقون وانتهت المعركة (١) .

هذا ما يحكيه أبو مخنف كما يذكر الطبري (ج ١ ص ٣٣٤٥ - ٣٣٨٦ ، ٣٤١٨ - ٣٤٤٣) (٢) . ولا سبيل إلى تصحيح روايته بالرجوع إلى اليعقوبي

(١) [توجد ما كان من الخريت وكيف انتهى أمره عند الطبري ج ١ ص ٣٤١٨ - ٣٤٤٣ وقد راعينا الأصل العربي بقدر الإمكان - المترجم] .

(٢) في مخطوط الطبري فجوة ، وقد ملئت في طبعة ليدن (ص ٣٣٦٤ - ٣٣٦٨) بالاستعانة بابن الأثير .

أو الكامل أو الدينوري ؛ ولكنها ليست ، بأى حال ، بريئة من المطاعن ،
خصوصاً فيما يتعلق بترتيب التواريخ . فهو بعد أن يقول إن الخوارج لم
ينتخبوا لهم خليفة ولم يخرجوا إلى النهروان إلا بعد شهر من التحكيم ، يؤخذ
من كلامه ، بعد ذلك ، أنهم كانوا هناك عند ما علم على بحكم المحكمين
وبدأ يجمع جيشه في النخيلة لمحاربة أهل الشام : ومعنى هذا أنهم لا بد أن
يكونوا قد خرجوا من الكوفة قبل التحكيم ، وإذا كان الخريت قد حارب
مع على في النهروان ثم انشق عليه بسبب رفضه الإذعان لحكم المحكمين ،
فلا بد أن تكون موقعة النهروان نفسها قد وقعت قبل التحكيم (١) : على أنه
نظراً لهذا الخلاف في ترتيب الحوادث تنزع كل شهادة أبى مخنف ودقته
في وصف الواقع كما كان ، وذلك أن علياً ما كان ليستطيع التفكير في
محاربة أهل الشام إلا بعد صدور حكم المحكمين : فإذا كانت موقعة النهروان
قد وقعت قبل ذلك ، فلا يمكن أن يكون تجمع الجند في النخيلة مقصوداً
به أهل الشام ، بل مقصوداً به الخوارج . وإذن فلا صحة للقول بأن الكوفيين
أرغوا علياً على حرب الخوارج بدلاً من حرب أهل الشام .

ولا يقتصر خطأ أبى مخنف على تحديد تاريخ موقعة النهروان بالنسبة لغيرها ،
بل هو يشمل التحديد المطلق لهذا التاريخ ، فهو يجعلها في الشهرين الأخيرين
من سنة ٣٧ هـ . وقد اعترض الطبرى على ذلك لأسباب وجيهة (الطبرى ج ٩
ص ٣٣٨٧ - ٣٣٨٩) . ونحن نعرف الآن التاريخ الدقيق من كتاب الأنساب
للبلاذرى (راجع 393 ، 1884 ، DMZ) وهو أن المعركة كانت يوم ٩ صفر
سنة ٣٨ - الموافق ١٧ يولييه سنة ٦٥٨ م .

(١) وبوجه أدق ، قبل وصول العلم بحكم المحكمين إلى الكوفة ؛ أما الحكم نفسه فيمكن
أن يكون قد صدر في نفس الوقت الذى كانت فيه موقعة النهروان ، بل ربما كان قبل ذلك ،
والأمر هنا هو دائماً أمر علم على بحكم المحكمين ..

وعلى هذا فام تم تعقد محكمة المحكمين في رمضان سنة ٣٧ هـ ، بل هي لم تعقد إلا في سنة ٣٨ هـ . ويقول الواقدي ، كما في الطبري (ج ١ ص ٣٤٠٧) ، إنها عقدت في شعبان سنة ٣٨ هـ - بعد شطر كبير من السنة ، إذا كان معاوية قد عاد في صفر سنة ٣٨ هـ (بعد صدور حكم المحكمين من غير شك - قارن الطبري ج ١ ص ٣٤٥٠ س ١٦) إلى القتال مع أهل مصر ، كما يقول الواقدي أيضاً (الطبري ج ١ ص ٣٤٠٦ فما بعدها) ، على أنه إذا كانت محكمة المحكمين لم تعقد إلا في أول سنة ٣٨ هـ فن العجيب أن يمضي عام كامل بين الاتفاق على التحكيم في صيفين وبين انتهائه . ويقول الزهري وهو من أقدم الراة المدنيين ، إن الأجل الذي حُدد ، في أول الأمر ، لإصدار الحكم قد أخر . وقد كان الاتفاق أن يلتقي الحكمان في دومة الجندل ، أو ، إذا حال دون ذلك حائل ، في أذرح ، في العام التالي (الطبري ج ١ ص ٣٣٤١) . والواقع أنهم التقوا في أذرح ^(١) (الطبري ج ٢ ص ٨) ، وأيضاً في العام التالي لموقعة صيفين ، أعني عام ٣٨ هـ . وكل من الواقدي (الطبري ج ١ ص ٣٣٥٣ فما بعدها وص ٣٤٠٧) وأبي معشر (الطبري ج ٢ ص ١٩٨) يذكر أذرح كما يذكرها الزهري . وأبو مخنف لا يعيين في وثيقة الاتفاق مكان اجتماع المحكمين ، فيقول : وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان " عندل بين أهل الكوفة وأهل الشام " (الطبري ج ١ ص ٣٣٣٧) ، وبعد ذلك يذكر دومة الجندل عادة ، ولكنه يذكر دومة الجندل وأذرح معاً كأنهما شيء واحد ، [إذا كان نص الطبري (ج ١ ص ٣٣٥٤ س ١١) صحيحاً] .

وهكذا نلاحظ قلة الدقة في الرواية المتعلقة بزمان ومكان حادث من أكبر

(١) وهذا المكان الواقع في بلاد إدوم القديمة ، ربما كان اختياره مراعاة لأهل المدينة الذين كان لهم الحق في أن يقولوا شيئاً .

حوادث تاريخ صدر الإسلام . أما فيما يتعلق بما تضمنته هذا الحادث وبسير القضية وما انتهى إليه الحكم فيها ، فإن الروايات أقل من أن تنفي بالحاجة ، ويذكر أبو مخنف روايتين في ذلك (الطبرى ج ١ ص ٣٣٥٤ والصفحات التالية) ، إحداهما ترجع إلى الشعبي . فإلى جانب أبي موسى بعث على إلى مكان عقد المحكمة أربعائة رجل ، عليهم شريح بن هانئ الحارثي ، وبعث معهم عبد الله بن عباس يصلي بهم ، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعائة رجل : وكان هناك أيضاً من مستحقى الخلافة بعد الخصمين ، ورثة الأرسقراطية الإسلامية التي كانت تحيط بالنبي عايه السلام وكان منها مستشاروه في شئون الحكم ، مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهما ؛ ولكن لم يحضر الصحابي المسن سعد بن أبي وقاص^(١) . فأما عمرو فإنه أراد أن يثبت حق معاوية في الخلافة مستنداً إلى أن معاوية وآل معاوية هم أولياء عثمان ، وقد قُتِل عثمان مظلوماً ، وذكر عمرو قول الله عز وجل : « ومن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ، فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً » (الإسراء آية ٣٣) . ثم أكمل عمرو دليله بذكر شرف معاوية ومكانه من صحبة النبي ومصاهرته له وحسن سياسته وتديبره ، ثم عرض لأبي موسى بالسلطان وبأن معاوية إن تولى الخلافة فهو مكرم إياه كرامة لم يكرمها خليفة . وكان أبو موسى في نفسه يرشح عبد الله بن عمر ، فلم يغتر بكلام عمرو ، وقال له : ليس أمر الخلافة أمر استحقاق بالشرف ، وإلا كانت الخلافة لغير معاوية ، بل الخلافة لأهل الدين والفضل ؛ وإذا كان الأمر أمر شرف فعلى بن أبي طالب أفضل قريش شرفاً . ثم قال إن المهاجرين الأولين أحق بأن يكونوا أولياء للدم عثمان من معاوية ، ثم ختم كلامه رداً على عمرو في تعريضه له بالسلطان الكرامة من معاوية فقال : والله لو خرج لي من سلطانه كله ما وليته ، وما كنت

(١) [كان سعد قد أثر الاعتماد عن الفتنة خصوصاً بعد مقتل عثمان وقيام النزاع بين علي ومعاوية (راجع الطبرى مثلاً ج ١ ص ٣٣٥٣ - ٣٣٥٥) - المترجم]

لأرثشى فى حكم الله عز وجل ؛ ولكنك إن شئت أحينا اسم عمر بن الخطاب (١) . وهنا تنقطع رواية الشعبى ، ولا نجد فيها عدا ذلك من روايات سوى اعتراض عمرو بن العاص على ترشيح عبد الله بن عمر . أما أبو مخنف فهو يأتى برواية أخرى عن ابن جناب الكلبي ، وهى الرواية الوحيدة التى تصف نهاية مفاوضات التحكيم : التقي عمرو وأبو موسى فى دومة الجندل ، وكان عمرو قد عود أبا موسى بأن يقدمه فى كل شىء ، وإنما قصد بذلك تقديمه فى الكلام عند إصدار الحكم الذى انتهى إليه ، وهو خلع على معاوية معاً . وقد أراد عمرو أبا موسى على معاوية فأبى ، وأراده على ابنه فأبى . وأراد أبو موسى عمراً على عبد الله بن عمر فأبى عليه ، فقال له عمرو : تخبرنى فما رأيك ؟ قال : أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا ، فقال له عمرو : فإن رأى ما رأيت . وليس المقصود من هذه الشورى أن يترك الأمر لانتخاب الشعب ، بل لجماعة مختارة من الأرسقراطية الإسلامية ، على مثال الجماعة التى ألفها عمر ، واتفقت على انتخاب عثمان . وأقبل الحكمان إلى الناس ، وهم مجتمعون . وبعد أن طلب عمرو من أبى موسى أن يعلم الناس باتفاق الرأى بينهما ، وتكلم أبو موسى فقال : إن رأى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة ، عند ذلك قال عمرو : صديق وبر يا أبا موسى ، تقدم فتكلم ! وتقدم أبو موسى ، فأراد عبد الله بن عباس أن يمنعه من الكلام قبل عمرو خشية الغدر من جانب عمرو . ولكن أبا موسى كان مغفلاً ، فقال : إنا قد اتفقنا ، وأخذ يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نرأصلح لأمرها ولا لم لشعبها من أمر قد أجمع رأى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيؤكّلوا منهم من

(١) [يقصد ترشيح عبد الله بن عمر للخلافة - المترجم]

أحبوا عليهم ؛ وإنى قد خلعتُ علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم* وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . ثم تنحى أبو موسى وقام مقامه عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا قد قال ما سمعتم* ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأُتيتُ صاحبي معاوية ، فإنه وليُّ عثمان بن عفان والطالبُ بدمه وأحقُّ الناس بمقامه : وعند ذلك تشاتم الحكمان ، وقام أحدُ أنصار عليٍّ على عمرو فضربه بالسوط . وقام الناس ، وركب أبو موسى ولحق بمكة هارباً من أهل الشام ، وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة . ورجع قوم عليٍّ إلى عليٍّ ، فكان عليٌّ إذا صلتى الغداة يَتَقَنَّتُ ويلعن معاوية وعمرراً وغيرهما من أنصار معاوية ، وبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس وغيرهما من آل عليٍّ .

ولا بد من التنبيه على ما يشعره الإنسان من أن أبا موسى قد وقع على هذا النحو في شرك الخديعة ؛ أما عمرو فقد غدر غدرأ شائئاً . ولا شك أن أكثر الناس حنكة ربما وقع في مثل الشرك الذى وقع فيه أبو موسى ، وإذا كان هناك خداع فهو من جانب عمرو ؛ ولم يكن عمرو في الحقيقة بالرجل الذى يُخدَع . وهذه الحكاية في أمر نهاية محكمة التحكيم غير جديرة بالتصديق ، وإن كان الواقدي يُعَوِّل عليها فيما يظهر (الطبرى ج ٢ ص ٨٤)^(١) . والغالب أن حكاية الشعبي تختلف عن ذلك ، ولكن نهايتها مفقودة للأسف ، ولدى المؤرخ وسيلة لتصحيح الخطأ بالرجوع إلى ما حكاه أبو مخنف من أمر الخريت بن راشد . وذلك أن الخريت أخذ على عليٍّ أنه لم يقبل حكم أبي موسى الذى يقضى بترك اختيار

(١) ويحكى أبو عبيدة فيما يتعلق بحوادث في البصرة شيئاً شبيهاً بهذا وقع فيما بعد (راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٤٦ فما بعدها وقارن ص ٤٤٤) [في هذين الموضعين من كتاب الطبرى تحكيم أهل البصرة رجلين ليقتارا لم والياً بعد موت يزيد بن معاوية وغدر أحد الحكيمين بالآخر - المترجم]

الخليفة إلى الشورى بين المسلمين^(١) ، وما يأخذه الخريت على لا بد أن يكون مَرَجِعُهُ إلى قبول أهل الشام أن يكون أمر الخلافة للشورى ، وإلا لما كان هناك محلٌّ للوم الخريت علياً . أما معاوية فإنه لم يفقد بذلك شيئاً لأنه لم يكن خليفةً بعد ، ولم يُنسَبْ خليفةً في الحقيقة إلا عام ٤٠ هـ ، في بيت المقدس . ولكن علياً لم يكن يستطيع أن يتنازل عن الموقف الذي اتخذته ، ولأن يجعل حقه متوقفاً على الشورى . وكان من السهل توقع الرفض منه . وقد تصرف عمرو بدهاء عندما وافق أبا موسى على خلع الرجلين ، وهو قد غرّر بأبي موسى على كل حال ، لأن معاوية لم يكن خليفةً ، فيُخْلَعُ بالمعنى الذي يُخْلَعُ به عليٌّ . وكان الخلع وإنكار الحق في الخلافة لا يصيب إلا علياً . وبعد أن أخطأ عليٌّ في الخطوة الأولى أصبح مضطراً في إصلاح الخطأ إلى النكث ورفض حكم الحكمين . وروايات أهل العراق تميل كل الميل إلى إخفاء هذا النكث الذي يُعَدَّرُ صاحبه على كل حال ، وهي تجعل كلَّ الوزر على عمرو وأبي موسى ، الحكمين اللذين لم يُوقَفَا إلى خير (الطبرى ج ٢ ص ٧١٠ س ٩ - ١٠ وص ٩٢٩ س ١) .

٣ - وقد فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٣٨ هـ ، ويظهر أن فتحها وقع بعد انتهاء التحكيم على الفور ؛ وقد حاول معاوية فتح مصر من قبل في سنة ٣٦ هـ . وقد أشرت إلى ذلك فيما تقدم ، ولكنى أعود إليه هنا في سياقه ، لكي يزول كل غموض :

يقول أبو مخنف (الطبرى ج ١ ص ٣٢٣٤ فبا بعدها ٣٢٤٣ و ٣٣٩٢ والصفحات التالية) إن محمد بن أبي حذيفة ، بعد أن سَرَّبَ المصريين إلى عثمان ابن عفان حتى حاصروه ، وثب هو بمصر على عبد الله بن سعد بن أبي سرح ،

(١) هكذا عند الطبرى ج ١ ص ٣٤٣٤ س ١ و ص ٣٤٢٧ س ٢ . وخلافاً لهذا يبدو الخريت خارجياً محضاً (الطبرى ج ١ ص ٣٤١٩ س ١) ؛ وهذا خطأ إذا نظرنا إلى جملة الحوادث ، ولكن من السهل أن ندركه ، إذا نظرنا إلى تصور أبي مخنف لجري قضية التحكيم .

هامل مصر حينئذ من قبل عثمان ، فطرده منها ، وصلى بالناس . فخرج ابن أبي سرح ونزل على تخوم فلسطين ، وانتظر ما يكون من أمر عثمان في المدينة وما تنتهي إليه الفتنة . وتلقى محمد بن أبي حذيفة مع خبر مقتل عثمان كتاب علي بن أبي طالب بتعيين قيس بن سعد بن عبادة ، أنسبه رجال الأنصار ، والياً على مصر . وجاء قيس ومعه الكتاب ، ويرجع تاريخه إلى صفر سنة ٥٣٦ هـ . وقد جاء قيس من غير جيش ، ولم يكن معه إلا سبعة نفر من أصحابه ، وكان لأتباع عليّ اليد العليا في مصر ، ولكن كان فيها بطبيعة الحال قوم مائلون إلى عثمان أيضاً^(١) . وكان قد تجمعوا في قرية يقال لها خربتا ، في الدلتا ، وعليهم يزيد بن الحارث الكناني ؛ ولكن قيساً هادن يزيد ، كما هادن مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وكان من رهط قيس ابن سعد نفسه ؛ وكان مسلمة قد وثب يدعو إلى المطالبة بدم عثمان ، ولذلك لم يستطع معاوية أن ينال أنصاراً في مصر على شدة اهتمامه بذلك ، فحاول عند ذلك أن يضم قيساً إلى جانبه ، فوعده بجبال الذهب إن هو انضم إليه^(٢) . ورغم أن معاوية لم يصب نجاحاً في ذلك فإنه تعمد أن يلذع أن قيساً من شيعته وأنه لا يؤذى قوم معاوية بمصر . بل استغلّ معاوية كتاباً جاءه من قيس رداً على كتاب منه إليه لأن فيه قيس "لمعاوية" ، واختلق كتاباً آخر من قيس يعلن فيه انضمامه إليه^(٣) . وقصد معاوية بذلك أن يثير الريبة من قيس في نفس عليّ ؛ وقد أفلح معاوية في الوصول إلى غرضه . وأراد عليّ أن يمتحن ولاء قيس له .

(١) ولكنهم لم يكونوا بأي وجه في جانب معاوية في أول الأمر ، وليس معنى ميلهم لعثمان أنهم كانوا يميلون إلى بني أمية . وكان في الكوفة أيضاً قوم يميلون إلى عثمان ولا يتبعون حزب أهل الشام من أجل ذلك ، بل هم اتخذوا موقفاً محايداً على نحو ما ، كما فعل أبو موسى .
قارن الطبري ج ٢ ص ٦٥٩ والمقدسي ص ٢٩٣ س ١٢ .

(٢) [وعد معاوية قيساً بسلطان المراقين ووعده لمن أحب من أهل بيته بسلطان الحجاز - المترجم] .

(٣) [يجد القارئ المكاتبات بين معاوية وقيس عند الطبري ج ١ ص ٣٢٣٨ - ٣٢٤٦ .
وكتاب قيس الأول لمعاوية غير صريح ، فتصور معاوية أن قيساً مقارب مباحد ، ولم يأمن أن ...]

فكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا ؛ فلما امتنع قيس وبيّن لعلّ وجهه نظره في سياسته ومداراته لقوم أشداء ، أبي عليّ إلّا قيتالهم ، وأخيراً كتب قيس إلى عليّ : إن كنت تهمني فاعزلني عن عملك وابعث إليه غيري ؛ فعزله عليّ وعين مكانه محمد بن أبي بكر^(١) . وكان في ذلك دخل للدسائس من جانب بطانة عليّ ضد قيس بن سعد بن عباد ، الذي كان أبوه سعد بن عباد قد نازع أبا بكر في الخلافة من قبل ؛ وقد فوجئ قيس بوصول خصمه ، ولكن ولاءه لعلّ لم يتزعزع ؛ وبعد فترة قليلة قضاه في المدينة خرج حتى قدم على عليّ في الكوفة ، وحارب إلى جانبه في موقعة صفين (عام ٣٧ هـ) . أما محمد بن أبي بكر الذي كان كتاب تعيينه مؤرخاً غرة رمضان عام ٣٦ هـ ، فإنه لم يلبث في ولايته شهراً كاملاً حتى بعث إلى القوم المعتزلين الذين كان قيس بن سعد قد وادعهم ، فخيرهم بين أن يدخلوا في طاعته وبين أن يرحلوا عن البلاد . فاستمهلوه حتى ينظروا ما تصير إليه أمورهم ، فلما أبي عليهم امتنعوا منه وأخذوا حذرهم ، حتى كانت وقعة صفين وهم له هائبون . فلما أتاهاهم صبر معاوية وأهل الشام لعلّ وأن علياً وأهل العراق رجعوا عن معاوية وأهل الشام وصار أمرهم إلى التحكيم ، اجترأ على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة . فوجه إليهم بعضاً فقتلوا قائده ، ثم بعضاً آخر فقتلوا قائده ، ثم وثبوا بقيادة معاوية بن حنّيد السكوني يدعون إلى المطالبة بدم عثمان ؛ وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر ، ولم يستطع أن يكبح جماح الثوار ، فاضطر عليّ^٢ إلى أن يقرر إرسال مالك الأشتر ، صاحب النصر يوم صفين ، إلى

يكون في الحقيقة مكاييداً ؛ ثم جاء خطاب قيس الثاني صريحاً في تأييد عليّ والطن على معاوية وأصحابه . ويظهر أن قيساً لما رأى قوة العنانيين بين عرب مصر أثر السياسة والموادعة ، وإلا فإن تاريخه يدل على استقامة الكلمة وعلى الصراحة وعدم المساومة ، لا في شرفه ولا في موقفه السياسي .
- المترجم] .

(١) [وفي رواية أخرى أن علياً عين مالكا الأشتر مكان قيس بن سعد وأن مالكا مات مسموماً من يد أنصار معاوية بمصر (الطبري ج ١ ص ٣٢٤٢ ، ٣٣٩٣ ، ٣٣٣٤) .
- المترجم] .

مصر ، وكان مالك يومئذ في نصيبين على حدود أرض الجزيرة التي كانت تابعة للشام . وجاء مالك أيضاً من غير جيش ، وشق على معاوية تعيين مالك على مصر ، فبعث إلى الجليستار ، رجل من أهل الخراج ، وطلب منه أن يحتال للمالك ويكفيه إياه ، ووعدته ألا يأخذ منه خراجاً طول مدة حكمه ، إن فعل . فخرج الجليستار إلى القلزم واستقبل مالكا ، واحتال حتى استطاع إضافته ، ثم دس له السم في شربة عسل ، فمات . وكان معاوية قد طلب من أهل الشام أن يدعوا الله أن يكفيهم مالكا الأشر ، فكانوا كل يوم يدعون الله عليه ، حتى إذا بلغ معاوية موته قام في الناس خطيباً في دمشق وأعلن موت الأشر لإعلان المنتصر ، وعند ذلك كتب علي إلى محمد بن أبي بكر ، فأزال ما كان في نفسه من موجدة بسبب تعيين الأشر على مصر ، فرضيت نفسه ، وبقي في منصبه المثلث بالمتاعب .

ولكن رواية أبي مخنف هذه ، وهي السائدة في الكتب الحديثة للتاريخ الإسلامي ، يمكن تصحيحها بمعلومات أكثر دقة . لم يكن قيس بن سعد أول والٍ لعلی في مصر ، بل جاء خلفاً لمحمد بن أبي حذيفة (١) . وكان محمد قد بقي في مصر عند ما خرج الثوار على عثمان من هنالك قاصدين المدينة ، وذلك بعد أن كان قد طرد عبد الله بن سعد بن أبي سرح واستولى على مصر لعلی (الطبری ج ١ ص ٢٩٦٨) . ولكن معاوية وعمراً نجحاً عام ٣٦ هـ في استدراج محمد بن أبي حذيفة ، الناصر الشاب ، إلى العريش عند حدود مصر ، ولم يتوغلا في مصر أكثر من ذلك (رغم ما جاء في الطبری ج ١ ص ٣٤٠٧ س ١٧) ، لأن العثمانيين بمصر لم ينضموا إليهما ، وفي العريش أحاطا بابن أبي حذيفة وأخذاه أسيراً ، ثم

(١) الواقدي ، عند الطبری ج ١ ص ٣٢٥٢ والصفحات التالية ، والبلاذري ص ٢٢٧ فابعدا ، ويوافق ذلك ما جاء في الطبری ج ١ ص ٣٢٣٣ ، وهي رواية لا إسناد لها .

قُتِلَ بعد ذلك . ولكن الروايات لا تتفق تماماً فيما يتعلق بزمان القتل وكيفيته ،
فيقول المؤرخ السرياني الذي نشر نولده كتابه (DMZ, 1895, 89) إنه في
سنة ٩٦٩ من حكم السلوقيين (= ٣٨ - ٣٩ هـ) قُتِلَ حذيفة بن أخت
معاوية بأمر معاوية^(١) ، ويؤيد هذا التاريخ ابنُ الكلبي ، كما يذكر الطبري
(ج ١ ص ٣٤٠٨) . على أنه يروى أنه لما فر ابن أبي حذيفة^(٢) من سجنه
كان معاوية يحب له أن ينجو (قارن الطبري ج ٢ ص ٢١٠ والدينوري
ص ١٦٧ س ١٥) . وقد قتله رجل من نخشم ؛ على كره من معاوية . وقد
كان ابن أبي حذيفة قد اختبأ في غار ، فلجأت إليه حُمُرٌ وحشيةٌ أصابها
المطر ، فلما رآته فزعت ونفرت . ورأى ذلك حصّادون ، فتنهوا إليه ،
ودلّوا الرجل الخنعمي على مكانه ، فقتله . أما الواقدي (الطبري ج ١
ص ٣٢٣٣ س ٧ وص ٣٤٠٧ س ١٥) فهو يجعل قتل ابن أبي حذيفة في
نفس السنة التي أسر فيها ، أعنى عام ٣٦ هـ . والأرجح أن هذا خطأ .

وبعد أسر ابن أبي حذيفة جاء قيس بن سعد خلفاً له . فمن العسير أن يكون
قد ترك ولايته في رمضان سنة ٣٦ هـ ، وأن يكون قد اشترك في موقعة صفين ،
كما يقول أبو مخنف . أما الزهري (الطبري ج ١ ص ٣٢٤١ فما بعدها وص ٣٢٤٦
وص ٣٣٩١ فما بعدها) فيقول إنه عُرِلَ بعد تلك الموقعة ، وإنه لم يبادر الذهاب
إلى علي بالكوفة راضى النفس ، بل هو لحق بالمدينة . ولكن مروان ابن
الحكم وغيره من الأمويين أخافوه أن يؤخذ أو يقتل ، فخرج قيس حتى قدم
على علي . وتغيّظ معاوية أشد الغيظ على من أخرج قيساً حتى لحق بعلي ، لما
كان لقيس في نظر معاوية من الرأي والمكانة ، حتى كان ذلك أشد عليه من

(١) هو يسميه حذيفة ، وإن كان أبوه لم يكن يسمى أباً حذيفة تيمناً لاسمه ، ويعتبره
ابن أخت معاوية ، وإن لم يكن في الحقيقة ابن أخته بل ابن خالته (ابن هشام ص ١٦٥
و ٢٠٨) [في الطبري ج ١ ص ٣٤٠٨ أنه كان ابن خال معاوية - المترجم] .

لمداد علي بمائة ألف مقاتل : وجاء الأشر إلى مصر بعد قيس مباشرة ، ولم يأت محمد بن أبي بكر إلى مصر إلا بعد أن دُسم السم^١ للأشر بعد أن كان قد دخل أرض مصر . علي أن ابن الكلبي (الطبري ج ١ ص ٣٢٤٢) يذكر خلافاً لذلك أن الأشر إنما أُرسل إلى مصر بعد سقوط محمد ابن أبي بكر ؛ وهذا خطأ تام على كل حال .

علي أن معاوية وعمرأ استأنفا ما كانا قد رجعا عنه من الهجوم على مصر سنة ٣٦ هـ ؛ فعادا إلى ذلك في عام ٣٨ هـ ، بنجاح أكبر ، وحاربا محمد ابن أبي بكر . والروايات في ذلك أيضاً متضاربة عند الطبري ؛ فيقول أبو مخنف (الطبري ج ١ ص ٣٣٩٦ والصفحات التالية) إن معاوية ، بعد انتهاء التحكيم ، ولم يكن له هم سوى مصر ، وكان لأهلها هائلاً خائفاً ، لقربهم منه وشدتهم على من كان على رأى عثمان . وكان معاوية يرجو أن يظهر على مصر ، فيظهر على حرب علي^٢ ، لعظم خراجها^(١) . فكان يعلم أن بها قوماً قد ساءهم قتل عثمان ، وخالفوا علياً ، منهم مسلمة بن مخالد الأنصاري ومعاوية بن حذ- ينج الكندي . وكان محمد بن أبي بكر قد ناصبهما الحرب ؛ وشجّع معاوية هذين الثائرين في كتاب منه إليهما ، ووعدهما المواساة في الدنيا والسلطان ، فكتبوا له بأمرهما وأنها بدلا أنفسهما لأمر الله ، لا يرجون إلا ثوابه ، وطلبوا أن يعجّل بإرسال المدد ، بعد أن كانا من قبل لا يقبلان منه شيئاً . فخرج عمرو في ستة آلاف رجل قاصداً مصر ، حتى إذا نزل له في نفس الوقت بكتاب تهديد ووعيد من معاوية : فطوى ابن أبي بكر الكتابين وبعث بهما إلى علي^٣ ، وأبلغه نزول عمرو أرض مصر في جيش لحب واجتماع أنصار معاوية إليه ، ووصف له ما بدا على الناس من الفشل ، وطلب المدد

(١) [قارن ما تقدم ص ٧١ - المترجم] .

من عليّ . فكتب له عليّ أن يصبر ويتحصن حتى يأتيه المدد ، وأن يردّ عليّ ما وصله من كتب التهديد . ولكن مدد عليّ لم يأت ، واضطر محمد ابن أبي بكر إلى أن يعتمد عليّ موارد الخاصة (١) . فدعا الناس إلى القتال ، فنهض معه نحو من ألفي رجل ، وكان أشدهم نجدة وبأساً كنانة بشر التجيبي قاتل عثمان (٢) ، وهو الذي أوصى عليّ محمد بن أبي بكر بانتدابه . وبدأت المعركة ، وقاتل كنانة قتالاً شديداً ، حتى قُتل أمام قوة كبيرة من جند الشام أحاطت به من كل جانب . وعند ذلك تفرق الباكون عن محمد ابن أبي بكر ، حتى بقي وما معه أحد ، فخرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة ، فأوى إليها . وخرج معاوية بن حُديج في طلبه حتى اهتدى إليه واستخرجه من الخربة ، ثم قتله ، وهو مجرد من السلاح ، ثم وضعه في جوف حمار وأحرقه بالنار . فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وقتلت عليه في دبر كل صلاة ، تدعو عليّ معاوية وعمرو ، وقبضت عياله إليها ، وصارت لا تستطيع أن تأكل لحم الشواء (قارن الطبري ج ٣ ص ٣٦٨) .

أما الواقدي فيحكى غير ذلك ، فهو يقول (الطبري ج ١ ص ٣٤٠٦ فما بعدهما) إن حمراً خرج إلى مصر في أربعة آلاف رجل فيهم معاوية بن حُديج وأبو الأعور السلمي ؛ ومعنى هذا أن معاوية بن حُديج لم يكن في مصر من قبل ويذكر الواقدي أن المعركة كانت عند المُسنّة (٣) . وبعد قتال شديد قُتل كنانة ، ولم يجد محمد بن أبي بكر من يقاتل معه ، فانهزم واختبأ عند جبلية ابن مسروق ، حتى دُلّ عليه معاوية بن حُديج ، فأحاط به ، فخرج محمد وقاتل حتى قتل ، وكان ذلك في صفر سنة ٣٨ هـ .

(١) قارن بهذا ما يقوله سيف في حكمة على هذا الرجل .

(٢) [نجد في الطبري ج ١ ص ٣٤٠٣ ، ٣٤٠٥ ، ٣٤٠٦ أن محمد بن أبي بكر يعترف بقتله عثمان وأنه قُتل بعثمان - المترجم] .

(٣) المُسنّة ، ويسمى المسعودي هذا المكان كوم شريك ، وهذا خلط - قارن باقوت ج ٤ ص ٣٣٠ .

ونهاية محمد بن أبي بكر كما يحكيها أبو مخنف ، أكثر دخولا في باب الروايات القصصية مما هي عند الواقدي ، وهي تشبه ما يروى من نهاية محمد (بن أبي حذيفة) الذي قُتل ، كما يقول المقرئ (١) ، كما يقتل الحمار ، والذي يذكر ابن الكلبي أيضاً أن قتله كان بسبب حُمُرٍ نفرت من الغار الذي كان مختبئاً فيه ، فدلّت بذلك عليه . ولا حاجة للمؤرخ أن يحكم في الأمر حكماً قاطعاً ، وهو يرى مقدار اضطراب الروايات المتعلقة بذلك العصر .

٤ — ساء موقف عليّ بعد صفتين سوءاً شديداً ، فكان الخوارج في العراق يحاربونه حرباً شديدة ، وكان أهل البصرة مترخين متناقضين عن نصرته ، إذا استثنينا أشخاصاً قلائل مثل أبي الأسود الدؤلي . وكان أهل الكوفة معه بأهوائهم ، لم يكونوا معه بكل قواهم ، وكان بينهم بعض المخايدين وبعض المائلين إلى عثمان ، ولحق بعضهم بمعاوية . وقد كان لضعف مركز عليّ في قلب الدولة أثره على مكانته وهيئته في الأطراف ؛ ففي سنة ٣٧ هـ ، قبل ثورة الخريت ، امتنع عرب البحرين عن دفع الخراج وصدقة المال ، وارتد بعضهم إلى النصرانية ، وتمردت الولايات الفارسية وتراخت عقدة طاعتها للحكومة المركزية . وطمع أهل فارس وكرمان في كسر الخوارج ، وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا العمال (٢) . ولا بد أن يعجب الإنسان من ولايات فارس لم تستطع في ذلك الوقت أن تطرح عن عاتقها النير الأجنبي جملة ، وأن تطرد جنود الاحتلال العرب طرداً تاماً . وكان أكبر رجلين من رجال عليّ ، بعد موت ملك الأشتر ،

(١) انظر Vloten, Recherches, p. 58 (وذلك في Verhandl. der Amsterdam)

. Letterkunde 1,3 — ١٨٩٤ ، Akademie

(٢) وخصوصاً خراسان ، كما يقول البلاذري ص ٤٠٨ فما بعدها ، والطبري ج ١ ص ٣٢٤٩ وما يليها و ص ٣٣٨٩ وما يليها . وكذلك أذربيجان والري وفارس والأهواز (الطبري ج ١ ص ٣٢٥٤ و ٣٢٤٥ و ٣٣٩٣ و ٣٤٢٩ و ٣٤٣٠ و ٣٤٤٩ .

هما قيس بن سعد بن عبادة وزبيد بن أبيه . أما عبد الله بن عباس ، الذي ولاه عليّ على البصرة ، فقد أثبت أنه والٍ غير أهل للولاية وأنه لا يعول عليه . وكانت أقوى ضربة حقيقة أحسّ بها عليّ هي فتح مصر على يد عمرو ، لأن معاوية أصبح على أثر ذلك مطلق اليدين ، وكان عندئذ قد أمّن نفسه من اعتداء الروم بأن عقد هدنة مع الهرقل كونستانس (Constane) في مقابل إتاوة سنوية . والروايات العربية لا تذكر ذلك إلا ذكراً عابراً^(١) . ولكننا نعرف مما كتبه تيوفانيس أن ذلك كان عام ٦١٥٠ من تاريخ الخليفة = ٣٨ هـ — ٣٩ هـ^(٢) . ولم يجترأ معاوية على أن يهجم على عليّ هجوماً حقيقياً ، واكتفى بأن فرق جيوشه على الأطراف التي في طاعة عليّ هنا وهناك . ففي سنة ٣٨ هـ وجه معاوية إلى البصرة عبد الله بن عمرو بن الحضرمي لكي يحرض قبائل تميم على الثورة ضد عليّ ، وكان عبد الله بن عباس قد خرج من البصرة إلى عليّ بالكوفة واستخلف زياد بن أبيه ؛ فاحتسب زياد بقبائل الأزد ، فأخذ هؤلاء نار الثورة ، وقتلوا ابن الحضرمي بعد أن تصدع عنه كثير من كان معه . وهذا ما يحكيه المدائني ونجده عند الطبري (ج ١ ص ٣٤١٤) والصفحات التالية) : ويروي المدائني عن عوانة (الطبري ج ١ ص ٣٤٤٤ فما بعدها) أخبار الجيوش التي وجهها معاوية إلى العراق . فهو قد وجه النعمان بن بشير إلى عين التمر ، وسفيان بن عوف إلى هيت والانباء ، وعبد الله بن مسعدة الفزارى إلى تيماء ، والضحاك بن قيس إلى القسطنطينية^(٣) .

(١) البلاذري ص ١٥٩ س ١ و ص ١٦٠ س ٨ وانظر DMZ ، ١٨٧٥ ص ٩٦ ، قارن ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ٢١١ والدينوري ص ١٦٨) ، ويحكي المسمودي (ج ٥ ص ٢٢٤) ذلك عن عبد الملك بن مروان .

(٢) تكلمت عن العلاقة بين سني العالم عند تيوفانيس وبين التاريخ السلوقي في مجلة Oöttinger Nachrichten ، عام ١٩٠١ ص ٤١٤ والصفحات التالية .

(٣) قارن اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٨ س ٦ و ٢٢٩ س ٣ و ص ٢٣٠ س ٩ ، والأغان . ج ١٥ ص ٤٥ فما بعدها . ويقول أبو معشر والواقدي (الطبري ج ١ ص ٣٤٤٧) إنه معاوية سار بنفسه سنة ٣٩ هـ إلى دجلة حتى شاربها ، ثم نكص راجعاً .

وتبدو هذه الحملات مجرد غارات ، فكان يعود أهل الشام بالغنائم ، وكان أهل الكوفة يطاردونهم ويدركونهم ويقتلونهم :

ويربط البعض بين غارات النهب هذه وبين الحملة المشهورة التي قام بها بُسر بن أرطاة في الحجاز واليمن (الأغاني ج ١٥ ص ٤٥ وما بعدها ، واليعقوبي ج ٢ ص ٢٣١) : ويذكر البكتائي عن عوانة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٠ فما بعدها) أن ذلك كان في أواخر أيام علي : فيروى أن جارية بن قدامة علم بمقتل علي ، وهو في طريقه لمحاربة بسر . أما عند الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٢٢) فإن هذه الحملة لم تقع إلا عام ٤٢ هـ ، بعد وفاة علي .

ويذكر البكتائي (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٢ و ٣٤٥٣) نقلاً عن ابن اسحاق (١) أن مهادنة جرت في سنة ٤٠ هـ بين علي وبين معاوية ، بعد مكاتبات طويلة ، وأنهما تراضيا على وضع الحرب بينهما ، وتكون لعلي العراق ولعواوية الشام ، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله يجيش ولا غارة ولا غزو ، وذلك بعد أن رفض كل فريق أن يعطي صاحبه الطاعة ، وبعد أن كتب معاوية إلى علي يقترح عليه كف السيف عن الأمة والإمساك عن إراقة دماء المسلمين : ويروى أنهما اتفقا . فأقام معاوية في الشام بجنوده ، يجيها وما حولها ، وعلى بالعراق يجيها ويقسمها بين جنوده . ولا يمكن أن تكون هذه المهادنة إلا قصيرة الأمد ، لأن معاوية اتخذ لنفسه في أول سنة ٤٠ هـ لقب الخلافة في بيت المقدس ، وأخذ البيعة من أهل الشام على ذلك ، وقد كان هذا تحدياً جديداً لعلي ، فأجاب علي بأن أعد حملة كبيرة لمحاربة أهل الشام ، ولكن اغتياله حال دون تنفيذها .

ويقدم المؤرخ السرياني الذي نشر تاريخه نولدهكه شاهداً على تنصيب

(١) هكذا يدل من قول الطبري : أبي اسحاق ، ذلك أن البكتائي في كتاب السيرة هو الراوية المتوسطة بين ابن هشام وبين ابن اسحاق .

معاوية نفسه خليفة في بيت المقدس عام ٤٠ هـ : وهو يذكر في هذا الحادث روايتين مستقلتين ، إحداهما بعد الأخرى ، فيقول : « في عام ٩٧١ من حكم السلوقيين اجتمع كثير من العرب في بيت المقدس ونصبوا معاوية ملكاً ، فصعد معاوية إلى جبل الجلعلة (Golgota) ، وصلى هناك ، ثم صعد إلى جيتسماني ، ثم هبط إلى قبر السيدة مريم وصلى . . . وفي شهر يولييه سنة ٩٧١ اجتمع الأمراء وكثير من العرب وبايعوا معاوية ، وصدر الأمر بأن يُنادى به ملكاً في جميع أنحاء بلاده^(١) ، ولكنه لم يحمل تاجاً ، كما يحمله ملوك العالم ؛ على أنه أقام عرشه في دمشق ، ولم يرد أن يذهب إلى مقر النبي (المدينة) » . ويتبدئ شهر يولييه من عام ٩٧١ من حكم السلوقيين (٦٦٠ م :) في ١٦ صفر سنة ٤٠ هـ . ويقول المسروقي أيضاً ، كما يحكي الطبري (ج ٢ ص ٤ فما بعدها — قارن أيضاً ج ١ ص ٣٤٥٦) أن أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة في إلباء سنة ٤٠ هـ . ولكن من الخطأ القول بأن ذلك لم يحدث إلا بعد وفاة علي . وما يستلقت النظر أن معاوية أختار أخذ البيعة لنفسه إلى ذلك الوقت . وفي كتاب Continuatio Isidori Byz. Arab. § 25 (ط : Mommsen) أن معاوية ظل خمس سنين مواطناً عادياً ، أي من ٣٦ إلى ٤٠ هـ . وظل بعد ذلك خليفة عشرين عاماً .

ويقول المؤرخ السرياني أيضاً إن علياً كان يريد قبل وفاته بقليل أن يعاود الخروج لقتال معاوية . غير أن هذه الرواية تُذكر في سنة غير صحيحة (٩٦٩ بدلاً من ٩٧١ أو ٩٧٢ السلوقية) ، ولكنها صحيحة في ذاتها . والبيعة وبني (ج ٢ ص ٢٣٥ س ١٥ و ص ٢٣٨ س ٢٠) يحكي نفس الشيء . والروايات متفقة على أنه كان تحت قيادة علي "عند وفاته جيش" من أربعين ألف رجل ، يطالبون بالخروج

(١) إن الكلمة التي لم يستطع تولدكه أن يقرأها إلى جانب كلمة *φωνός* هي : *ἀληθείας* التي منها في غالب الظن كلمة : *qualles* السريانية (= ينادى) .

(٧ - الدولة العربية)

لقتال أهل الشام ، فَمَنَّ غير عليّ أعدّ هذا الجيش للحرب ولأى غرض
أعدّ ، إن لم يكن ذلك لقتال أهل الشام ؟

وقد حدث الاعتداء الذي مات بسببه عليّ في يوم الجمعة (١) ١٥ رمضان
سنة ٤٠ هـ ، في مسجد الكوفة (الكامل ص ٥٥٣ س ٩) ، وتوفي عليّ يوم
الأحد التالي لذلك ، ٢٤ يناير سنة ٦٦١ م . وما يذكره الواقدي (الطبرى ج ١
ص ٤٤٦٩ ، وج ٢ ص ١٨) يؤيد صحة هذه التواريخ ، كما يدحض
ما يخالفها . أما القائل ، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي النعجوني بوجه أدق
(الكامل ص ٥٥٣ س ١٧) فقد كان خارجياً . والخوارج يذكرونه فخورين
ويقولون إنه أخوهم ، أخو مراد (الطبرى ج ٢ ص ١٨) ، وتشهد أبيات
ابن أبي ميثاس المرادي (الطبرى ج ١ ص ٣٤٦٦) أن الذي حرّضه على
قتل عليّ امرأة يقال لها قطام ، كانت فائقة الجمال ، ورآها ابن ملجم ،
فالتبست بعقله فخطبها . وكان أبوها وأخوها قد قُتلا يوم النهروان ، فجعلت
فيما جعلت من مهرها قتل عليّ بن أبي طالب ثأراً لقتلها . وبهذا تسقط
الرواية (٢) التي وُصِلت بذلك وصلاً مضطجعاً والتي تقول إن ابن ملجم كان
أحد ثلاثة من الخوارج تأمروا في مكة على أن يريحوا الآفة الإسلامية في يوم
واحد من أئمة الضلالة الثلاثة - في رأيهم - وهم عليّ بن أبي طالب ومعاوية .
ابن أبي سفيان وعمر بن العاص . ومن جهة أخرى فإن مثل هذا التآمر
السري بين الثلاثة المتآمرين لا يتفق مع عادات الخوارج القدماء ، كما
لاحظ ذلك ابن الأثير (٣) : أما القول بأن معاوية هو الذي استأجر ابن
ملجم لقتل عليّ ، كما أوماً إلى اتهامه بذلك أبو الأسود الدؤلي في

(١) يؤخذ من الطبرى ج ١ ص ٣٤٥٧ ، ٣٤٦٨ - ٣٤٦٩ أن اغتيال عليّ كان ليلة
الجمعة ١٧ رمضان . أما وفاته فكانت بعد ذلك بيومين - المترجم [.

(٢) [تجددها عند الطبرى مثلاً في ج ١ ص ٣٤٥٦ ، وفي الكامل للمبرد ص ٥٤٩ -
المترجم [.

(٣) ولا يجوز إنكار أن اعتداءات وقعت على معاوية وعمر ، أما التعسف فهو الربط
بين الاعتداءات والقول بأنها كانت بناء على اتفاق مدبر ..

أبيات له (١) ، فإنه لم يجد أبداً من يصدق به أقل تصديق حتى من أعداء معاوية . فأما القول باغتيال عليّ أفاد معاوية فلا شك في ذلك على كل حال ، لأنه يصل إلى الخلافة إلا بذلك . والحسن بن علي (الطبري ج ٢ ص ٣) يذكر أن مما جعله يسخو بنفسه عن أهل العراق أنهم قتلوا أباه . ويقول الخليفة المنصور مثل ذلك (الطبري ج ٣ ص ٤٣١) ، ويظهر أن منشأ هذا هو أن ابن ملجم وقطام كانا من أهل الكوفة (قارن الطبري ج ٣ ص ٣٤٥٦) فما بعدها ، وص ٣٤٦٥ فما بعدها ، واليعقوبي ج ٢ ص ٥٢١ ، والكمال ص ٥٤٦ فما بعدها وص ٥٨٣ .

٥ - ثم صار معاوية هو المهاجم (اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٥) ، فأخذ الطريق الحربي المعتاد . وعبر أرض الجزيرة إلى العراق ، ونزل بعسكره في مسكن ، على حدود الدجلة من الموصل إلى جهة السواد ، ولكنه انتظر هناك حيناً بعد وفاة عليّ . وفي أثناء ذلك قامت ثورة على الحسن ، بعد أن كان قد بويع على الخلافة بعد أبيه . ولكن الحسن كان زاهداً في الحرب ، لا يرى القتال ، رغم أنه كان وراءه أربعون ألف رجل ، كانوا قد بايعوا علياً على الموت . واتمس الحسن سبيلاً إلى مصالحة معاوية ، وتنازل عن الخلافة بعد نصف عام . وهذا هو المعروف بالإجمال معرفة واضحة ، ولكن الروايات في تفصيل ما جرى بعد مقتل عليّ مضطربة ، وفيها فجوات ، فيحكى عن الزهري ما يلي : كان عليّ قد أسند إلى قيس بن سعد قيادة الجيش ، ووعدته بولاية أذربيجان مكافأة له (٢) ، وعزل الأشعث - المقصود به هو الأشعث بن قيس عن هذه الولاية . وكان قيس يريد الحرب ،

(١) [الطبري ج ١ ص ٣٤٦٧ - المترجم] .

(٢) [نجد عند الطبري - والمؤلف يتابعه غالباً - هذا : « جعل عليّ قيس بن سعد على مقدمة من أهل العراق إلى قتل (التي قبله) أذربيجان وعلى أرضها (أصهان) وشرط الخمينس (الجيش) التي ابتدعها العرب ، وكانوا أربعين ألفاً بايعوا علياً على الموت » . الطبري ج ٢ ص ١ . وقد نقلنا النص كما هو وأضفنا القراءات بين قوسين . والمعروف عن سعد أنه كان لا يسأل أجراً ولا مكافأة عما يفعل - المترجم] .

ولكن الحسن كان لا يرى القتال ، وكان يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية . وقد عرف أن قيساً لا يوافقه على رأيه ، فزعه وأمر عبد الله بن عباس (الطبري ج ٢ ص ١ - ٢ ، قارن ج ١ ص ٣٣٩٢) . وكان الحسن لما بايعه أهل العراق على الخلافة طفق يشترط عليهم : إنكم سامعون مطيعون ، تسلمون من سالمته ، وتحاربون من حاربت ، فارتاب أهل العراق في أمرهم ، حين اشترط عليهم هذا الشرط : وقالوا : ما هذا لكم بصاحب ، وما يريد القتال . فلم يلبث الحسن بعد ما بايعوه إلا قليلاً حتى طعن طعنة أشوته ، فازداد لهم بغضاً وازاد منهم ذعراً . ولا يذكر الزهري تفاصيل المناسبة التي أدت إلى هذه الطعنة . على أنه لما قام للحسن الدليل على موقف أهل العراق منه ، كاتب معاوية وأرسل إليه بشروط ووعده ، إن وفي له بها ، أن يسمع له ويطيع . وأعطاه معاوية ما شرط ، فتنازل الحسن عن الخلافة لقاء مال كثير . وكان معاوية ، قبل أن يقع في يده كتاب الحسن ، قد أرسل إلى الحسن بصحيفة بيضاء ، وقد ختم عليها في أسفلها بختمه ، وكتب إليه أن يشترط فيها ما شاء ، فهو له . فأراد الحسن أن يأخذ أضعاف ما كان قد شرط أولاً ، فلم يعطيه معاوية ذلك (الطبري ج ٢ ص ٥ فما بعدها) . أما عبد الله ابن عباس فإنه لما علم بما أزداد الحسن أن يأخذه لنفسه من معاوية ، لم يبال ، لأنه كان قائد الجيش ، وكتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي كان قد أخذها . فشرط ذلك له معاوية ، فترك جنده بغير قائد ، والحق بمعاوية .

ولما صالح الحسن معاوية كتب الحسن إلى قيس بن سعد يدعو إلى الدخول في طاعة معاوية ، فقام قيس خطيباً فيمن كان معه من الجيش ، وخيرهم بين أن يدخلوا في طاعة إمام ضلالة ، أو أن يقاتلوا مع غير إمام . فاختاروا الأولى وبايعوا معاوية ، وانصرف عنهم قيس . وفي رواية أخرى للزهري أنه بعد أن صالح الحسن وعبد الله بن عباس معاوية ، وترك عبد الله جيشه بلا أمير ، اجتمعت الشرطة

وأمرت قيس بن سعد على أنفسهم ، وتعاهدوا هو وهم على قتال معاوية حتى يشترط الشيعة على^١ . ولما كان اتبعه الأمان على أموالهم ودمائهم وما أصابوا في الفتنة . ولما انتهت معاوية من مصالحة الحسن وابن عباس خلص لمكايدة قيس ، فأرسل إليه يقول في كلام له : على طاعة من تقاتل ، وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك ! ؟ فأبى قيس أن يابن ، حتى أرسل إليه معاوية بسجل^٢ قد ختم عليه في أسفله ، وقال له أن يكتب في السجل ما شاء فهو له ، وأراد حمرو بن العاص أن يغري معاوية بأن يحارب قيساً ، ولكن معاوية ضنّ بدماء أهل الشام وقال إنه لن يقاتل قيساً حتى لا يجد من قتاله بدءاً . أما قيس فلم يشترط في السجل المحتوم بختم معاوية إلا الأمان لشييعته على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية في السجل مالا . فأعطاه معاوية ما سأل : ولم يرض قيس أن يجعل شخصه محلّ مساومة^(١) .

أما البكتائي فهو ينقل عن عوانة^(٢) غير ذلك (الطبري ج ٢ ص ٢ - ٤) ، فيقول : لم يكن قيس قائداً للجيش كله ، بل لاثني عشر ألف رجل في المقدمة (وهم الشرطة) ، وبقيت له الإمرة عليهم إلى ما بعد مقتل علي^٣ أيضاً . وخرج الحسن بنفسه في الجيش كله حتى نزل المدائن ، وبعث قيساً أمامه على مقدمته لكي يلاقى معاوية (في مسكن) ، وبينما الحسن في المعسكر بالمدائن إذ نادى مناد في المعسكر : ألا إن قيس ابن سعد قد قُتِلَ ، فانفروا ! فنفر الناس ونهبوا سراق الحزن ، وخرج الحسن ناجياً بنفسه حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن . ومن هنالك بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، رغم معارضة أخيه الحسين ، وحصل من معاوية على ما أراد : أن يأخذ ما في بيت مال الكوفة ، وكان خمسة آلاف ألف

(١) جئنا هنا بالكلام طبقاً للأصل العربي الذي اعتمد عليه المؤلف ، لأن المؤلف قد اقتضب اقتضاباً بخلاف بيان المقصود على النحو الذي لا بد منه للقارئ العربي - المترجم نقلاً عن

الطبري ج ٢ ص ١ - ٨] .

(٢) إن أول حكاية عوانة ساقط ، وتكملها رواية أخرى ، لكن يقال عنها إنها تنفق مع حكاية عوانة .

درهم ، والخراج الجارى من دارايجرد ، والوعد من معاوية بألا يُشْتَم على^١ ،
ومعاوية يسمع ذلك (١) :

أما عند اليعقوبى (ج ٢ ص ٢٥٤ فإبعدها) فنجد الحكاية على نحو
آخر : وجه الحسن عبيد الله بن عباس فى اثنى عشر ألف رجل لقتال
معاوية ، وجعل قيساً مُشيراً له ليعمل بأمره ورأيه . فحاول معاوية أن يُفْسِد
قيساً ، فلم يفلح ، ولكنه استطاع أن يضم إليه عبيد الله بأن أعطاه ألف
ألف درهم ، فصار إليه فى ثمانية آلاف رجل . وكان الحسن مع حملة
الجيش فى المدائن ، فأرسل معاوية إليه المغيرة بن شعبه ومفاوضين
آخرين ، فلما خرج هؤلاء من عند الحسن أذاعوا فى المعسكر أنه قد أجاب
إلى الصالح . فعند ذلك وثب الجند بالحسن وانهبوا مضاربه وما فيها ، فركب
الحسن فرساً ومضى إلى قلعة ساباط ، ولكن الجراح بن سنان (وفى رواية :
ابن قبيصة) كان قد كمن له ، فجرحه بمعول فى فخذه ولوى لحيته ، فحمل
إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً واشتدت به العلة ؛ وفى أثناء ذلك تفرق
عنه أصحابه ، واستولى معاوية على العراق ، فلم يبق أمام الحسن أخيراً إلا
أن يتنازل عن الخلافة . والدينورى (ص ٢٣٠ فإبعدها) يحكى مثل ذلك ،
وإن كانت روايته تختلف عن رواية اليعقوبى بعض الاختلاف ، فهو يقول إن
البن وربيعة الكوفة خلصوا الحسن فى ساباط من أيدي مضر الكوفة :

على أن عوناً واليعقوبى متفقان فى الرواية بالإجمال ، وهما يخالفان الزهرى ،
وحكاية الزهرى للحوادث ليست واضحة تماماً ، وهى تختلف عن رواية غيره
اختلافات لايسهل تفسيرها ؛ فهو أحياناً يفصل بين طعن الحسن ، من حيث
زمانه ومكانه ، وبين نهب سراقته ، وهو أحياناً أخرى يربط بين الحادثين ،

(١) عند الطبرى فى بعض المواضع شواذب الحكايتين ، فى ج ١ ص ٨ وما بعدها
وج ٧ ص ١٥ ، نجد أن الأربعين ألف رجل ليست هى الشرطة ، بل الجيش كله ، وبحسب
رواية الزهرى كان لقيس ولابن عباس إمرة الجيش كله .

أما بعض الاختلافات الأخرى فيمكن تفسيرها بأنها مغرضة : فنحن نجد أن اليعقوبي والدينوري أيضاً حريصان على تبرئة الحسن وإلقاء التبعة على أهل الكوفة (الدينوري ص ٢٤٢ س ١٤) . أما عند الزهرى فيظهر الحسن في ضوء غير جميل . فأما الخلاف الأكبر الذى يتجلى فيه الغرض فهو المتعلق بمسلك عبد الله بن عباس جد الأسرة العباسية . ولا غرو أنه في عهد الخلافة العباسية كان من يقول الحق عن هذا القديس يعرض نفسه للأذى ، وعلى الأقل كان لا بد إما لإظهار الدور الذى لعبه في صورة أحسن مما كان ، أو السكوت عن هذا الدور جملة (١) .

ويؤخذ من رواية الزهرى ، وهو رواية من أقدم الرواة ، توفي قبل العصر

(١) يحكى سيف (Skizzen, 6, 144) أن عبد الله بن عباس منذ كان في المدينة ، كان موضع ثقة على وكان دائماً يحصه النصح ، ولكن علماً لم يكن دائماً يستمع لنصيحته ؛ ثم حين والياً على البصرة . وفي أيام ولايته استنفر الناس وبعث منهم جيشاً لمعونة على (الطبرى ج ١ ص ٣٢٥٦ و ٣٣٧٠) . ويحكى أبو مخنف أن ابن عباس قاتل قتالا شديداً يوم صفين ، وكان على ميمنة جيش العراق (الطبرى ج ١ ص ٣٢٨٥ - ٣٢٨٦ ، ٣٢٨٩) . وكان على يريد أن ينتدبه حكماً في دومة الجندل (الطبرى ج ١ ص ٣٣٣٣) ، ولكن علماً ، رغم أنه لم يستطع ذلك ، بعثه إلى الدومة ؛ وكان يكاتبه (الطبرى ج ١ ص ٣٣٥٤) هو ، متجاهلاً أبا موسى . ولكن أبا معشر (الطبرى ج ٢ ص ٣٢٧٣ س ١٦) واليعقوبي (ج ١ ص ٢٥٤ س ٣) يقولان إنه في سنة ٣٦ هـ (وأيضاً في سنة ٣٥ هـ) كان أيراً على الحج ؛ وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قد اشترك في موقعة صفين على الإطلاق . وذلك لا تعجب المدائني هذه الرواية ، فيقول (الطبرى ج ١ ص ٣٤٤٨) ، متابعاً لأبي معشر ، إن عبد الله بن عباس لم يشهد الموسم في عمل حتى قتل على . وفي سنة ٣٨ هـ خرج عبد الله من البصرة إلى على بالكوفة ، لكن يعزى بنفسه صديقه الحبيب في خسارته بفقد مصر ، ولم يرجع إلى البصرة إلا عندما انتقض الأمر في الولايات الفارسية ، ووجه عبد الله زياد بن أبيه إلى فارس ، وهذا ما يقوله المدائني (الطبرى ج ١ ص ٣٤١٤ ، ٣٤٣٠ ، ٣٤٤٣ ، ٣٤٤٩) . ويحكى أبو مخنف غير ذلك (الطبرى ج ١ ص ٣٤١٣ ، ٣٤٤٧) ، فيقول إن عبد الله بن عباس عزى علماً بكتاب بعث به إليه من البصرة ، وإن الذى وجه زياداً إلى فارس هو على نفسه ، لا ابن عباس . ثم ظهر ابن عباس مرة أخرى ، لما أراد معاوية إكراه كبار الأشراف في المدينة على مبايعة ابنه يزيد . فيحكى المدائني (الطبرى ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦) أن خمسة ففر امتنعوا من البيعة ، ويذكر منهم عبد الله بن عباس ، ولكن معارضة ابن عباس هذه للطفين ، على ما فيها من بطولة ، لم تأت له بأية نتيجة ، ولا بد أنه قد أوجعه كثيراً أن معاوية ويزيد تجاهلاه تماماً ، وكذلك يتجاهله أيضاً في هذه المسألة معظم الرواة .

العباسي ، أن عبد الله بن عباس عرف ما أراده الحسن من مصالحة معاوية ، فسبقته وأخذ الأمان من معاوية واشترط لنفسه على ما أصاب من أموال . ثم بعث إليه معاوية خيلاً عظيمة ، فخرج إليهم ليلاً حتى لحق بهم ونزل معسكر أهل الشام ، وترك الجيش الذي كان عليه بلا أمير . وعوانة يسكت في هذه النقطة . أما اليعقوبي فهو يذكر بدلاً من عبد الله المشهور أخاه الأصغر عبيد الله بن عباس .

وقد عرف المدائني اختلاف الرواة حول ما إذا كان عبد الله أو عبيد الله هو الذي انتقل إلى جانب معاوية أيام الحسن (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٦ ، وقارن ص ٣٤٥٣^(١)) ؛ فليس الأمر إذن مجرد خلافات في الاسم بين المخطوطات ، مرجعها إلى الناسخ^(٢) . والمدائني يقرر أن الذي انتقل هو عبيد الله ، ويتابعه في ذلك عمر بن شبة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ والصفحات التالية) والبلاذري (DMZ, 1884, 392s). ولكن عبيد الله كان والياً على اليمن من قبل علي ، لما قاد بُسْر بن أبي أرطاة جيش معاوية إلى هناك ، ووقع ولدان صغيران له في يد بُسْر ، فذبحهما ، وأصيبت أمهما بالجئون لذلك ، ويقول الواقدي إن هذه الحملة وقعت عام ٤٢ هـ ، ومعنى هذا أن عبيد الله كان ما يزال في اليمن في ذلك الحين معادياً لمعاوية ، فلا يمكن أن يكون قد انتقل إلى جانبه قبل ذلك بعام أو عامين . ومهما يكن من شيء فإنه لا يمكن أن يكون الواقدي قد عرف شيئاً على الإطلاق عن هذا الانتقال ، أما عوانة فيقول إن هذه الحملة وقعت في النصف الثاني من عام ٤٠ هـ : فلا يمكن أن يصدق أحد أن عبيد الله يتعجل إلى هذا الحد في مصالحة قاتلي ولديه : على أن من الممكن معرفة الباعث الذي من أجله وُضع

(١) هذا ما يراه دي غوى - راجع : DMZ, 1884, 393 ، وهو على هذا الفرض يريد أن يقرأ عبيد الله بدلاً من عبد الله في كتاب الطبري ج ٢ ص ٢ و ٧ و ١٢ ، قارن Van Vloten, Opkomst der Abbasiden ، ص ١٢ هامش رقم ١ .
(٢) [المؤلف هنا في هذه النصوص حول من شهد الصلح بين الحسن ومعاوية - المترجم] .

اسم عبيد الله بدلاً من اسم عبد الله معرفة أسهل بكثير من العكس ؛ فلم يكن يصح أن يظل لاحقاً بجند العباسيين الذين عاش المدائني في أيامهم ، وكأن موالياً لهم ، ذلك العار ، وهو أن يكون أول من يصالح الأمويين الفجرة ؛ أما أخوه عبيد الله فلم يكن هناك بأس من التخلي عن الدفاع عنه .

على أن ذكر عبيد الله محل أخيه عبد الله لا يمكن أن يأتي عن عبد الله الوزر إلقاء تاماً ؛ فالأموال التي يقول الزهري إنه أصابها وإن معاوية أعطائها له كانت أموالاً من بيت مال البصرة ، وكذلك الخمسة آلاف ألف التي أعطيت للحسن كانت هي ما في بيت مال الكوفة ؛ ويؤيد هذا ما يقوله أبو عبيدة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ - ٣٤٥٦) ، وهو يتفق مع الزهري على أن عبد الله بعد مقتل علي خرج من البصرة وشخص إلى الحسن ، وأنه عند ذلك حمل معه مالا ، وهو يُسمَّل الأمر على كل حال بأن يقول : لأنها كانت أرزاقاً قد اجتمعت له وأنه حمل معه مقدار ما اجتمع له . ومعنى هذا أنه لم يأخذ أكثر مما قد استحقه رزقاً له^(١) ؛ ولكن مما يستلفت النظر أن المدائني وعمر بن شبة والبلاذري أيضاً لا ينكرون أن عبد الله خرج ببيت مال البصرة ، غير أنهم يزعمون أنه فعل ذلك في عهد علي ، بعد موقعة النهروان بقليل (DMZ. 1884, 392) وأن ذلك لا علاقة له بانتقاله إلى جانب معاوية^(٢) ؛ وعلى هذا تكون هناك خيانة مزدوجة : فابن العباس المتشابهان كثيراً في الاسم قد تركا منصبهما ، أحدهما بعد الآخر مباشرة على نحو مُخْتَرٍ ، وأثريا في هذه المناسبة بأخذ مبالغ كبيرة من المال . ولكن

(١) [في رواية لابن شبة (الطبري ج ١ ص ٣٤٥٣ - ٣٤٥٤) أن أبا الأسود الدؤلي شكاً لعل أكل عبد الله بن عباس ما تحت يده من أموال بغير علم علي ، فكتب علي لابن عباس في الأمر ، وانتهت المكاتبة بأن كتب ابن عباس لعل أن يبعث من يحب والياً بدلاً منه وأنه طاعن عن منصبه - المترجم] .

(٢) لم يكونوا يعتبرون « إنقاذ » بيت المال شراً كبيراً ، لأن العادة جرت بذلك (الطبري ج ٢ ص ٧٥٢ و ٨٧٢) . أما مصالحة معاوية فشيء لا يفتقر .

الأرجح أن ذلك لم يحدث إلا مرة واحدة . وإذن فالزهرى على حق في أن المقصود هو عبد الله ، الذى كان موضع ثقة الحسن وثقة على من قبل ، لا عبيد الله ، وأن عبد الله قد باع نفسه لمعاوية قبل أن فعل الحسن . بل نحن نجد في رواية المدائنى أن عبد الله كان مع على في سنة ٣٩ هـ . ولكن لا نلبث أن نجده ، بعد الصلح ، في مجلس معاوية (الطبرى ج ٢ ص ١١) ٥ ودانت الجماعة الإسلامية كلها لمعاوية في النصف الأول من سنة ٤١ هـ ، في صيف ٦٦١ م (١) ، ولكن الروايات مضطربة في تحديد تاريخ ذلك . فأما إلياس النصيبى (Elias Nisibenus) فيقول إن الحسن تنازل عن الخلافة لمعاوية يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٤١ هـ ، أى الاثنين ٢٦ يولييه سنة ٦٦١ م . أما الواقدي فيقول (الطبرى ج ٢ ص ٩) إن معاوية دخل الكوفة في غرة ربيع الآخر سنة ٤١ هـ (أغسطس سنة ٦٦١ م) . وفي رواية لا يُذكر صاحبها (الطبرى ج ٢ ص ٨) أن الصلح بين الحسن ومعاوية تم في شهر ربيع الآخر ، وأن معاوية دخل الكوفة في غرة جمادى الأولى . أما المدائنى فيقول إن معاوية دخل الكوفة لخمس بقين من ربيع الأول أو لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ٤١ هـ (الطبرى ج ٢ ص ٧) . لكنه على كل حال كان في الكوفة في شهر رجب ، لأنه من هناك كان يُسرى إلى أوطاة في البصرة ، وذهب يُسرى إلى البصرة في رجب وبقي بها ستة أشهر (الطبرى ج ٢ ص ١٢) . على أن معاوية ولّى المغيرة بن شعبه على الكوفة في جمادى الأولى سنة ٤١ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١١١ و ١١٤) .

(١) ولا يخالف ذلك إلا اليعقوبى ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

الفصل الثالث

السفنيانيون والحرب الأهلية الثانية

قام معاوية بن أبي سفيان طول مدة حكمه بمحاربة الروم في البر والبحر في همة ومن غير انقطاع ؛ مما لا نجده عند من جاء بعده ؛ وقد طرق أبواب عاصمة أعدائه ذاتها مرتين^(١) . أما مهمة توطيد سلطانه في العراق بعد إخضاعها فقد تركها لولائه في الكوفة والبصرة . والروايات التي وصلت إلينا توجه اهتمامها إلى هؤلاء الولاة دون غيرهم ، وهي تقص علينا من أخبار المغيرة بن شعبه وزيد بن أبيه أكثر مما تقص من أخبار معاوية نفسه ، كما أنها أيضاً تجعل عبد الملك ، وهو من هذا الوجه شبيه بمعاوية ، متوارياً وراء الحجاج . وكان هؤلاء الولاة الثلاثة المشهورون ثقفين كلهم ؛ فكانوا من الطائف ، تلك المدينة المرتفعة الجميلة الموقع ، على مقربة من مكة . وقد ارتفع شأن الطائف ، كما ارتفع شأن مكة والمدينة ، بفضل الإسلام ، وانخذت الطائف ، من حيث هي مدينة ، موقفاً ممتازاً فوق عصبية القبائل ، كما تجلّى ذلك أيام الردة في سنة ١١ هـ ، وقد انضم الثقفيون من أول الأمر ، خلافاً للأنصار ، انضماماً نهائياً إلى قريش صاحبة السيادة ، وخصوصاً إلى الأمويين ، وكان هؤلاء صلات وثيقة بالطائف ، وكانوا فيها أصحاب ثراء . وكان الثقفيون مشهورين بالدهاء والفطنة^(٢) ، وقد أقاموا الدليل على أنهم

(١) قارن في ذلك مجلة Göttinger Nachrichten ١٩٠١ ص ٤١٤ وما يليها ، حيث

جمعت أخبار حملات الأمويين ضد الروم .

(٢) لما حاصر النبي عليه السلام مدينة الطائف سنة ٨ هـ انضم إلى جيشه عيينة القزاري لا لكي يقاتل ثقيفاً ، ولكنه كان يأمل أن يتم للنبي عليه السلام فتح الطائف ، فيصيب هو جارية بتبطلها ، لعلها أن تلد له رجلاً ، لأن ثقيفاً كما يقول « قوم مناكير » ، يعني أنهم دهاة فطنون ؛ أما عيينة نفسه فلم يرث دهاء ولا يستطيع أن يورثه [لم يذكر المؤلف المصدر الذي =

كذلك ؛ وقد ظهر منهم في عصر الأمويين عدد كبير من ذوى المواهب ، فكان منهم المختار الثقفى ومحمد بن القاسم ، فى كثيرين غيرهم من الرجال المبرزين .

وكان وراء المغيرة بن شعبه لما ولاه معاوية الكوفة عام ٤١ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١١ وما يليها وص ١١١ و ١١٤) حياة " مملوءة " بالأحداث ، والروايات تعطينا صورة حية لهذا الرجل المُفْتَنِّ القليل المبالاة بالمبادئ ؛ كان المغيرة طويل القامة جسيما ، وكان قد فقد فى الحرب إحدى عينيه وإحدى ذراعيه ، وكان ضخم الهامة ؛ أقلص الشفتين ، أصهب الشعر - وكان فى أواخر أيامه يصبغ شعره بالسواد - وكان شعره أربع ضفائر مُدَلَّاة (١) . وقد فر المغيرة إلى المدينة قبل سنة ٨ هـ ، وهو ما يزال فتي ، وكان ذلك على أثر غدر دنىء برفقاء له ، قتلهم وهم نيام . وكان الإسلام يقبل من مثل هذا المجرم أن يبدأ حياة جديدة ، وكان يغفر له ماضيه ، ولكن المغيرة ، وإن كان قد صار بحكم الظروف إنساناً جديداً ، فإنه بقى على ما كان له من الصفات القديمة النافعة : وقد تقرب إلى النبى عليه السلام ، وكان النبى يمكن أن ينتفع به ، فكلفه فى سنة ٩ هـ بهدم صنم اللات فى مدينة الطائف ، فلما قام بذلك احتاز مال اللات وحليتها من الذهب والجزع ، وكان جيد المعرفة بالمكان لأنه كان من الأسرة التى كانت لها سداثة ذلك الصنم : ولما دُفِنَ النبى عليه السلام طرح المغيرة خاتمه فى القبر قبل أن يمال فيه التراب ؛ فكان بعد ذلك يزعم ، على الأقل ، أنه كان آخر من لمس الدفين الطاهر عليه السلام ، لكى يبنى على ذلك ما سيزعمه من حقوق : وقد أثبت « وصوليسته » وطموحه الجريء فيما بعد أيضاً ، فحاول أن يوهم الناس أنه من سادة الأرستقراطية الإسلامية ، اعتمد عليه فى هذه الحكاية ، وقد وجدناه فى سيرة ابن هشام ص ٨٧٤ من الطبعة الأوروبية - المترجم] .

(١) إن أول الحكاية عنه فى كتاب الأغاني غير موجود فى طبعة بولاق ، لكنها موجودة فى مخطوط بمدينته ميونيخ ، وقد نشرته عن هذا المخطوط فى مجلة DMZ ، عام ١٨٩٦ م .

فكان يحضر الأمور الكبيرة وأمور الدولة مثل جماعة الشورى التي عينها عمر ،
ومثل محكمة المحكمين في دومة الجندل ، من غير أن يدعى لذلك ؛ فإذا
منع من حضور الأمر مرة جاء دون حرج في المرة التالية : وكان ، بمقدار
ما كان عايه من جراءة وورع ، يدعى أنه يستطيع أن يتكلم عن الإسلام
مع الفرس المسلمين أحسن من غيره ، وكان يختار لكي يسبغ رسولا
ومفاوضاً ، وكانت معرفته بلسان الفرس تهيئته لذلك (الطبرى ج ١ ص
٢٥٦٠) . أما المنصب الذي كان يطمح إليه فقد وصل إليه في البصرة أولاً ،
وذلك أنه ذهب مع عتبة بن غزوان ، أول وال عليها - وكانت امرأة
عتبة من الطائف . فلما مات عتبة خلفه المغيرة على البصرة ، ويقال إنه
نظم الديوان في البصرة ، فكان بذلك أسبق من غيره . ويحكى أنه هزم
فيلكان إسكوباد^(١) ، وأنه فتح ميسان ، بل الأهواز أيضاً . ولكن أسقطه
حبسه الشديد للنساء ، فعزل سنة ١٧ هـ ، بسبب جريمة زنا مخزية ، وإن كان
المتحقيق في إثبات الجريمة عليه ، رغم أن ذلك كان تحت إشراف عمر بما هو
معروف عنه من شدة ، قد انتهى كما تنتهى المهزلة^(٢) . لكن الدور الذي قد قدّر
للمغيرة أن يلعبه لم ينته بسبب ذلك ، فشهد موقعة نهاوند وبرز في القتال فيها ،
وبعدها بقليل ، في سنة ٢١ هـ ، جاء إلى الكوفة خلفاً لعمّار بن ياسر . وفي أيام
ولايته تمت الفتوحات في بلاد ميديا (الجيل) وأذر بيجان على يد أهل الكوفة ،
وكان أبو لؤلؤة غلاماً للمغيرة ، بعث به إلى المدينة ، فأذن له أن يعمل صانعاً
هناك ليؤدي للمغيرة ما عليه من خراج . وأبو لؤلؤة هذا هو الذى قتل عمر بن

(١) يرى ماركشارت أن هذا هو النطق الصحيح لكلمة ايركوباذ أو ايزكوباذ ،
انظر : Marquart, Eranschahr ، ص ٤١ [في الطبرى ج ١ ص ٢٣٨٦ ابرقياد ،
ايزكوباذ - المترجم] .

(٢) الحقيقة أنه لم تتوفر الشهادة الشرعية التي بدونها لا يمكن إقامة الحد . ويحد
القارئ ذلك عند صاحب الأغاني ، ج ١٤ ص ١٤٥ - ١٤٧ ، والطبرى ج ١ ص ٢٥٢٩ -
٢٥٣٣ - المترجم] .

الخطاب . أما في عهد عثمان فقد اندحر المغيرة إلى المحل الثاني ، وهو لم يكن من الأمويين الذين كانت تستند إليهم جمع المناصب ، ولا من خاصة الرسول الذين كانوا يعارضون الأمويين . ولم يشترك المغيرة في الثورة على عثمان ، لكن شأنه ارتفع من جديد بسبب تلك الثورة . ويروى أنه أشار على عليّ بأن يولى معاوية على الشام ويأمره بأن يأخذ البيعة له ، فلما لم يستمع عليّ لمشورته انصرف عنه وتوجه إلى معاوية . وقد افتعل كتاباً على لسان معاوية لكي يقيم الحج للناس في سنة ٤٠ هـ . وعرف معاوية كيف يقدر مثل هذا الشريك ، فلم يلبث ، بعد فتح العراق ، أن أعاد إليه منصبه القديم في ولاية الكوفة .

وصل المغيرة ، وهو كبير السن ، وبعد ماض فيه بعض التقلبات ، إلى المستقر الذي أراد أن يبقى فيه . وفي أيام ولايته حرص على ألا يصطدم بمن فوقه ولا بمن تحته ، فكان موقفه إزاء معاوية وإزاء صراع الأحزاب في الكوفة موقفاً خالياً من الحماسة على حد سواء ، بل هو لم يكن يخفى ذلك (الطبري ج ٢ ص ٣٨) ؛ وهكذا يصفه أبو مخنف على الأقل في حكاياته عن المستورد بن علفقة التيمي الخارجي وحجر بن عدي ، ولا شك أن أبا مخنف محق^(١) . وكان كلُّ همّ المغيرة في سياسته أن يحافظ على منصبه ، وقد أفلح في ذلك أيضاً . فاستطاع أن يتفادى ما همّ به معاوية أحياناً من عزله (الطبري ج ٢ ص ٧١ فما بعدها و ص ١٧٣ فما بعدها) . وقد قضى بسهولة على الخوارج الذين ثاروا تحت

(١) انظر ما ذكرته عن الخوارج في ١٩٠١، V, 2 Abhandl. der Göttinger Societät

ص ١٩ والصفحات التالية ، وعن الشيعة ص ٥٦ فما بعدها من نفس المصدر .

(٢) [خشى المغيرة مرة أن يعزله معاوية ، فذهب إلى معاوية يسأله أن يعزله ويقطع له منازل في قرقيسيا بين ظهراى قيس . فارتاب معاوية بالمغيرة وخاف بائقة منه وقال له : لترجمن إلى عملك . فأباح المغيرة ، فازداد معاوية اتهاماً له ورده إلى عمله . ونحكي أنه لما خاف العزل دخل على يزيد وعرض له بالخلافة ، فأدى ذلك يزيد إلى أبيه ؛ وعند ذلك رد معاوية المغيرة إلى الكوفة وأمره أن يعمل في البيعة ليزيد - المترجم] .

رئاسة المستورد (١) ، لأن أهل الكوفة أنفسهم بادروا إلى أن كتفوه إياهم ؛ ولكن الخوارج كان لهم شأن أكبر من ذلك ، وكانت الغالبية الكبرى من أهل الكوفة تميل إلى علي ، لأنه المحارب الأول لاستقلال العراق السياسي ؛ وكان أهل الكوفة ، من هذا الوجه شيعي النزعة ؛ وهم أيضاً لم يخفوا ذلك ، وتجراً البعض منهم على إظهار الكلام في فضل علي علانية في المسجد ، مما لا يحتمله معاوية . ولكن المغيرة لم يشهد في منعهم من ذلك ؛ وهو بدلاً من أن ينهض للتضياء على بدايات الفتنة كان يرى ظهور نتائجها السيئة بشيء من الرضا ، لأنه كان على يقين أنه لن يشهد لها حياً ، وقد أراد العافية لنفسه ، وآثر أن يلقى العيب الكريه ، الذي كان منصبه يوجب عليه أن يحمله ، على كاهل من يخلفه (٢) . وكان أهل الكوفة راضين عن ذلك كل الرضا بطبيعة الحال ، وقالوا فيما بعد ، إنهم ما وليهم وآل بعده مثله (الطبري ج ٢ ص ١١٢) . وكان دائم الكذب ، وظل متمسكاً بما ينسب حتى نهاية أمره ؛ أما عن تاريخ وفاته فالروايات مضطربة بين سنة ٤٩ إلى سنة ٥١ هـ (قارن الطبري ج ٢ ص ٧٦ - ٨٧ و ١١٤ ، والأغاني ج ١٤ ص ١٤٨) .

على أنه بعد أن كانت العراق قد خضعت لمعاوية ثار في البصرة حمران ابن أبان ، فغلب عليها فوجه معاوية إلى هناك قائده بسسر بن أبي أرطاة ، فبعد أن أعاد الهدوء إلى نصابه قفل بجيشه راجعاً (٣) . ويقول الواقدي (الطبري ج ٢

(١) [لم يذكر المؤلف مرجعاً هنا ، والأغلب أنه يقصد ما جاء في الطبري ج ٢ ص ٢٨ - ٢٩ بعدها و ص ٤٠ فا بعدها المترجم] .

(٢) وهو يشترك في هذه الروح مع ولادة آخرين في ذلك العصر : ابن عامر (الطبري ج ٢ ص ٦٧) والوليد بن عتبة (ج ٢ ص ٢١٩) والنعمان بن بشير (ج ٢ ص ٢٣٩) . وبه (ج ٢ ص ٤٥١ و ٤٦٥ فا بعدها) .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١١ فا بعدها - المترجم] .

ص ٢٢) إنه عند ذلك قام بحملته في الحجاز واليمن : وكان أول وال حقيق عيَّنه معاوية على البصرة (آخر سنة ٤١ هـ) هو عبد الله بن عامر الأموي ، الذي كان قد تولى البصرة من قبل في عهد عثمان سنين كثيرة . وكان السلطان في البصرة في يد القبائل ، لا في يد الحكومة . ولما كانوا دائماً منقسمين ولا يخطر ببالهم أن يغفر بعضهم لبعض شيئاً ، فإن الإنسان يستطيع أن يتصور ما يكون لذلك من نتائج . وكان ما أصاب الأمن العام في الكوفة ، في ظل الصراع السياسي - الديني بين الأحزاب ، قليلاً . أما البصرة فقد غلب عليها سفهاؤها حتى أكلوها ، وضعف سلطان الدولة فيها ، فكان السلب والقتل في الشوارع والأسواق فاشيين في النهار المبصر . وكان هذا هو الميراث الذي خلفه عبد الله بن عباس . ولكن ابن عامر كان رجلاً ليناً كريماً لا يأخذ على أيدي السفهاء ، وقد رأى كما رأى المغيرة في كبره من قبل ، ألا يضحى بما كان يوثره لنفسه من العافية في سبيل تأييد سلطان الدولة . وكان لا يقطع يد لص ، فلما قيل له في ذلك قال : « أنا أتألف الناس ، فكيف أنظر إلى رجل قطع أباه أو أخاه ؟ » . وقد ضجر معاوية من ذلك آخر الأمر ، فكتب إليه يستزيره في سنة ٤٤ هـ ، فقدم على معاوية . فلما انتهت الزيارة ، سأله معاوية أشياء ، وسأل هو معاوية أشياء ، فكان مما سأله معاوية إياه أن يعتزل منصبه ، وكان مما سأل هو معاوية ألا يحاسبه على ما أصاب من أموال ، وأن يزوجه ابنته هنداً ، فزوجها معاوية إياها . وهكذا صار ابن عامر خنتاً وصهرراً لمعاوية (١) . وكان الذي خلف ابن عامر الحارث بن عبد الله الأزدي ، لكنه لم يكن يُتَقَصَّد منه سوى أن يكون كالفرس المحلل ، لأن معاوية كان يريد أن يُعيِّن زياداً . فلم يبق الحارث في الولاية إلا أربعة أشهر ، وهذا هو ما يرويه المدائني (الطبري ج ٢ ص ١١ فما بعدها و ١٥ و ٦٧ و ٦٨ فما بعدها) .

(١) كان ابن عامر والد زوجة يزيد بن معاوية .

ومعظم الروايات المتعلقة بزياد ، عند الطبري ، ترجع إلى المدافني أيضاً ، وكان زياد ، شأنه شأن المغيرة بن شعبة ، الذي كان يظلمه بجايته ، من أهل فقيف الذين لم يلبثوا أن انتقلوا إلى البصرة ، لما أسست . وكان زياد على التدقيق من أسرة أبي بكرة التي كانت في البصرة ذات نباهة وكانت تملك أرضاً كثيرة (الطبري ج ٢ ص ١٢)^(١) . ولم يكن زياد من أصل كريم ، وكان يسمى باسم أمه تسميته ، لأن أباه كان مجهولاً . لكن الإسلام فتح له أيضاً طريق الحياة ، فكان ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، يتولى الكتابة عند قبض النبي وقسمته ، أو يتولى قسمته في جيش البصرة ، لأنه كان يقرأ ويكتب ، ولا بد للحساب من معرفة القراءة . ويروى أن الخليفة عمر فطن منذ ذلك الحين إلى ما كان لزياد من مواهب فائقة ، وفي أيام علي كان زياد شخصية بارزة في البصرة ، وقد استخلفه عبد الله بن عباس عليها ، لما خرج إلى علي بالكوفة ، فأحمد زياد الثورة التي قامت بها تميم بإيعاز من معاوية . وقد ساعد الأزدُ زياداً في ذلك ، وظل هو ذاكراً لهم يدهم عنده وإجارتهم له (الطبري ج ٢ ص ٨٠) . وبعد ذلك بعثه على إلى فارس لكي يُلزم هذه الولاية ، بعد أن تمردت عليه ، حدود الطاعة والنظام ، فقام بما كُلف به ، متبعاً سياسة الإدارة واللين حيناً والدهاء وضرب أعدائه بعضهم ببعض حيناً آخر ، حتى صفت له فارس من غير حرب . وكان ذلك موضع إعجاب ، حتى قال أهل فارس ، ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والإدارة والعلم بما يأتي^(٢) . وبعد موت علي تحصن زياد في قلعة قريبة من مدينة اصطخر ، وحض كل رجاله على أن يثبتوا أطول ما يمكن في المقاومة

(١) قارن فيما يتعلق بصفات هذه الأسرة العبارة الشائعة التي يذكر الطبري (ج ٢ ص ٨٠١) أنها قيلت لعبيد الله بن أبي بكرة وهي : « إنما أنت ابن كلبة تعاورها الكلاب ، فجاءت بأحرر وأسود وأصفر ، من كل كلب بما يشبهه » - قارن أيضاً ابن هشام ص ٨٧٤ س ١٧ .
(٢) [الطبري ج ١ ص ٣٤١٤ - ٣٤١٨ و ٨٤٤٩ - ٣٤٤٥٠ - المترجم] .

لمعاوية : وأراد بُسْرُ بن أنى أرطاة ، وكان معاوية قد وجهه إلى البصرة بعد مصالحة الحسن ، أن يُكْرَه زياداً على الشخصوس لمعاوية ، فحبس أولاده الثلاثة — وكان زياد قد خلفهم في البصرة — وهُدِّدَهم بقتلهم ، فلم يستجب إليه : فجاء أبو بكره إلى بُسر ، وكان بسر قد أخذ أبناءه أيضاً ، فاعترض على هذا الظلم للأبرياء وعلى مخالفة الأمان الذي أعطاه معاوية في صلحه مع الحسن لشيعته على ، وسأل بُسْرَ أن يُؤجِّلَه سبعة أيام ، حتى يذهب إلى معاوية ، فركب أبو بكره إلى معاوية ، وكان بالكوفة ، فلذهب وعاد في سبعة أيام ، وقتل تحته دابتين . وفي اليوم السابع أخرج بُسر بني زياد ليقتلهم عند غروب الشمس ، واجتمع الناس لذلك ، وأعينهم طامحة ، ينتظرون أبا بكره ، إذ بدا أبو بكره على راحته المكلدودة ، وهو يُسلِّح بثوبه : وكبَّر ، وكبَّر الناس ، وأقبل يسعى على رجله حتى أدرك بُسْرَ : قبل أن يقتل الأولاد الأبرياء ، ودفع إليه كتاب معاوية الذي يأمره فيه بالكف عنهم وتخليصة سبيلهم : وهكذا نجا أبناء زياد في آخر لحظة بفضل أبي بكره (١) : وكلف معاوية المغيرة بالبحث عن أموال لزياد كانت مُودَعَةً عند رجل من البصرة وأمره بتعذيبه ، فعذبه تعذيباً صورياً حتى يبلغ معاوية خبر التعذيب ، ثم كتب إلى معاوية أنه لم يُصَبَّ عند الرجل شيئاً يحلُّ له أن يأخذه — وذلك أن الثقي لا يرزأ ثقفاً مثله . على أن المغيرة تلطَّف لزياد حتى أقنعه بأن يشخص إلى معاوية ويوصل حبله بحبله ويصالحه ، ووقع ذلك سنة ٤٢ هـ : وقد أغضى معاوية عما لجأ إليه زياد من حيلة لاحتجاج ما كان قد صالح معاوية على حمله إليه مما كان في بيت مال فارس ، وإن كان معاوية قد استشف الحيلة : وكان الأمر

(١) هذه القصة أسطورة بلا شك . ولكن لا يصح البحث عن وجه صحيح لها على النحو الذي يذهب إليه أ . مولر (Islam 1. 337) من أن أبناء زياد كانوا في البصرة قد أحدثوا ثورة وأسرُوا فيها . ذلك لأنهم كانوا أصغر سناً من أن يقوموا بذلك . [ويجد القارئ موقف زياد إزاء التهديد وما قاله عن معاوية وما قاله لبسر ، وما كان بينه وبين معاوية حتى تم بينهما الصلح : عند الطبري ج ٢ ص ١١ — ١٥ ، ٢٢ — ٢٧ ... المترجم] .

في الواقع أمر صفقة بين أخوين عرف كل منهما لصاحبه قدره فيما بعد ، ولم تكن الفائدة التي عادت على كل منهما من ذلك بالفائدة القليلة ،

وكانت آخر خطوة خطاها معاوية هي أن ألحق زياد بن سمسية بأبيه أبي سفيان ، وذلك ليربطه بنفسه وبأسرته رباطاً تاماً ، وكان ذلك فضيحة كبرى لا يذكرها الطبري ولا يؤرخها ، بل يتكلم عنها كشيء وقع فحسب (الطبري ج ٢ ص ٦٩ فما بعدها ، قارن أيضاً ج ٣ ص ٤٧٧ فما بعدها) ، أما بقية الأمويين ويزيد بن معاوية نفسه فلم يرضوا عن ذلك وظلوا فترة طويلة متباعدين عن هذا الابن غير الشرعي لأبي سفيان الذي يجوز أنه لم يكن له ابناً ، لا شرعياً ولا غير شرعي ، على الإطلاق . والأبيات المشهورة التي كثيراً ما تذكر استهزاءً ببنته ليست لابن مفسر المغنى المتجول الذي قد قال هو أيضاً مثل هذه الأبيات ، بل هي لعبد الرحمن ابن الحكم ، أخى مروان بن الحكم الذي صار خليفة فيما بعد (الطبري ج ٢ ص ١٩٤) . وكان لما صالح زياد معاوية سأل معاوية أن يأذن له في نزول الكوفة ، فأذن له ، فشخص زياد إلى الكوفة ، وكان عليهما المغيرة ابن شعبة ، فكان لزياد كالأب الكريم ، وكان يكرم زياداً ويعظمه ، وكان زياد يتردد على المغيرة في بيته ويتودد إلى زوجته الشابة (١) . ثم دعى معاوية زياداً إلى الشام ، وألحقه بأبيه أبي سفيان ، فلما رجع زياد إلى الكوفة ، داخل المغيرة الخوف من أنه بعد أن ربى زياداً سيحل هذا محلّه في الولاية . ولكن سرعان ما ورد من دمشق كتاب بولاية زياد على البصرة وعلى الولايات التابعة لها في المشرق : وهي خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان . وقدم زياد البصرة في آخر ربيع الثاني أو أول جمادى الأولى من سنة ٤٥ هـ ، والفسق في البصرة ظاهر فاش ، فأعلن عن سياسته في خطبة مشهورة ألقاها من على المنبر ، ولم

(١) [لا يؤخذ هذا مما يقوله الطبري ج ٢ ص ٢٧ . راجع ما يلي ص ١٢١ حيث جئنا بكلام الطبري في هذه المناسبة نفسها - المترجم] .

يبدأها بالحمد والتسليم ؛ بل تكلم فيما أراد أن يتكلم فيه مباشرة ، ولذلك سُمِّيَتْ خطبته « البتراء » ، وقد قال فيها (١) : « أما بعد فإن الجهالة الجاهلة والضلالة العمياء والغنى المؤفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلاؤكم ، من الأمور العظام ، يَنْسَبُ فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأن لم تسمعوا بأى الله . . . ولا تذكر أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تُسَبِّقوا إليه ، من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، والضبيعة المسلوقة فى النهار المبصر . . . قرئتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتَغْضُونَ على المختلس ، كل امرئ منكم يذُبُّ عن سَفِيهِهِ ، صَنِيعٌ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلما ، ولقد اتبعتكم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون ، من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرَمَ الإسلام ، ثم أطرَقوا وراءكم كنوساً فى مكائس الرِّيب . حرام على الطعام والشراب حتى تُسَوِّبَها بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله : لينٌ فى غير ضعف ، وشدةٌ فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لأتخذن الوليَّ بالمولى ، والمقيمَ بالطاعن ، والمستسبِّلَ بالمُدبر ، والمطيعَ بالعاصي ، والصحيحَ منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجلُ منكم أخاه فيقول : « أُنْجِ سعد ، فقد هلك سعيد ! » ، أو تستقيمَ قناتكم . إن كذبة المنبر بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتُم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي . فإياي ودعج الليل ، فإني لا أوقى بمسد لج إلا سفكتُ دمه . . . وإياي ودعوى

(١) [ذكر المؤلف بعض الخطبة دون ذكر المرجع ، وقد تابعناه فى اقتباسه بقدر الإمكان ويوجد القارئ الخطبة كاملة فى الجزء الأول من كتاب البيان والتبيين للجاحظ . وتدل هذه الخطبة على عقلية سياسية وعلى روح خاصة ، ولم يقبل زياد بعد أن ألحها مدح متعاق ، بل قبل ملاحظة المعتدين ، وأجاب على من اعترض على ما فى كلامه من تمسك ومن مخالفته لنص القرآن الذى جاء فيه : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، بأن قال له : « إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك ، حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً » ؛ فليست العقوبة فى نظر زياد للإصلاح أو التصاص فحسب ، بل هى الردع ، وليس الوصول إلى الغاية الشريفة مقصوداً على استعمال الوسائل اللينة - المترجم] .

الجاهلية ، لا أجدر أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانه ؛ وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقنا ، ومن نقب بيتاً نقبنا قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ، فكفُّوا عنِّي أيديكم وألسنتكم أكفُّف عنكم يدي ولساني : ولا تظهر من أحد منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامتكم إلى ضربت عنقه ؛ وقد كان بيني وبين قوم إحسن ، فجعلتُ ذلك دبراً أذني وتحت قدمي ؛ فمن كان منكم مُحسناً فليردد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فليزرع من إساءته ؛ إني لو عملتُ أن أحدكم قتله السلُّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهلك له سترأ ، حتى يسدي له صفحته ؛ فإذا فعل ذلك لم أناظره فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، قرب مبستيس بقدمنا سييسر ، ومسرور بقدمنا سييسر . أيها الناس ! إنا قد أصبحنا لكم ساسةً وعنكم ذادةً ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بغير الله الذي حولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما علينا ؛ فاستوجبوا عدلتنا وفيأنا بمننا صحتكم لنا واعلموا أنسى مهمما قصرتُ فلان أقصر عن ثلاث : لست محتجياً عن طالب حاجة منكم ، ولو أناني طارقاً بليل ؛ ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إيتائه ؛ ولا مجسماً لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصالح لأمتكم ! فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تلركوا له حاجتكم ؛ مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم ، وأيسمُ الله إن لي فيكم لصري كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي .

وقد مكث هيبته في النفوس بأن ضرب أمثلة من الشدة التي لا تعرف الهوادة ،

وجرى على ذلك من أول الأمر (١) . فأفلح أن يُقَرَّ الأمن في نصابه ، لا في البصرة وحدها ، بل في الولايات الفارسية أيضاً ، وحتى في الصحراء العربية . عمل نحو لم يعهده الناس من قبل . وتحكى عنه عجائب حقيقية . وقد خضع له خوارج البصرة أيضاً وكانوا لا يختلفون إلا من حيث الاسم عن اللصوص الأدياء ، وكانوا يستحقون أن يعاملوا كما يعامل اللصوص (٢) .

ولما مات المغيرة في ٥٠ أو ٥١ هـ ، خلفه زياد على ولاية الكوفة ، فصارت له الكوفة والبصرة معاً ، وهو أول من بُحِثَ له وكان يقيم في كل منهما ستة أشهر . وإن كان مقره الحقيقي البصرة وكان عليه أن يُصلح أمور الميراث السيئ الذي خلفه له المغيرة في الكوفة ، وذلك أن الشيعة هناك - وكان على رأسهم حجر بن عدى الكندى - حصبوا خليفته عمرو بن الحريث بينما كان يخطب في المسجد ، فأسرع زياد من البصرة لكي يؤدبهم وكان من حسن الحظ لزياد أن أنصار حجر منعوه من الاستجابة إلى دعوة زياد ، لما أرسل زياد في طلبه ،

(١) [راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ٧٧ ، تجد أن زياداً ، بعد خطبته البتراء قتل أعرابياً أخذه صاحب الشرطة ليلاً ، بعد الوقت المحدد للتجول ، هذا مع أن الأعرابي لم يكن يعلم بما اتخذ زياد من إجراءات ، و ص ٨٨ ، تجد أن زياداً قطع أيدي قوم حصبوه ، وهو يخطب في الكوفة . وراجع أيضاً الكامل للمبرد ص ٥٨٢ من الطبعة الأوربية تجد أنه قتل امرأة وعراًها لأنها خرجت مع قوم من الخوارج ، فلم يجرؤ النساء بعد هذا على الثورة مع الخوارج . وتجل حزم زياد كما تجلت قسوته أيضاً في قضائه على حجر بن عدى وأصحابه - الطبرى ج ٢ ص ١١١ - ١٥٥ - المترجم] .

Chavarig. p. 248. (٢)

[فيما يتعلق بشدة زياد وحزمه ونجاحه في سياسته يقول الطبرى : وكان زياد أول من شد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وألزم الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجرّد السيف وأخذه بالظنة وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً ، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يمرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها . وساس الناس سياسة لم ير مثلاً لها ، وهابها الناس هيبة لم يهابوها أحد قبله . . . وكان زياد يقول : لو ضاع جبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ٧٧ - ٧٨] .

نواتج معهم بطريق العصيان والمقاومة ، وبذلك جلب الأذى لنفسه وجنى عليها . وقد تمكن زياد من التغلب على المتمردين دون كبير مشقة . وذلك أنه لما بدت بوادر الشر طلب زياد من أشرف الكوفة أن يبعدها قومهم وأقرباءهم عن حجر بن عدى ، ففعلوا ، وهكذا أعان أهل الكوفة أنفسهم ممثل الدولة ، رغم قلة حبسهم له ، على إخوانهم في المذهب . وقد وقعوا على شهادة ياتهام حجر بن عدى وأصحابه بأنهم خلعوا طاعة الخليفة ودعوا إلى الحرب والفتنة . فأرسل حُجُجراً وأصحابه إلى الخليفة في دمشق ، فقتل منهم ستة بسبب خلعهم الطاعة ودعوتهم إلى الفتنة ، ولأنهم لما سُئِلوا عن رأيهم في عثمان وعلى عابوا عثمان وأبوا أن يتبرأوا من على . ولكن الأمر لم ينته بذلك ، لأن قتل مثل هؤلاء الرجال الكبار أهاج النفوس إهاجة عميقة ، وأنفقت بعض القبائل أن تتخلّى عن إنقاذ رجالها من يد الدولة ، واعتبر الشيعة حُجُجراً وأصحابه في المحنة شهداء (١) .

وتذكر الروايات بعض الإصلاحات والإجراءات الإدارية التي قام بها زياد فقد قام بإصلاح كبير في مسجد الكوفة (الطبري ج ١ ص ٢٤٩٢) وأمر بإلقاء الحصى فيه ويقول البلاذري (ص ٢٧٧) إن زياداً فعل ذلك لأن الناس كانوا يصلُّون فإذا رفعوا أيديهم ، وقد تَرَبَّست ، نفضوها ، فخشى زياد أن يظن الناس على مرور الأيام أن نفض الأيدي سنة في الصلاة ، فأمر بالحصى فجُمِع وأُلْقِيَ في صحن المسجد (٢) . وأهم من ذلك إجراء آخر اتخذ زياد ، وهو تقسيمه جند الشرطة

Schia. p. 56ss. (١)

[راجع أيضاً فيما يتعلق بقصة حجر بن عدى و قتله هو وأصحابه الطبري ج ٢ ص ١١١ - ١٥٥ ، لتجد التفصيل الوافي لما أوجزه المؤلف - المترجم] .

(٢) [لا نجد عند الطبري والبلاذري في الموضعين اللذين أشار إليهما المؤلف ما يقوله من أن زياداً رفع الحصى من الأرض وأحل محله بلاطاً ثابتاً ، وذلك لكي لا يحصب المصلون الخطيب إذا أرادوا معارضته . ولما كان البلاذري يقول إن الحصى أُلْقِيَ في المسجد فوق التراب ، فإن زياداً لم يرفع الحصى ، وبهذا لا يكون ثمة أساس لكلام المؤلف ، ولذلك عدلنا عنه - المترجم] .

في الكوفة أربعة أقسام ، في كل قسم منها تتمثل القبائل المختلفة ، من غير أن يكون على رأسهم رئيس القبيلة ، بل رئيس تُعَيِّنُهُ الحكومة (١) . أما في تقسيم جند البصرة تقسماً مماثلاً إلى خمسة أقسام ، فقد كانت القبيلة أكثر ظهوراً (٢) . ويستطيع الإنسان أن يلاحظ أن زياداً أراد أن يخفف من حدة التوتر السياسي في العراق ، وذلك لأنه حول خمسين ألفاً من أهل الكوفة والبصرة بعمالاتهم إلى خراسان وأسكنهم فيما دون النهر (الطبري ج ٢ ص ٨١ ، ١٥٦ ، والبلاذري ص ٤١٠) .

وتُوفِّيَ زياد يوم الثلاثاء لأربع خلون من رمضان سنة ٥٣ هـ (الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ٦٧٣ م .) ، وهو يبلغ حوالي ثلاثة وخمسين عاماً . وتُذَكِّرُ حكايتان لا تخلوان من دلالة على روحه . فثلاثاً في سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ خرج ابن عباس من البصرة قاصداً عليّاً بالكوفة ، واستخلف على البصرة زياد ابن أبيه . وبعث معاوية بابن الحضرمي إلى البصرة ، فنزل في تميم بقصد إثارته على سلطان علي . فعند ذلك لحق زياد إلى صَبْرَةَ بن شَيْمَانَ ، أحد رجال الأزد لكنى يحبره هو وبيت المال . ثم أراد زياد أن يخبر الأزد ، فقال لجابر بن وهب الراسبي : لا أرى ابن الحضرمي يكف ، ولا أراه إلا سيقا تلکم ، ولا أدري ما عند أصحابك ، فأمرهم ، وانظر ما عندهم ! فبعد أن صلى زياد مجلس في المسجد واجتمع الناس إليه ، فقال جابر : يا معشر الأزد ! تقيم تزعم أنهم هم الناس وأنهم أصبَرُ منكم عند البأس ، وقد بلغني أنهم يريدون أن يسيروا إليكم حتى يأخذوا جاركم ويخرجوه من الميصر قسراً ، فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك ، وقد أجزتموه وبيت مال المسلمين ؟ فقال صبرَةَ ابن شيمان ، وكان مُفْعَماً : « إن جاء الأحنف جنت ، وإن جاء الحثات بن يزيد

(١) Schia. p. 58. n. 1.

(١) [وجاء في الطبري ج ٢ ص ٧٩ : وقيل إن زياداً أول من سير بين يديه بالحرا ب ومشي بين يديه بالعمد واتخذ الحرس رابطة خمائة ... فكانوا لا يرحلون المسجد . قارن ص ٧٧ - المترجم] .

جئتُ ، وإن جاء شبان ففينا شبان » . وقد كانت هذه الكلمات ، بما فيها من سداجة ، سبباً في إثارة الضحك في نفس زياد ، وكان يقول بعد ذلك : « إنني استضحكتُ ، ونهضتُ ، وماكدت مكيدة قط كنتُ إلى الفضيحة بها أقرب مني للفضيحة يومئذ ، لما غلبني من الضحك » (١) . ويحكى أيضاً أن زياداً كان يقول لزوجة المغيرة بن شعبة - وكانت شابة جميلة - وقد تزوجها زياد فيما بعد ، ألا تستتر منه لأنه من أهل قرابتها ولا خطر منه ، لأنه « أبو المغيرة » : والواقع أن أحد أبناء زياد كان يسمى المغيرة ، حلى اسم المغيرة بن شعبة والى الكوفة (٢) . فيبدو من هذا أن زياداً لم يكن وجلاً مستزماً في جده : أما في أمور منصبه فلم يكن يسمح لأحد أن يعزح معه ، وهو لم يكن والياً غشوماً مستبدلاً إلا بالمعنى الذي يفهمه العرب ، والعرب يرون أن كل حكم قوى يجب أن يكون استبداداً ، خصوصاً إذا احتاج إلى السيف في قمع الرعايا النافرين : أما ما فعله زياد مع الشيعة في الكوفة فقد رواه لنا أبو مخنف - وكان شيعي النزعة - أو في رواية وأدقها :

(١) الطبري ج ١ ص ٣٤١٤ - ٣٤١٥ ، ولا يستطيع الإنسان من نص طبعة ليدن أن يدرك ما هو الشيء المضحك في كلام صبرة بن شيمان . وأسماء الأعلام رقة هناك ، ويمكن إصلاحها بالرجوع إلى الطبري ج ١ ص ٣٤١٨ س ١ وابن دريد ص ١٥٠ و ١٥٤ . وأسماء الأعلام أسماء لقوم من تميم ، ولكن لها ، إلى جانب ذلك ، دلالة على أشياء أخرى . ويؤخذ من كلام صبرة أن الأزدي ينتظرون ما تفعله تميم وهم مستعدون لأن يقابلوا رجال تميم برجال أنفاه لهم . وقد تكلم صبرة في جد وزهو وافتخار ، وكان ذلك ، بما فيه من سداجة ، هو الشيء المضحك الذي ضبط زياد نفسه لكي لا ينفجر ضاحكاً لما سمعه . [ترجمنا كلام المؤلف في الصليب متمشين مع الأصل العربي ومفصلين بعض التفصيل ، وإلا لما فهم المقصود فهماً تاماً ، كما أننا جئنا بكلام صبرة في الصليب أيضاً ، لا في الهامش ، كما فعل المؤلف - المترجم] .

(٢) [هذا ما يقوله المؤلف . ولم أجده ما يدل على كل ما يقول . ونجد عند الطبري ج ٢ ص ٣٧ ما يأتي : « ودخل عليه (أي المغيرة بن شعبة) ، وعند المغيرة أم أيوب بنت حمارة بن عتبة بن أبي معيط ، فأجلسها بين يديه وقال : لا تشتري من أبي المغيرة ! فلما مات المغيرة تزوجها زياد ، وهي حادثة » . ومن الواضح في النص أن الذي قال : لا تشتري ، هو المغيرة بن شعبة ، فهو يقول لزوجته ، مداعباً زياداً : لا تشتري من أبي المغيرة . لأن أحد أبناء زياد كان يسمى المغيرة . وليس في الكلام ما يدل على جمال الزوجة ولا على أن زياداً هو الذي كلمها . ويظهر أن المؤلف أخطأ في فهم ما تعود عليه الضمائر - المترجم] .

ولا يزيد كلام أبي مخنف عن أن زياداً أقر بعض الثوار الحديد ، ممن حمل السلاح خارجاً على أمره واكتفى بذلك ، وهذا مما يبرر الشك في الروايات الغامضة التي تذكر أحياناً عن قسوته في تعقب الشيعة بوجه عام (الطبرى ج ٢ ص ٢٦٦ ، ٦٢٤) . وفي البصرة لم يكن للشيعة في الحملة كبير شأن ، وهم لم يخلقوا المتاعب ، وكان لرئيسهم شريك بن الأعور الحارثي مكان كريم عند زياد وعند أبنائه من بعده . ولكن شريكاً لم يكن براً بثقتهم فيه ، فقد أراد أن يستغلها ليغدر بعبيد الله بن زياد الذي تولى العراق بعد أبيه . وذلك أن شريكاً مرض ، فذهب إليه عبيد الله عائداً له في داره ، فأراد شريك أن يقتله ، وحرض على ذلك رجالا كانوا في داره ، لكنهم استنبحوا هذا الغدر الشائن وكرهوه . ومات شريك بعد أيام ، ولم يتم له ما أراد (الطبرى ج ٢ ص ٢١٨) . أما الخوارج فكانوا في البصرة أخطر من ذلك ، وكانوا مختلفين ، فكان منهم أهل ورع وديانة ، وكان منهم متطرفون قليلو المبالاة بالمبادئ ؛ في غريزتهم ميل إلى سفك الدماء . ولم يتعرض زياد إلى أهل الورع منهم ، بل هو ضرب على أيدي الجرمين ، ولم يقتل إلا بعض الثوار والجرمين الذين جرى بهم إليه وقام الدليل على إجرامهم . وهو لم يلجأ إلى المذابح الرادعة . وقد أبان أبو بلال ، وهو أكبر رجل بين خوارج البصرة ، عن رضاه عن صنع زياد ، وذلك بأن دعا على قومه الذين ألحقوا العار باسم الخوارج بسفكهم الدماء من غير تمييز^(١) ، أما ما يروى من أفعال زياد بخلاف ذلك فيجب أن يعتبر تشنيعاً مغرضاً .

فأما الأداة الطيعة في أعمال القسوة المزعومة التي تنسب لزياد في البصرة فهو سمرة بن جندب ، كما يقول المدائني وتلميذه عمر بن شبة . وكان سمرة على الشرطة ،

(١) [لم يذكر المؤلف المرجع الذي اعتمد عليه ، وقد وجدت في كتاب الكامل للمبرد ص ٥٨١ - ٥٨٢ من الطبعة الأوربية أن أبا بلال دعا على رجلين من الخوارج سفكا دماء بغير حق . ولا يخرج ما في الطبرى (ج ٢ ص ٩٠ - ٩١) عن ذلك - المترجم] .

ويقال إن زياداً أكثر من عدد الشرطة ليتخذها أداة لطغيانه ، ولكن المعروف أنه لم يخدم ثورة الشيعة في الكوفة بواسطة الشرطة ، بل بدعوة أهل البصرة أن يكفّوه أولئك الشيعة (١) . وقد استطاع زياد في العراق ، كما استطاع في فارس ، أن يصل إلى غرضه دون اللجوء إلى وسائل غير عادية ، وكان بحسب العادة القديمة ، يجمع حوله في سمره جماعة من الأشراف فرض لهم عطاء شرفياً . وكان يتحدث معهم في الشؤون العامة حديثاً حرّاً (٢) . وهو أيضاً قد جعل رؤساء القبائل مسئولين عما يحدث من قبائلهم . وقد مكّنه ما كان بين القبائل من تنافس من أن يضرب بعضها ببعض ، وأهم ما كان تحت يده أموال الدولة ، وكان هو المسيطر على بيت المال الذي تجرى منه الأرزاق والأعطيات ، فكان عند الضرورة يهدد بمنعها (٣) . وكان تحت تصرفه شرطة ، لكنهم لم تكن أكثر عدداً منها في عهد سلفه ، فلم يكن تحت يده من الوسائل إلا ما كان تحت يد غيره من عمال الدولة ، غير أنه عرف كيف يستعملها خيراً مما استعملوها . وتدل كل الدلائل على أنه كان حاكماً « منصوراً مسعناً بأمر الله » ، وهو لم يفشل في شيء . وكان المسجد ، وهو المكان الذي تجتمع فيه عامة المسلمين ، هو مكان عمله ومكان نجاحه . وكأنه كان يعرف ما تجسّسه ضمائر الناس ، وكانوا يحسّون بأنه يصيب منهم ما يخفون . وكان يعلن للناس ما يريد أن يتخذ من إجراءات ، ولم يكونوا يشكّون أنه سيكون عند قوله . وقد استطاع أن يحكم الناس بالكلام لا بالسيف ، وكان خبيراً بقلوب العرب . وكان العرب ، من قديم ، ذوى فطنة دقيقة وذوى إعجاب فطري بالتفوق العقلي ، إذا تجلّى في البصيرة النافذة إلى القلوب وإلى حقيقة

(١) [راجع فيما يتعلق بالبصرة الطبرى ج ٢ ص ٩١ ، وبالكوفة ص ١١٧ -

المترجم] .

(٢) [لا يذكر المؤلف مرجعاً هنا ، وفي الطبرى (ج ٢ ص ٧٨) أنه « كتب خمسمائة

من مشيخة أهل البصرة في صحابته ، فرزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة » - المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ٩١ - المترجم] .

الأشياء ، وإذا تجلى في التصرف الحازم الحاسم (١) . وقد مدحه الحارث بن بدر الغنداني أحد أشرف تميم ، وكان شخصية قوية مستقلة ، بقصيدة تشهد بما كان له من صفات كريمة ؛ ووصفه فيها بأنه وزير نعم الوزير (٢) لأخيه الخليفة معاوية وإذا كان الفرزدق الشاعر (٣) ، لما طلبه زياد ، قد خاف زياداً كما يخاف الصبي الأحمق حقيقة ، ففرّ منه ، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فإن هذا لا ينال من قدر زياد ومن صفاته :

وكان الواجب الأول الذي لا بد من القيام به ، في البصرة والكوفة ، هو تثبيت سلطان الدولة . فكان لا بد في البصرة من كسر شوكة القبائل والعشائر التي كان المبدأ الأعلى عندها هو الوقوف إلى جانب أفرادها ، بل إلى جانب مجرميها ، مهما كان جرمهم ، وحمايتهم من القبائل الأخرى ، بل من سلطان الدولة . فقد طغت روح العصبية القبلية في البصرة أكثر من طغيانها في غيرها ، وكان لذلك في مدينة كالبصرة مزدحمة بالسكان من النتائج ما لا يمكن احتماله ، وكان أنقطع مما عُرِفَ في حياة البادية . فتعرض النظام والسلام إلى الخطر ، بعد أن كان محمد عليه السلام ، بفضل إقامة السلام والنظام ، قد خلص العرب من الفوضى . أما في الكوفة فقد كانت المعارضة للحكومة مصطبغة بصبغة دينية أكثر مما كانت لها هذه الصبغة في المدن الأخرى . ولم تكن هذه المعارضة موجهة لسلطان الدولة في ذاته ، بل موجهة إلى حق الحكومة التي كانت قائمة ، أعني حكومة الأمويين ، في الحكم . ولم يكن بين الناحيتين فرقاً في نظر زياد ، فهو بعد أن

(١) [يظهر أن المؤلف قد أخذ بعض ما يذكره من صفات زياد من قصيدة قالها الحارث ابن بدر الغنداني في مدحه له (الطبري ج ٢ ص ٧٨) وأنه قد تصرف فيما أخذ - المترجم] .
(٢) الطبري ج ٢ ص ٧٨ س ١٠ و ص ١٤٦ س ١٦ . وهذه أول مرة تظهر فيها هذه التسمية ، فيما أعلم .

(٣) [تجد حكاية الفرزدق وفراره لما طلبه زياد عند الطبري ج ٢ ص ٩٤ - ١٠٨ -

المترجم] .

صالح الأسرة الحاكمة لم يعرف الخضوع لسيادة غير السيادة القائمة بالفعل ، وعلى هذا الأساس نهض لإقامة النظام في الجماعة وإيجاد الرخاء في الحياة العامة وإلزام الناس القيام بواجب الطاعة المفروض عليهم كمواطنين . وهو إن كان ، تمثيلاً مع العادة السائدة ، لم يتنس نفسه ، بل جمع أموالاً كثيرة ، فإنه لم يجعل همّه استعمال سلطانه وسيلة في استغلال الولايات التي عهدت إليه إدارتها استغلالاً يحقق له أغراضه الخاصة . وكان يتخذ موقفاً فوق الأحزاب وفوق القبائل ، وكان يشعر تمام الشعور بأنه عامل من عمال الدولة ، وكان جاداً كل الجد في القيام بالواجبات التي يقتضيها منصبه والشعور به ، غير متبالي بالعافية لنفسه ، وغير متبالي بما جاء في القرآن (١) الذي استطاع كل حاكم أن يستنبط منه السياسة التي تناسبه . وقد عرف له إخلاصه ، وعاد ذلك على أبنائه من بعده ، وكان ابنه عبيد الله أكبر شأنًا ،

ومن ولاية العراق أيام معاوية ، إلى جانب من تقدم ذكرهم ، بحسب رواية أبي معشر والواقدي : تولى الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد سنة ٥٣ هـ ، والضحاك بن قيس الفهري سنة ٥٥ هـ ، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي سنة ٥٨ هـ ، والنعمان بن بشير الأنصاري سنة ٥٩ هـ . وتولى البصرة سمرة بن جندب القرظي سنة ٥٣ هـ ، وعبد الله بن عمرو بن عيلان سنة ٥٤ هـ ، وعبيد الله بن زياد سنة ٥٥ هـ . وقد كان عبيد الله أشد من أبيه على خوارج البصرة ، حتى اضطغن عليه المعتدلون منهم . وما يروى من حكايات شهداء الخوارج يرجع إلى عهده (٢) .

أما أهل الشام الذين كان يحكمهم معاوية نفسه فلا نسمع عنهم إلا قليلاً ، إذا

(١) [يقصد المؤلف بطبيعة الحال مجاوزة زياد لبعض حدود الشرع عندما كان يريد القضاء على الفساد . راجع ص ١١٦ - ١١٧ بما تقدم - المترجم] .

(٢) Chavarig p. 258a . [راجع أيضاً الطبري ج ٢ ص ١٨٥ - ١٨٨ - المترجم] .

قيس بما نسمعه عن غيرهم ، وذلك أن اتفاق مصلحتهم ومصلحته في السيادة جعلتهم متحدين معه ، لأن السيادة كانت للشام . وهذا يتجلى في امتلاكها لبيت المال ، وفي ارتفاع الأعطيات فيها (١) . وكانت الشام أيضاً تختلف عن العراق اختلافاً داخلياً ، وذلك أنه لم يكن للكوفة والبصرة تراث غير تراث حياة البادية وغير تراث الإسلام ، وكانت حروب الفتح قد قذفت إليهما بجيوش عربية تتألف من مختلف القبائل . فأقامت هناك أشبه شيء بالمستعمرات العسكرية . ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية إلى ظروف الحضارة وصارت في النقطة الوسطى لإمبراطورية كبرى ، فلا عجب ألا يتحول العرب دفعة واحدة من حياة البداوة إلى حياة المواطنين المهذبين . على أنه قد هاجر إلى الشام أيضاً على أثر الفتح الإسلامي كثير من العرب ، خصوصاً من قيس الذين انتقلوا إلى شمال الشام ، ولكن الغالبية في الوسط كانت لكلب ولقبائل قضاعة ، إلى جانب قبائل أخرى من أزد الصراة . وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون ، ولم تكن قد جاءت مع مجيء الإسلام (٢) . وكانوا معرضين لتأثير الحضارة اليونانية - الرومانية والكنيسة المسيحية والدولة الرومانية ، فلم تتخل هذه العوامل كلها من أن تترك أثرها فيهم . ولم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معاني جديدة عليهم . وكانت لهم أسرة قديمة من الأمراء دائروا لها بالطاعة دهرًا طويلاً ، ثم آل ما تعودوه من الطاعة إلى معاوية باعتباره الوارث الشرعي لأسرتهم السابقة ، فلم يكونوا بحاجة إلى أن يُسلَّسُوا حقوق الدولة عليهم ، وكانوا يعترفون بشرعية الرياسة الإنسانية

(١) « نقل معاوية بيت مال الدولة (من الكوفة) إلى دمشق وزاد في عطاء أهل الشام وأنقض عطاء أهل العراق » هذا ما يقوله تيوفانيس (في أخبار حوادث سنة ٦١٥١ ، ٦١٥٢) .
(٢) وكانوا يفتخرون بأنهم لم يهاجروا إلى الشام حديثاً كالأمويين (الحماسة ص ٦٥٩ - بيت رقم ٥) .

القائمة ، ولم يمتحنوها بالرجوع إلى مقاييس القرآن وإلى المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الحكومة التيقراطية . وكانوا يطيعون أميرهم أينما وجههم ، لأنهم لم يكونوا في داخل أنفسهم يبالون بالإسلام أكثر مما يبالى هو نفسه . وقد أثبتوا أنهم كانوا من الناحية الحربية يفوقون العرب جميعاً ، ولا سيما أنهم لم يضعف تعودهم للحرب ، بل كانوا بسبب الحروب الدائمة مع الروم يتدربون تدريجاً منظماً . وقد كان معاوية من الحكمة بحيث حافظ على حماسهم وحميتهم ؛ وإن كان هو من حيث النسب ، قد كان أقرب لقيس منه لغيرها . ولم يكن الخلاف بين القبائل قد اتخذ في ذلك العصر صورة التنازع الحثيث بين الأحزاب السياسية . وكان معاوية يقيم في دمشق ، في المنطقة التي كانت تسكنها كلب ، غير بعيد من مقر ملوكهم السابقين . وتزوج امرأة من أشرف كلب ، وجعل ابنها يزيد وارثاً لعرش الدولة . وكان التصاهر ، بحسب تفكير العرب ، بمثابة التحالف السياسي . وقد تبين أيضاً أنه كذلك ، فكانت كلب كلها تشعر أنها أصهار للخليفة وأحوال لولى عهده^(١) . ولم يكن من الممكن أن يصبح عرب الشام الذين أدمجوا في الدولة العربية بعد الفتح في المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين ، ذلك أن دخول عرب الشام في الإسلام جاء مبكراً ، وكان لهم فيه نصيب من الاختيار ، وإن كان لإسلامهم قد كان مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة . ويستطيع الإنسان أن يفترض أن الصلة التي نشأت بين معاوية وبينهم أيام كان والياً كان لها أثر في علاقته بأهل الشام من غير العرب الذين ظلوا على النصرانية . ولا يبدو أن التعارض بين السادة والرعية كان في الشام على الحدة التي كان عليها في العراق . في أول الأمر . ولم يكن المسلمون في الشام يعيشون بمعزل وفي مستعمرات مخصصة لهم . بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد في المدن القديمة مثل دمشق وحمص .

(١) وكانت نائلة زوجة عثمان بن عفان من كلب أيضاً . ومن الجائز أن يكون الثأر لمقتل عثمان لقي قبولاً بين كلب نفسها لهذا السبب ، وأنه ربما بين أحضان معاوية .

وقتسرين وغيرها ، بل كانوا أحياناً يقاتلونهم بيتاً لله ، نصفه مسجد* ونصفه كنيسة . وكان التراث المسيحي في فلسطين والشام موضع تقدير كبير من جانب المسلمين (ديوان النابغة ، قصيدة رقم ١ بيت رقم ٢٤) . وكانت للشام في نظر المسلمين أيضاً أرضاً مقدسة : وفي بيت المقدس نصب معاوية نفسه خليفة ، وصلى بعد ذلك على جبل الجبلجلة ، ثم صلى عند قبر السيدة مريم . ولا يصح بطبيعة الحال أن يغالى الإنسان في تقدير ما لذلك من دلالة . وقد أظهر معاوية مقدار تهكمه واستهزائه لإزاء العقيدة المسيحية في أنه لما جاء إليه اليعاقبة والمارونية ليفصل ، بينهم في نزاعهم في العقيدة ، غرم اليعاقبيين ، بعد أن غلبوا أمام خصومهم ، عشرين ألف دينار ، أخذها منهم وأرسلهم . على أن معاوية لم يكن في قلبه تعلق عميق بالإسلام ، وكان ، من حيث هو سياسى ، متسامحاً مع رعاياه المسيحيين . وقد نال محبتهم وعرفانهم لفضله ، وكانوا يشعرون أنهم تحت حكمه في عافية لا تقل عما كانوا عليه تحت حكم الرومان ، وهذا ما يقينه الإنسان عن روح الروايات التى ترجع إليهم .

ويتكلم تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٧٠ لتاريخ الخليفة) عن رعاية معاوية للنصارى (σπουδῇ τῶν χριστιανῶν) ! وقد برهن عليها معاوية بأن بنى لأهل الرها كنيسة لهم التى هدمها الزلزال . وكان سرجون بن منصور من أكبر مستشاريه نقوذاً ، وقد أورثه ابنه يزيد ، وكان سرجون نصرانياً^(٣) . أما ما يروى من أن

(١) [بيت النابغة هو :

محلهم ذات الإله ودينهم قوم لما يرجون غير المواق
وهذا البيت قاله النابغة في مدح الحارث الأصغر الغساني معتزلاً له عما وثى به إليه من أمر المجرّة . ودلالة البيت على ما يقوله المؤلف غير دقيقة وغير كبيرة - المترجم] .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٢٠٥ و ٢٢٨ و ٢٣٩ . انظر أيضاً التنبية ص ٣٠٢ و ٣٠٧ .
٣١٢ . أما عند تيوفانيس في أخبار سنة ٦١٦٣ فنجد أن Σέργιος ὁ τοῦ Μανσουρ, ἀνὴρ (سرجيوس بن منصور ، الرجل النصراني) لا يذكر إلا في أيام عبد الملك =

معاوية استعمل والياً نصرانياً على خراج حمص فهو خير موضوع من غير شك^(١). ويستطيع الإنسان أن يأسف من أن معاوية ، بدلاً من أنه صار خليفة ، لم يقتصر على الشام فيؤسس هناك دولة وطنية ، ربما كانت تكون أثبت دعائم من تلك الدولة العالمية التي لانتمى إلى أمة معينة والتي انهار فيها سلطان العرب في المشرق . ويجوز أنه قد خطرت له هذه الفكرة ، لكنه أحس أن تنفيذها مستحيل ، لأنه كان لابد له في ذلك من أن يتصل من الإسلام وينضم إلى الكنيسة المسيحية ، وذلك أن الإسلام في ذلك الحين لم يكن يسمح بوجود دول خاصة .

وكان الثأر لمقتل عثمان هو الأساس الذي بنى عليه معاوية حقاً في وراثة الخلافة^(٢). أما بأى معنى قام بالثأر لعثمان فهو يتجلى في أنه من أجل ذلك اتحد مع عمرو بن العاص الذي ألب على عثمان أخبث تأليب . ولم تكن التقوى ولا البر بعثمان باعثاً لمعاوية ؛ وهو أيضاً لم يتبع سنة سلفه المقتول . ولقد قبل النتيجة الإجمالية لحكم عثمان ، وهي سيادة بنى أمية ، ولكنه لم يعط للأمويين جميع المناصب التي تدرّ المنافع . ولقد عمل محاولات باستعمالهم^(٣) ، لكنه كان في العادة

== قارن أيضاً الطبرى ج ٢ ص ٨٣٧ [إن سرجون بن منصور الروى كان كاتب معاوية وصاحب أمره ، وكان يستشير . ويذكر الطبرى أن يزيد بن معاوية كان يستشير أيضاً . وكتاب « التنبيه » الذي يذكره المؤلف هو كتاب التنبيه والإشراف للسعودى طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ م . وهو الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية - المترجم] .

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٦٥ [قارن الطبرى ج ٢ ص ٨٢ - المترجم] .
(٢) [ليراجع القارئ إلى جانب ما هو معروف في كتب التاريخ كتاباً كتبه معاوية إلى حلّ (الكامل للمبرد ص ١٨٤) ، وهو يبين موقف معاوية وموقف أهل الشام ، وفيه يطالب معاوية : ١ - بضرورة مناقبة قتلة عثمان . ٢ - بأن يكون أمر اختيار الخليفة بعد ذلك شور بين المسلمين . ويقول معاوية . ١ - إنه هو نفسه لم يبايع علياً ، ومن هذا الوجه لا يعتبر خارجياً عليه ، مثل طلحة والزبير ، ٢ - « إن أهل الشام لم يبايعوه ، فلا تلزمهم طاعته كما تلزم أهل البصرة . هذا ولا يدفع معاوية مكانة عليّ في الإسلام - المترجم] .

(٣) [جاء في الطبرى (ج ٢ ص ١٦٧) أن معاوية كان إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حرب ولاء الطائف ، فإذا رأى منه خيراً وما يعجبه ولاء مكة معها ، فإن أحسن الولاية جمع له معها المدينة . فهل المقصود من عبارة المؤلف مثل هذا أيضاً ؟ والمعروف أن معاوية يولى بعض الأمويين أمصاراً أخرى - المترجم] .

لا يلبث أن يعزظم : ولم تصبح دمشق مقرهم الرئيسي ، بل بقيت المدينة مقراً لهم . وبعد أن كانت المدينة حتى أيام معاوية عاصمة للدولة وجدت نفسها وقد رجعت إلى مركزها القديم ، شأنها في ذلك شأن الطبقة الأرستقراطية التي كانت لا تزال تقيم فيها . وقد جعل معاوية ولاية المدينة من نصيب الأمويين عادةً ، ولكن أين مران بن الحكم ، وهو في عهده أمير على المدينة ، من مروان ابن الحكم الذي كان في عهد عثمان كاتب الدولة ، الذي لا يخرج عن أمره شيء ! فلا عجب أن ينظر مروان بن الحكم إلى ابن عمه المقيم بدمشق والذي يظلمه بحجايته بعين غير عين الرضا ، وأن أقرباء معاوية في المدينة كانوا بالإجمال يطعنون عليه . وقد تجلبت روحهم خصوصاً في غيرتهم من زياد ، لأنهم كانوا يخشون أن تتجه إرادة معاوية إلى تقوية بيته على الأسرة كلها من طريق زياد وأن يجعل لزياد الخلافة من بعده . أما معاوية فقد حاول من جانبه أن يثير الشحنة بين فروع أسرة بني أمية في المدينة لكي يضعف بذلك من قوتهم (الطبري ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥) (١) . وأيضاً لم يصل الوثام بين معاوية وبين قريش بوجه عام إلى ما كان ينبغي أن يكون عليه . وقد اشتكى هو من ذلك ، وقال : إنه لم يؤخرهم إلا لأنهم انصرفوا عنه . وكانت العلاقات متوترة بينه وبين قبائل مخزوم خاصة ، وكان هؤلاء منذ زمان طويل يحقدون على بني أمية ، لأن بني أمية هم الذين زحزحوهم عن المحل الأول الذي لم يزل لهم في مكة حتى وقعة بدر . وقد فعل معاوية إلى جانب ذلك ما يجعل لبغضهم له سبباً خاصاً ، وذلك أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، صاحب المكانة الكبيرة ، كان عظيم الشأن في الشام ، وقد مال إليه

(١) [كان معاوية يُغري بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم . فكتب لأول ، وهو وال على المدينة ، يأمره بمصادرة أموال الثاني ، فلم يفعل ، فمزله . ثم ولي الثاني ، وأمره أن يصادر أموال الأول ، فلم يفعل ، وكتب لمعاوية يعبر من تعجبه من أنه يُضامن بعض الأمويين على بعض ، ويدخل بينهم القطيعة والشحنة — ويرد عليه معاوية متنصلاً من ذلك — المترجم] .

أهلها ، « لِمَا كَانَ عَنْدهم من آثار أبيه خالد بن الوليد ، ولعنتائه عن المسلمين في أرض الروم » وكان عاملاً على حصص ، في وسط الشام ، وكان له نفوذ كبير مستقل بذاته . فخافه معاوية وخشى على نفسه منه ، فأمر معاوية الطبيب النصراني ابن أثال أن يمتلئ في قتله ، وضمن له ، إن هو فعل ذلك ، أن يضع عنه خراج ما عاش ، وأن يوليه جباية خراج حصص . فلدس ابن أثال لعبد الرحمن شربةً مسمومة ، فشر بها فمات^(١) . ويستطيع الإنسان أن يتصور مبلغ تأثير ذلك في نفوس بني خزوم ، أما علاقة معاوية بأشراف المسلمين وببيت الرسول ، وبآل الصحابة الأولين وبالأنصار أيضاً ، فكانت بطبيعة الحال ، علاقة ريبة وعداوة :

أما كبار العمال الذين ولاهم معاوية أهم الولايات فلم يكونوا أمويين ، بل هم لم يكونوا من قريش ، إذا استثنينا واحداً منهم . وكان معاوية ثاقب النظرة في معرفة من يصلح لخدمته ، فكان يختاره لها ، وكان يعرف كيف يضم إلى جانبه من يعنيه أن يضمه وأن يرتبطه معه ، بل كان يعرف كيف يستخدم في أغراضه من يرتاب هوبه ، كما فعل بعمر بن العاص الذي كان وهو وال على مصر لا يشعر أنه عامل من قبيل معاوية بقدر ما كان يشعر أنه حليف له (الدينوري ص ٢٣٦)^(٢) . وتجسد أحياناً كثيرة لإحصاء خدمه وأصحاب

(١) [يذكر المؤلف دس السم لعبد الرحمن بن خالد بيد الطبيب النصراني دون أن يصرخ بأن ذلك كان بإيعاز من معاوية ، ثم يقول : وظن أن ذلك كان بإيعاز من معاوية . ولكن كيف يمكن تعليل حرص الطبيب على قتل عبد الرحمن بن خالد ، وقتل خالد ابنه للطبيب نفسه بعد ذلك . مهما يكن من شيء فالحكاية موجودة عند الطبري (ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣) ، وهي كما ذكرناها ، ويمكن للمؤرخ أن ينقدها . على أنه جاء في كتاب الأغاني (ج ١٥ ص ١٣) حكاية دس ابن أثال السم لعبد الرحمن وحكاية أن معاوية كان قد سأل أهل الشام فيمن يستخلفه عليهم ، فقالوا : عبد الرحمن بن خالد ، فسكت معاوية وأصمرها في نفسه . وقد حرص معاوية على قتل مالك الأشتر ، فقتله عامل خراج نصراني في مصر بدس السم له أيضاً - المترجم] .
(٢) [كتب معاوية إلى عمرو يطلب - نظراً لكثرة النفقات التي لا بد له منها - أن يعينه بخراج مصر ، فأجابه عمرو في أبيات شعرية : أنه لم يأخذ مصر لا ميراثاً ولا ولاية ، بل بشرط ، يقصد بطبيعة الحال اتفاقه مع معاوية على أن تكون له مصر طعمة ، نظير مساعدته لمعاوية على بني أبي طالب - المترجم] .

ثقتهم^(١) ، ومعظمهم يبدون رجلاً جُدداً (homines novi) ، وكان معاوية يشاورهم ، معتبراً إياهم مستشاريه (σύμβουλοι) ومعتبراً نفسه المستشار الأول (πρωτοσύμβουλος)^(٢) وعند الطبرى (ج ٢ ص ١٤٦ فما بعدها) مثال على ذلك . وقد كانوا يستطيعون أن يعارضوه ، وهم فعلوا ذلك أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٤٤ و ١٨٥) ولكن معاوية كان لا يدع الزمام يخرج من يده ، وكان يعرف كيف يهذب من يمنحهم شيئاً من الحرية : وكانت لا تغضبه خشونة الناس ولا ظهورهم بالانفعال المستعريف . وكانت شيمته هى شيمة السيد العربى ، من الطراز القديم . ولم يهبه الله الشجاعة العسكرية ، وإن كان لم يزل يوجه أهل الشام لقتال الروم قتالاً لم ينقطع . وبمقدار حرمانه من لشجاعة العسكرية توفرت له صفات أخرى من صفات السيد فى أعلى صورها : اللين الحكيم الذى كان يستطيع به أن يسجّر الخصم من سلاحه وأن يُخزّيه ، والحلم الكامل ، وضبط النفس فى أكل صورة . وتروى حكايات لا تخصى فى تصوير معاوية ، هو والأحنف بن قيس التيمى ، مثلاً أعلى لهذه الصفات . وكان الأحنف معاصراً لمعاوية ، وكان معاوية يقدره تقديراً عظيماً . فقد كان معاوية فى جوهر أمره رجلاً دبلوماسياً وسياسياً ، وكان يترك الأمور حتى تنضج ، ولم يكن يتعجلها إلا فى بعض الأحيان ، وربما استعمل دس السم فى الوصول إلى ما يريد . ولم يكن ينكر أن أصله من طبقة التجار ،

(١) الطبرى ج ١ ص ٣٢٧٢ و ٣٣٦٠ و ج ٢ ص ١٣٩ و ١٩٧ و ٢٠٥ و كتاب الأغاني ج ١ ص ١٢ .

(٢) نجد عند ثيوفانيس (فى أخبار سنة ٦١٦٩) هذه العبارات Μαύας καὶ οἱ συμβούλοι αὐτοῦ (معاوية ومستشاروه) (فى أخبار سنة ٦١٧١) Μαύας ὁ πρῶτος συμβούλος (معاوية المستشار الأول للمرب) . وقد انتقلت هذه التسمية إلى ما بعد أن فقدت مبررها بزمّن طویل ، حتى وصلت إلى الخلفاء العباسيين . ونجد عند ثيوفانيس (فى أخبار سنة ٦١٦٥) لقباً خاصاً δὲ δεύτερος ἀδελφός (الأخ الثانى) . وكان حاجب (Majordomus) ملك التبسط يسمى أخاه . وكان بعض كبار موظفى السلاوقيين يسمون أبناءهم ، فإذا كان هناك أكثر من أخ كان هناك ترتيب فى الدرجة .

وكان لا يلجأ إلى القوة إلا كارهاً . وقد استولى على العراق ، وهو لم يصل إلى ذلك من طريق فتحها بأكثر مما وصل إليه من طريق شرائها : وكان إذا استطاع أن يصل إلى غرضه بالمال لم يبعث به ولكنه كان لا يعطى شيئاً بدون غرض ، وربما كان يحد شيئاً من المنفعة في أن يخيب أمل من يطمع منه في كرم لا يعرف التمييز أو من يظن أنه يستطيع أن يخدعه . وفي رواية عن الشعبي ، وهو من أقدم الرواة ، عن قبيصة بن جابر الأسدي أنه قال : صحبت معاوية ، فما رأيت رجلاً أحب رفيقاً ولا أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان إذا استمع اتكأ ووضع إحدى رجليه على الأخرى وكسر عينه . ورغم أنه كان طويلاً مُسَمَّيًّا ، فإنه كان يبدو في عين العرب جميلاً مهيباً إذا لبس عمامته السوداء واكتحل^(١) . ويقول الواقدي إنه توفي يوم الخميس للنصف من رجب سنة ٦٠ هـ وهو يوافق ١٨ يولييه سنة ٦٨٠ م ويقول إلياس النصيبى (Elias Nisibenus) إن يزيد ابنه تولى الخلافة يوم الجمعة منتصف رجب ، أما أبو مخنف (الطبرى ج ٧ ص ٢١٦) فيقول إن ذلك كان في هلال رجب ، ويذكر أبو معشر أن مدة حكمه تسعة عشر عاماً وثلاثة أشهر ، ويزيد الواقدي على ذلك سبعة وعشرين يوماً : ودُفِنَ عند الباب الصغير في دمشق ، وكان على قبره بيت منبى . وظل يزار قروناً ، وكان قبره يفتح للزيارة كل يوم اثنين وخميس^(٢) .

٢ - ولما مات معاوية كانت مسألة من يخلفه مُسْتَدْرَكةً بالمتاعب ، كما هو

(١) [يجد القارئ الكثير ما يرجع إليه كلام المؤلف هنا عن معاوية والكثير من أخبار في كتب التاريخ ، خصوصاً عند الطبرى ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢١٦ والمسمودى في المروج ج ٢ ص ٥٤ فا بعدها من طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، وفي التنبية ص ٣٠٢ من الطبعة الأوروبية ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢ فا بعدها من الطبعة الأوروبية . وراجع فهرس الأغاني والكمال للبرد - المترجم] .

(٢) (المسمودى ج ٥ ص ١٤ . وقد لجأ الكيت الشاعر من غضب الخليفة هشام إلى قبر ابنه معاوية [أى معاوية بن هشام لا معاوية بن أبي سفيان كما يظن المؤلف - المترجم] (الأغاني ج ١٥ ص ١١٥ و ١١٧ و ١٢١) .

الحال دائماً . وقد عمل معاوية ، خلافاً لمن تقدمه ، على أن يذلّ المصاعب قبل ظهورها ، وكما أنه هو لم يربط أشراف العرب بنفسه إلا من طريق البيعة التي أخذها لنفسه منهم أنفسهم ، فإنه أراد أن يضعها ، وهو ما يزال حياً ، في أعناقهم لولده يزيد ليكون خليفة من بعده ؛ ولكنهم ، فيما علما أهل الشام بطبيعة الحال ، كانوا يأملون أن يُلَقَّوا بعد موته النير من على أعناقهم . وزعموا أنه بإرادته جعل الحكم وراثياً من الأب لولده ، على ما هو معروف عند الساسانيين والروم (١) ، إنما يرتكب بدعة منكورة . على أنه وإن كانت الرئاسة عند العرب تورث في داخل نطاق القبيلة أو العشيرة ، فإنها ليست وراثية في أفراد البيت الواحد من الأب إلى الولد . أما بحسب الإسلام ، فليست الرئاسة لبنى الإنسان على الإطلاق ، بحيث يدعون الحق في وراثتها . ورغم هذا ، فإن الضوضاء التي قامت حول ذلك لم تكن في حقيقة الحال مطابقة لسببها المزعوم ، وذلك أن حق الأمير في أن يعين من يخلفه بعد وفاته كان مقررّاً ، وحتى إذا كان الإبن ليس هو صاحب الحق في ذلك فإنه لم يكن بحال من الأحوال محروماً منه فأما الذي يظهر أنه لم يكن موجوداً فهو البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة ؛ ولكن المسلمين كانوا إذ ذاك في أوائل تاريخهم ولم يكن ثمَّ سنة مقررّة في هذا الباب على الإطلاق ، ولم يكن هناك أى نظام مقررّ لوراثته الخلافة .

أما رواية ما فعله معاوية ، وهو ما نجده عند ج. فايل (G. Weil) و أ. مولتر (A. Müller) ، فهو موجود عند ابن الأثير (ج ٣ ص ٤١٧ فما بعدها) على هذا النحو : كان ابتداءً أخذ البيعة ليزيد قد جاء من قبيل المغيرة بن شعبة ، وكان قصده المغيرة في الحقيقة سيئاً . فتقدأ بلغه ابن معاوية يريد عزله عن الكوفة ، فرأى أن يشخص إلى معاوية ويستعفيه ، لتظهر لمعاوية كراهته للولاية ولكي يستريب

(١) إن الأبيات المذكورة عند المسعودي (ج ٥ ص ٧١) تذكر بالأبيات التي قالها الخطيئة ضد أبي بكر .

معاوية من خروجه منها ، فبقيته في منصبه ، ثم دخل المغيرة على يزيد ففأخذه في وجوب عقد البيعة له ، وحدث يزيد أباه بذلك ، فأحضر المغيرة وسأله ، فعرض الفكرة ، وراقت الفكرة معاوية ، فأمره معاوية أن يرجع إلى عمله ويتحدث مع من يثق إليه في ذلك . فلما عاد المغيرة إلى الكوفة قال لمن كان ينتظر نتيجة سعيه للبقاء في الولاية : « لقد وضعت رجل معاوية في عزز بعيد الغي على أمة محمد ، وفتقت عليهم فتقاً لا يترتق أبداً » . ولكن لم يلبث أن جاء إلى دمشق وفد من رجال الكوفة : كان المغيرة قد أعطاهم شيئاً من المال ، يطالبون بعقد البيعة ليزيد^(١) . ولكن معاوية أثر الأناة وكتب إلى زياد يستشير ، فاستشار زياد عبيد ابن كعب النخعي ، وقال له : إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه قد عزم على بيعة يزيد ، وهو يتخوف نفرة الناس . ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به الصيد . ثم طلب زياد من عبيد بن كعب أن يلتقي معاوية ويخبره عنه بأحوال يزيد ويوصيه بالأناة في الأمر ، فإن ذلك أجدر أن يحقق لمعاوية ما يريد . فقال له عبيد : لا تُفسد على معاوية رأيه ولا تُمنق إليه ابنته ! واقترح عبيد أن يلقي يزيد سرّاً وينصح له بترك ما ينقم عليه الناس من أجله ، حتى تستحكم الحجة لمعاوية عليهم . وأراد عبيد بذلك أن يرضى معاوية وأن ينصح ليزيد . وقد قبل زياد هذه المشورة وعمل بها ، فبعث عبيد بن كعب إلى دمشق ، وكتب هو إلى معاوية يقترح عليه التوادة : على أن معاوية لم يكشف عن نيته إلا بعد موت زياد ، وبدأ باستطلاع الجوّ في المدينة ، وعلى عاصمة الإسلام الأولى التي كانت لا تزال تعتبر المكان الحقيقي للبيعة ، وخصوصاً أن كبار المسلمين

(١) [جاء على رأس الوفد موسى بن المغيرة أو أخوه عروة . فقاموا خطباء وتكلموا معربين عن حرصهم على وحدة أمة محمد وعما يجب على معاوية ، وقد كبر ، من تعيين خلف له ، لكن لا ينتشر عقد الأمة ، ثم أشاروا بيزيد . وسأل معاوية موسى أو عروة ، بعد أن تكلموا : بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ قال : بكلاً ، قال معاوية : لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً - المترجم] .

الذين كان لابد أن تؤخذ منهم البيعة قبل غيرهم كانوا يسكنون فيها ،
فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم ، عامله على المدينة : إني قد كثرت
سنتي ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي ، وقد رأيت
أن أتخييرهم من يقوم بعدي وكرهت أن أقطع دون مشورة من عندك ،
فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك . فلما عرض مروان
عليهم الأمر قالوا : أصاب ووفق ، وقد أحببنا أن يتخيير لنا ، فلا
يألو . وكتب مروان إلى معاوية بما قالوه ، فرد معاوية عليه ، وذكر حرمة
على اختيار يزيد خليفة بعده . فلما أبلغ مروان كبار أهل المدينة بدأت
مظاهر الاعتراض والنقد من جانبهم ، وكان الاعتراض آتياً من قبيل
أبناء كبار الصحابة خاصة ، كالحسين بن علي وعبد الله بن عمر
وعبد الرحمن بن أبي بكر^(١) وعبد الله بن الزبير . ولكن معاوية لم يتراجع
عما أراد ، فكتب إلى عماله أن يوفدوا الوفود من ذوى النباهة من جميع
الأمصار إلى دمشق ، وخطب فيهم مخاطباً أمر الإسلام ومتكلماً بوجه
عام في حرمة الخلافة وحقها وفيما يجب على الرعية من طاعة أولى الأمر ،
ثم ذكر فضل يزيد وصفاته وعلمه بالسياسة وعرض بيعته . وكان
معاوية قد أوعز من قبل إلى رجل منهم لكي يتكلم بعده ويدعوه إلى
بيعة يزيد ويحثه عليها : فقام الضحاك بن قيس القهري وغيره ،
فتكلموا وخلصوا إلى الغاية التي عرض بها معاوية دون أن يصرح
بها ، وطلبوا بأخذ البيعة ليزيد . ولم يتند منهم إلا الأحنف ابن قيس ،
فتكلم معبراً عن ارتيازه^(٢) : ولكن الذهب محى ما كان للكلامه .

(١) [لما أبلغ مروان بن الحكم كبار أهل المدينة عن معاوية أنه اختار فلم يأل وأنه
عزم على استخلاف يزيد بعده ، قال عبد الرحمن بن أبي بكر : كذبت والله يا مروان ، وكذب
معاوية ! ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل
قام هرقل - المترجم] .

(٢) [تكلم من تكلم منهم في وجوب صون وحدة الأمة من الفرقة وسفك الدماء وفي
صفات يزيد ، غير الأحنف بن قيس فإنه لما سأله معاوية : ما تقول ؟ أجاب : تخاذكم إن =

من أثر . وتلقى يزيد بيعة الوفود ، ولم تبق إلا بيعة أهل الحجاز : فركب معاوية بنفسه إلى هناك في ألف فارس ، فلما وصل إلى المدينة خرج النفر الممتنعون الذين كان يتهمة أن يأخذ البيعة منهم خاصة ، فيمن خرج للقائه ، فاستقبلهم بكلام شديد جارح ، فخرجوا إلى مكة : فسار وراءهم ، فلما خرجوا للقائه بمكة كلمهم كلاماً ليناً رقيقاً وأكرمهم ووصل كلاً منهم بصلات . ولكنه لم يستطع أن يبلغ ما أراد إلا آخر الأمر عندما قرب مسيره إلى الشام . وقد حاول أن يبين لهم أنه لا يضيرهم كثيراً أن يكون يزيد خليفة من حيث الاسم ، وأن يكونوا هم الذين يتمتعون بالحكم من حيث الحقيقة والواقع : فسكتوا طويلاً ، وتكلم ابن الزبير آخر الأمر ورفض باسمهم جميعاً ما يريده معاوية منهم (١) . عند ذلك قال معاوية : « إني قد أحببت أن أتقدم إليكم ، إنه قد أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب منكم ، فيقوم إلى القائم منكم ، فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحل ذلك وأصفح ، وإني قائم بمقاله ، فأقسم بالله لئن ردّ عليّ أحد كلمة في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرُها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه » ، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال : « أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يردّ على كلمة بتصديق أو تكذيب فليقتله به بسيفهما ! » . ثم خرج ، وخرجوا معه حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن هؤلاء الرهط ، سادة المسلمين وخيارهم ولا يُستتر أمرٌ دونهم ولا يُقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد ، فبايعوا على اسم الله ، فبايع الناس عند ذلك ، وكانوا يتربصون بيعة أولئك النفر » . وسكت الأربعة الكبار خوفاً على أنفسهم

== صدقنا ونخاف الله إن كذبنا ! وأنت يا أمير المؤمنين أعلم يزيد في ليله ونهاره وسره وعلايته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه الله تعالى وللأمة رضى ، فلا تشاور فيه ؛ وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت ضائر إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول : سمنا وأطعنا - المترجم] .

(١) انظر ما يلى ص ١٤٠ - ١٤١ هامش .

من القتل ، وأقروا معاوية على كذبه ؛ فخرج معاوية إلى المدينة وأخذ فيها أيضاً البيعة ليزيد .

هذه رواية مصنوعة صنعاً ماهراً : أما ما يروى من أن المغيرة كان أول من بعث فكرة مبايعة يزيد ، وأن عبيد بن كعب النميري أشار على زياد بأن لا يعارض معاوية ، فإن المدائني يحكيه لنا أيضاً ، وحكايته موجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٣ فما بعدها) في حوادث السنة التي يذكرها ابن الأثير . أما فيما يتعلق باجتماع وفود الأمصار عند معاوية لمبايعة يزيد فلا نجد عند الطبري من ذلك شيئاً ، وهو لا يذكر (ج ٢ ص ١٩٦) إلا مجيء وفد من البصرة على رأسه عبيد الله بن زياد ، وأن معاوية أخذ من الوفد البيعة لابنه يزيد ، ولكن الطبري يذكر ذلك في حوادث سنة ٦٠ هـ ، وهي السنة التي مات فيها معاوية . ويظهر أن حكاية مجيء هذا الوفد البصري صارت فيما بعد حكاية أعم ، فأصبحت تذكر بالنسبة لوفود أخرى ، وقد تم تأريخها . ونجد ما يدل على مرحلة الانتقال إلى هذا التعميم عند المسعودي (١) . أما الحادث الجوهري الطريف الذي تصل فيه رواية ابن الأثير إلى ذروتها ، أعنى ظهور معاوية بنفسه بهذا المنظر العنيف في الحجاز ، فهو مجهول تماماً في الروايات القديمة (٢) (ولا يعرفه المسعودي أيضاً) . ولا نجد عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥ نقلاً عن المدائني) أكثر من أن معاوية بعد وفاة زياد دعا بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد ، إن حدث به حدث الموت ، فيزيد ولي العهد ؛ فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر (٣) ؛

(١) جزء ٥ ص ٦٩ ، ويذكر أن ذلك كان في سنة ٥٩ هـ . ويجب تصحيح كلمة : الأنصار ، في كلام المسعودي ، بجعلها : الأمصار .

(٢) [على أنه عند الطبري (ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٧) رواية مؤجلة تدل بلا شك على أن معاوية قدم الحجاز وتكلم مع النفر الممتنعين عن بيعة يزيد ، مع كل منهم على حدة ، في البيعة ليزيد . وهذه الرواية تصور دهاء معاوية ، لأنه أفهم كلا منهم أنه معارض وأنه يتزعم الآخرين وحصل منه على الوعد بالبيعة إن هم بايعوا - المترجم] .

(٣) الخامس ابن عباس ؛ وكان لا بد من أخذ البيعة منه . والمدائني من الموالين المخلصين لبني هاشم .

ولا يُذكر مكان قراءة هذا الكتاب ، ولا يذكر زمانه ، لأن عبارة : بعد وفاة زياد ، لا تدل إلا على مجيء حادث بعد حادث ، والغالب أن ذلك حدث في دمشق . وعند الطبري (ج ٢ ص ١٩٦) ، إلى جانب ما تقدم ، أن معاوية في سنة ٦٠ هـ أخذبيعة وفد البصرة ليزيد^(١) ، وعهد إليه بما يجب عليه أن يصنع بالفرس القرشيين الأربعة الذين امتنعوا عن البيعة^(٢) : ويحكى حوالة أن معاوية أوصى بما عهد به ، وكان يزيد غائباً ، إلى الضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عقبة المرى . فاستطاع على هذا أن يفترض أن معاوية حفظ مخطتته زماناً طويلاً في نفسه ، وحاول في أواخر حياته تنفيذه : ولكن ذلك لم يُجند نفعاً عند الأشخاص الذين كان الحصول على موافقتهم وبيعهم أهم ما في الأمر ، ذلك لأنهم ، بحسب

- (١) [قدم هذا الوفد مع عبيد الله بن زياد كما تقدم - المترجم] .
 (٢) [قال معاوية في وصيته لابنه : « يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء ، وذلت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد . وإني لا أخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قریش : الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وثقته العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً . وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همة إلا في النساء واللاهو . وأما الذي يحتم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ؛ فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً » (الطبري ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٧) . ونجد عند الطبري وصية معاوية لابنه في صورة أخرى نقلها عن حوالة (ج ٢ ص ١٩٧ - ١٩٨) . وفيها يوصيه بإكرام أهل الحجاز وبلاستجابة لأهل العراق كلما طلبوا عزل وال ، ولو طلبوا ذلك كل يوم ، تفاديا للثورة من جانبهم ، وبأن يتخذ أهل الشام بطانة وعدة لنفسه ، لينتصر بهم ، وبأن يرجعهم إلى الشام إذا انتصر على عدوه لكيلا يأخذوا بغير أخلاقهم . ثم يعرب معاوية عن خوفه من قرشين ثلاثة : الحسين بن علي وهو رجل خفيف يرجو معاوية أن يكفيه الله يزيد بمن قتل أباه وخذل أخاه ، يعني أهل العراق ، ويوصي معاوية ولده بمراعاة حقه ورحمة الصنف عنه ؛ وعبد الله بن عمر ، وهو رجل قد وثقته الدين ، فليس ملتصقاً شيئاً ؛ وعبد الله بن الزبير ، وهو خب صب ، لا بد من الرصد له ، إلا أن يلتصق صليحاً . ويوصي معاوية ولده أن يقبل منه الصالح ، وأن يحتمن دماء أهل الشام ما استطاع - المترجم] .

الإسلام، كانوا أحق بالخلافة من يزيد، أما ما عدا ذلك فليس بمقبول قط (١)، ولا يبد وأنه مما يتفق مع شيمة معاوية، وهو السيد الحليم ذوالسنن، أن يذهب إلى الحجاز في فترة يسود فيها السلام، على رأس ألف فارس لكي يعامل القرشيين الأربعة تلك المعاملة الفظة، ثم يبدلهم ويتودد إليهم، ثم يأخذهم بالعنف آخر الأمر (٢)، ولا يصل بعد ذلك كله إلى شيء في الحقيقة : لأنهم هم أنفسهم — وكانوا أهم من كل من عداهم — رفضوابيعة يزيد رفضاً باتاً. أما القول بأنه دخل مكة على رأس قوة مسلحة، وفي مكة لا في المدينة أخذ البيعة، فهو قول أبعد ما يكون عن الإمكان. والكلمات والمناظر المسرحية التي قد زُيّنت بها القصة لا تجعلها أقرب إلى التصديق. ويبدو أن كل الرواية التي تقدم ذكرها لا تعدو أن تكون ظلاً قد أرسل مقدماً للحوادث التي وقعت في أول خلافة يزيد، وسننتقل إلى الكلام عنها.

(١) [راجع ما تقدم ذكره من أن الطبري يحكى ما يدل على ذهاب معاوية إلى الحجاز وكلامه مع النفر الممتنعين. والشاك جازز في مظهر العنف الذي يحكى ابن الأثير أنه ظهر به معاوية في الحجاز. واللى يتحصل مما عند الطبري وما عند ابن الأثير : هو أن معاوية قدم إلى الحجاز، وأنه تكلم مع النفر الممتنعين، لكن ابن الأثير ينفرد بحكاية التدخل العنيف — المترجم].

(٢) [يذكر ابن الأثير أن معاوية لما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي أول الناس، فلما نظر إليه قال : لا مرحباً ولا أهلاً، بدنة يترقرق دمه، والله مهريقه، فقال الحسين : مهلاً، فإني والله لست بأهل لهذه المقالة، فقال معاوية : بلى ولشر منها. ولقيه ابن الزبير. فقال : لا مرحباً ولا أهلاً، خب ضب، يدخل رأسه ويضرب بذنبه، ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه... ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال له معاوية : أهلاً ولا مرحباً، شيخ قد حُرف وذهب عقله. ثم فعل بآبن عمر مثل ذلك. فأقبلوا معه، لا يلتفت إليهم، حتى دخل المدينة، فحضرها بابيه، فلم يؤذن لهم، على منازلهم، ولم يروا منه ما يحبون، فخرجوا إلى مكة وأقاموا بها... ثم خرج معاوية إلى مكة، فلقى الناس، فقال أولئك : فتلقاء، فلمعه قد قدم على ما كان منه... فكان أول من لقيه الحسين، فقال له معاوية : مرحباً وأهلاً يا ابن رسول الله وسيد شباب المسلمين، وأمر له بدابة فركب وسايره، وفعل معاوية مثل ذلك بالباقيين، وأقبل يسايرهم، لا يسير معه غيرهم، حتى دخل مكة، فكانوا أول داخل وآخر خارج، ولا يمضي يوم إلا ولهم صلة... حتى قضى معاوية نسكه وحمل أنثاله، وقرب مسيره، فقال بعض أولئك النفر لبعض : لا تتخذوا، فما صنع بكم هذا الحبحم. وما صنعه إلا لما يريد، فأعيدوا له =

يحكى أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٢١٦ فما بعدها) أن يزيد بعد أن تولّى الخلافة هلال رجب سنة ٦٠ هـ كتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة ، يخبره بموت أبيه ، وأمره في هذا الكتاب (١) ، الذى كان صغيراً حتى كأنه أذن فأرة ، بأن يأخذ الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن الزبير - ولا يذكر في خطاب يزيد إلا هؤلاء الثلاثة - بالبيعة أخذاً شليداً ليست فيه رخصة ، حتى يبايعوا . فاستشار الوليد مروان بن الحكم ، رغم أن ما بينهما كان متباعداً ، فأشار مروان بالمبادرة إلى دعوة النفر الممتنعين ، خصوصاً الحسين وابن الزبير ، إلى البيعة والدخول فى الطاعة ؛ فإن فعلوا قبل ذلك منهم ، وإن أبوا قُدموا فضرِبَتْ أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ؛ فلمهم إن علموا به من غير مبايعة وثب كل مرئ منهم فى جانب وأظهر الخلاف والمنازعة ودعا إلى نفسه . أما عبد الله بن عمر فلم يعتبره مروان مصدر خطر ، ورأى أنه يظن أنه لا يميل إلى القتال ، وهو لا يحب أن يؤتى على الناس إلا أن

جواباً ، واتفقوا على أن يكون الخطاب له ابن الزبير ، فأحضرهم معاوية وقال : « قد علمت سيرة فيكم ، وصلى لأرحامكم ، وحمل ما كان منكم . ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجيئون المال وتقسمونه ، لا يعارضكم فى شيء من ذلك » فسكتوا ، فقال « ألا تجيبون ؟ » مرتين ، ثم أقبل على ابن الزبير فقال له : هات ! لعمري إنك خطيبهم ، فقال ابن الزبير : « نخيرك بين ثلاث خصال ... تصنع كما صنع رسول الله صلعم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر » ، قال معاوية : ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلعم ولم يستخلف أحداً ، فارتضى الناس أباً بكر . قال معاوية : « ليس فيكم مثل أبى بكر ، وأخاف الاختلاف » ، قالوا : « صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه ههد إلى رجل من قاصية قریش ، ليس من بنى أبيه ، فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ، ليس منهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه » ، قال معاوية : هل عندك غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال ، فأنتم ؟ قالوا : قولنا قوله ، قال : فإني قد أحبيت ... الخ كما فى ص ١٣٧ ما تقدم - المترجم] .

(١) [يؤخذ من الطبرى : ج ٢ ص ٢١٦ ، أن يزيد كتب عدا الكتاب الذى فيه نعى أبيه للوليد ، صحيفة أخرى خاصة بأخذ البيعة من الثلاثة القرشيين - المترجم] .

يُدْفَعُ إِلَيْهِ هَذَا الْأَمْرُ عَفْوَاً (١) : وَلَكِنْ الْوَلِيدُ كَانَ رَجُلًا يَحِبُّ الْعَافِيَةَ ،
فَأَرْسَلَ الْوَلِيدَ يَدْعُو الْحُسَيْنَ وَابْنَ الزُّبَيْرِ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَجْلِسْ فِيهَا لِلنَّاسِ ،
فَصَرَفَا رَسُولَهُ ، وَتَكَلَّمَا فَاسْتَنْتَجَا أَنْ مَعَاوِيَةَ قَدْ مَاتَ ، وَأَنَّ الْوَلِيدَ
يَدْعُوهُمَا لِلْبَيْعَةِ قَبْلَ أَنْ يَفْشَوْا فِي النَّاسِ خَبْرُ مَوْتِ الطَّائِفَةِ . ثُمَّ ذَهَبَ
الْحُسَيْنُ إِلَى الْوَلِيدِ فَأَقْرَأَهُ الْوَلِيدَ كِتَابَ يَزِيدَ وَدَعَاهُ إِلَى الْبَيْعَةِ ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ :
إِنْ مِثْلُهُ لَا يُعْطَى بِبَيْعَتِهِ سِرًّا ، بَلْ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ عِلَانِيَةً ، وَاقْتَرَحَ عَلَى
الْوَلِيدِ أَنْ يُخْرِجَ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهَا مَعَهُمْ ، فَرَضَى الْوَلِيدُ
بِذَلِكَ . وَأَرَادَ مَرُوانُ أَنْ يَقْنَعَ الْوَلِيدَ بِحَبْسِ الْحُسَيْنِ حَتَّى يَبَايَعَ أَوْ يَضْرِبَ عُنُقَهُ ،
فَأَيَّ الْوَلِيدَ ذَلِكَ وَاسْتَقْبَحَهُ . أَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ الْوَلِيدُ جَعَلَ يَتَلَكَّأُ ،
حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ لَيْلًا . فَبَعَثَ الْوَلِيدُ إِلَى الْحُسَيْنِ ، فَاسْتَمَهَلَ الرِّسْلَ
حَتَّى الصَّبَاحَ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي اللَّيْلِ ، بَعْدَ ابْنِ الزُّبَيْرِ بَلِيلَةً ، وَذَهَبَا
إِلَى مَكَّةَ فِي آخِرِ رَجَبِ سَنَةِ ٦٠ هـ (أَوَّلُ مَآيُو سَنَةِ ٦٨٠ م) . عَلَى أَنَّ
الْوَاقِدِي (الطَّبْرِي ج ٢ ص ٢٢٢) بَعْدَهَا (يَحْكِي أَنَّ ابْنَ عُمَرَ لَمْ يَكُنْ فِي
الْمَدِينَةِ لَمَّا وَرَدَ نَعْيُ مَعَاوِيَةَ ، وَأَنَّهُ لَمَّا عَادَ إِلَيْهَا أَنْتَظَرَ حَتَّى جَاءَتْ الْبَيْعَةُ مِنَ
الْبِلْدَانِ ، فَقَدِمَ إِلَى الْوَلِيدِ وَبَايَعَهُ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَكَانَ الرَّأْيُ
هُوَ أَنَّ تَجْتَمِعُ كَلِمَةُ الْأُمَّةِ اجْتِمَاعًا حَقِيقِيًّا .

وَطَبِيعِي أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ عُرِّلَ الْوَلِيدُ بْنُ عَتَبَةَ عَنِ الْمَدِينَةِ ، فَحُلَّ مَحَلَّهُ أُمُومِيٌّ
آخَرُ ، هُوَ عُمَرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ، وَكَانَ حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ لَا يَزَالُ بِمَكَّةَ . وَيَحْكِي

(١) [كَانَ مَعَاوِيَةُ صَادِقَ النَّظَرِ فِي ابْنِ عُمَرَ عِنْدَ مَا قَالَ إِنَّهُ رَجُلٌ قَدْ وَقَدَتْهُ الْعِبَادَةُ ،
فَلَيْسَ مُلْتَمَسًا شَيْئًا . وَفِي الطَّبْرِيِّ (ج ٢ ص ٢٢٣) أَنَّهُ لَقِيَ الْحُسَيْنَ وَابْنَ الزُّبَيْرِ ، وَهُمَا فِي
طَرِيقِهِمَا إِلَى مَكَّةَ ، فَسَأَلَهُمَا : مَا وَرَاءُكُمَا ؟ فَقَالَا : مَوْتُ مَعَاوِيَةَ وَالْبَيْعَةُ لِيَزِيدَ ، فَقَالَ لَهَا : اتَّقِيَا
اللَّهَ وَلَا تَفْرَقَا كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ . وَجَاءَ فِي كِتَابِ الْأَغَانِي (ج ١ ص ١٢) أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَسَّطَ صَفِيَّةَ
زَوْجَةَ ابْنِ عُمَرَ لَدَى زَوْجِهَا لِكَيْ يَبَايَعَ ابْنَ الزُّبَيْرِ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ لَزَوْجَتِهِ لَمَّا أَكْثَرَتْ الْكَلَامَ
فِي ابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَنَّهُ إِنَّمَا أَتَشَقُّ عَلَى بَنِي أُمِّيَّةَ غَضَبًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُهَاجِرِينَ : أَمَّا رَأَيْتِ بَغْلَاتِ
مَعَاوِيَةَ الشَّهْبَ الَّتِي كَانَ يَحِجُّ عَلَيْهِنَ فَإِنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ مَا يُرِيدُ غَيْرَهُنَّ . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ حَرِيصًا عَلَى
جَمْعِ كَلِمَةِ الْأُمَّةِ وَمُسْتَعْدًّا لِلْبَايَعَةِ لِيَزِيدَ إِذَا بَايَعَهُ النَّاسُ - الطَّبْرِيُّ ج ٢ ص ٢٢٢ - الْمُرْجَمُ] .

الواقدي أن ذلك وقع في رمضان سنة ٦٠ هـ ، ويروي آخرون غير الواقدي أنه وقع في ذي القعدة (الطبري ج ٢ ص ٢٢٦) .

ورضى الحسين أن يستخرجه أهل الكوفة من مأمنه في مكة^(١) ، وذلك أنهم ألحوا عليه بالكتب والرسل في أن يقدم إليهم ويتقبل بيعتهم ، ووصل إليه أول رسلهم بكتاب منهم في العاشر من رمضان سنة ٦٠ هـ . فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل قبل أن يذهب هو ، وذلك لكي يرى صدق ما كتبوا به له ولكي يمهّد له الأمر . ولم يلبث حين وصل أن دبّ إليه أهل الكوفة وبايعه منهم عدد كبير (اثنا عشر ألفاً) ، ولكنه لما وجد نفسه ، قبل أن يستحكم له الأمر ، مضطراً إلى قتال عبيد الله بن زياد - وكان يزيد قد عينه والياً جديداً على الكوفة مكان النعمان بن بشير الذي عزل ، لأنه كان حليماً ناسكاً يحب العافية ويكره العنف - نادى بشعاره ، فاجتمع له من أهل الكوفة أربعة آلاف ، وقصد القصر الذي فيه عبيد الله بن زياد ، وكان عبيد الله قد جمع وجوه أهل الكوفة عنده ، فلما وصل مسلم إلى القصر ، ومعه أنصاره من أهل الكوفة ، أشرف وجوه أهل الكوفة على عشائريهم وجعلوا يكلمونهم ويصرفونهم عن مسلم . فأخذ أصحابه يتسلسلون من حوله ، حتى أمسى ومعه خمسمائة ، فلما اختلط الظلام ذهبوا أيضاً ، وبقي وحده . يستردّد في الطرق : ثم آوته امرأة كان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث ، فعرف أمره ، وانطلق إلى ابن الأشعث ، فأخبره بأمر مسلم ، وبعث عبيد الله صاحب شرطته ومعه رجاله ، فأحاطوا بالدار ، فخرج إليهم مسلم وقتلهم قتال الأبطال وردّهم مرتين ، وهو يقول :

(١) [راجع فيما يتعلق بهذا وبما يلي من مقتل الحسين الطبري ، (ج ٢ ص ٢٢٧) فأبعدها إلى ص ٣٩٠) ، ومروج الذهب للمسعودي (ج ٢ ص ٨٦) فأبعدها من طبعة القاهرة : ١٣٤٦ هـ - المترجم] .

أقسم لا أقتل إلا حرّاً (١) وإن رأيت الموت شيئاً مُراً
كلُّ امرئ يوماً ملاقٍ شراً أخاف أن أكذب أو أغترأ

وبارزه من المحيطين بالدار بكبير بن حمران ، فجرح كل منهما صاحبه :
ثم أُعطي له الأمان ، وأُخذ إلى عبيد الله مُجَرِّداً من سلاحه ، فأسلمه
لبكير بن حمران ، فذبحه فوق القصر ورمى رأسه إلى الأرض وألقها بجثته :
وفعل عبيد الله مثل ذلك بعروة بن هاني المرادي الذي كان أراد نُصْرَةَ
مسلم : وأرسل عبيد الله بن زياد رأس مسلم إلى دمشق ، وصُلِبَتْ جثته
في الكوفة ، فكان أول رأس أُرسِل إلى الشام وأول جثة صُلِب من
بني هاشم : وهكذا انتهى أمره نهاية محزنة في ٨ أو ٩ من ذى الحجة :
وفي نفس الوقت ، في الثامن من ذى الحجة ، خرج الحسين بن علي من مكة
مع أهله وولده ، رغم نصيحة أخيه وأهله له ألاَّ يُغرَّرَ بنفسه ثقةً بأهل
الكوفة الذين خانوا أباه وأخاه من قبل . وكان قد شجّعه ما كتب به إليه
مسلم في الشطر الأول من مهمته ، يخبره ببيعة اثني عشر ألفاً ، ويطلب إليه
القدوم إلى الكوفة : ولقد علم الحسين ، وهو في طريقه ، بالنهاية التعمسة التي
انتهى إليها مسلم ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع ، أو هو لم يرد أن يرجع ،
[فقتل وهو يُقاتل جنود الكوفة في كربلاء على نهر الفرات في اليوم العاشر
من المحرم سنة ٦١ هـ (١٠ أكتوبر سنة ٦٨٠ م) . وهكذا انتهت خطة
الثورة انتهاءً مؤلماً . ولكن استشهاد الحسين كان له شأن معنوي كبير ، وكان
له تأثير عظيم عند الشيعة (١) .

أما ابن الزبير فقد أثبت أنه أخطر من الحسين بكثير . وقد قرت عينه بخروج
الحسين من مكة ، لأنه تخلص بذلك من منافس أعظم منه في أعين الناس (٢) :

(١) راجع ما كتبنا عن الشيعة Schia § 2 p. 60-71.

(٢) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - المترجم] .

وقد أشفق يزيد من أن يسجد في قتال ابن الزبير ، لأنه كان عائداً بمكة ،
وهي المدينة الحرام التي لا يصح فيها القتال وسفك الدم . على أن الروايات ،
فيما يتعلق بمسلك يزيد إزاء ابن الزبير ، ناقصة مضطربة .

ويحكى أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٣٩٥ فما بعدها) في أخبار سنة ٦١ هـ
(وهي تبدأ في أول أكتوبر سنة ٦٨٠ م) ، وهي السنة التي كان فيها عمرو
ابن سعيد والياً على المدينة^(١) ، ما يأتي :

استغل ابن الزبير مقتل الحسين للتشجيع على أهل الكوفة وعلى حكومة
بنى أمية وللتعريض بيزيد . وكان يبائع الناس سرّاً ، فطالبه أصحابه أن يُظهر
البيعة ، خصوصاً بعد مقتل الحسين وعدم وجود منازع ، فلم يرض بذلك
إلا سرّاً ؛ أما علانية فكان يظهر أنه عائداً بالبيت . ولما سمع يزيد بما يصنعه
ابن الزبير في مكة أعطى الله عهداً ليوثقته في جامعة (سلسلة) ، ولكنه
فكر كيف يبرّ بقسمه ، فأرسل إلى ابن الزبير سلسلة من فضة يضعها حول
عنقه . فلما مر بها البريد على مروان بن الحكم في المدينة تمثل مروان ببيت
من الشعر لكي يصور قبول السلسلة دليلاً على الضعف . وعلم ابن الزبير
بذلك ، فرد البريد ورفض السلسلة . وعلا أمره في مكة ، وكاتبه أهل
المدينة ، وقال الناس إنه بعد مقتل الحسين ليس لأحد أن ينازع ابن الزبير ،
فهو الأحق بالخلافة .

وفي رواية ترجع إلى الزهري (الطبرى ج ٢ ص ٣٩٧ فما بعدها) أن أربعة

(١) لا يمكن أن تنهض رواية أبي مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٢٨٠ س ٨ و ص ٣٩٧
س ٢) ، وهو بالجملة وفيما يتعلق بتحديد التواريخ ليس بالقوى ، تخالفة للتواريخ المحددة التي
يذكرها الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٢٢٣ فما بعدها و ص ٣٩٩) . وأبو معشر (الطبرى
ج ٢ ص ٣٩٥) وكاترمير (Quatremère) على صواب ، خلافاً لما يقوله فايل (Weil 1,325)
حل أنه من الجائز أن يكون عمرو بن سعيد لم يأت بعد الوليد بن عقبة مباشرة (الدينورى
ص ٢٤٣ س ٢ و ٣) .

رُسِّلَ ، منهم عبد الله بن عضاة الأشعري وعبد الله بن مسعدة ، حملوا تلك
« الجامعة » المكونة من قطع من الورق (العملة الفضية) . فأرسل مروان
ابن الحكم ولديه عبد الملك وعبد العزيز مع الرسل من مكة إلى المدينة ،
وأمرهما ، إذا وصلت إلى ابن الزبير رُسِّلَ يزيد ، أن يتعرضا لابن الزبير
ويتمثل أحدهما أمامه بأبيات من الشعر تدل على أن قبوله للسلسلة علامة على
الدُّل ، وهي :

فَمَخَذُهَا ، فَلَيْسَتْ لِلْعَزِيزِ بِخَطَّةٍ وفيها مقال لامرئ متفذل
أَعَامَرَ إِنْ الْقَوْمَ سَامَوْكَ خَطَّةً ومالك في الخبر أن عدل مُعَدَّل
[أَرَاكَ إِذَا مَا كُنْتَ لِلْقَوْمِ نَاصِحًا] يُقَالُ لَهُ بِاللُّثُو : أَدْبَرُ وَأَقْبَل
ففعلا ؛ وفهم ابن الزبير مغزى الأبيات ، فقال للغلامين ؛ أخبرا أباكما :
إِنِّي لَمِنْ تَبِيعَةِ صُمِّ مَكَاسِرُهَا إذا تناوحت القصباءُ والعشرُ
فَلَا أَلَيْنَ لَغَيْرِ الْحَقِّ أَسْأَلُهُ حتى يلينَ لضِرْسِ الْمَاضِغِ الْحَجَرِ (١)

ويذكر وهب بن جرير أيضاً في رواية له في كتاب الأغاني (ج ١ ص ١٢)
هذين الرسولين اللذين تقدم ذكرهما : ويستطيع الإنسان أن يخلص من هذه
الرواية إلى أن الكلام فيها عن الحادث نفسه ، وإن كان يُحكى على نحو آخر
مختلف كل الاختلاف ، وإن كانت السلسلة الفضية خاصة لا يرد لها ذكر قط .
فيقول ابن جرير إن يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصاري في عشرة نفر — وهو
يذكر أسماءهم (٢) — إلى ابن الزبير . فأخذ النعمان يُكشِّر من الحلوة بابن الزبير
والحديث معه ، فاغتاز عبد الله بن عضاة من هذه الحلوة بين الأنصاري والمهاجر (٣) ،

(١) [اضطررنا أن نوسع الترجمة هنا وأن نذكر الأبيات تحقيقاً لفائدة القارئ العرفي
— راجع الطبري ج ٢ ص ٢٢٦ ، ٣٩٨ .
(٢) اقرأ في الأغاني (ص ١٢ ، ٥) ، : الخداعي بدلا من : الجزاي ، والسكوني بدلا
من : الساولي .

(٣) كان ابن عضاة والزسل الآخرون عرباً عاديين من قبائل البدو ، أما الأنصار
والمهاجرة ، وهم أهل المدينة ومن هاجر من مكة إليها ، فكانوا هم طبقا الأشراف بين المساعدين .

وقال لابن الزبير يوماً إن هذا الأنصارى ما أمير بشيء إلا وقد أمرنا بمثله ،
إلا أنه قد أمّر علينا ، وإنى والله ما أدري ما بين المهاجرين والأنصار !
فأجاب ابن الزبير : « يا ابن عضاة ! مالى ولك ! إنما أنا بمنزلة حمامة من
حمام مكة ، أفكنت قاتلاً حمامة من حمام مكة ؟ » قال : « نعم ! وما حرمة
حمام مكة ! يا غلام ! إيتنى بقوسى وأسهمى ! . . » ، فأخذ سهماً ،
فوضعه فى كبده القوس ، ثم سدّده نحو حمامة من حمام المسجد ، وقال :
« يا حمامة ! أيشربُ يزيد بن معاوية الخمر ؟ » قولى : نعم ! فوالله إن قلستِ
لأرْمِيَنَّكِ يا حمامة ! أتتخلّعين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد صلى الله
عليه وسلم وتقيمين فى الحرم حتى يُسْتَحِلَّ بك ! والله لئن فعلتِ لأرْمِيَنَّكِ ! »
فقال ابن الزبير : « ويحك ! أيتكلم الطائر ؟ » قال : « لا ! ولكنك
يا ابن الزبير تتكلم ! أقسم بالله لتبايعن طائعاً أو مكرهاً أو لتعرفن راية
الأشعريين فى هذه البطحاء ، ثم لا أعظمُ من حقّها ما تعظم ! » ،
فقال ابن الزبير : « أو يُسْتَحِلُّ الحرم ؟ » قال : « إنما يُحِلُّهُ من أُلْحِدِ
فيه ! » . ولم تخل قصة الحمامة من تأثير على المؤرخين المحدثين ، ولكنها
بمجرد قصة مُزخرفة ، والفكرة التى فيها تتردد فى صورة أخرى عند
الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٠)^(١) . هذا إلى أن الأسماء الكثيرة التى تُدكّرُ
فيها لا تقدم أى ضمان : واسم رئيس الوفد ، بوجه خاص ، يبدو أنه
خطأ . ومن العسير أن يكون النعمان بن بشير قد أرسل من قبيل الخليفة
إلى مكة قبل ذلك بعام فى نفس المهمة التى كان عليه أن يؤدّيها فى المدينة

(١) بينما كان الحصين بن نمير ، فى جند الشام ، يحاصر ابن الزبير وأصحابه بمكة ،
مات يزيد . وعلم ابن الزبير بموته قبل أن يعلم الحصين ، فصاح ابن الزبير بجند الشام : إن
طاغيكم قد قتل ، فن شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل ، ومن كره فليفعل .
بشامه ! فغدوا عليه يقاتلونه ، فقال ابن الزبير للحصين : أدن منى أحدثك ! فدنا منه ، فحدثه ،
فجعل فرس أحدهما يحفل ، والجفل الروث ، فبجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل ، فكف الحصين .
فرسه عنن ، فقال له ابن الزبير : مالك ؟ قال : أخاف أن يقتل فرسى حمام الحرم ، فقال
له ابن الزبير : أنتحرج من هذا ، وتريد أن تقتل المسلمين ! ؟ فقال له الحصين : لا أقاتلك .
فأذن لنا نطف بالبيت ، ونصرف عنك ؟ ففعل ، وانصرفوا .

بعد ذلك بعام . وإذا كان للمؤرخ أن يختار فإن ما يرويه أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤٠٤) أجدر بالقبول ، وهو أن يزيد أرسل النعمان بن بشير إلى الناس وإلى قومه في المدينة لكي يتفشتأهم عن النهوض إلى الفتنة ويدعوهم إلى المحافظة على وحدة الجماعة .

ولنكمل سلسلة الروايات بما رواه الواقدي ، وهو موجود عند الطبرى (ج ٢ ص ٢٢٣ فما بعدها) في أخبار حوادث سنة ٦٠ هـ ، وإن كان ابن الزبير لم يظهر إلا بعد وفاة الحسين في أوائل سنة ٦١ هـ : كانت الرسل تجرى بين يزيد وابن الزبير في أمر البيعة ، حتى إذا فرغ صبرُ يزيد حلف ألا يقبل البيعة من ابن الزبير ، حتى يؤتى به في جامعة (سلسلة) في عنقه ، فنع ابنُ الزبير أمير مكة من قبل يزيد أن يؤم الناس ، فأمر يزيد عمرو بن سعيد أمير المدينة ، أن يوجه إلى ابن الزبير جيشاً ، فسأل عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير ، وكان صاحب الشرطة في المدينة : من رجل نوجهه إلى أخيك ؟ فطلب أن يكون هو ذلك الرجل ، لما كان بينه وبين أخيه من بغضاء . فبعد أن سار عمرو بجيش مختلط بعض الاختلاط - خرج فيه عرب وموال لأهل المدينة - عسكر أمام مكة ، وأرسل إلى أخيه عبد الله بن الزبير أن يبرئ يمين الخليفة ، وأن يجعل في عنقه جامعة من فضة أو ذهب يلبس عليها برئساً حتى لا تُسرى ، وأن يشخص أمام الخليفة ، ليؤدى له البيعة . فلم يستجب عبد الله بن الزبير إلى ذلك ، بل أدر بمهاجمة مقدمة جيش عمرو بمهاجمة مفاجئة ، ثم قبض على أخيه عمرو ، وحبسه في سجن عارم وضربه ليقصص منه لكل من كان قد ضربهم من أهل المدينة ، وهو على شرطتها ، وجعل نهايته نهاية مخزنة ، حتى مات تحت السياط . ويؤيد صاحب الأغاني (ج ١٣ ص ٣٩ فما بعدها) والأبيات التي يذكرها ، حكاية الحملة العنسة التي قادها عمرو بن الزبير ؛ فهي واقعة تاريخية من غير شك . فأما لإرسال السلسلة الفضية فإنه لا يبدو عنصراً منسجماً مع ما في الرواية ، وحكاية إرسالها موضوعية في جملة القصة وضعاً لا يعدو أن يكون مصطنعاً ؛ وهي ترجع بالأحرى

إلى محاولات المفاوضة السلمية التي وقعت قبل اللجوء إلى الوسائل العنيفة . وفي هذا الباب لا يكون الحق في جانب الواقدي ، بل في جانب الرواة الآخرين ، وعزل عمرو بن سعيد عن ولاية المدينة في أواخر سنة ٦١ هـ ، على أثر دسيسة من الأمويين أنفسهم^(١) ، لأنهم كتبوا إلى يزيد يتهمون به بالتراخي مع ابن الزبير ، وأنه لو شاء لأخذه وبعث به إليه في دمشق . فسار عمرو إلى دمشق ودافع عن نفسه أمام الخليفة ، وشرح له الظروف التي دعت به إلى مداراة ابن الزبير ، ثم حلّ مسجّله الوليد بن عتبة الذي كان والياً على المدينة قبله ، والروايات متفقة على أنه حجج بالناس سنة ٦١ هـ ، وظل والياً في أثناء سنة ٦٢ هـ ، في أثناء الشطر الأكبر من هذه السنة على الأقل ويحكى أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٠٢) أن ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد بن عتبة ، وذلك بأن كتب إلى يزيد بن معاوية « إنك بعثت رجلاً أخرق ، لا يتسجيه لأمر رشيد ، ولا يرعوى لعظة حكيم ، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق لين الكنف رجوت أن يسهّل من الأمور ما استوعر ويسجّميع ما تفرق ، فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله والسلام » فعزل يزيد الوليد بن عتبة ، وبعث مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وكان فتي غيراً حداثاً غمراً ، لم يجرب الأمور ، ولم يمتحنه السن ، ولم تُضرسه التجارب ، وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله ويؤخذ من الطبري (ج ٢ ص ٤٠٥) ، نقلاً عن أبي مخنف أيضاً فيما يظهر (الطبري ج ٢ ص ٤٠١ فما بعدها) ، أنه لم يتول إلا بعد حج سنة ٦٢ هـ . ولكن يظهر (الطبري ج ٢ ص ٣٩٩ س ١٨) أن هذا موضع شك . ومهما يكن من شيء ، فإن هذا التغيير في ولاية المدينة وقع في آخر سنة ٦٢ أو في أول سنة ٦٣ هـ .

وسنة ٩٣ هـ (وهي تبدأ في ١٠ سبتمبر سنة ٦٨٢ م) مملوءة بأجل الأحداث ،

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ - المترجم] .

خلافاً للسنتين السابقتين لها . فيحكى أبو مخنف^(١) أن الوالى الجديد أرسل من المدينة إلى يزيد وفدًا من أهل المدينة ، من أشرف الأنصار والمهاجرة على سواء ، وكانوا من ذوى الكلمة المسموعة عند الناس ، ولم تكن أهواء أهل المدينة مع ابن الزبير بصفة حاسمة ، ولكنهم لم تكن مع بنى أمية على كل حال . وكان والى المدينة يأمل أن يستطيع يزيد ضمهم إلى جانبه بفضل ما للمال من قوة الإقناع . ولقد أكرمهم يزيد وأحسن جوائزهم^(٢) ، ولكنهم ، بعد أن انصرفوا من عنده وقدموا المدينة ، لم يستطيعوا أن يتالكوا أنفسهم من حكاية أفضح الأمور عنه . فقالوا لهم قدموا من عند رجل « ليس له دين ، يشرب الخمر ويعزف بالطناير ، وتضرب عنده اللقيان ، ويلعب بالكلاب »^(٣) ، ويسامر الخرباب والفتيان . على أنه من الخطأ فى الفهم القول بأن الوفد كان يتألف من الأنصار ومن أصحاب النبی عليه السلام وحدهم . ويتكلم مولر (A. Müller, I, 367) عن الوفد ، متصوراً إياه مجموعة عجيبة من شيوخ طيبين سُدَّج ، ولذلك دُعُوا من يزيد . ويكون مولر أفكاره الخاصة عنهم وعن الخليفة ، مع أن الخليفة كان يعلم بطبيعة الحال أحوال المدينة ، وهى أجل مدينة فى الإسلام ، عالماً كافياً ، وكانت له ، شأن جميع العرب ، معرفة كافية بالناس . ويذكر أبو مخنف محاولة أخيرة قام بها يزيد لكى يهدئ النفوس فى المدينة . فهو لم يرد أخذها بالعنف ، لأنه كان فيها من عشيرته من كان لا يحبُّ له أن ينهض فى الفتنة فهلك ؛ فأرسل النعمان بن بشير ، خبير رسول للسلام ، إلى هناك ، فكلَّم أهل المدينة من قومه ومن غيرهم ، ودعاهم إلى الطاعة ولزوم

(١) [يجد القارئ قصة إرسال الوفد إلى يزيد عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ - المترجم) . وتوجد إلى جانب ذلك رواية وهب بن جرير (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢) فابعدا) ، ولكن ذكر التاريخ غير دقيق على الإطلاق ، فهو يقول : بعد وفاة معاوية .
(٢) وعند الطبرى (ج ٢ ص ٤١٩ فابعدا) ما يدل على خلاف ذلك . قال بعضهم ، وهو راجع من عند يزيد : سرنا شهرًا ورجعنا من عند يزيد ضفرًا .
(٣) الأغاني ج ٢٠ ص ١٠٦ : بالقروء .

الجماعة ، وخوَّفَهم من قوة أهل الشام ومن الفتنة ، ولكنه كان كما
يخاطب آذاناً صماء (١) .

وكان ابتداء ثورة أهل المدينة ، بحسب رواية الأغاني (ج ١ ص ١٣
تقلاً عن المدائني) منظرأ مسرحياً في المسجد : كان ابن الزبير قد نادى
بخلع يزيد ، وماله أكثرُ الناس على ذلك ، فدخل رجال المدينة في المسجد ،
وقد ثارت نفوسهم فجأة . فقام عبد الله بن حنظلة وقال : خلعتُ يزيد ،
كما خلعت عماتي ، ونزعها عن رأسه ، وقال : إني لأقول هذا ، وقد
وصلني وأحسن جائزتي ، ولكنه عدو الله سكير . وتبعه الناس يخلع كل
منهم عمامته أو نعله أو خفّه أو ثوبه ، علامةً على التبرؤ والخلع كما هي
العادة ، حتى حصل من ذلك كومٌ كبير . أما عند الطبري فلا نجد شيئاً
من هذا . ويذكر أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٠٥ فما بعدها) من علامة
ابتداء الثورة أنه بعد أن عاد الوفد الذي كان قد ذهب إلى يزيد وقالوا فيه
ما قالوا ، أعلنوا : إنا نُسَيِّدُكم أنا قد خلعناه ؛ فتابعهم الناس ، وتوا
عبد الله بن حنظلة فبايعوه وولّوه عليهم ليحارب يزيد ويحارب حكومة
بني أمية : وكان ابن حنظلة عضواً في الوفد الذي توجه إلى دمشق ، وكان
من الأنصار ، وكان مشهوراً ، منذ ولادته ، بأنه ابن الشهيد الذي يُحكى
أن الملائكة غسلته يوم أُحد ، وقد ولد حنظلة بعد استشهاد أبيه .
وكانت أول خطوات الثوار أنهم وثبوا على من في المدينة من الأمويين
ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش . وكان بنو أمية نحواً من ألف رجل ،
فخرجوا بجماعتهم ونزلوا دار مروان بن الحكم ، أقدم رؤساء الأمويين
وأكبرهم وأشهرهم وأسنتهم ، فحاصروهم الثوار . فكتب مروان إلى الخليفة
يخبره بما هم فيه من ضيق ويقول : « إنا قد حُصِرنا ومُنِعنا العذبَ ورُمينا
بالحبوب (الحجارة) ، فياغوثاه ياغوثاة ! » . وبالرغم من أن يزيد قد سخر من

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ - المترجم] .

بنى أمية ومواليهم الذين لم يستطيعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ، مع أنهم أكثر من ألف رجل ، فإنه قرر أن يوجه جيشاً على الفور ، يقوده عمرو ابن سعيد : ولكن عمرو بن سعيد قال للخليفة : « قد كنت ضببْتُ لك البلاد ، وأحكمتُ لك الأمور ، فأما الآن ، إذْ صارت إنما هي دماء قریش تُهَرَّاق بالصعيد ، فلا أحب أن أكون أنا أتولّى ذلك ، يتولاها منهم من هو أبعد عنهم منى » . عند ذلك اتجه يزيد إلى مخادم قديم من مخدام أبيه ، ثبتت كفايته وثبت إخلاصه وصدق نصيحته ، هو مسلم ابن عقبة المُرِّي . وقد رأى مسلم ، لما طلب إليه يزيد الخروج في الجيش ، أن ألف رجل لا يستطيعون أن يقاتلوا ساعة من نهار ، ولا يجاهدون عدوهم ويدافعون عن عز سلطانهم ، قومٌ أذلاء ليسوا أهلاً لأن يُستصروا إلا بعد أن يجهدوا أنفسهم في قتال عدوهم دفاعاً عن سلطانهم ، حتى يستبين الصابرون الذين يقاتلون على طاعة الخليفة من الضعفاء المستسلمين ، ولكنه خرج بعد أن قال له يزيد : ويحك ! إنه لا خير في العيش بعدهم إن هلكوا . وبدأ إعداد الجيش ، ولم يلبث أن وقف اثنا عشر ألف رجل من أهل الشام على قدم الحرب ، بعد أن أخذوا عطاءهم كاملاً ، وأخذ كل جندي مائة دينار ، ووضعت في يده من ساعته (١) . ولما بلغ أهل المدينة إقبال جيش مسلم ، وثبوا على الأمويين وحصروهم ولم يكفوا عنهم إلا بعد أن أعطوا عهد الله وميثاقه على ألا يبيعوا غائلة ولا يدنسوا على عورة ؛ ثم أخرجوهم من المدينة ، فتوجهوا إلى الشام . أما عائشة بنت عثمان ابن عفان ، وكانت زوجة مروان بن الحكم ، فقد توجهت إلى الطائف في حماية على بن الحسين ، وهو الوحيد الذي قد نجا من أبناء الحسين يوم كربلاء والذي كان من القرشيين القلائل الذين اعتزلوا الفتنة . ولقي مسلم ابن عقبة وهو في طريقه إلى المدينة أولئك الأمويين الهاربين عند وادي

(١) وكان معظم الجيش ، كما هي العادة ، من كلب . أما رئيس قيس ، وهو زفر بن الحارث ، فقد كان يحارب في صفوف ابن الزبير - قارن Chavarig P. 54 .

القرى . وقد كان أول الأمر ساخطاً عليهم ، فلما بعمر بن عثمان بن عفان أول الناس ، وقال له : « أخبرني خبراً ما وراءك ، وأشير عليّ ! » ، قال : « لا أستطيع أن أخبرك ، أخذت علينا اليهود ألاّ ندلّ على عورة ، ولا نظاهر عدوّاً » . فأنهزهم مسلم ، ولم يمنعه من ضرب عنقه إلا أنه ابن عثمان ابن عفان . فبعث مروان بن الحكم ابنه عبد الملك قبلاًه ، لعل مسلماً يجترأ به عنه ، فدخل عبد الملك واستطاع ، لحسن الحظ ، أن يردّ غضب مسلم ، ووصف له خطة العمل ، وأشار عليه بما رأى . فأعجب مسلم بنصائح عبد الملك الدالة على العلم والخبرة ، واتبعها تماماً . وفي ذى الحجة سنة ٦٣ هـ كان مسلم يجيشه أمام المدينة معسكراً في الحرة إلى شمال شرقي المدينة ، وأعطى الثوار مهلة ثلاثة أيام ، وقال لهم : إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل ، وإنّي أكره هراقة دمائكم ، وإنّي أؤجلكم ثلاثاً ، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرف عنكم وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكة ، وإن أبيتم كنّا قد أعدّنا إليكم . ولما مضت الأيام الثلاثة كلمهم مسلم مرة أخرى ، وطلب منهم الدخول في الطاعة ، حتى يجعل حدّ الجيش وشوكتّه على الملحد الذي قد جمع إليه المراق والفُسّاق من كل أوب (١) . فأجابوا بالإصرار على المقاومة دفاعاً عن المدينة ، بل على قتال جيش مسلم ، إن هو قصد مكة وأراد القتال فيها واستحلال حرمتها وإخافة أهلها ، وخاطبوا مسلماً وجيشه قائلين : « يا أعداء الله » : وكان أهل المدينة قد حصّنوا ركنها الشمالى المكشوف بأسوار وخنادق ، وكان جيشهم مؤلفاً من أربعة أقسام ، على رأسها رجلان من قريش ، ورجل من أشجع ، وابن حنظلة الأنصارى . وكان ابن حنظلة في الوقت نفسه القائد الأعلى وأمير الجماعة كلها (٢) .

(١) [المقصود هو ابن الزبير - المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ٤١٠ - ٤١٣ - المترجم] .

وإلى هنا تنقطع حكاية أبي مخنف عند الطبرى ، وتكملها حكاية عوانة (١) وغيره ، وهى لا تتفق تماماً مع حكاية أبي مخنف : خرج أهل المدينة لمقابلة أهل الشام فى الحرّة ، وحملت خيلُ أهل المدينة ، بقيادة عبد الله بن حنظلة مرة والفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب مرة أخرى ، على أهل الشام ، فانكشفوا وتقدّم فرسانُ أهل المدينة ، حتى بلغوا المكان الذى كان فيه مسلم بن عقبة نفسه . وتقول إحدى الروايات إنه كان يوم القتال مريضاً يُحمَلُ على سرير ، وتقول أخرى إنه ركب فرساً له وأخذ يسير فى أهل الشام ويُحرّضهم على الثبات والقتال . ولكن أهل المدينة هُزموا آخر الأمر ، وقُتِل كثيرٌ من أشرف الأنصار ومن قریش ، منهم ابن حنظلة نفسه ومعه ثمانية من أبنائه ويقول وهب بن جرير (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٣) والسمهودى (Skizzen, 4, 26) إن السبب فى الهزيمة هو خيانةُ بنى حارثة ، لأنهم أَدْخَلُوا فى المدينة من ناحيتهم قسماً من جيش الشام ، ضرب المدافعين من ظهورهم . أما تاريخ الواقعة فهو عند الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٢) الأربعاء لليلتين أو ثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، الموافق ٢٦ أغسطس سنة ٦٨٣ م . وأباح مسلم بن عقبة مدينة الرسول والخلفاء ثلاثة أيام للجند ، ينهبون ما فيها من مال أو سلاح ، ويقتلون الناس . وهذا ما يقوله أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤١٨) والسمهودى . أما عوانة فهو يحكى غير ذلك ، فيقول إن مسلماً بعد الوقعة بيوم دعا الناس إلى البيعة وأرغم كبار أهل المدينة على البيعة فى قُبَا ، كما يقول إنه فى هذه المناسبة قتل بعض الثوار ، وكان منهم عدد من القرشيين ومعتل بن سنان الأشجعي (٢) ، وذلك رغم

(١) [نفس المصدر ج ٢ ص ١٣ ؛ فابعدها - المترجم] .

(٢) كان معتل ، مثل مسلم نفسه ، من غطفان ، وكان صديقاً قديماً له ، لكنه كان حنقاً عليه ، وقال له مسلم : « أنت الذى لقيتني بطارية ليلة خرجت من عند يزيد ، فقتلت لى : سرنا شهراً . ورجعنا من عند يزيد صقراً ، نرجع إلى المدينة ، فنخلع هذا الفاسق ، ونبايع لرجل من أبناء =

معارضة مروان بن الحكم في هذا القتل : وهذا الذي فعله مسلم في اليوم التالي للمعركة لا يتفق مع القول بإباحتها المدينة ثلاثة أيام للجند ، ينهبون فيها ويقتلون . ومن العسير جداً أن يجد القول بإسلام المدينة للنهب ما يؤيده فيما يحكيه السهمودي من أنه نشأ عن ذلك ألف مواد غير شرعى ، ولا يعرف وهب بن جرير شيئاً عن إسلام المدينة للنهب (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٣ س ١٥ فما بعده) .

وبعد أن فرغ مسلم من قتال أهل المدينة سار إلى مكة ، ولكنه لم يصل إلا إلى المشلل . وهناك نزل به الموت وضميره مستريح ، مقتنعاً أنه فعل ما يرضى الله ، ولم يوص بماله لأبنائه ، بل إلى قبيلته وإلى أم ولد كانت عنده ، وترك القيادة ، على غير ما كان يحب ، إلى الحصين بن نمير السكوني ، لأن الخليفة كان هو الذى أمر بذلك ، وأوصاه فيما أوصاه ألا يُمكّن من أذنه قُرسياً . وفي هذا تتفق رواية عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٤ فما بعدها) مع رواية أبي مخنف إلى الحد الذى وصلت إليه رواية أبي مخنف . ويقول أبو مخنف إن وفاة مسلم كانت في آخر الحرم سنة ٦٤ هـ . أما عوانة والواقدي فيقولان إن الحصين كان في شهر الحرم معسكراً أنام مكة :

على أن ما يقوله المؤرخون المحدثون يختلف اختلافاً عجيباً عن الصورة التى نجدها مرسومة هنا للمسلم بن عقبة ، فيقول دوزى مثلاً (١) : « ربما لا يكون هناك أحد يمثل العصر القديم والروح الوثنية كما يمثلها مسلم بن عقبة ، فلم يكن فيه أقل ظل للعقيدة الإسلامية ، ولا كان يقدم شيئاً مما يقادسه المسلمون ، ولذلك كان أشد إيماناً بالخرافات الوثنية ، وكان يؤمن بالأحلام التنبؤية وبالكلمات الخفية التى

= المهاجرين ! فيم غطنان وأشجع من الخلع والخلافة ! إلى آليت يمين لا أفتاك في حرب أقدر فيه على ضرب عتقك إلا فعلت » . وقوله : فيم ... من (الطبرى ج ٢ ص ٤٢٠ س ٣) لا يحتاج إلى علامة استفهام .

(١) [ينقل المؤلف ما ينقله عن دوزى وملأ في شيء من الاختصار والتصرف - المترجم] .

كانت تأتي من شجر الغرقد . وقد أبان عن هذا لما تقدم ليزيد ، فقال له إنه لا أحد يستطيع أن يقهر المدينة غيره ، لأنه ، فيما قال ، رأى في المنام أنه سميع صوتاً آتياً من شجرة الغرقد يقول : « على يدى مسلم » . هذا ما يقوله دوزى (Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne 197s.) ويضرب ا . مولدراً على نفس النغمة ، فيقول : « كان فى نفس مسلم بن عقبة على الإسلام ، خصوصاً على المسلمين الأولين ، من الحقد ما كان فى نفس شميم بن ذى الجوشن قاتل الحسين ؛ وبالرغم من أنه كان شيخاً كبيراً ومريضاً ، فإن أمه الذى كان ينتظره طويلاً ويرحب به لتأديب أولئك الذين كانوا أعداء لكل ما هو وثنى ، رد إليه قوته حيناً ، وقد خرج فى الجيش ومعه الحصين بن نمير ليكون خلفاً له ، إن حدث به حدث الموت ، وكان الحصين ، قبل ذلك بقليل ، الذرع الأيمن لعبيد الله بن زياد فى الكوفة (١) ، وكان لا يحس من الاحترام لمسجد الرسول وللكنيسة أكثر مما يحسه أمام جوزتين صمناوين » .

فلأجل شجرة الغرقد التى فى رواية الأغاني (ج ١ ص ١٤) والتى لم يستشيرها مسلم بن عقبة حقيقة ، وإنما رآها فى المنام (٢) ، يكون مسلم وثناً لحماً ودماً ، وهو لما فى قلبه من بغض أهل المدينة ينتظر الفرصة متلهفاً ، ويتنزهها لذبحهم ، مع أنه كان شيخاً ضعيفاً . إن الروايات القديمة لا تعرف شيئاً من هذا كله ، أما عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٢٥) فنجد أنه ، وهو على فراش الموت ، يشهد بأن أهم شيء عنده هو الإيمان بالله ورسوله (٣) . وهو لم يتقدم للمهمة التى كلفه بها يزيد ، بل هو لم يتقبلها إلا كارهاً . ولم يكن يريد أن يبرد نار غضبه بمحاربة مدينة الرسول ،

(١) هذا خلط بين الحصين بن نمير السكونى من أهل الشام وبين الحصين بن تميم التميمى من أهل الكوفة ، وهذا يجعل وزر أولها أثقل ، راجع فيما يتماق بشمر Schia p. 70 .
(٢) مثل الذى يحكى عن الحجاج - الطبرى ج ٢ ص ٨٢٩ م ١٥ . [من أنه رأى فى منامه أنه أخذ ابن الزبير فسلخه ، وأنه لذلك طلب من عبد الملك أن يبعثه إلى ابن الزبير - المترجم] .

(٣) [قال وهو يموت : « اللهم إني لم أعمل عملاً قط ، بد شهادة أن لا إله إلا الله =

ولإنما حاول ، حتى آخر لحظة ، أن يحافظ عليها ، بل إن من المشكوك فيه أن يكون بعد انتصاره قد أنهب المدينة للجنود ثلاثة أيام . ولقد أرغم أهل المدينة على البيعة ليزيد ، لكن ذلك لم يكن على صورة كريمة غير مألوفة (١) . كان مسلم خادماً مخلصاً لسيدته ، وأخضع له الثوار ، وكان يقول : فيم غطفان من الخلع والخلافة ! وكان مسروراً أن المشكلة بالنسبة له ، كواحد من غطفان ، لم تكن موجودة . أما المطامح السياسية فقد تركها لأهل الفتنة والطامعين الذين كانوا عائدين بالمدينتين المقدستين ، وكان يرى أنهم انتهكوا حرمة الحرم وجعلوه بصنيعهم مباحاً . وعلى هذا عمل ما عمل في عزم المقتنع ، ومع مرور الزمن اعتُبر هذا منه إثماً منكراً ، وأصبح رمز الوثنية كما يبدو عند دوزي ومولر (٢) .

= وأن محمداً عبده ورسوله ، أحب إلى من قتل أهل المدينة ، ولا أرجى عندي في الآخرة » — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٤٢٥] .

(١) كما يفترض دوزي ج ١ ص ١٠٧ — قارن الطبري ج ٢ ص ٤١٨ س ١٨ .
(٢) [الحق أن مسلم بن عقبة كان قائداً حربياً فيه غلظة وجفاء ، وكان ، كما يصفه المؤلف ، خادماً من خدام الدولة يفكر بعقلها ولا يعرف غير ذلك . وهو من هذا الوجه شبيهة بالحجاج وزيد بن أبيه ، ولا شك في صحة ما يقوله المؤلف من أنه كان حريصاً على عدم العنف ، لكنه بعد أن انتصر كان عنيفاً غليظاً جافياً ، فن ذلك ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ٤١٨ — ٤٢١) من أنه آمن رجلين من قريش ، فأتى هما ، فقال لهما : بايعوا ! فقالا : نبايع على كتاب الله وسنة نبيه ، فقال : لا والله ! لا أفيلكن هذا أبداً . ثم قدماه فضرب أعناقهما ، فلما اعترض مروان بن الحكم على قتل رجلين من قريش على هذه الصورة نخسه مسلم بقضيب في خاصرته ، ثم قال : وأنت والله لو قلت بمقاتلتهما رأيت السماء إلا برقة . ومن المناظر المؤلمة التي تتجلى فيها فظاظته ، أنه لما شخص عنده معقل بن سنان دعا بشراب . فقال له مسلم : أى الشراب أحب إليك ؟ قال : العسل ، قال : اسقوه ، فشرب معقل حتى ارتوى ، ثم قال له : أفضيت ريك من شرابك ؟ قال : نعم ، قال : لا والله لا تشرب بعد شراباً أبداً إلا الحميم في نار جهنم ، أنذكر مقاتلك لأمر المؤمنين : « سرت شهراً ورجعت شهراً وأسبحت صفرأ ، اللهم غير ! » ، ثم يزيد . ثم قدماه فضرب عنقه ، هذا مع أن معقل بن سنان كان صديقاً لمسلم قبل ذلك . ولما جاء يزيد بن زعنة ، قال له مسلم : بايع ، قال : أباعك على سنة عمر ، قال عقبة : أقتلوه ، قال : أنا بايع ، قال : لا والله لا أقيلك عثرتك . فلما كلمه مروان أمر به فوجئت عنقه . وهكذا نجد مسلم بن عقبة يدافع عن الدولة وينتقم من الساكطين على يزيد . وكان يريد من الناس أن يبايعوا ، على أنهم خول ليزيد ، يحكم في دماهم وأموالهم —

ويواصل دوزى (ج ١ ص ١٠٨) غَزَلَ الخيط الذى ناطه إلى شجرة الخرقه فيقول : « كان عرب الشام قد سوّوا حسابهم مع أبناء المنشقين المتعصبين الذين غمروا جزيرة العرب بدماء آبائهم ، وكان الأشراف القدماء قد قضوا على الأشراف المحدثين . وكان يزيد ، بوصف أنه ممثل الأرستقراطية القديمة في مكة ، قد ثار لمقتل عثمان وللهزيمة التى ألحقها بجده أبى سفيان أهل المدينة تحت راية محمد [عليه السلام] . وكان ردُّ الفعل من جانب الوثنيين ضد الفكرة الإسلامية قاسياً لا هوادة فيه ، ولم يُشَفَّ الأَنْصار قط من هذه الضربة ، وانكسرت قوتهم إلى الأبد . وظلت مدينتهم ، بعد أن كادت تخرب ، مأوى للكلاب حيناً من الدهر ، كما ظلت أرضها مأوى للوحوش . وذلك أن معظم أهلها أخذوا يبحثون لأنفسهم عن وطن جديد في بلاد قاصية ، فانضموا إلى جيش أفريقية ، وظل الآخرون في حال يرثى لها : وكان الأمويون ينتهزون كلَّ فرصة لكى يُشْعِرُوهم ببعضهم واحتقارهم لهم ، لكى يضايقوهم ويجعلوا حياتهم مريرة » . ويأخذنا : مولد هذه التصورات ، وهى تصورات ضالة تماماً ، ومعظمها خطأ تام . أما الضربة الحقيقية فقد أصابت المدينة لما انتهت الخلافة الشرعية بمقتل عثمان وانتقلت الخلافة الجديدة إلى الأمصار . فأما الضربة الحالية فلم تأت بتغيرات

= وأهلهم ما شاء . وثم منظر آخر أهان فيه مسلم عمرو بن عفان ، وعابه هو وأمه وننتف. لحيته . وأسخف من ذلك ما فعله مسلم بعل بن الحسين ، مع أنه ابتعد عن الفتنة وكاتب يزيد وأوصى يزيد به ، فقد أخافه من غير أدنى مبرر ، حتى إنه ناوله مروان بن الحكم شرا باً ، فقال له مسلم في جفاء : لا تشرب من شرا بنا ! فأرعدت كف على بن الحسين وأمسك القدر بكفه ، لا يشربه ولا يضعه ، ثم قال لعل : إنه لولا ما أوصاه به يزيد لقتله . راجع أيضاً طريقته في مخاطبة خليفته في قيادة الجيش ، عند الطبرى ج ٢ ص ٤٢٤ - ٤٢٥ . فلا يخرج مسلم عن أن يكون رجلاً جافياً قاسياً وجلفاً غليظ القلب ، ولم يحمله مخلصاً للدولة والخليفة . إلا أنه كان ينتمى إلى قبيلة ضعيفة ليس لها شأن ؛ وهو من هذا الوجه يشبه كثيرين من عمال بنى أمية . ولولا أن المسألة مسألة حرب وسياسة يسودها العنف عند العرب لحق للمؤرخ أن يقول إن الإسلام لم يهذب شيئاً من طبع هذا الغلفانى الذى لم يكن على أى حال من أنبه العرب ولا أشرفهم ، وإنما كان قائداً فى خدمة الدولة ، ويجب عليه أن يحافظ على سيادتها - المترجم] .

جوهريّة ؛ فلم تخرب المدينة ، ولم يلبث أن رجع إليها أهلها الأمويون الذين كانوا قد أخرجوا منها ، وإن كانوا قد أخرجوا منها مرة أخرى بعد ذلك . وظلت المدينة ، كما كانت من قبل ، مدينةً مريحةً ومقرّاً للتراث الديني وحده ، بل لأرقّ طوائف المجتمع العربي وأرقاها . ولذلك كان يفضل الإقامة بها من يعتزلون الأعمال ويحبون أن يحيا حياة اللهو ، كما صارت المدينة ملتقى المغنين والموسيقين والطفيليين . وكل فصول كتاب الأغاني المتعلقة بهم تقدم لنا الشواهد على ذلك . ولندكر منها ، بنوع خاص ، ما يقال عن أبي قطيفة وعن الأشعب وخصوصاً عن سكينه حفيده الرسول الذكيّة المتحررة . وفوق ما تقدم ، فإن من الخطأ أن ننصور أن الأنصار كانوا وحدهم هم الذين أصابهم عواقبُ وقعة الحرّة ، لأنه لا يصرح أن نفهم من ذكر اسم الأنصار أنهم وحدهم هم أهل المدينة ، وذلك لأن المدينة كانت منذ زمان طويل لم تصبح مدينتهم ، وكانوا يقيمون فيها مع المهاجرة الذين كانوا يكافئون الأنصار في العدد ويزيدون عليهم في القوة . وكانت قریش بين هؤلاء المهاجرة تحمل المكان الأول ، لأن القرشيين كانوا قد هاجروا منذ سنة ٨ هـ إلى المدينة زرافات كثيرة ، وصارت عاصمة الدولة هي وطنهم الحقيقي ؛ وقد اشتركوا في الثورة على يزيد كما اشترك الأنصار ؛ وكان التمايز بين أشراف الإسلام وأشراف الجاهلية ، وقد كان على كل حال تمايزاً موجوداً بينهم ، قليل الشأن . ولم يكن ليزيد حزبٌ بين المدينة ولم يكن هو الممثل للأرستقراطية القديمة ، وإن كان ينتمي إليها ، وقد ألقت الأرستقراطية في الحجاز كله جهة كاملة معارضة له ، كما ألقت من قبل جهة معارضة لأبيه معاوية . فكانت قبائل مخزوم مثلاً ، وهي قبائل نابتة ، زبيرية الهوى تماماً بل لم يكن الأمويون في المدينة على علاقة طيبة مع يزيد ، ولم يريدوا أن يفسدوا علاقتهم بالثوار ، فوالوا إلى ابن الزبير ، وكان مسلم ابن عقبة مُحققاً في غضبه عليهم . فلم يكن في جانب يزيد إلا أهل الشام ، وقد ألّف منهم جيشاً من آلاف كثيرة ، ولكنهم كانوا يتقاضون

أعطيات كبيرة إلى درجة غير عادية . ولما كان هو نفسه غير ممتلئ النفس بالرغبة في معاقبة النوار ، بل كان يحاول أن يكتسبهم بالحسنى ، فقد أظهر حلماء كبيراً إزاءهم^(١) . وكذلك لم يكن جنوده من أهل الشام متحرقين للقتال ، ولا شك أنهم كانوا يندهشون لو أنهم عرفوا ما ينسبه إليهم دوزى من أن حنقهم على « المنشقين المتعصبين الذين غمروا جزيرة العرب بدماء آبائهم » هو الذى استفزهم للقتال . ولهذا فربما كان أهل العراق ، وهم ينتمون إلى أهل الردة ، أولى بكثير من أهل الشام بالحنق على أهل المدينة . أم هل كان أهل الشام ، مثل قبائل كلب ، هم الذين كانوا أكثر من استنزفت دماؤهم ؟ إن دوزى يرسل لخياله وبلاغته العنان ، وهو بهذا قد أفسد تفكير من اتبعه . أما الحقيقة البسيطة الثابتة فهي أن عرب الشام ، شأنهم شأن غيرهم ، كان عليهم أن يستجيبوا لما يأمرهم به الإسلام ؛ على أن الأمر لم يكن أمر تغير ديني بقدر ما كان أمر تغير سياسى ، ولعل الانتقال كان فى أول الأمر غير محبوب لديهم ، ولكن لم يلبثوا أن تغلبوا على ذلك لأنه كان لهم فى هذا التغير أكبر الفوائد ، لأن الإسلام جعل لهم نصيباً فى دولته وسيادته ، وهو قد وضع الدنيا تحت أقدامهم ، ولولا الإسلام ما كانوا ليصلوا إلى المكانة التى وصلوا إليها والتى احتلوها بعد ذلك . وعلى هذا فلا يمكن أن يكونوا لا يزالون حنقين على أولئك الذين ساعدوهم على بلوغ الغصن الأخضر الذى كانوا يجلسون عليه . وأبعد ما يكون من الصواب أن يقال إن أهل الشام كانوا حنقين على المؤمنين القدماء - وهذه هى التسمية التى يطلقها ، مولد على أهل المدينة - ذلك أن أهل الشام كانوا يتفقون مع أهل المدينة فى العقيدة والشريعة وفى العادات العامة والخاصة اتفاقاً تاماً ، وكان أهل

(١) [لما وصل إلى يزيد كتاب مروان بن الحكم يستغيث بما فعله أهل المدينة ببنى أمية الذين كانوا بها ، قال متعبلاً :

لقد بدلوا الحلم الذى من سجيى فبدلت قومي غلظة بليان
وأمر بإعداد الحملة على المدينة - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .]

المدينة ، بطبيعة الحال ، أكثر حماسة لأداء الواجبات الدينية ، وكانوا خصوصاً أكثر كلاماً عنها ، ولكنهم لم يكونوا بوجه عام أولئك الشيوخ السذج المنشقين المتعصبين ، الذين يصفهم دوزي ؛ وإن تسميتهم « المؤمنين القدماء » ، وهو اصطلاح حديث ، لا يمكن أن تؤدي إلا إلى تصور معكوس للعلاقة بين تلك الأحزاب المتخصصة ، ذلك أن الخصومة ، بحسب أفكارنا التي ليست لها صبغة تيوقراطية ، كانت خصومة سياسية فحسب ، فالمشكلة كانت مشكلة : من صاحب الحق في الخلافة ؟ وقد زعم أعضاء طبقة الأشراف الإسلامية ، وهم أبناء لكبار الصحابة الستة القدماء ، مثل الحسين وابن الزبير ، أنهم أصحاب هذا الحق . وكان الرأي العام ، كما كانت غالبية قريش ، إلى جانبهم . ولا بد أن الانتصار كانوا يؤيدونه ، كما أيدهم في الثورة على عثمان ، وذلك من جهة أن المسألة كانت مسألة أن تستعيد العاصمة القديمة للدولة ما كان لها من سيادة ، وتوجد بعض الدلائل على أن ابن الزبير هو الذي أرتث نار الثورة في المدينة . وقد كان مسلم بن عقبة يعتبر المسألة كذلك . وكان السفينانيون في دمشق يُعتبرون غاصبين ، ولم يؤيد الحكومة التي كان بيدها السلطان إلا أهل الشام ، وذلك دفاعاً عن مكان المصدرة الذي كان لولايتهم ، وهم لم يكونوا يأبهون لمسألة الحق الشرعي ؛ غير أن مسألة الحق الشرعي هذه ، وهي في نظرنا مسألة سياسية محضة ، كانت في نظر الإسلام ، من حيث هو دولة تيوقراطية ، جزءاً من الدين . وكان الذين يدعون الحق في الخلافة يؤيدون مطالبهم بمؤسسات دينية . وكان يزيد يُعتبر غير أهل للخلافة لأسباب دينية أيضاً . ولكن هذه المبررات الدينية لم تكن ، على السنة زعماء الحركة ، سوى ستار لما وراءها . أما الباعث الحقيقي لهم على الثورة فكان هوسهوة المجد والسيادة . وهم لم يكونوا يريدون خلع يزيد ، لأنه كان يشرب الخمر ويلهو ، بل لأنهم كانوا يأملون أن يتوصلوا إلى المنصب الذي كان

يحتله ، ولذلك كان عند أهل الشام من الأسباب ما يبرر لهم أن يروا في مسألة الحق الشرعى التى يثيرها خصومهم تمويهاً ونفاقاً يستروا به مسألة التطلع إلى السلطان (١) . وإلى هذا وحده يرجع ما اتهموا به خصومهم من النفاق ، وقد قابل خصومهم ذلك بأن اتهمهم بالانسلاخ من الدين .

وعوانة هو عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٢٤ فما بعدها) أكبر الرواة لحصار مكة سنة ٦٤ هـ . فهو يقول إنه بعد موقعة الحرّة ذهب « كلُّ أهل المدينة » إلى ابن الزبير فى مكة ؛ وهو لا يذكر إلا أفراداً من القرشيين بأسمائهم (ص ٤٠٤ س ٢٠ وص ٤٢٦ س ٨ - ١٠ وص ٥٢٨ س ١٢) . وكان خوارج اليمامة قد بادروا قبل ذلك ، تحت إمرة نجدة بن عامر ، للدفاع عن البيت الحرام أمام هجوم أهل الشام (٢) . وكان الحصين بن نمير قبل نهاية الحرم سنة ٦٥ هـ قد وصل إلى مكة فى جنده الشام . ولم يوفق المدافعون فى أول اشتباك وقع بينهم وبين أهل الشام . وفى مساء السبت لثلاثة أيام مضت من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، الموافق السبت ٣١ أكتوبر سنة ٦٨٣ م ، قذف أهل الشام البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار ، كما يقول عوانة .

ورواية عوانة هذه غير صحيحة . ولقد اشتعلت النار فى الكعبة حقيقة ، فاحترقت وانصدع الركن واسود ؛ ولكن أهل الشام لم يكونوا هم الذين أحرقوها . أما أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٥٢٨ س ١٧ - قارن ص ٥٢٩ س ٤) ، فهو يقول : « أحرق البيت » على البناء للمجهول ؛ ولا يذكر الفاعل . ويقول الواقدي (ص ٤٢٧) إن الكعبة احترقت بسبب رجل من أصحاب ابن الزبير .

(١) [يبالغ المؤلف فى نظراته للحوادث نظرة سياسية ، كأن الدولة ليست دولة دينية يرأسها الأكل الأتق - المترجم] .

(٢) إن التاريخ الذى يذكره أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٤٠١ فما بعدها) سبق من الحقيقة . قارن Chavarig 29, Schia 75 وديوان الخليفة (ص ٣١٩ س ٢٢) .

أخذ قيساً في رأس رمح ، فطيرت الريحُ به ، فضرب أستار الكعبة .
ويقول المدائني (الأغاني ج ٣ ص ٨٤) إن ابن الزبير نفسه كان هو ذلك
الشخص التعس الذي وقع منه ذلك . فيضحكى أنه لما حاصره أهل الشام
سمع أصواتاً بالليل فوق الجبل ، فخاف أن يكون أهل الشام قد وصلوا إليه ،
وكانت ليلة ذات ريح شديدة صعبة ، وبرق ورعد : فرفع ناراً على رأس
رمح لينظر إلى الناس ، فأطارتها الريح ، فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها
واستطالت فيها . وجهد الناس في إطفائها فلم يقدروا ، وأصبحت الكعبة
تتهافت ، أما البيت الذي يستند إليه عوانة (ص ٤٢٦ س ١٥) فليس فيه
ذكر النار ، بل هو ، بحسب ديوان الحماسة (ص ٣١٩) متعلق بمسألة
أخرى ، هي حصار مكة في عهد الحجاج (الطبري ج ٢ ص ٨٤٤) فابعدھا
وص ١٥٤٢ س ٣) : وفي أثناء هذا الحصار الثاني ضرب أهل الشام
الكعبة ، لكنهم لم يضربوها إلا بالحجارة . وعلى هذا فالظاهر أن الأمر قد
اختلط على عوانة ، وربما لا يكون هذا الاختلاط بريئاً من الغرض :

ودام حصار مكة إلى أن بلغها نعي يزيد ، وقد كانت وفاته في
١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . ويقول الواقدي إن النعي وصل إلى مكة في
يوم الثلاثاء هلال ربيع الآخر سنة ٦٤ هـ ، أي بعد حرق الكعبة
بسبعة وعشرين يوماً^(١) . أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٥٢٩ س ٧)
فهو يقول إن نعي يزيد وصل لخمسة عشرة ليلة مضت من ربيع
الآخر : وأما عوانة (الطبري ج ٢ ص ٤٢٩ س ١٨) فيقول إن النعي
لم يصل إلى مكة إلا بعد وفاة يزيد بأربعين يوماً . والرواية التي بحسبها
يكون الخبر قد وصل في أقصر مدة هي الأولى بالقبول : ويقول عوانة

(١) الطبري (ج ٢ ص ٤٢٧ س ٨) . ولا يتفق يوم الأسبوع مع يوم الشهر ،
ويجب قراءة ٢٧ يوماً بدلاً من ٢٩ عند الطبري ، لأن حرق الكعبة ، بحسب اتفاق جميع
الرواة ، وقع في الثالث من ربيع الأول .

إن خبر موت يزيد بلغ ابن الزبير قبل أن يبلغ أهل الشام : ولم يرد هؤلاء أن يصدّقوا أول الأمر ، حتى تأيّد لهم الخبر من جهة أخرى ، وعند ذلك شرع الحصين بن نمير يفاوض ابن الزبير . وكان الحصين يريد ، وهو لم يجد أمامه خيراً من ذلك ، أن يبايع ابن الزبير على الخلافة ، إذا قبّل ابن الزبير إهدار الدماء التي أريقَت في المدينة ومكة وخرج معه إلى الشام لكي تبقى الشام مقرّ الخلافة : وقد قبل ابن الزبير الشرط الأول أخيراً ، أما الشرط الثاني فلم يقبله^(١) . وهو لم يكن أيضاً يستطيع قبوله إلا إذا قضى على نفسه بالانتحار السياسي ، ولذلك تحطمت المفاوضات ورحل الحصين ، وقد بدا اليأس على جنوده ، لأنهم لم يكن لهم إمام بعد موت يزيد ، ولم يكونوا يعلمون من أجل من يقاتلون — وإلى هذا الحد كان اتّخاذ الموقف السياسي مرتباً بالبيعة لشخص الإمام . ويروى أن بنى أمية الذين كانوا في المدينة طلبوا من جنده الشام أن يحملوهم معهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا في الحجاز يشعرون بأنهم آمنون على أنفسهم . ولكن رواية هوانة تمنأ ذلك (الطبري ج ٢ ص ٤٦٩ س ٣) ، كما تنافيه أيضاً رواية أبي مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٨١ س ١٠) والواقدي (ص ٤٦٧ س ١٠) ، فلم يخرج الأمويون باختيارهم ، وإنما أخرجهم من المدينة ابن الزبير ، وهذا ما يقوله أيضاً صاحب كتاب Continuatio Byz. Ar. § 29 فهو يقول :

Marvan insidiosc ab ipso Abdella ab Almedinae finibns cum omnibus liberis vel (=et) suis propinquis pellitnr

[أى : أخرج مروان من أرض المدينة غلداً مع أولاده أو (= و) أقربائه ، على يد عبد الله نفسه] .

(١) [لا شك أن ابن الزبير قد رفض الخروج إلى الشام ، وفي رواية أنه رفض إهدار دماء أهل المدينة ومكة . ويظهر أنه قبل الإهدار آخر الأمر ، ورواية الطبري غير صريحة تماماً — راجع ما دار بين الحصين وبين ابن الزبير عند الطبري (ج ٢ ص ٤٣٠ — ٤٣٢) . ولم يكن ابن الزبير ، من حيث الأسلوب — بصرف النظر عن الموضوع — دبلوماسياً ، ويصدق عليه ما وصف به من أنه كان لجوجاً (الطبري ج ٢ ص ٢٢٤ س ١٢) — المترجم] .

٣. - يقول أبو معشر والواقدي وإلياس النصيبى إن يزيد مات في حوَّارين (قرب دمشق) يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة نحات من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، وهو الموافق يوم الثلاثاء ١١ نوفمبر سنة ٦٨٣هـ^(١) ، ولما كان قد تولى الخلافة بغير حق شرعى ، وكان إلى جانب ذلك يحمل الإثم في مقتل الحسين وانتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، فإنه لا يُذكر بغير عند المسلمين . ولكن يزيد فى الحقيقة لم يكن من رجال العنف ، وكان يترك السيف فى عنقه ما وسعه ذلك . وقد وضع حداً للحرب التى استمرت مع الروم سنين كثيرة . أما الذى يمكن أن يُعتاب عليه فهو قلة الهمة وقلة الاهتمام بالشئون العامة للدولة ؛ وكان ، خصوصاً وهو أمير ، لا يأبه لها ، وبذلك جعل ما كان يسعى إليه أبوه من تعيينه خليفة بعده مهمةً عسيرة ، وهو لم يشترك فى الحملة الكبيرة التى وجهت إلى القسطنطينية سنة ٤٩ هـ^(٢) إلا كارهاً . ويظهر أنه بعد أن صار خليفة قد جمع همته ببعض الشئ ، وإن كان لم يترك ، من أجل ذلك ، ما كان يهواه قديماً من نحر وموسيقى وصيد ونحوه من أنواع الرياضة . وفى كتاب الصلة § 27 *Continuatio* يُقال عنه ما يأتى :

iucundissimus et cunctis nationibus regni eius subditis vir gratissime habitus, qui nullam unquam, ut omnibus moris est, sibi regalis fastigii causa gloriam appetivit, sed communis eum omnibus civiliter vixit^(٣) . ومثل هذا الإطراء لم يُقَلْ عن أحد ،

وهو آت من القلب :

(١) الطبرى ج ٢ ص ٤٢٨ من ٨ وص ٤٨٨ من ١٤ . أما ما يخالف ذلك (ص ٤٣٧ من ٣ وص ٥٠٦ من ٧) فهى أقوال خاطئة . وذكر سنة ٦٣ هـ (ص ٤٦٨ من ١٥ ، قارن ص ٤١٢ من ٩) خطأ . ويذكر الزهرى والواقدي أن عمره كان ٣٨ أو ٣٩ عاماً ، ويذكر ابن الكلبي أنه كان ٣٥ عاماً - قارن Nöldeke, DMZ, 1901, p. 683s.

(٢) راجع مجلة *Oöttinger Nachrichten* (١٩٠١ ص ٤٢٣) . وبعد أن حضر يزيد القتال مرة تبين أنه شجاع وكفء (الأغانى ج ١٦ ص ٢٣) [هذا فى قيادته للحملة القسائنة على الروم ، وقد ضرب يزيد باب القسطنطينية - المترجم] .

(٣) [وترجمة هذا الكلام اللاتينى هى : « كان رجلاً لطيفاً إلى أقصى حد ، وهو بعد أن أخضع جميع أمم مملكته أولاء الناس أحسن تقديرهم . وهو لم يطمح أبداً إلى أى مجد لنفسه »]

يقول ابن عرادة ، وهو في خراسان (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨) :
أَبْنَى أُمِيَّةَ إِنْ آخِرَ مُلْكِكُمْ جَسَدٌ بِحَوَارِينَ سَمَّ مَقِيمٌ
طَرَقَتْ مَشِيئَتُهُ وَعَيْنُهُ وَسَادَهُ كُوبٌ وَزِقٌ رَاعِفٌ مَرثُومٌ^(١)

وقد بدا كأنما قد انهارت دولة بنى أمية لما مات يزيد ، فلم يؤيدها
أمراء الأمصار أيضاً . فعقد سَلَمٌ بن زياد في خراسان وعبيد الله بن زياد
في البصرة البيعة لأنفسهما ، وإن كانا قد فعلا ذلك حتى يصطالح الناس على
إمام يرتضونه . وكان طبيعياً أن ينال معاوية الثانى ، ابن يزيد ، وكان أبوه
قد عينه خلفاً له ، اعتراف أهل الشام ، في دمشق على الأقل . وقد أسقط
عند توليه الخلافة ثلث الخراج « عن جميع أمصار مملكته »^(٢) ، ولكنه
مات بعد حكم قصير جداً . ويقول عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٨ -
والبلاذرى ص ٢٢٩ س ٣) إنه تنازل عن الخلافة قبل موته : أما الواقلى
(الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧ س ١) فلا يذكر شيئاً من ذلك . والأغلب أن
رواية تنازله ترجع إلى محاولة تغطية ما وقع من أن الفرع الأحدث من بيت
بنى أمية ، وهو فرع المروانيين ، قد أزال الفرع الأقدم ، وهو فرع السفينانيين ،
عن الخلافة ظلماً وعدواناً ؛ وهذه المحاولة هى التى تفسر لنا أن معاوية الثانى
لا يذكر في كتب التواريخ القديمة بين الخلفاء ، بل الذى يذكر هو أن
مروان جاء بعد يزيد مباشرة . ومثل هذا وقع في قوائم التاريخ في العهد القديم
حيث يغفل ذكر حكم اشبوشثا (Isboseth) ويُعتبر داود تالياً لشاوول مباشرة^(٣)

بسبب ما كان يتمتع به من عظمة الملك ، بل عاش رجلاً عادياً مع الجميع كأحد الرعايا .
والفضل في ترجمة النصوص اللاتينية واليونانية في هذا الكتاب يرجع إلى معاونة الزميل الفاضل
العلامة الأستاذ أمين سلامة - المترجم] .

(١) ن : مرقوم .

(٢) راجع كتاب Cont. Byz. Ar, § 27 ؛ ومثل هذا الـ ἀρεσις [الإعفاء] كان
عند تولى الملك عادة جارية .

(٣) قارن ما يقوله نولده (Nöldeke) في Epimetrum zu Mommsens Ausgabe
der Cont. Isidori وفي مجلة DMZ, ١٩٠١ ص ٦٨٣ والصفحات التالية .

وفي حياة معاوية الثاني بدأت ، فيما يظهر ، الاضطرابات في الشام ؛ وسننتقل إلى الكلام عنها . وقد جاءت هذه الاضطرابات من جانب قبائل قيس الذين كانوا يسكنون خصوصاً في شمال الشام وفي الجزيرة على جانبي نهر الفرات (الطبري ج ٢ ص ٧٠٨ س ٤) وفي قنسرين وقرقيسيا وحران . فيقال إن قبائل قيس كانت هي وحدها ، دون جميع أهل الشام ، هي التي امتنعت من مبايعة معاوية الثاني . وكانوا حنقين على ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية ، لأن أم كل منهما كانت كلبية (الحامسة ص ٣١٩ س ٢ ، ٤) . وكان لحسان بن مالك بن بحدل الكلابي نخال يزيد مركز قوي في الدولة ؛ فكان كالمالك للأمر ، وكان العماد الأكبر لمعاوية الثاني ، وكان أخوه سعيد أميراً على قنسرين . فرأت قيس أن إسناد الإمارة عليهم وفي مدينتهم إلى رجل من كلب أمر لا يمكن أن يطاق ، فبدأوا بأن وثبوا عليه وأخرجوه من قنسرين . وقد فعلوا ذلك تحت إمرة زفر ابن الحارث الكلابي (الأغاني ج ١٧ ص ١١١) ، وكان زفر من قبل في صفوف ابن الزبير يحارب يزيد (الحامسة ص ٣١٩ س ٢٢) . على هذا فقد كان زُبَيْرِيَّ الهوي ، وتبعته قيس بعد أن بويح لابن الزبير في العراق المجاورة لأرض قيس . ولكن ابن الزبير كان له أيضاً بعض أجزاء الشام . وابن بحدل وحده - وهذه هي الصورة المختصرة لاسمه الكامل : حسان بن مالك بن بحدل - هو الذي ظل بعد وفاة معاوية الثاني متمسكاً بسلالة أخته ؛ واكفى يكون أقرب إلى دمشق ، فإنه خرج من فلسطين التي كان أميراً عليها وانتقل إلى الأردن . أما أمير حمص ، وهو النعمان ابن بشير الأنصاري ، ونحن نعرفه تماماً ، فقد بايع لابن الزبير . وفعل مثل ما فعل أيضاً نائل بن قيس الجندلي ، فاستولى على فلسطين ، بعد أن تركها ابن بحدل . أما في العاصمة ، وهي دمشق ، فقد كان الأمر في يد الضحاك بن قيس الفهري ، وكان يقف موقفاً متأرجحاً وذا وجهين ، ولكن لما كان معرضاً لخطر فقدان كل من الجانبين ، فإنه وجد نفسه . آخر الأمر ،

مضطراً أن ينضم نهائياً إلى جانب ابن الزبير .

والأخبار متضاربة فيما يتعلق بتطور الحوادث حتى وقوع الصدام الدموي الحاسم في موقعة مرج راهط . فيقول عوانة (الطبرى ج ٢ ص ٤٦٨) فلما بعدها (إن الأمويين الذين كانوا قد أخرجوا من المدينة ، وكذلك عبيد الله ابن زياد الذى فر من البصرة وكان أميراً عليها ، ذهبوا إلى دمشق ، ويظهر أن هذا كان بعد موت معاوية الثانى . وكان الضحاك ، وهو السيد في دمشق ، يهوى هوى ابن الزبير ويدعو إليه سراً ، وكان الذى يمنعه من إظهار هواه الحقيقى أن بنى أمية كانوا عنده . وبلغ ذلك ابن بحدل رئيس كلب الذين يتهوون هوى بنى أمية ورئيس اليمانيين ، فأراد أن يستخرج الثعلب من جحره ، فكتب إلى الضحاك كتاباً ليقراه على الناس ، وفيه عظم حق بنى أمية وحسن بلائهم عنده وصنيعهم إليه ، وذكر ابن الزبير ووقع فيه واتهمه بأنه منافق قد خلع خليفتين : وسرح ابن بحدل بالكتاب مع رجل من كلب يدعى ناغضة . ودفع ابن بحدل إلى ناغضة نسخة أخرى من ذلك ليقراها على الناس ، إن لم يقرأ الضحاك الكتاب الذى أرسله ابن بحدل إليه . وكتب ابن بحدل إلى بنى أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك . فقدم ناغضة بالكتاب على الضحاك . فلما كان يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر ، ولم يقرأ الكتاب : فقام إليه ناغضة وطلب منه أن يقرأه ، فلم يفعل ، فأخرج ناغضة النسخة التى كانت معه وقرأها على الناس ، وكان من أثر ذلك منظر قتال هو المعروف بيوم جيرون^(١) . فهاجت قيس وكلب بعضهم على بعض ، واقتتلوا في المسجد . وانقسم الأمويون في الجانبين . وقام الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، ثم

(١) تسميته بيوم جيرون الأول تسمية غير صحيحة ، لأن ما يسمى يوم جيرون الثانى ليس سوى اختلاف في قراءة النصوص (الطبرى ج ٢ ص ٤٧١ س ١٣ - ١٩) . وكان جيرون بيتاً كبيراً قديماً . ويظهر أن ضرب الضحاك وقع فيه بعد الصلاة . ويسمى أحد الأبواب الكبيرة في المسجد باسم باب جيرون - قارن الحماسة ص ٦٥٦ بيت رقم ٤ .

يزيد بن أبي النمس الغساني ، ثم سفيان بن الأبرد الكلبي فأقر كل منهم ما جاء في كتاب ابن بحدل ، وأنكر عمرو بن يزيد الحكمي ما جاء فيه . وبعد الصلاة وثبت كلب على عمرو بن يزيد الحكمي فضربوه ومزقوا ثيابه . أما الضحاك فقد أمر بالقبض على المعارضين الذين هاجموا ابن الزبير ، وحبسهم . ولكن قامت كلب وغسان فأخرجوا رجليهم ، ولم يبق في الحبس إلا الوليد بن عتبة ، لأنه لم يكن له قبيلة تخرجه ، ولقد قال : « لو كنت من كلب أو غسان لأخبرت » ، فعند ذلك تدخل خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية ، وهما الأخوان الأصغران لمعاوية الثاني ، فجاءوا ومعهما أخوالهما من كلب فأخرجوه من السجن .

وفي اليوم التالي ندم الضحاك على ما كان منه ، فبعث إلى بني أمية واعتذر إليهم ، وقال إنه لا يريد شيئاً يكرهونه ، واقتراح أن يكتبوا هم إلى ابن بحدل ويكتب هو إليه أيضاً ، فيسير ابن بحدل من الأردن إلى الجابية ، ويسير هو والأمويون حتى يوافوه هناك . ولكن الضحاك انقلب في آخر لحظة ، بعد أن خرج الناس وخرجت بنو أمية ، وذلك أن ثور ابن مسعود بن يزيد بن الأنخس السلمي ، أحد رجالات قيس ، جاء إليه وكلمه قائلاً : دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير ، فبايعناك على ذلك ، وأنت تسير إلى هذا الأعرجي ، تستحلف ابن أخته خالد بن يزيد ! : وانتهى الكلام بأن مال الضحاك إلى ما اقترحه عليه ثور من إظهار ما كان يسيره من طاعة ابن الزبير والدعوة إليه والقتال على ذلك . وعطف الضحاك من كان معه من الناس ، وسار بهم حتى نزل بمرج راهط ، قريباً من دمشق . وأظهر هناك البيعة لابن الزبير ، وبايعه على ذلك جيل أهل دمشق ، من اليمن وغيرهم . وكتب الضحاك إلى النعمان بن بشير أمير حمص وإلى زفر بن الحارث أمير قنسرين وإلى نائل بن قيس أمير فلسطين ، وكانوا جميعاً على طاعة ابن الزبير ، يستمد لهم ، فأمدوه بالأجناد . أما بنو أمية فلأنهم ذهبوا إلى ابن بحدل في الجابية . وكانت

أنهواء الناس في الجابية المختلفة (١) : وكان أمّامهم السفينانيون الذين كانت الخلافة حتى ذلك الحين في أسرهم ، وكان يُمَثِّلُهُم بنو يزيد بن معاوية . وكان يقابلهم في الجانب الآخر الأكبر عدداً بقية الأمويين ، وعلى رأسهم شيخ بني أمية وكبيرهم مروان بن الحكم . وكان هناك خلافٌ حول من تُعَقِّدُ له البيعةُ : فكان ثَمَّ من يميل إلى خالد بن يزيد من أخواله بالذين كانوا يأملون أن يَضَعَهُمْ على رقاب العرب وأن يتجنبوا شرَّ مروان ، وكان هناك من يميل إلى مروان بن الحكم ، ممن لم يريدوا أن يبايعوا غلاماً حداثاً ، بل يريدون شيخاً يقف أمام بن الزبير . وقد انتهى الخلاف باقتناع ابن بجدل - وكان هو الوصي على أبناء يزيد - بمبايعة مروان . وأجمع الناس أيضاً على البيعة له ، على أن تكون الخلافة بعده لخالد بن يزيد ثم لعمر بن سعيد بن العاص . وكانت لأسرة عمرو بن سعيد هذا مطامع في الخلافة ، وكان لابد من إرضائها . وخرج مروان إلى مرج راهط ومعه أهل الأردن من كلب ، وأتتَهُ السكاسك والسكُون وغسّان وربع حستان بن بجدل . وبينما كان الجيشان المتعاديان يعسكر أحدهما أمام الآخر ، وثب يزيد بن أبي النمس الغسّاني على دمشق في عبيدها ، فغلب عليها وأخرج عامل الضمحاك بن قيس منها ، وغلب على الخزائن وبيت المال ، وبايع لمروان وأمدّه بالأموال والرجال . واستمر القتال في مرج راهط عشرين يوماً ، وأخيراً هُزِمَت قيس وأهل الشام ، بعد أن قُتِلُوا مَـتـةً عظيمة ، وقُتِل الضمحاك ومعه ثمانون من أشرف الناس من أهل الشام ، كان كل منهم يأخذ

(١) كان من الأمويين فرع ، هو فرع العبدلات ، وكان هذا الفرع نفسه ينقسم إلى العنابس والأعياص . وكان السفينانيون من العنابس ، وكانت معظم بقية الأسر الأموية من الأعياص . ومروان بن الحكم وابن عمه عثمان بن عفان كانا من بيت أبي العاص ، وكان عمرو ابن سعيد من بيت العاص ، وتكرر الأسماء نفسها ، مع فوارق قليلة الشأن ، فيقال : أمية وعبد أمية ، العاص وأبو العاص - قارن الأغاني (ج ١ ص ٨ فا بعدها ، ص ٨٤ س ١٠ و ج ١٠ ص ١٠٣ فا بعدها و ج ٧ ص ٦٢ والطبرى ج ١ ص ٢٥٣٥ .

القطيفة ، والذي كان يأخذ القطيفة كان يتقاضى عطاءً مقداره ألفاً درهم .
 وإلى جانب رواية عوانة هذه تقف رواية المدائني (الأغاني ج ١٧
 ص ١١١) . لا يقول المدائني شيئاً عن يوم جيرون ، وهو يحكى عن مروان
 شيئاً آخر . غير أنه يتفق مع عوانة في آخر روايته اتفاقاً تاماً ، فيقول :
 إن مروان لما قدم إلى دمشق ، ومعه الأمويون الذين كانوا في المدينة ، أقنعه
 الضحّاك في أول الأمر ، بالانضمام إلى ابن الزبير ، ورضى مروان بأن
 يتقدم بنفسه على ابن الزبير ببيعة أهل الشام ؛ ولكن عمرو بن سعيد
 ابن العاص وعبيد الله بن زياد ومالك بن هيرة والحُصَيْن بن نَمِر (١)
 — والأخيران منهما من قبيلة سَكُون — أقنعوه بأن يقرر عقد البيعة لنفسه .
 فلما علم الضحّاك بذلك رجع عن رأيه واعتذر لبني أمية ، واقترح أن يذهب
 معهم إلى ابن بحدل في الجابية ويشارك معهم في اختيار الخليفة . فأقبل
 ابن بحدل في أهل الأردن إلى الجابية . وسار الضحّاك وبني أمية في أهل
 الشام إلى هناك أيضاً ؛ ولكن قيساً قبضت على الضحّاك ، في آخر لحظة ،
 وهو يصلي ، وقالت له : كَعَوْتَنَا لبيعة ابن الزبير ، وهو رجل هذه
 الأمة ، فلما تابعتك خرجت تابِعاً لهذا الأعراي من كلب ، تابع لابن
 أخته (٢) ، تابعاً له ! فعند ذلك اضطّر الضحّاك أن يتقلب وأن يفعل
 ما أشاروا به عليه من إظهار بيعة ابن الزبير ، وسار حتى نزل مرج راهط .
 وأقبل ابن بحدل حتى لقي مروان وسار إلى دمشق حيث انضمت إليهما
 الجمانية ، فساروا مع مروان حتى نزلوا المرج على الضحّاك ،
 وهم نحو سبعة آلاف رجل ، والضحّاك في نحو من ثلاثين ألفاً ، وبدأ
 القتال فقتل الضحّاك ، وقتل معه أشراف من قيس ، وأقبل زُفَر بن
 الحارث هارباً من وجهه إلى قرقيسيا ، وأقام عمير بن الحباب شيئاً على طاعة

(١) وفي رواية عوانة خلاف يسير - الطبري ج ٢ ص ٤٧٤ ، وقارن ص ٤٨٧ .
 (٢) هذا لا يتفق تمام الاتفاق مع المقدمات ، وابن أخت ابن بحدل المقصود هو خالد
 ابن يزيد .

بنى مروان ، ثم أقبل حتى دخل قرقيسيا على زفر بن الحارث ، فأقام معه ،
وذلك بعد يوم خازر ، حين قُتِلَ عبيد الله بن زياد :

أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ٤٨٠ فـا بعدها) فهو يروى رواية
مغايرة لذلك تماماً ، فيقول إن مروان والأمويين الذين نفاهم ابن الزبير من
المدينة ومكة ومن الحجاز كله لم يقصدوا دمشق ، لأن الضحاك كان أميراً
عليها لعبد الله بن الزبير ، بل هم نزلوا تدمر ، المقر الرئيسي لكلب والنقطة
للوسطى لتجسسهم . وبينما كان مروان على وشك أن يركب بنفسه إلى
ابن الزبير ليبيعه بالخلافة ويأخذ منه الأمان لبني أمية ، إذ ظهر عبيد الله
ابن زياد في تدمر آتياً من البصرة ، فأشار على مروان بأن يأخذ البيعة لنفسه
من أهل تدمر ويسير بهم وبمن معه من بني أمية ، ويُخْرِجَ الضحاك من
الشام . ووافق عبد الله بن زياد على رأيه عمرو بن سعيد . ثم أشار عمرو على
مروان بأن يتزوج أرملة يزيد ليكون ابنها خالد في حجره ، وكذلك حدث ،
فأخذ مروان البيعة لنفسه في تدمر وسار بعد ذلك في ستة آلاف رجل لقتال
الضحاك ، وخرج الضحاك في أهل دمشق ، وخرج معه زفر بن الحارث
وغیره من أنصار ابن الزبير وساروا إلى مرج راهط ، فقتل الضحاك وعامة
أصحابه في المعركة ، وتفرق جيشه . فأما زفر بن الحارث فإنه أخذ وجهاً
من تلك الوجوه هو وشابان من سَلَيْم ؛ فاجاءت خيل مروان تطلبهم ،
فيخاف الشابان المسلميان أن تدركههم جميعاً خيل مروان ، فقالا لزفر :
يا هذا ! أنسج بنفسك ؛ أما نحن فمقتولان ! وهكذا ضحياً بأنفسهما من
أجله (١) . ثم لحق زفر بقرقيسيا ، واحتال على واليها حتى دخل المدينة ،
ثم أخرجه منها وتحصن هو بها . وأما نائل بن قيس الجداى أمير
فلسطين ، فإنه خرج منها هارباً ولحق بابن الزبير في مكة . ولما بلغ
النهان بن بشير أمير حمص خبر موقعه مرج راهط من أجناد حمص الذين

(١) وتشهد بذلك أبيات لزفر نفسه ، فهو صحيح - قارن كتاب أنساب الأشراف
ص ٢٥٣ فـا بعدها .

انهمزوا إليها ، خرج هارباً ليلاً ، ومعه أهله وولده وثقلته . ونحير ليلته كلها ، وأصبح أهل حمص ، فطلبوه ولحقوه وقتلوه . وبعد هذا النصر أطبق أهل الشام كلهم على مروان واستوسقوا له ، واستعمل عماله على بلاد الشام .

والواقدي يقف في موقف شبه وسط بين أي مخنف من جهة وبين عوانة والمدائني من جهة أخرى ، ويمكن جمع روايات الواقدي المتفرقة عند الطبري وتلخيصها على النحو الآتي : كان معاوية الثاني لما حضرته الوفاة قد أتى أن يستخلف أحداً (الطبري ج ٢ ص ٥٧٧ س ١) ، فبويع الضحاك مؤقتاً في دمشق ، إلى أن يجتمع أمر الأمة الإسلامية (الطبري ج ٢ ص ٤٦٨) ، وكان الضحاك يعمل من أجل البيعة لنفسه ، ولكن قريشاً دفعوه إلى مبايعة ابن الزبير (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣ فما بعدها) ، وانضوى مروان تحت لواء الضحاك . ثم جاء الحصين بن نمير مع الأمويين الذين أخرجهم ابن الزبير من المدينة ، وأخبر مروان بنجر ابن الزبير ، وحثه على أن يعمل هو وبنو أمية على إزالة ما هم فيه من اختلاف شديد وأن يقيموا أمرهم قبل أن يدخل ابن الزبير عليهم الشام فتكون فتنة عمياء صماء . فكان من رأى مروان أن يرحل إلى ابن الزبير فيبايعه . ولكن عبيد الله بن زياد قدم إلى دمشق ، لحسن الحظ ، وشدت ظهر بني أمية (الطبري ج ٢ ص ٤٦٧ فما بعدها) ، وعند ذلك قصد مروان إلى الجابية ، لكي يتحالف مع ابن بحدل واليمانيين ، وهناك تلقى البيعة لنفسه باعتبار أنه شيخ بني أمية وكبيرهم ، لأن أهل الشام لم يريدوا أن يبايعوا خالد بن يزيد ، لأنه كان غلاماً حداثاً (الطبري ج ٢ ص ٤٧٢ فما بعدها) . وعند ذلك خرج مروان مع اليمانيين إلى دمشق ، وهُزمت قبائل قيس عند مرج راهط في سنة ٦٤ هـ ، وقتلت مئة مئة لم يقتل مثلها في موطن قط (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣ س ١) .

وأهم النقط التي تختلف فيها هذه الروايات هي : لا يوجد ذكر ليوم جبرون

الذى كان فيه أول مَسْنَزَعٍ للتوتر الموجود في دمشق إلا عند عوانة ، ولا يُذكر عند غيره قط . ويؤيده كتابُ الحِمْصَةِ (ص ٦٥٦ بيت رقم ٤) تأييداً لا يُدْفَعُ ، والشارح يخطئ في ذكر مناسبة ذلك (فهو يقول إنها كانت في عهد معاوية الأول) ؛ وليراجع القارىء ، خلافاً لذلك ، كتاب الحِمْصَةِ (ص ٦٥٧ بيت رقم ٣) وينفرد أو يخفف بالقول بأن الأمويين الذين أُخْرِجُوا من المدينة ذهبوا إلى تدمر ، ولقيهم هناك عبيد الله بن زياد ، وأبو مخنف يخالف في ذلك جميع الرواة ، لأنهم يذكرُونَ أن الأمويين توجهوا إلى دمشق^(١) . على أن الواقع على كل حال هو أن ما حدث على مسرح جبرون حدث أيضاً في دمشق وحضره بعض الأمويين (الطبرى ج ٢ ص ٤٧١ - ٤٧٢) . أما القول بأن جميع الأمويين الذين جاءوا من المدينة كانوا هناك فلا يظهر من وصف ما حدث ، ولا يُذكر مروان وعمرو ابن سعيد ، وهما لا يظهران حيث يُنْتَظَرُ أن يظهرَا . ورغم هذا فإن رواية أبي مخنف قد جُعِلَتْ أعمّ مما كانت ، وذلك خطأ على كل حال ، لأن تدمر عند أبي مخنف لا تحل محل دمشق وحدها ، بل محل الجابية أيضاً . وهو يعتبر أن مبايعة مروان ، التي حدثت في الجابية من غير شك ، حدثت في تدمر . وربما كان ذلك لأن تدمر كانت المقر الرئيسي لقبائل كلب ولم تكن الجابية هي هذا المقر .

أما انقلاب مروان فلا يذكره عوانة على الإطلاق . وأما القول بأن مجيء عبيد الله بن زياد هو الذى أحدث هذا الانقلاب ، فهو ما يقوله أبو مخنف والواقدي ، وهما جديران بالثقة ، ونخصوصاً أن المدائني يوافقهما فيما يقولان (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٩) .

ويقول عوانة والمدائني إن الضمحاك كان من أول الأمر يهوى هوى ابن الزبير ، وإن كان لم يجاهر بذلك . ويقول أبو مخنف إنه كان أميراً لابن الزبير

على دمشق . ولكن أبناء الضمحاك قالوا للواقدي (الطبري ج ٢ ص ٤٧٣ فما بعدها) إن ذلك كذب من جانب آل الزبير ، وإن الضمحاك أراد أن يبقى محايداً لكي يصل هو إلى الخلافة ، وإنه لم يبايع ابن الزبير إلا كارهاً . ويستطيع الإنسان أن يصدق أبناء الضمحاك . ويظهر أن الضمحاك ، شأنه شأن مسلم بن عقبة ، قد احتفظ في خلافة يزيد أيضاً بالمركز الذي كان له أيام معاوية ، وكان هو الساعد الأيمن لمعاوية . وبعد أن انتهى ملك أسرة معاوية كان الضمحاك هو الخليفة المؤقت في دمشق ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بمركزه فوق الأحزاب ، وبعد تردد طويل انضم أخيراً إلى جانب قيس وابن الزبير .

وكان الذي أخرجه عن الحياد هو بوجه خاص حسّان بن مالك ابن بحدل ، منافسه القديم وخصمه الخطر عندئذ . وكانت وراء حسّان قبائل كلب ، وظلّ حيناً ينافح وحده عن راية بني أمية بدفاعه عن حقوق أبناء يزيد ، وهم أبناء أخته . وقد انضم إليه أمويّو المدينة في ذلك ، ولكنهم لم يُقَدِّموا في أول الأمر مُرَشَّحاً للخلافة من بينهم ، بل كانوا يعتقدون أنهم يجب عليهم أن يسالموا ابن الزبير ، مهما كان في ذلك من خير أو شر ، ولم يغيّر رأيهم إلا عبيد الله بن زياد ، ذلك أنه لما بيّن عبيد الله لمروان أنه ليس مضطراً أن يختار بين ابني يزيد الغلامين القاصرين وبين ابن الزبير وحدهم ، بل يجب عليه أن يتقدم هو للرياسة ، كانت الوسيلة الوحيدة لذلك هي أن يتفاهم مع ابن بحدل لأن ابن بحدل هو الذي كانت في يده دون غيره القوة الكافية (الطبري ج ٢ ص ٧٠٨ س ٤ - ٥) . ولتحقيق هذا الغرض تمّ الاجتماع في الحابية ، ويظهر أن الضمحاك كان قد وافق على أن يحضر الاجتماع ، وهو الذي وصل الاجتماع إلى غايته بعد مفاوضات طويلة . ومن المؤكد أن هذا الاجتماع وقع فعلاً ، وإن كان أبو مخنف لم يذكره . ذلك أنه ما كان شيءٌ ليتمكن أن يُعْمَلَ بدون ابن بحدل ، وظل ابن بحدل

يصلى بالناس في الجابية أربعين يوماً ، وكان هو المنتصر الحقيقي في مرج
واط (١) . يقول تيوفانيس في أخبار حواث سنة ٦١٧٥ :

Καὶ συναχθέντες οἱ Φοίνικες καὶ οἱ Παλαιστίνης ἐπὶ τῇ
Δάμασκον ἔρχονται καὶ ἕως τοῦ Γαβιθᾶ πρὸς Ἀσαν ἀμνηστῶν
Παλαιστίνης, καὶ δίδουσι χεῖρας δεξιὰς τῷ Μαρουᾷ καὶ ἰστών
αὐτὸν ἀρχηγόν. (٢)

أما المؤرخون المحدثون ، وعلى رأسهم دوزي ، فهم يتكلمون عن
عداوة متأصلة بين كلب وقيس ، ويزعمون أنها ترجع إلى أزمان لا تعيها
ذاكرة التاريخ ولا يمكن الوصول إلى عروقتها . ولكن شيئاً من ذلك
لا يوجد في الروايات السابقة على الإسلام ، فالحقيقة هي أن العداوة
لم تكن موجودة قبل فتح الشام على يد المسلمين ولا قبل هجرة قبائل
قيس إلى الشام (٣) . على أن التمايز في النسب بين قضاعة وقيس كان
موجوداً من قديم ، ولكنه لم يصبح سبباً في تسمم العلاقة بينهم إلا الآن .
وقد اشتدت الخصومة بينهم أول الأمر ، لأن قضاعة كانت متوطنة
في الشام من قبل وأن قيساً كانت حديثة عهد بالهجرة إلى هناك . ولكن
الخصومة زادت حدة بوجه خاص لأن قبائل كلب أصبحت بفضل مصاهرتها

(١) قارن الحماسة ص ٣١٩ س ٧ :

وما الناس إلا بحدلي على الهوى وإلا زُبَيْرِي عصى فستزبرا

ولكن قارن خصوصاً ص ٦٥٨ بيت رقم ١ - ٢

أَجَبَدَ المليك ما شكرت بلاءنا فكل في رخاء الأمن ما أنت آكل
بجارية الحولان لولا ابنُ بحدل هلك ولَمْ ينطق لقوميك قائل

(٢) [وترجمة هذا النص اليوفاني هي : وبعد أن اجتمع أهل فينيقية وأهل فلسطين وذهبوا
إلى دمشق ومنها إلى الجابية إلى الحسن أمير فلسطين بايعوا مروان ونصبوه خليفة - المترجم] .
(٣) وقد أصاب جولدزهر (Muh. Studien 1, 78) في القول بأن التنافس بين عرب
الشمال وعرب الجنوب لم يظهر حقيقة إلا في الإسلام .

للمعاوية ويزيد قريبة من البيت الحاكم ، وكان من أثر ذلك أن امتلأت نفوس
قيس بالحسد ، لأنهم اعتقدوا أنهم قد زُحِزِحوا إلى المرتبة الثانية : ثم
صاروا هم البادين بالشر ، وذلك أنه لما ارتفع شأن ابن الزبير بعد وفاة
يزيد ، انضموا إلى جانبه ، على حين حافظت كلب على ولائها للأمويين :
وهكذا امتزج الخصام القبلي بالسياسة العليا ، وكانت مجموعات القبائل
المرتبطة برابطة النسب هي بالإجمال الأحزاب السياسية التي كانت في أصلها
مستقلة عن القبائل . وفي موقعة مرج راهط ، إذا أخذنا بالفصائد القديمة
التي قيلت فيها ، كانت قبائل سليم وعامر (هوازن) وذبيان (غطفان)
- وكلها قبائل تنتمي إلى مجموعة قبائل قيس - يحاربون تحت إمرة
الضحاك مع ابن الزبير : أما القبائل التي كانت تحارب لأجل مروان تحت
قيادة ابن بجذل فكانت قبائل كلب وغسان وسكون وسكسك وتنوخ
وطيئ وقين ، وهذه المجموعة التي كانت تتألف من قبائل كلب^(١) ، وهي
القبيلة الرئيسية في قضاة ، كانت أكثر تنوعاً ، وهي تسمى أحياناً باسم
شامل هو : اليمن . ولكن اعتبار قضاة داخلية في قبائل اليمن لم يكن قديماً ،
ولم تنضم قبائل اليمن كلها في الشام إلى قبائل كلب . وقد انتهت موقعة مرج
راهط بانتصار كلب على قيس التي كانت أكثر من كلب ضعفين أو ثلاثة
أضعاف . ولكن النزاع بين قيس وكنب لم ينته بذلك ، لأن قيساً كان لا بد
أن تتأثر لقتلاها الكثيرين . وهنا ، لا قبل ذلك ، يبدأ على وجه أصح
ذلك الخصام المبرر المستمر الذي يعتبره دوزي ظاهرة قديمة جداً يردّها
إلى الأزل ، مخالفاً في ذلك للتاريخ مخالفة تامة .

(١) كانت سكون (من كتلة) تعتبر أنفسها منهم (الطبري ج ٢ ص ٤٧٥ س ٢) .
وكانت تنوخ وطيء أيضاً مرتبطة بهم ارتباطاً وثيقاً (الطبري ج ٢ ص ٤٨٤ س ١٢) .
أما غسان (من الأزدي) فكانت هي القبيلة القديمة الحاكمة من عرب الشام . وفي كتاب الحماسة
(ص ٧١ بيت رقم ٣) تسمى قبائل كلب باسم تغلب ، إذا صح ما جاء في الشرح .

وكان البغض الناشئ عن اختلاف الدم يتجدد في كل مناسبة يجد فيها ما يشفيه ، وهو قد كان يلهب نيران العداوة ، حتى بعد أن زالت الأسباب السياسية ، وبعد أن نُسيت ، بزمان طويل . والوزن في ذلك يرجع إلى موقعة مرج راهط ؛ وفي هذا ينحصر شأنها الخطير وما جرته من كوارث ؛ فلقد جاءت للامويين بالنصر ، ولكنها في الوقت نفسه زعزعت أسس ملكهم . وتلقى مروان البيعة في الحلبية يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤ هـ ، الموافق الأربعاء ٢٢ يونيه سنة ٦٨٤ م . بعد موقعة مرج راهط (آخر عام ٦٤ هـ) جاءت بيعة أخرى كانت ذات صبغة أعم وأقوى احتفالاً ، وذلك في دمشق في المحرم سنة ٦٥ هـ ، الموافق يولييه - أغسطس سنة ٦٨٤ م .

وقد وصل مروان ، بفضل إخراجهم من المدينة ، إلى عرش دمشق دون فضيلة اختص بها^(١) ، بل ودون أن يكون هو نفسه قد أراد ذلك أو حدثت نفسه به . وقد بدا هذا لصاحب كتاب Cont. Byz. Arab شيئاً عجيباً ، وله أن يعجب ؛ فهو يقول^(٢) :

(١) [الحقيقة أنه بعد موت يزيد وتنازل معاوية الثاني ثم موته لم يبق من بيت أبي سفيان سوى غلامين حدثين ، هما خالد وعبد الله ، ابنا يزيد . وكانت تلوح على خالد - الذي اتجه إلى دراسة الحكمة فيما بعد - علامات الذكاء ، ولكنه كان حدثاً لا يمكن اختياره للخلافة أمام ابن الزبير . ولم يكن هناك من بيت النبي نفسه أحد بعد قتل الحسين ووفاة الحسن ، وقد استعرض روح بن زنباع الجذامى الموقوف في خطبة له (الطبرى ج ٢ ص ٤٧٥ - ٤٧٦) عند تنوع الأهواء حول المرشح للخلافة ، فوجد أن عبد الله بن عمر ، الذى ذكره البعض ، رجل ضعيف لا يصلح لقيادة الأمة المحمدية ، وأن ابن الزبير ، رغم مكانته ، منافق خارج على الأمة . قد سفك دماء المسلمين ؛ فلم يبق إلا مروان بن الحكم . ويذكر عند الطبرى في مواضع أخرى ، ما كان لمروان من سن وتجربة ، وما كان مسلماً له به من أنه شيع بنى أمية وكبيرهم . وإذن فلم يكن انتخاب مروان جزافاً ، بل كان لأنه لم يكن في بيت بنى أمية من يصلح للخلافة غيره ، وأولا تعيينه خليفة اتفقت عليه كلمة أهل الشام الذين كانوا عماد الدولة العربية ، لتعرضت هذه الدولة لأعظم الأخطار . أما إنه لم يكن يطمح في الخلافة فهذا صحيح - المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتينى هي : وشاءت إرادة الله أن يعثلى مروان العرش (بعد أن كان قد أخرج غدرأ من المدينة) بعد فترة طويلة من الزمان ، وذلك بفضل جماعة من الجيش اتفقت على ذلك - المترجم] .

Marvan (insiditose ab Almidina pulsus) post modica temporis intervalla aliquantis de exercitu consentientibus deo conivente provehitur ad regnum.

وهكذا بقيت الخلافة في بيت بني أمية ، ولكن المروانيين أزالوا السفليانيين عنها^(١) ، وكان زواج مروان من فاختة^(٢) أرملة يزيد ، أشبه بأخذ الميراث منه بأن يكون زواجاً ومصاهرة . وقد آلم مروان بذلك نفس خالد بن يزيد^(٣) ، الذي أصبح في حجره ، ألماً شديداً . وكان مروان لا يألو جهداً في إسقاط خالد من أعين الناس (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧) ، وأخيراً حرمه مما كان قد وعده به في الجابية من أن تكون له الخلافة بعده ، فأخذ البيعة لابنيه : عبد الملك وعبد العزيز ، على أن يكون عبد العزيز بعد عبد الملك^(٤) . ولم يعارض ابن بجدل في هذا النكث بالعهد ، وربما كان ذلك لأن من شأن هذا النكث أن يستحى عمرو بن سعيد بن العاص أيضاً ، لأن مروان كان شيخاً قد كسرت سنه ودق عظمه ، وكان لا يستظر له أن يعيش طويلاً ؛ وكان خالد بن يزيد ، بحسب رأى العرب ، لا يزال صغيراً لا يصلح لتولى الخلافة ، وعلى هذا كان مآل الخلافة إلى عمرو بن سعيد ، وكان عمرو واثقاً من ذلك . ولكن فاختة انتقمّت لابنها خالد من غدر مروان وتعمده إسقاط خالد في أعين الناس ، فغطته بالوسادة وهو في سريره حتى قتلته ، وهذا ما يرويه الواقدي (الطبرى ج ٢ ص ٥٧٦ فما بعدها) .

٤ — ومات مروان بن الحكم ، بحسب رواية الطبرى (ج ٢ ص ٥٧٧ س ١٧) ، في رمضان ، وبحسب رواية الطبرى أيضاً (ص ٥٧٦ س ١٦) في

(١) قارن ما تقدم ص ١٦٦ - ١٦٧ و ١٧٥

(٢) لم تكن فاختة في رأى A. Müller, I, 375 مولر بدوية أبية ، وإنما كانت قرشية [كيف وقد تقدم أنها كانت أخت ابن بجدل ، سيد كلب - المترجم] .

(٣) راجع البيت المذكور عند ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٧٥ ، وقارن ص ٢٩٦ س ٨ .

(٤) راجع فيما يتعلق بزمان هذه البيعة ومكانها كتاب أنساب الأشراف (ص ١٥١ ،

١٦٤ فما بعدها) .

هلال رمضان . وبحسب ما يقوله إلياس النصيبى فى يوم الأحد ٢٧ رمضان سنة ٦٥ هـ ، الموافق الأحد ٧ مايو سنة ٦٨٥ م . ويختلف الروايات فى عمره عند الطبرى (ج ٢ ص ٥٧٧ فما بعدها) بين ٦١ و ٨١ عاماً بحسب الأقل والأكثر . ويقول تيوفانىس إنه حكم تسعة أشهر ، ويقول الطبرى إنه حكم تسعة أشهر أو عشرة . ويذكر فى كتاب Contin. Byz. Ar. § 29 أنه مات بعد عام مملوء بالحروب ؛ وإنى أضف هذه الحروب إلى حروب ابنه وخليفته عبد الملك ، لأنها ليست إلا البداية ، ولأن الحدود بين حكميهما لا يمكن وضعها فى كل الأحوال وضعاً دقيقاً^(١) .

وكانت أكبر حرب هى الموجهة إلى ابن الزبير ، وعلى الأقل إلى الولايات التى كانت قد بايعت له وكان عليها أمراء من قبيلته^(٢) . وعاد الموقف فى الحملة إلى ما كان عليه بعد مقتل عثمان . فوقفت الشام وحدها أمام جميع البلاد الإسلامية ؛ غير أن سيد الشام عند ذلك لم يكن واثقاً من ولائها له ثقة معاوية من قبل . وبعد موقعة مرج راهط انضمت فلسطين وحمص ، من غير تردد ، إلى الجانب المنتصر . وسلّمت قنسرين أيضاً . ولكن قبائل قبس ثبتت على ضفاف الفرات على عنادها وكان سيّدُها زفر بن الحارث فى قرقيسيا . ورغم هذا ظهر مروان وعبد الملك من أول الأمر مهاجمين لابن الزبير ؛ وربما كان ما على ابن الزبير أن يواجهه من اضطرابات فى الداخل ، خصوصاً فى العراق ، أشد عليه من هجوم مروان وعبد الملك^(٣) ، وبعد أن اجتمع لروان أمر الشام سار إلى مصر ، وأخذ البيعة فيها لنفسه ؛

(١) والحدود المرسومة عند الطبرى (ج ٢ ص ٥٥٨ س ١٤ ، ٥٧٨ س ٩ ، ٧٠٨ س ٤) خطأ من غير شك .

(٢) قارن فيما يتعلق بخراسان الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ، ٨٣١ فما بعدها ، وقارن الفصل الثامن فيما يلى .

(٣) قارن فيما يتعلق بما يأتى : Schia, p. 72ss. Chavârig, p. 32ss. .

ثم أقبل راجعاً إلى دمشق ، حتى إذا دنا منها بلغه أن ابن الزبير قد بعث أخاه الأصغر مصعب بن الزبير نحو فلسطين ؛ فسرّح إليه مروان عمرو بن سعيد في جيش فهزمه^(١) . غير أن محاولة مروان أراد بها استرداد المدينة باءت بالفشل^(٢) ، ووجه مروان عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة لكي يعبر إلى العراق التي كانت قد مزقتها النزاع بين الأحزاب الدينية السيامية . ويروى أن مروان وعد عبيد الله بأن تكون له جميع البلاد التي يغلب عليها وأنه أمره إذا هزلب على الكوفة أن يستهيها ثلاثة أيام (الطبري ج ٢ ص ٥٧٨ و ٦٤٢) . وفي أول هذه الحملة ، عندما كان عبيد الله لا يزال عند جسر مستنيج على الفرات . كانت مقتلة شيعة الكوفة الذين كان يقودهم سليمان ابن صرّد عند عين وردة ، وكان قتلهم على يد الحصين بن نمير قائد عبيد الله ابن زياد يوم الجمعة ٢٤ جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، الموافق الجمعة ٦ يناير سنة ٦٨٥ م (الطبري ج ٢ ص ٥٥٩ س ٤ ، ٢٠) . ثم اضطرب عبيد الله أن يشتغل عند ذلك بقتال زفر بن الحارث ومن معه من قيس نحواً من سنة^(٣) ، وبعد ذلك تقدّم سائراً مع طريق الجيوش العادي إلى العراق قاصداً الموصل ، وذلك في الوقت الذي كان فيه المختار الثقفي قد استولى على الكوفة . وانحاز أمير الموصل من قبيل المختار إلى تكريت (الطبري ج ٢ ص ٦٤٣) ، فهزم عبيد الله الجيش الأول الذي وجهه إليه المختار ، بعد قتال عنيف ، وذلك في العاشر والحادي عشر من ذي الحجة سنة ٦٦ هـ ، الموافق ٩ و ١٠ يولييه سنة ٩٨٦ م (الطبري

(١) الواقدي عند الطبري ج ٢ ص ٤٦٧ س ١٠ ، وأبو مخنف ص ٤٨١ ، وعوادة ص ٥٧٦ ؛ وقد تم ذلك على يد عمرو بن سعيد ، قبل أن يأخذ مروان البيعة لولديه — راجع كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ س ١٧ .

(٢) عوادة عند الطبري ج ٢ ص ٥٧٨ فما بعدها وص ٦٤٢ ، راجع أيضاً كتاب أنساب الأشراف ص ١٥٥ س ٢ ، ١٨٠ س ٢ . وكان يوسف الثقفي والد الحجاج مشتركاً في ذلك ، وهذا بحسب حكاية ابن قتيبة ص ٢٠١ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٤٦٣ ، ويعتبر فان جيلدر (Van Gelder) في كتابه Muchtar, P, 96, 152 أن هذا خطأ . دون أن يبدي الأسباب الكافية لما يقول .

ج ٢ ص ٦٤٦ وما يليها) . ولكن عبيد الله لم يلبث أن هُزم بعد ذلك أمام جيش ثانٍ للشيعة يقوده إبراهيم بن الأشتر ، وذلك في موقعة خازر ، في أول سنة ٦٧ هـ (١) ؛ وقُتل عبيد الله نفسه كما قُتل الحصين بن نمير أيضاً (الطبري ج ٢ ص ٧١٤ س ١ - ٣) . وكان طبيعياً أن ترفع قيس رأسها من جديد في قرقيسيا ، وشددت من أزرهم رجالٌ من قبائلهم ، وجاءوا تحت إمرة عُمَيْسِر بن الحباب ، وكانوا من قبل يحاربون في جيش الشام ، ولكنهم انفصلوا عنه في أثناء موقعة خازر أو بعدها . وذهب العمل الذي قضى عبيد الله قرابة عامين في تحقيقه سدى ، وكان لا بد أن يُعْمَل من جديد . وكان من حسن حظ عبد الملك أن مصعب بن الزبير ، وكان أميراً لأخيه على العراق ، قد ضايقه الشيعة والحوارج في إمارته نفسها ، فلم يكن يستطيع أن يفكر في الشروع في حرب خارج العراق .

وكان لا بد أن يمضي زمانٌ طويل قبل أن يستطيع عبد الملك أن يستأنف المهمة التي فشل فيها عبيد الله بن زياد ، أعنى إخضاع العراق التي كان يحكمها مصعب مستقلاً بعض الاستقلال عن أخيه . وكان على عبد الملك أن يشتغل بمشكلات في الداخل ، لأن نائيل بن قيس ، فيما يظهر ، بدأ يتوثب من جديد (٢) . ولكن الذي عاق عبد الملك هو بنوع خاص أن الروم خرقوا السلام ، وأنخلوا بحرِضون الجراجة (die Mardaiten) في جبال اللكام (Amanus) على العرب (٣) ؛ ولكن مصعباً قُتل في سنة ٧٢ هـ ، وانتهت الحرب الأهلية في سنة ٧٣ هـ . وفيما

(١) أغسطس سنة ٦٨٦ م . وقد نهى دى غوى إلى التاريخ الدقيق الموجود في كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٣١٢ س ١٧ [هو يوم عاشوراء سنة ٦٧ هـ - المترجم] .
(٢) راجع اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢١ والمسعودي ج ٥ ص ٢٢٥ ، لكن ربما لا يكون هنا سوى خطأ في تاريخ السنة .

(٣) Göttinger Nachrichten 1901, p. 428ss. [وجاء عند اليعقوبي ص ٣٢١ ، أنه لما أراد عبد الملك النهوض إلى محاربة نائل بن قيس بفلسطين أتاه الخبر أن طاغية الروم قد أتاخ على المصيصة ، فكره أن يتشاغل بمحاربته مع اضطراب البلدان ، فوجه إليه فصالحه وحل إليه أموالاً كثيرة - المترجم] .

يتعلق بالمدة بين سنة ٦٧ هـ ، التي قُتل فيها عبيد الله بن زياد ، وسنة ٧٢ هـ نجد الروايات ناقصة . والمهم هو تحديد أزمدة الحوادث ، وهي لا تزال مضطربة اضطراباً تاماً . ويجب ألا يعزب عن البال أن نقطة الانتقال من عام إلى عام ، بحسب التاريخ الهجري ، كانت تقع في ذلك الوقت في الصيف وأن الحوادث التي كانت تتوقف في الشتاء عادة (الطبرى ج ٢ ص ٧٩٧ س ١٠) كانت تنقسم بين سنتين من سنى الهجرة ، على حين أنه لا تذكر في تحديد تواريخ الحوادث إلا سنة واحدة .

ومن السهل أن نفهم لماذا ترك عبد الملك مصعب بن الزبير يحارب المختار في سنة ٦٧ هـ ، وأنه لم يُزعج أهل العراق ، وهم يقتتلون ويفنى بعضهم بعضاً . ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ٧٦٥) وإلياس النصيبى أنه كان في الشام قحطاً شديداً في سنة ٦٨ هـ وبسببه لم يقدر أهلها على الغزو ، ويتكلم تيوفانيس (في أخبار سنة ٦١٧٩ = ٩٩٨ من حكم السلوقيين = ٦٨ هـ) عن ذلك أيضاً : أما المدائني (الأغاني ج ١٧ ص ١٦١ س ٢٦) فليس على حق فيما يقوله خلافاً لذلك ، وهو يضع المجاعة في سنة متأخرة عن ذلك بعض التأخير .

ويقول رواة العرب وإلياس النصيبى^(١) إن أول خروج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير كان في صيف سنة ٦٨٩ م = ٦٩ - ٧٠ هـ . وكان معسكره ونقطة تجمع جيشه وقاعدة تدبير عملياته الحربية في بطنشان حبيب من أعمال قنسرين ، في هذه السنة وفي السنين التالية^(٢) . أما مصعب فكان معسكره في

(١) إن ترتيب الأحداث العربية في هذه السنين مضطرب عند تيوفانيس اضطراباً تاماً ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما يقوله عن زياد (= ابن زياد) والمختار وسعيد (= ابن سعيد) وعن مصعب إلا بعد إصلاح ترتيب الحوادث من حيث الزمان .

(٢) إن الرواية القائلة بأن عبد الملك كان مع الجيش في بطنان حبيب منذ سنة ٦٧ هـ تخالف الرواية المتقدمة عليها التي تقول إنه في هذه السنة لم يستطع أن يغزو بسبب القحط . وإنما تذكر هنا كلمة « بطنان » بمناسبة ما يحكى من أنه في ذلك الوقت كان تحت أقدام الجيش بطنان الوسل ، وذلك بسبب المطر الذي نزل بعد الجفاف . وسبب التسمية لا بد أنه كان يرجع إلى أحوال دائمة لا إلى ظروف طارئة ، كما قيل عن هاربورج Harburg في إقليم Landdrestei Lüneberg أنها هاربورج الوسل Dreck-Harburg .

باجُسمَيِّرا ، عند تكريت^(١) ؛ وكل من المعسكرين كان ثغراً ونقطة حدود على الطريق الكبير بين الشام والعراق . أما أرض الجزيرة فكانت منطقة بين العَدُوِّين ، غير أنها كانت أقرب إلى أن تكون في يد مصعب منها إلى أن تكون في يد عبد الملك ، وذلك أن قبائل قيس على الفرات كانت أيضاً إلى جانب مصعب ؛ ولكي يكفي عبد الملك نفسه خطر الروم فإنه صالحهم على أن يحمل إليهم أموالاً كثيرة^(٢) ؛ ولكن عمرو بن سعيد بن العاص ثار في دمشق وتحصن بها ، يريد الحصول على ما صار له في معاهدة الجابية من حق في الخلافة وحرمة منه مروان بنقضه هذه المعاهدة . فصار عبد الملك مُهتَدِداً من خلفه ، واضطرب إلى أن يقفل راجعاً للدمع لهذا الخطر ، فأعمل السيف وقتل أعداءه (الطبري ج ٢ ص ٨٠٥) ، وقتل بيده عمرو ابن سعيد بن العاص على نحو فيه غدرٌ وقسوةٌ منكرة . والروايات (الطبري ج ٢ ص ٧٨٣) فما بعدها وص ٧٩٦ وكتاب أنساب الأشراف (ص ٢٥) تضع بعض هذه الحوادث في سنة ٦٩ هـ ، وتضع بعضها الآخر في سنة ٧٠ هـ ؛ ولكن لا يصح أن يُخدع الإنسان بهذا فيعتبرها منفصلة ، لأنها في الحقيقة متصلة وقد وقعت في صيف واحد ، والروايات مضطربة أيضاً فيما يتعلق بالمدى الذي ذهب إليه عبد الملك بالفعل في حملته نحو الشمال الشرقي . فيقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٧٨٣) وإلياس النصيبى إنه رجع من عند عين وردة ، ولكن الواقدي نفسه (الطبري ج ٢ ص ٧٩٦) يقول إنه لم يكن قد تجاوز بطنان حبيب : ويظهر أن عوانة (الطبري ج ٢ ص ٧٨٣) فما بعدها) يأخذ بالرواية

(١) يقول ياقوت (ج ١ ص ٦٦٤) إن عبد الملك أيام حربه مع مصعب بن الزبير كان يشق في بطنان حبيب ، وإن مصعباً كان يشق في مسكن . وكان لمسكن نفس الأهمية الجغرافية العسكرية تقريباً التي لباجُسمَيِّرا - قارن البلاذري (ص ١٤٩ من ٨) .

(٢) راجع Götting. Nachrichten 1901 p. 488 [ويقول الطبري ج ٢ ص ٧٩٦ ، إن عبد الملك صالح ملك الروم على أن يحمل إليه في كل جمعة ألف دينار ، وذلك خوفاً منهم على المسلمين - راجع هامش صفحة ١٨٢ - المترجم] .

الأخيرة ؛ وهو يقول إن عبد الملك كان في طريقه إلى محاربة زفر بن الحارث في قرقيسيا^(١) ، ولكنه اضطر أن يرجع لأن عمرو بن سعيد - بعد أن كان قد رافق عبد الملك إلى البطنان - رجع خفية هو وآخرون إلى دمشق ، واستولى عليها ، ونجد مثل هذا عند اليعقوبي (ج ٢ ص ٣٢١ فما بعدها) ،

وفي السنة التالية ، سنة ٧٠ - ٧١ هـ = صيف ٦٩٠ م ، أعيدت الحملة ؛ وفي هذه المرة أيضاً لم يشتبك الحصان . وبينما كان مصعب في الميدان (الطبري ج ٢ ص ٧٩٨ - ٨٠٣) دبّر عبد الملك ثورة قبائل كلب أو ربيعة (وهم المسمون الجُفْرِيَّة) في البصرة ؛ وقد اشترك في قتال مصعب وزفر رجلان من تلقاء أنفسهما ، ولم يكن ناشئاً عن المحبة لعبد الملك بمقدار ما كان ناشئاً عن البغض لمصعب بن الزبير : وهما عبيد الله ابن الحرّ الجعفي من أشرف الكوفة (الطبري ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٨٨ فما بعدها و ٧٦٥ فما بعدها) وعبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري من أهل البصرة ، وكان شجاعاً مقداماً ومن أفتك الناس (الطبري ج ٢ ص ٨٠٠ و ٨٠٧ - ٨١٠ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٥ و ٢٦٨ وكتاب الأغاني ج ١١ ص ٦٢) .

ولم ينته هذا اللقاء إلى شيء . يقول الطبري في حوادث سنة ٧١ هـ (ج ٢ ص ٧٩٧) إن عبد الله خرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير . ثم يذكر ما كان يقال من أن عبد الملك كان لا يزال يقرب من مصعب حتى يبلغ بطنان حبيب ، وأن مصعباً كان يخرج إلى باجيرا - فكانت المسافة بينهما غير كبيرة - ثم يهجم الشتاء ، فيرجع كل واحد إلى موضعه ؛ ثم يعودان ، ويمكن الشك فيما إذا كان ما يقال هنا من خروج عبد الملك مجرد تكرار خطأ لما كان

(١) وفي كتاب الحامسة (ص ٦٥٨ بيت رقم ٦) ذكر هجوم قيس على البطنان ، وأن الفضل في رد هجومهم لقبائل كلب .

تقد وقع في سنة ٦٩ - ٧٠ هـ . وثورة الجفرية التي يذكرها الطبري في حوادث سنة ٧١ هـ (قارن الطبري ج ٢ ص ٨١٣ س ١١ وما بعدها) كانت قد وقعت بحسب ما جاء عند الطبري نفسه (ج ٢ ص ٧٩٨ س ٥) في سنة ٧٠ هـ . ويظهر أن الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٨٠٥) يضع هذه الثورة في نفس الوقت الذي يضع فيه ثورة عمرو بن سعيد في دمشق ؛ ولكنه على كل حال لا يذكر تاريخ الحملة الأخيرة الحاسمة ، فيجعلها سنة ٧٠ - ٧١ هـ (الطبري ج ٢ ص ٨١٣) .

وعلى هذا فلا يمكن في الحملة إلا القول بحملتين . ولكن الإنسان مع هذا لا يظفر بحقيقة الأمر ؛ وهذا يتبين ، كما سنرى ، إذا حسبنا تاريخ الحوادث من أواخرها . ولكنه يتبين أيضاً من الدلائل المباشرة ؛ ففي بيت شعري من ذلك العصر (الأغاني ج ١٧ ص ١٦٢ والمسعودي ج ٥ ص ٢٤١) يخطب مصعب هكذا :

أكل عام لك باجمـيرا تغزو بنا ولا تُفيد خـيرا

وفي بيت آخر (الطبري ج ٢ ص ١٠٣٨ س ٤) ذكر كلمة باجميرا في صيغة الجمع ، أعني باجميرات . والمقصود هو جمع الزمان لا جمع المكان . أما المدائني (الأغاني ج ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) فهو يصرح يذكر ثلاث حملات في ثلاث سنين متوالية ، ويروي أنه لما كانت سنة ٧٢ هـ استشار عبد الملك رجالاته في المسير إلى العراق ومناجزة مصعب ابن الزبير ، فقال عبد الرحمن بن الحكم : يا أمير المؤمنين ! قد واليت بين عامين ، تغزو فيهما ، وقد خسيرت خيلك ورجالك ؛ وعامك هذا عام "حارذ" ، فأرج نفسك ورجالك ، ثم ترى رأيك . وقال له يحيى ابن الحكم - وكان عبد الملك يقول : من أراد أمراً فليشاور يحيى بن الحكم ، فإذا أشار عليه بأمر فليعمل بخلافه - : أرى أن ترضى بالشام وتقيم بها ، وتدع مصعباً بالعراق ، فلعن الله العراق ! وقال له محمد بن مروان :

أرجو أن ينصرك الله ، أفت أم غزوت ، فشتمت ! فإن الله ناصرك ،
فاستعد عبد الملك للمسير ، وخرج لقتال مصعب ، فجاءت له السنة الثالثة
بالنصر الحاسم .

وكان ذلك في صيف سنة ٦٩١ م = ٧١ - ٧٢ هـ ، وقضى عبد الملك
الخطر الأكبر من هذا الصيف في إخضاع أرض الجزيرة . وقد استسلم زفر
ابن الحارث في قرقيسيا بعد حصار طويل ، أما ابنه الهذيل فقد اضطر إلى
أن يلحق بعبد الملك في حروبه (١) . ونجد الأخبار المفصلة في هذا عند ابن
الأثير (ج ٤ ص ٢٧٥) ، وعنده توجد أيضاً أخبار غزو
لقرقيسيا قام به قبل ذلك ، بأمر من عبد الملك ، أبان بن عقبة بن أبي
معيط ، أمير حمص ؛ ولكنه لم ينته إلى شيء . وبحسب هذه الأخبار لم يستسلم
زفر أمام جيش كلب وقضاة ، بل هو انضم إلى عبد الملك طوعاً
واختياراً ، بعد أن أعطاه عبد الملك الأمان . ولا شك أن هذا من إملاء
روح الفخر الكاذب عند قيس ؛ فهي تريد ، بعد أن انهزمت ، أن تُزيل
مرارة الهزيمة . ولكن كان لابد بعد تسليم قرقيسيا من التغلب على عين وردة
(Rasaina) ، وكان عمير بن الحباب لا يزال فيها متحصناً مستمراً في المقاومة (٢) ،
كما كان لابد من التغلب على نصيبين أيضاً . وكان المسمون بالخشبية ، وهم بقية

(١) راجع كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ س ١٧ فا بعده ، وابن الأثير (ج ٤
ص ٢٦٥) . أما تيوفانيس فهو يضع الاسنيلاء على Cirecium (قرقيسيا) في سياق حوادث
خطأ . [وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤ - ٢٥ أن زفر بن الحارث لما صالح
عبد الملك اشترط ألا يقاتل معه ، وابن الزبير حى . ولم يدخل الهذيل بن زفر بن الحارث في
شرط أبيه . فلما سار عبد الملك إلى مصعب سار معه الهذيل ، ثم تحول إلى مصعب ، وقاتل
مع إبراهيم بن الأشتر . . . ثم عفا عنه عبد الملك لشجاعته - راجع أيضاً ابن الأثير ج ٤
ص ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ - المترجم] .

(٢) راجع Barhebr. ط . Bedjan ص ١١١ . وحباب هو بطبيعة الحال ابن
حباب ، راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٤ .

اتباع المختار الثقتي ، لا يزالون يدافعون عما في أيديهم وقد استسلموا أخيراً ،
وأذمّجُوا في الجيش (١) .

ولما جاء الصدام الحاسم آخر الأمر بين عبد الملك ومصعب كان قد مضى
من الصيف شطراً كبيراً . وكانت المعركة في دير الجائلق بين مسكن ، حيث
ضرب عبد الملك معسكره كما ضربه معاوية من قبل ، وبين باجسيّرا ،
حيث كان يعسكر مصعب (الطبري ج ٢ ص ٨٠٥) . وكان الشهر شهر
جمادى الأولى أو جمادى الآخرة ، أما السنة فتختلف فيها الروايات بين
٧١ و ٧٢ هـ (راجع للطبري ج ٢ ص ٨١٣ وكتاب أنساب الأشراف
ص ٨) . ويذكر الواقدي وإلياس النصببي سنة ٧١ هـ ، ويذكر غيرهما
سنة ٧٢ هـ (٢) . وإذا صرفنا النظر عما تقدم ذكره ، فإن الدليل على صحة
التاريخ الأخير هو أن إرسال الحجاج إلى الحجاز أعقب انتصار عبد الملك في
العراق مباشرة ، ولا شك في أن إرسال الحجاج إلى العراق كان في
سنة ٧٢ — ٧٣ هـ (٣) :

وتوجد روايات كثيرة (أو بعبارة أدق : مجموعات من الروايات) فيما يتعلق
بسير المعركة . وقد كانت العلاقة بين هذه الروايات مثاراً لمناقشة غير عادية ، وذلك

(١) المسمودي ج ٥ ص ٢٤١ ، وقارن أيضاً الأغاني ج ٥ ص ١٥٥ ، وج ٨ ص ٣٣ ،
وج ١١ ص ٤٧ ، وكلامنا عن الشيمة Schia ص ٨٠ ، هامش رقم ١ و ص ٨٤ هامش رقم ٣ .
(٢) هكذا يقول المدائني (الطبري ج ٢ ص ٨١٣ ، ١٤٦٦ ص ٩) ، والأغاني
ج ١٧ ص ١٦١ ، وابن الكلبي نقلاً عن جده ، وأبو مخنف في كتاب أنساب الأشراف
ص ٢٦ والمسمودي ج ٥ ص ٢٤٢ .

(٣) وفيما يتعلق بسنة ٧١ هـ يستطيع الإنسان أن يعتمد على ما رواه أبو مخنف (الطبري
ج ٢ ص ٨١٣) من أن المعركة كانت يوم الثلاثاء ١٣ جمادى الأولى أو الثانية . أما المدائني
فهو يذكر سنة ٧٢ هـ . ولكن يوم ١٣ جمادى الأولى أو الثانية في هذه السنة لم يكن يوم
ثلاثاء ، أما يوم ١٣ جمادى الثانية من سنة ٧١ هـ فكان يوم الثلاثاء . ورغم أن هذا فيبدو لي
أنه من المستحيل ومن المخالف للوقائع التي تؤيدها روايات ثابتة لإنقاص عدد الحملات الثلاث التي
وجهت إلى العراق إلى حلتين فقط وأن تكون قد مضت سنتان كاملتان بين احتلال الكوفة
التي كان نتيجة المعركة الدير وبين أخذ مكة . وسأعود إلى هذا الموضوع .

أن ألفارت (Ahlwardt) قارن بين ما جاء في كتاب الناريخ الذى نشره ، وهو جزء من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى ، وبين ما عند ابن الأثير (ج ٤ ص ٢٦٣ فما بعدها) ، ووجد أن ابن الأثير قد اقتبس من ذلك الكتاب أجزاء كبيرة ؛ وقد اعترض نولدكه (Nöldeke) على ذلك ، وربما كان اعتراضه ظناً منه أن الإنسان يستطيع هنا ، كما فى حالات أخرى ، أن يكتفى باعتبار أن الطبرى هو مرجع ابن الأثير . وقد أثبت بروكلمان (Brockelmann) أن هذا غير ممكن ، وذلك بعد أن كانت قد ظهرت نصوص الطبرى المتعلقة بالموضوع والتي لم يكن قد عرفها نولدكه^(١) . ولكن هذا لا يؤدى إلى الفصل فى أمر المشكلة فلا يؤيد ألفارت إلا إلى حد ما ، ذلك أنه لابد من أن تدخل فى الاعتبار رواية أخرى أغفلها كل من ألفارت ونولدكه وبروكلمان ، وهى موجودة فى كتاب الأغاني (ج ١٧ ص ١٦١ فما بعدها) وهى من جهة ما تتضمنه قريية جداً مما جاء فى الكتاب الذى نشره ألفارت ، ولكنها لا تستند إلى ما فى هذا الكتاب ، وصاحبها هو الزبير بن بكتار . وإذن يتبين ما يأتى : ابن الأثير لا يتابع الطبرى وحده ، لكن معرفته بالكتاب الذى نشره ألفارت لا تزيد عن معرفته بما جاء فى كتاب الأغاني ، وهو فى الأجزاء المشتركة بينه وبين هذين المصدرين يوافق أحدهما أحياناً ويوافق الآخر أحياناً أخرى ، لكنه يختلف عنهما من حيث صورة الرواية اختلافاً من شأنه أن يجعل القول بأنه رجع إليهما مباشرة قولاً مستحيلاً . هذا إلى أننا نجد فيما يقوله أحياناً — إذ صرفنا النظر بطبيعة الحال عما نقله عن الطبرى — زيادات غير موجودة فى المصدرين ، المذكورين ، كالذى نجده من

(١) راجع مقدمة كتاب أنساب الأشراف ص ١٧ فما بعدها ، راجع Göttinger Gel. Anz. ، عام ٨٨٣ ، ص ١١٠٢ ، ورسالة بروكلمان فى الدكتوراه عن العلاقة بين ابن الأثير والطبرى Über das Verhältnis von Ibn al-Athir zu Tabari ، شتراسبورج ، ١٨٩٠ ، ص ٤٤ وما بعدها .

حكاية سبب العداوة بين ابن ظبيان وبين مصعب . وإذن فالظاهر أنه اعتمد على كتاب آخر يرجع معظم ما فيه إلى مصادر واحدة^(١) ؛ وبعض الرواة الذين تُذكر أسماؤهم هم في الكتاب الذي نشر ألفارت وفي كتاب الأغاني هم بأعينهم الرواة الذين يُذكرون عند الطبري ، غير أن الطبري يذكر الواقدي كمصدر ، وهو مرجعه في الرواية الأساسية ، هذه الرواية التي تستمر ، رغم انقطاعات قليلة ، من ص ٨٠٤ س ١٥ — إلى ص ٨٠٨ س ٢ .

ولا تكاد توجد من الناحية التاريخية فوارق ذاتُ بال : استفاد عبد الملك من الفترة السابقة على القتال ، وهي الفترة التي انقضت لما كان الجيشان معسكرين أحدهما أمام الآخر في مسكن وباجيرا ، على مسافة غير كبيرة — استفاد منها في مكاتبة شيعته من أهل العراق وفي الاتصال بأشراف الكوفة ، فدعاهم لنفسه ووعدهم ومناهم . وهذا هو عين ما فعله معاوية من قبل وفي موقف شبيه بموقف عبد الملك ، ومن المكان نفسه . ولم يكن لأهل العراق رغبة في القتال ، كما يدل على ذلك البيت الذي تقدم ذكره في ص ١٨٦ ، وهم لم يكونوا قط قد تعودوا التزام النظام والطاعة ، ولم يتعلموا من الحروب الخزيبة المروعة التي وقعت بينهم في السنين السابقة على ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من الوفاء السياسي والحربي ؛ وكما تريد الموسسة كل يوم خليلا كانوا يريدون كل يوم أميرا (الأغاني ج ١٧ ص ١٦٢ س ١٧ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٥ س ٢٣) . ولقد هم أهل العراق بالغدر بمصعب ، فقال لهم قيس بن الهيثم : « ويَسْحَكُم ! لا تُدْخِلُوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليضيقن عليكم منازلكم ! والله لقد رأيتُ سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسلته في حاجة ؛ ولقد رأيتنا في الصوائف وأحدنا على ألف بعير ، وإن الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه ، وزاده

(١) لا يمكن في هذا المقام أن نعطي البرهان الكامل على ذلك ، لأن المسألة ليس لها إلا شأن أدبي وليس لها شأن تاريخي ، ومحاولة الحكم في أمر العلاقة بين الكتب فيها دائما شيء من الصعوبة .

خلفه » . ولكن ذلك لم يُجندَ نَقْعاً (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ؛ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٥ فما بعدها ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٤) . وكان لأبله لمصعب أن يترك أحسن جنده تحت قيادة المهلب ، لكي يحموا البصرة من هجوم الخوارج^(١) . وكانت بين البصريين الذين كانوا معه قبيلة ربيعة التي لم يكن يطمئن إليها والتي كان لا بد له في السنة السابقة أن يقضى على ثورتها (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٧ ، والأغانى ج ١٧ ص ١٢٧) . وجاء بمعظم جيشه من الكوفة ، ومنها كان خروجه (الطبرى ج ٢ ص ٨٠٤ ، ٨٠٧ ، وابن الأثير ص ٢٦٤ وما بعدها) . ولم تكن أهواء أهل الكوفة إلى جانبه ، ولم يستنجد به أشراف الكوفة ليساعدتهم على المختار إلا لأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك ، وكثيرون كانوا يكرهونه ، لأنه جعل دماء أتباع المختار تجري أنهاراً . ولهذا كانت مهمة عبد الملك مهمة سهلة ؛ فأدخل معوله بين أهل الكوفة ، والأبيات المحفوظة لنا عن ذلك العصر (أنساب الأشراف ص ١١ فما بعدها) تعبّر عن الألم من خيانة رجال الكوفة . وكان القواد الكوفيون الذين كاتبهم والذين تُذكّر أسماءهم ، كوفيين خُلصاً (أنساب الأشراف ص ١٣ م ٢١ - ٢٣ ، ص ٢٧ م ١٤) ، وكلّهم شرط عليه ولاية أصبهان ، فأُنعِمَ بها لهم كلّهم ، جزاء على خيانتهم لمصعب (أنساب الأشراف ص ١٣ ، ٣٢) . وكانت أصبهان تابعة للكوفة ، وكان يتولاها رجال من الكوفة . ولم يستطع مصعب أن يتخذ إجراءات صارمة لإزاء الخونة الذين كان يرأسهم عبد الملك ، بل هو تركهم في مواضعهم ، رغم أنه قد حذّر من ذلك . وكان الذي حذّره وأشار عليه بقتلهم أو بالقبض عليهم وإبعادهم على الأقل ، هو إبراهيم بن الأشتر ، صاحب النصر في موقعة خازر ؛ فقد أعطى الكتاب الذي تلقاه من عبد الملك إلى مصعب مختوماً من غير أن يفضّه أو يقرأه ، وقال

(١) الطبرى ج ٢ ص ٨٠٦ ، وابن الأثير ص ٢٦٥ فما بعدها ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٤ ، وكلامنا عن الخوارج . Chavarig, 36s .

له إن عبد الملك كتب الكتب إلى جميع القواد ، ولكنهم لم يظهروها له .
 وكان إبراهيم هو المخلص الوحيد ، وكان في الوقت نفسه أبرز شخصية في
 الكوفة ، وكان ظاهرةً جديرة بالإعجاب في تلك البيئة ، والابن الجدير
 بأبيه الذي انتصر يوم صفين . وكان عدم استماع مصعب لنصيحته ، وذلك
 في أوائل المعركة عند دير الجاثليق ، دليلاً على الهزيمة الحاسمة لمصعب ؛ ذلك
 أن عتّاب بن ووقاء التميمي هرب ، وكان على نخيل مصعب ، وعصى بقیة
 القواد وروساء القبائل القائلين الأعلى ، واعتذروا عن الهجوم بجنودهم بغير
 العذر . وأخيراً بقي مصعب وحده تقريباً في مكانه ، ونظراً لهذا الموقف
 الفريد في بابه صارت لموقعة دير الجاثليق شهرتها : ولا يحتاج الإنسان
 إلى معرفة مخطط الجيوش وقيادتها لكي يفهم مجراها . وقد بعث عبد الملك
 أخاه محمداً إلى مصعب يعطيه الأمان . فأبى وقال : إن مثلي لا ينصرف
 عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً . ونادى محمد بن مروان عيسى
 ابن مصعب — يعطيه الأمان ويحثه على ألا يقتل نفسه . وحاول مصعب
 أن يقنع ابنه بقبول الأمان والمضي إلى عبد الملك ، فأنف أن يُقال عنه إنه
 أسلم أباه ، فقال له مصعب : فتقدم بين يدي احتسبك ! فقاتل بين
 يدي أبيه حتى قُتِل ، وكان عيسى لا يزال صبيّاً ، لأن مصعباً نفسه لم يكن
 قد تجاوز السادسة والثلاثين . ثم أُسْخِنَ مصعبٌ بالسهم ، فشدّ عليه زائدة
 ابن قدامة ، وطعته قاتلاً : بالثارات المختار ! فصرعه ، ونزل إليه
 عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، فاختر رأسه وحملها إلى عبد الملك (١) .

وبعد هذا النصر الذي ليس لصاحبه أن يفخر به كثيراً ، دخل عبد الملك

(١) [لما قتل مصعب أمر عبد الملك بدفنه هو وابنه عيسى ، وقال : واروه ! فقد
 والله كانت الحرمة بيننا وبينه قديمة ، ولكن هذا الملك حقيم (ن . عقم) — المترجم نقلاً عن
 الطبري ج ٢ ص ٨١١ — ٨١٢) ، وراجع خطبة عبد الله بن الزبير ، لما بلغه خبر مقتل
 أخيه مصعب ، عند الطبري ، ج ٢ ص ٨١٨ — ٨١٩ — المترجم] .

الكوفة ، وأخذ البيعة من القبائل ، وفرق أعمال العراق والمصريين :
الكوفة والبصرة ، على عماله^(١) . وعسكر أربعين يوماً في الشَّخِيلة ، في
نفس الموضع الذي كان معاوية قد عسكر فيه من قبل مع جيش الشام . وفي
ذلك الوقت وجه الحجاج بن يوسف إلى الحجاز لمحاربة عبد الله بن الزبير ،
هذا ما يقوله الهيثم بن أدى في كتاب أنساب الأشراف (ص ١٨ ، س ١)
ويوافقه الواقدي في ذلك ، وهو يقول (الطبري ج ٢ ص ٨٣٠ وكتاب
الأنساب ص ٣٨) إنه بعد قتل مصعب بن الزبير أرسل عبد الملك الحجاج
في ألفين من جند أهل الشام إلى مكة ، وذلك في جمادى ، أعنى في الشهر
الذي وقعت فيه معركة الدبر ، أو في الشهر التالي ، لأن اسم جمادى يطلق
على شهرين ؛ وهو يذكر أن ذلك كان سنة ٧٢ هـ . ولا يستطيع أن يذكر
غير ذلك ، لأنه يقول إن حصار مكة لم يبدأ إلا في أواخر سنة ٧٢ هـ . وإنه
استمر شطراً كبيراً من سنة ٧٣ هـ . ولكن كيف استطاع إذن من قبل أن
يجعل الموقعة الخاصة بذلك في سنة ٧١ هـ ؟ لا يمكن حل هذا الإشكال
بالرجوع إلى الشذرات المحفوظة لنا عن الواقدي ، ولا شك في شدة اتصال
الحوادث في العراق والحجاز ، ولا شك أيضاً في أن سنة ٧٢ هـ كانت هي
السنة التي هُزم فيها مصعب .

ويقول الواقدي إن الحجاج لم يقصد إلى مكة رأساً ، ولا هو
عرض للمدينة ، بل ذهب أولاً إلى الطائف ، فوصل إليها في شعبان ،
وليث فيها عدة أشهر^(٢) . ومن هناك شرع يبعث البعث للناوشة ابن
الزبير في سهل عرفة ، وكانت خيئته تهزم خيل ابن الزبير وترجع
ظافرة . ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في حصار ابن الزبير
ودخول الحرم عليه ، ويسأله أن يُمدّه بالرجال . وكان طارق بن
عمرو ومولى عثمان بن عفان قد احتل المدينة وأخرج منها عامل ابن الزبير (الطبري

(١) فيما يتعلق بخراسان ، راجع هنا وفي حالات أخرى الفصل الثامن مما يلي .

(٢) المسعودي ج ٥ ص ٢٥٩ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٣٩ .

(١٣ - الدولة العربية)

ج ٢ ص ٨١٨ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ٣٤ فما بعدها) ، فأمره
عبد الملك أن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج لیساعده . وبدأ حصار مكة ،
كما يقول الواقدي (الطبری ج ٢ ص ٨٤٤ فما بعدها) ، في هلال
ذی القعدة سنة ٧٢ هـ ، الموافق ٢٥ مارس سنة ٦٩٢ م) ، ورُميت
مكة والكعبة بالمنجنيق^(١) . وفي أثناء ذلك قام رعدٌ وبرقٌ وصواعقٌ ،
وسقطت صاعقةٌ على المنجنيق فأحرقته وقتلت بعض رجال الحجاج ؛ فأعظم
ذلك أهل الشام وأمسكوا ، اعتقاداً منهم أن ذلك شيء من الله بسبب
مهاجمتهم الكعبة ، ولكن الحجاج استطاع أن يذهب عنهم ما اعتقدوه .
وأخذ أصحابُ ابن الزبير يتفرقون عنه شيئاً فشيئاً ، وأخيراً ألقوا السلاح جميعاً
وخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان ؛ وكان فيمن خرج حمزة وحبيب ابنا
عبد الله بن الزبير نفسه . لكن ابن الزبير ، وكان شيخاً في الثالثة والسبعين من
العمر ، خجل من ذلك ، فودع أمه وقبّل رأسها ، وخرج يقاتل وحده ،
وقُتِل (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٨ فما بعدها وكتاب الحامسة ص ٣١٩)^(٢) .

(١) انظر ما تقدم ص ١٦٣ .

(٢) [جاء في الطبری (ج ٢ ص ٨٤٤ - ٨٥٢) أن ابن الزبير لما تفرق عنه
أصحابه دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر ، فقال لها : « يا أمّهُ ! خذلي الناس حتى ولدي
وأهلي ، ولم يبق معي إلا اليسير من ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة . والقوم
يعطوني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ » فقالت : أنت والله يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت
تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قُتِل عليه أصحابك ، ولا تتمكن من رقبته ،
يتلمس بها غلمان بني أمية ! وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ! أهلكك نفسك .
وأهلكك من قتل معك . وإن قلت : كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس
فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن ! » . فبدا ابن الزبير يقبل
رأسها ، وقال : « هذا والله رأيي والذي قمتُ به » . ثم بين لها حقيقة مقصده وتمسكه بالحق
والعدل ، وخرج من عندها ، وهي تدعو له ، وقاتل قتال الأبطال ، وهو يمثل بأبيات في
الشجاعة والصبر من الشعر الجاهلي . وكان يشدّ وحده على الجمل الفقير ، وكان كاسد في أجرة ..
حتى قتل . ولما بلغ مقتله الحجاج سجد شكراً لله . وعلقت رأسه ورأس بعض أصحابه في
المدينة ، ثم أرسلت إلى دمشق . وكان ابن الزبير في شجاعته موضع إعجاب أعدائه . راجع
تفصيل مقتله عند الطبری - المترجم] .

ويقول الواقدي إن ذلك حدث بعد بدء حصار مكة بستة أشهر وسبعة عشر يوماً ، وذلك في يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ ، الموافق ١٨ سبتمبر سنة ٦٩٢ م ، (الطبرى ج ٢ ص ٨٤٤ ، هامش f) ؛ ولكن اسم اليوم غير موافق لتاريخه ، ففي كتاب الطبرى (ج ٢ ص ٨٥١ س ١٠) وكتاب أنساب الأشراف (ص ٥٧) أن الشهر لم يكن جمادى الأولى بل جمادى الآخرة . ويذكر إلياس النصيبى أن ذلك كان يوم الاثنين ١٧ جمادى الآخرة ، واسم اليوم بحسب ما يقوله إلياس أيضاً ، غير متفق مع مكانه من الشهر .

ولم يكن تسليم مكة^(١) سوى الفصل الأخير القليل الشأن فى الرواية ، وذلك أن الحجاز ، منذ مقتل عثمان ، كان قد أصبح ركناً ميتاً ، ولم يكن من الممكن جعله مركزاً للحياة السياسية ، ولا شك أن ابن الزبير كان يرمى إلى هذا ، وكان لابد له أن يجعله غاية له ، تمشياً مع طبيعة الحركة التى ارتفع شأنه بسببها^(٢) . وقد كشف ، فى الوقت نفسه ، عن الصبغة الروحية لخلافته بأن ظلّ متعباً فى الحرم الذى عاذ به ، حتى عندما كانت أبواب مجد الدنيا مفتوحة أمامه . ولكن الأمر انتهى إلى أن أصبح هو نفسه فى أثناء الفتنة التى سُمِّيت باسمه فى مكان ثانوى إلى أبعد حد . وكان القتال ، من حيث الاسم ، يدور حول شخصه ، ولكنه لم يشترك فيه ، وتقررت نهاية القتال بدونه أيضاً . ولم يكن شأنه فى جزيرة العرب نفسها ، فى أثناء سنين طويلة ، أكبر من شأن نجدة الخارجى (الطبرى ج ٢ ص ٧٣٧ ، وما قلناه عن الخوارج فى بحث لنا ص ٢٩ فما بعدها) . وهو قد أُخِذَ فى المكان الذى عاذ به ، وفيه قُتِل . وبذلك انتهت الفتنة الكبرى وعادت الجماعة الإسلامية إلى وحدتها .

(١) تجد تهيئة شعرية لذلك فى شعر الهذليين ، قصيدة رقم ٢٥٩ بيت ١٧ فما بعده ، اقرأ : وَفَدَّ . [ويشير المؤلف إلى نشرته لشعر الهذليين فى الجزء الأول من كتابه المسمى Skizzen und Vorarbeiten ، برلين ١٨٨٤ ص ٩١ - ٩٢ - والشعر لأبي صخر فى قصيدته التى أولها : عفت ذات عرق عصلها فرثاها - المترجم] .

(٢) انظر ما تقدم ص ١٦١ .

الفصل الرابع

بنو مروان الأولون

١ - على أن العواصف في العراق لم تسكن بانتهاء الحرب التي استمرت سنين طويلاً مع ابن الزبير ، بل ملأت هذه العواصف كل مدة خلافة عبد الملك تقريباً ، كما سنرى . وفي الشام أيضاً استمرّ صَحْبُ العداء بين قيس و كلب . وقد ألقى زفر بن الحارث في قرقيسيا السلاح في السنة التي قُتل فيها مصعب بن الزبير ، ولكن العداء بين القبيلتين لم يَنْسَته بذلك ، بل ظل إلى ما بعد تلك الحرب الطويلة . ولكي يدرك الإنسان هذا العداء في جملة الحوادث المتصلة به ، لابد له أن يرجع في الماضي ، حتى يصل إلى موقعة مرج راهط (الأغاني ج ١١ ص ٦١ س ٣١) ؛ ففي هذه المعركة دفعت قيس حسابها واقتتيد منها . لكن كان لابد لها ، بحسب العادات العربية ، من أن تثار لدماء قتلاها من المنتصر . وكانت قيس هي الموقورة ، فكانت هي التي بدأت ، وإنما كانت كلب تدافع عن نفسها . وقد اشتركت في هذا العداء من قبائل قيس قبائل عامر وسُلَيْم وغنّى وباهلة^(١) ، وذلك بمقدار الجماعات التي نزلت من هذه القبائل في شمال الشام وجنوب أرض الجزيرة على ضفتي الفرات . أما في جانب كلب فكانت سائر قبائل قضاة^(٢) ، ولكن يظهر أنه لم يدخل في القتال بالفعل إلا قبائل كلب : والمصادر لمعرفة « الأيام » المتفرقة المتباعدة أحياناً ، والتي كان

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٦ س ١٠ و ١٥ و ص ٢٥٨ س ١٨ و ص ٢٥٩ س ١٧ و ص ٢٦٠ س ٢٤ وفي ص ٢٥٦ س ١٠ يجب قراءة : أعصر ، كما في ص ٢٥٦ س ١٥ .
(٢) وتسمى قضاة باليمنيين . في بيت شمر لزفر بن الحارث - ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٦ س ١٨ .

فيها ذلك القتال الطويل ، هي القصائد الشعرية التي ترجع إلى ذلك العصر والحكايات المرتبطة بها . وكلها قد بقيت إلينا عند ابن الأثير وفي كتاب الأغاني وكتاب الحماسة وعند الميداني . ومعظم هذه الأخبار جديرة بكل ثقة ، غير أنها منقطعة الصلة فيما بينها أحياناً ، وليس ثم ما يدل على زمانها ، ولا شك أن ثم وسيلة لوضعها في ترتيب مقبول .

يقول صاحب الأغاني (ج ٢ ص ١٢٠ فما بعدها) إن القتال بدأ بأن أغار زُفَر بن الحارث الكلبي في قرقيسيا ، وهو رئيس عامر ، على جماعة من كلب في المصيص ، وقتل منهم عشرين رجلاً . فقامت كلب ، وعلى رأسها حُسميْد بن حُرَيْث بن بحدل ، وهو ابن عم لحسان بن مالك ابن بحدل المشهور^(١) ، للأخذ بالنار ، فقتلوا ستين رجلاً من حُسميْر ، كانوا يعيشون بينهم في تدمر . ويقال إن زفر بعد ذلك قتل خمسمائة أو ألف من كلب وإنه قتل منهم في يوم الإكليل مقتلة عظيمة ، وإنه بعد هذه الفعلة الكبيرة رجع إلى قرقيسيا آمناً لم يُصِبه سوء ، ومن غير أن يستطيع حُسميْد أن يلحق به . ولكن غارة يوم الإكليل ، في موضع آخر من كتاب الأغاني (ص ١٢٢ س ١٧ فما بعده) ، لا تنسب إلى زُفَر ، بل إلى حُسميْر ابن الحباب ، رئيس سليم . أما الذي لا شك فيه فهو أن حُسميْر كان منذ ذلك الحين هو القائم الحقيقي بالنار لقيس من كلب ؛ ذلك أن القتال الكبير بين الشام والعراق حول الخلافة صرف زُفَر عن حروب التيارات التي كانت تجري في البادية . وقد تلقى زفر في أول الأمر هجمات عبد الملك وقاومها سنين طويلة ، كما رأينا ، وكان مائلاً لمصعب بن الزبير مدافعاً عن حماه . على أن ظهور عمير في الميدان يعطينا نقطة نستطيع منها تحديد أزمنة الحوادث ، لأنه كان لا يزال موجوداً في معركة خازر في الجيش الشامي ، ولم ينضم إلى زفر

(١) والشارح في كتاب الحماسة ص ٦٥٨ بيت رقم ٢ يخلط بينهما .

إلا بعد ذلك ، أعنى أنه لم ينضم إليه قبل سنة ٦٧ هـ . وتذكر مجموعة كبيرة من « الأيام » التي كان يشهدها ويبرد فيها نار الثأر ، وتسمى هذه « الأيام » بأسماء مواضع مختلفة من بلاد السماوة . وعند أرض كابة أفلت منه حميد بن حريث ، ركضاً على فرسه السريع ، وما كاد يفلت ، حتى إذا أُلحَّ عُمَيْرٌ على قبائل كلب التي كانت تسكن في متناول غزواته ، اضطرت إلى أن ترحل عن البلاد آخر الأمر ، فهاجرت إلى بلاد الغور ، من أعمال فلسطين حيناً من الزمان .

وعند ذلك قفل عُمَيْرٌ راجعاً عبر الفرات ، ونزل هو وقومه من سليم بإزاء بلاد الخابور ، وكان هذا هو السبب في الصدام بين تغلب النصرانية ، التي كانت قد هاجرت إلى هناك حتى بلغت نهر دجلة وما وراءه ، وبين قيس . وقد لجأت تغلب إلى زُفَرٍ لكي يأمر سُلَيْمًا بالرحيل عن قرى الخابور ، لأنهم صاروا يغيرون عليهم ويوجدون أسباباً للحروب . ورأى زُفَرٌ أنه غير قادر على ذلك . وهكذا بدأ العداء والقتال بين تغلب وسليم ، وقد حاول زُفَرٌ أن يتدخل لإنهاء هذا القتال ، لأنه لم يحب أن يدفع تغلب إلى إلقاء أنفسهم بين أحضان أهل الشام . ولكن عُمَيْرًا ، وهو الرجل المشؤم ، عارضه في ذلك واستتر وراء مُصْعَبِ بْنِ الزُبَيْرِ ، وسعى بتغلب لأنهم نصارى ، فاتهمهم بالميل إلى أهل الشام ، واستطاع أن يهاجمهم باسم حكومة ابن الزُبَيْرِ ، وأن يطلق العنان للانتقام منهم ، فذبح منهم الكثيرين في يوم ماكس أو ماكسين . وعند هذا تفتى رواية صاحب الأغاني (ج ٢٠ ص ١٢٠ فما بعدها) ؛ وهي تجد ما يكملها عند ابن الأثير (ج ٤ ص ٢٥٥ فما بعدها) وفي الأغاني (ج ١١ ص ٥١ فما بعدها و ٦١ فما بعدها) . ونجد هنا أن زُفَرٍ أيضاً قد أُنجِمَ في القتال دون رغبة أو إرادة منه ، ووقعت غارات واشتباكات كثيرة . وأماكن هذه الغارات ، وهي تذكر أيضاً في أشعار

الأنخل^(١) . كانت عند نهر الخابور ونهر البليخ ونهر الثرثار وفي ناحية دجلة ، وكانت تغلب في معظم الأحيان هي التي تُسمّى بالهزيمة ، على أنهم انتصروا في أول الأمر عند الحشاك على نهر الثرثار الذي يصب في دجلة غير بعيد من تكريت إلى جهة الجنوب ، وقتلوا عمير بن الحباب سنة ٧٠ هـ ، وبعثوا يرأسه إلى عبد الملك في دمشق . ولكن قيساً عند ذلك اضطرت زفر إلى أن يتولى الأخذ بثأر عمير ، فضرب تغلب ضربة قاسية عند مدينة الكحيل ، على نهر دجلة ، وقتل مائتين من أسراهم وقعوا في يده . ولكن الأحداث الكبرى التي وقعت سنة ٧١ و ٧٢ هـ ، وكان مسرحها أرض الجزيرة ، وضعت حداً للغارات الدموية هناك ، وأنقذت تغلب .

ولكن الحرب بين كلب وقيس ثارت من جديد بعد ذلك في موضع آخر (الحماسة ص ٢٦٠ فما بعدها ، والميداني ١٤ ، ٨٥^(٢) والأغاني ج ١٧ ص ١١٣) فما بعدها وياقوت ج ١ ص ٧٣٩ . فقد أصاب حمد بن حريث بن بحدل الرئيس السابق لكلب ، في حربه مع عمير^(٣) ، سبيلاً سهلاً لكي ينتقم من فزارة في جزيرة العرب نفسها - وكان موطنهم الأكبر إلى شرقي المدينة - لما فعلته سابع وعامر على الفرات ، لأنه لم يستطع أن ينال منهم . ولم تكن فزارة هذه قد اشتركت حتى الآن في القتال ، ولكنهم كانوا ينتمون إلى المجموعة الكبيرة لقبائل قيس . ومنهم - من أعضاء بيت الأمراء القديم ، من الذين كانوا مسة طنين في الكوفة - من كانوا قد أعانوا زفر وعمير (ابن الأثير

(١) لم أستطع حتى الآن أن أراجع نشرة بارت (Barth) لديوان القطامي .

(٢) إن ترجمة فريتاغ (Freytag) تحتاج إلى إصلاح كثير .

(٣) يذكر ابن حبيب عند الميداني اسم أبيه حريث خطأ ، بدلا من ذكر اسمه . راجع ، خلافاً لذلك ، كتاب الحماسة (ص ٢٦٠ بيت رقم ١) ، والأغاني ج ١٧ ص ١١٣ أسفل

و ص ١١٤ ص ٢٨ .

ج ٤ ص ٢٥٨ ص ١٩ فما بعده . وجعل حميد بن خالد بن يزيد بن معاوية (١) ، وهو الذي كانت جدته من كلب ، يفتعل له عهداً باسم عبد الملك ليأخذ صدقات قبائل البدو . وخرج حميد باعتباره مفوضاً من قبل الحكومة ، ومعه جمع كبير جداً من عبد ود وعُليّ من قبائل كلب ، يجتازاً الصحراء ، وأخذ يضرب فزارة ، وكان في الحقيقة يقصدهم ، وارتكب فيهم فظائع منكراً ، متلمساً لذلك الأسباب الواهية . فجرح وقتل كثيرين ، وخصوصاً عند موضع يسمى العاه . واشتكى من أصابتهم أعماله إلى عبد الملك ، فظن عبد الملك أنه يكفي أن يدفع لهم دية قتلاهم . فأخذوا المال ، لكنهم اشتروا به سلاحاً وخيلاً ، وأعدوا أنفسهم لغارة يثأرون فيها لأنفسهم . فهاجموا منازل لكلب عند منابع بنات قيس في أرض السماوة ، وقتلوا تسعة عشر رجلاً من عبد ود وخمسين من عُليّ ، فغضب عبد الملك لذلك أشد الغضب ، وأمر عامله الحجاج بأن يقتص من فزارة . وعند ذلك دفع الرجلان اللذان كان عليهما الوزر ، الشر عن قومهما بأن قدما على الحجاج طائعين ، فأرسلهما إلى عبد الملك . وكان لابد لكلب من أن تكتفى بقتلهما . ويوم بنات قيس هو أشهر « يوم » في كل الحروب المتواصلة بين قيس وكلب ، وهو لم يقع إلا عند ما كان الحجاج أميراً على المدينة (سنة ٧٣ و ٧٤ هـ) . ولا يمكن أن يكون زمان السبب الذي دعا إلى هذا اليوم ، وهو ما أريق من دم في العاه ، قبل ذلك بكثير (٢) . وعلى هذا فإن القول السائد في كل روايات

(١) [في كتاب الحاسة ص ٢٦٠ فما بعدها أنه في أيام الحرب بين عبد الله وابن الزبير كان أبناء القيسيات من بني أمية يفخرون على أبناء الكلبيات بما يفعله بهم أخوالهم القيسيون . وكانت قيس مع ابن الزبير ، وكان هذا القصر سبباً في إغضب أبناء الكلبيات أمثال خالد بن يزيد وعبد العزيز بن مروان . وخالد بن يزيد هو الذي بحث عن ينقتم من قيس ، وهو الذي دبر العهد المزور وأعطاه إلى حميد بن حريث بن مجدل - المترجم] .

(٢) على أنه ليس بمستحيل أن يكون قد وقع في الفترة السابقة على عودة الوحدة للجماعة الإسلامية ، كما يقول ابن حبيب عند الميداني . ولكن دوزي (I , 120) يجعل يوم بنات قيس في عهد معاوية ، وهذا خطأ تام .

هذه الحكاية ، من أن بيشراً وعبد العزيز ابني مروان المتباغضين^(١) كانا في دمشق يوم بنات قيسن وبعده أيضاً ، هو قول خطأ ؛ بل هما قد كان أحدهما قبل ذلك بكثير أميراً على الكوفة ، والآخر أميراً على مصر ، فلا يمكن أن يكونا قد كانا في دمشق إلا زائرين فترة من الوقت .

وكذلك بقيت للحرب بين سُلَيْمٍ وتغلب بقية ، بعد أن كان النزاع حول الخلافة قد انتهى ، وكان السلام في الدولة عند ذلك قد عاد إلى نصابه منذ وقت طويل (راجع الأغاني ج ١١ ص ٥٩ فما بعدها ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٦١ فما بعدها) وكان الأخطل الشاعر هو السبب في إثارة هذه الحرب من جديد ، وذلك أنه قدم على عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السُلَيْمِي ، فسأله عبد الملك : أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال نعم : هنا الذي أقول فيه :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائرٌ يقتلي أصيب من سُلَيْمٍ وعامر
والأخطل يقصد ما فعله أخواله من تغلب بقبيلة الجحاف ، وكان الجحاف قد اشترك في قتال تغلب تحت قيادة عُمَيْر بن الحباب . ولما بدأ الأخطل ينشد قصيدته كان الجحاف يأكل رطباً ، فجعل النوى يتساقط من يده غيظاً . فلما انتهى الأخطل من إنشاد قصيدته أجابه الجحاف قائلاً :

بلى سوف نَبْسِكهم بكلِّ مُهَنَّدٍ ونَسْمِي عُمَيْراً بالرماح الشواجير
وفعل الجحاف ما فعله حُمَيْد بن حريث الكلابي من قبل ، فتناطف لبعض كتاب الديوان حتى اختلق له عهداً على صدقات تغلب وبكر في الجزيرة . وخرج بمصنّته عاملاً على الصدقات ، ومعه عدد كبير من فرسان قيس ، وقصده الجزيرة ، وفي أثناء الطريق كشف لمن معه عن قصده الحقيقي ، وحدثهم بما كان من الأخطل

(١) [كانت أم عبد العزيز كلبية ، وأم بشر قيسية (الحماسة ص ٢٦٠) - المترجم] .

هو أنه يريد منهم أن يوقعوا بني تغلب شرّ وقبعة ، وقال لهم : إنما هي النار
أو العار ، فمن صبر فلن أقدم ، ومن كره فليرجع ! فرجعوا عنه غير
ثلاثمائة آثروا النار على العار ، واتبعوه قائلين : نحن معك فيما كنت فيه
من شر وخير ، وأغاروا على تغلب في سنة ٧٣ هـ ، عند موضع يسمى بشرّا
(أو الرهوب) ، فأسرفوا في القتل والفساد ، وبقروا بطون النساء ،
وقتلوا ابناً للأخطل أيضاً . ووقع الأخطل نفسه في أيديهم ، وعليه عباءة
دنيئة ، فسأله ، فذكر أنه عبد من عبيدهم ، فأطلقوه . وبعد ذلك
لحق الجحاف بأرض الروم . ثم تدخلت قيس لدى عبد الملك لكي
يؤتمنه ، فأذن له بالرجوع بعد زمان طويل ؛ لكن كان لا بد أن يدفع
لتغلب دية ما أريق من دماء عند بشر ، فلما يقدر على ذلك تقدم إلى
الحجاج ، وكان في ذلك الوقت أقوى رجل بين قيس ، لكي يحتمل دفع
الديات ، فاعتذر الحجاج أولاً ، ولكنه قبل آخر الأمر . ثم صالح أمر
الجحاف أخيراً ، فتأله وتنسك ، وذهب مع القوم الذين شهدوا معه غزو
تغلب إلى الحج ، وقد لبسوا الصوف وخشروا أنوفهم ، وجعلوا فيها البسرى
حتى وصلوا مكة . وتعلق الجحاف بأستار الكعبة ، يدعو دعاء اليائس ،
ويقول : اللهم اغفر لي ، وما أراك تفعل ! فسمعه عبد الله بن عمر ، فقال
له : يا هذا لو كنت الجحاف ما زدت على هذا ! فقال : فأنا الجحاف ،
ويرى الإنسان أن العرب في أرض الشام والجزيرة لم يتغيروا في
ظروفهم الجديدة عما كانوا عليه ؛ فلا الإسلام ولا النصرانية استطاعا أن
يسحولا بينهم وبين وضع القبيلة والنار فوق كل شيء . فكانوا يؤثرون
النار على العار ، وكانوا لا يندمون إلا أخيراً حين لا ينفع الندم . بل هم
صاروا في ظروفهم الجديدة أشد قسوة مما كانوا عليه في الجاهلية في
وطنهم القديم ، فصاروا يقتلون بعضهم بعضاً على نحو أوسع نطاقاً
وأقل مبالاة ، فكانوا يبقرون بطون من يأسرونه من النساء ، وهذه عادة
لم تكن موجودة في جزيرة العرب بمعناها الحقيقي ، ولكن يشهد بأنها

كانت موجودة في الشام ما يقوله عاموس النبي^(١) ؛ بل إنه بعد أن كان القتال من أجل الخلافة قد انتهى وكان السلام قد عاد ، استمر القتال الوحشي بين القبائل أمام أبواب دمشق وتحت بصر الحليفة ، ومع الاستهانة بهيئته أحياناً .

وكان للعداوات القبلية موطن^٢ ثان في الشرق الأقصى للدولة الإسلامية ، ذلك أن البغض القديم بين تميم وربيعه اشتد في البصرة بسبب هجرة أزد عمان في أواخر أيام معاوية وفي أيام يزيد الأول . فتحالفت ربيعة مع الأزد ، وتحالفت تميم مع قيس ، وهكذا نشأت مجموعتان كبيرتان من القبائل . وفي أثناء الفترة التي اضطرب فيها أمر الخلافة بعد وفاة يزيد الأول بدأ القتال في البصرة^(٢) ، واضطرب أمرها ، عبيد الله بن زياد ، إلى الهرب . وأراد مسعود بن عمرو ، رئيس الأزد ، أن يحتل منصبه ، واستطاع أن يستولى على القصر وعلى المسجد بالقوة ، يساعده الأزد وربيعه في ذلك . ولكن بينما هو على المنبر في المسجد إذ اقتحمت عليه تميم ، فأنزله من على المنبر وقتلوه . وعند ذلك قامت حرب النار بين الأزد و تميم بسبب قتل هذا الأمير القبلي . ولكن الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، وكان حكيماً حنكته السن^٣ ، أفلح في إعادة السلام في مقابل دفع دية كبيرة . ولكن العداوة بين الأحزاب لم تنزل ، ووجدت الصدور المسترعة منزعاً في خراسان^(٣) ، وكانت خراسان أشبه بمستعمرة بصرية ، وإليها انتقلت ظروف الحياة القبلية من البصرة . وكانت الحروب القبلية كلما خبت نارها اندلعت من جديد . وكانت في أول الأمر بين تميم وربيعه ، ثم بين مضر (تميم وقيس) واليمن (الأزد وربيعه) ، وذلك بعد أن دخل الأزد أيضاً على المسرح بفضل المهلب . وكان الخصام بين

(١) [راجع العهد القديم ، عاموس ، الإصحاح الأول ، فقرة ١٣ - ١٤ حيث يذكر من جرائم بعض بني إسرائيل أنهم بقروا بطون الحوامل - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ٤٣٣ - ٤٦٧ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري أيضاً ج ٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٦ - المترجم] .

مجموعات القبائل في شرق الدولة مرتبطاً في آخر الأمر بالخصام بينها في مغربها : وكان الوزر في ذلك وزر قيس خاصة ، لأن قيساً كانوا موجودين في المشرق والمغرب على سواء ، وكانوا في كل مكان متماسكين فيما بينهم « كما تماسك أجزاء البناء » ، وقد كان هذا الخصام ينزع إلى أن يمتص في ذاته أنواع الخصومات الأخرى ، وأن يقسم العالم العربي كله قسمين متنازليين .

وقد تسربت سموم هذه الخصومة إلى الدوائر الحاكمة ، وكان من العسير تفاديها . فإذا كان يستطيع أمير أن يفعل ، إذا كانت قيس تعتبره أميرها ! فهو إن ردّهم حرم نفسه تأييدهم ولم يجد ما يستند إليه : بل إن بعض الأمراء في بلاط عبد الملك كانوا يتحمسون في الميل إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر ، بحسب نسب أمهاتهم (١) .

ولا شك أن الفكرة السياسية للإسلام ، أعنى الوحدة والتضامن في الجماعة الإسلامية ، كان لها تأثيرٌ مُضادٌّ لتأثير النزعة القبلية ، وكان الممثلون الطبيعيون للروح الإسلامية هم قريش الذين كانوا ، بحكم وضعهم القانوني فوق القبائل وخارج منافساتها ، وكان القرشيون الحاكمون ، أعنى بنى أمية ، قد اضطرّوا إلى أن يرموا أنفسهم في الشام بين أحضان كاب لكى يحافظوا على سيادتهم إزاء قيس المائلين مع ابن الزبير . ولكن كانت تربطهم مع ذلك بقيس رابطة الدم (٢) . ومن هذا الوجه كان من السهل عليهم أن يقفوا موقفاً وسطاً . وقد عرف عبد الملك أين مصلحته فكان يحاول أن يرتفع عن منازعات الأحزاب . وبعد أن أقلعت قيس عن

(١) [راجع إلى جانب ما تقدم كتاب الحاشية ص ٢٦٠ فما بعدها - المترجم] .

(٢) قال عروبة الطائي يمتدح كلباً والحמיד بن جندل في قصيدة له (الطبري ج ٢

ص ٤٨٧ س ١٩ فما بعده) :

فلولا أمير المؤمنين لأصبحت قضاة أرباباً وقيس عبيداً

فالخليفة يعتبر من قيس (الطبري ج ٢ ص ٤٧٢ س ١٨) ، لأنه مثلهم من مضر على الأقل ، وليس من قضاة أو النين .

المعارضة له ، عاملهم باللطف وحاول أن يستر ضميرهم . وكان زفر بن الحارث وابناء هذيل وكوثر من بعده ، من أكبر الشخصيات وأعظمها جاهاً في بلاط دمشق^(١) . وكانت كلب بطبيعة الحال غير راضية عن ذلك ، ولكن ما عابوه على عبد الملك من أنه لم يكن يشكر لهم حسن بلائهم مع بني أمية كما ينبغي له أن يشكر (الحماسة ص ٦٥٦ فما بعدها) هو في الحقيقة مدح له . أما القول بأنه تحول من جانب كلب إلى جانب قيس فهو يعبر عن الموقف تعبيراً معوجاً كل الاعوجاج ؛ فنحن نجد في مجلس عبد الملك بعد ذلك أيضاً رجالاً ذوي نفوذ ينتمون إلى مجموعة قبائل كلب ، كابن بحدل وروح بن زنباع . والأحرى أن يقال إن عبد الملك تصرف كما ينبغي على الخليفة وعلى السياسي أن يتصرف . فكان الأمويون يعتمدون على أهل الشام ، وهم بمعونة أهل الشام قد أخضعوا أرض الدولة الإسلامية كلها ، وبمعونتهم حافظوا عليها ؛ ولو أن انشقاقاً حصل في الشام لتضعف الأساس الذي تقوم عليه سيادة بني أمية على الدولة الإسلامية . أما خراسان فقد كانت في ذلك الحين لا تزال في مرتبة ثانوية جداً ، وكان الشقاق في هذه الجهة النائية قليل الأثر على وسط الدولة . أما في الشام فقد كان الأمر على خلاف ذلك ، وكان من المستحيل أن يغيب عن بال أهل الشام أنهم لابد لهم من أن يتضافروا مع الأسرة الحاكمة لكي يحافظوا على مركزهم هُهم ، وكان ذلك عاملاً فعالاً في كسر شوكة الخصومة القبلية بينهم ؛ فكانت كل ولايات الدولة ، عدا بلاد أهل الشام ، تعتبر خاضعة مغلوبة ، وكانت بلادهم وحدها هي التي تعتبر الغالبة الحاكمة . وكانت مصالحهم ، وهي مصلحة مادية إلى حد كبير ، في أن تظل الخلافة والسيادة ملكاً لهم من جملة الأسباب التي أوجدت

(١) قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ و ١٣٦٠ فما بعدها و ١٤٤٥ ، وكتاب أنساب الأشراف ص ١٧٣ و ٢٥٣ ، وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٢ ، ١٥٣ ، وما بعدها . ويرى الإنسان من ذلك مقدار قوة مركز هؤلاء الأمراء القيسيين في عهد بني أمية ، ولكنهم لم يستثمروا استعمال هذا المركز .

شعوراً بالتضامن السياسى بينهم . وقد تجلّى هذا الشعور بنوع خاص فى المناسبات التى كان لابد لهم فيها ، بوصف أنهم جيش الدولة ، من محاربة أعداء الأسرة الحاكمة فى الداخل والخارج ؛ وقد أتاحت لهم فرص كثيرة لذلك .

٢ - ولكى يزيد خلفاء بنى أمية فى رجحان كفة الشام من الناحية السياسية ، حاولوا ، فيما حاولوا ، نقل مركز الشعائر الدينية إلى الشام ؛ وكان مما استوجب ذلك أن ابن الزبير ظلّ يحتل البيت الحرام فى مكة قرابة من عشر سنين ، فلم يكن أهل الشام يستطيعون الحج ، ما داموا على ولائهم للأسرة الأموية ، إلا بمشقة . وقد استغلّ عبد الملك ذلك لمنع رعاياه من الحج إلى مكة ، وحضّهم على أن يحجّوا إلى بيت المقدس بدلاً من أن يحجّوا إلى مكة ؛ وهذا ما يحكيه أوتيوخوس (Eutychius) على الأقل^(١) . أما الذى لا شك فيه فهو أن عبد الملك جهد فى أن يجعل لبيت المقدس ، باعتباره مكاناً مقدساً فى نظر الإسلام ، مظهراً أروع مما كان له ، وذلك أن الدليل على صدق الرواية القائلة بأنه هو الذى بنى قبة الصخرة موجودٌ فى النقش الذى لا يزال باقياً فى الجزء القديم من هذا البناء . أما النقش الحالى فيُستدرك فيه اسم المأمون الخليفة العباسى على أنه هو البانى . ولكن دى فوجى De Vogüé^(٢) اكتشف أن اسم المأمون إنما أُدخل فى النقش الأصيل من طريق تصحيح لكتابة سابقة ، وقد فات على المصححين أن يصححوا التاريخ القديم الذى يبين السنة التى كان فيها البناء . ويمكن على هذا أن يكون النص [الأصيل على القطع ، هكذا : بنى هذه القبة فى سنة ٧٢ هـ عبد الله عبد الملك ،

(١) فى كتابه فى التاريخ (Annales) ط . Pococke ج ٢ ص ٣٦٥ . ويحكى أوتيوخوس . مثل هذا عن مروان (ج ٢ ص ٣٦٢) وعن الوليد الأول (ج ٢ ص ٣٧٣) .
(٢) فى كتابه Temple de Jerusalem ، ١٨٦٤ ، ص ٨٥ فيما بعدها . راجع أيضاً ما يقوله جيلدمايستر Geldmeister فى مجلة Zeitshr. des Deutsch. Palästinavereins ، ١٨٩٠ ، ص ١٤ . ولا يرجع الخطأ المطبوع فى الأرقام إلى المؤلف الذى كان عند الطبع قد توفى .

أمير المؤمنين . فقد كان للشام في بيت المقدس المكان الوحيد الذي يستطيع أن يبارى مكة ، على ظهر الأرض (الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٦ س ٣) . ولم يكن مكاناً مقدساً عند اليهود والنصارى فحسب ، بل كان عند المسلمين أيضاً مكاناً مقدساً من أول الأمر ، ولم يتعمد له محمد عليه السلام إلى مكة إلا فيما بعد ؛ وذلك نتيجة لما قضت به الظروف من تساهل مع الوثنية العربية^(١) . وقد جعل الخليفة عمر لبيت المقدس بفضل زيارته له شأنًا خاصاً ، وأثار بذلك حسد أهل العراق . وفي بيت المقدس نصّب معاوية^(٢) أيضاً نفسه خليفة ، وصلى في هذه المناسبة على جبل الجملجة وعند جيتسياني . ولكن عبد الملك ترك ما كان ينويه من إحلال القدس محل مكة ، إن كان قد نوى ذلك على الإطلاق ، وذلك بمجرد أن امتد سلطانه إلى ما وراء بلاد الشام . وقد بدا أن فكرة إحلال بيت المقدس محل مكة بالنسبة للأمة الإسلامية كلها فكرة لا يمكن تنفيذها^(٣) . ولكن عبد الملك حاول ، فيما بعد ذلك ، أن يجعل للشام شأنًا دينياً على حساب ما كان للمدينة من شأن ، ومن قبله كان معاوية قد أمر في سنة ٥٠ هـ بأن يُحتمل المنبر النبوي إلى الشام ، فكسفت الشمس حتى رؤيت النجوم بادية عند كسوفها . وأعظم الناس ذلك ، فرجع معاوية عما أراد وقال : « لم أر دُ حَمَلَهُ ، وإنما خِفْتُ أن يكون قد أَرِضَ ، فنظرتُ إليه » ثم كسا معاوية المنبر . وقد همّ عبد الملك بما كان معاوية قد همّ به ، ولكن صاحب خاتمه صرفه عن ذلك . ويقال إن ابنه الوليد همّ مرةً أخرى بما همّ به أبوه ، ولكنه كفّ عن ذلك ، لما طلب سعيد بن

(١) [يقصد المؤلف في أغلب الظن تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى مكة ، وهذا التحويل سياسة إلهية حكيمة ، لا يدرى من يريد أن ينظر إلى كل شيء بمنظار السياسة الإنسانية - راجع تفاسير آية : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل : لله المشرق والمغرب ... الآية (سورة البقرة) - المترجم] .
(٢) ويروى أن خالد بن عبد الله القسري قال : لو أمرني أمير المؤمنين نقضت الكعبة حجراً حجراً ونقلتها إلى الشام (الأغاني ج ١٩ ص ٦٠) .

المسيب من عمر بن عبد العزيز أن يكلم الوليد في ألا يتعرض اسخط الله عز وجل (الطبرى ج ٢ ص ٩٢ فما بعدها نقلاً عن الواقدي) . ولم يكن الأمويون بحاجة إلى أن يراعوا ، فيما يتعلق بالمدينة ، ما يراعونه فيما يتعلق بمكة من اعتبارات ، ذلك أن أهل المدينة جاهدوا بنى أمية بالعداء أكثر من مرة وأخرجوهم أخيراً من المدينة على بكرة أبيهم ؛ وقد حملوا ذلك لأهل المدينة في نفوسهم : ويظهر أن عبد الملك كان يعين من يعينه من أمراء المدينة ، وفي نفسه شيء من الخلق على أهلها . وقد تميز بروح خاصة من الشر من بين هؤلاء الأمراء هشام بن إسماعيل المخزومي (تولى إمارة المدينة منذ سنة ٨٢ هـ) .

وكان موقف عبد الملك منذ نشأته من الإسلام مغايراً لموقف سلفه منه ؛ فقد ولد عبد الملك في الإسلام وتربى عليه ، فضلاً عن أن ميلاده كان في مدينة الرسول ، وفيها كان التراث النبوي الذي بقى جزءاً من تراث الحكومة الديمقراطية ينال عناية بالغة ، وفيها أصبح موضوعاً لاهتمام طائفة من العلماء . وقد اجتهد عبد الملك نفسه في صباه في هذه الدراسات الدينية ؛ وكان يستشير من العلماء بالقرآن . وبروى أنه تغير لما تولى الخلافة (أنساب الأشراف ص ١٦٤ و ١٦٧ و ١٩٠) (١) . ولا شك أنه بعد توليه الخلافة جعل كل شيء خاضعاً للسياسة ، وقد عرض الكعبة نفسها للهدم . ولكن عبد الملك ، بحكم السياسة أيضاً ، تحاشى أن يجرح العواطف الدينية لرعيته على النحو الذي كان عليه يزيد بن معاوية من قلة الاكتراث . وقد عرف عبد الملك هذه العواطف

(١) [جاء في كتاب أنساب الأشراف ص ١٦٤ و ١٦٧ أن عبد الملك أنكر مهاجرة الكعبة أيام يزيد ، ثم ابتلى بأن كان ضربها على يديه . وأدخل عليه مرة أسرى ، فأمر بضرب أعناقهم ، قبل سؤالهم . فقال له رجل من أهل الشام ، كان له صديقاً أيام تنسكه : يا أمير المؤمنين ! لقد أقست الخلافة عليك ، بعد أن كنت رؤوفاً ! قال : كلا ! الخلافة لم تقس قلبى ، ولكنه أقساه احتمال الضغن بعد الضغن - المترجم] .

أحسن بكثير مما عرفها يزيد ، وعرف كذلك كيف يحترمها أكثر منه ، فكان رجاء بن حيوة الكندي ، وهو الرجل الصالح الذى سنسمع عنه فيما يلى ، مقرباً لعبد الملك وصاحب جاه عنده^(١) . وقد قتل عبد الملك أيضاً رجلاً ادعى النبوة أيامه (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٥٣) ، ويذكر اوتيوخوس (Eutychius, 2, 365) أنه أراد أن يضم كنيسة القديس يوحنا فى دمشق إلى المسجد الذى كان إلى جانبها ، ولكنه عدل عن ذلك احتراماً للنصارى . على أنه تعوزنا المادة للحكم فى أمر علاقة عبد الملك برعاياه النصارى ، ولكننا نعرف أن نصرانية تغلب لم تنصرهم ولم تنصر شاعرهم الأنطال فى نظر عبد الملك على كل حال . أما ما يذكره تيوفانيس (فى حوادث سنة ٦١٨٦ لتاريخ الخليفة) من قتل الخنازير فى الشام ، فقد نشأ عن العداء للنصارى ، ولكنه لم يأت من قبل الخليفة .

وحسبنا كان الإسلام متمشياً مع العروبة فى الأغراض ، فإنه كان يلائم أغراض الحاكم ، وكان يخدم أغراض الدولة بسهولة . ولم يلبث عبد الملك ، بعد أن فرغ من القضاء على منافسيه ، أن استأنف على الفور جهاد الروم ، بعد أن ركض هذا الجهاد خمسة عشر عاماً^(٢) . فهزم جوستينيان الثانى فى سباسبول سنة ٧٣ هـ التى تبتدئ فى أواخر سنة ٦٩٢ م ، وكان قائد عبد الملك هو أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة وأرمينية ، وكانت له أيضاً قيادة الجيش فى آسيا الصغرى وأرمينية . وكان المسلمون يقومون بغزو بلاد الروم فى كل عام غزوات صغيرة أو كبيرة ، كما كان الحال فى أيام معاوية . وهذه الغزوات ، وإن لم تكن لها نتائج ، فإنها كانت مدرسة مفيدة لعرب الشام والجزيرة ، لأنهم بفضلها لم ينقطع تدريبهم على الحرب ،

(١) كتاب أنساب الأشراف ص ١٩٣ . ويروى أن رجاء كان صاحب الخزانة أيام بناء مسجد الصخرة فى بيت المقدس (انظر Zeitschrift des Deutschen Palästinavereins ١٨٩٥ ص ٢١) .

(٢) انظر مجلة Göttinger Nachrichten ، ١٩٠١ ص ٤٣١ فا بعدها وكذلك بدأت الحرب فى أفريقية من جديد (نفس المصدر ص ٤٣٤ فا بعدها) .

وكان من إصلاحات عبد الملك المرتبطة باستئناف الحرب مع الروم ، والتي كان لها أيضاً شأن في إرضاء الشعور الديني والوطني ، تغييره لنظام العملة . ويحكى البلاذري (ص ٢٤٠ و ص ٤٦٥ فما بعدها) عن سبب ذلك ما يأتي : كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، وكانت الدنانير الذهبية تأتي إلى العرب من قبيل الروم ، وكانت الأقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير وتنسبه إلى الربوبية ، وتجعل الصليب مكانه بسم الله الرحمن الرحيم ، فكان عبد الملك أول من أحدث الكتابة في رؤوس الطوامير ، مثل : قل هو الله أحد ، وغيرها من ذكر الله . فكتب ملك الروم إلى عبد الملك : إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً^(١) نكرهه ؛ فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه . فكبر ذلك في صدر عبد الملك ، واستشار خالد بن يزيد بن معاوية ، فأشار عليه بضرب العملة وبتحريم الدنانير الرومية ومنع التعامل بها وبمنع تصدير القراطيس من مصر إلى بلاد الروم ؛ فحكمت القراطيس حينئذ لا تُحتمل إلى بلاد الروم ، وبدأ عبد الملك بضرب الدنانير في دمشق سنة ٧٤ هـ ، وبدأ ضرب الحجاج للدنانير في آخر سنة ٧٥ هـ . وكانت الدنانير الرومية والدراهم الكسروية وقليل من الدراهم الحميرية (وعليها صورة البومة الأثينية) هي الجارية . ويقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٩٣٩) إن عبد الملك لم يبدأ في ضرب الدراهم الفضية والدنانير الذهبية إلا في سنة ٧٦ هـ ، ولكن إن كان تيوفانيوس (سنة ٦١٨٣ من تاريخ الخليفة) على حق فيما يقوله من أن رد جوستينيان الثاني للدنانير الذهبية الدمشقية كان هو السبب في استئناف الحرب بين المسلمين والروم ، فإن الأولى أن يُزاد في سني التاريخ الذي يذكره البلاذري ، لا أن يُستقص منها . وكانت العملة الجديدة تضرب وعليها : بسم الله ، وكانت تنقش عليها آيات من القرآن تدل على

(١) [الطوامير هي القراطيس ، والمقصود بالكتاب هنا هو الكتابة - المبرج] .

وحدانية الله وصدق رسالة رسوله^(١). ولقد كان العرب ، قبل أيام عبد الملك ، يضربون عملة من الفضة والنحاس ، لكن على نماذج رومية وفارسية . ويظهر على كل حال أن معاوية كان من قبل قد حاول أن يفعل ما حققه عبد الملك ؛ ففي كتاب المؤرخ السرياني الذي نشره نولدكه أن معاوية ضرب عملة فضية وذهبية ، لكنها لم تُقبَل ، لأنه لم يكن عليها الصليب . وكذلك لم تكن العملة التي ضربها عبد الملك تُقبَل في أول الأمر ، خصوصاً في المدينة (البلاذري ص ٤٦٦ فما بعدها) بحجة أن وزنها لم يكن يزيد على وزن الدنانير القديمة المسوَّحة^(٢) .

ولمى جانب العمل على التخلص من التأثير الأجنبي من طريق ضرب عملة إسلامية خاصة ، عُمِلت محاولة مماثلة بقصد الوصول إلى الغاية نفسها ، وهي جعل اللغة العربية لغة الديوان ، أعني ديوان المال ؛ ذلك لأن إدارة الدولة كانت في الغالب مقصورة على الناحية المالية ، وكان حساب الدولة حتى ذلك الحين يُعمل بالرومية في دمشق ، وبالفارسية في الكوفة . ويبدو من حكاية البلاذري (ص ٣٠٠ فما بعدها ، وكتاب الفهرست ص ٢٤٢) أن بدء التعريب كان في الكوفة ، وكان زاذان فروخ بن بيري^(٣) ، أو ابنه مردانشاه ، آخر كاتب فارسي ، وكان مساعده في ذلك صالح بن عبد الرحمن ، فعرض صالح على الحجاج أن يحول

(١) وقد ذكره الفقهاء . من الحجاج أنه كتب على الدراهم اسمه بعد عبارة : بسم الله [ويؤخذ من البلاذري (ص ٤٦٨ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٣٧) أن الفقهاء كرهوا كتابة القرآن على العملة تعظيماً للقرآن ، حتى لا يمسه إلا المطهرون - المترجم] .

(٢) قارن أيضاً ابن الأثير ج ٤ ص ٣٣٧ فما بعدها ، ويتجلى عدم النجاح في تنفيذ وحدة حقيقية في العملة وفي الموازين في الدولة الإسلامية من حديث ينسب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكره يحيى بن آدم في كتابه الخراج ص ٥٢ - ٥٣ : منعت العراق درهمها وقفيظها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم .

(٣) راجع الطبري ج ٢ ص ١٠٣٤ وكتاب أنساب الأشراف ٣٤٣ و ص ٣٥٢ .

الحساب باللغة العربية ، وقد استطاع ذلك ، وإن كانت كتابة الكسور قد شقت عليه - ويظهر أن رموز الأرقام لم تكن تستعمل في الكوفة ، أما السبب الذي من أجله عُرِّب الديوان في دمشق فإن البلاذري (ص ١٩٣) يقص فيه قصة عجيبة فيقول : إن رجلاً من كتّاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً ، فلم يجد ماء ، فبال في الدواة . فبلغ ذلك عبد الملك فأدّبه ، وأمر بنقل الديوان من الرومية إلى العربية وكلف سليمان بن سعد بإنجاز هذا العمل ، فأتم ما عهد به إليه في خلال عام ، وكوفي عليه بأن أعطى خراج بلاد الأردن في عام ، وكان مقداره مائة وثمانين ألف دينار . وبقي النظام الرومي والفرسي في الديوان كما هو بطبيعة الحال ، ولم تتغير إلا لغة الديوان ، ولا شك أيضاً في أن الكتّاب الروم والفرس الذين كانوا في خدمة الدولة قد بقوا كما كانوا ، لأنهم كانوا يعرفون العربية ، وكان صالح بن عبد الرحمن الذي قام بنقل الديوان في الكوفة ، هو نفسه ، فارسيّاً من سجستان (البلاذري ص ٣٠٠ س ١٢ ، ١٣ وص ٣٩٣ س ١٥) ، وكان لا بد للكتّاب من معرفة الفارسية والرومية لكي يستطيع النقل إلى العربية . ولم يزل لسرجون الرومي في دمشق على عهد عبد الملك ما كان له من مركز ونفوذ أيام معاوية ويزيد (الطبري ج ٢ ص ٨٣٧ س ١١)^(١) .

ويقول تيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٩٩ من تاريخ الخليفة) - وهو ينسب إلى الوليد الأول ، لا إلى من قبله ، لإحلال اللغة العربية محل الرومية في الكتابة في الديوان^(٢) - إن العرب قد اضطروا إلى الاحتفاظ بعلامات الأرقام

(١) [النص الذي يذكره المؤلف لا يدل على ما يقوله ، وكل ما فيه أن سرجون كان يكتب لمعاوية على الديوان ، ولكن البلاذري (ص ١٩٣) يقول إن سرجون كان كاتباً لعبد الملك ، وإن عبد الملك عرض عليه عمل سليمان بن سعد - المترجم] .

(٢) وقد نقل الوليد الديوان إلى اللغة العربية بمصر سنة ٨٧ هـ ، لكن إحلال اللغة العربية لم يكن محل اليونانية بل القبطية ، كما يقول المقرئ (الخطوط ج ١ ص ٩٨) .

الرومية ، وإن كتبهم كانوا ما يزالون نصارى ؛ والحقيقة أن الكتاب النصارى فى العصر العباسى ، الذى ألف فيه هذا المؤرخ البوزنطى كتابه ، كانوا أقوى نفوذاً وأعظم سلطاناً مما كانوا فى أى وقت مضى ؛ ولكن البغض لهم لم يبلغ ما بلغه فى ذلك العصر أيضاً . ومهما يكن من شىء فإن العرب كانوا يُعتبرون غير صالحين لتولى شئون الخراج ، ولم يكن ذلك مجرد قلة المعرفة الفنية عندهم (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨ ، ١٤٧٠) (١) .

ويبدو للإنسان أن عبد الملك قد أقام الدولة من وجوه أخرى على قواعد جديدة ، فأصبحت إدارتها فيما يظهر ذات طابع فى ومتدرج أكثر مما كانت عليه من قبل ، وإن لم تبلغ فى ذلك إلا درجة أقل بكثير مما بلغت إدارة الدولة العباسية . ومن المناصب العليا فى الدولة ما لا ذكر لوجوده قبل عهد عبد الملك ، ولكن لا يتحتم أن يؤخذ من ذلك أن هذه المناصب لم تكن موجودة من قبل . على أنه من المؤكد مثلاً أن لقب الـ *Πρωτοσύμβουλος* (= المستشار الأول) أصبح لا يلائم عبد الملك ، وقد كان لقباً يلقب به عند مؤرخى الروم الخلفاء الأولون من بنى أمية . وقد اختط عبد الملك فى معاملته لعماله خطة صارمة أوشك معها أن يكون جافياً غليظاً ، حتى مع الحجاج ، على علو فضله ومكانته ، فكان يعامله معاملة تختلف كل الاختلاف عن معاملة معاوية لزياد ؛ وقد أصبح عبد الملك أيضاً لا يسمح للنوى الشباهة من الرجال ، الذين كان - بحسب العادة القديمة - يجتلبهم إلى مجلسه ويشاورهم ، بأن يرفعوا الكلفة بين أنفسهم وبينه ، كما كان يفعل معاوية من قبل ، مطمئناً إلى أن رجحان عقله كفيف بأن يسعفه . ولم يكن لعبد الملك ولا لمن جاء بعده من خلفاء بنى أمية ، ذلك اللطف المعروف عن الخلفاء السفليانيين ، وهو

(١) [أخذ على عبيد الله بن زياد أنه استعمل الدهاقين فى جباية الخراج ، فعلى ذلك بأنه وجدهم « أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون فى المطالبة من العرب » - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨] .

اللطيف الذى ربما كان لهم ، كما كان للسيد العربى القديم ، أشبه بفضيلة مكتسبة منه بأن يكون صفة فطرية . وإنما أراد عبد الملك أن يظهر بمظهر السيد الصارم (كتاب أنساب الأشراف ص ١٧٨) (١) .

وكان عبد الملك ، إذا كان الأمر أمر خلافته ، لا يأبه لأى اعتبار ؛ فقتل بيده ابن عمه عمرو بن سعيد ، لأنه تطاول للخلافة . وقد عارضه أخوه عبد العزيز فيما أراده من جعل الخلافة فى أبنائه ، فلم ينقله من بطش عبد الملك إلا الموت . على أن عبد الملك أعطى أقاربه من بنى أمية من التمتع بالسيادة نصيباً أوفر مما كان يعطيهم إياه من كان قبله من الخلفاء ، فكادت تكون فى أيديهم فى أول الأمر كل إمارات الأمصار ، فكان عبد العزيز بن مروان أميراً على إفريقية ومصر ، وربما كان ذلك بفضل وصية أمر بها مروان فى كبره ، ويروى أن مروان كان يريد أن تكون لعبد العزيز ولاية العهد بعد عبد الملك (١) . وكان محمد بن مروان أميراً على الجزيرة وأرمينية ، وكان لهذه الإمارة خطرها ، نظراً للحرب مع الروم . وتقلد بشر بن مروان ، على صغر سنه ، إمارة الكوفة ؛ ثم ضُمَّت إليه إمارة البصرة ،

(١) [يجد القارئ فى خطبة لعبد الملك خطبها فى الحجاز هذه العبارات مثلا : « أيها الناس ! لست بالخليفة المستضعف ، يعنى عثمان ، ولا بالخليفة المداخن ، يعنى معاوية ، ولا بالخليفة المأفون ، يعنى يزيد . ألا وإن من قبلى من الولاة كانوا يأكلون ويؤكلون ، وإنى والله لا أداويكم إلا بالسيف هذا عمرو بن سعيد قال برأسه كذا ، فقلنا بسيفنا كذا إن الله عز وجل فرض فرائض وحدد حدوداً ، فما زلتم تزدادون فى الذنوب وفزداد فى العقوبة ، حتى اجتمعنا وأنتم عند السيف . . . » - المترجم ، نقلا عن أنساب الأشراف ص ١٧٧ - ١٧٩ .]

(٢) جاء فى كتاب Cont. B.A. § 29 :

Marvan antequam moreretur. . . Aegyptum vel (= et) : ultioris Aethiopiae partes, Tripoleos Africae et usque ad = Oaditana freta adiacentes provincias Habellaziz filio dereliquit [وقيل أن يموت مروان كان قد ترك لابنه عبد العزيز مصر أو (= و) أجزاء من الحبشة القصوى وطرابلس إفريقية والولايات المجاورة ، حتى مضى قادم - المترجم] . وقد غضب عبد العزيز من عبد الملك ، لأن عبد الملك طلب منه أن يحمل له خراج مصر ؛ ولم تكن أم عبد العزيز أما لمروان (أنساب الأشراف ص ٢٣٩ ، ٢٦١) .

وقبل ذلك كان أموي^١ آخر ، هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، يتولى البصرة . وكانت جماعة بنى أمية في مجلس الخلافة ، منذ أن خرجوا مع مروان من المدينة إلى دمشق ، أكبر بكثير من ذى قبل . وكان هناك شأن أيضاً لخالد بن يزيد بن معاوية . وقد حاول عبد الملك أن يخفف عليه وطأة ما كان يحس به من مضاضة بسبب إقصائه بغير حق عن وراثة الخلافة ، فقتر به إليه وزوجه من ابنته . وقد تزوج عبد الملك نفسه إحدى بنات يزيد^٢ ، وكان اسمها عاتكة ، وكانت زوجته الأثيرة عنده ، وكان لها عنده شأن عظيم .

وتذكر في كتاب أنساب الأشراف الذى نشره الثقات^(١) حكايات كثيرة عن هذا الخليفة الذى بلغ من الشهرة ما لم يبلغه أحد من خلفاء أسرة بنى أمية . وهذه الحكايات تزيد في معرفتنا بشخصه وتعطينا إلى جانب ذلك أيضاً كل ما أحاط به من طرائف : فهي تحدثنا عن الأماكن التى كان يغير بينها مقامه بحسب فصول السنة ، وعن نسائه وعن أسرته ، وعما كان قد اعتاد أن يباشره في كل يوم من أعمال ، وعن عنايته بتأديب أولاده ، عن فضائله ووجوه ضعفه ومعايبه — كان فاسد الفم — وعن الألقاب التى كان يلقب بها . وهو قد شاب قبل الأوان ، وتوفى عن ستين عاماً في دمشق^(٢) ، يوم الخميس ١٤ شوال سنة ٨٦ هـ : (٩ أكتوبر سنة ٧٠٥ م) .

(١) [راجع الكتاب المذكور ص ١٦١ - ٢٣٨ - المترجم] .

(٢) يذكر الواقدي عن أبي معشر (الطبرى ج ٢ ص ١١٧٢ - قارن أنساب الأشراف ص ٢٦٤) أن عبد الملك مات يوم الخميس للصف من شوال ، وبحسب فستيفيلد Wüstenfeld وافق يوم الخميس الرابع عشر من الشهر ، وهذا هو أيضاً التاريخ الذى يذكره إلياس النصيبى . أما عمره فيذكر المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١١٧٣) وصاحب أنساب الأشراف أن عبد الملك مات وله اثنتان وستون أو ثلاث وستون سنة ، أما أبو معشر فيقول إنه مات وله ستون سنة ، والواقدي يذكر أنه مات وهو ابن ثمان وخمسين (الطبرى ج ٢ ص ١١٧٣) وأنساب الأشراف ص ١٦٣ ، وكذلك الأنساب ص ١٥٢ بالقراءة الصحيحة ؛ ورقم اله ٦٠ هو الأصل كما في الطبرى (ج ٢ ص ٤٦٧ س ١١) .

ويسمى عبدُ الملك أبا الملوك ، لأن أربعة من أبنائه صاروا ملوكاً من بعده ، وكان خلفاء بني أمية بعده كلهم من ذريته ، ولم يخرج عن ذلك إلا اثنان من خلفاء بني أمية المتأخرين : وكان أخوه عبد العزيز ، أمير مصر ، قد عُيِّن خلفاً له ، وبوبع أيضاً على ذلك . وقد جهد عبد الملك في أن يحمله على التنازل عن الخلافة لكي يصرفها إلى أعزّ أبنائه عنده ، ولكن جهده لم يثمر ، فامتنع عبد العزيز امتناعاً شديداً ، ولم يُفِيدْ معه الترهيب ولا الترغيب . ولكن القدر أسعد عبد الملك بأن مات عبد العزيز قبله (الطبرى ج ٢ ص ١١٦٤) فابعداً ، قارن أيضاً ص (١١٧١) ؛ وعند ذلك جعل عبدُ الملك ولاية العهد في الوليد أكبر أبنائه . ثم ارتقى الوليد عرش الخلافة ، وفي عهده وثبت سيوف العرب وثبة جديدة ، فاحتلوا حصن طوانه (Tyana) بعد حصار طويل ، وأعدت حملة كبيرة على القسطنطينية نفسها . وهكذا بدأت من جديد فترة "من الفتوحات الكبيرة" ، فغلب العربُ على ما وراء النهر وعلى أسبانيا . وفي داخل الدولة سادت السكينة بعد طول انتظار ، وجنى الوليدُ ثمرات عمل أبيه ، وهو قد ترسم آثاره ، فتمسك بالحجاج ، أمير المشرق الذي أثار على نفسه كثيراً من العداوات وكان بمثابة العلامة المميزة لحكومة الخلفاء الذين خدمهم . وقد كان الوليد حريصاً على أن يظهر بمظهر السيد والأمر ، ويقال إنه كان أول من تجسّر من الخلفاء (كتاب أنساب الأشراف ص ٢٤٣) ، وتنسب إليه كلمات من قبيل *oderint modo metuant* (١) (الطبرى ج ٢ ص ١١٧٨) (٢) . وقد عمل على تقوية الإسلام من حيث هو دين الدولة ، وربما كان له في قلبه محبة عميقة أيضاً ، فوضع حداً لإيذاء أهل الدين والورع في المدينة على يد أميرها هشام بن إسحاق الخزومي ، وعيّن مكانه ابن عمه عمر بن عبد العزيز .

(١) [معنى هذه العبارة اللاتينية هو : فليكرهوا ، ما داموا خائفين - المترجم] .

(٢) [ختم الوليد أول خطبة خطبها بعد أن انتهى من دفن أبيه بقوله ، بعد حضن الناس على الطاعة والاتحاد : أيها الناس ! من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكنت مات بدائه - المترجم] .

وكان تعيينه موافقاً لهوى الفقهاء (الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ فما بعدها) ،
 وكان الوليد يحتم على الناس جميعاً أن يقرءوا القرآن ويعرفوه ، وكان يجعل
 ذلك شرطاً فى قضاء حوائجهم وصلة أرحامهم (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧١) ،
 وإن كان هو فى شبابه قد كان يلحن فى اللغة التى نزل بها القرآن لحناً
 فاحشاً ، مما اهتم له أبوه كثيراً (أنساب الأشراف ص ٢٣٦ فما بعدها و ص
 ٢٦٠) . وقد نفذ الوليد ما يقال إن أباه عبد الملك كان قد عزم عليه
 ثم تركه ، وهو أنه أخذ من النصارى فى دمشق كنيسة القديس يوحنا ، فوسع
 بها المسجد الملاصق لها وجدّده تجديداً رائعاً فى سنة ٨٤ هـ (البلاذرى ص
 ١٢٥ فما بعدها والطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥) . وأخذ من كنيسة نصرانية
 فى بعلبك قبتها النحاسية المطلية بالذهب ووضعها فى بيت المقدس فوق
 الصخرة المقدسة (Eutych. 2, 373) . وكذلك أمر بإعادة بناء مسجد المدينة
 (البلاذرى ص ٦ ، ٧) . على أنه قد أغضب أهل الورع فى المدينة بذلك ،
 كما أغضبهم بأنه فى سنة ٩١ هـ خطب فيه الخطبة الأولى من الخطبتين ،
 وهو جالس ، على عادته فى الشام (الطبرى ج ٢ ص ١٢٣٣) . وكان
 مولعاً بكل أنواع البناء وبتخطيط الضياع وتحسينها ، فانتقلت هذه
 الروح منه إلى الناس (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٢)^(١) . وقد جلب
 له الحجاج الجماموس من الهند إلى إقليم المستنقعات عند خليجان إلسوس .
 على أنه عسبى أيضاً بأهل العاهات ، فأعطى المجذمين وأعطى كل ممقعة
 خادماً وكلّ ضرير قائداً ، لكيلا يضطروا إلى سؤال الناس (الطبرى ج ٢
 ص ١٢٧١) . وكان أهل الشام أكثر من استفاد منه ، وكانوا
 يعتبرونه أفضل خلفائهم (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧١ من ٣) . وسن العسير أن

(١) [جاء فى الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٢ - ١٢٧٣ : أن الوليد كان صاحب بناء
 واتخاذ للمصانع والضياع ، وكان إذا التقى الناس فى زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء
 والمصانع . فولى سليمان بن عبد الملك ، فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم
 بعضاً عن التزويج والحوارى . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل :
 « ما وردك الليلة ، وكم تحفظ من القرآن ، ومتى تحتم ، وما تصوم من الشهر ؟ » - المترجم] .

نصدق أنه كان في الشام متحيزاً إلى قبيلة قيس ، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك ، ولأن المؤرخين القدماء لا يذكرون شيئاً من ذلك ، ونحن لا ينبغي أن نستنتج من أمته ولادة بذت العباس العباسي كانت قيسية (أنساب الأشراف ص ١٧٢ س ١٩ فما بعده ، والحجاسة ص ٦٧٢) وأن الحجاج ، وهو قيسي النسب ، كان ساعده الأيمن . ويميل المؤرخون المتأخرون إلى وضع كل الرجال الذين لعبوا دوراً في تاريخ الدولة في جانب أو في آخر ، ويقلدهم دوزي في ذلك . وقد مات الوليد في يوم السبت منتصف جمادى الآخرة من سنة ٩٦ هـ ، وهو في حوالى الأربعين من العمر (الطبرى ج ٢ ص ١٢٦٩ فما بعدها) ، وكان يوم السبت يوافق ١٣ جمادى الآخرة = ٢٣ فبراير سنة ٧١٥ م^(١) .

٣ — وفي خلافة عبد الملك وابنه الوليد ظل العراق سنين طويلة تحت إمرة الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل الثقفي الذي تقدم ذكره كثيراً والذي ظهرت مواهبه في مكة والمدينة أول الأمر ، وكان تاريخ العراق في تلك الحقبة هو التاريخ الحقيقي للدولة الإسلامية .

ولما تولى الحجاج على العراق كانت تنتظره مهام ثقيلة ، فكانت تلك الولاية يغلى باطنها كالمرجل ، ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذي استمر سنين طويلة حول الخلافة ، وقد أخذت الثورة العنيفة التي قام بها شيعة الكوفة ومن انضم إليهم من الموالي ، بقيادة المختار الثقفي ، ولكنها خالفت في النفوس ناراً متوقدة^(٢) ، ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهلدين لها^(٣) ، ولم يكن مصعب بن الزبير قد استطاع أن

(١) لعل عبارة « منتصف الشهر » كانت لا تدل قديماً على اليوم الخامس عشر من الشهر على التحقيق ، كما يفهم ذلك عادة . ويذكر إياض النصيبى أن الوليد توفي يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ٩٦ هـ .

(٢) انظر ما كتبه عن الشيعة . Schia p. 74ss .

(٣) انظر ما كتبه عن الخوارج . Chavarig p. 32ss .

يقضى عليهم ، وقد فتوا في عضده وهو يخارب أهل الشام ، حتى اضطر أن يترك وراءه أحسن قواده لحماية البصرة من الخوارج : فلما هُزم مصعب وقتل على نهر دجلة أمام عبد الملك ، كان المهلب في ميدان القتال مع الأزارقة ، فأدرك جملة الموقف وتصرف طبقاً لذلك ، فانضم إلى المنتصر ، وعرف له المنتصر قدره . ولكن الأمراء الأمويين الذين أرسلهم عبد الملك أمراء على العراق لم يكونوا يصلحون إلا لتولي المنصب بلا عمل . فلم يكن من خالده بن أسيد الذي عُين على البصرة إلا أن نهي المهلب عن القيادة وجعله على خراج الأهواز ، وتولى هو في أول الأمر القيادة في محاربة الخوارج ، أولئك الثوار المتعصبين للخطر ، ثم عهد بها لأخيه عبد العزيز ، فجاءت على أثر ذلك هزيمة قبيحة لحقت بجيوش الدولة . فلما كتب خالد إلى عبد الملك يخبره بها ، رد عليه عبد الملك مُسَفِّهاً رأيه في إبعاد المهلب ، وهو البصير بالحرب المقاسي لها ، وفي جعله أخاه قائداً مع أنه أعرابي من أهل مكة ؛ وأمره بأن ينتفع بالمهلب ويستشير في كل ما يتعلق بقتال العدو ، ثم إن عبد الملك ولي المهلب حرب الأزارقة ، ولكنه ، بعزله خالداً عند ذلك وتعيينه أخاه بشراً بدلاً منه وإسناده إليه إلى جانب إمارة الكوفة إمارة البصرة ، لم يسعف المهلب ، لأن بشراً ، وكان غلاماً أخرق معجباً بنفسه ، لم يكن أحسن صنفاً ممن سبقه من أمراء بني أمية ؛ وقد شق عليه أن إمارة المهلب جاءت من قبل الخليفة مباشرة ، فامتأ قلبه حقداً عليه . وهو قد شد أزر المهلب بجند الكوفة بناء على الأمر الأعلى الآتي له من الخليفة ، ولكنه أمر قائدهم أمراً صريحاً بأن يستبد على المهلب بالأمر ، وبألا يقبل له مشورة وألا يحترمه . وكان بشر أخرق فيما صنع ، لأنه استجهل القائد وطلب منه ما لا يصح طلبه وأغراه بالمهلب مع أنه ابن عمه ؛ ولذلك فإن ذلك القائد لم يكن منه إلا أنه تجاهل كلام الأمير الشاب واستخف

بعقله . وكان من الحظ الحسن أن بشراً توفي عام ٧٤ هـ (١) ، فوجهه عبد الملك الحجاج والياً على العراق ، وقرت بذلك عين المهلب . وقد تولى الحجاج عمله في أول سنة ٧٥ هـ (٢) . وهذا هو مجمل حكاية أبي مخنف ، كما نجدها عند الطبري (ج ٢ ص ٨٢١ فما بعدها ، وص ٨٥٥ فما بعدها) .

وتقدم الحجاج إلى أهل الكوفة بخطبة خطبها لما دخل الكوفة لمباشرة مهام منصبه ، وهي ليست دون خطبة زياد بن أبيه ، شريكه في الوطن وسلفه في المنصب - تلك الخطبة التي ألقاها في البصرة . وما جاء عند الطبري ج ٢ ص ٨٦٣ فما بعدها) من أخبار ذلك يرجع إلى عمر بن شبة (نقلاً عن أبي غسان والمدائني) ، ويمكن مقارنته بما في كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٦٦ فما بعدها وكتاب الكامل ص ٦٦٥ فما بعدها) . وقد صعد الحجاج المنبر مثلثاً ، ولبت لا يتكلم . فقال محمد بن عمير بن عطار : ماله ، ترّحه الله ، لا يتكلم ! ما أعياه وأشناه وأذمّه ! . . . ثم أخذ كفّاً من حصي ليحصب الحجاج (٣) . وأخيراً قام الحجاج ليخطب خطبته التي أولّوها :

أنا ابنُ جلا وطلائعُ الثنايا متى أضعُ العمامة تعرفوني

وهي الخطبة التي تهدد فيها أهل العراق وتوعدهم . وتبين لابن عمير أن الحجاج ليس عيباً ولا ضعيفاً ، فيجعل الحصا يتساقط من يده ، كلما استمر الحجاج في كلامه . وكانت أول مهام الوالي الجديد إعادة النظام بين جند الكوفة والبصرة ، وكانما كان هؤلاء الجند قد رأوا أن موت بشراً بمثابة إشارة لترك معسكر المهلب في رامهرمز ، دون إذن لهم بذلك . وهم قد كانوا سئموا البقاء في ميدان القتال بعيداً عن

(١) يقول الواقدي (الطبري ج ٢ ص ٨٥٢ س ٨ وص ٨٥٤ س ١) إنه مات سنة ٧٣ هـ ، ولكن هذا مستحيل .

(٢) لا في رمضان كما يذكر عند الطبري (ج ٢ ص ٨٧٢) ، قارن الطبري ج ٢ ص ٩٤٤ س ٩ وص ٨٧٦ س ٣ ، وأنساب الأشراف ص ٢٧٠ س ١ .

(٣) فالظاهر إذن أن زياداً ترك بعض الحصى في المسجد [راجع ما تقدم ص ١١٩ - المترجم]

أهلهم وأولادهم زماناً طويلاً ، وكانوا قد اعتادوا الرغد الحقيقي في ديارهم (الطبرى ج ٢ ص ٨٦٥ فما بعدها^(١)) . فأنذر الحجاج على الفور أهل الكوفة من أعلى المنبر ؛ أن من رثى في المدينة من الجند الهاربين من عصاة الجيوش بعد ثلاثة أيام فالذمة منه بريئة ، وماله نهبٌ ، ودمه مباحٌ ، وقد عرف كيف يؤكد هذا التهديد ، فضرب أمثلة قاسية كان لها أثرها ، ثم بدأ الحجاج عمله في البصرة بمثل ما بدأه به في الكوفة ، وكان حظه من التوفيق هناك مثل حظه هنا . وتزاحم الجند الذين كان عليهم أن يعودوا إلى الجيش على قنطرة دجلة ، لكي يعودوا إلى رامهرمز ، وذهب الحجاج بنفسه معهم إلى أن بلغ رستاقباد . وكان عليه في شعبان سنة ٧٥ هـ أن يقضى هناك على ثورة بسبب إنقاص الزيادة التي كان ابن الزبير قد زادها في أعطيات أهل العراق . وتدل رواية صاحب كتاب أنساب الأشراف (ص ٢٨٠ فما بعدها) ورواية ابن الأثير (ج ٤ ص ٣٠٩ فما بعدها) على أن هذه الثورة كانت أخطر بكثير مما يبدو من الرواية المقتضبة الموجودة عند الطبرى (ج ٢ ص ٨٧٩) ، وبعد القضاء عليها أصبح من الممكن توجيه القتال إلى الأزارقة بوسائل كافية ، وإن كان لم يمكن القضاء عليهم قضاء تاماً إلا بعد مضي أكثر من عامين^(٢) .

وفي الوقت الذي لم يكن قد تم فيه التغلب على الأزارقة في المشرق ، قام خوارج آخرون في أول سنة ٧٦ هـ ، في غرب العراق ، كانوا يتميزون بأنهم ينتمون في الأغلب إلى قبيلة واحدة أبيّة ، هم بنو شيبان من بكر . وكانوا قد تركوا مواطنهم الأولى على الضفة اليمنى للفرات ، في بادية الكوفة والبصرة ، وهاجروا منذ زمان قصير إلى شمال أرض الجزيرة . وكان أشهر زعمائهم وأنظرتهم

(١) يعتمد المؤلف في هذا على ما جاء في خطبة الحجاج في الكوفة من قوله إن أهل العراق أشبه بأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنهم الله ... الخ ، ودلالة هذا على ما يقوله المؤلف ليست مباشرة - المترجم] .
(٢) راجع ما كتبه عن الخوارج ص ٣٩ فما بعدها من كتابنا .

شبيب بن يزيد^(١) الذي كان بفضل سرعة فرسانه كثير الظهور والاختفاء ، كأنه في كل مكان ، وكأنه ليس في أي مكان ؛ بل هو في سنة ٧٦ هـ خرج من الجزيرة إلى العراق وهزم جيوشاً كثيرة أرسلها الحجاج لمقاتلته ، وبلغ منه أن طرق أبواب العاصمة . وكانت الأرض التي اختارها بلجولته هي الأرض القديمة للخوارج الأولين ، أعنى أرض جوسخى على النهروان والجهال التي تقع إلى شمالها . وبعد أن لبث فترة طويلة في بلاد أذربيجان الجبلية ، تقاطر إليه في أثناءها خلق كثير ، تقدم في النصف الثاني من سنة ٧٧ هـ ، ومعه جيوش كبيرة ، نحو الجنوب ، يحاول هجوماً حاسماً على الكوفة ، وقد أمر الحجاج جيوشاً شتى لكي تجتمع لمناجزته ؛ ولكنه هزم جيوش الكوفة كلها هزيمة شنعاء جعلتهم يلوذون بالفرار ، ثم ترك الميدان . وكانت موارد الحجاج من الجند قد نضبت ، فوجد نفسه مضطراً إلى أن يطلب إلى الخليفة أن يرسل له جنداً من الشام ، وجاء هؤلاء في الوقت المناسب تماماً ، وطردها شبيباً ، فقفل راجعاً إلى أرض جوسخى أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ارتحل عنها إلى بلاد كerman النائية ، أعنى إلى حصن الأزارقة المنيع ، ثم خرج من هناك والتقى عند دُجَيْل (في الأهواز) بجيش الشام الذي أرسل وراءه ؛ وغرق ، وهوراجع عبر النهر ، وذلك في سنة ٧٧ هـ (ربيع سنة ٦٩٧ م) . وهكذا أنقذ أهل الشام الكوفة ، وسرى الثمن الغالي الذي كان لابد أن يُدفع لبقاء معونتهم . وإلى أبي مخنف^(٢) ترجع رواية أخبار شبيب (الرواية المفصلة التي حكاها الطبري (ج ٢ ص ٨٨١ - ١٠٠٢) .

(١) كانت أسرة شبيب تقطن غير بعيد من الموصل ، لكنها كانت قد هاجرت إلى هناك (انظر فيما يتعلق بالكوفة الطبري ج ٢ ص ٩٧٧) من ماء اللصاف ، أو اللصف ، في يادية الكوفة (الحاسة ص ١٥) ، وبقي بعض أفراده يقطن هناك . وكان شبيب وأبوه يختلفان إليهم (الطبري ج ٢ ص ٩١٥ ، ٩٧٨) . وربما كان تفرق بني شيبان لم يأت اختياراً ، بل بسبب من معاوية .

(٢) راجع Chavarig p. 41ss

وفي سنة ٧٨ هـ ، بعد أن كان قد تمّ القضاء على خطر الخوارج في شرق العراق وغربه ، ضمّ عبدُ الملك خراسانَ وسجستان إلى الحجاج ، وذلك زيادة على ما كان له من إمرة الكوفة والبصرة (الطبرى ج ٢ ص ١٠٣١ فما بعدها ، وأنساب الأشراف ص ٣١٠ فما بعدها) ، فأعطى الحجاج ولاية خراسان للمهلب بن أبي صفرة الأزدي ، قاهر الأزارقة ، الذى كان قد اكتسب مجداً وشهرة هناك من قبل (البلاذرى ص ٤٣٢) . وبقي المهلب هناك حتى وفاته (آخر سنة ٨٢ هـ) ؛ وقد أورث أسرته وقبيلته ما كان له من سلطان ؛

ووجه الحجاج إلى سجستان (١) عبيد الله بن أبي بكرة (٢) ، وهو بصرى نابه من البيت الثقفى المعروف الذى ينتسب إليه زياد بن أبيه ؛ فقام عبيدُ الله فى سنة ٧٩ هـ بحملة وجهها إلى زنبيل (٣) كابل وزابل ، لأنه منع الخراج ؛ فاستدبره الزنبيل إلى الإمعان فى البلاد ، حتى انتهى إلى شيعب ، ثم أخذ عليه الطريق ، فلم يستطع عبيدُ الله أن ينجو ويشق طريقه راجعاً إلا بعد مصالحة الزنبيل ؛ وقد تكبد خسائر جسيمة أصابت جنده الكوفة خاصة ، وحزن حزناً قصيراً أجله ؛ فيقال إنه مات كمداً ، وذلك فى سنة ٧٩ هـ (كتاب أنساب الأشراف ص ٣٢٠) . أو فى سنة ٨٠ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٦) . وكانت سجستان تحتاج إلى قائد

(١) فيما يتعلق بالتاريخ السابق لسجستان قارن البلاذرى ص ٣٩٢ فما بعدها .
 (٢) [تجد حكاية حملة ابن أبي بكرة على الزنبيل عند الطبرى ج ٢ ص ١٠٣٦ فما بعدها . وفى كتاب أنساب الأشراف ص ٣١١ فما بعدها - المترجم] .
 (٣) النطق الصحيح هو زُنْبِيل (اسم علم ولقب فى وقت معاً) لارتُّبيل (راجع ما يقه له . كاننجهام (Cunningham) فى أعمال المؤتمر الدولى العاشر للمستشرقين ، مجلد ١ ص ٢٤٤ ، وراجع Justi, Namenbuch, 385 وكتاب Marquart, Eranshahr, 37) ، قارن الطبرى . ج ٢ ص ١٦٥٢ من ١٨ و ج ٣ ص ١٩٤ من ٣ ، ويوجد زنبيل التيمنى عند الطبرى ج ١ ص ١٨٥٥ من ١٦ ، ويسمى الزنبيل سيد الترك - الطبرى ج ٢ ص ١١٣٢ فما بعدها . و ١١٣٧ من ٢ و ١٠٤٢ من ١٢ . وكان أهل البلاد إيرانيين ، لكن الأسر الحاكمة : (والهند) كانوا تركا ؛ قارن ديوان الفرزدق طبعة بوشيه ص ٢٠٦ من ١٠ (؟) .

مجنك يكون والياً عليها ، فاختار الحجاج لذلك كوفياً ألباً من قبيلة ملوك كندة القدماء ، وهو عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، الذى كان فى بلاد كرمان^(١) المجاورة لسيستان ، وشدّ أزره بجيش كبير كامل الأعطيات تامّ الأهبة والعدة ، انتخبه من أهل الكوفة والبصرة ، ولذلك سُمى هذا الجيش « جيش الطواويس » .

وكان هذا هو الموقف لما اندلعت على الحجاج فى سيستان ثورة جيش العراق ، وهى الثورة التى هزّت دولة الأمويين هزّاً شديداً . ويذكر الطبرى^(٢) فى ذلك رواية ألى مخنف ، وهى رواية حيّة مُفَصَّلَة ، مؤثراً لها على غيرها ؛ أما رواية كتاب الأنساب (ص ٣٠٨ فما بعدها) ، وهى أيضاً مفصلة تفصيلاً وافياً ، فهى ترجع إلى رواة كثيرين . اتبع عبد الرحمن ابن محمد — وهو يسمى عادة بابن الأشعث نسبة لجدّه — طريقة مغايرة لطريقة سلفه ، فلم يقدّم بغارات متفرقة ، بل بحرب حقيقية منظمة ؛ وأراد أن يحذر مغبة التسرع فى التوغل فى البلاد ، فكان لا يفتح حصناً ولا يجاوز عُمراناً إلا خَلَّفَ فيه قائداً ، معه حامية من المسلمين ؛ ونظّم المراسلات بالبريد بين البلاد ، وجعل الأجناد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان مخوف . وبعد أن حاز أرضاً عظيمة وامتلاّت يداه بالغنائم ، حبس الناس

(١) يقول أبو عبيدة (أنساب الأشراف ص ٣٢٠ فما بعدها ، والطبرى ج ٢ ص ١٠٤٦) لأنه كان هناك لإخماد ثورة قام بها هميان بن عدى السدوسى السكرى (قارن كتاب الأنساب ص ٣٤٢) وفى روايات أخرى (الأنساب ص ٣١٨ س ٢ ، ٣٢٠ س ١٠) ، خلافاً لذلك أنه كان هناك لمحاربة الخوارج . وبحسب كتاب الأنساب (ص ٣٠٩) كان فى أول الأمر قد ذهب إلى سيستان من أجل ميراث له ، فجعل يختلف إلى بغى يقال لها ماهبوش ، فأخذ معها . ولكن بحسب كتاب الأنساب (ص ٣٣٤ فما بعدها) كانت هذه تسكن كرمان ولم تستهوه . هو بل استهوت عربياً ذبيلاً غيره ، حتى رهن من أجلها سرج حصانه وطلب من ابن الأشعث أن يفتككه حتى يستطيع أن يركب معهم ، قارن ديوان الفرزدق ، طبعة بوشيه (ص ٢٠٩ س ١٢) .

(٢) [تجد رواية الطبرى فى الجزء الثانى ص ١٠٤٢ فما بعدها و ١٠٥٢ فما بعدها ، و ١٠٦٣ فما بعدها و ١٠٧٠ فما بعدها و ١٠٨٥ فما بعدها و ١٠٩٨ فما بعدها حتى ص ١١٣٨ — المترجم] .

عن الـوـغول في البلاد حتى يتعود جنوده على طبيعة الجبال ، بما فيها من
شعاب وعقـاب ، وكتب إلى الحجاج بذلك . ولكن الحجاج ، وهو الرجل
السريع القليل الصبر ، كما هي عادته ، كتب إليه يتهمه بالضعف والجبن
ومحبة المهادنة والمواعدة ، وحثه في كتب متلاحقة على التقدم في بلاد العدو
والتوغل فيها ، وهدده ، إن لم يفعل ، بأن يجعل القيادة لأخيه إسحاق
ابن محمد بن الأشعث ، حتى يصير هو من تحت يده كبعض الجند . فغضب
عبد الرحمن وجمع رؤوس الناس وأخبرهم بما تضمنته كتب الحجاج ، وقال
لهم : إني لكم ناصح ولصالحكم مُحِبٌّ ولكم في كل ما يحيط بكم نفعُهُ
مُظَرٌّ ، ولقد كان من رأي فيما بيني وبين عدوكم رأيٌ استشرت فيه ذوى
أحلامكم وأولى التجربة للحرب منكم ، فرضوه رأياً وقد كتبتُ إلى
أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يُعجِّزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل
الـوـغول بكم في أرض العدو ، وهى البلاد التى هلك إخوانكم فيها بالأمس -
ونختم عبد الرحمن كلامه قائلاً : « وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا
أمضيتُم ، وآبى إذا أبيتُم » . وكان أهل العراق يبغضون الحجاج ، وكرهت
نفوسُهم ما يتوقعونه من حرب طويلة شاقة في بلاد قاصية ، فكانوا يرحبون
بكل فرصة تسنح للعودة إلى أوطانهم . وكان ابن الأشعث يعلم تماماً
ما سيقولون في جوابهم . فلما انتهى من كلامه ثار الناس فقالوا : لا ، بل
نأبى على عدو الله ولا نسمح له ولا نطيع . ثم قام أحدهم فقال : إن
الحجاج لا يرى فيكم إلا رأى من قال لأخيه : إحمل عبْدَكَ على الفرس ،
فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك ! إن الحجاج والله لا يبالي أن يخاطر بكم
فيعلمكم بلاداً كثيرة اللغوب والعقـاب والأشب ، فإن ظفرتم فغنتم
أكلَ البلاد وحاز المال ، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن ظفر عدوكم
كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنهم ولا يُبقى عليهم ، فاخلعوا الحجاج
وبايعوا أميركم عبد الرحمن ! فإني أشهدكم أنى أوَّل نخالِع . وقام آخر فقال :
إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجمركم تجمير فرعون الجنود . . .

ولن تعانقوا الأحبة ، فيما أرى ، أو يموت أكثركم ، بايعوا أميركم وانصرفوا إلى الحجاج فانفوه عن بلادكم ! ووثب الناس إلى ابن الأشعث وبايعوه جميعاً على خلع الحجاج وجهاده ، حتى يخرج من العراق . وكان أشدهم حماسة يسمّن الكوفة الذين كان منهم ابن الأشعث (١) . على أن إخوة ابن الأشعث لم يكونوا في جانبه (أنساب الأشراف ص ٣٢٦ فما بعدها) .

ولما أظهر عبد الرحمن خلع الحجاج وأدع الزنيدل وكتب بينه وبينه كتاباً ، وعاهده ألا يرزأ منه شيئاً ، فإن ظفر بالحجاج لم يسأل الزنيدل خراجاً أبداً ما بقي ، وإن انتصر عليه الحجاج بلأى ومن معه إلى الزنيدل ، فمنعهم وعيّن عبد الرحمن خلفاء لنفسه في بسّست وزرنج ، حاضرتي سيجستان ، ثم تحرك بالخيشت في سنة ٨١ هـ ، وانضم إليه في طريقه جند من الكوفة والبصرة ، كانوا في حاميات الأمصار ، حتى إذا صار ابن الأشعث بجيشه إلى فارس ، قال الناس بعضهم لبعض : إنا إذا خلعتنا الحجاج عامل عبد الملك ، فقد خلعتنا عبد الملك ؛ واجتمعوا إلى ابن الأشعث ، فكان أول من خلع عبد الملك ، وخلعه الناس ، وبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلال . ولم يكن ابن الأشعث بحاجة إلى أن يدفعهم لذلك ، بل هم الذين دفعوه ؛ ولم يستطع أن يتحالف من سلطان أولئك الجن الذين قد ناداهم . وأقبل الخيشت ، كما يقول المهلب في كتاب يثروى أنه كتبه إلى الحجاج يشير عليه بما يفعل ، « مثل السيل المنحط من علي ، ليس يرده شيء » حتى ينتهي إلى قراره .

(١) يصرح الفرزدق بأن ربيعة ومضر لم يختلفا ، ولكنه يجعل الوزر الأكبر على يمن الكوفة ، على السبئية الذين رفعوا المختار اليهودي من قبل (ص ٢١١ بيت رقم ١٠ من الديوان) . والآن يرفعون ابن الأشعث النسّاج (الديوان ص ٢٠٨ س ٩ و ٢٠٩ س ١٦ و ٢١١ س ١١) . ويلقب أهل اليمن بالنساجين (الحوّاكين) على سبيل التشنيع ، كما يلقب أردعاف بالصيادين والسفانين .

أما المهلب في خراسان فإنه لم ينضم لابن الأشعث^(١) ، ويروى أنه كتب إلى الحجاج يبلغه تحرك جيش ابن الأشعث إليه كالسيل المنحدر ، وأن لأهل العراق شيرة في أول خرجهم ، وبهم صباية إلى أبنائهم ونسائهم ، ونصحه أن يخلى لهم الطريق حتى يسقطوا إلى أهلهم ويتنسّموا أولادهم ، فترق قلوبهم ويخلدوا إلى المقام في منازلهم ويتفرقوا عن ابن الأشعث ، وتحدث لهم آراء غير آرائهم^(٢) . ولكن الحجاج لم يستمع إلى نصيحة المهلب ، وكانت جند الشام وفرسانها تسقط إليه في كل يوم . ثم تقدم بجيشه ، ومعه الإمدادات التي بعثها عبد الملك من الشام ، وسار لقتال الثوار . ووقع أول صدام على ميدان القتال القديم عند نهر دجيل ، في تستر ورستقأباد . فعبر ابن الأشعث النهر ، وانتصر في مساء العاشر من ذي الحجة سنة ٨١ هـ ، الموافق ٢٥ يناير ٧٠١ م . وفر المهزومون إلى البصرة واتبعهم المنتصرون ودخلوا المدينة . أما الحجاج فإنه أمر الجند بالرحيل عن البصرة ومضى لا يلبى على شيء حتى نزل الزاوية ، إحدى ضواحي البصرة وخذق بها ، وانضم إليه هناك بعض الثقيين والقرشين من أهل البصرة . وقد صمم الحجاج على أن يهلك ولا يتراجع . ولبت جنوده من أهل الشام وعلى رأسهم سفيان بن أبرد^(٣) الكلبى شهر أكامل يقاومون هجمات أهل العراق الذين كانوا قد عسكروا في الخضرية (أنساب الأشراف ص ٣٥٥) ، وقد هزموهم آخر الأمر هزيمة حاسمة

(١) [كتب ابن الأشعث إلى المهلب يدعوه إلى الثورة معه ، فقال المهلب : ما كنت لأغدر بعد سبعين سنة ، ثم قال : ما أعجب هذا ! يدعوني إلى الغدر من بعض ولدى أكبر منه ، وقال لرسول ابن الأشعث : قل له : اتق الله في دماء المسلمين . ويقال إنه كتب إليه يلومه على الثورة وترك قتال المشركين والإقبال على قتال المسلمين ، وينهاه عن نكث البيعة وتفريق كلمة الجماعة . المترجم نقلا عن أنساب الأشراف ص ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ .]

(٢) هكذا عند الطبري (ج ٢ ص ١٠٥٩) ، أما بحسب أنساب الأشراف (ص ٣٤٣) فإن النصيحة لم تقدم للحجاج إلا في مناسبة بعد ذلك ، قدمها له زاد انفروخ كاتبه الفارسي وأقدمها عبّاد بن حصين [بل - يذكر صاحب الأنساب ص ٣٣٦ - ٣٣٨ نصيحة المهلب للحجاج] .

(٣) هو قاهر شبيب - قارن الأنساب (ص ٣٣٨ ، ٣٤٢) .

في المحرم سنة ٨٢ هـ (أوائل مارس ٧٠١ م) . وانسحب ابن الأشعث على أثر ذلك مع شطر من جنده من أهل الكوفة^(١) ، وساروا إلى الكوفة التي كانت المركز الحقيقي للثورة وفيها التقت جيوش الحاميات العراقية آتية من جميع نواحي الأمصار . واستخلف ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس الهاشمي القرشي في البصرة ، فواصل القتال ، لكن ذلك لم يدم إلا أياماً ، لأن سواد أهل البصرة قبلوا الأمان الذي نادى به الحجاج بعد انصراف ابن الأشعث إلى الكوفة وأفسحوا له الطريق حتى دخل المدينة (أنساب الأشراف ص ٣٤٩ س ٥) . وفي أول صفر ٨٢ هـ (منتصف مارس سنة ٧٠١ م) استطاع الحجاج أن يبدأ في التقدم نحو الكوفة . ولما انصرف ابن الأشعث إلى الكوفة واصل عبد الرحمن بن العباس الحرب مع الحجاج وقاتل بمن معه خمسة أيام أشد قتال رآه الناس ، ثم لحق هو وأصحابه بابن الأشعث في الكوفة دون أن يلقوا السلاح .

وكان مطر بن ناجية التميمي عاملاً للحجاج على المدائن وناحياتها ، فأتى الكوفة ، فلما علم بهزيمة الحجاج وثب بالكوفة واستطاع أن يخرج جنده الشام منها ، واستولى على القصر . فلما صحت عنده هزيمة ابن الأشعث أراد أن يبايع لنفسه خلفاً لابن الأشعث ، فلم يبايعه سوى نفر قليل من قومه ، فعدل إلى أخذ البيعة لعبد الرحمن بن العباس ، وتمت على يد عبد الرحمن ابن أبي ليلى . وأقبل ابن الأشعث والخلاف على هذه البيعة قائم ، فسبقت إليه همدان بالناس ، وكانوا أخواله ، واستطاع أن يقبض على ابن ناجية وأن يحبس ، ثم بايعه ابن ناجية على كره منه بطبيعة الحال . وكان وثوب ابن ناجية بالكوفة أحد الأسباب التي من أجلها وجد ابن الأشعث نفسه مضطراً إلى أن يسرع بالرحيل عن البصرة والعودة إلى الكوفة (أنساب الأشراف ص ٣٤٨ ، ٣٥٤) . ولكن ابن الأشعث

(١) في كتاب الأنساب (ص ٣٤٩ س ١) أنهم كانوا ألف رجل فقط ، وعلى هذا فلا بد أن تكون غالبية الكوفيين في جيشه قد انسحبوا إلى مدينتهم من قبل ، وكل القرائن ترجح ذلك .

استطاع أن ينتهي من القضاء على منافسه قبل أن يأتى إليه الحجاج . وأخذ الحجاج طريقه عبر الصحراء إلى الشاطئ الأيمن من نهر الفرات ، وعسكر في دير قنرة ، عند الكوفة ، حيث كان الطريق مفتوحاً أمام مواصلاته مع الشام . أما فيما يتعلق بالإمدادات فلم يكن أمامه بطبيعة الحال سوى طريق الفلاليج وعين التمر . وخرج أهل العراق الناثرون إلى خارج المدينة ، على العادة العربية ، واحتلوا معسكراً حصيناً عند دير الحجام^(١) ، أمام جنود الشام ، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة ٨٢ هـ (منتصف إبريل سنة ٧٠١ م) . ويروى أنهم كانوا مائة ألف ومعهم مثلهم من مواليهم ، وخذق كل جيش في عسكره ، والناس يخرجون كل يوم فيقتلون ، وظلتوا كذلك شهوراً كثيرة دون الوصول إلى نتيجة حاسمة . ثم اشتد القتال ، وقلق عبد الملك ، فأشار عليه رؤوس قريش وأهل الشام بأن ينزع الحجاج عن أهل العراق ، إن كان ذلك يرضيهم . فأرسل عبد الملك أخاه محمد ابن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك على رأس جيشين^(٢) من أهل الشام ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزاع الحجاج ، وأن تجرى عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق شاء يكون عليه والياً ما دام حياً ، فإن قبلوا ذلك عزل الحجاج عنهم ، وإن أبوا فللحجاج القيادة العليا في محاربة الثوار . ولم يكن أمر أشد غيظاً للحجاج ولا أوجع لقلبه من هذا الذى عرض على أهل العراق . فكتب لعبد الملك يُنَبِّهه إلى غدر أهل العراق وسابق أعمالهم مع عثمان ، ولكن عبد الملك أصر على عرض الصلح على أهل العراق . وقد أراد ابن الأشعث أن ينصحبهم ويقنعهم بالقبول ، لكنهم

(١) هل هو دير الجبلجة ؟

(٢) وبذلك عرّى عبد الملك الحدود أمام الروم فاغتم هؤلاء الفرصة (راجع مجلة

Göttinger Nachrichten ، عام ١٩٠١ ص ٤٣٣ .

ثاروا وخلعوا عبد الملك من جديد ، وكانوا يأملون أن ينهزم أهل الشام وشيكاً بعد ما لحقهم من ضيق وضنك ومجاعة .
ولكنهم أخطأوا التقدير . ذلك أن أهل الشام ثبتوا ثبات المستميتين ؛ أما أهل العراق فقد تركوا القتال بعد أن كان قد استمر مائة يوم ، وفي جمادى الآخرة سنة ٨٢ هـ (آخر يولييه سنة ٧٠١ م) أخلوا الميدان دون سبب كاف ، ولم يثبتوا على حماسهم ثبات أهل الشام على نظامهم . وفي آخر يوم من أيام القتال قاتل أهل العراق أحسن قتال ، إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلابي ، وكان عليه هنا أيضاً أن يقوم بالعمل الحاسم مرة أخرى ، من قبيل ميمنة جيش الحجاج حتى دنا من الأبرد بن قرّة القيسية ، وهو على ميسرة جيش ابن الأشعث ، فما قاتله كبير قتال حتى انهزم ، وكان شجاعاً ولم يكن الفرار له بعادة ، فظن الناس أنه قد كان أُعطي له الأمان وقد صولح على أن ينهزم بالناس . وأثار ذلك ريبة الخيانة وأحدث ذعراً شاملاً بين الجند ، فتقوضت الصفوف من نحوه ، وركب الناس وجوههم وأخذوا في كل وجه هاربين . ولم يستطع ابن الأشعث أن يوقف فرارهم ، وفرّ هو أيضاً . وزاد الحجاج في فرارهم وتبديدهم بأن لجأ إلى الوسيلة التي لجأ إليها ونجح بها في البصرة ، وذلك أنه أمر منادياً بأن ينادى مجلناً الأمان لكل من يعود إلى داره أو معسكره ، وأنه منع جند الشام من مطاردتهم . وهكذا وصل إلى الغاية دون إراقة كثير من الدماء ، واستطاع أن يدخل الكوفة منتصراً ، وهناك تلقى بيعة من ألقى السلاح واضطروهم في ذلك إلى أن يشهدوا على أنفسهم أنهم بثورتهم قد كفروا ، ولم يأنف من إنقاذ حياته بمثل هذا الإذلال إلا قليل منهم (١) .

(١) [جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٠٩٧ - ١٠٩٨) أن رجلاً من خشمهم ، كان معزلاً للفتنه ، جاء إلى الحجاج ليبياع مع الناس ؛ فطلب منه الحجاج أن يشهد على نفسه بالكفر ؛ فقال : بئس الرجل أنا ، إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر . قال له الحجاج : إذن أقتلك ، فقال : وإن قتلتني ، فوالله إني ما بقى من حمري إلا ظم حمار ، وإني لأنتظر الموت صياح مساء ؛ فأمر الحجاج بضرب عنقه ، فرثى له الناس جميعاً من عراق وشام . =

ولكن الكثير من أهل العراق الذين تشتتوا في الكوفة تجمعوا في مواضع أخرى . رجع ابن الأشعث أول الأمر إلى البصرة ، وكان عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس القرشي قد استردها له ، ولكنه لم يلبث هناك طويلاً ، بل رجع على مسكن على نهر الدجيل^(١) ، وهناك انحاز إليه جنود كثيرون وقلول جاءت من كل ناحية ، فقاوم الحجاج لمسا لحقه ، وكان ذلك في شعبان سنة ٨٢ هـ (سبتمبر - أكتوبر سنة ٧٠١ م) وكان القتال مستميتاً ودام مدة طويلة وانحسم آخر الأمر ، كما يقول الطبري (ج ٢ ص ١١٢٣ فما بعدها) بأن قامت فرقة شامية يقودها شيخ خبير بالبلاد وطرقها ، فاخترقت المستنقعات ، وحصرت أهل العراق بين نهري دجيل ودجلة ، وهاجمتهم ليلاً ، ففروا يريدون عبور الماء ، وكان من غرق منهم أكثر ممن قُتل بحدة السيف :

وهناك واصل ابن الأشعث تفهقره نحو المشرق ، واتبعه أهل الشام بقيادة عمارة بن تميم اللخمي ، وأدركوه واضطروه للقتال مرتين عند السوس وسابور ، ولكنه أفلح في صدّهم ، وسار من طريق كرمان حيث أقام زماناً طويلاً ، حتى وصل إلى سجستان (آخر سنة ٨٢ أو أول ٨٣ هـ) ، فأغلق عامله وواليه على زرنج الأبواب دونه ، بل وثب هذا الوالي عليه فأوثقه وأراد أن يسلمه للحجاج ليأمن بذلك عنده ويتخذ به عند الحجاج مكاناً . وعند ذلك جاء الزبيل ، فخلّصه من الأسر وتعهّد له بأن يمنحه حق اللجوء عنده إذا احتاج إلى ذلك ، وأخذ

= وقد امتنع شيخ آخر من أن يشهد على نفسه بالكفر أشد امتناع وأشجع . وجاء رجل بعده ، فقال الحجاج : إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر ، فقال الرجل ، يريد النجاة من القتل ، للحجاج : أخادعي أنت عن نفسي ؟ أبا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذى الأوتاد ، فمضت الحجاج وحلى سبيله - المترجم] .

(١) ليست مسكن المنزلة الواقعة بين الموصل وتكريت ، كما يظن فائيل ومولار ، بل هي مسكن أخرى في أيزقباد (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٩ و ١٠٢٣ وياقوت ج ٤ ص ٥٢٩ و ٥٣١) .

معه إلى كابل هو ومن كان معه من الفلول الكثيرة وأكرمه وعظمه تعظيماً كبيراً ؛ ولكن كثيراً من فلول جيش العراق لحقت فيما بين ذلك بزعيمها الهارب ، وتجمعت تحت قيادة عبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس الذي تقدم ذكره وعبد الرحمن بن عباس الهاشمي الذي كان في سجستان ، وطلبوا من ابن الأشعث أن يرجع إليهم ، فرجع أيضاً واستولى على مدينة زرنج ، وهناك عاقب عامله الخائن . وأخيراً لمّا أقبلت جنود الشام تحت قيادة عمارة بن تميم ، عبرت جنود ابن الأشعث حدود خراسان على غير رضاه ، وكانوا يأملون أن يكونوا هناك بمنجوة من القتال : ثم انشق عليه فريق من جيشه وسلك طريقاً آخر غير طريقه ، فاتخذ ابن الأشعث من ذلك سبباً للرجوع إلى الزنبدل وتركهم لمصيرهم : فأمروا على أنفسهم ابن العباس الهاشمي واستولوا على مدينة هراة وقتلوا هناك عاملها من قبيل يزيد بن المهلب الذي كان قد حل محل أبيه آخر سنة ٨٢ هـ : فاضطر يزيد على كره شديد منه أن يخرج لقتالهم ، فشتتهم بعد قتال قصير : وفي أثناء هذا القتال وقع في يده كثير من الرجال ذوى المكانة ، فأطلق من كان بينهم من اليمنيين ، شركاته في النسب ، وأرسل الباقين إلى الحجاج . وكان الحجاج يقيم في مدينة واسط ، وهي إذ ذاك في مرحلة التشييد (سنة ٨٣ هـ) ، فحاكمهم الحجاج محاكمة أراق فيها دماءهم - وهذا هو ما يحكيه أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١١٠١ - ١١٠٦) : أما رواية المدائني فهي تختلف عن رواية أبي مخنف بعض الاختلاف (الطبري ج ٢ ص ١١٠٦ - ١١١٠) : ولكن عمارة بن تميم ، قائد جند الشام ، استطاع أن يستولى على سجستان بعد أن كان قد حاصر طائفة من جيش ابن الأشعث انشقت عليه تريد مواصلة القتال ، وذلك بعد أن آمنهم عمارة فخرجوا إليه ؛ ولكن ابن الأشعث نفسه كان ما يزال مصدر خطر على الدولة : وقد حاول الحجاج أن يغري الزنبدل بالترهيب حيناً والترغيب حيناً آخر ، لكي يسلم له ابن الأشعث بعد أن لجأ إليه ، واستطاع أخيراً أن يحصل من الزنبدل على

ما أراد وذلك بأن عرض عليه أن يعفيه من الخراج سبع سنين أو عشرأ ، ولكنه لم يحصل على عدوه حياً ، بل حصل على رأسه مقطوعاً . ويزوى أن ابن الأشعث كان قد مات مريضاً بالسل ، أو أنه انتحر قبل ذلك وأن الزنبيل إنما استز رأسه بعد أن كان قد مات وأريد دَفْنُهُ : وكان ذلك في سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١١٣٨ فما بعدها) :

وتحديد تواريخ هذه الحوادث ليس يقينياً إلى درجة الكمال . ولا شك أنه قد بقيت بعض الأيام والشهور عالقةً بذاكرة الرواة ، مثل يوم عرفة بالنسبة لموقعة تُسْتَر ، وهو في آخر السنة التي بدأت فيها الثورة ، ومثل شهر المحرم بالنسبة للمعارك التي كانت عند البصرة في السنة التالية ، ومثل شهر ربيع وجمادى بالنسبة لمعارك الكوفة ، وشهر شعبان بالنسبة لموقعة مسكنين (١) . أما فيما يتعلق بالسنين فالروايات مضطربة ، وقد اتبعت فيما يتصل بتاريخ السنين التاريخ الذى يجعل الثورة قد بدأت سنة ٨١ هـ ، وتكون بحسبه معارك البصرة والكوفة ومسكن قد وقعت في سنة ٨٢ هـ ، ومعارك سجستان وخراسان في سنة ٨٣ هـ . وبحسب ترتيب آخر للتواريخ تكون السنون متأخرة سنةً ، بحيث تكون سنة ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ على الولا (٢) ، ثم يأتى موت ابن الأشعث في سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ ، على أثر فتح جند الشام لسجستان مباشرة . ولكن مزية الترتيب الجديد ظاهرية فحسب ، لأنه من الممكن أن تكون قد مضت فترة طويلة بين فتح سجستان وبين موت ابن الأشعث . ومما له وزنه ، خلافاً لذلك ، أن الروايات متفقة على أن ابن

(١) ولا ينهض دليلاً قوياً على خلاف ذلك ما يقوله الواقلى من أن موقعة دير الجماجم كانت في شعبان سنة ٨٢ هـ وأن الثورة قد بدأت في السنة ففسها (الطبرى ج ٢ ص ١٠٧٠ ، ١٠٥٢) . أما إن موقعة تستر كانت يوم عرفة فهو ثابت .
(٢) ويظهر أن أبا مخنف يخلط بين التواريخ المختلفة ، إذ يجعل أول الثورة معركة تستر في سنة ٨١ هـ ، على حين يجعل معركة الزاوية (في البصرة) كما عند الطبرى (ج ٢ ص ١٠١١) في سنة ٨٣ هـ ، لا قبل ذلك ، وهذا أيضاً هو تاريخ معارك الكوفة .

الاشعث جاء إلى سجستان في سنة ٨٠ هـ ، وشرع في محاربة الزنيدل على الفور ، وأن الحجاج قد أغضبه في هذه الحملة نفسها ، مما دعاه إلى الثورة . وعلى هذا فليس من الممكن أن تكون الثورة لم تبدأ إلا بعد سنة ٨٠ هـ بعامين . ومما يدخل في الاعتبار أيضاً أنه لما جرى بأسرى هراة الذين بعث بهم يزيد بن المهلب إلى واسط ، لم تكن واسط قد بُنيَتْ ، وهذا ما يوجد صراحة في الروايات (الطبري ج ٢ ص ١١١٩ فما بعدها) ولكن الحجاج انتقل إليها في سنة ٨٣ هـ ، وهو أقام بها في سنة ٨٤ هـ على كل حال . وعلى هذا فمن الممكن أن تكون معارك سجستان وخراسان قد وقعت سنة ٨٣ هـ ، لا في سنة ٨٤ هـ . ولا يستطيع الإنسان للأسف أن يصل من كثرة ذكر أسماء الأيام التي وقعت فيها الحوادث إلى رأى حاسم ، لأن الأيام المذكورة لا تتفق مع مكانها في الشهور ، لا فيما يتعلق بسنة ٨١ هـ ولا بسنة ٨٢ و ٨٣ هـ (١) .

وقد ألقى ألفريد فون كريمير (Alfred von Kremer) على ثورة ابن الأشعث نوراً جديداً ، أعشى به بصر آخرين مثل ا . مولر ، وج . فان فلوطن (صاحب كتاب بحوث في السيادة العربية) (٢) ، ذلك أنه يجعل ثورة ابن

(١) وبحسب كتاب أنساب الأشراف (ص ٣٤٠ س ١٠) كانت موقعة تستر يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة سنة ٨١ هـ ، وكان نزول الحجاج معسكر الزاوية في يوم الخميس ٢٣ ذى الحجة سنة ٨١ هـ (ص ٣٤٢ س ١٠) . وأسماء الأيام المذكورة لا تتفق مع أيام الشهر لا في سنة ٨١ ولا في سنة ٨٢ ، بل في سنة ٨٠ هـ ، وهذه السنة ليست مذكورة في أى من الروايات . ولا يستطيع الإنسان أن يتمسك بها ، ويقول أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٤) إلى قتال المائة يوم بدأ يوم الخميس ٢ ربيع الأول سنة ٨٣ هـ وانتهى يوم الأربعاء ١٤ جمادى الثانية سنة ٨٣ هـ . وهنا أيضاً لا تتفق أسماء الأيام مع مكانها من أيام الشهر لا في سنة ٨٣ ولا في ٨٢ ، وربما كانت أقرب إلى الاتفاق مع أيام سنة ٨١ ، حيث لا يزيد الفرق على يوم واحد . ويظهر أن مثل هذا الفرق شيء ممكن وأنه ينشأ من الاضطراب في ذكر أول الشهر أو أول اليوم (في المساء أو في الصباح) . وعلى هذا فالظاهر أن الصحيح هو سنة ٨٠ و ٨١ لا ٨٢ و ٨٣ هـ ، ولا سنة ٨١ و ٨٢ هـ . وتيوفانيس (في حوادث سنة ٦١٩٢) لا يقول ما ينافي ذلك .

(٢) Recherches sur la domination Arabe ، امستردام ، ١٨٩٤ .

الاشعنت راجعة إلى طموح من جانب الموالى ، أعنى الرعايا الذين دخلوا الإسلام فى الكوفة والبصرة ، للحصول على المساواة بطبقة الأشراف ، الحاكمين ، أعنى العرب ، وللتخلص من دفع الجزية ، وإلى طموحهم إلى أن تُقَسِّمَ أسماؤهم فى ديوان أصحاب الأعطيات — وكانت هذه الأعطيات رمزاً يدل على شرف العرب . وأراد الحجاج أن يتلافى التناقص فى دخل الدولة ، وهو تناقص لابد أن ينشأ من توسيع نطاق الإعفاء من الضرائب وفرض الأعطيات للمسلمين من غير العرب — أو هو أراد أن يتلافى هذا النقص الذى كان قد حصل بالفعل — فأمر بفرض الجزية من جديد على الموالى الكثيرين الذين دخلوا فى الإسلام ، والذين ما كان يجوز بحسب الشرع أن يدفعوا جزية ، وبذلك أضرموا نار الثورة — يقول فون كريم^(١) : « أمر الحجاج بأن يدفع من دخل فى الإسلام ، أعنى كل الطبقة الكبيرة من المسلمين الجدد ، ضريبة الرأس ، كما كانوا يدفعونها قبل إسلامهم ؛ وهذا إجراء كان من أثره ثورة مريعة قام بها المسلمون الجدد ومواليهم^(٢) . وقد اشترك فيها بنوع خاص كثير من الناس من أهل البصرة ومن المقاتلة القدماء والموالى والقرءاء ، وفى رواية أنه كان من هؤلاء الثوار مائة ألف رجل مقبدين فى ديوان الأعطيات ، وإذا أردنا أن نعبّر تعبيراً حديثاً ، هم كانوا من فرق المقاتلة فى الأمصار ، وقد انضم إليهم مثلهم . وقد قهر الحجاج هؤلاء الثوار وأعادهم إلى رشدهم^(٣) ، وصمم على أن يشتت كل طائفة للموالى تشتيتاً لا يجتمع بعده شمل ، حتى لا يستطيعوا أن يتجمعوا من جديد لتكوين معارضة موحدة ، فأمر باستدعائهم أمامه وقال لهم : إنكم عَجَبْتُمْ وعُلُوجُ أَشْقِيَاء ، والأجدر بكم أن تبقوا فى قراكم ؛ وبعد ذلك أمر بأن يُفسَّرَ قوا فى القرى ، وشئت جميعهم تشتيتاً تاماً . ولكى

(١) فى كتابه Culturgeschichtliche des Orients (١٨٧٥) ج ١ ص ١٧٢ وكتابه

Culturgeschichtliche Streifzüge (١٨٧٣) ص ٢٤ .

(٢) لا أعرف ما يقصده فون كريم من عبارة : ومواليهم (Clienten) التى يضيفها لكلامه

(٣) وفون كريم فى كلامه أكثر تعسفاً من الحجاج فى أفعاله .

لا يستطيع أحد أن يرحل عن القرية التي أمره بالمقام فيها ، فإنه أمر بأن يُطَبَّع على يد كل واحد اسم القرية التي يجب عليه ألاَّ يترجحها » ، ويعتمد فون كريم على رواية للجاحظ في كتابه « الموالي العرب » المذكورة في كتاب العقد الفريد ، لابن عبد ربه (ط . بولاق ج ٢ ص ٩٣ (١)) .

ولا شك في أن ثورة المختار لم تقض قضاء تاماً على طموح هؤلاء المسلمين الجدد إلى الارتفاع ، وأن الحجاج كان يعالج الصعوبات التي نشأت من دخول الموالي في الإسلام طلباً للمساواة السياسية وفراراً من الجزية . ولا شك أيضاً في أن ثورة ابن الأشعث كان مهدها الحقيقي في الكوفة ، شأنها شأن ثورة المختار (٢) . لكن القول بأن ثورة ابن الأشعث كانت في روحها مجرد استمرار لثورة المختار لا يجد سنداً يؤيده في المصادر الأولى الأساسية التي اعتمد عليها الطبري ، ولا في كتاب أنساب الأشراف ؛ ولم يكن الموالي هم الذين طبعوا ثورة ابن الأشعث بطابعها الخاص . صحيح أن كثيرين منهم اشتركوا فيها ، ويذكر

(١) « وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الموالي والعرب أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الحارود ولقي ما لقي من أهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخلفه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالي من أهل البصرة ، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يستطد ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ويتعاقدوا . فأقبل على الموالي وقال : أنتم ملوج وعجم ، وقرأكم أولى بكم ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها » . وعلى هذا فقد كان ما اتخذ الحجاج من إلزام الموالي البقاء في قراهم أحد الإجراءات التي اتخذها لكسر القوة التي أصبحت بيد التجارب السابقة ، خطراً عليه في مدينة البصرة ، بعد أن قد اتسعت اتساعاً عظيماً . وكان من هذه التجارب ثورة ابن الأشعث ، وكانت قبلها بثنتين ثورة ابن الحارود (كتاب الأنساب ص ٢٨٠ فما بعدها وابن الأثير ج ٤ ص ٣٠٩ فما بعدها) ؛ ولا نجد أكثر من ذلك . أما (الطبري ج ٢ ص ١١٢٢ و ص ١٤٣٥) فيروى أن الموالي الذين كان الحجاج قد أخرجهم ، انضموا هم والقراء الذين كانوا يعطفون عليهم إلى ابن الأشعث ، ولكن لا ذكر عند الطبري للقول بأن الثورة جاءت من الموالي .

(٢) ولذلك استطاع الفرزدق أن يقول ، على سبيل الذم : إنه كما أن الكوفيين كانوا من قبل سبئية يعني أتباعاً للمختار ، فهم اليوم أتباع للثائر الجديد ابن الأشعث . راجع الديوان ص ٢١١ ب ٣ ، ١٠ ، ١١ .

أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٠٧٢) أنه كان في معسكر دير الجماجم مائة ألف من أصحاب الأعطيات من المقاتلة العرب ، وكان معهم مثلهم من مواليهم ، ولكن هؤلاء الموالى كانوا مجرد مرافقين للسادة العرب ، وكانت العادة أن يأخذ هؤلاء مواليهم معهم ، إن كان لهم موالى ، إلى ميدان القتال ويجعلوهم يقاتلون معهم راجلين ؛ أما هم فكانوا يقاتلون على ظهور الخيل : ومثل هذه العلاقة كانت بين الفرسان ونحداً منهم في العصور الوسطى . على أنه إذا كان الموالى قد اشتركوا في الثورة فإن ذلك لا يجعلها ثورة الموالى . ومن الجائز أيضاً أنه قد كانت للموالى مصلحة خاصة في معاداة حكومة الشام التي كانت عماد العروبة ، ولكنهم لم يكونوا أكثر من مؤيدين ، ولم تأت الثورة منهم ، بل من جانب جيش « الطواويس » ، وهو الجيش الذي كان يؤلفه أهل العراق والذي انضمت إليه مسالحي سائر الولايات والشعور : وقد قام هذا الجيش بالثورة لما صار في سجستان (١) ،

(١) [الحق أن ثورة ابن الأشعث وليدة لعوامل كان لها تأثير في الأحداث التاريخية الكبرى عند العرب ، وهي قد تولدت عن طبيعة الرجال الذين قاموا بها . فكان هناك من جهة عبد الرحمن بن الأشعث الذي يرجع نسبه إلى ملوك كندة . وكأنه كان يشعر أن دم المجد القديم يجري في عروقه ، فيروى أنه كان أشد العرب أهبة وكبراً وأنه كان معجباً ذات نخوة وطموح شديد ، وأنه كان يقول : ما رأيت أميراً فوق إلا ظننت أني أحق بإمرته منه . ونظراً لهذه الروح المعروفة عنه ، فإنه لما أراد الحجاج أن يولييه قيادة جيش الطواويس جاء إليه إسماعيل بن الأشعث ، عم عبد الرحمن ، يشير عليه بالألا يوجهه في الجيش خوفاً من تمرده ، وقال عم عبد الرحمن عنه : إنه ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً . وكان هناك من جهة أخرى الحجاج بن يوسف ، من ثقيف الطائف ، رجلاً ليس من عليّة أشراف العرب ، لكنه كان والياً من ولاة الدولة ، يعمل لمجدها ويخضع لرئيسها ويصدر فيما يقول أو يفعل عن « وجهة نظر الدولة » ، يفهم حاجات الدولة من ثبات السلطان وإقرار النظام وحماية الحدود وتوسيعها وزيادة قوة الدولة في الداخل ونحو الخارج ، وكان هناك من جهة ثالثة أهل العراق ، قوم أصحاب ثراء وتحضر وحياة رغدة هائلة ، يدلون بغنى بلادهم وخصبها ، ويضمرون في أنفسهم شيئاً من الاحتقار لأهل الشام الفقراء ذوى العيش الضئيل وشيئاً كثيراً من الغيرة منهم والمقت لسيادتهم والاستهانة بقدرهم ، ويطمحون للرياسة =

ثم فتحت له الكوفة والبصرة الأبواب . وقد اشترك في ثورة ابن الأشعث أكابر العرب وأكثرهم نباهة ، فكان منهم رؤساء قبائل ، مثل ابن الأشعث

— أو الاستقلال ويتملقون بكل ثائر على سلطان أهل الشام أيأ كان ، سواء كان من أهل البيت أو من غيرهم .

وكان الحجاج بحكم شخصيته ومنصبه ينفذ عبد الرحمن بن الأشعث ويقول : « ما بالمراق رجل أبغض إلى منه ، وما رأيته ماشياً أو راكباً إلا أحببت قتله . وكانت في عبد الرحمن خيلاء ، فكان الحجاج يفتاظ منه ويقول له : « إنك لمنظراني » ، يعنى أنه يختال فخور ، فيغيظه عبد الرحمن قائلا : « وخبراني » ، يعنى أن خيلاءه بقدر ماله في الحقيقة من مواهب . وبلغ ابن الأشعث ما يكتنه له الحجاج من البغض والحقد والرغبة في القضاء عليه ، فأقسم ليحاول إزالة سلطان الحجاج ، إن طال بهما العمر . هذا هو الموقف ، فإذا يمكن أن يخرج منه عند وجود أزمة بين سيد عربي وبين أمير للدولة على ولاية من الولايات ، أو بين أمير وبين الدولة التي يمثلها ، ثم جاءت الحرب مع الزنبيلى ، فأعد الحجاج جيشاً من صفوة أهل العراق وأمر عليه ابن الأشعث ، رغم نصيحة الناصحين له بالأفعل ، وقال لناصره : « إنه لى أهيب وفى أرغب من أن يخالف امرئى أو يخرج عن طاعى » . وظن الحجاج ، وهو رجل الدولة ، أن القائد العربي مطيع له ، وإن اشتد معه ، خاضع لأمره وإن أهافه وصغر من أمره ، ونسى رجل الدولة ، ما فى الطبيعة العربية من إباء وأنفة من احتمال الضيم ، فكان ما كان من ثورة ابن الأشعث التي ترجع إلى الإباء العربي وإلى بغض أهل العراق للحجاج ولأهل الشام معه ، وإلى خيبر أهل العراق من التضحية بأنفسهم وعيشهم الرغد والموت فى بلاد العدو القاصية من أجل مجد الحجاج وخليفته بالشام . وإذا عرفنا أن الحجاج كان من قبل قد بعث عبيد الله بن أبي بكره الثقفى ، فأهلكه فى محاربة الزنبيلى ، ولحقه من ذلك غم شديد ، فإن المؤرخ أن يتعمق فى معرفة الباعث الذى حمل الحجاج على توجيه ابن الأشعث وعلى استحثائه على التوغل فى أرض العدو الكثيرة الشعب والعقاب استحثائاً شديداً ومهيناً ، مع علمه بالمصير المحزن الذى لقيه جيش ابن أبي بكره فى تلك البلاد من قبل ، ثم على إلحاحه على ابن الأشعث لكى يتقدم مخالفاً ما تقضى به الخطة العسكرية الحكيمة . فلا بد أن يكون البغض الذى كان يملأ نفس الحجاج وابن الأشعث كل على صاحبه ويملا نفوس أهل العراق على الحجاج وعلى السادة من عرب الشام قد لعب أكبر دور فى نفس الحجاج ، حتى خالف نصيحة إسماعيل ابن الأشعث ونصيحة المهلب ، وفى نفوس المتبردين على أوامر الحجاج أولاً ثم فى الخروج على سيادة الدولة نفسها بعد ذلك ، اتهاماً لها بالعلم ولاصحاب الأمر فيها بالضللال . ولعبت العصبية القبلية فى ذلك دورها ، فتغنى الشعراء بمجد ابن الأشعث وبقرى زوال مجد بنى أمية . وقد حاول المهلب أن يثنى ابن الأشعث عن تمرده منبهاً إياه إلى أنه بثورته ينكث عهد البيعة ويفرق كلمة الأمة ويستعمل قوته هو ومن معه فى قتال المسلمين ودولتهم بدلاً من استعمالها فى قتال المشركين ودولتهم . ولكن ذلك لم يجد نفعا ، وغلب الكبرياء على الإيمان والأنفة على واجب الخضوع للدولة . وكثيراً ما حصل مثل هذا فى تاريخ العرب — وفيما يتعلق بالنصوص ليراجع القارئ كتاب الطبرى (ج ٢ ص ١٠٤٢ فما بعدها) وكتاب أنساب الأشراف (ص ٣٠٨ فما بعدها) — المترجم [.

الكندي ، وجريير بن سعيد بن قيس من همدان (كتاب الأنساب ص ٣٤٠)
وعبد المؤمن بن شبت بن ربيع من تميم (الطبري ج ٢ ص ١٠٥٤) وبسطام
ابن مصقلة بن هبيرة الشيباني من بكر (الطبري ج ٢ ص ١٠٨٨ و ١٠٩٩) ؛
وكان منهم قرشيون مثل محمد بن سعد بن أبي وقاص (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٩)
وعبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس ، وعبد الرحمن بن العباس الهاشمي ؛
وكان منهم علماء مثل القاضي الشعبي والمؤرخ محمد بن السائب الكلبي صاحب
أبي مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٠٩٦) ؛ ولا يُذكر إلا اسمُ مولى واحد ،
هو اسم فيروز خُصَّيْن ، وهو رجل صاحب ثراء من سجستان ولعله هو
ابن سُبُخْت الذي يذكره الفرزدق (الديوان ص ٢٠٦) وقد أُنِفَّت
الطبقة الأرستقراطية العربية من قبول المعاملة بالحرارة والغطسة التي أبدأها
الحجاج ممثل سلطان الدولة الذي لم يكن يعتبر من أشراف العرب . يقول
أعشى همدان الشاعر^(١) (الأغاني ج ٥ ص ١٥٣) :

يأبى الإلهُ وعِزَّةُ ابن محمد وجدودُ ملك قبل آل ثمود
أن تأنسوا بملتهم ، عروقُهم في الناس إن نُسبوا ، عروقُ عبيد^(٢)
كم من أب لك كان يعتمد تاجه يجين أبلج مِقْوَل صنديد
وإذا سألتَ المجد أين محله فالجهد بين محمد وسعيد
بين الأشج وبين قيس باذخ يخ بخ لوالده وللمولود^(٣)

(١) [خرج أعشى همدان مع ابن الأشعث وجعل يقول الشعر في مدح ابن الأشعث .
وفي تحريض أهل الكوفة على القتال . وكان للأعشى مع ابن الأشعث مواقف محمودية وبلاء .
حسن ، وكان الأعشى من أحوال ابن الأشعث - المترجم] .
(٢) من الثقفين ، كالحجاج .
(٣) يظهر أن المقصود بالأشج هو الأشعث ، قارن (كتاب الأنساب ص ٣٣٥) ،
وقيس هو أبو سعيد الهمداني المشهور الذي انضم ولد ولده جريير إلى ولد ولد الأشعث [الأشج]
هو في الحقيقة أحد آباء ابن الأشعث] .

إذا دعا لعظيمة حشدت له همدان تحت لوائه المعقود
ما إن ترى قيساً يقارب قيسكم في المكرمات ولا ترى كسعيد

في هذه الآيات يعبر الأعشى عن روح الطبقات الأرستقراطية . وقد
تبع القبائل العربية رؤساءها ، وكانت القبائل هي فرق الجيش ، وكانوا
أشد رغبة في اتباع رؤسائهم ، بعد أن أصبح طول الحرب والإقامة في
المساح القاصية شيئاً بغيضاً إليهم بالحملة ، وصار لا ينقطع حنينهم إلى
أوطانهم . وكان يمن الكوفة وخاصة من كندة وحمدان ومنحج كثيرى
العدد بين الجند ، وكانوا في الكوفة هم الغالبية ، وكانوا يعدون ابن الأشعث
منهم . ولكن بقية القبائل وقبائل البصرة لم يكن بينهم تنافر . وكان أشد
الناس حماسة وأقواهم صوتاً في الاشتراك في الثورة هم القراء ، أعنى أهل
الدين من العلماء بالقرآن ، وكانوا في كل مناسبة كهذه يظهرون في المقدمة
باليد واللسان (١) ، وذلك أنه لم يكن هناك بد ، ما دامت الحكومة
تيوقراطية ، من بيان السند الدينى الذى من أجله تُنتهك السلطة الحاكمة
بالظلم ، وعلى أساسه تحل الثورة عليها . ولكن ثورة ابن الأشعث لم يكن لها
بالحملة أسباب دينية ، بل هي كانت بالأحرى محاولة جديدة قوية ومستميتة من
جانب أهل العراق لطرح نير أهل الشام من على كاهلهم . ولما جاء الحجاج زاد
في ضجرهم من هذا النير ، وذلك أنه استبقى جند الشام الذين كان قد جاء بهم
لحاربة شبيب في بلاد العراق ، ولم يكن ذلك بقصد حماية الدولة من العدوان
الخارجى بمقدار ما كان لأجل حماية سلطانها فى الداخل ، فكان هؤلاء الجند
يمثلون السيادة الأجنبية مجسمة (٢) . وكان على جند العراق أن يقتنعوا بأعطيات
قليلة ويحتملوا في الوقت نفسه مؤونة جند الشام ، وكانوا يؤججهون في حملات بعيدة

(١) والرواة مولعون بإبراز فضائلهم حتى إن أبا مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٠٨٦ فما
بعدها) ليذكر حكاية جبلة بن زحر القارئ كما لو كانت أهم حادث في موقعة دير الجماجم ،
تقارن ما كتبناه عن الخوارج (في ص ٩ وما بعدها) .

(٢) وكذلك أحدث دخول جند الشام في إفريقية وإسبانيا أيضاً فيما يعد تدمراً .

ويرسلون إلى المسالح القاصية ، على حين كان يبقى جند الشام في أهلهم ، وإذن فلا يمكن تجاهل طبيعة ذلك الصراع ؛ فهو لم يكن صراعاً بين الموالي والعرب ، بل كان صراعاً بين عرب العراق وعرب الشام (الطبرى ج ٢ ص ١٠٨٩) ، فكان صراعاً بين ولايتين في الدولة العربية كانتا تتنافسان دائماً . وكان أهل العراق ، أياً كان أصلهم ، متحدين في ذلك الصراع ، وكذلك كان جنود الاحتلال الشاميون يشعرون ، وهم خارج وطنهم ، بما بينهم من أواصر الاتحاد على أنهم كانوا في الأغلب ينتسبون إلى كلب وقضاعة ؛ أما قول شاعر العراق في وصفه موقف أهلها ، بعد رحيلهم مع ابن الأشعث ، وهو :

تركنا دورنا لطغام عكّ وأنباط للقرى والأشعرينا
(الطبرى ج ٢ ص ١١٠٢) .

ففيه وصف إجمالي لأهل الشام ، بذكر البعض بدلاً من ذكر الكل ، ويظهر أنه هجاء لهم بأنهم غير متحضرين ، وهم يوصفون (عند الطبرى ج ٢ ص ١٣٩٣) بأنهم الأنباط والأقباط ، يعنى الأعراب الأجلاف غير المتحضرين (١) .

وقد أدّى ذلك إلى زيادة في شدة الحكومة العسكرية الشامية في العراق ، وفي سنة ٨٣ هـ بنى الحجاج مدينة واسط ، وجعلها حصناً في منتصف الطريق بين الكوفة والمدائن والأهواز والبصرة ، وجعلها مقراً للحكومة ، ونقل جمهور جند الشام إليها أيضاً . ويقال إنه فعل ذلك لكي يتلافى ارتكابهم للمفاسد في الأحياء التي يقيم فيها الناس في الكوفة والبصرة . ولكن يظهر أن السبب الأكبر هو أنه أراد أن يعزل جند الشام عن أهل العراق (٢) ويجعلهم حوله ليكونوا أداة طبيعة

(١) [يذكر المؤلف هنا كلمتي Kaffern und Botokunden ، وهما في الغالب تسميتان للقبائل متوحشة في أواسط أفريقية - المترجم] .

(٢) ولهذا السبب نفسه أبقى جند الشام يعيدون عن خراسان لكي لا ينفث فيهم أهل العراق سمومهم ، فأرسلهم إلى الهند حيث لا يوجد عراقيون (الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٧ ، ١٢٧٥) .

تحت يده ، ونقل مقر إقامته هو من وسط الجماعة إلى مركز قيادة حربى ، فأبان بذلك عما يشعر به من أنه فى بلاد معادية ، وأخرج الحكومة عن الأساس الدينى الأبوى الذى نشأت عليه ، وأقامها على القوة فى صورتها الصريحة ، ولم يكن هناك سبيل غير ذلك ، إذا كان لابد من المحافظة على سيادة بنى أمية على العراق .

وبعد القضاء على ثورة ابن الأشعث أصبح شرق الدولة كله تحت قدمى الحجاج ، ولم تكن هناك مقاومة إلا من جانب المهالبة فى خراسان ، فإنهم كانوا ما يزالون رافعى الرأس ، وكانوا يعتمدون على قوة قبيلتهم ، أزد عمان ، الذين جاء بهم المهالبة إلى خراسان ، وكانوا سبياً فى أن تكونت هناك كما تكونت فى البصرة من قبل مجموعة من قبائل الأزد وربيعة (اليمن) فى جانب ، ومجموعة أخرى من تميم وقيس (مضر) فى جانب آخر . وكان على رأس المهالبة ومجموعة قبائل اليمن يزيد بن المهلب ، أمير خراسان ، وكان تابعاً للحجاج . لكن يظهر أن الحجاج لم يكن فى مقدوره أن يعزله ، مهما كان من ابن المهلب ما يدعو الحجاج إلى ذلك : ولم يتحرك ابن المهلب للقضاء على أصحاب ابن الأشعث فى هراة إلا كارهاً ، ثم أخذ من وقع فى يده من أسرى هؤلاء الثوار بالهواة ، خصوصاً اليمنيين منهم . وقد تلكأ طويلاً فى تنفيذ الأمر الذى صدر إليه بطرد ثوار قيس الذين كانوا قد ثبتوا أقدامهم فى ترمذ (قرب بلخ) تحت إمرة موسى بن عبد الله بن خازم ، وذلك اتباعاً لوصية أوصاها المهلب لبنيه بالآلة يتعرضوا لابن خازم ، اعتقاداً منه أن أبناءه سيظلون ولاية نجر خراسان ما بقى ابن خازم ، فإذا قُتل كان أول طالع عليهم أميراً على خراسان رجلاً من قيس (١) . وقد أراد الحجاج أن يخرج ابن المهلب من خراسان ، فكان يبعث إليه يستزيده فيعتل ابن المهلب بحرب العدو ونحوه من أعمال مانعة ، ولم يستطع الحجاج أن يعزله آنحرا الأمر

(١) [راجع هنا وفيما تقدم وما إلى الطبرى (ج ٢ ص ١١٥١ - ١١٥٢ ، ١١٣٨ -

إلا بعد إلحاح شديد على الخليفة في سنة ٨٥ هـ فحسبه الحجاج ونحى إخوته شيئاً فشيئاً ، لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد موت عبد الملك في سنة ٨٦ هـ .

على أن مسلك عبد الملك من الحجاج كان أحياناً مسلك السيد الأمر ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك ، وكان الحجاج من قبل قد عمل جاهداً في أن يجعل له ولاية العهد ، ترك الحجاج يتمتع بكامل سلطته ، بل كان ينصاع له ويستجيب إلى رغباته حتى في دائرة اختصاصه كخليفة . فن أمثلة ذلك أن عمر بن عبد العزيز كان والياً على المدينة ، فليجأ إليها بعض أهل العراق فراراً من عسف الحجاج ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد ينبئهم إلى ظلم الحجاج لأهل العراق واعتدائه عليهم بغير حق . فلما بلغ الحجاج ذلك كتب إلى الوليد بأن مرقأ أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ، وأن ذلك وهن في سلطان الدولة . فطلب الوليد من الحجاج أن يرشح له رجلين ليوليها مكة والمدينة ، فأشار الحجاج بخالد بن جرير ابن عبد الله القسري ، وعثمان بن حيان المبري ، فعزل الوليد عُمر بن عبد العزيز وولّى خالداً مكة وعثمان المدينة ، وذلك في سنة ٩٣ أو ٩٤ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٤) فجسد كل منهما في استئصال شأفة أهل الريبة والفتنة جداً كبيراً (٢) . وفي عهد الوليد جنى الحجاج ثمرات عمله الشاق الذي قام به في أيام عبد الملك ، فعمت في العراق السكينة ، واغتنم هو ذلك في العمل على مداواة الجروح التي ألحقها برفاهية البلاد حرب استمرت عشرين عاماً . وكان الحجاج لا يقل عن الوليد في العناية باستصلاح الأراضي ، فوجه اهتمامه إلى تعهد الأنهار التي تتوقف عليها

(١) [كانت مهمة عثمان بن حيان هي القضاء على من لجأ إلى المدينة من أهل الفتنة في العراق ، فحبس بعضهم وعاقبهم وأرسلهم إلى الحجاج في السلاسل ، وأخرج كل من كان بالمدينة من أهل العراق حتى التجار منهم وطارد « أهل الأهواء » ، وهدد من يؤوى رجلاً من أهل العراق يهدم بيته ، وله خطبة لها دلالة كبيرة على روح أهل العراق وخصلهم وإثارتهم للفتنة - راجع (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٨ - ١٢٦١) - المترجم] .

محصوبة الأرض التي تغمرها المياه في الحوض الأدنى للجدلة والفرات (١) ،
وفي وسط أرض السبخ الكبرى التي كانت أرض مستنقعات وقصب أنشأ
الحجاج مدينة واسط . وقد حاول أن يوقف ما أدى إليه نقص سكان
الريف من تدفق أهلها نحو المدن الكبيرة . ويروى أيضاً أنه منع أهل
السواد في العراق من ذبح البقر لكي تكثر الحراثة والزراعة (٢) .
ولم يقيم بحروب إلا مع الأعداء في الخارج ، وقد انتصر انتصارات
باهرة ، ففتح قتيبة بن مسلم الباهلي الذي خلف المهالبة على خراسان
بلاد ما وراء النهر في عهد الحجاج ، كما فتح محمد بن القاسم الثقفي بلاد
السند ؛ ويرجع الفضل إلى الحجاج في اختيار هذين الرجلين للمنصب اللاتق
هما ، وقد منحهما أيضاً تأييداً فعالاً بفضل اسمه الذي كان يبعث الخوف في أقصى

(١) عن ملوك الفرس أشد عناية بتصفية مياه المناطق ذات المستنقعات وبإنشاء ممتلكات
لهم فيها ، وكان أحدهم إذا امتصلح قطعة من الأرض سماها باسمه . وفي عهد قباز حدث ثقب
كبير في السد عند كسكر ، فغمر كثيراً من الأرض وبقي مهملًا حتى أصلح أنوشروان الفساد
بعض الإصلاح . وفي سنة ٦ و ٧ من الهجرة حدثت من جديد ثقب أكبر ولم تثر كل جهود
كسرى برويز التي بذلها للإصلاح . وفي أثناء الاضطراب الذي نشأ أيام الفتح العربي ازدادت
رقعة منطقة المستنقعات عما كانت عليه من قبل ، ولم يستطع الدهاقنة (وكانوا ملاكاً للأرض
وولاية) بمجهودهم الخاص أن يكافحوا ذلك ، ولم تتغير الأحوال إلا في عهد معاوية وخصوصاً
في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه هشام . فشق الحجاج نهري النيل والزاب ، وجلب الجاموس
الهندي إلى إقليم المستنقعات ، ومنها أدخله إلى جليقية . وإذا كان لم يستطع أن يفعل أكثر مما
فعل فذلك يرجع إلى أن الوسائل التي كانت في مكنته كانت محدودة . وقد طلب ثلاثة آلاف
ألف لإعادة بناء السدود ، فاستكثر الوليد ذلك ، ولكنه طلب من أخيه مسلمة أن يقوم بالمشروع
على نفقته الخاصة ، وحصل مسلمة من ذلك على ربح عظيم ، وكان الخير الذي أشرف على
التخطيط ، في عهد الحجاج وهشام هو حسان النبطي . وفي رواية غير جديرة بأن نصدقها
أن الحجاج تعمد ألا يصلح الفساد الذي أحدثه فيضان عظيم في عهده ، وذلك عقاباً للدهاقنة ، لأنه
اتهمهم بالليل إلى ابن الأشعث - قارن الطبري ج ١ ص ٩٦٠ فيما بعدها والبلاذري ص ٢٩٢
فيما بعدها والمسمودي ج ١ ص ٢٢٥ فيما بعدها وابن خرداذبه ص ٢٤٠ فيما بعدها وياقوت ج ٣
ص ١٧٤ فيما بعدها .

(٢) البلاذري ص ٢٩٠ و ٢٧٥ ، وابن خرداذبه ص ١٥ و ص ٢٤١ والأغاني ج ١٥

ص ٩٨ وياقوت ج ٣ ص ١٧٨ .

المشرق^(١) . وكان الحجاج نفسه لا يذهب إلى الميدان ، ولكنه كان يعنى
أخلص عناية بإعداد الجيش وتجهيزه بكل ما يحتاج إليه حتى أصغر الأشياء
(البلاذرى ص ٣٤٦)^(٢) ، وكان لا يتزين في ذلك بمال . وكان خمس
الغنيمة يعوض عليه أكثر مما أنفق ؛ فأنفق مثلاً في الحملة الكبرى وجهها
إلى الهند ستين ألف ألف درهم ، وعادت عليه بعشرين ومائة ألف ألف
(البلاذرى ص ٤٤٠)^(٣) . وقد كانت مدة إمارته عشرين عاماً ، ومات ،
كما كان يتمنى ، قبل موت الوليد ، وذلك لتسع بقين من رمضان أو في
شوال سنة ٩٥ هـ = يونيه أو يوليه سنة ٧١٤ م عن ثلاثة وخمسين أو أربعة
وخمسين عاماً (الطبرى ج ٢ ص ١٢١٧ و ١٢٦٨) . وقد عين الوليد
مكانه الأمير الذى أقرحه هو نفسه ، كما أقر جميع عماله في مناصبهم ؛
وكان لأسرة الحجاج في الكوفة شأنها فيما بعد^(٤) .

كان زياد بن أبيه والحجاج أعظم نائبين خلفاء بنى أمية في العراق ، وكان
العباسيون يحسدون بنى أمية بحق على هذين الرجلين^(٥) ، وكان كلاهما لا يشعر
بأنه في منصبه صاحب قسنة يستغلها لمنفعته الخاصة ، بل كان يشعر بأنه مثل سلطان
الدولة . وقد مكنتهما سادتهما من سلطان كبير وتركوهما في مناصبهما إلى آخر

(١) قارن البلاذرى ص ٤٠٠ فأبعدها وص ٤٣٥ ، وما ذكر رايسكه (Reiske) تعليقاً
على أبي الفداء ج ١ ص ٤٢٧ . وفيما يتعلق بالكرك الهندى الذى لا يعرف رايسكه أمره ، قارن
الطبرى ج ٣ ص ٣٥٩ و ٣٧٠ .

(٢) [يقول البلاذرى إن الحجاج جهز محمد بن القاسم بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط
والمسال ، بل أرسل الحجاج معهم الخل المخفف على طريقة طريفة لكى يستعملوه في طعامهم وفيما
يحتاجون إليه - المترجم] .

(٣) [أنفق الحجاج في حملة الهند ستين ألف ألف درهم ، وحمل إليه منها عشرون ومائة
ألف ألف ، فقال الحجاج : شقينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددا ستين ألف ألف
درهم - المترجم] .

(٤) الطبرى ج ٢ ص ١٦٩٩ س ٥ و ١٧١١ س ٧ - ١٠ و ١٧١٢ س ٧) .
(٥) [كان المنصور يقول : الخلفاء ثلاثة معاوية ، وكفاه زياد ؛ وعبد الملك ، وكفاه
الحجاج ؛ وأنا ، ولا كافى لى . - المترجم نقلاً عن أنساب الأشراف ص ١٧٢) .

حياتهما ؛ وهما في مقابل الثقة التي نالها أدبا واجبات منصبهما بإخلاص ودون مبالاة برضا الرأي العام أو بسخطه . وإن المؤرخ ليشعر بميل إلى المقارنة بينهما : فأما زياد فإنه كان قد وصل إلى مكانة رفيعة قبل أن يجعله معاوية حليفاً له وقبل أن يضمه إلى جانبهِ ، وأما الحجاج فيستطيع الإنسان أن يعتبره من صنع يدى عبد الملك . وكان زياد يعرف كيف يكبح جماح القبائل بعضهم ببعض ويسخرهم في العمل له ، وقد وُفِّق في ذلك وجنى ثمرته ؛ وكان عمر ابن عبد العزيز يُعجَّبُ به ، لأنه قبض على زمام أهل العراق من غير أن يكلف أهل الشام قط مؤونة مساعدته في ذلك (الكامل ص ٥٩٥) (١) : أما الحجاج فلم يكن يستطيع أن يحافظ على سلطانه إلا من طريق الاستعانة بالسيادة الأجنبية ، أعنى مستنداً إلى جند الشام . على أن ذلك كان يرجع إلى تغير الظروف ، لأن التوتر بين الشام والعراق كان فيما بين عصر زياد وعصر الحجاج قد اشتد كثيراً . ولم يقصر الحجاج في أعماله عن سلفه زياد ؛ بل هو قد أثر في توجيه السياسة بعد موته : وكان السؤال هو : مع الحجاج أو عليه ؟ وكانت إصلاحاته الإدارية ، فيما يتعلق بنظام العملة والمكايل والضرائب وفي تنمية الزراعة مبدأ عهد جديد (٢) . وكان يلقى عناء في المحافظة على المستوى العالى لدخل الدولة في العراق التي كدستها الحروب المستمرة وأنضبت مواردها ، ولكن خزائنه لم تكن تخلو من مال ، وكان كثير الإنفاق (الطبرى ج ٢ ص ١٠٦٢ وأنساب الأشراف ص ٢١٧) (٣) . وكان فصيحاً تنقاد له الألفاظ ، حتى كان مغروراً بعض الغرور بجبال أسلوبه ، وكان يكره

(١) [قال عمر بن عبد العزيز في علانة زياد بأهل العراق : قاتل الله زياداً ، جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام في شأهم - المترجم عن كتاب الكامل] .

(٢) انظر كتاب الخراج ليحيى بن آدم في مواضع كثيرة خصوصاً ص ٩٩ فما بعدها .
(٣) [بلغت عبد الملك كثرة نفقات الحجاج وأنه مثلاً ينفق في اليوم ما ينفقه الخليفة في الجمعة . . . الخ . فرد عليه الحجاج أنه قد جاء إلى بلاد ذات فتنة تنضمرب بنيران الحوادث ، فهو يستعمل الخزم جاهداً ويعطى إذا لزم العطاء ، وأنه ناصح لأمير المؤمنين لا يضيع شيئاً - المترجم] .

أن يقال إن أحداً يفوقه في ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١١٣٢) (١) ؛ فلا غرو إذن أن نجد رواية خطبته التي ابتدأ بها ولايته على الكوفة يوشونها بعبارات مستكسفة ؛ وكان جنانه لا يتزعزع في أى موقف من المواقف ، وإنما كانت عظيمته تتمجلى عند الشدائد (٢) . ولكن الحجاج كان فيه تعجّل كبير ، ولم يكن صبوراً على من يكلفه تنفيذ أوامره ، ولم يضع يده الحديدية في قفاز من القطيفة ؛ ولا كانت له الآداب التي تُنال بها محبة الناس ، بل كان غليظاً وشديداً أحياناً ؛ ولكنه لم يكن قاسياً (٣) ، ولا كان صغير القلب ولا محدود الأفق . فقد عفا عن الشعبى الذى ثار مع ابن الأشعث ثم وقع أسيراً في يده ، وقد أطلقه كرماء منه ، لأنه لم يحاول أن يعتذر بالكذب ، بل قال الحق ، معترفاً بأنه ثار وحارب عن قصد (الطبرى ج ٢ ص ١١١٢ - ١١١٣) . وقد عرف للمختار قدره ، مع أنه كان بثورته قد خالف الدين والدولة ؛ وكان عند الحجاج من الشجاعة ما يجعله يصرح بإعجابه به . وهو لما ضرب الكعبة بالمنجنيق ، وجاء رعد وبرق أشعر الناس بغضب الله على هذه الفعلة الشنيعة ، لم يتردد في أن يفسر ذلك بأنه تحية من السماء تبشر بالنصر (٤) ؛

-
- (١) [استدعى الحجاج رجلاً ذكركر أمامه بالفصاحة ، كان يكتب الكتب ليزيد بن المهلب ، فسأله فيما سأله عن نفسه : هل يلحن ؟ فقال : تلحن لحناً خفياً ، تزيد حرفاً وتنقص حرفاً ، وتجميل أن في موضع إن وإن في موضع أن . فقال له الحجاج : قد أجلك ثلاثاً ، فإن أجلك بعد ثلاث بأرض العراق فتلتك - المترجم نقلاً عن الطبرى في نفس الموضع] .
- (٢) [مرت بالحجاج محن كثيرة ، ولعل أكبر محنة لقيها هي محتته أيام ثورة ابن الأشعث وتزعزع سلطانه وتزعزع ثقة عبد الملك به ، فليراجع القارئ تفاصيل ذلك عند الطبرى - المترجم] .
- (٣) [لو راجع القارئ مثلاً ما فعله الحجاج بالأسرى الذين بعث بهم إليه يزيد بن المهلب ، وما فعله بمن استسلم بعد فتنه ابن الأشعث (الطبرى ج ٢ ص ١١١٨ و ١١٢٣ و ١٠٩٧ ، ١٠٩٨) فربما رأى رأياً غير رأى المؤلف - المترجم] .
- (٤) [لما رمى الحجاج الكعبة بالمنجنيق جاءت صاعقة ، فرعدت السماء وبرقت وعلا صوت الصاعقة على صوت الحجارة ، فأعظم جند أهل الشام ذلك وأمسكوا ، ولكن الحجاج لم يأبه بذلك واشترك بنفسه في الرمي . وفي اليوم الثاني جاءت صاعقة تتبعها أخرى فقتلت بعض =

فكان الحجاج أقل وقوعاً في حبال الخرافات والمأثورات من معاصريه . ولكنه مع ذلك لم يكن كافراً بالله ، ومن المؤكد أنه لم يكن منافقاً . وكان في حياته وأعماله يراقب ضميره ، ولكن جراته وقله تحرجه في القضاء على هش الفتنة الذي كان بمكة ؛ وكذلك عدم قبوله أن يتخذ أهل الفتنة في الكوفة والبصرة من الدين سنداً يبررون به ما يثرونه من فتنة ، كان بطبيعة الحال كافياً ، عند الرأى العام بالحجاز والعراق ، في إثبات قلة إيمان الحجاج . وقد اتهم الحجاج بفظائع أخرى ، وهي في الواقع محترعة ، وقد ولدها بغض أعدائه له ، هذا البغض الذي لم يهدأ حتى بعد موته . فيروى مثلاً في رواية لم يذكر صاحبها أنه قتل في البصرة بعد موقعة الزاوية أحد عشر ألف رجل ، بل مائة وعشرين أو مائة وثلاثين ألفاً (الطبري ج ٢ ص ١١٢٣ . ويظهر أن كلا من فون كرىمر وفلوتن يصدق مثل هذا الهراء ؛ وهما ، إشاراً منهما لنظريتهما ، يتلمسان في الموالى الدليل على تعطش الحجاج للدم . ولكن الروايات القديمة الصحيحة تقول خلاف ذلك تماماً ، فالحجاج أمر في البصرة والكوفة بعد انتصاره على الفور بالنداء بالأمان الشامل لمن أتى السلاح ، وكان حريصاً كل الحرص على منع جند الشام من ارتكاب المفاصد في المدن التي يفتحونها . أما الذين أصروا على محاربته ولم يقبلوا الأمان ثم وقعوا في يده بعد ذلك ، فإنه قتل بعضهم ، كالذي فعله في واسط من قتل بعض القرشيين وغيرهم من الثوار الذين بعث بهم إليه يزيد بن المهلب . ولكنه حتى في ذلك كان يحترم الحقوق المدنية الشخصية ، ولم يجرؤ مثلاً على مصادرة أموال أحد الموالى

= جنود الشام ؛ فانكسر أهل الشام ، فقال الحجاج : يا أهل الشام ! لا تنكروا هذا ، فإن ابن تهامة ، هذه صواعق تهامة ، هذا الفتح قد حضر ، فابشروا ! إن القوم يصيحبكم مثل ما أصابكم . فصمقت من الغد ، وأصيب بعض أصحاب ابن الزبير ، فقال الحجاج : ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلاف ذلك ! - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٨٤٤ - ٨٤٥ . وأنساب الأشراف ص ٤٧] .

الأغنياء (فيروز حصين^(١)) ، مع أنه لم يوص في شأنها إلا في الملاحظة الأخيرة^(٢) .

٤ — وجاء بعد الوليد الأول أخوه سليمان ، وكان عبد الملك قد أخذ له البيعة ولياً للعهد بعد الوليد — في جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ = آخر فبراير ٧١٥ م . وقد سار على أثر سلفه من حيث ما كان ينويه من توجيه ضربة كبيرة للقسطنطينية بعدة وأهبة عظيمة ، وإن كانت هذه الضربة لم تكن موفقة^(٣) . لكن سليمان كان يخالف أخاه في أمور أخرى ، فلم يكن راضياً عن ذلك النفوذ الكبير الذى جعله للحجاج ، ولا بد أنه في هذه النقطة قد عارض أخاه ، وهو ما يزال والياً للعهد ؛ ففي سنة ٩٠ هـ فرّ يزيد بن المهلب من السجن الذى كان قد حبسه فيه الحجاج^(٤) ، وذهب إلى الرملة في فلسطين ، حيث كان يقيم سليمان بن عبد الملك ، فجعله سليمان في جواره واحتمل بعض المال الكثير الذى كان مطلوباً منه ، وتدخل لدى الخليفة من أجله بإلحاح شديد ، حتى أمر الخليفة الحجاج بأن يكفّ عن يزيد بن المهلب ؛ وقد ألجأه سليمان تسعة شهور عنده ، فوقع تحت تأثيره وقوعاً تاماً وزادت نفسه امتلاءً على الحجاج . ولم يكن الحجاج غافلاً عما كان يريده به سليمان ، فأيد الوليد فيما أراده من خلع أخيه سليمان وجعل ولاية العهد في ابنة عبد العزيز ، فزاد بذلك في كره سليمان له^(٥) ؛ فكان لدى الحجاج من الأسباب ما يدعوه إلى أن يتوقع

(١) [راجع ما كان بين الحجاج وبين فيروز حصين وتمذيب الحجاج له عند الطبرى (ج ٢ ص ١١١٩ - ١١٢٢) - المترجم] .

(٢) وقد بقيت لنا قصائد لحرير والفرزدق في مدح الحجاج .

(٣) راجع مجلة Göttinger Nachrichten ، ١٩٠١ ص ٤٣٩ والصفحات التالية .

(٤) [راجع قصة حرب يزيد بن المهلب وإخوته ، عند الطبرى ج ٢ ص ١٢٠٨ -

١٢١٧ - المترجم] .

(٥) كان هذا بحسب ما يفترض عادة هو السبب في بنض سليمان للحجاج ، ولكن يظهر أنه كان بالأسرى نتيجة له ، ذلك أن أمر نية الوليد جعل ولاية العهد في ابنة لا يذكر إلا في أواخر حكمه (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٤ و ص ١٢٨٣ فابعدا) ، بل إن التوتر بين سليمان والحجاج كان قبل ذلك : منذ سنة ٩٠ هـ . وهو المبرر لحرب يزيد بن المهلب إلى الرملة .

أكبر الشر من تولى سليمان للخلافة ، وكان دعاؤه المستمر هو أن يجعل الله مسنيته قبل مسنيته الوليد (الطبري ج ٢ ص ١٢٧٢)^(١) . وقد استجاب الله دعاءه ، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن ينال من الحجاج نفسه ، فصب غضبه على آل الحجاج وأصدقائه وعماله . فعزل عثمان بن حيان المرقى عن ولاية المدينة ، وخالد بن عبد الله القسري عن ولاية مكة (الطبري ج ٢ ص ١٢٨١ - ١٢٨٢ وص ١٣٠٥) ، وأمر بقتل آل الحجاج وبسط العذاب عليهم . أما قتيبة بن مسلم^(٢) ، الأمير القوي في خراسان ، فقد أراد أن يسبق القدر الذي كان يهدده ؛ واعتمد على ماضيه وما كان فيه من فتح ونصر ، فحاول أن يضم إليه جنده في ثورة على الخليفة الجديد ، لكنه لم يفلح . وذلك أن تميمًا ، وكان قد أساء إليهم ، انقلبوا عليه ، فهزموه ؛ لأن بقية العرب تخاذلوا عن نصرته ؛ وأما محمد بن القاسم الثقفي ، فاتح بلاد السند

(١) [لما مرض الوليد رهقته غشية ، فظن الناس أنه مات وخرجت البرد بذلك . فلما قدم البريد على الحجاج استرجع ثم أمر بجبل فشد في يده ، ثم أوثق إلى اسطوانة ، وقال : اللهم لا تسلط علي من لا رحمة له ، فقد طال ما سألتك أن تجعل مني قبل مميتي ، ثم جعل الحجاج يدعو . فإنه كذلك إذ ورد عليه يريد بإفاقة الوليد . ولما أفاق الوليد قال عمر بن عبد العزيز : « ما أعظم نعمة الله علينا بما فيتك ، وكأني بكتاب الحجاج قد أتاك يذكر فيه أنه لما بلغه برؤك خرت لله ساجداً ، وأعتق كل مملوك له ، وبعث بقوارير من أنج الهند » . فما لبث إلا أياماً حتى جاء كتاب الحجاج بذلك . ولكن من عبر أحوال النفوس البشرية وعواقب الفناء في خدمة المملوك أن الحجاج لم يمت حتى كان قد ثقل على نفس الوليد ؛ فيحكي أن الوليد كان يتوضأ يوماً للغذاء ، فجعل خادمه يصب على يديه الماء ، وهو ساوٍ ، والماء يسيل ، والخادم لا يستطيع أن يتكلم ، فنضج الوليد الماء في وجه الخادم ، وقال له : « أنا عس أنت ؟ » وسأله : ما تدري ما جاء الليلة ؟ « قال الخادم : « لا » ، فقال الوليد : « ويحك ! مات الحجاج » . فلما استرجع الخادم قال له الوليد : أسكت ! ما يسر مولاك أن في يده تفاحة يشمها - المترجم نقلاً عن البري ج ٣ ص ١٣٧٢] .

(٢) [كان قتيبة بن مسلم ، شأنه شأن الحجاج ، قد أيد الوليد فيما كان يريد من خلع سليمان أخيه وعقد البيعة لابنه عبد العزيز . فلما مات الوليد وتولى سليمان الخلافة ، خاف قتيبة . ولكنه أراد أول الأمر أن يسترضى سليمان ، ثم ثار عليه معتمداً على مجده في الفتح وعظم قدره عند ملوك العجم وعلى أعماله الحميدة في خراسان وعمله على رفاهية أهلها ومدعيها أنه عراقى النسب والهووى والرأى والدين ؛ ولكن لم يتبعه أحد - راجع التفاصيل عند الطبري ج ٢ ص ١٢٨٣ فما بعدها - المترجم] .

فلما يحاول أن يشق عصا الطاعة على الخليفة ، مع أن جند الشام ربما كانوا على استعداد لتأييده (الطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥ س ٣) ؛ فجئى به إلى واسط وحبس حيناً ، ثم قتل (١) .

وقد خلف الحجاج في منصبه عدوه الألد ، يزيد بن المهلب ؛ وهذا هو أكبر ما يميّز حكومة سليمان عن حكومة الوليد . ويرى دوزى (Dozy) أن هذا التغير نتيجة للاختلاف في موقف كل من سليمان والوليد إزاء الأحزاب الكبرى التي كانت تتألف من القبائل ، فيقول إن الوليد كان قيسياً لحماً ودماً ، أما سليمان فكان يميّى الهوى (٢) ، ويقول : « إن حكومة الوليد كانت قد أباحت قيساً ذروة قوتها ، فجاء سقوطها بعد موته على الفور ، وكان سقوطاً مريعاً » . على أن يزيد بن المهلب أخذ بجانب اليمن في صورة صريحة ، وكان ، باعتباره أزدياً ، ينتسب إليهم ، وكان معارضاً لقيس : أما الحجاج فإنه لم يضطره إلى معارضة اليمن وإلى

(١) [لما مات الوليد بن عبد الملك وولى سليمان واستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق ، حمل محمد بن القاسم مقيضاً مع معاوية بن المهلب ، فقال محمد بن القاسم متمثلاً :

أضاعوني وأئى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

وقد جزع أهل الهند عليه ، وقال ، وهو في حبس صالح بن عبد الرحمن في واسط :

فلئن ثويتُ بواسط وبأرضها رهنَ الحديد مكبلاً مغلولاً

فلسرُبَ فتية فارس قد رُعِثَتْها ولربّ قرنٍ قد تركت قتيلاً

ويقال :

ولو كنتُ أجمعتُ الفرار لوطئتُ إناثُ أعيدتُ للوغى وذكرُ

وما دخلتُ نخل السكاسك أرضنا ولا كان من عسكٍ على أميرُ

ولا كنتُ للعبد المزونى تابعاً فيالك دهرُ بالكرام عسورُ !

[المترجم نقلاً عن بلاذوى ص ٤٤٠ - ٣٤١]

(٢) راجع كتاب دوزى Histoire des Musulmans d'Espagne ، ج ١ ص ٢١١ ،

الظهور من هذا الوجه بمظهر من يكون في جانب قيس إلا يزيد بن المهلب وابن الأشعث من قبله ؛ وهو من نفسه لم يتنكر لأصله وأنه من ثقيف الذين كانوا يُعَدُّون من قيس ، كما قد أثر أن يختار حاشيته من دائرة من يعرفهم . وكان ذلك شيئاً طبيعياً ، ولا يصح أن يبلغ فيه أحد ، ولا أن يعتبره القاعدة العامة ، ولا أن يعتبره نزعة قيسية أصيلة كانت عند الحجاج . وإذا كانت قيس أنفسهم يعتبرون الحجاج منهم فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك أنه كان زعيماً لحزب قيسى ، ذلك أن القبائل العربية كانت تتعاقب بكل رجل قوى تستطيع أن ترتقى إليه بالنسب ولو من بعيد . فالسبب الذي من أجله عيّن عبدُ الملك الحجاج ، والذي من أجله تمسك به الوليد ، لم يكن بوجه من الوجوه قيسية كانت عند الحجاج - ولم يكن الحجاج من أسرة ناهية - بل كان السبب هو كفاءته الشخصية . وكان الذي جعل للحجاج شأنه هو شخصه لا قبيلته ، وكذلك كان بغض سليمان منصباً على شخص الحجاج وعلى نفوذه الشخصي . ولا شك أيضاً أنه إلى جانب هذا قد سعى بالحجاج عند سليمان ، وقيل له إنه ليس هو الرجل الذي يصلح لتهدئة أهل العراق ، بل إنه الرجل الذي يُبَغِّض إليهم محكم بنى أمية (الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٧) . وقد عزل سليمان عمال الحجاج ، لأنهم كانوا صنع يده ، لأنهم كانوا قيسيين الهوى . أما خالد بن عبد الله القسري فكان ، خلافاً لذلك ، يعتبر عند اليمن على أنه منهم (الأغاني ج ١٩ ص ٦١) . وأما قتيبة فكان من باهلة ، وهى قبيلة محايدة ؛ وفي خراسان لم يكن أكبر خصومه هم اليمن بل المضربون ، ومن جهة أخرى كانت له محبة في الشام عند قيس الذين كانوا يقطنون أرض الجزيرة وكانت باهلة تقيم بينهم (الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠) . وكان موسى بن نصير في إسبانيا يمينياً ، ويقال إن الوليد أساء معاملته لهذا السبب (١) . ولكن سليمان أساء معاملة عبد الرحمن بن موسى أكثر مما أساء

الوليد معاملة أبيه ؛ وهذا واقع من شأنه أن يضايق دوزى وتلاميذه (١). مولر A. Müller ج ١ ص ٤٢٩ فما بعدها (أشد المضايقة . فلاشك أن سليمان لم يكن ينزع نزعة يمنية ظاهرة ، كما نزع يزيد بن المهلب . وليس ثمة أى أثر يدل على أنه كان فى الشام منحازاً إلى جانب اليمن عن جانب قيس ، بل هو كان يأسف لأنه جرح مشاعر قيس الشام بما صنعه مع قتيبة (٢) . وكانت أم سليمان هى أم الوليد ، وكانت قيسية من عبس ؛ ومن العسير جداً أن يتنكر سليمان لما يجرى فى عروقه من دم . أما انقسام العالم العربى إلى قسمين متخاصمين على أساس الانقسام القبلى ، فإنه كان فى ذلك الوقت ما يزال فى دور التكوين : وقد كان ما بين الولاة والرؤساء الأقوياء من عداء شخصى سبباً جوهرياً فى تفاقم خطب هذا الانقسام ؛ ولا يصح للمؤرخ أن يعتمد على ما هو نتيجة فى التاريخ فيجعله بمثابة صل وقاعدة يرجع بها إلى الوراء حتى يجعلها فى بدايات ما قبل التاريخ .

وبعد موت الحجاج امتنع الزنبيلى فى سجستان عن دفع الإتاوة ، ولم يتخرج من أن يصرح بمقدار استصغاره لشأن من جاء بعد الحجاج (البلاذرى ص ٤٠٠ فما بعدها) (٣) ؛ وأيضاً بعد موت الحجاج وموت الوليد بعده بقليل تنفس أهل العراق الصعداء ، ولكنهم لم يلبثوا أن تبينوا أن تغيير الأشخاص لم يأت معه تغيير النظم وأن يزيد بن المهلب ، وإن كان قد آذى آل الحجاج وعماله (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٩) فإنه لم يسلك فى الحكم طريقاً غير طريق الحجاج . فهو أقام مثله

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠ س ٥ - ٦ - المترجم] .

(٢) [لما سنع الزنبيلى العروس التى كان قد صالح الحجاج عليها سأل عمال يزيد بن عبد الملك قائلاً : ما فعل قوم كانوا يأتوننا نحاص البطون سود الوجوه من الصلاة ، نالم خوص ؟ قالوا : انقروضوا ، قال : أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً . وقيل له : ما بالك كنت تعطى الحجاج الإتاوة ولا تعطيناها ؟ فقال : كان الحجاج رجلاً لا ينظر فيما ينشق ، إذا ظفر ببغيته ، ولولم يرجع إليه درهم ؛ وأنتم لا تنفقون درهما إلا إذا طمتم فى أن يرجع إليكم مكانه عشرة - المترجم نقلاً عن البلاذرى] .

في واسط ، واستبقى أهل الشام في العراق ، ووجد أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً من نظام الضرائب التي بغضت الحجاج إلى العرب ، إن كان لا بد أن يبقى دخل الدولة في المستوى العالي الذي كان عليه . على أن يزيد أراد أن يتفادى بغض أهل العراق له ، فطلب إلى الخليفة أن يعفيه من ولاية الخراج وأن يقلدها لعامل آخر أشار به ، ولكن ذلك آل إلى شيء لم يكن يخطر له على بال ، لأن العامل الذي أشار به يزيد وعيّنّه سليمان على خراج العراق كان عاملاً قديماً من عمال الحجاج ، وكان حتى ذلك الحين يعمل في الديوان ، وقد جعله سليمان مستقلاً على رأس ديوان الخراج^(١) ، وهو صالح بن عبد الرحمن أحد سواي سجستان ، وهو الذي نقل لغة الديوان إلى العربية ، وكان لصالح في واسط أربعائة من جنود الشام تحت تصرفه يسرون بين يديه إذا خرج ، وكان مستقلاً عن يزيد استقلالاً تاماً . وقد ضُيق على يزيد ، فلم يملكه شيئاً ، ورفض في جفاء أن يُحَمِّل خزانة الخراج تلك النفقات الكبيرة التي كان ينفقها يزيد . وأخيراً ضجر يزيد بسبب هذا التضيق ولم يحتمل المقام في العراق ، وعرف كيف يدبر الحيل ويلتمس السبل حتى أسند سليمان إليه إمرة خراسان إلى جانب إمرة العراق^(٢) ، فنقل مقر إقامته إلى الولاية القديمة التي كان عليها حيث لا يراقب أعماله أحد^(٣) . ولكنه في خراسان لم يجد ما كان

(١) هذا بحسب رواية أبي مخنف - الطبري ج ٢ ص ١٣٠٦ فما بعدها ، أما كيف أن دوزي يفهم هذه الرواية على هواه فيستطيع القارئ أن يطلع عليه عند دوزي نفسه (Dozy, 1, 226) . على أنه بحسب الطبري (ج ٢ ص ١٢٦٨ - ابن قتيبة ص ١٨٣) كانت ولاية الخراج قد فصلت عن الإمارة في الفترة بين الحجاج ويزيد ، فلا بد أن يكون هذا الفصل قد أُلتي أيام تولى يزيد للإمارة ، ثم عمل به من جديد بناء على طلبه ، وليس على هذا الذي نفترضه أي اعتراض .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٠٦ - ١٣١٤ - المترجم] .

(٣) كان ذلك في سنة ٩٧ هـ . وقد احتفظ يزيد مع هذا بالإمارة على العراق .

يحتسب ، فقد كان رجلاً همه الطعام والشراب والنساء (١) ، وكان بديناً فاسد الصورة ، وتبين الفرق البعيد بينه وبين قتيبة بن مسلم . ولكنه أراد أن يفوق قتيبة بفتح جرجان وطبرستان ، فلم يُوفَّق في ذلك إلا توفيقاً ناقصاً . وقد كتب إلى سليمان بتعظيم قيمة الفتح وعمد إلى الافتخار وتسميع الناس فبالغ في تقدير قيمة خمس الغنائم التي حصل عليها ، وبذلك حفر الحفرة لنفسه ببيديه (٢) .

وقد احتفظ سليمان بعد أن تولى الخلافة بمقر إقامته في الرملة من أعمال فلسطين . وكان الناس هناك يحبونه كثيراً (الطبرى ج ٢ ص ١٨٣١) ؛ ولكنه كان يكثر من الذهاب إلى معسكر دابق في شمال الشام ، وهو المعسكر الذى كان قاعدة لتدبير أمور الحرب الكبيرة الموجهة إلى القسطنطينية ، وهناك مات بعد حكم لم يدم ثلاث سنين كاملة ، وكان موته في صفر سنة ٩٩ هـ (سبتمبر سنة ٧١٧ م) . ويقول إلياس النصيبى إنه مات يوم الثلاثاء الثامن من صفر ؛ أما أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٦) فيقول إنه مات يوم الجمعة العاشر من صفر (٣) . وعلى حين كانت أحاديث الطبقة الممتازة في زمان الوليد تدور حول مسائل الزراعة وتخطيط الضياع ، صارت أحاديث الناس في عهد سليمان تدور حول التزويج والجوارى ، وكان سليمان نفسه غير متحفظ ، وكان صاحب نكاح وطعام ؛ ولكنه كان غيوراً شديداً الغيرة ، فأمر بمكافحة الفحش في المدينة ؛ وربما كان ما فعله أمير المدينة من خصي الخنثيين بدلاً من إحصائهم نتيجة لتصحيح في الكتاب الذى

(١) [راجع مثلاً ما يقوله عنه قتيبة بن مسلم وما حكاه عنه عمر بن عبد العزيز (الطبرى ج ٢ ص ١٢٨٧ و ١٣١٣ - المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى (ج ٢ ص ١٣١٧ - ١٣٣٥) . وقد قدر يزيد بن المهلب خمس الغنائم بستة أو أربعة آلاف ألف ، فعاسبه عليها عمر بن عبد العزيز فيما بعد - المترجم] .

(٣) بحسب قوستنقيلد يكون يوم الثلاثاء هو التاسع من صفر ويوم الجمعة هو الحادى عشر منه . ومثل هذا الاختلاف في يوم واحد يعرض كثيراً ، وليس بدى بال . [لكن إذا كان يوم الثلاثاء يوافق ٩ صفر فإن يوم الجمعة يوافق ١٢ منه - المترجم] .

وصله (الأغاني ج ٢ ص ٥٩ فاعدها)^(١) ؛ وهو مع أنه كان شهوانياً ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يميل إلى أهل الديانة والصلاح ؛ وهذا يتجلى في أنه كان يظهر العطف على معارضة أهل العراق للحجاج ، هذه المعارضة التي كانت دائماً تظهر في ثوب معارضة دينية باسم الله وباسم سلطان الله ضد غشم للأقوياء ؛ كما يتجلى في أنه كان يقرب العلويين إليه (الطبرى ج ٢ ص ١٣٣٨ س ٧) وفي أنه عيّن أحد الأنصار والياً على المدينة ، وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الذى كان بلده محمد ضلع كبير في الثورة على عثمان ، على أن أوضح ما يدل على ميله لأهل الدين والورع هو أنه كان يستمع لرجاء بن حيوة ، أحد علماء الدين في القصر . وإن المكانة التي جعلها خلفاء بني أمية لهذا الرجل هي مقياس لموقفهم هم أنفسهم من الإسلام . وقد بدأ تأثير رجاء في عهد عبد الملك ، وازداد في عهد الوليد ، وبلغ أوجه في عهد سليمان . وقد استطاع رجاء أن يقنع سليمان يجعل الخلافة في عمر ابن عبد العزيز ، وعندنا في هذا رواية الواقدي التي ذكرها الطبرى^(٢) .

كان عبد الملك قد عقد البيعة لابنه يزيد على أن يتولى الخلافة بعد الوليد وسليمان ابنيّه . وأخذ عبدُ الملك العهد من الوليد وسليمان على ذلك . ولكن سليمان لم يلتزم العهد ، فعهد إلى ابنه أيوب بالخلافة أولاً ؛ ولكن أيوب مات

(١) [بلغ سليمان بن عبد الملك ما كان يأتيه المخنثون في المدينة من فساد في النساء والرجال ، ولاحظ لماثير اشتغالهم بالغناء وإجادتهم له في النساء ، فكتب إلى عامله على المدينة أن إخص من قبلك من المخنثين المغنين . وظن البعض أن كتابه كان فيه « أن إخص » ، ولكن القارئ صحتها ؛ وهذا غير معقول ، وقد صرح الرواة بأنه كذلك - المترجم] .

(٢) ج ٢ ص ١٣٤٠ فاعدها . وكان الهيثم بن واقد ، عم الواقدي ، وهو طفل ، حاضراً في دابق ؛ وقد أصاب يوم استخلاف عمر بن العزيز ثلاثة دنائير (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦١) .

في حياة سليمان نفسه ، وقبل أن يجعل سليمان الخلافة في ابنه الثاني داود (١) — وكان هذا مع الجيش الأموي أمام القسطنطينية — كان على فراش الموت (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٥ و ١٣٤١) : عند ذلك وضع رجاء يده في الأمر ، وأقنع سليمان بأن يرضى الله بوصية يستخلف فيها على المسلمين الرجل الصالح . فتخطى سليمان الورثة المباشرين ، وعهد بالخلافة إلى ابن عمه الورع النقي ، عمر بن عبد العزيز ، على أن يكون العهد بعده ليزيد بن عبد الملك ، وجاءت سكرات الموت تغشى سليمان ، فبقي رجاء عنده ، فلما مات حرقته إلى القبة وغمض عينيه وسجّاه ، وأغلق عليه الباب واستوثق من إخفاء موته على أهله . ثم جمع الأمويين في مسجد دابق دون أن يقول إن الخليفة قد مات ، وطلب منهم أن يبايعوا على ما أمر به الخليفة في وصيته ومن سمي في العهد الذي كتبه ؛ ولم يذكر رجاء اسم ولي العهد (٢) ، ولم يخبرهم بموت سليمان ولا باسم خليفته الذي عينه بنفسه إلا بعد أن بايعوا ، وكانت مفاجأة كبيرة عند ما وقف رجاء وقرأ كتاب سليمان ، وفيه استخلاف عمر ابن عبد العزيز . وكان عمر من فرع جانبي من بني أمية ، كان قد نحاته عبد الملك ، والآن جاء ابن "لعبد الملك فأثره على أمراء الفرع الأساسي لبني أمية على كثرتهم . ولم يكن ذلك يخطر ببال أحد ، وربما كان أبعد شيء عن ذهن عمر بن عبد العزيز نفسه : ولم تقم مع هذا معارضة ذات شأن بسبب تعيين عمر . ويظهر أن رجاء قد أحكم ما صنع ، وقد عارض هشام بن عبد الملك في البيعة بعض المعارضة ، ولكنه أخذ

(١) والأسماء التي سمي بها سليمان أبناءه ، وهي الأسماء الموجودة في التوراة ، ربما كانت دليلاً على ورعه ، وهي فيما عدا ذلك فادرة عند الأمويين في ذلك العصر . أما اسمه هو فقد أعطى له من غير أن يكون له في ذلك دخل على كل حال .

(٢) بحسب رواية الواقدي أن سليمان نفسه ، وهو على فراش الموت ، فعل ما فعله رجاء في المسجد بعد موت سليمان — ومن الواضح أن هذا تكرار في الرواية .

جانب العقل لما هُندد بالسيف (١) . أما عبد العزيز بن الوليد فلم يكن حاضراً
في دابق ، ولما علم بموت سليمان ظن أن زمانه قد جاء ، ولكنه اطمأن لما علم
بأن عمر صار خليفة (٢) .

(١) [لما قرأ رجاء كتاب العهد الذي كتبه سليمان بمن يخلفه وانتهى إلى ذكر عمر بن عبد العزيز ، نادى هشام بن عبد الملك : لا نبايعه أبداً ، فقال رجاء : أضرب والله عنقك . قم فبايع ! فقام يجر رجلاه - وتفصيل موت سليمان ومبايعته موجود عند الطبري في الموضع المتقدم ذكره - المترجم] .

(٢) [لم يكن عبد العزيز بن الوليد يعلم بم عهد سليمان ، ولا بببيعة الناس لعمر بن عبد العزيز ، فعقد نواء ودعا لنفسه . ثم بلغه الأمر ، فأقبل وبايع عمر ، فلما سأله عمر عما كان منه ، قال له بما فعل ، واعتذر بأنه إنما بايع لنفسه خوفاً على الأموال أن تنهب . - المترجم] .
فقلا عن الطبري ج ٢ ص ١٣٤٥] .

الفصل الخامس

عمر بن عبد العزيز والموالي

١ - كان عمر بن عبد العزيز ابناً لعبد العزيز بن مروان الذي ظل أميراً على مصر لخلفاء بني أمية سنين طويلة . أما أمه فكانت أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتزّ بذلك ، وولد عمر في المدينة في عهد يزيد بن معاوية (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦١) (١) ، وقضى هناك الشطر الأكبر من صباه ، وتغذّى عقله بالتراث الروحي في مدينة الرسول ، وبعد أن مات أبوه (سنة ٨٤ أو ٨٥ هـ) أخذه عبد الملك إلى دمشق وزوجه ابنته ، ثم أرسله الوليد بن عبد الملك إلى المدينة أميراً على الحجاز ، وكان قصده من ذلك نحو الذكرى السيئة التي خلفها الوالي الذي كان قبل عمر واسترضاه أهل المدينة . ووثق عمر بن عبد العزيز صلته بالعلماء الذين اشتغلوا بكتابة العلم وبعلم الحديث ، وكان علم الحديث قد ازدهر هناك . ولم يكن يضايقه أن ينتقد علماء المدينة أساليب حكومة الأمويين ، خصوصاً أساليب الحجاج ، وكان من أثر ذلك أن صار أهل الفتنة والشتاق من أهل العراق يلجأون إلى الحجاز ، فلم يرض الحجاج عن ذلك بطبيعة الحال ، وصُزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة بناء على إلحاح الحجاج (٢) ، ولكن عمر لم يفقد العطف من جرّاء ذلك ، فقد كان أخصاً لامرأة الوليد وظل عنده مكرّماً ، ولم تكن مكانته الكبيرة عند سليمان أقل من ذلك .

قويت الروح الإسلامية في الأسرة الحاكمة ، كما رأينا ، فمنذ معاوية

(١) [جاء في الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ أن عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٦٢ هـ - المترجم] .

(٢) [راجع ما تقدم ص ٢٤٣ - المترجم] .

وعبد الملك إلى الوليد وسليمان نراها في ازدياد مستمر : وعمر بن عبد العزيز يقف على رأس هذه السلسلة من خلفاء بني أمية : ولكن تدينه وورعه لم يكونا شبيهين بما كان عند سلفه ، ذلك أن روحه تشربت هذا الورع على نحو آخر تماماً ، وكان الورع موجهاً لأعماله في أمور الدولة : ولقد كان سليمان بن عبد الملك رجلاً متبدياً صاحب متاع : أما عمر فيكاد يكون زاهداً ، وقد أتاحت السيادة لسليمان وسائل للمتاع لا محدود لها ، أما عمر فقد ألقت السيادة على كاهله مسئولية ثقيلة ، وكان في كل شيء يفعلها يتمثل الحساب أمام عينيه ، وكان يخشى دائماً أن يقصّر في حدود الله (١) .

ولم يكن عمر ميالاً إلى حروب الفتوح ، وكان يعلم حق العلم أنها لم تكن حروباً

(١) [لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى يزيد بن المهلب : « أما بعد ، فإن سليمان كان عبداً من عبيد الله ، أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعده ... وإن الذي ولاه (يعني الله) ليس على يمين ، ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ في أفضل ما بلغ بأحد من خلقه . وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً ومسألة غليظة إلا ما عافى الله ورحم » . وكتب عمر بن عبد العزيز لأهل الشام : « سلام عليكم ورحمة الله ، أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت قل كلامه ، ومن علم أن الموت حق رضى باليسير » . ويروى أنه قال : « من عمل من غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، وموكل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انزعها منه فأعاضه ما انتزع منه الصبر إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم فرأ هذه الآية : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . وقد أوصى أحد ولاته في كتاب له : « كن عبداً ناصحاً لله في عبادته ولا تأخذك في الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك وحقه عليك أعظم ، فلا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا كان بالنصيحة لهم والتوفير عليهم وأداء الأمانة فيما استرعى ، وإياك أن يكون ميلك إلى غير الحق ، فإن الله لا تحق عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذمباً ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه » . ولما كتب إليه الجراح بن عبد الله الحكي ، بعد أن ولاه على خراسان ، قال : « قدمت خراسان ، فوجدت قوماً قد أبطرتهم الفتنة ... فليس يكفهم إلا السيف والسوط ، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بذلك » . كتب إليه عمر : يا ابن أم الجراح ! أنت أحرص على الفتنة منهم ، لا تضربن مؤمناً ولا تعاهدوا سوطاً إلا في حق ، واحذر القصاص ، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . المترجم نقلًا عن الطبري ج ٢ ص ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٧٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٥] .

في سبيل الله ، بل من أجل الغنائم . على أنه ليس من الحقق على كل حال أنه هو الذى أرجع الجيش الإسلامى من القسطنطينية^(١) : وهو لم يستطع أيضاً ، من حيث المبدأ ، أن ينهى الجهاد مع قيصر الروم ؛ ولكنه ترك المراكز الأمامية وجمع جنود الغزو فيما دونها . وربما كان يرضى عن الانسحاب من بلاد ما وراء النهر ، لولا أن الإسلام كان قد رسخت قدمه في بعض مدنها . ولكنه قد منع على الأقل توسيع الحدود هناك^(٢) ، وكان جل اهتمامه متجهاً إلى السياسة الداخلية ، وهنا نجد أنه قد حصل في عهده تحول ذو طابع مغاير للتحول الذى كان بين عهد الوليد وعهد سليمان وأكبر منه شأنًا بكثير .

وقد شغل عمر أهم المناصب الكبرى بعمال جدد ، فحبس يزيد بن المهلب — وكان عمر يبغضه^(٣) — حبس ديس حتى يقضى ما عليه ، وذلك أن يزيد لم يستطع دفع الخمس من غنائم أقاليم بحر الخزر^(٤) ، وكان قد بالغ في قيمتها على سبيل الافتخار وتسميع الناس . ووجه عمر إلى خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي ، وإلى البصرة عدى بن أرطاة الفزارى ، وإلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى الذى ينتسب إلى عمر بن الخطاب ، وإلى العراق عمر بن هبيرة الفزارى ،

(١) [جاء في الطبرى ج ٢ ص ١٣٤٦ أن عمر بن عبد العزيز فى سنة ٩٩ هـ كتب إلى مسلمة بن عبد الملك ، ودبأرض الروم ، وأمره بالمقول منها بمن معه من المسلمين — المترجم] .
(٢) وفى عهد عمر بن عبد العزيز فتحت مدينة فربونه بفرنسا وحصنت . فتحها المسلمون من قواعدهم فى إسبانيا .

(٣) [كان يزيد بن المهلب يبغض عمر بن عبد العزيز ويقول عنه : « إني لأظنه مرثياً » ، فلما ولي عمر الخلافة عرف ابن المهلب أنه كان بعيداً من الرياء . وكان عمر يبغض يزيد بن المهلب وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أحب مثاهم » . وقد تبين لابن المهلب أن عمر لم يكن يظهر التقى رياء ، لأنه استدعاء وحاسبه — المترجم فقلا عن الطبرى ج ٣ ص ١٣٥٠] .
(٤) [يقول المؤلف : غنائم الخزر ، والمقصود هو غنائم جرجان وطبرستان ، كما تقدم كلام المؤلف — وفيما يتعلق بحاسبة عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب على ما كان قد كتب به إلى سليمان من خمس الغنائم ليراجع القارئ كتاب الطبرى (ج ٢ ص ١٣٥٠ - ١٣٥٢ ، ١٣٥٩ - ١٣٦٢) — المترجم] .

وإلى الهند عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم ، وكان الجراح (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤) وعمراً من مدرسة الحجاج ، وكان عدى وابن هيرة من قبيلة قيس . ولكن عمر لم يعين هؤلاء الرجال على سبيل الانصراف عن الجانب الذى كان ينحاز إليه سلفه ، وعلى سبيل الإيثار لقيس أو للحجاج ، بل لأنهم كانوا رجالاً أكفاء أمناء (الطبرى ج ٢ ص ١٣٨٣ س ٣) . وعين على الأندلس السمح بن مالك الخولاني ، أحد اليمينين ، وعلى إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، لأنه كان يعلم من أمر هذين الرجلين أنهما غير متحيزين لفريق دون فريق ، وأن لهما قلباً يعطف على المظلومين . على أن عمر بن عبد العزيز لم يكن يكتفى باختيار رجال يظهر أنهم على شاكلته ، ثم يتركهم بعد ذلك يفعلون ما يشاؤون ، ما داموا يحملون إليه ما يلزم أن يحملوه من أموال ، بل كان يشعر أنه مسئول هو نفسه عما يجرى في جميع البلاد ، ولم يكن همه الزيادة في قوة الدولة ، بل إقامة الحق والعدل فيها . وعلى يديه صار للفقهاء وأهل العلم كلمة مسموعة (١) ، بعد أن كانوا حتى ذلك الحين أشبه بحزب ذى كيان شرعى مستقل عن الحكومة ومناوئ لها بعض الشيء . ويظهر من هذا الوجه أيضاً أن منصب القاضى قد أصبح على عهد عمر أكثر استقلالاً وأكبر شأناً مما كان ؛ فقد جاء في كتاب كتبه عمر إلى عقبة ابن زرة في خراسان : إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها . فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا - يعنى الخليفة (٢) . وكان الحسن المشهور (٣) فى عهد عمر بن عبد العزيز قاضياً على

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١١٨٢ - ١١٨٣ - حيث يروى أن عمر بن عبد العزيز بدأ ولايته للمدينة سنة ٨٧ هـ . باستدعاء الفقهاء وقوله لم إنه لا يريد أن يقطع أمراً إلا برأيهم ، وطلبه منهم أن يدلوه على ما يرون من ظلم ، وفى هذا دليل على روحه بوجه عام - المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٦ - المترجم] .

(٣) [المقصود بطبيعة الحال هو الحسن البصرى - المترجم] .

البصرة ، وعامر الشعبي قاضياً على الكوفة . وقد أرسل عمر مع عبد الحميد ابن عبد الرحمن القرشي أمير الكوفة أبا الزناد الفقيه ليكون كاتباً عنده ، وكانت إدارة الأمصار في الدولة الإسلامية تنلخص في تنظيم الناحية المالية فيها ، وكان إصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت إليه همة عمر بن عبد العزيز . ولكن ليس السهل أن نتبين بوضوح نوع إصلاحاته في ميدان نظام الخراج ، والآراء التي جاء بها في هذا الشأن ألفريد فون كريمر (Alfred von kremer) وتابعه فيها أوجست مولر (A. Müller) مشوبة بأخطاء حقيقية .

مهرى فون كريمر ومولر أن الذي دعا عمر بن عبد العزيز إلى إصلاحاته في نظام الخراج إنما هو التقصد إلى العودة إلى النظام القديم^(١) ، وأن عمر بن الخطاب

(١) كان ذهن عمر بن عبد العزيز يحكم سلطان الدين عليه بعيداً عن كل إدراك لما تقتضيه الحكمة السياسية . وإنه وإن كان لا يمكن النزاع في أن بعض ما وضعه من نظم قد أدى إلى تقوية روح الإسلام في ذاته تقوية كبيرة ، فإن كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في الجملة على إفساد نظام الدولة من أساسه ، بعد أن كانت قد أصبحت دولة دينية . والرومان ، وهم أكفأ الشعوب التي عرفها التاريخ في مسائل السياسة الكبيرة ، إنما قرروا المبدأ الذي قرره عن علم ، وهو أنه لا دولة يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التي أدت إلى قيامها . أما عمر بن عبد العزيز فقد انصرف عن الأصول الممتشية مع الواقع والتي وضعها خلفاء الأمويين بعد عصر معاوية ، وأراد أن يستعاض عنها بتحقيق مبادئ مثالية استمدّها من القرآن والحديث ، حتى ولو كان هذا العمل الخليلق بالشأن لا يمكن تنفيذه إلا على أساس علم غير كامل بالظروف الواقعة ! ولكن عمر بن عبد العزيز ، وهو الخليفة الورع ، كان متأثراً بمبادئ حاشيته الدينية إلى حد أنه لم يقم حتى بمحاولة اصطناع شيء من العقل عند تطبيق ما في القرآن من مبادئ كبرى على أحوال هذه الدنيا الناقصة ، وكان تفكيره الساذج يقول له إن الله يريد كذا وكذا ، وإنه إذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه . أما كيف يريد الله من الخليفة أن يحكم فيرى عمر أن الله قد أظهر ذلك للمؤمنين حساً ملموساً بأن أخضع لسلطان الإسلام على يدي عبديه أبي بكر وعمر متمردي العرب أولاً ، ثم فارس كلها والشام ومصر ، وعلى هذا فلم يكن المثل الأعلى لعمر بن عبد العزيز سوى صورة حرفية للتنظيم الذي وضعه للدولة عمر بن الخطاب وغيره في أهم نواحيه خدكت السوء تغييراً لا يمت إلى الدين بسبب . وإذا عرفنا كيف أن هذه التغييرات لم تقض بضرورتها الأهواء الشخصية بل دعت إليها شدة وطأة الوقائع القاسية ، فإنه يصح من المفهوم بنفسه أن يكون الرجوع إلى تطبيق الأصول القديمة في تدبير أمور الدولة التي نظمها عبد الملك والحجاج بمثابة ما تقع على العين ضربة بجمع اليد . ولكن ثقة عمر بن عبد العزيز ، ذلك الخليفة الجدير بالإعجاب ، بما فيها من روع مؤثر ، لم يكن يتبرها ولو قبس من تلك المعرفة =

كان مثاله أراد أن يتبعه وأن يرجع إلى ما كان قد وضعه من نظم ، كما أراد أن يزيل ضروب الفساد التي استحدثتها خلفاء بني أمية وعملهم حتى ذلك الحين !
وهنا يقوم سؤال مبدئي عن طبيعة المثال الذي أراد عمر بن عبد العزيز أن يحتديه ،

فلم يلبث بعد توليه عرش الخلافة أن أمر بإلغاء القانون الذي وضعه الحجاج والذي كان يقضى بأن يدفع من يدخل في الإسلام من أهل الذمة الجزية التي كانوا يدفعونها من قبل ، وذلك تلافياً للنقص فيما يدخل إلى بيت المال . ولما كان من شأن هذا الإجراء أن يجعل الدخول في الإسلام مفيداً لغير المسلمين من جديد ، فإن الخليفة الورع - وكان قد نظم في الوقت نفسه دعوة حارة لنشر الإسلام في جميع الأمصار - قد قرت عينه بأن يرى جماعات المؤمنين في المشرق والمغرب قد زادت ملايين في وقت قصير . وحتى لو كان دخولهم نفاقاً في بدايته فإنه يجب أن لا ننسى أن الشريعة الإسلامية كانت من أول الأمر تقضى بالموت على من يرتد عنها ، وعلى هذا كان ارتداد من أسلم مستحيلاً ، وبعد ذلك سيكون معظم الخيل الثاني على الأقل مؤلفاً من مسلمين صادقين ، لذلك فإن أغلبية المؤمنين بالله بالنسبة لغيرهم قد زادت في الحقيقة بفضل هذا الأمر الذي أصدره عمر زيادة كبيرة ، ولكن أصاب الخزانة من جرائه نقص كبير ، ثم جاء أمر ثان لمعمر فزاد في هذا النقص زيادة أدخلت بالتوازن في مال الدولة لإخلالا كبيراً . على أنه كان من الواضح لمعمر نفسه أن العودة إلى تطبيق القانون القديم الذي يحرم امتلاك الأرض على المسلمين لا يمكن أن تكون في صورة مطالبة كل من ملكوا أرضاً في الأمصار خلال أكثر من سبعين سنة خلت بأن ينزلوا عنها ، وكان هذا مستحيلاً من الناحية العملية لأسباب كثيرة ، فتركت هذه التجربة على الأقل بسبب خطورتها التي لا حد لها . ولكن على حين أن كل شراء للأرض قد صار محرماً على المسلمين بعد ستة مائة للهجرة ، فإن عمر بن عبد العزيز أراد أن يفرق بين المسلمين وأهل الذمة متمسكاً منه بأصول الدين . فألقى الخراج عن أراضي المسلمين التي كانوا قد تملكوها مخالفين النهي عن ذلك ، وجعلها أرض عشر ، فصار ما يؤخذ عنها أقل مما كان يؤخذ خراجاً بكثير ، فأدى ذلك من جديد بطبيعة الحال إلى نقص كبير في دخل الدولة ، وكان أيضاً إجراء غير موفق من الناحية العملية ، لأن هذه الحجابة للملك ، إذا قورنوا بمن لم يكن قد ملك أرضاً من قبل ولا يستطيع أن يملك أرضاً من بعد ، بدت في صورة ميزة بغيضة . وإذا كان الذين لم يملكوا أرضاً قد عوضوا من طريق التنفيذ لنظام الإعطيات السنوية ، فإن ذلك لم يأت شافياً للداء ، لأن هذه الإعطيات لم تكن عالية بدرجة كافية ، وإن كانت بالنظر إلى الزيادة الكبيرة في عدد الداخلين في الإسلام قد كلفت الدولة مبالغ لا تتصور . وإلى جانب كل هذه الإجراءات التي أضرت ببيت المال أكبر الضرر جاء أمر آخر أصدره عمر ، وقد أوحى به إليه إحساس إنساني بالعدالة ، ولكنه لم يكن موفقاً من الناحية العملية ، وهو يقضى برد جميع الأموال التي ابتزت من الرعايا ظلماً إلى أصحابها ، ولا نعرف إن كان هذا قد وقع مقصوداً على أحوال فردية . ولكن أكثر العمال خيانة ما كان يستطيع أن يتمتع فرصة أكثر موافاة من هذه الفرصة لانتهاج الخزانة من غير أن يناله عقاب . هذا ما يقوله A. Müller في كتابه Geschichte des Islams im Morgen und = Abendlande = تاريخ الإسلام في =

وفي هذا الشأن يدخل الاعتبار لإجراء ان ينسبان إلى عمر الأول : فيرى أنه منع العرب من أن يقتنوا أرضاً في البلاد التي فتحوها ، وأنه أمر بأنه عند دخول المغلوبين من غير العرب في الإسلام لا ترفع عنهم إلا الجزية ، أما الخراج فيبقى عليهم لأنه يتعلق بالأرض لا بصاحبها ، والحقيقة أن عمر لم يفعل هذا ولا ذلك ،

وبحسب حكم الله وحكم العدل ، كان يجب تقسيم جميع الأرض المفتوحة على العرب المحاربين ، لأنها كانت ، بحسب قانون الغنائم ، ملكاً لهم . ولكنها ، لأسباب عملية ، بقيت دون تقسيم وصارت إما أرض بيت المال ، وإما أرض عامة المسلمين . وكان نصيب بيت المال أو نصيب الخليفة تلك الأراضي التي رحل عنها ملاكها السابقون ، أو الأرض التي كانت للملوك والأشراف وأخذت من غير قتال ، أو الأرض التي ليست ملكاً لأحد مثل مواضع البريد وبيوت النار . وهذه « الصوائف » كانت كثيرة ، خصوصاً في أهم ولاية كان ينظر إليها بالنسبة لبيت المال ، أعني أرض السواد^(١) بالعراق . أما ما أخذته جيوش العرب عنوة ،

= المشرق والمغرب ، الجزء الأول ج ١ ص ٤٣٩ ، فابعدا ، نقلاً فيه تصرف عن كتاب فون كريمر المسمى تاريخ حضارة المشرق ج ١ ص ١٧٤ فابعدا (A. von Kremer, Culturgegeschichte des Orients)

(١) « طول أرض السواد مائة وستون فرسخاً وعرضها ثمانون ، وطول أرض العراق مائة وخمسة وعشرون فرسخاً ، وعرضها مثل عرض أرض السواد ، فيكون طول أرض العراق أقل من طول أرض السواد ب ٣٥ فرسخاً ، يكون ذلك مكمراً عشرة آلاف فرسخ ، وطول الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسل ، ويكون للذراع المساحة ، وهي الذراع الهاشمية ، تسعة آلاف ذراع ، فيكون ذلك إذا ضرب في مثله ، وهو تكسیر فرسخ في فرسخ ، اثنين وعشرين ألف جريب وخمسة جريب . فإذا ضرب ذلك في عدد الفراسخ وهي عشرة آلاف فرسخ باع مائتي ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف جريب يسقط منها بالتخمين مواضع التلال والآكام والسيابح والأجام ومدام الطرق والحاج ومجاري الأنهار وعراض المدن والقرى ومواقع الأرحاء والبريدات والقناطر والشادروقات والبتادر ومطارج القصب وأتاني الأجر وغير ذلك ، الثلث ، وهو خمسة وسبعون ألف ألف جريب ، يصير الباقي من مساحة العراق مائة ألف ألف وخمسين ألف ألف جريب ، يراج منها النصف ويكون النصف مزروعا ، مع ما في الجميع من النخل والكرم والأشجار ، فإذا أضيف إلى ما ذكره قدامة في مساحة العراق ما زاد عليها من بقية السواد ، وهو خمسة وثلاثون فرسخاً ، كانت الزيادة على تلك المساحة قدر ربعها ، فيصير ذلك =

فكان يُعْتَبَر ملكاً لعامة المسلمين ، وقد تُرِكَ في يد المغلوبين ووضع عليه الخراج ؛ وكان الواجب أن يُتَسَمَّ الخراج في كل عام على الملاك الشرعيين للأرض ، باعتبار أنه غلّة لهم . ولكن الدولة وضعت يدها عليه وصارت تدفع للمقاتلة المسلمين أعطيات تحددها على هواها ، وبذلك انطمس الفرق بين أرض الخراج وأرض الصوّافي ، وكان ما يُحْتَمَل منهما جميعاً من غلّة يجري إلى بيت مال الدولة . وقد تمّ هذا التطور في فترة الفتوحات الكبرى ، وأشرف عليه عمر بن الخطاب وجعله وضعاً قانونياً في آخر الأمر . ولكن عمر بن الخطاب لم يذهب ، فيما يتعلق بأرض الخراج ، إلى حد منع الملكية الخاصة للأرض ، بالمعنى الحقيقي لهذه الملكية ، منعاً باتاً ؛ أما التمتع للملكية الأرض على العرب في الأمصار تحريماً شاملاً فلم يوجد قط (١) . وقد جرى خلفاء النبي من بعده ، دون استثناء أي بكر وعمر ، على ما كان قد جرى عليه النبي نفسه من تصرف حرّ في الصوفي أو ممتلكات الدولة ، فكانوا يهبون أجزاء منها لأهل النباهة والفضل ، لا على أنها بمثابة عارية تبقى ملكاً للدولة ، بل بمثابة هبات تصير ملكاً خاصاً ، وهذه هي القطائع . وكان من أثر ذلك أن نال كل من على وطلحة والزبير ثروة كبيرة (٢) . وفوق هذا صار مقاتلة العرب في الأمصار أصحاب أرض بطبيعة الحال ، ولم تقتصر ملكيتهم على الدار وما إليها ، بل كانت لهم ضياع أيضاً في القرى المحيطة بهم . وكان أول ما اتجه إليه

= مساحة جميع ما يصلح للزراعة والغرس من أرض السواد . هذا ما يقوله قدامة كما ذكره الماوردي في الأحكام السلطانية ص ٣٠١ من طبعة إنجر ، وقد بين هرمان فاجنر Hermann Wagner في Göttinger Nachrichten ، ١٩٠٢ ص ٢٢٤ ما بعدها أن تقدير المساحة خطأ ، وأنه أكثر مما هي عليه [ذكر المؤلف النص غير كامل ، والذي نقله ليس مساحة السواد بل مساحة العراق ، ولذلك ذكرنا النص أطول مما ذكره من أوله ومن آخره - راجع كتاب الأحكام السلطانية ص ٩٩ - ٣٠٢ . وفي كتاب المسالك والممالك لابن خردادبه ص ١٤ من طبعة ليدن أن طول السواد ٢٢٥ فرسخاً وعرضه ٨٠ فرسخاً ، ويظهر أن ثم خلطاً بين تقدير مساحة أرض العراق وأرض السواد - المترجم] .

(١) قارن في هذا Juynboll im Indischen Oids ، فبراير ١٨٩٩ .

(٢) كتاب الخراج ليعقوب بن آدم ص ٤٢ ، ٥٦ فما بعدها و ٦١ و ٦٧ .

تفكيرهم في أثناء خلافة عمر بن الخطاب هو القتال والغنيمة ، ولكن تفكيرهم
تغير في غضون ما جاء بعد ذلك من سنين أكثر هدوءاً . وكان الميل إلى
امتلاك الأرض قد ظهر عند العرب منذ العصر الجاهلي ، ولم يجئ الإسلام ،
ولا محمد عليه السلام ، مانعاً من ذلك ، بل جاء على العكس مقوياً له .
ولا شك في أن الميل إلى التملك كان أحد العوامل في حروب الفتوحات ،
والتقانون القديم الذي كان يقضى بأن تكون الأرض غير المملوكة ملكاً
خاصاً لمن يستصلحها كان موجوداً ، لا في جزيرة العرب وحدها ، بل في
المصراع أيضاً ، وقد استُغِلَّ هناك استغلالاً واسعاً . ولم تقتصر الرغبة في
تملك الأرض على أرض الفلاحين المغلوبين التي وُضِعَ عليها الخراج ، بل
كانت هذه الأرض تنتقل إلى أيدي السادة من العرب في صور شتى ، من
طريق الشراء أو ما هو شر منه . أما القول بأن العرب قد منعهم التشريع
منذ بادئ الأمر من امتلاك الأرض فلا يوجد عليه دليل قط ، ولم يكن
هناك ما يدعو عمر بن الخطاب إلى معارضة شيء لا يكاد يكون في عهده قد
بدأ ، ولم يكن على أي حال قد أدت بعد إلى نتائج ضارة .

وكذلك لم يكن عمر بن الخطاب هو الذي وضع قاعدة أن الخراج إنما يتعلق
بالأرض لا بصاحبها ، سواء أكانت ملكاً لمسلم أو لغير مسلم ، وأن الدخول في
الإسلام لا يعنى الدخول فيه إلا من الجزية ، لأن هذه الجزية تتبع الطبقة
الاجتماعية ، وهي علامة تميز المغلوبين في مقابل المسلمين ، وكان كل من الخراج
والجزية ، في أول الأمر ، يعتبر خراجاً على حد سواء ، لافرق بينهما في ذلك ،
وهو خراج يدفعه الخدم إلى أعضاء الحكومة التيقراطية ، أو أبناء الدولة (الإنجيل
متى ١٧-٢٥)^(١) ، وكان هؤلاء لا يدفعون ضريبة لا عن أشخاصهم ولا عن

(١) [تعبير المؤلف عن حقيقة الجزية أو الخراج غير دقيق فيما يتعلق بالإسلام ، فالجزية
فدية أو ضريبة يدفعها غير المسلم في مقابل تمتعه بحقوق المواطن في الدولة الإسلامية وفي مقابل
حمايتها له ، وهي لذلك لم تكن تؤخذ إلا من القادر على الحرب من شأنه أن يقوم بواجب -

أرض مزارعهم ، بل إنما كانوا يدفعون عشر ما تُغِلُّهُ الأرض ، ولم يكونوا يعطونه للناس بل يعطونه لله ، وكانت الفكرة القائلة بأنه إنما يشين المسلم أن يدفع جزية عن نفسه ، فأما إن ألزم بدفع الخراج عن الأرض التي يملكها فلا يشينه ذلك ، فكرة بعيدة عن الأذهان : وفي الاستعمال اللغوي القديم لا توجد تفرقة ما بين الخراج والجزية ؛ فهما يدلان على شيء واحد ، هو الإتاوة التي يدفعها غير المسلم . وفي كثير من الأحيان نجد ذكر عبارة « جزية الأرض » ، وليس ورود عبارة « خراج الشخص » أقل من ذلك (١) . أما بحسب أي تسمية كان يجب على الأفراد الذين يلزمهم الخراج أن يؤدوا ما عليهم فكان وقَّعَهُ على العرب قليلاً ، وبخاصة عندما يفرض الخراج مبلغاً إجمالياً ذا مقدار ثابت على الجماعة متضامنة فيما بينها . ويظهر أن هذا كان في أول الأمر هو القاعدة العامة ، ولم يكن شيئاً شاذاً نادراً .

وإذن فقد كان المبدأ المعمول به في أول الأمر هو أن الإسلام يعني المسلم من كل إلزام بدفع جزية أو خراج ، وأن أرض الخراج تصبح معفاة من خراجها إذا ملكها عربي مسلم (٢) ، أو إذا دخل مالِكها الذي ليس بعربي في الإسلام . ولكن كان من جراء ذلك أن وُضعت إتاوة على الأرض المزروعة التي يتخذها

— الدفاع الوطني ، ولذلك أيضاً كان يعنى من دفعها القسس والنساء والأطفال والشيوخ الضعفاء ؛ أما الخراج فهو ضريبة قصى بفرضها كيان الدولة . فليس دافع الجزية خادماً ولا عبداً كما يفهم من كلام المؤلف ، أما النص الذي يشير إليه المؤلف في إنجيل متى فهو يتضمن التفرقة بين الأجنبي غير الحر في دولة وبين المواطن العادي فيها ، وهذا غير موجود في الإسلام — المترجم [١] : قارن ما يقوله دى غوى في حواشيه على الطبرى وكذلك البلاذرى ص ٦٥ س ٥ - ٧ بص ٦٦ س ١٥ و ص ٣٥١ س ١ بص ٣٥١ س ٥ و س ١٣ . وفي خراسان كان يقال دائماً جزية ولا يقال خراج (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤ و ١٣٦٤ فما بعدها و ١٥٠٧ فما بعدها) ، وفي كتاب الخراج نجد استعمال كلتي الجزية والخراج دون تمييز بينهما ، ونجد في كتاب الخراج أن عبارة جزية الأرض تستعمل استعمالاً جارياً تماماً (٢) وكذلك كانت الأرض الزراعية عندنا تعنى من الضرائب إذا ملكها أحد الأشراف ، لأنه يحكم أنه شريف كان معنى من الضرائب .

السادة من العرب ، ثم على دافع الجزية إذا دخل في الإسلام ، وفي كلتا الحالتين انمحي الفرق بين الطبقات وبين نوع ممتلكاتها ، هذا الفرق الذي كان ينبغي عليه النظام المالي على عهد عمر بن الخطاب ، ونشأت عن ذلك صعوبات وأوضاع غير سليمة ، فإذا خُفِّضت الجزية بمقدار ما ينقص منها بسبب الدخول في الإسلام أضرَّ ذلك بيت المال ، وإذا أخذت مبلغاً إجمالياً بالمقدار الذي كانت عليه أولاً زاد العبء على الجماعة ، بعد أن تكون قد صارت بسبب دخول من دخل منها في الإسلام أقل مقدرة على دفع الجزية ، وهذا أيضاً لم يكن في مصلحة بيت المال ، إذا هجر المسلمون الجدد — كما كان يحدث في العادة ، وربما في أكثر الأحيان — قراهم ومزارعهم ، فتركوها دون من يُعنى بها وهاجروا إلى المدن التي كان يقطنها العرب . وكان هذا سبباً في حرمان أرض القرى من قوة اليد العاملة ، حتى تعرض بعضها للخراب . ولكن الهجرة إلى المدن لم تكن شيئاً مرغوباً فيه . وحتى بدون هذه الهجرة كان في الكوفة والبصرة — ولدينا عن العراق فيما يتعلق بهذا كله أحسن المعلومات ، وتكاد تكون هي المعلومات الوحيدة التي بين أيدينا — عدد كبير من المسلمين الجدد أو الموالي ، وكانوا أول أمرهم أسرى حرب قد أطلقوا ، وكان معظمهم من أصل فارسي ، وكانوا يكوّنون طبقة وسطى بين السادة من العرب وبين الرعايا من غير العرب ، ولم يكونوا يدفعون لآخر اجاب ولا جزية ، ولكنهم لم يكونوا مقيدين في ديوان المقاتلة ، وعلى ذلك لم يكونوا يتقاضون أعطيات ، مع أنهم كانوا يرافقون ساداتهم السابقين في الحرب ويحاربون معهم ، وكانوا ملزمين أدبياً بأن يقوموا لساداتهم بكل أنواع الخدمات ، فكان موقفهم هذا ، لا هم أعلى ولا هم أسفل ، لا يرضيهم بطبيعة الحال . وكان من شأن الإسلام أن يدفعهم إلى الطموح ، فكانوا يسعون إلى المساواة الكاملة بالعرب المسلمين . وقد أظهرت ثورتهم بقيادة المختار مدى الخطر الذي كان يهدد الدولة العربية من جانبيهم . وقد قضى على هذه الثورة بإراقة دماء القائمين بها ، ولكن مثل هذه الفجوة

التي أوجدتها السيف في صفوفهم كان سهلاً بفضل المسلمين الجدد الذين جاءوا من القرى والرساتيق ، هؤلاء المسلمين الذين ربما كانت روحهم أكثر حباً للإسلام من غيرهم ، ولكن كانت لهم نفس المصالح التي كانت لطبقة الموالي ، وكان هذا بمثابة فجوة في النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ؛ ذلك أن مدن الجيش والحكومة لم تلبث أن فقدت طابعها العربي المميز لها .

ترك هذا النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ، وكان نظاماً بدائياً بعض الشيء وقاصراً على الخطوط الرئيسية ، المجال لتطور كان يهدد بالقضاء عليه ، ولكنه تطور لم يحسب عمر حسابه من قبل . وفي عهد عمر نفسه بدأت تتجلى بعض نواحي القصور هذه ؛ ففي عهده كانت رغبة العرب في التملك متجهة في العادة إلى شيء غير اقتناء الأراضي والضياح . ولم يكن الذين يلزمهم دفع الجزية من غير العرب قد بدأوا يدخلون في الإسلام على نطاق أضرب بيت المال ، وكان بيت المال ، إلى جانب ذلك ، يفيض بما كان يحمل إليه من غنائم لا تنقطع ، ولم يكن عليه أن يواجه نفقات المطالب الكبيرة التي جددت فيما بعد . أما في الجيل الثاني ، خصوصاً في عهد الأمويين ، فقد تغيرت الأحوال : ويروى أن الحجاج كان أول من قرر تغيير النظام الموروث لكي يقاوم النقص الذي لحق ببيت المال ، فلم يُعفى العرب الذين تملكوا أرضاً من أرض الخراج من أن يدفعوا ما عليها منه ، وفرض الخراج من جديد على قوم كان حتى ذلك الحين موضوعاً عنهم . ولا بد أنه عامل المسلمين الجدد الذي بقوا في قراهم واحتفظوا بأراضيهم من حيث ما يجب عليهم من خراج بمثل ما عامل به العرب ، ولكنه حرم عليهم الهجرة إلى حواضر الإسلام والسيادة العربية ، وكان في بعض الأحيان يعيدهم إلى قراهم بالقوة . وكانت إجراءاته الجديدة لا تتفق وما كان يعتبر حتى ذلك الحين عند الجميع على أنه الحق ، وقد أثارت صيحات إجماعية من كل من أصابه صنيع الحجاج من العرب ومن الموالي ، زاعمين أن ذلك ضربة في وجه الإسلام ؛ ولكن الحجاج لم يرجع عما صنع .

وكان عمر بن عبد العزيز يحكم ورعه مضطراً أن يسلك طريقاً آخر ، وهو لم يكن من حيث مقصده يختلف عن الحجاج اختلافاً كبيراً ، ولكنه حاول أن يصل إليه من طريق لا يتعارض مع الشعور الإسلامى بالحق والعدل ، فحافظ من هذا الوجه على المبدأ القديم الذى يقضى بأن المسلم ليس عليه أن يدفع جزية ولا خراجاً ، سواء أكان عربياً أم كان مولى ، وسواء أكان من الطبقة العليا أو الطبقة الدنيا . ولكى يتفادى النقص فيما يدخل إلى بيت المال فإنه ، بعد مشاورة علماء المدينة من غير شك ، استنبط من السنة السابقة أن أرض الخراج يجب أن تكون ملكاً للمسلمين جميعاً أولاً ، ثم هى بعد ذلك لأهل القرى الذين تركها لهم المسلمون مقابل خراجها ، بحيث لا يصح أن تقطع أجزاء منها وتعتبر بسبب انتقالها إلى أيدي المسلمين ملكاً خاصاً معنى من الخراج ؛ وتبعاً لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز أن بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتباراً من سنة مائة للهجرة . ولكنه لم يجعل لهذا المنع أثراً رجعياً ، أما إذا دخل المالك الملزم بدفع الجزية فى الإسلام فالظاهر أن عمر قرر رجوع ممتلكاته إلى أهل القرية التى هو منها ، وكان المالك يستطيع بعد ذلك أن يبقى فيها مُتَقَبِّلاً لها - وليست المُقْبَلَة خراجاً - ولكنه كان يستطيع أن يرحل إلى العواصم ، ولا شك أنه كان فى العادة يرحل ، (وهذا ما لم يرد الحجاج أن يسمح به) : أما هل كان يصبح بسبب هجرته إلى العواصم ، صاحب حق فى العطاء ؟ فهذه مسألة ليس من السهل أن يُجاب عنها إجابة سريعة .

وعلى حين أن الاعتراف بحصانة المسلمين من دفع ضريبة الرعايا لم يجعل هناك محلاً إلا للنظام المأثور الذى لم يكن قد اقتُلِعَتْ أصوله بل عاد من جديد ، كان تحريم انتقال ملكية أرض الخراج لإجراء تشريعياً جديداً له أعمق الأثر ولكنه كان يستند على كل حال إلى الفكرة الأصلية فيما يتعلق بأرض الخراج ، وكان نتيجة للمبدأ الذى تُحمِلُ به فى أيام الفتح ، وهو أن الأرض لم تعتبر غنيمة .

بل بقيت دون تقسيم ؛ ولكن هذه النتيجة العملية لم تكن في أيام الفتح نفسها قد استتبعت بعد .

ولم يستطع عمر بن عبد العزيز أن ينفذ سياسته . ونظراً للطريقة التي حاول بها ما أراد فإن الإضرار ببيت المال صار شيئاً لا يمكن تفاديه . ولم يمكن العمل بمبدأ عدم انتقال ملكية أرض الخراج ، ولم يمكن إيقاف انتقال الممتلكات ، كما لم يمكن إيقاف تغيير الدين . ثم عاد الحال ، فيما بعد ، إلى العمل بما كان قد جرى عليه الحجاج ، لكن مع تعديل كانت له من الناحية الموضوعية أهمية قليلة ، وإن كان له من الناحية الشكلية شأن كبير ؛ ذلك أنه ظهرت تفرقة بين الخراج والجزية لم تكن موجودة من قبل ، فاعتبرت الجزية متعلقة بالشخص ، فلا تقع إلا على غير المسلمين ، وكانت تسقط عن رؤوسهم إذا دخلوا في الإسلام ؛ أما الخراج فصار يعتبر متعلقاً بالأرض المزروعة ، كما اعتُبر أنه لا يشين الشخص ، ويجوز ، بل يجب ، أن يدفعه المسلمون أيضاً .^(١) وإذا كانوا يملكون أرض خراج . ولما كانت الأرض المزروعة هي أهم ما يُدفع عنه الخراج فإن إسقاط الجزية عن الداخلين في الإسلام لم يكن في الحقيقة من جانب بيت المال تضحية كبيرة^(٢) . وهكذا أمكن أن يتقرب بيت المال بحاجة الدولة الإسلامية من غير مشقة ، وكان الأمر أمر تدقيق فقهي ، أمر تخريج هدت إليه الضرورة القاهرة : لأننا لو نظرنا بمنظار العقل السليم لوجدنا أن الذي يؤدي الخراج في الحقيقة ليس هو الأرض بل مالك الأرض .

ونسمع عن إصلاح للخراج قام به آخر أمير للأمويين على خراسان ، وهو نصر بن سيار ، فوضع نصر نظاماً يقضى بجعل الخراج مقداراً ثابتاً لا يتغير يُفرض على مختلف مناطق أرض الخراج ، بحيث لا يعدو خراج الأرض . ومن أجل هذا كان

(١) لم يطالب المسلمون الجدد ، أعني الموالى في الكوفة والبصرة ، بدفع الجزية قط ؛ وهم إنما كانوا يشعرون بأنهم دون غيرهم ، لأنهم لم يكونوا يقيمون في ديوان المقاتلة ولم تكن لهم أعطيات ، وكانت مطامعهم في هذا الباب متجهة إلى مساواتهم بالمسلمين من العرب في الحقوق .

تلا بد أن يساهم ملاك الأراضي جميعهم بنسبة ما يملكون ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، وعرباً كانوا أو فرساً . ولكن فصلت الجزية عن الخراج وأصبحت مقصورة على المجوس واليهود والنصارى ، ولا يدفعها العرب المسلمون ولا الداخلون في الإسلام . أما نقص ما يدخل إلى بيت المال بسبب ازدياد عدد من يدخلون في الإسلام وتسقط عنهم الجزية فقد حسب حسابه مقدماً ؛ ولم يرَ هناك بأس من أن تكون ضريبة الخراج وحدها هي الدخل الضروري الثابت لبيت المال (١) . وكان هذا النظام جديداً وغير معروف من قبل ، وهو قد انتشر بعد قليل من الزمان أو كثير إلى سائر أنحاء الدولة الإسلامية ، لأنه كان يوفق توفيقاً بارعاً بين المصلحة المالية وبين مبدأ إعفاء مواطني الدولة التيقراطية من دفع الإتاوة ؛ ولا شك أن الفقهاء قد قاموا في ذلك بمهمة التوليد والتخريج من النصوص ، وكان ذلك في الحقيقة نتيجة لعمل استنباطي معقد من جانبهم غاية التوفيق بين مطالب متضاربة . غير أنهم فيما بعد نظروا إليه على أنه الحق الذي لا شك فيه واعتبروه موجوداً من أول الأمر ؛ ولكن لو أنه كان في الحقيقة موجوداً من أول الأمر لما قامت صعوبات قط .

٢ - ومن عادة فقهاء الإسلام دائماً أنهم ، إذا تقررت قاعدة ما شيئاً فشيئاً تحت تأثير الحاجات أو النزعات المتجددة حيناً بعد حين ، أرجعوها إلى البدايات الأولى وجعلوها أصبغة مقدسة بردّهم إياها إلى سنة النبي وستة الخلفاء الأولين (٢) .

(١) يجد القارئ هذا الكلام أكثر تفصيلاً في الجزء الخاص بخراسان من الفصل الثامن ، ويستطيع أن يرجع إليه .

(٢) [لا شك أن فيما يقوله المؤلف هنا وفيما سبق كثيراً من المبالغة ، لأن القواعد التي كانت جديدة في صورتها أو تفاصيلها لم تكن كذلك في أصولها ومصادرها الشرعية . وطبيعي أن يكون هناك فرق بين الصورة القانونية الفقهية للأحكام وبين صورتها في النصوص الأولى أو في السنة الأولى المأثورة عن النبي أو بين الصور القانونية الفرعية وبين القواعد العامة التي تتضمنها النصوص من القرآن والسنة ؛ وهذا معروف في كل العلوم الإسلامية بما لا يجعل صنيع الفقهاء عملاً متكلفاً أو ادعاء من غير استناد إلى نص قرآني أو سنة نبوية أو إلى ما يؤخذ منهما من طريق القياس - المترجم] .

ولذلك فإنهم يردُّون الصورة التي لم يصل إليها نظامُ الإدارة والخراج إلا بعد
تردد طويل إلى عمر بن الخطاب ، مع أن عمر لم يخطُ في ذلك إلا الخطوات
الأولى الأساسية : فإذا أراد الإنسان أن يحكم على ما فعله الحجاج وعمر بن
عبد العزيز حكماً صحيحاً فإن من الواجب عليه أن يأخذ حذره من غلو الفقهاء
في إيمانهم بأن كل شيء كان موجوداً في التاريخ السابق . والأجدر به أن
يتمسك أول ما يتمسك بما يذكره المؤرخون على الحقيقة وبما يذكره
أقدمهم بطبيعة الحال ، لأنهم كانوا أكثر احتراماً للوقائع ، ولأنهم اعتمدوا
في بعض ما قالوا على وثائق ولم يذكروا القواعد العامة التي وضعها الحكام
بقدر ما ذكروا القرارات المتفرقة ، وهـذه لا يصح أن يتسرع الإنسان
في اعتبارها قواعد هامة من غير تفكير فيها ، وهو يستطيع بعد ذلك أن يزن
ما يجده عند الفقهاء من مادة تاريخية تصلح للإثبات بهذا الميزان ، ففي هذه
المادة كثير مما لا يدخل في بضاعة الفقهاء ولا يتمشى مع منازعهم : وإن أرائي
عن هذه المسألة الصعبة المختلف فيها إنما اتضحت لي شيئاً فشيئاً ودون تكلف ؛
والمادة التي كانت أساساً لأرائي لم أجمعها في أيام معرفتي بها ، وها أنا ذا أجمع
منها ما تصل إليه يدي ، وفي ذلك مجال لإضافة هذا أو ذاك مما لم أذكره في
هذا الموجز الذي قدمته :

فنعرف من البلاذري (ص ٣٦٨) أن الحجاج رد إلى الخراج أرضين
كانت عشيرة معفأة من الخراج بسبب إسلام أهلها أو بسبب انتقالها إلى أيدي
قوم من العرب . وفي النص الذي ذكرناه في ص ٢٣٥ - ٢٣٦ مما تقدم ،
نقلاً عن ابن عبد ربه ، أن الحجاج أخرج الموالى من حواضر الأمصار
وأعادهم إلى قراهم وبلدانهم وقال للموالى : « أنتم علوج وعجم ! وقرأكم
أولى بكم » ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش
على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها ، وكان الذي تولى ذلك رجلاً
من بني سعد بن عجل بن الحميم يقال له خراش بن جابر ، قال الشاعر :

وَأَنْتَ مِنْ نَقَشِ الْعَجَلِ رَاحَتَهُ وَفَرَّ شَيْخُكَ حَتَّى عَاذَ بِالْحَكَمِ (١)

قال شاعر آخر :

جارية لم تدر ما سَوَّقُ الْإِبِلَ (٢) أَخْرَجَهَا الْحِجَاجُ مِنْ كَنْ وَظَل

لو كان عمرو شاهداً وابن جبل ما نقشت كفالك من غير جبل

ولما عَيَّنَ نوح بن درّاج ، أحد الموالى ، قاضياً على البصرة فيما بعد ،
قال فيه أحد الشعراء :

إن القيامة ، فيما أحسب ، اقتربت إذ كان قاضيكم نوح بن درّاج

لو كان حياً له الحجاج ما بقيت صحيحة كفك من نقش حجاج (٣)

وتشهد بهذا أيضاً الروايات الموجودة في كتاب الطبرى (ج ٢ ص ١١٢٢ و ١٤٣٥ وفي كتاب أنساب الأشراف ص ٣٣٦) : فيُذكر أنه لما كتب
عمالُ الخراج إلى الحجاج أن الخراج قد انكسر وأن أهل الدمة قد أسلموا
ولحقوا بالأمصار ، كتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية
فليخرج إليها . فخرج الناس فعمسكروا وجعلوا يبكون ويقولون : وا محمداه !
وجعلوا لا يدرون أين يذهبون . فجعل قراء البصرة يخرجون إليهم متقنعين
فيكون معهم : وقدم ابن الأشعث على بغّة ، فاستنصر القراء أهل البصرة
في قتال الحجاج مع ابن الأشعث (٤) .

ونجد عند البلاذرى (ص ٣٦٨) أن عمر بن عبد العزيز أبطل ما فرضه

(١) كان الحكم بن أيوب الثقفي خليفة الحجاج في البصرة .

(٢) يعنى أنها لم ترتحل قط .

(٣) وكذلك كان حسن البصرى الذى تولى القضاء أيام عمر بن عبد العزيز أحد الموالى .

(٤) [بين النص كما ذكره صاحب كتاب أنساب الأشراف وبينه كما حكاه البلاذرى فرق

في بعض الكلمات . ولا شك أن فيه خطأ أو نقصاً ، وقد اخترنا هذه القراءة ، وليرجع القارئ
إلى الأصول العربية - المترجم] .

الحجاج على المسلمين من دفع الخراج . ولم يكن ذلك في ميسان وحدها بل في سائر ما عداها . وفي كتاب لعمر بن عبد العزيز كتبه إلى أمير الكوفة وذكره الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٦ فما بعدها) قرر عمر القاعدة الأساسية ، وهي ألاّ خراج على من أسلم من أهل الأرض . ويقول تيوفانيس (في أخبار حوادث سنة ٦٢١٠ من تاريخ الخليفة) أن عمر أعفى النصارى الذين اعتنقوا الإسلام من الخراج .

أما ما اتخذ عمر بن عبد العزيز من إجراء حرم به بيع أرض الخراج للمسلمين بعد سنة مائة للهجرة ، فيشهد به نص في كتاب ابن عساكر عن تاريخ دمشق ، ذكره باللغة العربية الفريد فون كريمر Alfred von Kremer في كتابه لمحات من تاريخ الحضارة في بلاد الإسلام = Kulturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiete des Islams ص ٦٠ والصفحات التالية وترجم بعضه في كتابه عن تاريخ حضارة المشرق في عهد الخلفاء بعنوان Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen, I, p. 76ss. وهذا النص متعلق بالشام ، وهو أيضاً مهم ، لأنه يبين أن الأصول التي تمحّل بها في الشام شبيهة بالأصول التي عمل بها في العراق . ومعلوماتنا عن العراق خير من معلوماتنا عن غيرها .

يروى ابن عساكر « أن عمر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمع رأيهم على ما كان بأيديهم^(١) من أراضيهم يعمرونها ويؤدون عنها خراجها إلى المسلمين ؛ فمن أسلم منهم رُفيع عن رأسه الخراج^(٢) ، وصار ما كان في يده

(١) [لا يدل النص على ما يعود إليه التضمير في : « بأيديهم » ، والظاهر أن المقصود ، كما بلى ، المغلوبون الذين استسلموا ولم يسلموا -- المترجم] .
(٢) يلاحظ أن كلمة الخراج هنا تستعمل في الدلالة على ما تدل عليه كلمة الجزية .

من الأرض وداره بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها ، ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه ، وفرضوا له في ديوان المسلمين^(١) ، وصار من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ؛ ولا يرون أنه وإن أسلم أولى بما كان في يديه من أرضه من أصحابه من أهل قريته^(٢) ، لانقلابها صافية للمسلمين : وسما من ثبت منهم على دينه ذمة للمسلمين ، ويرون أنه لا يصبح^(٣) لأحد من المسلمين شراء ما في أيديهم من الأرضين كرهاً ، لما احتججوا به على المسلمين من إمساكهم كان عن قتالهم وتركهم مظاهرة عدوهم من الروم عليهم . فهاب لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر غشمهم^(٤) ، وأخذ ما كان في أيديهم من تلك الأرضين ، وكرهوا للمسلمين أيضاً شراءها طوعاً لما كان من ظهور المسلمين على البلاد وعلى من كان يقاتلهم عنها ، ولتركهم كان البعثة إلى المسلمين وولاة الأمر في طلب الأمان قبل ظهورهم عليهم ، قالوا : وكرهوا شراءها منهم طوعاً لما كان من إبقاء عمر وأصحابه الأرضين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين ، لا تسبّح ولا تورث ، قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ولمّا ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد قوله عز وجل : ﴿ وَقاتِلُوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ ويكون الدين كله لله ﷻ إلى تمام الآية . فقلتُ لغير واحد من مشايخنا ممن كان يقول هذه المقالة : فن أين جاءت هذه القطائع التي بين ظهراني التمرى الراحنة^(٥) والمزارع التي بيد غير واحد من الناس ؟ فقال :

-
- (١) كان طبيعياً أن يهاجر من يدخل في الإسلام إلى المدن التي أسست للجيش العربية ولم يبق على الديانة القديمة إلا الوثنيون .
(٢) في الأصل قرابته وهو خطأ .
(٣) [في الأصل : يصلح ، والأغلب أنه خطأ - ويشير فهاوزن إلى خطأ وقع فيه فون كزيمر في ترجمته للأصل العربي مما لا محل للذكره هنا - المترجم] .
(٤) في الأصل : قسمهم ، وهو خطأ .
(٥) في الأصل : الراحنة ، وهو خطأ .

إن بدءَ هذه القطائع أن ناساً من بطارقة الروم ، إذ كانت ظاهرة على الشام ، كانت هذه القرى التى منها هذه القطائع ، كانت من الأرضين التى كانت بأيدي أنباط القرى . فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان فى أيديها من تلك المزارع ، فلاحقت بأرض الروم ، ومن قتل منها فى تلك المعارك التى كانت بين المسلمين والروم ، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يُقبَلُها والى المسلمين كما يقبَلُ الرجلُ مزرعته .. قالوا : فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبباتها بيت المال فتخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية فى امرته على الشام الى عثمان أن الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها ، ووصف فى كتابه هذه المزارع الصافية وسمّاها له ، يسأله أن يُنْقِطِعَها إياها ليقوى بها على ما وصّف له ، وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً . قالوا : فلم تزل بيد معاوية حتى قُتِلَ عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر ، فأقرّها على حالها ، ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء أهل بيته والمسلمين . قالوا : ثم إن أناساً من قرىش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التى لم يكن عثمان أقطعهم إياها ، ففعل ، فضمت لهم أموالاً يبيعون ويمهرون ويورثون . فلما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية أقطع منها أحداً شيئاً ، سأله أشراف الناس القطائع منها ، ففعل ، قالوا إن عبد الملك سئِلَ القطائع ، وقد مضت تلك المزارع لأهلها فلم يبق منها شيء ، فنظر عبد الملك إلى أرض من أرض الخراج قد باد أهلها ولم يتركوا عتياً [فـ] أقطعهم منها ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج ولم يحمله أحداً من أهل القرى وجعلها عشراً ورآه جائزاً له ، مثل إخراجها من بيت المال الجوائز للخاصة . قالوا : فلم يزل يفعل ذلك حتى لم يجد من تلك الأرض شيئاً ، فسأل الناس عبد الملك والوليد

وسليمان قطائع من أرض القرى التي بيد أهل الذمة ، فأبوا ذلك عليهم ، ثم سألوهم أن يأذنوا لهم في شراء الأرضين من أهل الذمة ، فاذنوا لهم على إدخال أثمانها بيت المال وتقوية أهل الخراج به على خراج سنتهم مع ما ضعموا عن أدائه ، وأوقفوا ذلك في الدواوين ووضعوا خراج تلك الأرضين عن باعها منهم وعن أهل قراهم وصيروها لمن اشتراها ، يؤدي العشر ، يبيعون ويمهرون ويورثون . قالوا : فلما ولي عمر بن عبد العزيز أعرض عن تلك القطائع التي أقطعها عثمان معاوية رضى الله عنهما ومعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان ، فلم يردّها عمر على ما كانت عليه صافية ولم يجعلها خراجاً ، وأمضاها لأهلها تؤدى العشر . قال : وأعرض عمر عن تلك الأشربة بالإذن لأهلها فيها لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من الموارث ومهور النساء وقضاء الديون ، فلم يقدر على تخليصه ولا معرفة ذلك . قال : وأعرض عن الأشربة التي اشتراها المسلمون بغير إذن ولادة الأمر ، لما وقع في ذلك من الموارث واختلاط الأمر ، وجعل الأشربة وغير الأشربة سواء وأمضاها لأهلها ولمن كان في يده ، كالقطائع للأرض ، عشر ليس عليها ولا على من صارت إليه بمرث أو شراء جزية . قالوا : وكتب بذلك كتاباً قرئ على الناس في سنة مائة ، وأعلمهم أنها لا جزية (١) عليها وأنها أرض عشر ، وكتب أن من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فإن بيعه مردود ، وسمي سنة مائة المدّة ، فسماها المسلمون بعده المدّة . فأمضى ذلك في بقية ولايته ، ثم أمضاها يزيد وهشام ابنا عبد الملك . قالوا : ففتاهى الناس عن شرائها بعد سنة مائة بسننيت ، ثم اشتروا أشربة كثيرة كانت بأيدي أهلها يؤدون العشر عليها ولا جزية عليها . فلما أفضى الأمر إلى أبي جعفر عبد الله بن محمد أمير المؤمنين رفيعت إليه تلك الأشربة ، وأنها تؤدى العشر ولا جزية عليها ، وأن ذلك أضرّ بالخراج وكسره ، فأراد ردّها إلى أهلها ، [فـ] حقل له : وقعت في الموارث والمهور واختلط أمرها [فـ] بيعت المعدّلين إلى كور الشام سنة أربعين

(١) يلاحظ استعمال كلمة الجزية هنا في معنى كلمة الخراج .

أو واحد وأربعين [ومائة] ، منهم عبد الله بن يزيد إلى حمص ، وإسماعيل ابن عياش إلى بعلبك ، في أشباههم ، فعدّوا تلك الأشرية على من هي بيده ، شراءً أو ميراثاً أو مهراً ، وعدّوا ما بقي بأيدي الأنباط من بقية الأرض على تعديل مسمى ، ولم تعدل الغوطة في تلك السنة ، وكان من بيده شيء من تلك الأشرية من تلك الغوطة يؤدى العشر ، بحث أمير المؤمنين عبد الله بن محمد هضاب بن طوق ومحرز بن زريق ؛ فعدّوا [الأشرية ، وأمرهم أن لا يضعوا على شيء من القطائع القديمة ولا الأشرية خراجاً وأن يمضوها لأهلها عشرية ويضعوا الخراج على ما بقي منها بأيدي الأنباط وعلى الأشرية المحدثه من بعد سنة مائة إلى السنة التي عدل فيها . قال : وثنا ابن عايذنا الوليد بن مسلم حدثني سليمان بن عتبة أن أمير المؤمنين عبد الله بن محمد سأله في مقدمه الشام سنة ثلاث أو أربع وخمسين ومائة عن سبب الأرضين التي بأيدي أبناء الصحابة ويذكرون أنها قطائع لأبائهم قديمة ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ! إن الله تبارك وتعالى لما أظهر المسلمين على بلاد الشام وصالحوا أهل دمشق وأهل حمص ، كرهوا أن يدخلوها دون أن يتم ظهورهم وإثخانهم في عدو الله ، [و] عسكروا في مرج بردى ما بين المزة وبين مرج شعبان جنوبي بردى ، وكانت مروجاً مباحة فيما بين أهل دمشق وقرائها ، ليست لأحد منهم ، فأقاموا بها حتى أوطأ الله المشركين ذلاً وقهراً ؛ فأحيا كل قوم محلتهم وهياؤها بناء ، فرفيع ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم ، فبنوا الدور ونصبوا الشجر ، ثم أمضاه عثمان وممن بعده إلى ولاية أمير المؤمنين . فقال : قد أمضيناه لأهلها . »

وابن عساكر أحد مؤلفي القرن السادس للهجرة ، وهو قد كتب في ظل الرأي الذي كان ، في أيامه ، قد مضى عليه زمان طويل على أنه الرأي السائد ، وهو أن عمر بن الخطاب والصحابة — وكانوا بعد وفاة النبي المنظمين الذين يعتد برأيهم في الحكم في الأحوال التي تجددت بسبب الفتح — هم الذين

وضعوا في كل المسائل الميزان الحق لما يحدث بعدهم ، وأن هبة أرض الصوافي وبيع أرض الخراج عمل " فاسد يخالف الحق ، وأنه لم يحدث إلا منذ عصر الفساد الذي جاء مع خلافة عثمان وبنى أمية : ولكن ليس هناك ما يبرر للإنسان أن يشك في أن ابن عساكر استقى ما ذكره من مراجع قديمة ، ما دام ما يذكره غير متأثر بالرأى السائد الذي تكلمنا عنه . والأشياء التي يذكرها هي أشياء إيجابية لا يمكن أن تكون مخترعة . ونستطيع أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز بدأ بمقاومة ما قد وقع في عهد من تقدمه من الخلفاء من تمزيق صوافي الدولة وانتقاص الممتلكات الشائعة للمسلمين ، وذلك بأن منع بيع أرض الخراج . أما أن يكون عمر قد حافظ على جملة أرض الصوافي ولم يهب شيئاً منها لأحد فإن ابن عساكر لا يذكر ذلك ، ولكن يمكننا أن نفترضه مطمئنين (٢)

ولإذا كان عمر بن عبد العزيز قد عارض في تجريد الدولة من أرض الخراج من طريق بيع أهلها لها ، فإنه لا يمكن أن يكون قد رضى بأن تفقد الدولة من طريق دخول أهلها في الإسلام . ويظهر أنه اتخذ لإجراءات من شأنها أن تجعل

(١) وما يذكره ابن عساكر عن زوال وانتهاء أرض الصوافي تكلمه رواية تستلفت النظر. نجدها عند البلاذري ص ٢٧٢ فإبعدها عنه يحيى بن آدم ص ٤٥ . ويقول يحيى بن آدم: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصفى السواد عشرة أصناف « أصفى أرض من قتل في الحرب ومن هرب من المسلمين ، وكل أرض لكسرى وكل أرض كانت لأحد من أهله وكل مغيض وكل دير يريد ... وكان خراج ذلك سبعة آلاف ألف (درهم) . فلما كانت موقعة (دير) الجاهم أحرق الناس الديوان ، فأخذ كل قوم ما يليهم » . [ويذكر البلاذري أن عمر أصفى عشر أرضين من السواد ... الآجام ومغايض الماء وأرض كسرى وكل دير يريد وأرض من قتل في المعركة وأرض من هرب ...] ولم يزل ذلك ثابتاً حتى أحرق الديوان أيام الحجاج بن يوسف فأخذ كل قوم ما يليهم - ولا تذكر الأصناف العشرة لا عند يحيى بن آدم ولا عند البلاذري ، وذلك بسبب سهو الرواة - المترجم [. ولم يكن الخطر يهدد أرض الصوافي بسبب أن الخلفاء كانوا يهبون أن يشاؤن أجزاء منها ، بل كان في الناس جميعاً غضب على الممتلكات الواسعة للدولة والخلفاء وكبار الناس ، وكانوا يحاولون أن يقضوا على الأساس التاريخي الذي يقوم عليه هذا الحق الذي لم يرضوا عنه في تملك الأرض ، أو هم كانوا يحاولون أن يطمسوه .

تطبيق المبدأ الذى يقضى بإسقاط الجزية عمن يدخل فى الإسلام غير ضار ببیت المال ، وأن تجعل لهذا المبدأ شأنًا معنويًا أكثر منه ماديًا^(١) : فعند يحيى بن آدم (ص ٤٤) أن عمر بن عبد العزيز رفض تحويل الخراج على قوم دخلوا فى الإسلام إلى عَشْرٍ ، وأنه فوق ذلك أعلن أن من بقى منهم على جدوله^(٢) يدفع ما كان يدفعه من قبل ، وأن من يهاجر إلى المدن تُردُّ أرضه إلى أهل القرية . على أن إلزام من بقى على جدوله من الداخلين فى الإسلام بالاستمرار فى أداء الخراج لا يتفق مع ما هو معروف لنا من جهات أخرى ؛ ولكن التناقض يحتفى إذا عرفنا أن هذا الادعاء لم يكن يعتبر خراجًا ، بل كان يعتبر بمثابة قَسْبِ أَلَةٍ^(٣) ولا شك فى صدق ما يقوله الخليفة فى الموضع الذى أشرنا إليه من قبل ، من أنه يرى أن أرض الخراج وما يخرج منها للدولة من غلة إنما هو قَسْبٌ من الله على المسلمين^(٤)

(١) من العسير وجود أدلة على ما يقال من أن ملايين دخلت فى الإسلام ، فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، على أثر إسقاط الجزية .

(٢) إن أرض الخراج فى العراق هى الأرض التى تروىها الجداول ، وكانت أرض العشر لا توجد إلى خارج ما يرويه النهر .

(٣) جاء فى كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٤٣) أن دهقانًا من أهل عين التمر أسلم ، فقال له على عليه السلام : « أما جزية رأسك فزفعها ، وأما أرضك فزفعها للمسلمين ؛ فإن شئت فرضنا لك ، وإن شئت جعلناك قهرمانًا لنا ، فأخرج الله عز وجل أتينا به » . [وفى كتاب الخراج أيضًا ما يلى : أسلم دهقان من أهل السواد فى عهد على عليه السلام ، فقال له على : « إن أقمت فى أرضك رفعت الجزية عن رأسك وأخذنا منك أرضك ، وإن تحولت عنها ففتحنا أحق بها » . والمقصود من أن يكون هذا الدهقان قهرمانًا هو أن يكون متوليًا للأرض بالنسبة عن الخليفة ، يزرعها ويعطيه ما يخرج منها ، وهذا هو المقصود أيضًا من عبارة « تقبيل » الأرض ، أى أن مالكةا الحقيقى يقبلها لمن يشاء ، أى يضمها إليه بحسب الاصطلاح الحديث على مقدار يقدمه لصاحبها ، وهو المسمى القباله - المترجم] .

(٤) [تأييد المؤلف فى كلامه بقدر الإمكان ، وفى كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٤٤) أن أناسًا من أهل السواد طلبوا رفع الجزية عن أرضهم فى أيديهم ووضع الصدقة عليها ، ومعنى هذا تحويلها من أرض خراجية إلى أرض عشرية . وسأل الوالى عمر بن عبد العزيز فى ذلك فكتب إليه : إني لا أعلم شيئًا هو أنفع لنا من المسلمين وماداتهم من هذه الأرض التى جعلها الله فينا لهم ، فانظر من كان منهم له بها أرض أو مسكن فأجر على كل جدول منها ما كان يجرى قبل ذلك ، ومن لم يكن له بها أرض أو مسكن فارددها إلى أهلها - المترجم] .

وأيضاً إذا كان عمر بن عبد العزيز لم يستطع أن يجعل لما قرره من عدم إنقاص ملك الدولة أثراً رجعياً ، فإنه أراد أن يحتفظ للمستقبل بجملة أرض النقي كما هي . وهو وإن لم يمتسح حق الإعفاء من الجزية والخراج بالنسبة للمسلمين — قدماء كانوا أو محدثين — فإنه لم يرد الإضرار بالحق التاريخي القديم من طريق تغييرات جاءت بعده ، ولا انتقال المزارع إلى ملكية الأفراد ، لأن هذه المزارع في الحقيقة ملك لجملة المسلمين ، لا يصح خروجها عن ذلك ،

أما فيما يتعلق بالولايات التي كانت قد مضى على فتحها ما يقرب من قرن ، وكان نظام الخراج فيها ، طبقاً لقانون الفتح ولقانون الغنائم الإسلامي في صورة معدلة بعض التعديل ، قد وُضِعَ وضِعاً نهائياً ، فقد حافظ عمر ابن عبد العزيز في الجملة على الوضع المستند إلى هذا الأساس التاريخي ودرأ عنه ما يهدده من مؤثرات . أما في البلاد التي لم يغزها المسلمون إلا في عهده ، أو على الأقل البلاد التي لم يكن قد تم إحضارها إخضاعاً حقيقياً ، مثل بلاد ما وراء النهر والهند وإفريقية والأندلس ، فقد فعل عمر غير ذلك . ويجب فيما يتعلق بصنيعه هنا أن ننظر إليه على حدته ولا يصح أن نخاطبه بغيره ، فهو يقوم على اعتبارات خاصة به . فالإسلام يقضى على المسلمين ألا يبدؤوا بقتال قوم وثنيين إلا بعد أن يدعواهم إلى الدخول في الإسلام وطاعة الله ؛ فإن أسلموا دخلوا في الدولة التیوقراطية ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولاخراج عليهم . هذا ما قضى به الإسلام ، لكن المسلمين لم يعملوا به تماماً ، بل هم أرادوا من الجهاد أن يأتيهم بالأموال والغنائم ، وصار هذا هو غرضهم من الجهاد ، ولم يكن الغرض نشر الدين . أما عمر بن عبد العزيز فإنه كره الجهاد وأراد ، على العكس من ذلك ، أن تدخل الأمم في الإسلام دخولاً سلمياً ؛ وفي هذه الحالة كان لا يطالبهم بخراج . أما الكلام عن إسقاط النقي فلم يكن موجوداً لأنه لم يكن هناك فيء ،

فيمحكي البلاذري (ص ٤٤١) أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك

السند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يُملِكْتَهُمْ ويكون لهم ما للمسلمين
وعليهم ما عليهم ، وكانت قد بَلَغَتْهُمْ سِيرَتُهُ ومَذْهَبُهُ ، فأسلم هؤلاء الملوك
وتسموا بأسماء العرب . ويحكى البلاذري أيضاً (ص ٤٢٦) أن عمر بن
عبد العزيز كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم
بعضهم ، ورفع عمر الخراج عن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم (١) . وجاء
عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٣ - ١٣٥٤) أن رجلاً من الموالى يكنى
بأبي الصيذاء ، وكان فاضلاً في دينه ، ذهب مع رجلين من العرب في وفد
إلى عمر بن عبد العزيز ، فتكلم العربيان ، ولم يتكلم هو ، فسأله عمر إن
كان من الوفد ، فلما أجاب بنعم ، طلب منه عمر أن يتكلم ، فشكا من
أن عشرين ألفاً من الموالى يغزون في خراسان مع العرب بلا عطاء ولا
رزق ومن أن مثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، كما
شكا من أن أمير خراسان رجلٌ عَصِيٌّ جاف ، يقوم على المنبر فيقول
لأهل خراسان : « أتيتكم حَقِيقَةً ، وأنا اليوم عَصِيٌّ » ، والله لرجلٌ من
قومي أحبُّ إلىَّ من مائةٍ من غيرهم ! » ثم قال هذا المولى عن الوالى إنه
سيفٌ من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان . فأعجب عمرُ بكلامه
وقال : « إذن مِثْلُكَ فليوفد » . ثم كتب عمر لأمير خراسان : وكان
الجراح بن عبد الله الحَكَمي : انظر من صِلَى قَبِيلِكَ إلى القبيلة فضَعْ عنه
الجزية . فسارع الناسُ إلى الإسلام ، فقبل للجراح : إن الناس قد سارعوا
إلى الإسلام نفوراً من الجزية فاهْتَمَمْتُمْ بِالْخِطَانِ ! فكتب بذلك إلى عمر ؛
فكتب إليه عمر « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ولم يبعثه
نحاتناً » وحكى البلاذري (ص ٤٢٢) والطبري (ج ٢ ص ١٣٦٤) قاصداً
أنه لما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز وظهر عدله ، وفقد عليه قومٌ من
أهل سمرقند طمعاً في عدله ، ورفعوا إليه أن قُتِلَ بَنُو مُسْلِمِ ظَالمهم وأخذ

(١) [في كلام المؤلف أن عمر رفع الخراج عن أهل ما وراء النهر وفرض لهم أعطيات ،
ولكننا تابعنا النص الذي اعتمد عليه وجئنا بالكلام أكثر تفصيلاً - المترجم] .

أرضهم ودخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر . فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لإيهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ليعود الحال على ما كان قبل عهد قتيبة . فحكم القاضي بإخراج المسلمين من عرب سمرقند على أن يُنابذوا أهل سمرقند على سواء ، فيكون صلحٌ جديد أو ظفرٌ وعنوةٌ . فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين ، فأقاموا بين أظهرهم (٢) .

وكذلك كتب عمر كتباً يدعو البربر إلى الإسلام ، فقرأها عليهم وإلى إسماعيل بن عبد الله ، فغلب الإسلام على المغرب . وعلى أثر ذلك حطّ عنهم الجزية ، وكانوا يؤدون الجزية بأن يقدموا أبناءهم عروصاً عن المال ، وقد أمر عمر بأن من كانت عنده بنتٌ من البنات اللاتي قدّمن في الجزية بأن يخطبها إلى أبيها فيتزوجها منه ، أو أن يردّها إلى أهلها (البلاذري ص ٢٢٥ و ٢٣١) .

وتم إجراء آخر غريب جداً في بابهِ ، حكى صاحب كتاب Cont Isid Hisp & 186 أن السامع بن مالك اتخذ في الأندلس ، وهو وإن لم يكن من صنع عمر نفسه فهو من غير شك يتمشى مع سياسة عمر وكان يتكليف منه ، وهو إجراء يتعلق بالأرض ، يقول الكتاب المتقدم :

Zama ulteiorem vel(=et) citeriorem Iberiam proprio stilo ad vectinalia inferenda describit. Predia et manualia vel quidquit illud est, quod olim predavilliter indivisum retentabat in Spania gens omnis arabica, sorte sociis dividendo partem ex omni et mobili mobili et immobili fisco adsociat. (٢)

(١) [فصلنا ما ذكر المؤلف طبقاً للنص الذي اعتمد عليه ، لأننا لو اقتصرنا على الترجمة لأصبح الكلام مبتوراً والمعنى ناقصاً . والمؤلف يقول إن عمر أبي أن يعطى مدينة سمرقند لأهل السغد ، وإن كان قد عرف أن العرب أخذوها منهم غدرًا ، وأنه لم يصلح ما كان قد وقع منذ سنين . وحقبة الأمر هي كما ذكرناه نقلاً عن النصوص - المترجم] .

(٢) قد غيرت ترجمة Mommsen ، وأصلحت كلمة predia ، فجعلتها: predia طبقاً -

وإذن فعلى حين أن جزءاً من الأرض المفتوحة ترك في يد أهله السابقين في مقابل تأدية الخراج ، فإن جزءاً آخر كان حتى ذلك الحين قد احتُفِظَ به ثم وُزِعَ على الجند بعد أخذ الخمس منه . ولا نعرف شيئاً عن نوع هذا الجزء الذي كان محجوزاً ، وربما أنه كان يتكون من نظائر تلك الأرضين التي اعتبرت صواني للدولة في العراق والشام^(١) . وكانت يد عمر ابن عبد العزيز فيما يتعلق بالأندلس لا تزال مطلقة بعض الشيء ، ولا شك أنه كان يقصد من هذا الإجراء الذي اتخذه أن يوثق صلة المحاربين العرب ببلاد الأندلس من طريق تمليكهم أرضاً فيها . ويقال إنه فيما صنع اعترى إلى عمر بن الخطاب قائلاً : لولا أن عمر أقطع الجند أرضاً في الثغور الهندية لما أمكن سدّها^(٢) . ولا شك أن عمر بن الخطاب لم يكن له شأن بالهند ، وأنه إنما كان يريد بوجه عام أن يجعل الأرض ملكاً للدولة ما وسعه ذلك . ولكن لا بد أن يكون صنيع عمر بن الخطاب دائماً هو المثل السابق ، ولو كان في مسيره يتردد ذات اليمين وذات الشمال ، على أنه مما يجدر ملاحظته مقدار تلة اتفاق المأثور القديم مع الآراء التي جاءت بعده من أن العرب لم يكن لهم حق في أن يمتلكوا أرضاً في الأمصار على الإطلاق .

وأضيف أخيراً إلى ما قدمت ذكره هنا بعض الروايات المتعلقة بإجراءات

- لما بلى ، وهو أن *res mobilis* معناها هو *manualia* وأن *res immobilis* معناها هو *predia*

[أما ترجمة هذا النص اللاتيني فهي : نظم السمع على طريقته الخاصة ايبريا البعيدة أو (= و) القرية ، وذلك بقصد فرض الخراج . وكان العرب في إسبانيا قد احتفظوا بالضياح والعقار المنقول ونحوه مما لم يكن قد قسم من قبل ، فقسمه السمع بالقرعة على الأصحاب بعد أن ضم جزءاً من كل شيء ثابت ومنقول إلى بيت المال - المترجم] .

(١) قارن الهامش المذكور في ص ٢٨١ مما تقدم ، وهو على كل حال لم يكن الخمس . [في النص العربي الذي اعتمد عليه دوزي أن موسى بن نصير بعد فتح الأندلس لم يكن قد أتم تقسيم أرض المنشأة على الجيش بعد أخذ نصفها لبيت المال ، فمحجوز أن ما بقى هو المقصود . أما الإقطاعات التي أقطعها عمر للجند فكانت من الخمس - المترجم] .

مالية أخرى اتخذها عمر بن عبد العزيز ، مبتدئاً بما يحسن المسلمين منها : كانت أرض فذلك ، قرب المدينة ، مما أفاء الله به على رسوله ، ثم انتقلت بعد وفاته إلى ولي الأمر من المسلمين ، فتولاها الخلفاء من بعده واصطفوها الأمويون ، فأقطعها معاوية لمروان بن الحكم ، ثم آلت آخر الأمر إلى عمر بن عبد العزيز ، فردّها إلى ما كانت عليه أول أمرها وأعطاهَا لآل النبي عليه السلام ، وهم العلويون وبذلك ألغى عمر بن عبد العزيز ما كان قد جرى عليه أبو بكر وعمر . ومعنى هذا أنه لم يكن يتبعهما اتباعاً تاماً . وكذلك ردّ عمر على إبراهيم بن محمد بن طلحة داره التي كانت قد أخذت منه في مكة (البلاذري ص ٣٠ - ٣٢ ، والطبري ج ٢ ص ١٤٨٣ فما بعدها) .

وفي اليمن كان محمد بن يوسف أخو الحجاج قد أساء السيرة وظلم الرعية وضرب على أهل اليمن خراجاً جعله وظيفة عليهم ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر (البلاذري ص ٧٣) . وفي عمان كانت عشور التمر والحب تقسم في فقراء أهلها ومن سقط لإيها من أهل البادية ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل ، فبيع مرة وحُمِّل ثَمَنُهُ إلى بيت مال البصرة ، فأمر عمر برد الثمن ليصرف فيما كان قد أمر بصرفه فيه (البلاذري ص ٧٧ فما بعدها)^(١) ، ولم يكن المأثور المعمول به في جميع أجزاء جزيرة العرب^(٢) على هذا النحو ، بل كان يختلف هنا وهناك بحسب اختلاف الظروف التي فيها دخلت القبائل والبلاد في الإسلام أول الأمر^(٣) ، وبحسب كونها ظروفاً طيبة أو غير طيبة : فمثلاً نظراً لأهمية ثغر خراسان أمر عمر بن عبد العزيز بإبقاء خراجها فيها لكي تصرف منه الأعطيات ؛ وكتب إلى واليه بذلك وبأنه مستعد أن يحمل إليه أموالاً أخرى ، إن كانت أموال الخراج

(١) [جئنا بالكلام أكثر تفصيلاً بحسب الأصل ليكون مفهوماً - المترجم] .

(٢) هكذا الأصل لكن المقصود بالبلاد : البلاد التي كانت خاضعة لسلطان الدولة

العربية . [المترجم] .

(٣) راجع كتابنا 4. 95 Skizzen ...

لا تكفى (الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٦) . ولكن لا يصح أن نعتبر ما فعله عمر بالنسبة لخراسان قاعدة عامة سار عليها ، لأن ما فعله بخراسان كانت له أسباب خاصة .

أما فيما يتعلق بأعطيات المقاومة من المسلمين في مدن المعسكرات وفي حاميات الثغور فقد كانت الحكومة تسير في أول الأمر على مشيئتها الخاصة ، فكانت تسقط من ديوان المقاومة من تشاء وتفرض فيه لمن تشاء ، وكانت تزيد في الأعطيات أو تنقصها كما تشاء ، وكان هذا دائماً سبباً للشكوى . وذلك أن أموال النعم التي تجرى منها الأعطيات إنما هي بحسب قانون اللغنائم لورثة جنود الفتح وحدهم ، ولم يسكت لهم صوت قط [في المطالبة بأن يُعطى إليهم كل مال النعم] : ولا يصح أن نصدق أن عمر بن عبد العزيز — وعلياً من قبله ، كما يزعم البعض — عارضهم في ذلك ، لأن عمر ما كان ليقدم أبداً على اتخاذ مثل هذا الإجراء بدون تفكير (البلاذرى ص ٤٥٨ فما بعدها) ، بل ذهب عمر في إرضاء المطالب التي كانت توجه إلى بيت المال إلى حد بعيد ، فوسع دائرة أصحاب الأعطيات ، حتى صارت أكثر شمولاً لغير العرب مما كانت عليه من قبل ، وهو لم يقتصر على إعفاء الموالى الذين كانوا يحاربون مع العرب في خراسان من الخراج ، بل جعل لهم أرزاقاً وأعطيات ، وكتب لواليه على خراسان يعده بإرسال أموال إن لم تسكف في ذلك أموال الخراج في خراسان ؛ ولكن لم تدع الحاجة إلى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٤ و ١٣٦٦) . على أنه يجب أن نشك كل الشك في صحة ما يُقال من أنه كان يعتبر كل من يعتنق الإسلام ويلحق بالكوفة والبصرة مهاجراً ويجعل له من الحقوق ما للدارى الفاتحين العرب : ذلك لأن هذا ما لم يكن يمكن تبريره من الناحية الفقهية وكان يكون له من الناحية العملية أسوأ للنتائج . وكان عمر بن الخطاب قد فرض لعيال المقاومة ، وأمضى عثمان ومن بعده ذلك ، وجعلوا الأعطيات موروثاً لذرية الميت ؛ وجاء معاوية فضيقت دائرة

أصحاب الأعطيات من ذراري المقاتلة ، ثم جاء عبد الملك فأوقفها ككسبية ، فلما جاء عمر بن عبد العزيز أعادها (البلاذري ص ٤٥٨ فما بعدها والطبري ج ٢ ص ١٣٦٧) : وأمر عمر بن عبد العزيز بإعانة فقراء المسلمين ، خصوصاً من كان يريد الحج منهم ، كما أعطى الزمى أعطيات ثابتة ، ولم يفعل ما فعله الوليد الأول من قصر أعمال البر على أهل الشام ، بل هو شمل بيبره العراق وخراسان ، لأنه لم يكن يميز بعض الولايات على بعض (الطبري ج ٢ ص ١٣٣٧ و ١٣٦٤ و ١٣٦٧ و ١٨٥٤) .

أما فيما يتعلق بمعاملة عمر بن عبد العزيز لأهل الأديان الأخرى فإن تيوفانيس (في حوادث عام ٦٢١٠ من تاريخ الخليفة) يذكر في ذلك ما يأتي : « ولما حدث في تلك السنة زلزال كبير في الشام ^(١) حرم عمر النبيذ في المدن وأكره النصراني على الدخول في الإسلام ، وكان من فعل ذلك رفع عنه الجزية ، أما من لم يفعل فإنه قتلهم . وقد استشهد كثيرون ، وأمر بالآ تقبل شهادة نصراني على عربي ، وكذلك وجه إلى القيصر ليو (Leo) كتاباً يبين له فيه عقيدة الإسلام أملاً في أن يقنعه بالدخول فيه » : وفي الذي يذكره تيوفانيس خلط بين باطل وحق : أما الحق فهو أن عمر بن عبد العزيز كان مسلماً متحمساً وأن النصراني أحسوا بذلك ، ولكن عمر لم يكره النصراني على الدخول في الإسلام مهلاً دأ إياهم بالقتل ^(٢) ، لأنه لو كان فعل ذلك لكان فيه اعتداء على الحق القائم (الذي ضمنه الإسلام للنصراني) ؛ وهذا ما لم يكن من عمر ، لأنه مسلم حق : وهو فيما يتعلق بالنصراني قد التزم حدود الشرع

(١) كان الزلزال في ١٥ جمادى الأولى سنة ٥٩٩ = ٢٤ ديسمبر سنة ٧١٧ م . وفي صفر (سبتمبر سنة ٧١٧ م) تولى عمر الخلافة .

(٢) يزعم ديل (Diehl) في كتابه عن تاريخ إفريقيا (Histoire d'Afrique) ، ١٨٩٦ ، ص ٥٩١) أن عمر بن عبد العزيز أمر الكاثوليك في إفريقيا أن يدخلوا في الإسلام أو يرحلوا عن البلاد ، ويستند ديل إلى ما جاء في رسائل Monum Germ. Epsist. 3, 267 . ولكن البابا جريجور في هذا الموضع لا يأمر Bonifatius بأكثر من ألا يهتم بأي وجه بالإفريقيين الذين في جميع البلاد يريدون اللحاق بالهيئات الكنسية ، لأن معظمهم قد اعتنق مذهب ماني والبعض الآخر قد عمّد أكثر من مرة (Airos passim ad ecclesiasticos ordines praetendentes nulla ratione succipiat, quia aliqui eorum manichaei; aliqui rebaptizati saepius sunt probati) =

(١٩ - الدولة العربية)

الزماماً تاماً ، وإن كان الأمر ربما بدا في أعين النصارى على غير ذلك . وقلة
حجى عمر للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التي ضمنها لهم الصلح ، ولم يكن
يمنع إلا بناء كنائس جديدة (الطبرى ج ٢ ص ١٣٧١) (١) ، وهم عمر بن
عبد العزيز بأن يرد للنصارى ما أخذوه الوليد بن عبد الملك من كنيسة القديس
يوحنا بغير حق ، لو أنهم في مقابل ذلك تنازلوا عن الكنائس التي كانت خارج
باب دمشق ، خصوصاً كنيسة القديس توما ، لأن النصارى صارت لهم هذه
الكنائس في الحقيقة خلافاً لشروط الصلح ، بحكم أن ما كان خارج دمشق قد
فتح عنوة ولم يعط للنصارى في شروط الصلح . فلما لم يرض النصارى بذلك جعل
عمر ما كان قد صار لهم من كنائس عوضاً لهم عما أخذوه الوليد من كنيسة القديس
يوحنا (البلاذرى ص ١٢٥ - ١٢٦ والطبرى ج ٢ ص ١٢٧٥) (٢) . وكان

= فهل يكنى هذا دليلاً على أن عمر أصدر ذلك الأمر الذى كان من شأنه أن يخالف الشرع
الإسلامى مخالفة تامة ؟

(١) [كتب عمر بن العزيز في كتاب له لأحد عماله : لا تهدموا كنيسة ولا بيعة
ولا بيت نار صولحتم عليه ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢
ص ١٣٧١ - ١٣٧٢] .

(٢) [ذكر البلاذرى ص ١٢٥ أن معاوية وعبد الملك من بعده أرادا أخذ كنيسة يوحنا
لتوسيع المسجد وبذلوا للنصارى مالا عظيماً ، فلم يقبلوا حتى جاء الوليد ، فجمع النصارى وبذل لهم
مالاً عظيماً فأبوا ، فهدد الوليد بهدم الكنيسة ، فقال له بعضهم : من هدم كنيسة "جن" وأصابته
عاهة ، فأحفظ ذلك الوليد ، ونادى بمعمل وبدأ هدمها بيديه ووسع المسجد . ثم شكى النصارى
لعمربن عبد العزيز ما كان الوليد قد فعله بكنيستهم ، فكتب يأمر بأن يرد على النصارى
ما أخذوه الوليد من الكنيسة وزاده في المسجد . فكره أهل دمشق ذلك ، وأقبل الفقهاء على
النصارى ، فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الفوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ،
على أن يصفحوها عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرفضوا بذلك وأعجبهم ، وأخبر عمر
بذلك فمر به وأمضاه . أما الطبرى (ج ٢ ص ١٢٧٥) فيقول إن النصارى شكوا لعمر
أمر كنيسة يوحنا ، فقبل له : إن كل ما كان خارجاً من المدينة افتتح عنوة ، فقال عمر : نرد
عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما ، فإنها فتحت عنوة ونهبها مسجداً ، فلما قال لهم ذلك ،
قالوا : بل ندع لكم هذا الذى هدمه الوليد ودعوا لنا كنيسة توما ، ففعل عمر ذلك .
هذا ما يؤخذ من النصوص التي يعتمد عليها المؤلف ، وفيه تفصيل لما يقول وفيه أيضاً إصلاح
للفكرة التي أخذها من النصوص - المترجم] .

القانون الذى طبقه عمر هنا هو ، على كل حال ، القانون الشرعى الذى لاشك فيه ، وكان لا يمكن أن يفعل غير ذلك ، إلا إذا تنكر للإسلام . أما الأحوال التى كان الأمر فيها أمر المال فقد كان عمر بن عبد العزيز أوسع صدرأ ، فكان نصارى أيلة وقبرس مثلاً قد صولحوا على إتاة ، ولكنها زيدت على مرور الزمان لأسباب مختلفة ، فلما جاء عمر بن عبد العزيز حطّ ما زيد على أهل قبرس وأمر بالآيزاد على ما صولح عليه أهل أيلة شيئاً (البلاذرى ص ٥٩ و ١٥٤ فما بعدها) . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد صالح أهل نجران فى البين على ألفى حلّة ، ثمن كل حلّة أوقية ، ووزن الأوقية أربعون درهما ، وجعل لهم فى مقابل ذلك ذمة الله وعهده على أنفسهم وملتهم وأراضيهم وأموالهم . ولكن عمر بن الخطاب أدخل بالعهد إخلالاً منكراً ، وجد من يصوره فى صورة جميلة متنوعة ؛ فأكره نصارى نجران هم ومن تبعهم من اليهود على الجلاء عن جزيرة العرب إلى العراق والشام ، وذلك بأن اشترى منهم أراضيهم أو أبدلهم غيرها فى مواطنهم الجديدة ، واستمر سوادهم فى النجرانية قرب الكوفة ، ولكنهم ألزموا على أن يستمروا على دفع المقدار القديم الذى كانوا قد صولحوا عليه . وكان رئيسهم فى النجرانية هو المسئول عن ذلك ، وكان يأخذ ما صولحوا عليه من النجرانيين الذين ارتحلوا إلى الشام أيضاً . فلما جاء عثمان بن عفان حطّ عنهم مائى حلّة ، ثم حطّ عنهم معاوية مائة أخرى ، لأن عددهم كان قد تناقص بمن مات أو دخل فى الإسلام . فلما جاء الحجاج زاد عليهم مائى حلّة ، لأنه ، كما يروى ، اتهمهم فىمن اتهم بموالة ابن الأشعث . فلما جاء عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وضعفهم والحاج الأعراب عليهم بالغارة وتحميلهم إياهم الموزن الخيضة بهم وظلم الحجاج إياهم ، فأمر عمر بإحصائهم ، فتبين أنهم على العشر من عدتهم ، إذ وجد أنهم أربعة آلاف نفس بعد أن كانوا أربعين ألفاً ، فأراد أن يخفف عنهم ، ورأى أن ما صولحوا عليه من مال ليس صلحاً على أراضيهم التى أخذت منهم غضباً (أو هى على الأقل خرجت عن

أبيهم) ، بل هو يجب أن يعتبر جزية على رؤوسهم مع إسقاط جزية من مات أو أسلم ؛ ونظراً لأن عددهم قد نقص إلى العشر فإن عمر أنقص تبعاً لذلك ما كانوا قد صولحوا عليه إلى العشر ، فألزمهم مائتي حلة بدلاً من ألفين ، أو بعبارة أخرى ثمانية آلاف درهم بدلاً من ثمانين ألفاً . وربما كان عمر ابن عبد العزيز قد أراد من وجه ما أن يصلح ظلم عمر بن الخطاب (١) (البلاذري ص ٧٦ فما بعدها) .

وأمر عمر بن عبد العزيز واليّه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن في الكتاب الذي تقدم ذكره ، وهو عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٦ فما بعدها) ، أن يعدل في معاملة الرعايا غير المسلمين أيضاً ، وأن يحسن معاملتهم ، وأن يأخذ الخراج في رفق ، وألا يحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وألا يأخذ من العامر سوى الخراج ، متجنباً الهدايا التي كانت منذ زمان قديم تهدى للولاة في

(١) [يجد القارئ عند البلاذري قصة هؤلاء النجرائين : وفد رؤسائهم على النبي عليه السلام ، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ، فدعاهم إلى المباحلة فتجنبوها ، وصالحوه على شروط منها : إعطاء أئني حلة كل عام ، مع إمكان دفع ما يقابل بعضها سلاحاً أو خيلاً أو عروضاً أخرى ومنها : أن يضمفروا رسل النبي عليه السلام شهراً وأن يعبروه (عارية تردد أو يرد منها) ثلاثين درعاً وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً ، إن كان باليمن كيد . وفي مقابل ذلك جعل لهم ذمة الله وعهده ألا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا ولا يظلموا أرضهم جيش ، وأن تكون لهم أرضهم وأموالهم . واشترط النبي عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به . ثم أجلاهم عمر ، وفي رواية أنه فعل ذلك تنفيذاً لأمر الرسول عليه السلام بألا يبقى دينان في أرض العرب . وفي رواية أخرى أن النجرائين تزايد عددهم واختلفوا فيما بينهم فاخترعوا إلى عمر ، ويظهر أن بعضهم كان يريد إجلاله البعض ، لأنهم طلبوا منه أن يجلبهم ، فاغتم عمر ذلك وأجلاهم ، خوفاً منهم على المسلمين وتجنباً لوجود فتن في الجزيرة . وفي رواية ثالثة أنهم خالفوا شروط الصلح ، فأكلوا الربا ، فأجلاهم عمر . ويجوز أن يكون الذي دونه إلى ذلك أكثر من سبب ، وهو على كل حال اشترى منهم أرضهم وأموالهم ، وكتب إلى عماله أن يوسعوا لهم من الأرض ، وأن يجادوا لهم ما يعمرونه ويستعملونه منها ، تعويضاً لهم عن أرضهم التي كانت في اليمن . وعند البلاذري نص كتاب الصلح بينهم وبين النبي وذكر تفاصيل أخرى . ولا يمكن حل كل حال أن يكون عمر قد أجلاهم من غير مبرر لذلك ، وإلا فإنه يشقّص عهداً للنبي ، وهذا ما لا يمكن أن يفعله خليفة - المترجم] .

الملاذ التي كانت فارسية ، مثل هدايا النيروز والمهرجان ودراهم النكاح وثن للصحف وأجور الضرائب والآيين^(١) ، ومعنى هذه الكلمة هو العادة ، والمقصود بها الضرائب على تنوعها ، وهو ما تدل عليه الكلمة الإنجليزية (Custom)^(٢) : وهذه الهدايا لم تكن مشروعة ، وكان يصعب الإشراف عليها ، وفي معظم الأحوال كانت لا تدخل بيت المال ، ولذلك كان القضاء عليها عسيراً ، وكان الولاة لا يحبون أن يأتي لهم الناس في النيروز وغيره من مناسبات بأيدي خالية (الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٥ فما بعدها) .

وقد دعت عمر إلى تحريم بيع أرض الخراج اعتباراً ترجع إلى أحوال بيت المال . فهو قد أراد أن يتفادى نقص الخراج الناشئ من انتقال أرض الخراج إلى أيدي المسلمين وسقوط الخراج عنها لهذا السبب ، ولكنه بذلك وضع في نفس الوقت سداً أمام الرغبة في اقتناء الضياع ، محاولاً أن يحمي دافعي الخراج من الملاك من أن تطغى على أرضهم شهوة التملك من جانب السادة العرب الذين كان امتلاك الأرض أكثر فائدة لهم بحكم أنهم لم يكونوا يؤدون عنها خراجاً . ومثل ذلك حدث في شمال غربي ألمانيا ، في مقاطعة « براونشفيج - لونبرج » (Braunschweig - Lüneberg) مثلاً ، من معارضة الأمراء لأسباب مالية في انتقال الأرض الزراعية إلى يد الأشراف ، لأنها عند ذلك تعفى من الضرائب ، ولكنهم في نفس الوقت أنقذوا بذلك طبقة الزراع دون أن يقصدوا إلى إنقاذها . ولا شك في أن عمر بن عبد العزيز لم ينجح نجاح هؤلاء الأمراء ، ولكن

(١) [يحسن الرجوع إلى نص الكتاب الذي كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد وإلى الكوفة ، وهو المذكور عند الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٦) بنصه الكامل ، وهو أوضح وأشمل من كلام المؤلف - المترجم] .

(٢) إن فكرة الضرائب الحكومية غير معروفة في التشريع الضرائبي الإسلامي ، فلا يوجد بحسب هذا التشريع إلا الخراج والعشر . على أن المشرعين الإسلاميين عرفوا كيف يطبقون قاعدة أخذ الخراج والعشر على التاجر الذي يرتحل ببضائمه .

الأحوال في المشرق كانت أيضاً مغايرة للأحوال في ألمانيا ؛ فكان في المشرق قليل من الفلاحين بالمعنى المعروف عندنا ، هذا إلى أن ملاك الأرض من غير العرب كانوا في الغالب دهاقين أو بعبارة أخرى ، سادة يملكون الضياع والقرى وكان الفلاحون تبعاً لهم .

٣- وعلى الرغم من أن أشياء كثيرة لا تزال غامضة فإن ثم شيئاً واحداً واضحاً إلى حد كبير ، وهو أن المؤرخ يجلب على نفسه السخرية إذا نظر إلى عمر ابن عبدالعزيز نظرة استمراء مقصود ؛ وهذا هو ما بدأه دوزي ، فأعطى بذلك الإشارة لغيره . من الجائز أن يكون عمر متأثراً بالدين ، أعني في هذه الحالة بعلم الفقه ، متأثراً أكثر مما يريد البعض ، وأن يكون تدقيقه في محاسبة نفسه قد أدى به في كثير من الأحيان إلى تشكك عاقل في تنفيذ سياسته . فبروى أنه مرة نخم خطبة له بقوله : أقول لكم هذا وما أحسُّ بأنني خير منكم (١) . فلم يكن عند عمر

(١) [لا يذكر المؤلف المصدر الذي اعتمد عليه ؛ ولكن ثم خطبة لعمر بن عبد العزيز ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٣٦٨ - ١٣٦٩) ، وهي تدل على نواح كثيرة من روحه وشخصيته ، وفيها جوهر العبارة التي يذكرها له المؤلف ، وما هي بنصها الكامل : « أيها الناس ! إنكم لم تخلقوا عبثاً ، وإن تركوا سدى ، وإن لكم مهاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم ، وقد شأب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض . ألا فاعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، وباع نافعاً بئاق وقليلاً بكثير وخوفاً بأمان . ألا ترون أنكم في أسلاب المالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون ، حتى ترد إلى خير الوارثين ! وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نحبه وانقضى أجله ، فتغيبونه في صدع الأرض ، ثم تدعونه غير مومود ولا ميمد ، قد فارق الأحبة وخلع الأسباب ، فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتين يعمل فتمير إلى ما قدم ، غنى عما ترك ، فانتقوا الله قبل نزول الموت ، وأيم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندى ، فاستغفروا الله وأنوب إليه ، وما منكم من أحد يبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه ، وما من أحد يسمعه ما عندنا إلا وددت أنه ساواني ولحمي الذين يلونى ، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ، وأيم الله لو أردت غير هذا من الفصارة والعيش لكان اللسان منى به ذلولاً عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة يدل فيها على طاعة وينهى عن معصية » . ثم رفع طرف رداءه فبكى حتى شعث وأبكى الناس حوله ، ثم نزل فكانت إياها لم يخيل بعدها حتى مات . ويظهر أن هذه هي الخطبة التي يقصدها المؤلف ، غير أنه لم يقرأها إلى نهايتها - المترجم] .

ابن عبد العزيز ذلك الشعور الوطيد بأن له سلطاناً شخصياً ، هذا الشعور الذي كان بلده عمر بن الخطاب ، وكان به يُرهب الدنيا ، ولكن عمر ابن عبد العزيز لم يكن معنياً بنفسه ، بل عني بالخير للناس والبر بهم ، وقد دفعه ورعه إلى الحكم الصالح وإلى معالجة الأعباء الكبيرة التي كان يقتضيها الحكم الصالح بما هي أهل له .

وليس من الضروري ، بطبيعة الحال ، أن يكون عمر قادراً على تحقيق كل ما توجهت إليه نيته الطيبة ، فمثلاً يذكر بعض من لم ينصف أن الدليل الأكبر على عدم كفاءته السياسية أنه ضيغ الأموال ، ولكننا قد عرفنا فيما تقدم حقيقة الأمر في ذلك ، فهو إذا كان قد أسقط الجزية عن دخل في الإسلام من الشعوب والممالك ، فإنه إنما أراد بذلك أن يتفادى شن الحروب لمجرد الغنائم ، ولم يفرط في شيء يدخل في بيت مال الدولة : لأن السمسك لم يكن قد وقع بعد في الشبكة ، أما في الولايات التي كانت قد فُتحت قبل عهده بزمان طويل ، وتقررت جزيتها وخراجها طبقاً لقانون الفتح ، أعفى أرض السواد وأرض مصر ، فإن عمر بن عبد العزيز تمسك بالقانون المأثور الذي كان قد جرى العمل به ، وقاوم انتقاص أرض الدولة ودخلها ، كما أنه حاول أن يتفادى الضرر الذي من شأنه أن يلحق بأموال الدولة بعد إسقاط الجزية عن جميع المسلمين . ولا شك أيضاً في أنه ، إذ منَعَ من قبول الولاة للهدايا والعطايا بما فيها من إساءة استعمال السلطة ، إنما نال من الغمال وحدهم ، وهم الذين كانوا يستولون على تلك الهدايا : وأقصى ما يمكن أن يؤخذ عليه هو أنه كان يكثر من إلقاء الأعباء على بيت المال بسبب أنواع المساعدات والبر التي قدمها للجميع أو كان يود لو استطاع تقديمها لهم . أما فيما يتعلق بنفسه فإنه لم يستعمل شيئاً من أموال الدولة ولا جمع منها الكنوز (١) ولا هو

(١) [راجع ما تقدم في هامش ص ٢٩٤ حيث يعرب عمر عن عدم رغبته في جمع الأموال . وهنا نجد دليلاً على روح البر التي كانت تملأ نفسه ، حتى إنه كان يتمنى أن يكون عيش الناس وعيشه سواء ، أما فيما يتعلق بأنواع البر فقد قدم المؤلف ذكر بعضها . وفي =

أسرف فيها أيضاً في حملات حربية على القسطنطينية : وكان في ذلك مخالفاً لسلفه كل المخالفة : وكذلك عني عمر بالحلولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم ؛ والأغلب أن ذلك عوض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين : أما ما يزعمه البعض (ا . مولر 1,441 A. Müller) من أن أموال الدولة في عهده قد تلاشت ، كما يزول الشيء بإشارة سحرية ، وأن ما يتحصل من الخراج قد انحطّ دفعة واحدة ، فإنني لا أريد هنا أن أتعرض للكلام فيما إذا كان ذلك الزعم أكثر من أن يكون نتيجة خطأ ، ولكنه على كل حال زعم لا يمكن أن يكون صحيحاً بوجه من الوجوه ، وذلك أن الأحوال المالية كانت سيئة في الأيام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج ، أما في عهد عمر بن عبد العزيز فقد عادت إلى حالة الصحة ، ومهما كان الأمر فإن الاهتمام بالشئون المالية ليس هو كل ما يعنى الدولة : ومن ذا الذي يكون عنده من الجرأة ما يجعله يستنكر على عمر أنه أسقط عن البربر الجزية ، جزية الأبناء - فقد كانوا يقدمون أبناءهم على سبيل الجزية - وأنه خفف العبء على نصارى نجران ، وأنه عمل على حماية الرعية من العمال ، وأنه حرص على ألا تكون لإدارة الأمصار مجرد وسيلة لاستغلالها استغلالاً مالياً !

أما فون كيرمر وأوجست مولتر فرأيهما أن عمر بن عبد العزيز إنما تدخل في الأمور المالية دون أية ضرورة عملية جبرياً وراء ما صورّه له ورعه من مثل عليا خيالية ، فأفسد المجرى الطبيعي للمالية وأخرجها عن الطريق الذي أدّى بها إليه التطور السابق ؛ وهما يزعمان أيضاً أنه لم تكن عنده أية فكرة عن الأحوال الواقعية : أما الحقيقة فهي بالأحرى أن المؤرخين الذين ينقدون أعمال عمر هم الذين يتصورون الأحوال الواقعة لذلك العصر تصوراً خاطئاً . فلقد كانت هذه الأحوال مضطربة

= الطبرى (ج ٢ ص ١٣٦٤) زيادة على ذلك أنه أمر بممل خانات لفقراء من يمر من المسلمين يوماً وليلة ولتعهد دوابهم ولقراء من كانت به حلة يومين وليلتين وتقوية المنقطع بما يصل به إلى بلاده . وقد كان عدل عمر وإحسانه سبباً في كثرة المطالب والشكاوى - المترجم [.

ومحتاجة إلى تنظيم جديد : ولم يكن عمر نفسه هو الذى أحدث الاضطراب في نظام الخراج ، بل كان الاضطراب موجوداً من قبل ، وما كان يمكن أن يستمر . ولم يكن الواجب الذى أراد عمر الاضطلاع به واجباً خيالياً موهوماً ، بل كان واجباً حقيقياً ومُلِحّاً . وكان أول من حاول النهوض بهذا الواجب محاولة جدّية هو الحجاج ، غير أنه قام بذلك على نحو أثار عليه بغض الناس . أما عمر فقد حاول تحقيق ذلك الواجب على طريق آخر ، مراعيّاً تلك الحساسية التى يؤيدها الإسلام أو التى تستند إليه على الأقل . وقد كان أمام كل من الحجاج وعمر نفس المشكلة التى تمخضت عنها الأيام وكان لا بد لها من حلٍّ ، وهى إنما نشأت من أن أرض الخراج أخذت تنتقل شيئاً فشيئاً إلى أيدي مالكين لا يلزمهم أداء الخراج :

وبذلك أيضاً يهطل في الحملة مايوخذ على عمر بن عبد العزيز من أنه زعزع أركان الدولة الأموية . فالحق أنها كانت تسميداً من قبله ، وكانت من أول الأمر مزعزعة . فأما القاعدة التى تمخضت عنها الحكمة الرومانية ، وهى أن دولة لا يمكن أن تعيش إلا بالوسائل التى اعتمدت عليها في قيامها ، هذه القاعدة التى يسوقها . مولر في أخذه على عمر بن عبد العزيز انحرافه عن سنة سلفه من خلفاء بني أمية ، فهى قاعدة يمكن أيضاً أن تُدكّر في معرض النقد لخلفاء بني أمية أنفسهم ، ذلك أن حكومتهم لم تكن بأى حال من الأحوال سائرة على سنة حكومة النبي عليه السلام وأصحابه ؛ وهى وإن كانت قد أرادت أن تتمسك بالإسلام ، وما كان يمكنها أن تنكر له ، فإن الإسلام لم يكن من شأنه أن يؤيدها بل أن يقوّض الأساس الذى قامت عليه . وكان على بني أمية دائماً أن يشتغلوا بالقضاء على الثورات التى كانت تقوم لحاربة سلطانهم باسم الله وباسم الدين : وإلى جانب ذلك كانت تهددهم من جانب أهل العراق عداوة لا تلبث ، هذه العداوة التى كانت تندلع بين حين وآخر في صورة ثورات هائلة على الاستبداد الشامى البغيض . على أن أكبر خطر كان يهددهم هو تلك الحركة الاجتماعية التى لم تكن

موجهة إليهم وحدهم بل إلى السيادة العربية على إطلاقها : وكان عمر بن الخطاب قد نظم الدولة الإسلامية طبقاً لقانون الفتح ، بحيث جعلها دولة العرب على المغلوبين وأقامها على أساس من التمييز الديني والقوى على السواء بين طبقتين منفصلتين : طبقة العرب المسلمين وطبقة أهل الديانات الأخرى من غير العرب ، أو بعبارة أخرى طبقة الأرستقراطية الحربية من العرب ، وطبقة دافعي الجزية والخراج من كافة غير العرب . ولكن عمر بن الخطاب بصنيعة هذا لم يُقيم بناء الدولة على أساس ثابت ، ذلك أن الحاجز الذي كان يفصل بين السادة العرب والخدام من غير العرب أخذ يتصدع بسبب دخول غير العرب في الإسلام شيئاً فشيئاً ، وبسبب غلبتهم في المدن التي أنشئت للجيش العربي . وكان صبغ المغلوبين بصبغة الإسلام شيئاً فشيئاً ، وهو عملية طبيعية لا يمكن إيقافها ، سبباً في تعويض النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب للخطر ، وإن كان ذلك لم يحصل في عهد عمر ، بل في عهد بني أمية الذين أدخلوا بذلك النظام . وكان الواجب ، مراعاة للأصول التي تقوم عليها الدولة التيقراطية على الأقل ، أن يكون المركز السياسي للمواطنين فيها تابعاً للدين ؛ وأن يكون الإسلام لا القومية ، هو الذي يجعل للمواطنين فيها حقوقهم .

وكان الموالى بالباب يتربصون الدوائر ، كانوا يتطلعون إلى المساواة التامة بالعرب . وكان الإسلام في جانبهم ، فاجتذبتهم الثورة التي كانت تستند إلى الإسلام . وقد حاول عمر بن عبد العزيز أن يجيب مطالبهم دون ثمن غال ، ولعل الاعترافات التي كانت تحدوه في ذلك قد كانت اعتبارات دينية أكثر منها سياسية ، ولم يكن من المستطاع كسر الروح الإسلامية ، بل كان لابد من أن يُحسب حسابها ، وكانت خصومة الإسلام للدولة الأموية تهددها بالانهيار ؛ وعلى هذا فإن خليفة أموياً يجتهد في أن يتمشى مع أصول الإسلام وفي تجريد حركات المعارضة من سلاحها الإسلامي بأن يزيل أسباب الشكوى التي كان لها

ما يبررها ويستجيب إلى ما يمكن الاستجابة إليه من مطالب ، إن خليفة يعمل لذلك لا يكون قد أتى شيئاً يضر بمصلحة أسرته الحاكمة . وربما كان هذا هو البرنامج الذي وضعه عمر بن عبد العزيز ، فهو قد حاول أن يجد في الإسلام أساساً مشتركاً بين الجميع ، يمكن أن تلتقى عنده الحكومة والقوى المتحفزة الطامحة المعادية لها . وهو ، تمسكاً مع هذه الغاية ، سار على سياسة التفاهم والتصالح . ولم يكن عمله في ذلك مقصوداً على الموالى وحدهم ، فقد حاول أيضاً أن يزيل أسباب التذمر في الأمصار ، وخصوصاً حاول أن يزيل ما كان في نفوس أهل العراق من شعور بأنهم تحت حكم رياسة شامية أجنبية عنهم ، وكان يبره يتسع للجميع على سواء ، بل كان يظن أنه يستطيع لإرضاء الخوارج بمناظرته إيتاهم في آرائهم^(١) ، وهو قد نجح على الأقل في أن جعلهم يغمدون سيوفهم ما امتدت حياته . ولم يكن يعاقب المجرمين السياسيين ، على حين أنه كان شديداً على غيرهم من المجرمين ، وقد أثبت بره بالعلوين ، ورداً إليهم ما كان قد أخذ منهم من ممتلكات . وفعل مثل ذلك مع ورثة طلحة ، وترك لعن على بن أبي طالب على المنبر ، وكتب بذلك إلى الآفاق^(٢) أما القول بأنه كان يعترف في أعماق نفسه بصحة دعوى العلوين في الخلافة فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك^(٣) ولا يصح تصديقه . لقد كان عمر بن

(١) [راجع في هذا الطبري مثلاً (ج ٢ ص ١٣٤٨ - ١٣٤٩) ، حيث طلب عمر من رئيس من رؤساء الخوارج أن يناظره - المترجم] .

(٢) الأغاني ج ٢ ص ١٥٣ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٦ ، ويشك فايل Weil في صحة هذه المسألة شكاً ليس له مبرر ، وذلك أنه ، حق بعد عمر ، لم يصدر أمر رسمي بلعن على (الطبري ج ٣ ص ١٤٨٢ - ١٤٨٣) .

[أراد سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان أن يزين هشام بن عبد الملك ، وهو يحج بالناس سنة ١٠٦ هـ ، لعن على بن أبي طالب ؛ فنقل كلامه على هشام ورد عليه قائلاً : ما قدمنا لشتم أحد ولا لامته ! قدمنا حجاجاً . قلم يقع ما طلبه حفيد عثمان في نفس هشام إلا موقعاً سيئاً - المترجم نقلاً عن الطبري في الموضع المشار إليه] .

(٣) يميل الفصل المعقود لعمر في كتاب الأغاني إلى تصويره شيعياً مستتراً ؛ ولكن يستطیع الخوارج ، وهم من الشيعة على طرفي نقيض ، أن يعتبروا عمر بن عبد العزيز منهم .

عبد العزيز مسلماً من الطراز القديم ، وكان الإسلام الأول لا يؤيد في الحملة ما يدعيه الشيعة من أنهم أصحاب الحق في الخلافة : وربما كان من شأن الإسلام أن يرضى عن الأمويين أيضاً — رغم أن أصل سيادتهم لم يكن متفقاً مع القانون — لو أنهم بعد ذلك لم يخالفوا الإسلام . وقد شهد المنصور العباسي لعمر بن عبد العزيز بأن أعماله مرضية في جملتها ، ولكنه كان يرى أن عمر كان أموياً ، لأنه تمسك بتقديم أهل بيته (الطبري ج ٢ ص ٥٣٤) (١) .

وهذا هو حكم صاحب كتاب الصلة لتاريخ ايزيدور (الفصل ٣٨) على عمر بن عبد العزيز :

Hamer in exercitibus nihil satis prosperum nec quicquam adversum peregit, tantae autem benignitatis patientiae fuit, ut hactenus tantus ei honor lausque referatur, etiam ab externis quantus ulli umquam viventi, regni gubernacula praeroganti adlatus est. (٢)

ومهما يكن من شيء فقد كانت أغراض عمر أغراضاً طيبة ، وربما لم تكن

(١) [هذا ما يقوله المؤلف بحسب ما فهمه من النص الذي اعتمد عليه ، وهو من حيث الفكرة صحيح بعض الشيء ، أما ما يؤخذ من النص فهو هذا : وهو أن المهدي جلس للمظالم ، فتقدم إليه رجل من آل الزبير يطلب رد ضيعة كانت له عن أبيه واصطفاها بعض ملوك بني أمية ، فلما أمر المهدي بالبحث عن حقيقة أمرها في الديوان العتيق أتضح أن أمرها قد عرض على عدة منهم لم يروا ردها إليه ومنهم عمر بن عبد العزيز . فقال المهدي : يا زبيرى ! هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو منكم معشر قریش ، لم يَرَّ رَدُّها . قال : وكل أعمال عمر ترضى ؟ قال : وأى أعماله لا ترضى ؟ قال : منها أنه كان يفرض للسقط من بني أمية في خرقه في الشرف من العطاء ، ويفرض للشيخ من بني هاشم في ستين . قال للمهدي : أكذلك كان يفعل عمر ؟ قيل : نعم . فقال : أردد على الزبيرى ضيعته . يتبين من جملة هذه الحكاية حسن ظن المهدي بعمر بن عبد العزيز ورضاه عن أعماله ، لكن ما يعاب على عمر من أنه كان يحابي الأمويين إنما جاء من جانب الزبيرى في معرض نقده لأعمال عمر التي أراد المهدي أن يعتبرها صواباً كلها . ويدل السياق على أن النقد جاء على لسان الزبيرى . — المترجم نقلاً عن الطبري ج ٣ ص ٥٢٤] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : « إن عمر لم يقيم فيما يتعلق بتسيير الجيوش لا بما جلب نصراً ولا بما جبر نكبة ، لكنه كان رجلاً له من الرقة والحلم ما استحق له التقدير والثناء حتى من الأبعاد ، وقد نال من ذلك ما لم ينله حتى يطع إلى الملك — المترجم] .

أيضاً بعيدة عن الحكمة ، ولا يمكن التكهن بما كان سيحقق من أعمال ، لأن خلافته لم تدم إلا نحو عامين ونصف ؛ فقد توفي عن تسع وثلاثين عاماً في يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ (٩ فبراير سنة ٧٢٠ م) في الخناصره ، قرب دمشق . ويقول أبو عبيدة إن الأمويين دسّوا إليه من سقاه السم ، لأنهم خافوا من أن يستمع إلى الخوارج ، فيخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد ، مخالفاً في ذلك لما عهد به سليمان بن عبد الملك من أن يكون يزيد هو الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز (١) . ولكن المؤرخين القدماء الذين يعول عليهم لا يذكرّون هذه الرواية وهي لا تنمُّ إلا عن الأسف من أن عمر بن عبد العزيز المصلح قد اختُرم وفارق الدنيا قبل الأوان ، وأن النظام الذي كان سائداً قبله عاد من جديد .

(١) [تختلف الروايات في تاريخ ومكان وفاة عمر بن عبد العزيز ، وهي موجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٦١ فابعداها) ، وعند المسعودي في كتاب التنبية والإشراف مثلاً ص ٣١٩ من طبعة ليدن . أما مسألة أن الأمويين دسّوا إليه من سقاه السم فهي موجودة عند الطبري ج ٢ ص ١٣٤٨ - ١٣٤٩ . وهي تتلخص في أن بعض الخوارج ثاروا في عهده ، فكتب عمر إلى زعيمهم : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ، ولست أولى بذلك مني ، فهل أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يديك نظرنا في أمرنا . فبعث الزعيم الخارجي رجلين لمناظرة عمر ، فكان ما اعترضنا به عليه أنه أقر يزيد بن عبد الملك لكى يلى الخلافة بعده . فقال لهما : صبره غيبي ، فقبل له : أفرأيت لو وليت مالا لمترك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه ، أترأى كنت أدبت الأمانة إلى من اثمتك ؟ فقال عمر : أظفاني ثلاثاً . وخرج المذويان الخارجييان من عنده . وخاف بنو مروان أن يخرج ما عندهم وفي أيديهم من الأموال وأن يخلع يزيد ، فدسّوا إليه من سقاه سما ، فلم يلبث عمر إلا ثلاثة أيام حتى مات . فالظاهر أن عمر اقتنع باعتراض هؤلاء الخوارج وأراد التفكير فيما يصنع - المترجم] .

الفصل السادس

المروانيون المتأخرون

١ - كان يزيد بن عبد الملك حفيداً ليزيد بن معاوية من طريق ابنته عاتكة التي تزوجها عبد الملك ، وكثيراً ما يُنسب إلى أمه النامية ، فيسمى يزيد بن عاتكة^(١) . وكان يحس أنه أشرف من بقية بني مروان ، وكان يباهى بما يجرى في عروقه من دم سفياني . والحقيقة أن عرفاً من جده لأمه كان ينبض عليه ، وإن كان لم يرث من جده رفته وتألفه مع الناس .

ولم يكد يرتقى عرش الخلافة حتى كانت كائنة صار لها تأثيرها الحاسم في حكمته وفي العصر التالي له . فقد كانت ليزيد بن عبد الملك صلات وثيقة بالحجاج ، وهو تزوج ابنة محمد بن يوسف أنحى الحجاج نفسه ، فأنجبت له في حياة الحجاج ابنه الوليد الذي صار خليفة فيما بعد ، وقد أسمت ابنها الأول الذي توفي الحجاج على اسم خاله . ومن جراء ذلك كان يزيد بن عبد الملك يبغض يزيد بن المهلب ؛ وكان يزيد هذا والياً على العراق ، وقد عذب آل الحجاج . وكان يزيد بن المهلب من المستظلمين بظل سليمان بن عبد الملك ، فلما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة لم يتوقع ابن المهلب منه خيراً^(٢) . فهرب من السجن الذي كان حبسه فيه عمر بن عبد العزيز إلى أن يقضى الأموال التي كان كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك أنها صارت إليه عند

(١) كانت لا تزال في ذلك العهد تعلق قيمة كبيرة على ميلاد الرجل من أم كريمة ، وكانت أم مسلمة بن عبد الملك جارية غير عربية ، ولذلك لم ينظر إليه الترشح للخلافة رغم أنه كان رجلاً كفواً وحاذقاً ورغم أنه كانت له في أسرة الأمويين أرفع مكانة .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٥٩ - ١٥ ص ١٣٦٠ - ٢ ص ١٣٦٠]
١١ ، حيث يعبر ابن المهلب عن خوفه من يزيد بن عبد الملك - المترجم] .

فتحجه جرجان وطبرستان (١) ، ويقول الواقدي إن يزيد لم يهرب من السجن إلا بعد وفاة عمر (٢) . أما أبو مخنف ، وهو عمدة الرواة الذين اعتمد عليهم الطبري ، فيقول إنه هرب بعد أن علم بأن المرض قد ثقل على عمر ، وقصد يزيد البصرة ، موطن أسرته من المهالبة وموطن قبيلته أزد عمان . وقد مر في طريقه بقبيلة قيس ، فأتبعوه ، ولكن ردهم عنه الهذيل بن زفر ، وبعث إلى الكوفة جماعة من شرطة الكوفة ووجوه الناس وأهل القوة فيها ليعرضوا له ، ولكنه مرّ غير بعيد منهم ، فأشفقوا من الإقدام عليه . ومضى حتى ظهر أمام البصرة في كتيبة كبيرة من أصحابه الذين أقبل فيهم ومن رجال من أهل بيته ومواليه ، جمعهم أخوه محمد بن المهلب وخرج بهم لاستقباله . وكان عدى بن أرطاة الفزارى إلى الكوفة قد قبض على من وصلت إليه يده من آل المهلب ، وخرج مع قبائل البصرة ، فوقفوا أمام المدينة لكي يمنعوا ابن المهلب من دخولها ، ولكنه لما أقبل جعل لا يمر بخيل من خياله ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن السبيل . واستقبله المغيرة بن عبد الله الثقفي في خيل ، فحمل عليه محمد بن المهلب في الخيل ، فأفرج له عن الطريق . فدخل ابن المهلب البصرة ، وأقبل حتى نزل داره ، واختلف إليه الناس ، ومن الواضح أن الخليفة الجديد لم تسبق خلافته سمعة طيبة ، ويظهر أنه لم يكن من جند الشام لا في البصرة ولا في الكوفة العدد الكافي ، ويجوز أن يكون عمر بن عبد العزيز قد أعادهم إلى الشام من قبل .

وقد بدأ يزيد بن المهلب بمفاوضة عدى بن أرطاة أمير البصرة في أن يُفرج عن بني المهلب الذين كان قد حبسهم في القصر بالبصرة ، وذلك في مقابل أن

(١) زدنا كلمات على الأصل الألماني ، أخذناها من التنبيه للمسعودي (ص ٣٢٠ - ٣٢١) ، زيادة في الإيضاح - المترجم] .

(٢) تجد ذلك في الطبري ج ٢ ص ١٣٦١ س ٢ - ٣ . وتجد قصة ابن المهلب وما كان منه عند الطبري ج ٢ ص ١٣٥٩ - ١٣٦١ ص ١٣٧٩ وص ١٤١٦ - المترجم] .

يصالحه على البصرة ويخليه وإياها ، حتى يأخذ لنفسه ما يجب من يزيد بن عبد الملك ؛ فلما لم يقبل عدى جعل ابن المهلب الحكم لل سيف : وقد انضمت إليه قبائل اليم ، أعنى الأزدربيعة ، وكانوا متحالفين في البصرة وفي خراسان : وكان ابن المهلب قد استمال الناس بما فرق فيهم من ذهب وفضة ؛ أما قبائل تميم وقيس - وكانوا منذ القدم ينافسون قبائل اليم - فإنهم كانوا في جانب الوالى ، ونظراً لأن الوالى لم يكن جواداً بالأموال ، لأنه لم يكن يستحل أن يمد يده إلى بيت المال (١) ، فإن أنصاره من قيس و تميم ، بل وبعض جند الشام ، تراخوا وتفرقوا عنه عند أول صدام بين الفريقين ؛ وفر عدى منهزماً ، فحوصر في القصر . وكان المهالبة محبوسين هناك أيضاً ، فلما سمعوا الأصوات تدنو والنشاب تقع في القصر علموا أن أخاهم قد ظهر ، ونخشوا أن يقتلهم أنصار عدى ، فأغلقوا الباب عليهم ووضعوا خلفه الأمتعة وانكروا على الباب . وجاء أعداؤهم وعالجوا الباب فلم يستطيعوا الدخول ، حتى أعجلهم أنصار ابن المهلب ، فتفرقوا . وبعد أيام قليلة سقط القصر في يد ابن المهلب ، وأسر عدى بن أرطاة ، وجيء به إلى ابن المهلب ، وهو ييتسم ، لأنه كان واثقاً من أن الثوار لن يمسوا له شعرة واحدة خوفاً من جند الله (أعنى جند الحكومة) في الشام (٢) .

(١) [جاء في الطبرى (ج ٢ ص ١٣٨٢ - ١٣٨٣) أن ابن المهلب كان يقطع لمن يأتيه من الناس قطع الذهب والفضة ، وأن عدى بن أرطاة كان لا يعطى إلا درهمن درهمين ، ويقول لأصحابه : لا يحل لى أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك ، ولكن تبلفوا بهذا حتى يأتى الأمر فى ذلك - وللفرزق أبيات فى هذا - المترجم] .
(٢) [جىء إلى ابن المهلب بعدى بن أرطاة ، وهو ييتسم ، فقال له ابن المهلب : لم تضحك ؟ فوالله لينبغى أن يمنعك من الضحك خصلتان : إحداها الفرار من القتل الكريمة ، حتى أعطيت بيدك إعطاء المرأة بيدها ، والأخرى أنى أتيت بك تتل كما يتل العبد الآبق إلى أربابه ، وليس معك منى عهد ولا عقد ، فإيؤمئك أن أضرب عنقك ؟ فقال له عدى : أما أنت فقد قدرت على ، ولكنى أعلم أن يتأذى يتأؤك ، وأن هلاكى مطلوب به من جرته يده ؛ إنك قد رأيت جشود الله بالمغرب وعلمت بلاء الله عندهم فى كل موطن من موطن الغدر والنكث ، فتدرك فلنتك وزانك بالتوبة واستقالة العثرة قبل أن يرى إليك البحر بأمواجه ! ... المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ١٣٨٥ فما بعدها] .

وكان مُحَمَّيْدُ بن عبد الملك بن المهلب ، لما ثار عُمُه ، قد ذهب إلى يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه بالأمان للمهالبة جميعاً ، ولكنه لما أقبل بالأمان ، ومعه نخالد بن عبد الله القسري وعمرو بن يزيد الحكمي ، كان يزيد بن المهلب قد انتصر وقتل القتلى وحبس عدى بن أرطاة وجاهر بالدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وحث الناس على الجهاد ، وكان يزعم أن جهاد أهل الشام أعظمُ ثواباً من جهاد الترك والديلم (١) . فهو قد أراد أن يتخذ من الإسلام قوة يَشْتَدُّ بها أزره . ولكن كان في البصرة رجلٌ تَجَرَّأ على أن يرفع صوته معارضاً ليزيد ، وذلك هو الحسن البصري ، صديق عمر بن عبد العزيز . فقد كان الحسن يُشَبِّطُ الناس عن الفتنة ويخصمهم على أن يكفوا أيديهم عن قتال على دنيا زائلة وأن يكتفوا بالإقبال على الله وعظيم ثوابه في الآخرة : وقد اتهم الثوار الحسن بأنه موال لأهل الشام وبأنه الشيخ الضال المرأى ؛ فقال فيه مروان بن المهلب مثلاً : « والله لو أن جاراً له نزع من خُصٍّ داره قصبة (٢) لظل يعرف أنفُسَه ، أيسكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب خيرتنا وأن ننكر مظلمتنا ! » . ولكن الحسن لم يكف عما كان يفعل ، وهو لم يُفَسِّسْ عن رأيه كما لم يُفَسِّسْ إرميا النبي في موقف مشابه لموقفه ، بل هو مضى في سبيله محاولاً أن يشبِّط من استمع إليه عن الاشتراك في الفتنة ؛ وقد كان له تأثيرٌ خصوصاً على الموالي في بعض القرى القريبة من البصرة (٣) . على أن الحسن ، بفصله بين الدين والسياسة في الدولة التيوقراطية ، قد

(١) [هذا هو مضمون خطبة ليزيد بن المهلب (الطبري ج ٢ ص ١٣٩١) . أما بيعته (الطبري ج ٢ ص ١٣٩٨) فكان يقول لمن يبایعه : " تبایعون على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى ألا تطلأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ولا تعاد علينا سيرة العاسق الحجاج ؛ فمن بایعنا على ذلك قبلنا منه ومن أبى جاهدناه وجعلنا الله بيننا وبينه " . فإذا قالوا : نعم ، بایعهم — المترجم] .

(٢) كانت الدور العادية في البصرة تبنى من التصب .

(٣) [ولذلك يقول عنه مروان بن المهلب : وأيم الله ليكفَّن عن ذكرنا وعن جمعه إلينا سقاط الأبله وعلوج فرات البصرة ، قوم ليسوا من أنفسنا ولا من جرت عليه النعمة من أحد منا ، أولئحين عايه مبرداً خشناً — المترجم] .

اتخذ موقفاً شاذاً (٢) ، ولم يكن أتباعه من ذوى النباهة ، وإلا لكان من الصعب أن يسكت عنه ابن المهلب . وقد اتبع عامة المؤمنين في البصرة ، وعلى رأسهم القراء ، دعوة يزيد ، وتبعهم عدد كبير من الموالى ، وبهذا تضخم عدد أنصاره تضخماً كبيراً . ولكن هذه الجموع الكثيفة لم تكن لها مهارة حربية بقدر ما كان لها من كثرة العدد ، ثم تبين أن الإسلام حليف صعب القياد .

وغلب ابن المهلب على البلاد التابعة للبصرة مثل الأهواز وفارس وكرمان ، ولكن لم تنضم إليه خراسان . وهى ولايته القديمة التى فيها قومه ، وذلك لأن قبائل تميم هناك لم تتمكن الأزدي من أن تتحرك . وقد أشار على ابن المهلب أخوه حبيب وغيره أن يخرج من العراق حتى ينزل فارس ، فيأخذ بالشعاب والعقاب ، ويدنو من خراسان ويطاول أعداءه ، وفى يده القلاع والحصون ، ويكون الناس قد انضموا إليه . ولكنه لم يرد أن يترك العراق أمام جند الشام ، وكانوا :

(١) [لاشك أن أهل الدين كانوا دائماً معارضين لأساليب بنى أمية ولأساليب عمالهم فى الحكم ، وكثيراً ما كان عمالهم يفتقضون عليهم ، وكأنما كانوا يحسون أن لهم الحق فى ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٤٠٠) . أما موقف الحسن البصرى فهو يحتاج إلى تأمل ، فقد كان صديقاً لعمر بن عبد العزيز ، وكان عمر يكره المهالبة ويقول إنهم جبايرة . ولعل الحسن أيضاً كان يكره المهالبة للسبب الذى كرههم له عمر من قبل ، والدليل على ذلك أنه وصف من اجتمع ليزيد بن المهلب بأنهم عتاة ، وأنه كان يرى فى يزيد بن المهلب أنه غير صادق فيما يدعوا إليه من الكتاب والسنة ، وأن الأولى به أن يوضع قيد فى رجليه ويرد إلى محبس عمر الذى حبسه فيه . ولكن لم يكن معنى ذلك أن الحسن البصرى كان راضياً عن أهل الشام ، فقد دفع عن نفسه هذه التهمة دفماً صريحاً (الطبرى ج ٢ ص ١٣٩١ - ١٣٩٣) . ولما كان الحسن يعتقد أن ثورة ابن المهلب ليست لله فقد دعا الناس إلى الكف عنها وعن الفتنة . وقد عجب الحسن للضر بن أنس بن مالك كيف غره ما يقول ابن المهلب من دعوة إلى الكتاب والسنة ، مع أنه كان بالأمس يضرب أعناق الناس إرضاء لبني مروان . ولا شك أن الحسن كان يمتدح المهالبة ، وإن كان ليس هناك ما يمنع أن يمتدح الفتنة خصوصاً من أجل الباطل ، ولولا أن نفثة الزهد والدعوة إلى ترك النزاع على الدنيا والإقبال على الله كانت هى الغالبة فى كلامه لكان الإنسان على حق فى رفض ما يقوله المؤلف من أن الحسن فصل بين الدين والسياسة . فربما كان العكس هو الصواب ، لأن الحسن اشترك فعلاً من طريق تثبيطه الناس عن الدخول فى فتنة لم يتوفر لها السند الدينى الصادق ، راجع أيضاً الطبرى ج ٢ ص ١٤٠٠ - ١٤٠١ - المترجم] .

قد تقدموا نحوها بل أراد أن يسبقهم إلى الكوفة بقدر الإمكان . وفي آخر سنة ١٠١ هـ (صيف ٧٢٠ م) خرج إلى الكوفة ماراً بواسطة ، فاستولى عليها ، ثم مرّ بفهم النيل ، ووقف عند الموضع الذي يصب فيه النيل في الفرات ، في مكان كثيراً ما يسمى عقراً قريباً من بابل القديمة (١) . وقد حاول والى الكوفة الذي كان معسكراً في النخيلة دلى الشاطئ الآخر أن يأخذ على ابن المهلب طريق الكوفة ، ولكنه لم يستطع أن يمنع الكثيرين من أهل الكوفة من الانحياز إليه ، وكان منهم طائفة تحمل أبنه الأسماء العربية ، ولم يكونوا من قبائل اليمن وربيعه فحسب ، بل من قبائل تميم أيضاً .

ولم يمض غير قليل حتى ظهر على المسرح مسلمة بن عبد الملك ، قائد الحملات الحربية في آسيا الصغرى وأرمينية سنين طويلة ، فأقبل في عظيم جيش الشام ، وقد حدث من يزيد أنه عبر الفرات للقاء مسلمة وعسكر بهلدوء على مقربة منه ، وذلك أن اثنين من زعماء الفرق التي كان يتألف منها جيشه ، وكان لهما تأثير كبير

(١) بحسب البيت الموجود في كتاب التنبيه للمسعودي (ص ٣٢٢ من ١) كانت الموقعة بين بابل وعقر ، وعلى هذا فإن عقراً المقصودة كانت تقع ، شأنها شأن بابل ، على الضفة الشرقية للفرات ، ولم تكن هي عقر كربلاء التي يجب البحث عنها إلى الغرب من مدينة الهندية . على أن وصف الطريق الذي سلكه مسلمة بحسب رواية الطبري (ج ٢ ص ١٣٩٥) يثير مشكلة ، فهو يقول : " إن مسلمة أقبل يسير على شاطئ الفرات حتى نزل الأنبار ، ثم عقد عليها الحرس ، فمهر عليه من قبل قرية يقال لها فارط ، ثم أقبل حتى نزل على يزيد بن المهلب في (عقر) " . ولما كانت الأنبار على الضفة الشرقية ، فلا بد أن يكون مسلمة قد سار أولاً من هناك ، من عند بلدة الفارط إلى الغرب ، ثم قفل راجعاً إلى الضفة الشرقية ، كما فعل قحطبة فيما بعد . أما ما يقال من عبوره النهر مرة أخرى فلا يذكر الرواة عنه شيئاً ، ولكن يذكر "جسر" عبر عليه أهل الشام إلى عقر وأحرقوه وراهم . ويذهب نولدكه (Nöldke) أن عقراً (castra) هي قصر ، وهو محق في ذلك ، لأن نهر النيل القديم ، أحد روافد الفرات ، يصب في الفرات بين بلدة قصر وبين بلدة بابل ، ولأن الحصن كان يقع عند مصب النيل بين عقر وبابل . والمعلومات الجغرافية الموجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٣٩٧) غير واضحة ، وهي ليست أوضح منها عند ابن سيرابيون (B. Serapion) . لكن الطبري يذكر (ج ٢ ص ١٣٩٧) أن مسلمة قطع الماء ووصل إلى أعدائه .

على جمهور الجيش ، وهما السَّمِيعُ الكندي وأبو روثبة ، اعترضوا على مهاجمة أهل الشام ليلاً ، وقال لابن المهلب : إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد زعموا أنهم قابِلُو هذا منا ، فليس لنا أن نغدر ولا أن نريد لهم بسوء ، حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قابِلواوه منا (١) . فاضطر يزيد بن المهلب إلى الخضوع لرأيهم على كره منه ، كما خضع على بلخنده يوم صفين من قبل ، ولكنه كان قد فقد البقية الباقية من ثقلته بجنوده ، وصرح في يأس شديد بما كان يودّه من أن يكون معه قومه من أزد خراسان بدلاً من تلك الجموع التي لا محصر لها .

وفي يوم الجمعة ١٤ صفر سنة ١٠٢ هـ = السبت ٢٤ أغسطس سنة ٧٢٠ م بدأ مسالمة المهجوم ، بعد أن أحرق الجسر وراءه . ولم يثبت أهل العراق ، وكانت تميم الكوفة أول من لاذ بالفرار ، وقد شبه يزيد بن المهلب أنصاره ، وقد أنهزموا من غير كبير قتال ، ببق دُخن عليه فطار ، أو بنغم عدا في نواحيها الذئب . ولم يندهش يزيد لذلك ، وقد أشار عليه أبو روثبة بأن يرجع إلى واسط ، فيتحصن بها حتى تأتيه الأمداد ، ولكنه أنف من ذلك وآثر الموت في ميدان القتال ، فلقى الموت فيه . وقتل معه اثنان من إخوته كما قُتل السميع الكندي الزعيم الورع .

(١) إن الآراء التي ذكرها المؤلف لأحد المرجحة هي التي تضمنتها قصيدة الشاعر ثابت غطنة ، وقد أوردتها المرحوم أحمد أمين في كتابه " ضحى الإسلام " ، وهي :

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا	أن نعبد الله لا نشرك به أحدا
نُزجى الأمور إذا كانت مشبهة	وتصدق القول فيمن جار أو عدا
المسلمون على الإسلام كلهمو	والمشركون استووا في دينهم قدا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا	م الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا	سفك الدماء طريقا واحدا جددا
عن يتق الله في الدنيا فإن له	أجر التق إذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من أمره فليس له	رد وما يقض من شيء يكن رشدا
كل الخوارج مخطئ في مقاله	ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما على وعثمان فإنهما	عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا	شق العصا وبين الله ما شهدا
يجزى عليا وعثماناً بسميمهما	ولست أدري بحق أية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به	وكل عبده سيلقى الله منفردا

[المترجم]

وأُسِرَ نحو من ثلاثمائة من جيش ابن المهلب ، بعد اقتحام معسكره . وقتل بعضهم بعد ذلك ، وكان منهم طائفة من تميم ، كانوا قد انهزموا بالناس أملاً في أن يعرف لهم جند الشام فضلتهم في أنهم بانهمهم بالناس قد سهلوا على جند الشام النصر ؛ ولكن أملهم لم يتحقق ، فكانوا أول من ضربت أعناقهم . ومن جهة كان معاوية بن يزيد بن المهلب في واسط ، فلما جاءه الخبر بهزيمة أبيه أخرج اثنين وثلاثين أسيراً كانوا في يده فضرب أعناقهم ، وكان منهم عدى بن أرطاة أمير البصرة ورجال آخرون . ولم يُبق معاوية منهم إلا على رجل شيخ من قومه له شرف ومعروف ، لم ينهه ولم يستخف بغنيته .

وتفرق سواد الهاربين مع كل ربح ، ولكن المطاردين لم يتعقبوا إلا المهالبة الذين نفروا كالوحوش . وقد اجتمعوا أولاً في البصرة ، وكان معهم بعض أشرف اليمن في الكوفة وبعض سلائل ابن الأشعث ومالك الأشتر . ومن هناك ركبوا السفن ولججوا في البحر حتى نزلوا على شاطئ كerman . وبعث مسلمة بن عبد الملك في طلبهم هناك ، فحاولوا الالتجاء إلى قنديل من شاطئ السند ، ولكنهم لم يجدوا هناك سبيلاً إلى الإفلات . فقد لحقهم المطاردون ، وخرج المهالبة بأسيا فقتلوا مطارديهم ، حتى قتلوا عن آخرهم إلا اثنين نجوا ولحقا بخاقان وزنيدل . وأرسلت رؤوسهم المقطوعة إلى الشام وعُلقت في حلب ، وأُرسل نساء المهالبة وأولادهم إلى مسلمة بن عبد الملك في الحيرة . فأقسم مسلمة أن يبيع ذرية المهالبة ، مخالفاً في ذلك كل آداب الإسلام . ولكن الجراح بن عبد الله الحكمي ، وكان رجلاً من أكفأ عمال الأمويين وأخلصهم ، أنقذ ما تقضى به الآداب الإسلامية فعرض على مسلمة أن يشتريهم بمائة ألف لبر يمين مسلمة . ولكن مسلمة لم يأخذ المال ، وختلى سبيلهم إلا تسعة فتية أحدث بعث بهم إلى يزيد بن

عبد الملك ، فضرب أعناقهم . أما أموال المهالبة فقد صودرت بطبيعة الحال (١) .
وقد أسندت ولاية العراق في أول الأمر لصاحب النصر في موقعة
عقر ، وهو مسلمة بن عبد الملك ، فعين ولاية جلداء في الكوفة والبصرة
ونخراسان ، ولكنه لم يلبث أن عزل لأنه لم يرسل إلى دمشق شيئاً من
خراج العراق (٢) . وعيّن مكانه أميراً للأرمين على العراق وعلى ولايات
المشرق ^{معمّر} بن هبيرة الفزاري الذي كان في عهد عمر بن عبد العزيز
واليّاً على أرض الجزيرة . وكان قيسياً من أنقى دم في قيس ، وكانت إدارته
متمشية مع ذلك (٣) ، وقد لقيت قبائل الأزد واليمن بوجه عام ، خصوصاً
في نخراسان ، على يديه عنتاً ، فأبعدوا وأهينوا وعُدّ بـ الموالون للمهالبة
أو المهملون بذلك وأخذت أموالهم ، ولكن كانت قيس هي التي انتصرت
واستطاعت أن تشعر بأنها هي السيدة في المشرق كله ، وهي وإن كانت
متنازعة فيما بينها ، فإنها أخلصت في الاتحاد أمام القبائل الأخرى . ومما له
مغزاه في هذا الصدد حكاية يذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٣ فما بعدها) ،
وإن كانت حكاية غير جديدة بالثقة . فيحكي الطبري أن عمر بن هبيرة عين
سعيد بن عمرو الحرشي ، وكان من قيس ، على نخراسان ، فكان يستخف بأمر
ابن هبيرة ويهزأ به فيقول عنه : قال أبو المثنى ، فعل أبو المثنى . فوجه ابن
هبيرة رجلاً من قيس أيضاً ، هو معقل بن عروة ، إلى هراة إما عاملاً وإما في غير

(١) قارن أبيات جرير في تعليق رايسكه (Reiske) على أبي الفداء ج ١ ص ٢٠٧ ،
وهذه الأبيات غير موجودة في طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .
(٢) وكذلك لم يرسل عبد العزيز بن مروان إلى دمشق شيئاً من خراج مصر ، ولم
يكن ثم ما يدعوه إلى ذلك . ويجوز أن يكون مسلمة قد عين أميراً على العراق على أن تكون له
هذه المزية مكافأة له على ما أحرزه من نصر .
(٣) ويقول الفرزدق الشاعر ، وإن لم يكن يميناً بل مضى النسب ، متهاكاً بعد أن
عين ابن هبيرة الفزاري على العراق :

ولقد علمتُ لئن فزارهُ أُمّتٌ أن سوف تطمع في الإمارة أشجع
وكانت فزاره هي رأس غطفان قيس وكانت أشجع هي ذئبهم .

ذلك ، فقصده هراة دون أن يمر بالحرشى ؛ وكتب هذا إلى عامله أن يحمل إليه معتقل بن عروة ، فلما جرى به إليه سأله : ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هراة ؟ فأجاب أنا عامل لابن هبيرة ، ولأني كما ولاك ! فضربه الحرشى مائتين وحلته ، فغضب ابن هبيرة وازدادت موجدته على الحرشى ، فعزله ، ثم أسلمه إلى عدوه معتقل بن عروة فعذبه وضيق عليه ، وأمره ابن هبيرة يوماً أن يعذبه حتى يموت ، فلما أمسى ابن هبيرة جلس إلى سُمَّارِه ، كما يفعل الأمراء ، فقال « من سيد قيس ؟ » فقيل له : « الأمير » ، فقال : « دعوا هذا ! سيد قيس الكوثر بن زفر ، لو بوق بليل لوافاه عشرون ألفاً ، لا يقولون : لِمَ دعوتنا ، ولا يسألونه (١) ، وهذا الحمار الذى فى الحبس ، قد أمرتُ بقتله ، فارسها . وأما خيرُ قيس لها فعسى أن أكونه ؛ لأنه لم يعرض لى أمرٌ أرى أنى أقدر فيه على منفعة وخير إلا جردته إليهم » ، فعند ذلك قال له أعرابي من بنى فزارة : « ما أنت كما تقول ! لو كنت كذلك ما أمرت بقتل فارسها » . فلما سمع ابن هبيرة كلامه أرسل إلى معتقل بن عروة يأمره بالكف عما كان أمره به من تعذيب الحرشى حتى يقتله . ثم تغير وجه الصحيفة بعد حين ، فاضطر ابن هبيرة إلى الهروب من خالد بن عبد الله القسرى ، وأرسل خالد عدوه الحرشى فى طلبه ، فلما لحقه الحرشى ، وهو فى سفينة يريد أن يقطع الفرات ، سأله : أبا المثنى ! ما ظنك بى ؟ فأجاب : ظنى بك أنك لا تدفع رجلاً من قومك (قيس) إلى رجل من قريش (قسر) ؛ فقال : هو ذاك فالنجاء !

وكان لشبح الحجاج بعد موته من التأثير ما يصعب أن تتقرر به عينه . وذلك أنه بسبب عداوته فى حياته لابن الأشعث وابن المهلب قد زاد فى حدة النزاع بين

(١) يوصف زفر بن الحارث رئيس قيس فى أرض الجزيرة دائماً بأنه رجل نبيل بنوع خاص ، وبأنه كان فوق المنافسات السياسية ، وقد ورث ابنه : هذيل وكوثر ، ما كان له من جاه ، وكان لها احترام كبير عند الخليفة . قارن الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠ و ١٣٦٠ فما بعدها ، والأغانى ج ١٦ ص ٤٢ وديوان القطاى الذى يقوم الآن بارث (Barth) بنشره .

قبائل قيس وقبائل اليمن : وقد أدى إلى ذلك تحيز الخلفاء ، أياً كان الجانب الذى مالوا إليه . ثم جاء يزيد بن عبد الملك ، فنكأ ، لاعتبارات أخرى ، ذلك الجرح الذى أحدثه سليمان والذى لم يكن فى أيام حكم عمر ابن عبد العزيز قد اندمل إلا قليلا . وتأثر يزيد بن عبد الملك بالحجاج ، فارتاب بالمهالبة ، وكان يكنّ لهم فى قلبه بغضاً ، وكان تخوفه وارتياحه من مظالمهم فى المشرق لها ما يبررها ، وكانت ثورتهم سبباً فى انفجار هذا البغض . ولكن إفناء جميع أفراد ذلك البيت القوى النابه ، وهو فَعْلَةٌ لم يسمع بمثلها فى طول تاريخ الدولة الأموية ، كان بمثابة إعلان الحرب على قبائل اليمن . وكانت نتيجة ذلك أن حكومة بنى أمية انقلبت حزباً يحكم باسم قيس . وكان الخليفة هو الذى يحمل الوزر فى ذلك ، وقد عين ابن هبيرة أميراً على العراق وتركه فى ميدان إمرته الواسع يفعل ما يشاء ولم يكن من شيء قد بعثه على ذلك إلا مجرد الرغبة فى الانتقام ، وكان بعيداً عن أن يكون رجلاً سياسياً يدرك مصالح الدولة ، ولم يكن يدرك مدى النتائج السياسية ، لأعماله . أما فى الشام فإنه لم يحاب قيساً على قضاة ، لأن قضاة كانت نواة الجيش الذى انتصر فى موقعة عقر ، وكان الذى قتل يزيد بن المهلب ، عند ما جاء لقتال مسلمة بن عبد الملك ، رجلاً ، من كلب ، وكان الكلبيون هم الذين تعقبوا المهالبة الماريين واستأصلوا شأفتهم .

وقد ابتعد يزيد بن عبد الملك كل البعد عن سياسة التقريب والمصالحة التى جرى عليها عمر بن عبد العزيز قبله مباشرة . ويقول ابن الأثير (ج ٥ ص ٥٠) إنه « صمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه » ، ولم ينجف شناعة عاجلة ولا إثمًا آجلاً . وهو لم يكذب على الخلافة حتى عين ولاية جنداً على المدينة وإفريقية من غير أن يُقدّم من فوره على إحداث تغيير منظم وشامل . وأخذ أهل السغد الذين دخلوا الإسلام بأداء الجزية ، بعد أن كان عمر بن عبد العزيز قد وعدهم بأن يُسقطَ عنها عنهم . وفعل مثل ذلك مع البربر يزيد بن

أبي مسلم^(١) حامله على إفريقية ، ولكن البربر تأمروا عليه وقتلوه وولوا على أنفسهم الوالى الذى كان عليهم قبله ، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك يبلغونه ذلك رسمياً : إنا لم نخاف أيدينا من الطاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى الله والمسلمون ، فقتلناه وأعدنا عاملك قبله . فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم ، وأقر عاملهم السابق على إفريقية^(٢) . وكان يزيد لا يمنع ولاته إذا ما تجاوزوا ما أمرهم به ، وكان ضعيفاً قليل الاهتمام والاكتراث بأمور الحكم . وإذا كان قد خاف عمر بن عبد العزيز ، فإنه لم يفعل ذلك بباعث من السياسة ، ولا عن قصد . وهو عند ما كان يريد أن يصلح من أمر نفسه أراد أن يتشبه بعمر بن عبد العزيز (الأغاني ج ١٣ ص ١٥٧) ، ولكن طبيعته كانت تختلف كل الاختلاف عن طبيعة عمر ولم تكن الصفة الغالبة عليه تتمثل في الزهد والتحرر من الإثم مما هو معروف عن عمر ، بل كانت تغلب عليه خفة الأرسطراطيين^(٣) . وهو قد كان نبيلاً فارساً وفقى سيداً أكثر منه حاكماً ، قترك الولايات لأمرائها ولم يهب وقته لأمور الدولة ، بل للهوى والغناء والشراب . ولذلك نجد أهل العبث الذين كان عمر بن عبد العزيز قد أقصاهم يعودون إلى الخطوة والمكانة الشريفة عنده . وهو لم يكن كثير المراحة لكرامة البيت الذى كان يمثل ، بل هو لم يكلف نفسه مؤونة المحافظة على مظهر الخلافة ؛ ولقد لعبت مغنيتان ، هما : سلامة وحبابة ، دوراً كبيراً في هلاطه ، وكان

(١) [كان يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج ، ويظهر أنه أراد أن يسير سيرته في رد من لحق بالمدن من مسلمى الموال إلى قراهم ورسائيقهم وفي وضع الجزية على رقابهم ، كما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم (راجع الطبرى) ج ٢ ص ١٤٣٥ - المترجم] .
 (٢) الطبرى ج ٢ ص ١٤٣٥ . ويقول البلاذرى (ص ٢٣١) إن الذى قتل الوالى هم حرسه من البربر ، لأنه أراد أن يسم كل امرئ منهم على يده : حرسى .
 (٣) [يصنفه المسعودى في التنبيه (ص ٣٢٠) بأنه كان فخوراً متكبراً يحب اللهو ، لا يعرف صواباً فيأتيه ولا خطأ فيدعه - المترجم] .

من يريد يلوغ شئ بلجاً إليهما . ويروى أن ابن هبيرة نفسه قد وصل من هذا الطريق إلى المنصب الرفيع الذى وصل إليه (ابن الأثير ج ٥ ص ٧٥) فبعدها والأغاني ج ١٣ ص ١٥٧ . وقد جزع على موت حباية جزءاً أخرجه عن كرامته ، حتى أن مسلمة بن عبد الملك رجاء ألا يظهر فى الناس على الأقل فى هذه الحالة التى لا تليق بخليفة . وقد مات بعد حباية بسبعة أيام ؛ وظن الناس أنه مات كمدأ على فقد فتاته المحبوبة (١) .

يحكى تيوفانيس أن عمر بن عبد العزيز كان يطمح إلى أن يدخل القيصر ليو (Leo) فى الإسلام ، وهو يحكى فوق هذا أن يهودياً عراًفاً من أهل اللاذقية قال ليزيد بن عبد الملك إن خلافته ستمتد أربعين عاماً إن هو كسر الصور التى فى الكنائس النصرانية بمملكته ؛ ويمضى تيوفانيس فيقول إن ذلك بعث يزيد على إصدار أمر عام بتحطيم الصور المقدسة ؛ ولكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب موت يزيد بعد ذلك بقليل ، بل إن هذا الأمر لم يبلغ إلا دوائر ضيقة ؛ ولكن القيصر ليو كان على هذا رأى الشنيع المخالف للدين ؛ وقد قواه فى ذلك نصراني اسمه بشر ، على أسماء العرب ؛ وكان وهو أسير حرب فى الشام قد اعتنق الإسلام ، ثم ارتد عنه بعد أن أطلق ولكنه بقيت فى نفسه آثار منه ، وهذا ما يقوله تيوفانيس ؛ ولكن مما يدعو إلى الشك الكبير فى وجود هذا الأمر الشيطاني الذى يقال إن الخليفة أصدره أنه لم يعرفه إلا الأقل من الناس ؛ أما مجرد ما يقال من أن يهودياً تنبأ للخليفة بأن تمتد خلافته أربعين سنة فهو موجود عند الطبرى أيضاً (٢) ؛ ولكن النبوءة لم تتحقق ؛ فلم تدم خلافة يزيد الثانى إلا أربع سنين . فقد توفى يوم الجمعة لخمس ليال يقين من شعبان سنة ١٠٥ هـ (٢٦ يناير سنة ٧٢٤ م) فى

(١) [يجد القارئ أخبار حباية ويزيد فى كتاب الأغاني (ج ١٣ ص ١٥٤ - ١٦٦) ، وهى مفصلة تفصيلاً كافياً ، كما يجد شيئاً من ذلك عند الطبرى (ج ٢ ص ١٤٦٤ - ١٤٦٦ - المترجم] .

(٢) [الطبرى ج ٢ ص ١٤٦٣ - ١٤٦٤ - المترجم] .

البلقاء من أعمال دمشق^(١) . وتختلف الروايات في عمره بين ثلاثة وثلاثين وبين أربعين عاماً .

٢ - وكان يزيد قد جعل ولاية العهد لأخيه هشام ثم لابنه الوليد بن يزيد من بعده ، ويلاحظ المؤرخ الإسباني الذي كتب مكملاً لتاريخ إيزيدور أن :

Talis enim inter Arabes tenetur perpetim norma, ut nonnisi cunctas regum successiones prerogative a principe percipiant nomina, ut eo decidente absque scandala adeant regiminis gubernacula. (٢)

ومما يستلفت النظر في الحقيقة ترتيب ولاية العهد من طريق الوصية ، وقد سُمي هشام بن عبد الملك باسم جده لأمه : هشام بن إسماعيل الخزومي ، وقد حابى أخواله . وهو تسلم شعار الخلافة ، وهو العصا والخاتم ، في الرصافة^(٣) ، وهي مدينة كانت قد بنى الروم على حافة صحراء الشام ، غير بعيد من الرقة ، وكان قد جدد بناءها ، وكان - وهو خليفة - يؤثر الإقامة بها ، لأنه كان يكره هواء دمشق خوفاً من الطاعون . وتلقى هشام البيعة في العاصمة . وكان قليل الشبه بأخيه . فكان بعيد النظر متيقظاً طيب السيرة : وأول صفاته أنه كان يعرف كيف ينجح في مشروعاته ، ولكنه كان يختلف اختلافاً كبيراً عن عمر بن

(١) [يقول المؤلف إنه توفي يوم الأربعاء في إربد من أعمال شرق الأردن ، وهو هذا يخالف ما عند الطبري ج ٢ ص ١٤٦٣ وفي التنبيه للمسمودي ص ٣٢٠ - المترجم] .
(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : وهكذا كانت القاعدة المرعية بين العرب دائماً ، بحيث تكون وراثته العرش من حق الخليفة ؛ فهو الذي يعين من يأتي بعده ، حتى إذا مات وصل من بعده إلى دفة الحكم من غير غدر - المترجم] .

(٣) [يقول الطبري خلافاً لذلك إنه تسلمها في حمص (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٣ ص ١٦)] لا يقول الطبري في هذا الموضع أكثر من أنه لما مات يزيد كان هشام في حمص . ويذكر الطبري (ج ٢ ص ١٤٦٦ - ١٤٦٧) أن الخلافة أتت هشاماً وهو بالزيتونة في منزله في دويرة له هناك . فجاهد البريد بالعصا والخاتم . وسلم عليه بالخلافة ، فركب هشام من الرصافة حتى أتى دمشق - المترجم] .

عبد العزيز ، ولم يكن عنده شيء على الإطلاق من تلك الروح المثالية المعروفة عن عمر (١) .

وكان أول ما فعله أن كسر شوكة القيسيين الذين كانت قد أخذتهم العزة بالإثم في المشرق ، فعزل عمر بن هبيرة وعين مكانه خالد بن عبد الله القسري في شوال سنة ١٠٥ هـ (مارس سنة ٧٢٤ م) ، وبذلك صار على العراق واليمن أن يُعتبر في عداد زياد والحجاج إلى حد ما . وشخصه يثير من عطفنا عليه أكثر مما يثيره شخص الخليفة نفسه ، وإن كنا نعلم عن سقوطه وما جر من نكبات أكثر مما نعرف عن أعماله أيام ولايته .

كان خالد بن عبد الله القسري قد بدأ حياته في عهد الحجاج ، وأرسل بناء على سعي الحجاج إلى مكة في سنة ٩١ هـ ، لكي يتحول بين أهل الشقاق والفتنة من سكان العراق وبين أن يتخذوا البيت الحرام مأوى لهم . وقد قام بهذه المهمة بأن حرّم على الناس إيواء أهل الفتنة وجعل أصحاب الدور مسئولين عمن ينزل فيها . وقد نال التقدير إلى جانب هذا في البلاد المحيطة بمكة لما قام به من إجراء المياه فيها ، لكنه لم ينل من الشكر على ذلك أكثر مما ناله پيلاتوس (Pilatus) على مثله في بيت المقدس . ونظراً لأنه كان من صنائع الحجاج فإن سليمان بن عبد الملك عزله ، ولم يسند إليه بعد ذلك عمل ؛ حتى رفعه هشام ، وعهد إليه بأهم منصب في الدولة وقد جعل خالد مقر ولايته في واسط ، كما فعل الحجاج من قبل ، وتفرغ للأعمال السلمية . ويظهر أنه كان رقيق الطبع لين الجانب ، وإن كانت لم تعوزه الهمة (٢) .

(١) يجد القارئ شيئاً كثيراً من سيرة هشام عند الطبري ج ٢ ص ١٧٣٠ - ١٧٤٠ - المترجم] .

(٢) يقول فايل (Weil, I, 620) معتمداً على الطبري : إن خالداً عامل الوالي الذي كان قبله معاملة قاسية وإنه قتله أخيراً ؛ ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد في طبعة ليدن لكتاب للطبري ، أما الذي عند الطبري فهو أن ابن هبيرة أفلت من طلب خالد إياه وأنه عاد إلى وطنه قسريين ، فوقع في يد الخليفة فأمر بحملده مائة سوط ، ولكنه رغم ذلك غضب كل الغضب . =

ولم يكن يعتبر في عداد أهل الحرب ، بل كان يعتبر من أجبن الناس . وكان الناس ينعون عليه أنه كان مرة على المنبر ، فجاءه خبر ثورة قام بها الشيعة في الكوفة ، فدهش وتحير ، فقال : « أطعموني ماء » . وتبين فيما بعد أنه لم يهلك في هذه الفتنة سوى ثمانية من الفرس . على أنه لم تكن هناك إلا مناسبات قليلة تدعو خالداً إلى إخراج السيف من قرابه . وفي أواخر لمرته حدثت بعض الفتن من جانب الشيعة والخوارج ولكن واحدة منها فقط هي التي اتخذت صورة ذات بال^(١) . وعلى الحملة عاشت العراق في عهده فترة من الهدوء غير مألوفة في طولها ، وازدهرت الحياة الاقتصادية فيها (الطبري ج ٢ ص ١٧٧٨ س ١٣) فبعدها . ولكنه رغم هذا لم يكن محبوباً ، بل عودى ألد العداء ، وقد جمع صاحب الأغاني (ج ١٩ ص ٥٢) فبعدها) كوما كبيراً من حكايات أصحاب المثالب في حقه ؛ ويوجد عند الطبري أيضاً مقدار كاف من ذلك .

وكانت قبيلة قسر التي ينتمي إليها خالد فرعاً من بجيلة ، وكانت بجيلة في

— يزيد بن هبيرة لأنه لم يرض أن يزوج ابنته لابن الخليفة . وأيضاً عامل خالد بعض الثوار معاملة لينة ولم يحرقهم إلا بأمر من الخليفة (الطبري ج ٢ ص ١٦٢٨ - ١٦٢٩) . أما الكيت الشاعر فإن خالداً لم يطلقه ، فيما يقال ، إلا لكي يخرج من المصيبة إلى مصيبة أكبر منها عند هشام .

(١) كان الفرس الثمانية الذين نادى من أجلهم خالد بقدح الماء هم المسمون " وصماء الكوفة " ، وكان على رأسهم المغيرة بن سعيد ، " الساحر " ، وبيان [بن سمان ؟] . ويجوز أنهم كانت لهم صلة بالدعوة العباسية . وأيضاً يظهر أن وزير السخثاني (تاجر السفين - قارن يحيى بن آدم ص ٣٤ س ١٨) ، وهو الذي ألقى بجماعته ناحية الكوفة ، كان مولد خراسياً وأنه كان من إحدى فرق الشيعة . أما الصحاري بن شبيب . وهلول بن بشر فكانا من الخوارج العرب . أما الأول فهو ابن شبيب المشهور ، وقد أغار في ثلاثين رجلاً من بكر من ناحية جسر على الدجلة على ضيعة خالد المسماة « المبارك » . وأما هلول فقد قام بثورة أكبر شأناً ، وذاك بأن خرج من الموصل وانتصر مرتين على الجند الذين أرسلوا لقتاله ، ولكنه قتل بعد ذلك في موقعة الكحيل . والذي روى أمر هؤلاء الثوار عند الطبري هو أبو عبيدة [راجع الطبري ج ٢ ص ١٦١٩ - ١٦٢٩ (أخبار المنصور وبيان) و ص ١٦٢٣ - ١٦٢٤ (أخبار الصحاري بن شبيب) - المترجم] .

الجاهلية قد مزقتها خلافاً داخية كبيرة ونزلت مرتبتها حتى لم يعد لها شأن ، ولم يرتفع أمرها من جديد بعض الشيء إلا بعد الإسلام . وإذن فلم تكن لخالد قوة تؤيده من قومه ، ولم تكن وراءه قبيلة قوية ذات نباهة يستطيع أن يعتمد عليها . وهذا وإن بدا أنه كان مما يفت في عضده فقد كان مما يساعده في مقابل ذلك على القيام بأعباء منصبه أن قبيلته بجيلة لم تكن تنتسب إلى مصر ولا إلى اليمن ، فهو لم يكن مضطراً بحكم نسبه أن يتخذ في النزاع بين مجموعات القبائل المتخاصمة موقفاً معيناً . ولكن قيساً كانوا بطبيعة الحال مضطرين إلى أن يعتبروه عدواً لهم ، لأنه كان قد أرسل الكي يزيل ابن هبيرة « خيبر قيس لها » ولكي يزيل سلطانهم . ويظهر أيضاً أن سائر مضر لم تقبل تعيينه قبولاً حسناً ، وقد قدّر لأحد أشراف تميم في البصرة ، وكان معانداً لوالها من قبيلته وهو من أبناء أبي موسى الأشعري ، أن يلقى حتفه من جراء ذلك^(١) . وخالد نفسه ، وإن كان قد جاء بذية التمسك بالحياة ، فإنه انجرّ في تيار المنازعات بين الأحزاب ، وقد دفعته عداوة مضر ، طائعا أو مختاراً ، إلى أن يأخذ جانب اليمن ؛ وهو يبدو ، بحسب الروايات ، من أول الأمر ، يمنياً لحماً ودماً^(٢) « شديد العصبية على مضر والبغض لهم »^(٣) هم ومن ينتمي إليهم من قريش حتى أنيائهم . ومن المضحك ما يحكى من أنه كان ، بما يشعر به من شرف بجيلة ، لا يخفى ما يخالجه نفسه من إحساسات ؛ ولا شك أن فيما يحكى من ذلك مبالغة كبيرة ، ومن هذا الوجه شتان

(١) [لم أجد إلى هذا فيما قرأته من نصوص - المترجم] .

(٢) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ١٤٦٨ - ١٤٧١ - المترجم] .

(٣) [الأغاني ج ١٩ ص ٥٩ ، ٦٠ . وقد اقتبسنا هذه العبارة لتكون أبغ في التعبير عما يريد المؤلف من أن خالد بن عبد الله القسري « كان في صدره احتقار لمضر » . ونجد ذكر تعصب أسد بن عبد الله القسري أخى خالد على مضر مما كان سبباً في عزها من غراسان عند الطبري (ج ٣ ص ١٤٩٧ فما بعدها) وتجد فخر خالد وغروره وما كان من عزل هشام إياه عند الطبري ، ج ٢ ص ١٦٤١ - ١٦٥٨ - المترجم] .

ما بينه وبين يزيد بن الملهب زعيم الأزدي غير مدافع ، ولم يكن أهل اليمن الضعيف في رفع شأنه إلا بعد عزله وخصوصاً بعد موته ، واتخذوه ذريعة للثورة دون أن يريد لهم على ذلك ، بل على كثره منه . أما هو فقد كان يعلم تماماً أنه لم يصب الأموال ويبلغ الرفعة إلا بفضل بني أمية (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٦ - ١٦٥٧) وكان يشعر بأنه خادهم ، لا أنه رئيس قبيلة أو رئيس حزب . وقد أثبت ولاءه لبني أمية بأن اشتد في معارضة هشام ، لما أراد مخالفة وصية يزيد بن عبد الملك وإخراج ابنه الوليد بن يزيد من ولاية العهد ، وإن كان خالد لم يكن يحفل ما سيصيبه من هشام . وقد حافظ خالد بعد سقوطه أيضاً على صدق الولاء لبني أمية ، وكان من شأن هذا الولاء ، خصوصاً في ذلك العصر ، أن يظهر كأنه في نور باهر .

وقد جرّ خالد على نفسه إلى جانب عداوة قيس عداوة الإسلام أيضاً . فقد كانت أمه رومية نصرانية ، وظلّت على نصرانيتها ، وقد بنى لها كنيسة في الكوفة في ظهر قبلة المسجد الجامع ، وهو سمح للنصارى بوجه عام بأن يببنوا كنائس جديدة^(١) وكان متسامحاً مع اليهود أيضاً . واستعمل في أعمال الخراج وفي الإدارة كثيراً من الجوس ، وعابه بهاول الخارجى بأنه « يهدم المساجد ويبنى البيعة والكنائس ويولّى الجوس على المسلمين . ويستكبح أهل الذمة المسلمات » . وقد حكيت عنه فضائح تقشعر لها الأبدان^(٢) ، فقل إن أصله من يهود تيماء وإن جده كان آبقاً من موالى عبد القيس من هجر ، وإنه كان في حادثته في المدينة يتختمت ويتبع المغنين والمخنثين ، وإنه كان يمشى مع عمر بن أبي ربيعة صاحب

(١) ولكن النصارى في الحيرة ، وهى المدينة النصرانية قرب الكوفة ، أخذوا جانب أعداء خالد لما سقط (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٣) .

(٢) يجد القارئ كثيراً من أخبار خالد في الأغاني ج ١٩ ص ٥٣ - ٥٦ ، قارن الطبرى ج ٢ ص ١٦٢٣ - المترجم [.

التشبيب الكثير ويترسل بينه وبين النساء ، حتى كان يقال له : خالد الحريّيت ، وإنه زنديق كافر^{*} فاسق ، وإنه قال عن بئر زمزم - وكان قد عرف كيف يقلل من شأنها بإنشاء مجرى مائى جديد - إنها « أم^{*} الجعلان » وإنه قال مثل هذا الفسق عن الكعبة وعن النبي عليه السلام وآل بيته وعن كتاب الله نفسه : ويجوز أنه قال ما ينسب إليه في مقام التعريض بغباء أهل الورع من أنه لا يوجد رجل^{*} عاقل يحفظ القرآن عن ظهر قلب . ويظهر أنه كان يشعر بتفوقه العقلى ، وأنه لم يكن دائماً يمسك لسانه الفصيح ، حتى صدرت منه عبارات^{*} نابية استغفلت في التشنيع عليه^(١) .

وقد فعل خالد إلى جانب ذلك ما جعله هدفاً لمطاعن أخرى : فقد امتاز باهتمامه الشديد بأمور الزراعة ، وكان في ذلك ينافس هشام ابن عبد الملك . وهو قد مضى فيما كان الحجاج قد بدأه ، وكان الإخصائى الفنى الذى تولى في عهده أعمال التجفيف في جهة واسط في مستنقعات دجلة الأدنى هو حسان النبطى الذى خدم الحجاج من قبل . وقد عمل خالد في ذلك أكثر مما يعود عليه بالنفع ، فاقتنى من طريق تجفيف المستنقعات مساحة^{*} من الأرض واسعة^{*} وخصبة جداً ، ويخصى الطبرى (ج ٢ ص ١٦٥٥) ضياعه الكبيرة بأسمائها . وقد حصل له مما أخرجه تلك الضياع غلات^{*} هائلة . ولم يكن يبالى بالمال ، وكان يسرف في الهبات خصوصاً لخدمه وخاصته ، فجعلهم بذلك موالين لشخصه . وكان يسرّه أن يظهر بمظهر السيد الكبير ، لكنه كان بخيلاً على الطعام لا يوسع فيه ، وكان يفتناظ ممن يأكل من الضيوف فيكثر .

ولا عجب أن ينشأ التذمر من هذا كله : وقد سخط الناس بالإجمال على حفره الأنهار ، أعنى استصلاح مساحات كبيرة من الأرض البكر ، وكان لا يستطيع

(١) [راجع مثلاً الأغاني ج ١٩ ص ٥٩ ، ٦٠ - المترجم] .

ذلك إلا أهل الحظوة والحظ من يؤذن لهم فيه وتكون لديهم وسائل الزراعة ،
وقد أقبل على هذا العمل في ذلك العهد إقبالا كبيرا وعلى أوسع نطاق أمراء
البيت المالک وخصوصاً هشام بن عبد الملك ، ولكن الناس ما كانوا يستطيعون
أن يتجرأوا بسهولة على هشام ، فتجرأوا على عامله خالد الذي كان حتى
من غير ذلك مكروهاً عند طوائف كبيرة . وربما يكون الناس لم يتكلموا
في العيب على خالد أنه استغل نفوذه في منصبه من أجل مصلحته الخاصة ،
لأن ذلك كان هو العادة في ذلك الوقت ، ما دام صاحب النفوذ يحترم
حق الأفراد فيما يملكون ويحمل إلى دمشق مما يفضل من الخراج مقداراً
كافياً . أما الذي أُخبر على خالد فهو أنه كان يؤخر بيع غلته فيرتفع
سعر القمح . وكان الناس يعتقدون أيضاً أن المال الذي يبيعه حوله لم يحصل
عليه مما يخرج إليه من ضياعه وحدها ، بل اعتقدوا أنه كان يختلس من
بيت المال الذي كان تحت يده مبالغ كبيرة . وهكذا أثارت أموال خالد
عليه الحسد ، وجاءت طريقة التي كان يحاول بها أن يجعل لنفسه أصدقاء
فخلقت له أعداء يزيدون بكثير على ما خلقت من أصدقاء .

ورغم هذا فإنه لبث في إمرته على العراق زهاء من خمسة عشر عاماً ،
وهي أطول مدة قضاها وال على العراق ، إذا استثنينا الحجاج . وربما
يحسب من الفضل للخليفة أنه استبقاه في الإمرة هذه المدة الطويلة ،
ولكن الخليفة أطاع إلحاح أعداء خالد آخراً الأمر ، وذلك أن قوماً
من أشرف قريش ومن الأمويين ممن كان خالد قد استخف بهم
وعرضهم بلسانه ، تضافروا مع قيس عليه (الطبری ج ٢ ص ١٦٤٢
و ١٦٥٥ فما بعدها) ، وحاولوا أن يضموا إليهم حسناً في الدس له ، وكان
حسان عامياً بأحواله . أما هشام فلم يكن في الحقيقة يرتاب به من الناحية
السياسية (١) ، ولكنه رغم هذا أحس بشيء من الغيرة منه ، وكان يستطيع في

(١) [راجع الطبری ج ٢ ص ١٨١٤ - المترجم] .

الواقع أن يعتبره منافساً له من الناحية الاقتصادية . وقد ارتاب في أمره .
أيضاً بسبب ظهوره بمظهر الرياسة والكرم ، وبسبب كلمات له كان يقولها .
استخفافاً بهشام وبلغت هشاماً^(١) ، فتغير له وعزم على أن يعزله وأن يعين .
مكانه يوسف بن عمر الثقفي القيسي ، أحد أقرباء الحجاج ، وكان يوسف .
قد تولى إمرة بلاد اليمن سنين طويلة . وعند ما كان يحدث مثل هذا التغيير
كان الأمير المعزول في كثير من الأحيان يُفاجئ بالأمر الواقع ، فلا يعلم
بعزله إلا إذا قدم عليه من سيخلفه في منصبه وأخذه ليحاسبه على أعماله .
فكان لا يُعطى له من الوقت ما يتمكن فيه من الاستعداد للمفاجأة ؛ ولكن
السرية التي اصطنعها هشام في هذه الحادثة كانت شيئاً غير مألوف وتروى
في ذلك (الطبري ج ٢ ص ١٦٤٧ فما بعدها) حكاية مسلية^(٢) . وذلك أن
هشاماً أخفى تعيين يوسف بن عمر ، حتى على حامل كتاب التعيين ، وأمره .
أن يُقبل في ثلاثين من أصحابه إلى الكوفة فجأة ، وذلك في جمادى الأولى سنة
١٢٠ هـ^(٣) (مايو سنة ٧٣٨ م) ، وهناك وضع نصارى الحيرة وثقيف ومعهم
آخرون من مضر في الكوفة أنفسهم تحت تصرفه ولم يقاومه أحد . أما خالد .
فكان في واسط ورضى بأن يقبض عليه وأن يُؤسّر هادئاً . وكان حبسه في الكوفة .
ولم يجعل يوسف بن عمر مقر ولايته في واسط بل في الحيرة . ويظهر أن الحيرة ،
وهي المدينة النصرانية الصغيرة قد بدت أكثر ملائمة لأن تكون مقر الجند من

(١) [نقل إلى هشام أن خالداً كان يقول عنه : ابن الحمقاء أو الأحوال (الطبري ج ٢ ص ١٦٤٦ - ١٦٤٧) . وكانت أم هشام حمقاء حقيقة (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٦) .
ولكن هشاماً كان « محشواً عقلاً » (الطبري ج ٢ ص ١٧٣١ س ٤) ، أما غيره هشام .
من خاله لما كان قد اقتناه من أموال وضياع نهى موجوده عند الطبري ج ٢ ص ١٦٤١ -
١٦٤٧ - المترجم] .

(٢) [لم تفصل هنا شيئاً وليراجع القارئ القصة عند الطبري - المترجم] .

(٣) [هذا بحسب الطبري ج ٢ ص ١٦٥٨ ، ١٨١٢ ، ولكن قارن الطبري ج ٢ ص .
١٦٥٢ - المترجم] .

مدينة الكوفة الإسلامية المجاورة لها ، الحافلة بالسكان المسلمين ؛ وقد منع هشام نفسه يوسف من أن يعسكر بجند الشام بين أهل الكوفة .

ولبت خالد في السجن مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد ثمانية عشر شهراً ، ولم ينصره أحدٌ من اليمنيين بيد ولا بالسان إلا رجلاً عيسى من قيس ، فإنه قال (الطبري ج ٢ ص ١٨١٦ - ١٨١٧) :
ألا إن بحر الجود أصبح ساجياً أسير ثقيف موثقاً في السلاسل
فإن تسيجنوا القسرى لا تسيجنوا اسمه ولا تسيجنوا معروفه في القبائل

وكان لا بد من أن يحاسب على أموال الدولة ، ومعنى ذلك أن يعترف بأنه رزاً مبلغاً كبيراً وأن يتعهد بدفعه ، وكان التعذيب للوصول منه إلى ذلك هو الوسيلة المستجربة . وقد استأذن يوسف بن عمر هشاماً في إطلاق يده على خالد وتعذيبه ، فلم يأذن له هشام ، حتى أكثر عليه يوسف وألح ، فأذن له مرة واحدة وبعث حرسياً يشهد ذلك ، وحلف لئن أتى على خالد أجله ، وهو تحت العذاب ، ليقبضه به (١) . وفي شوال سنة ١٢٠ هـ (سبتمبر سنة ٧٣٩ م) أمر هشام بتخليفة سبيله ، لأنه لم يمكن استخراج شيء منه ، فذهب خالد إلى بلدة « القرية » ، بإزاء باب الرصافة ، فأقام حيناً ، وهشام لا يأذن له في القدوم عليه ، واضطر خالد إلى الاكتفاء بمكاتبة الأبرش الكلبي ، وكان مستشار هشام الذي يثق فيه . وبعد أن أقام خالد حتى شهر صفر سنة ١٢١ هـ (يناير سنة ٧٤٠ م) سار حتى نزل دمشق ، وأقام فيها بعد ذلك . على أن يوسف بن عمر لم يمسك عن مطاردة الغنيمة التي أفلتت من بين مخالبه ، وأقنع الخليفة المتتمتع ، في آخر الأمر ، بأن يأذن بأخذ يزيد بن خالد على الأقل ، فأذن له بأخذه ، ولكن يزيد أفلت بالفرار . وقد تحامل على خالد إلى جانب يوسف بن عمر كلثوم بن عياض القسري ، صاحب شرطة دمشق ،

(١) [الطبري ج ٢ ص ١٨١٢ - ١٨١٣ - المترجم] .

وإن كان لا يتحتم أن يكون قد اتفق مع يوسف ، فقد كان ابن عمّ خالد ، وكان يحكم وظيفته هو الذي يراقبه . وسواء عن حسن نية أو عن تحامل وغيرة من خالد فإن كلثوماً اتهم موالى خالد ، وهو وابنه يزيد في غزوة الصيف التي كان يوجهها هشام في بلاد الروم ، بأنهم هم الذين أحدثوا تلك الحرائق التي كانت تظهر كل ليلة في دمشق ، حتى أتت على الكثير من دورها (١) ، بقصد الوثوب على بيت المال . وصدّق هشام ذلك ، لأنه لم يتهم كلثوماً بالتحامل على ابن عمه ، وكتب إلى كلثوم يأمره بحبس آل خالد ، الصغار منهم والكبير ، والموالى والنساء . ولم يلبث أن ظهر أن خالد لم يكن له أية علاقة بالذين كانوا يحدثون الحرائق وأنها كانت من فعل رجل من أهل العراق يُقال له أبو العمرّس وأصحاب له ، فكانوا إذا وقع الحريق أغاروا يسرقون ، لكنها كانت من فعل قوم من أهل العراق على كل حال . وعند ذلك كتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويعنفه ويأمره بتخلية سبيل جميع من حبس . حتى إذا رجع خالد ، وكان قد علم بحبس آلهم ولم يعلم بتخلية سبيلهم ، غضب غضباً شديداً ، وظهر غضبه لما اجتمع الناس في داره ، إذ قال فيهم : « خرجتُ غازياً في سبيل الله سامعاً مطيعاً ، فتخلّيت في عقبي وأخيل حرمي وحرم أهل بيتي ، فمحبّسوا مع أهل الجرائم كما يفعل بأهل الشرك ، فما منع عصاة منكم أن تقوم فتقول : علام حبّس حرم هذا السامع المطيع ؟ ليسكنن عن هشام أولادعون إلى عراق الهوى شامئ الدار حجازي الأصل - يعني محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس - وقد أذنت لكم أن تبلغوا هشاماً ! » . وفي مناسبة أخرى أراد هشام سؤال خالد ، لما بلغه من أنه أذن لرجل أن يمتدحه مستقرباً إليه بعبارات فيها اجترأ على مقام الذات الإلهية . فأجاب خالد بأن الرواية تحريفاً ، واتهم الخليفة بمثل ما اتهمه به أعداؤه ، فكظم الخليفة غيظه واكتفى

(١) يذكر تيوفانيس (حوادث سنة ٦٢٣٢ من تاريخ الخليفة) هذه الحرائق أيضاً . فلا بد أنها أثارَت شيئاً من السخط والذعر .

بأن قال : « خَرَفَ أبو الهيثم »^(١) ، يعنى أنه يهذى بما لا يدري . وكان هشام دائماً لا يتخذ خطوة مؤذية لخادمه لتقديم إلا كارهاً ، لأنه لم يكن فى الحقيقة يشك فى ولائه له^(٢) ، وكان يندم فى كل مرة على ما فعل . ويكفى من النبل لهشام أنه كان يشعر بالخجل وأنه لم يحمل غضب خالد على محمل سوء ، بل رأى فيه دليلاً على حسن طويته . وقد أذن له فى السنين الأخيرة من خلافته أن يقيم فى دمشق دون أن يتعرض له ، ولكن لا شك أنه لم يكن ينظر بعين الرضا لما كان يراه من محبة لخالد عند الناس .

ولإذا كان الهدوء قد ساد العراق سنين طويلة فى عهد خالد ، فإنه لم تلبث بعدها أن حدثت فى العاصمة فى عهد خلفه ثورة كانت تؤذن بأحداث غير معروفة العواقب . ذلك أن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ^(٣) كان قد خرج من المدينة ، موطن أسرته ، على كل شديد منه ، ووقع فى الكوفة ، لكنه بقى هناك لا يستطيع الفكك ، لأنه وقع فى أيدي الشيعة ، فأمسكوه عن الخروج ، وقالوا له إنهم يرجون أن يكون هو المنصور وأن يكون ذلك هو الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية ، وإن سيادة بنى أمية فى الكوفة لا تستند إلا إلى عدة قليلة من جند الشام ، لا يستطيعون أن يقفوا أمام مائة ألف من أهل الكوفة يضربون دونه بسيفهم . واغترّ زيد بكلامهم ولكنه أخذ لنفسه الحيلة ، فكان دائماً يغير الدار التى ينزل فيها ، واستمرت إقامته فى الكوفة نحو عشرة أشهر فى الجملة ، وفى خلال هذه الفترة اتخذ الأهبة للثورة ، وضمّ لنفسه أنصاراً فى البصرة والموصل أيضاً ، وبايعه الناس فى الكوفة حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل ، وكانت بيعته التى يبايع

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ، ص ١٨١٤ - ١٨١٩ - المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ، ص ١٨١٤ - ١٨٢٠ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ، ص ١٦٦٧ - ١٦٦٨ ، ١٦٩٨ - ١٧١٤ - المترجم] .

عليها الناس : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،
وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسّم
هذا الفء بين أهل السواد ، ورد المظالم ، وإفقال المُجَسَّر^(١) ، ونصرنا
أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا » ؛ فإذا قبلوا البيعة على ذلك أخذ
عليهم عهد الله وذمة رسوله بالوفاء وأشهد الله . ولبت يوسف بن عمر غافلاً
زماناً طويلاً لا يدري عن الحركة شيئاً ، ولكنه أفلح أخيراً في أن يحصل
على معلومات عما يدبره زيد ، من رجلين من الموالين له كان يوسف قد
قبض عليهما . ثم عرف أيضاً أن زيدا ، على أثر هذا القبض ، قرر التعجيل
بالثورة مخافة أن يؤخذ ، وأنه حدد لها ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة
١٢٢ هـ (٦ يناير سنة ٧٤٠ م) ، فأمر يوسف بدعوة أهل الكوفة في يوم
الثلاثاء السابق على يوم الثورة ، وجمعهم في المسجد الأعظم ، وهناك حصرهم ،
وغلقت عليهم أبواب المسجد ، ووضعهم في حراسة طائفة من جند الشام .
ويظهر أنهم بعد أن تبينوا خطأهم كانوا راضين كل الرضا عن نجاتهم في المسجد
من عواقب ما أقدموا عليه . ولما جاء زيد ، ومعه مائتان وثمانية عشر رجلاً ،
كان قد جمعهم في ليلة الأربعاء وسط الظلام والبرد الشديد ، وأراد أن يخلصهم
من الحصر ، لم يتحركوا ، واضطر أن ينسحب من أمام المسجد ، لأن ألفين من
جند الشام كانوا قد قدموا من الحيرة لمحاربتهم ، فرددهم زيد في يوم الأربعاء ، وثبت
في الخميس أيضاً هو وأصحابه القلائل أمام رُماة النشّاب من القميّانية والبخارية
حتى جاء الليل ، فأصيب زيد بسهم في جانب جهة اليسرى ، فرجع ومعه أصحابه
فدخلوا الكوفة ، ومات زيد من السهم ، ووقعت جثته في أهل الشام ، وصُلب
جسده في الكوفة . وأما رأسه فقصّطع وأُرسل إلى هشام بن عبد الملك في الشام ،
فأمر به فنُصِب على باب دمشق ، ثم أُرسل به إلى المدينة ، ومكث بها

(١) [يقصد من طالت غيبته عن أهله يحارب في بلاد بعيدة عنهم - المترجم] .

مصلوباً حتى مات هشام . وأما ابنه يحيى ، وكان غلاماً حدثاً ، فقد استطاع أن يفر إلى نخراسان ، فأقام مخفياً في بلخ سنين كثيرة : ولكنه عُرف بعد ذلك ، فصار ينتقل من مكان إلى مكان ، حتى قُتِل سنة ١٢٥ هـ ، في عهد الوليد بن يزيد ، وهو يحارب من كانوا في طلبه (١) .

ومع أن هذه الثورة قد انتهت إلى نهاية يُرَى لها ، فإنها كانت ثورة لها شأنها ، لأن ثوارت شيعة أخرى أعقبها . وأمام هذه الثورات سقطت دولة دمشق آخر الأمر ، ولم يلبث بعد مقتل يحيى أن نهض أبو مسلم لينتقم له ، فقتل قاتليه .

٣ - ولا شك أن المؤرخ يخطئ في تصوير هشام ، إذا ظن أنه كان خليفة لا هم له إلا أمور الإدارة والشئون الداخلية . على أن هشاماً لم يكن جندياً (٢) ، ولكنه لم يكن يهرب الحروب ، بل هو وجهها بهمة وبكل الوسائل ، وجتهد جيوشاً كبيرة ، ولم يدخر في ذلك الأموال ولا حياة الرجال . وكانت يده دائماً مشغولتين بالمشروعات الحربية في أكثر المواضع تباعداً .

ففي أول حكمه استأنف قتال الروم ، وكانت الحروب معهم قد توقفت بعد أن أدى غزو القسطنطينية في سنة ٩٨ - ٩٩ هـ (٧١٦ - ٧١٧ م) إلى استنزاف قوى الدولة دون أن يؤدي إلى نتيجة . ويحكى البلاذري (ص ١٦٥ - ١٦٧) أن هشاماً بنى حصوناً ومسالح في مواجهة الروم ، وكان يقوم كل صيف بغزوات كبيرة ، وكان في كل مرة يوجه غزوتين أو ثلاثاً في وقت معاً لتلتقي في نقطة واحدة ، وكان الذي يقود هذه الغزوات ابنه معاوية وابنه سليمان ، وكان كل منهما رجل حرب مولعاً بها . أما معاوية فهو جلد الأمويين في الأندلس ، وقدمات في سنة ١١٨

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٧١٣ - ١٧١٤ ، ١٧٧٠ - ١٧٧٤ - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٧٣٥ - ١٧٣٦ - المترجم] .

أو ١١٩ هـ (٧٣٦-٧٣٧ م) في بلاد الأعداء ، ويروى أنه ثار بين يديه ثعلبٌ ، فركض خلفه ، فعثر به فرسه ، فسقط ومات ، فقال هشام متوجعاً : تالله لقد أجمعتُ أن أرشحه للخلافة ، ويتبع ثعلباً (١) . ولكن البطل الأكبر في هذه الحروب كما تُصَوِّره الروايات والأساطير هو عبد الله البطال ، وقد بذل المسلمون في حربهم للروم جهوداً كبيرة وأفلحوا في افتتاح بعض القلاع والمدن ، ولكنهم كانوا لا يستطيعون الثبات فيها في الشتاء ، يقول أحد المؤرخين الروم :

Nonnulla prospera per duces exercitus a se missos in Romania terra et pelago gessit (٢)

على أن الروم لم يخفوا في الدفاع عن أنفسهم ، ففي سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) قضوا على جيش عربي عند اكرونيوس (Akronius) من أعمال أفريجية (Phrygien) . وفي هذه الموقعة قُتِل عبد الله البطال . وفي السنة التالية قام الروم من جانبهم بالهجوم على عاصمة بلاد ملطية (Melitene) ، ولكنهم ارتدوا لما خرج هشام بنفسه مسرعاً من الرصافة وملياً نداء العرب المحاصرين . وإلى جانب الحروب التي وجهها هشام إلى الروم كانت هناك حروب أخرى في الشمال الشرقي من الدولة الإسلامية وجهها إلى الترك فيما دون بحر الخزر ، وفي هذه الحروب أيضاً لم يكن الحظ دائماً مواتياً للعرب ، ففي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) هُزِموا هزيمة كبيرة ، ولكن الموقف تحول بعد ذلك في مصلحتهم ، ويرجع الفضل في ذلك إلى مسلمة بن عبد الملك وخصوصاً إلى مروان بن محمد .

وفي نفس الوقت زحف المسلمون من جهة المغرب على أوروبا زحفاً يكاد يكون أشدَّ اندفاعاً من زحفهم عليها من جهة المشرق (٣) ، وبذلك وضعوا العالم

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٣٨ - ١٨٣٩ - المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : وهو لم يحرز إلا بعض النصر في تلك الحملات البرية والبحرية التي وجه فيها قواد الجيوش إلى بلاد الروم - المترجم] .

(٣) إن أغنى الأخبار وأحسنها في هذا الصدد موجود في كتاب Continuatio Isidori Hispana ، ولكن فهمها للأسف عسير جداً بسبب سوء لغتها اللاتينية ، وقد جمعها ورتبها -

المسيحي بين نارين . وهم قبل خلافة هشام بسنين كانوا قد هاجموا الفرنج من جهة إسبانيا وكان الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، أمير الأندلس ، هو أول من عبر جبال البرانس ، وربما كان ذلك في عهد سليمان بن عبد الملك . وفي عهد عمر بن عبد العزيز فتح السموح بن مالك الخولاني مدينة أربونة (Narbonne) وظلت هذه المدينة نقطة ارتكاز وحصناً يلجأ إليه العرب زماناً طويلاً ، ولكن السموح لما تقدم إلى تولوشة (Toulouse) هزمه الفرنج بقيادة أودو (Eudo) وقتلوه في ذى العقدة سنة ١٠٢ هـ (مايو سنة ٧٢١م) ، فلما جاء خلفه عنبسة بن سحيم الكلبي قام ، بعدة غزوات كثيرة لم يكن هو نفسه الذي تولى قيادتها ، بحملة كبيرة في سنة ١٠٨ هـ (٧٢٦م) ومات فيها ، وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك . ثم أعقبت ذلك فترة توقف لأن الأمراء كانوا يتغيرون بسرعة وكانوا في شغل بأمور داخلية . وأحسن للبربر الذين كانوا يؤلفون شطراً كبيراً في الجيوش العربية بأن العرب يؤثرونهم عن مكائهم ويضايقونهم في حقوقهم كسالمين وكجند .

وكان العرب أنفسهم قد مزقهم الخلافات ، ولم يتغير الموقف إلا بعد أن عين هشام على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي مكان الهيثم بن عبد الكافي الذي كان متشدداً ومقتة الناس . وكان لا بد لعبد الرحمن من أن يبدأ بإزالة الشوكة التي في جسمه ، وذلك أن مونوزا البربري انتقض على العرب واستقل بشعر الشمال ، وكان قد حالف أودو الفرنجي وتزوج ابنته . وبعد أن قضى عليه عبد الرحمن اتجه إلى أودو وهزمه بين نهر الجارون ونهر الدوردوني ،

الدكتور لودلف شفينكوف Ludolf Schwenkow ، في رسالة تقدم بها إلى جامعة جوتينجن سنة ١٨٩٤ م ، بعنوان *Kritische Betrachtung der lateinischen Quellen Zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber* . ولا يتنص من قيمة هذا الكتاب ، بما فيه من عمل دقيق غاية الدقة ، أن مؤلفه كثيراً ما يتبع فيما يتعاق بالموضوعات الشرقية الخالصة آراء معكوسة .

ثم لاحقه في جهة لإقليم نهر اللوار ، فالتقى في رمضان سنة ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢) فيما بين مدينتي تور وپواتيه بقارله (بشارل مارتيل) الذي كان أودر قد دعاه لنجدة . وبعد مناوشات دامت أياماً قام العرب بهجوم عام عنيف . ولكن الفرنج الشرقيين ثبتوا طول اليوم ، وفي الصباح التالي أدهشهم أنهم وجدوا العرب قد أدخلوا الميدان بعد أن قُتِل قائدهم . وهنا يقف جيبون (Gibbon) ليتخيل مصير أوروبا لو أن العرب انتصروا : إذن فلربما كان القرآن يُفسَّر اليوم في جامعة أكسفورد ، ولكانت قداسة الديانة الحمادية وحقائقها تُلقى من المنابر أمام شعب قد خُتِن . والحق أن فضل الفرنج على أوروبا النصرانية كان كبيراً ، ولكن الحق أيضاً أن الروم في شرق أوروبا احتملوا من الجهد والمشقة في حماية أوروبا أكثر مما احتمله الفرنج .

ولكن العرب لم يُدَحِّروا عند مدينة تور دحراً حاسماً (١) ، وقد حثَّ الخليفة نفسه بحماسة شديدة على مواصلة القتال مع الفرنج . وفي سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) عتف الخليفة عبد الملك بن قطن الفهري خليفة عبد الرحمن الغافق على الأندلس لإبطائه في القيام بمهاجمة الفرنج . وعلى هذا سار عبد الملك لقتالهم ، لكنه لم يتقدم كثيراً ، فقد سدَّ النصارى أمامه طريق جبال البرانس (جبال البرنات) ودحروه إلى السهل . وعند ذلك عين الخليفة عقبة بن الحجاج السلولى مكانه (سنة ١١٧ هـ) ، وهو الذي نجد اسمه عند المؤرخين الإسبان محوَّراً في اللغة اللاتينية تحويراً جميلاً : أو كوپا (Aucupa) : ولكن عقبة شُغل أولاً وقتاً طويلاً بالمسائل الداخلية ، ولما تحرك بعد ذلك قاصداً بلاد غالييس (بلاد الغال) لحقته في سرقسطة الكتب الكى يعود إلى إفريقية للمساعدة على إخماد الثورة التي قام بها البربر هناك ، فرجع

(١) [موقعة تور وپواتيه تسمى عند العرب موقعة بلاط الشهداء - المترجم] .

وعبر الجبال (١) التي دون جبل طارق ثم جاز المضيق ومعه الجيش العربي الإسباني . وبعد أن اعتقد أنه قام بما عليه من عمل في إفريقية قفل راجعاً إلى الأندلس ومات سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) .

وقد قضت الظروف على البربر أن يصيروا على كره منهم حلفاء للفرنجة ، لهم شأنهم ، وذلك أن البربر تدمروا من أن العمال العرب ، بعد موت عمر بن عبد العزيز ، صاروا يعاملونهم ، مع أنهم مسلمون صادقون في إسلامهم ومع أنهم يشتركون في الجهاد متحمسين ، معاملة الخدم الذين يلزمهم أداء الجزية . فصارت نفوس البربر تربة خصبة لبعض دعاة الخوارج الذين جاءوا من العراق وعلى رأسهم ميسرة الصقري لبذر بذور مبادئ الخوارج بين البربر . ويحكى سيف (الطبري ج ٢ ص ٢٨١٥ فما بعده) أنهم في أول الأمر ، ومن غير ثورة ، التجأوا إلى هشام لكي يسأله أن يرفع عنهم ما يشككون منه ، ولكن لم يؤذن لرسالتهم في الدخول عليه ، فلما نفدت نفقاتهم رجعوا ؛ بعد شيء من الانتظار ، وهم يشعرون بخيبة الأمل ، وكتبوا أسماءهم في رقاع تركوها للخليفة . وعند ذلك اقتنعوا بأن الخوارج على حق فيما يقولونه من أن ظلم العمال لهم إنما هو بأمر من الخليفة نفسه ، وأن الخليفة بسبب جشعه للحصول على الأموال هو الذي يكرههم على أن يمتصوا دم الرعايا . ولهذا ثاروا ثورة مريعة بقيادة أحد الخوارج ، امتدت من مراکش إلى القيروان . وتبين أن أمراء إفريقية غير قادرين على أن يفعلوا لإزاء هذه الثورة شيئاً . وكذلك لم تُفيد معونة عقبة ، بعد أن عاد إلى إفريقية قادماً من الأندلس ، إلا قليلاً . وكان لابد من مجيء الفيلق الثالث ، أعنى أنه

(١) وبحسب كتاب الصلة الإسباني لتاريخ ايزيدور وقعت عند هذه الجبال الموقعة التي قبل فيها لودزيق ملك القوط ، على مقربة من جبل طارق فيما يظهر [جاء في كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية القرطبي (ط . مدريد ١٨٦٨ م ص ٧) : وكان اجتماع طارق ولودزيق على وادي بكة (Beca) من شذونة (Sidonia) فهزم الله لودزيق . . . الخ - المترجم] .

كان لا بد من أن يأتي جند الحكومة من الشام ، كما كان الحال في العراق ، فأرسلهم هشام . وفي سنة ١٢٣ هـ (١) (٧٤١ م) ظهرت في ميدان القتال بالمغرب الأقصى جمحافلُ خيل الشام ، وكان على رأسهم كلثوم بن عياض القسري (٢) عامل دمشق . ولكن حتى جند الشام ، على جودة عدتهم وحسن مرانهم على القتال ، هُزموا أمام فرسان البربر الذين كانوا أشبه بالعرّاة ، وقتل كلثوم في معركة كبيرة عند نهر نوا (Nauam) (٣) ، يصفها مؤرخو الشام وصفاً فنياً رائعاً ، ولم يستطع ابن أخيه باج بن بشر أن ينجو إلى سبته ومنها إلى الأندلس إلا بثلاث جيشه ، وكانت تلك أشنع هزيمة هُزمها العرب على الإطلاق حتى ذلك الحين ، وكانت أشنع بما لا يقاس من هزيمتهم عند مدينة تور ، فقد استطاع البربر باسم الإسلام أن يضربوا للعرب في المغرب أشدَّ ضربة ، وإن كان العرب في السنة التالية قد أحرزوا نصراً استطاعوا بفضلله أن يستولوا على القيروان ، وأن يثبتوا أقدامهم فيها .

(١) هذا هو التاريخ الصحيح كما عند البلاذري (ص ٢٣٢) . أما عند الطبري (ج ٢ ص ١٧١٦ وعند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٣١ من تاريخ الخليفة) فوجد أن التاريخ الذي يذكرانه هو ١٢٢ هـ . ولكن في هذه السنة التي كان فيها خالد القسري مشتركاً في حملة حربية في آسيا الصغرى كان كلثوم ما يزال صاحب الشرطة في دمشق ، وهو يسمى عند تيوفانيس (سنة ٦٢٣١) باسم Δαμασκηνός (الدمشقي) .

(٢) هو يسمى في المادة القشيري كما عند البلاذري وابن الأثير في جميع المواضع وعند الطبري أيضاً (ج ٢ ص ١٧١٦ و ١٨٧١) ، ولكن الصواب هو « القسري » . كما يسميه الطبري (ج ٢ ص ١٨١٤ فما بعدها) لأنه كان ابن عم لخالد بن عبد الله القسري . ويقول A. Müller, 1,449 إنه « قيسى بطبيعة الحال » ، كأن مراراً يعرف ذلك بداهة بفضل معرفته بنفسية العرب والأصول التي كان يجري عليها هشام في حكمته (A. Müller 1,445) . وكثيراً ما يحصل الخلط بين كلمتي قسري وقيسى ، وبين كلمتي قشيري وقريشي ، قارن مثلاً للطبري (ج ٢ ص ١٤٥٦ س ٧) [على أن كلثوماً هذا يسمى في تاريخ ابن القوطية (ص ١٧) هكذا : كلثوم بن عياض القيسى - المترجم] .

(٣) [يقول ابن القوطية في تاريخه (ص ١٥)] إن المعركة كانت عند موضع يقال له :

نقدوره . . . المترجم] .

وكذلك في الطرف الآخر من الدولة الإسلامية ، بلاد نهر الشاش التي لم تعرف الهدوء قط ، كانت الحركة في عهد هشام أقوى منها في العادة ، ذلك أن أهل السغد كانوا قد تبعوا أمراءهم ودخلوا في الإسلام أيام عمر بن عبد العزيز ، بعد أن وعدهم عمر بالأمان تؤخذ منهم جزية . ولكن عمال الدولة بعد ذلك لم يمتدوا بهذا الوعد ، وكانوا يتغيرون كثيراً ، وكان أحدهم يسير على سياسة ويسير من يخلفه على سياسة أخرى ، ولكنهم جميعاً كانوا يجعلون القوة فوق الحق . فإذا أعفى أحدُهم أولئك المسلمين الجدد من الجزية فإن ذلك كان يُعتبر فضلاً وإحساناً منه سرعان ما يُرجع فيه ، حتى إذا غضب أهل السغد من ذلك وامتدأت نفوسهم حقداً رموا بأنفسهم بين أحضان الترك ، أعدائهم القدماء ودعواهم إلى بلادهم . وكان أهل الديانة والورع من المسلمين يعطفون عليهم ، ولم يقتصرُوا في التعبير عن هذا العطف على مجرد الكلام ، وصار من العسير على أمراء العرب أن يقووا على الدفاع عن أنفسهم أمام هذا التكتل ، ووقعت جيوشهم أكثر من مرة في أشد المآزق خطراً ، وكانوا يفرحون إذا استطاعوا النجاة ولو بخسائر كبيرة . ومما يدل على مقدار تعود الخليفة على الأخبار السيئة التي كانت ترد من خراسان أنه كان لا يصدق الخبر الصحيح إذا ورد إليه مُسَبَّحاً بانتصار جنوده^(١) . وكان كل ما يستطيعه في تدارك الأمور هو أن يغيّر القائد ، ولكن ذلك كثيراً ما كان ينتهي بالفشل ، وكان دائماً يجرّ إلى عواقب وخيمة . ولكن الخليفة في آخر الأمر اتخذ إجراءً فعالاً ، فبعد أن عزل خالد بن عبد الله القسري ، كان يوسف بن عمر — وهو الذي خلف خالداً على العراق — يُسمّنى نفسه بأن يسند إليه الخليفة إمارة خراسان إلى جانب إمارة العراق . ولو أنه نال ذلك لاستخلف على خراسان عاملاً قيسياً لحماً ودماً ، فزاد بذلك من حدة التنازع بين الأحزاب القيسية ، وكانت الحصومة

(١) [راجع الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٦١٤ - ١٦١٦ - المترجم] .

بئذا لا تحتاج إلى مزيد : ولكن الخليفة حال بين يوسف بن عمر وبين ما يشتهي ، فقام من جانبه بتعيين نصر بن سيار الكنانى (١) ، وكان صاحب سن وتجربة وقائداً محسناً وعاملاً من أكفأ العمال ، ولم يكن ينتهى لأية قبيلة قوية في خراسان . وقد بذل كل ما فى طاقته ، ولكنه كان يحاول أمراً مقضياً وموقفاً خاسراً .

ومات هشام فى الرصافة يوم الأربعاء لست ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (٦ فبراير سنة ٧٤٣ م) ، ولم يكن قد تقدمت به السن كثيراً ، فكان فى وسط العقد الخامس من العمر (٢) . ولكن لعل الشباب لم يتبدأ عليه قط ، وكان مظهره غير رائع ، فقد كان « أحول شديد انقلاب العين » وهو وإن كان قد استطاع أن يفرض على الناس احترامه ، فإنه لم يكن له من الصفات ما يملأ نفوس الناس لأول وهلة أو يجذبهم إليه أو يملوهم رهبة منه ، وكان فيه شىء من خصال أوساط الناس من أهل التحفظ ، ولكنه كان « دقيق النظر . . . متيقظاً فى سلطانه ، سائساً لرعيته » (٣) ، وهو لم يفعل بنفسه ما يغضب أهل التقى ، بل كان مسلماً حسن الإسلام ، من طراز السلف الأولين ، وكان صديقاً لرواة الحديث والأثر أمثال الزهرى وأبى الزناد ، وعدواً للقدرية المبتدعة الذين أثاروا البحث فى مسائل اعتقادية ، وكانوا يقولون بالاختيار (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٧ - قارن أيضاً ص ١٧٣٣) ، ولذلك لم يكن متعصباً على رعاياه المسيحيين . فأذن لهم (للملكانية منهم ؟) فى أن يعيدوا شغل كرسي أنطاكية بعد أن كانوا قد منيعوا

(١) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٩ فا بعدها و ص ١٧١٨ فا بعدها - المترجم] .

(٢) [الطبرى ج ٢ ص ١٧٢٨ فا بعدها - المترجم] .

(٣) [آثرت اقتباس هذه الصفات من كتاب التنبيه للمسعودى ص ٣٢٢ عوضاً عن كلمتين للمؤلف ، ويجد القارئ كثيراً من صفات هشام عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٣٠ فا بعدها - المترجم] .

من ذلك أربعين سنة . ولكنه اشترط عليهم ألا يعينوا من يحبون من أهل العلم والنباهة ، بل أن يعينوا راهباً بسيطاً هو اصفطمان (Stephanus) ، صديق هشام وأن يختاروه بطريقاً عليهم . وهم قد رضوا أيضاً بذلك (١) . ويحكى أن رجلاً نصرانياً شجّ غلاماً لمحمد بن هشام ، وبدلاً من أن يرفع محمد الأمر إلى القاضي ذهب خصي لمحمد فضرب النصراني ، فلما بلغ ذلك هشاماً ضرب الخصي وشتم ابنه محمداً . وكان هشام في حكمته يسعى إلى أن يجعل نفسه فوق الأحزاب ، ولكن لفته استطاع أيضاً أن يغير من نفوس العرب والولاة . وكان فيه شيء من خشية الظهور أمام الناس ، فأثر أن يعتزل في الرصافة بعيداً عن الأنظار ، وكان إذا قدم عليه من الناس من يريد أن يلقاه كآسف صديقه الأبرش الكلابي أن يتصل بهم ، وكان الأبرش موضع ثقة هشام (الطبري ج ١ ص ٢٨١٦ ، وج ٢ ص ١٨١٣) . ولكن هشاماً كان رغم ذلك ممسكاً زمام الأمور وكان يفهم عمله ويحب له وقته وكان ديوانه مثالا للدقة والنظام ، وكان ذلك موضع إعجاب الخليفة المنصور العباسي . وقد قضى هشام على فساد كان موجوداً ، وهو أن أعطيات المقاتلة كانت تُمنَح لقوم من الأشراف أشبه شيء بالاستغلال من غير عمل ، فصار لا يأخذ أحدُ العطاء في أيام هشام ، حتى من أمراء الأمويين ، إلا إذا قام بالغزو بنفسه أو أناب أحداً عنه . وكان هشام مولى اسمه يعقوب ، فكان يأخذ عطاء سيده وينوب عنه في ميدان القتال . والحكايات الكثيرة التي تحكى عن هشام كما تحكى بكثرة عن عمر بن الخطاب ومعاوية وعبد الملك ، تصوره في صورة .

(١) انظر ما يقوله تيوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٤ (من تاريخ الخليفة) ، وقارن أيضاً أخبار سنة ٦٢٣٦ . وقتل أسرى الروم إذا لم يفك أسرهم أو لم يعتنقوا الإسلام ، وهو ما يذكره تيوفانيس في أخبار سنة ١٢٣٢ ، ليس شيئاً غريباً ولا خاصاً ، لأنه كان من قوانين الحرب القديمة .

رجل مبالغ في الحساب في الإنفاق مستعني بالتدبير على قواعد الاقتصاد (١) .
ولكن هذه الصفة التي ربما يكون من الممكن تبريرها ، إذا نظرنا إلى أن
من تقدم هشاماً من الخلفاء كان يخالفه فيها ، انقلبت عنده إلى عيب جرّ
الذكبات ، وذلك أنه اهتم بأن يملأ خزانته ، ويصفه تيوفانيس بهذه الكلمات :

ἤρξατο κτίζειν κατὰ χώραν καὶ πόλιν παλάτια καὶ κατασποράς
ποιεῖν καὶ παραδείσους, καὶ ὕδατα ἐκβάλλειν (٢)

وهو قد فعل ذلك جرياً وراء مصلحته الخاصة وأثار بذلك سخطاً شديداً
إلى حد أن العباسيين ، في وضعهم لبرنامج حكومتهم وفي التجنب إلى من
دخل في طاعتهم ، لم يجدوا شيئاً أحسن من أن يعدوهم بأنهم لا يريدون أن
يبنوا قصوراً ، ولا أن يحفروا أنهاراً ، ذلك أن النهر معناه امتلاك الضياع
وأن القصر من لواحق ذلك . ونظراً لأن هشاماً كان من كبار ملاك الأرض
فإنه كان ينافس خالد بن عبد الله القسري ، وكان يمنع خالداً من أن يبيع
غلته حتى تباع غلات أمير المؤمنين ، فكان السعر يرتفع ارتفاعاً كبيراً ،
والأدهى من ذلك أن هشاماً كان يعتبر الدولة نفسها أشبه بصافية من
صوافيه (٣) ، يجب أن يخرج منها أكبر ما يمكن من المال . وانتهت سياسته
في الحكم آخر الأمر إلى تزرعة ظاهرة نحو ملء الخزانة ، فكان لا بد أن
يحمل إليه عماله أكبر ما يمكن من الأموال ، ولم يكن يعبأ بالوسائل التي
يبتزونها بها ، وزاد في جزية أهل قبرص وضاعف جزية أهل الإسكندرية ،
ودفع برعاياه في أرض ما وراء النهر وإفريقية والأندلس إلى أحضان
اليأس . يقول صاحب الصلة الأسباني الذي أكمل تاريخ ايزيدور :

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٧٣٠ - ١٧٤٠ ، والمسمودي في التنبيه مثلاً
ص ٣٢٢ - ٣٢٣ - المترجم] .

(٢) [وترجمة هذا النص اليوناني هي : شرع في بناء الدور وإنشاء الضياع في المدن
والقرى وفي عمل البساتين البديعة وفي تخفيف الأرض - المترجم] .

(٣) [يعني الممتلكات الخاصة التي تتبع الخليفة - المترجم] .

Cupiditate praereptus tanta collectio pecuniarum per duces Oriente et Occidente ab ipso missis est facta, quanta nullamquam : tempore in reges qui ante eum fuerant extitit congregata : unde non modicae populorum katervae cernentes in eo improbam manere cupiditatem ab eius ditione suas dividunt mentes. (§ 94)^(١)

هذا ما يقوله هن هشام صاحب كتاب الصلة ، مع المبالغة المألوفة في تقدير ما جمع من أموال . ويستطيع الفريد فون كريم ومن تابعه أن يحكموا بأن هشاماً عاد إلى الأصول السليمة القديمة التي كان يسير عليها خلفاء بني أمية ، وذلك بعد ما يزعمونه من تزعزع في إدارة الدولة الاقتصادية على يد عمر بن عبد العزيز . ولكن مهما يكن من شيء فإن آخر حكم هشام ، وكان حكماً طويلاً مملوءاً بالجد والعمل إذا قورن بغيره ، كان تعساً إلى أكبر حد ممكن . وهو لم يكن محبوباً عند أحد ، وقد فشل فشلاً كبيراً في كل شيء ، ثم ترك وراءه تلك الدولة الشاسعة الأطراف في حال أسوأ وأقرب إلى اليأس مما كان قد وجدها . ولم يكن من باب المصادفة أن الدعوة العباسية قويت واشتد أمرها في أيامه .

٤ — كان يزيد بن عبد الملك في وصيته التي عهد فيها بالخلافة إلى أخيه هشام ، قد عين ابنه الوليد بن يزيد ولياً لعهد هشام . وكان الوليد بن يزيد شبيهاً بأبيه يزيد ، غير أنه كان يربى عليه فيما كان له من صفات ، وهو يسمى عند صاحب الصلة لتاريخ أيزيدور « بالجميل » ، وكان حسن الصورة قوى البنية إلى درجة غير مألوفة ، ولكنه كان مع ذلك قوى الحيوية ممتاز المواهب العقلية التي أيقظها ووجهها مؤدبته عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني اللغوى المشهور . وقد نشأ في بلاط عمه هشام ، ولكن لم يكن في صباه سعيداً ، وكان يفعل ما يشتهي ولا يأبه إلى ما سوى ذلك ، وكان مطمئناً على مستقبله ، لأنه كان يعلم من أول الأمر أنه

(١) [وترجمة هذا النص اللاتيني هي : وقد استولى عليه الجشع ، وجمع له المال الذين يهيمهم إلى المشرق والمغرب من الأموال ما لم يجمع الملوك الذين كانوا قبله . وذلك رأى غير قليل من الناس أنه قد ملكه الجشع المعيب ، فأنصرفت نفوسهم عن الولاء لسلطانه — المترجم] . (٢٢ — الدولة العربية)

وارث عرش الخلافة ؛ وقد دفعه إلى التماذى في ذلك من كان حوله من أهل
الحجون والفسق ؛ ووجد هشام أنه يعوزه الجحد والظهور بالمظهر اللائق بولى
العهد ، فكان يتبرم بأنه يقضى وقته في الصيد والشراب مع رفاق من أهل
اللهو واللذات وبأن الموسيقى والشعر كانا أحب إليه من القرآن . وقد حاول
هشام إصلاحه ، ولكنه لم يحسن اختيار الطريق إلى ذلك ، فأخطأ الغرض ،
ولم يجد الوليد في تبرم هشام به وسوء معاملته له ما يدل على نية طيبة ، وكان
يُفسر ذلك بأن هشاماً يريد أن ينزعه من ولاية العهد . ولعل الوليد لم يكن
في ذلك مخطئاً ، لأنه كان طبيعياً ، ومهما يكن من شيء فإن سوء سلوك
الأمير الذى استعصى على الإصلاح دعا هشاماً آخر الأمر إلى أن يخلعه من
ولاية العهد وأن يجعلها في ابنه مسلمة بن هشام .

ولكن هشاماً اصطدم فيما أراد بمعارضة حاسمة من جانب بعض أشراف
الأمويين وكبار العيال ، وخصوصاً أن مسلمة نفسه كان فتى هازلاً . ولم يرض
الوليد نفسه بأن يتنازل عن حقه . ثم جاءت المضايقة التى لقيها من هشام وحاشيته
بسبب رفضه التنازل فجعلته أشد عناداً ، ومالأت نفسه بالبغض . وأخيراً لم يطق
الحياة فى القصر ؛ وبعد أن مات مسلمة بن عبد الملك ، ذلك الرجل ذى السن
والمكانة العالية الذى كان يعيب هشاماً ويكفّه عن الوليد ، خرج الوليد من
الرصافة^(١) وذهب إلى مكان منغل في البرية إلى الشرق من فلسطين^(٢) ، وهناك
مضى فيما كان عليه ، بل ازداد تماذياً . ولم يكن يعوزه الزوار الذين كانوا يطعمون^(٣)

(١) ويظهر أن هذا هو الذى يؤخذ مما جاء فى الأغاني (ج ٦ ص ١٠٣) . أما ما يقال
من أن ذلك حدث فى السنين الأخيرة لخلافة هشام ، فهو يؤخذ بوضوح مما عدا ذلك أيضاً .
وقد مات مسلمة بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ .

(٢) ذهب الوليد إلى الأبرق أو الأزرق ، عند ماء يقال له : الأغدف ، بين أرض بلاتين
وأرض فزارة (أغاني ج ٦ ص ١٠٤ والطبرى ج ٢ ص ١٧٤٣) من أعمال عمان (الطبرى
ج ٢ ص ١٧٩٥ س ١١) . ويمكن أن يؤخذ مما جاء عند الطبرى (ج ٢ ص ١٧٥٤ س ١١) .
أن ذلك المكان كان قريباً من منزل زيزاء ، لكن جذاً المكان بعيد جداً إلى الجنوب .

في كرمه وفي دُنُوِّ ملكه ، فيجدون عنده ما يرجون . وكان يترقب موت هشام ولا يُخفي ذلك . ولم يكن يكتُم ما يحول في نفسه من إحساسات ، بل كان يعبر عنها في أشعار لا يحتفظ بها لنفسه .

وقد اضطر أن ينتظر سنين ، ثم وقع الأمر الذي لم يكن هو وحده يترقبه . ذلك أن حكم هشام كان قد طال ، فتنفس الناس الصعداء لما أغمضت المنية عينيه . ولم يكده يموت حتى خرج عياض بن مسلم ، كاتب الوليد ، من السجن - وكان الوليد قد خلفه في الرصافة ليكتب له بما يكون فيها من أحداث ، فأخذه هشام وضربه وحبسه - فعظم عياض أبواب الخزان حتى لم يبق ققم لتسخين الماء لهشام ولا شيء يُكفّن به ، وذلك أن عياضاً أمر بإئزال هشام من على فرشه وبجمله خارج غرفته . وتلقى الوليد مع أخبار هذه الحوادث شارات الخلافة (١) . وقد احتفل بتلك الساعة على طريقته من التعطش للشراب ، ألق قصيدة مثل فيها لنفسه بنات هشام يَسُدُّنَّه ، وعبر عما يضمره لمن (٢) ، وأمر أن تحصى أموال هشام وولده في الرصافة وبأن يؤخذ أبناؤه وعماله وحشَمُه إلا مسلمة ابن هشام ، ذلك أن مسلمة ، وإن كان منافساً حقيقياً له وإن كان أيضاً قد سخر منه سخريه قاسية باسم مستعار ، فإنه كان يكثر الكلام مع أبيه في الرفق بالوليد ويكفُّه عنه . ولم يلبث الوليد أن ذهب إلى دمشق لكي يتلقى البيعة في العاصمة (الأغاني ج ٦ ص ١١١ س ١٢) . وجاءت الوفود من جميع الآفاق ، وكتب إليه العمال الكتب يهنئونه (٣) ويخبرونه بأخذ البيعة له في ولاياتهم ويصفون

(١) لا يتكلم الوليد نفسه (الأغاني ج ٦ ص ١٠٩ س ١) من شيء سوى الخاتم ، ويرد بعد ذلك (ص ١٠٩ س ١٨) ذكر الخاتم والقضيبي والطومار ، ولا شك أن الطومار هو الخطاب الذي جاء فيه نعي هشام له . [لكن نجد عند صاحب الأغاني ج ٦ ص ١١٠ ذكر الحلة والقضيبي والخاتم - المترجم] .

(٢) [راجع مثلاً الأغاني ج ٦ ص ١٠٨ فما بعدها - المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً الطبري ج ٢ ص ١٧٥٢ - ١٧٥٤ - المترجم] .

مرور الناس واستبشارهم وتحقق أملهم في خلافته : وكان احتفال كبير ، وقد أظهر الوليد ما يدل على تقديره لما كان وعلى عرفانه به ، كما أنه استطاع أن يحقق الآمال التي عقيدت عليه بفضل الأموال التي ادخرها له هشام ، فزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة دراهم ، وزاد لكل من أهل الشام خاصة عشرين درهماً ، وردّ الأعطيات إلى أهل المدينة ومكة ، بعد أن كان هشام قد منحها عنهم عقاباً لهم على ميلهم إلى زيد بن علي ، وزاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف . وأجرى الأرزاق على زمّنى أهل الشام وعميانهم ، وكساهم ، وأمر لكل منهم بخادم ، وأخرج لعيالات الناس الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرج لهم هشام^(١) .

ولكن الوليد انتقم من أعدائه ، غير أنه لم ينتقم من آل هشام مباشرة خشية أن يثير على نفسه الأمويين ، فاكتمى بأن ضرب سليمان بن هشام مائة سوط ونفاه بعد ذلك إلى عمان وحبسه بها ، وحبس الأفهم يزيد بن هشام . لكنه عاقب إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومي على ما اقترفاه من التخلي عنه والانضمام إلى جانب مسلمة بن هشام ، لأن مسامحة كان ابن أخت لها ، فوجههما إلى المدينة أولاً ، وكانا قد فعلا هناك ما بغضهما إلى الناس فأقيا للناس (يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ١٢٥ هـ = ١٤ يونيو سنة ٧٤٣ م) ، ثم أمر بأن يُبعث بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة ، وأمره أن يبسط عليهما العذاب حتى يتلفا . وقد فعل ذلك ، وكان هذا أيضاً هو مصير بني القعقاع العباسيين الذين كانوا قد أيدوا هشاماً فيما أراده من خلع الوليد من ولاية العهد وجعلها في ابنته (ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٨) ، فعزلوا عن ولايتهم .

(١) [جاء عند الطبري أن الوليد لم يقل في شيء يُسمّاه : « لا » ، فقل له : « إن في قولك : أنظر ، عدة ما يقيم عليها الطالب » ؛ فقال : « لا أعود لسانى شيئاً لم أعتده » .
الطبري ج ٢ ص ١٧٥٤ - المترجم] .

ففسرين وحص وأسلموا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى لينتقم منهم ، وكان بنو القعقاع قد ضربوا عمر بن هبيرة بأمر هشام قبل ذلك بعشرين عاماً . وهكذا وقع فصل دموى أخير من فصول العداوة بين قبيلتى عبس وفزارة . وكذلك عزل الوليد ثُمَّال هشام فى المدينة ودمشق وعين عمالاً غيرهم ، فوجه خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى والياً على المدينة ومكة والطائف ، ووجه إلى دمشق رجلاً من ثقيف أيضاً من سلالة الحجاج مباشرة ، هو عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف — وهكذا صار الوليد بسبب نسب أمه موالياً لقيس :

أما فيما يتعلق بالمنصبين الكبيرين فى العراق وخراسان ، فإنه أقر الواليين اللذين وجدتهما ، وهما يوسف بن عمر فى العراق ونصر بن سيار فى خراسان (١) ، بل هو أقر حتى آخر أيامه الأبرش الكلى ، كاتب هشام فى المنصب الذى كان له من قبل ، وجعله موضع ثقته — فكان خيلافه مع هشام خلافاً شخصياً فحسب . وكان من حيث التمسك بالدين يختلف فى سلوكه الشخصى عن هشام اختلافاً كبيراً ، لكن اختلافه عنه من حيث المبادئ الأساسية كان أقل من ذلك كثيراً (٢) . أما الزهرى وأبو الزناد صديقاً هشام فكان الوليد يبغض أحدهما (٣) ، لأنه كان يعيبه مع هشام ، فأما الآخر ، وكان قد التزم الحكمة والصمت فى أمر يزيد ، فإن الوليد أكرمه ، وهو كان يحبه من قبل . وكذلك عادى الوليد القدرية المبتدعة ، كما عاداهم هشام من قبل ، وأقر ما كان قد صنعه هشام من نفي رسائهم إلى جزيرة دهلك (قرب مصوع) ، واعتبر ذلك عملاً ترضى

-
- (١) [لكن الوليد باع فى آخر أيامه نصر بن سيار وعمله إلى يوسف بن عمر ، (الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٤ فابعدهما) — المترجم] .
 (٢) [ربما قصد المؤلف مثلاً ما يقوله فيما يلى : من أن الوليد لم يغير شيئاً مما فعله هشام بالقدرية (الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٧ — المترجم) .
 (٣) [هو الزهرى ، بحسب الأغاني ج ٦ ص ١٠٦ ، وقد مات قبل تولي الوليد الخلافة — المترجم] .

منه المغفرة لهشام : وامتنع الوليد من الاستجابة إلى من كلمه في أمر القدرية ، فهو لم يَرْضَ كمال يرض هشام من قبل بالخروج بالدين من مرحلة الأخذ بالموروث إلى مرحلة النظر العملي . ويمكن أن يؤخذ من بعض الأخبار التي ذكرها تيوفانيس أن الوليد قد اضطهد النصارى . غير أن هذا لا يبدو متفقاً مع المعروف عن طبيعة الوليد وخلقته . ويظهر أنه في الحقيقة لم يكن له يد فيما عومل به الأسقف بطرس الدمشقي ، وبطرس الميومي الذي كان عاملاً على الخراج . وكل من هذين الرجلين سعى إلى العذاب والاستشهاد من طريق سب الإسلام وشتيم النبي عليه السلام ؛ أما ما كان في عهد الوليد من نقل بعض أهل قبرس إلى الشام فلم يكن له علاقة بالدين .

ويمكن القول في الجملة إن الوليد بن يزيد إنما كان يعيث بما له من سلطان . فكان ينظر إلى قيامه بشئون الحكم كما ينظر إلى نوع من الرياضة والفروسية ، ولم يشمل بأمور الحكم اشتغال جد وعناية ، وهو بعد أن تولى الخلافة لم يغير إقامته في برية شرق الأردن (الطبري ج ٢ ص ١٧٩٥ س ١١) ، ولم يزايل روحه ذلك الإحساس المريب المشرب باحتقار الإنسانية وكرهية الناس ، وهو الإحساس الذي تكون في صباه . وهو بعد موت هشام أيضاً تباعد عن الجو الذي كان ينبغي أن يكون فيه ، ونفّر من نفسه قرابته وأثرابه (أغاني ج ٦ ص ١٣٧ س ٦) . وكان لا يبالي أقل ميالة بالرأى العام ولا يجعل له سيلاً على نفسه . وكان له بطبيعة الحال ديوان في قصره ، ولكن كان لا يفارقه الجو الذي كان يرتاح إليه من قبل ، من خيل وكلاب وصيد ومغنين ومغنيات وشعراء وأدياء ، وكان في أثناء النهار يركب ويجول في البادية ، وكان الإجهاد البدني بالنسبة له ضرورة أشبه شيء بلعب الأطفال . وقد بلغ من شدة قوته أنه كانت تؤتد له سكة حديد فيها حبل ويشد الحبل في رجله ، ثم يثب على دابته ، فينتزع السكة ويركب ، ما يمس الدابة بيده . أما الليل فكان يقضيه في الشراب . وكان

الوليد يتميز بشعور جنوني بما له من قوة ، ويحكى عنه أنه قال ؛ وَدِدْتُ
 أَنْ كُلَ كَأْسٍ يُشْرَبُ مِنْ خَمْرِ بَدِينَارٍ ، وَأَنْ دُونَ كُلِّ امْرَأَةٍ أَسْلَدًا ، حَتَّى
 لَا يَشْرَبُ إِلَّا سَخِيًّا وَلَا يَنْكَحُ إِلَّا شَجَاعًا . ولكن الوليد لم يكن منغمساً في
 الغلظة الوضيعة كل الانغماس ، بل اجتمع عنده الودُّ لشرار النساء مع العشق
 الملتب للمراة النبيلة ، يسعى طويلاً لوصلها دون أن يظفر بها ، حتى إذا
 تالها أخذها منه الموتُ ؛ وكانت كل مناسبة تبعث الشعر في نفسه قصائد
 قصيرة يعبر فيها عن إحساس الساعة تعبيراً رشيقياً سهلاً في صورة مبتكرة ؛
 وربما كان يستطيع الإنسان أن يجمع تاريخ حياته من هذه القصائد ، لو أنها
 بقيت حتى وصلت إلينا كاملة ، ولكن نظراً لأنه كان خليفة فلم يكن يليق
 به أن تُجمع أشعاره وتُداع في الناس ، وإنما كانت تُخسّلس اختلاصاً ،
 بل يُروى أن الوليد كان أحياناً يخطب الجمعة شعراً^(١) . فهو كان يقدر
 على أشياء كثيرة ، ولكن كل شيء كان عنده وليد الحالة النفسية المؤقتة
 التي يكون فيها ، وكانت أحواله تتغير بسرعة ما يتقلب كفه اليَدُ ، فقد
 تجده يتعمق في مناقشة دينية مع أحد العلماء ، وتجده بعد ذلك يشرب
 خمرًا ويهزأ بما هو مُقَدَّس ؛ ولم يكن يرد لأحد رجاءً ، وهو لم يكن
 سريع الغضب فحسب ، بل كانت فيه أيضاً قسوة الأطفال ؛ ولقد كان
 من البلاء أنه تولى الخلافة^(٢) ؛

وقد أنفق الوليد الأموال التي كان قد جمعها هشام أسرع مما كان يظن ، وكان

(١) [راجع ما روى من خطبه وكتبه شعراً ، وخطبة من على المنبر شعراً بأكملها ،
 في الأغاني ج ٦ ص ١١١ ، ١٢٨ - ١٢٩ - المترجم] .
 (٢) قارن ما في الأغاني عن الوليد ج ٦ ص ١٠١ فما بعدها . وكثير من ذلك غير جديد
 بالثقة . ولقد قال خالد بن عبد الله القسري لما ذكر أمامه الوليد في معرض الجون والفسق :
 "أمر الوليد أمر غائب عني ، ولا أعلمه يقيناً ، إنما هي أخبار الناس (الطبري ج ٢ ص ١٧٧٦ ،
 ١٧٧٧) .

لا يكفيه دخله العادى ، بل كان يحتاج إلى أموال لا تقيس عادة . وقد استفاد يوسف بن عمر من هذا لكي يشتري نصر بن سيار الذى كان قد أصبح متعززا عليه بما له من استقلال . فعرض على الخليفة مالا كثيرا لكي يضم إليه ولاية خراسان : وقد حصل عليها ، فبعث الخليفة فى استدعاء نصر بن سيار وعياله أجمعين إلى الشام ، وكافه أن يحضر له معه أشياء كثيرة من بزة الصبيد والخيل والبراذين والبرابط والطناير وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الأطباء ورووس السباع والأيايل وكل صناجة ووصيفة حسناء . ولم يدخر نصر مالا ولا وقتا فى الحصول على ما أراده الخليفة ، وعلى كثير من الخواري الحسان والماليك بكامل سلاحهم : ولكنه عندما خرج آخر الأمر من خراسان تأتى خبر مقتل الوليد ، فقفل راجعا .

ومن جهة أخرى أفلح يوسف بن عمر ، هذا الشيطان المارد ، فى أن يجعل خالد القسرى فى قبضة يده ، وذلك بعد عناء طويل فى عصر هشام ، لم يظفر منه بطائل . ولقد كان لدى الوليد من الأسباب ما يستوجب عليه الشكر لخالد ، ذلك أن خالد دافع عن الوليد لدى هشام وأنه بعد أن مات هشام لم يتقلب على الوليد ، رغم محاولة أعداء الوليد لإيقاعه فى شرك الخيانة له ؛ ولكن الوليد ارتاب به ، لأنه كان يعلم أكثر مما كان يستطيع أن يقول (١) . فقبض عليه الوليد وحاول أن يستخرج منه أشياء ، فلم يكشف عنها لكي لا يوقع غيره فى البلاء والحنة : وقد عذبه الوليد ، فلم يتكلم ولم يتأوه ، فعند ذلك باعه إلى عدوه اللدود يوسف بن عمر بخمسين ألف ألف . فحمله يوسف بن عمر إلى الكوفة على أقسى .

(١) [لما أجمع المتآمرون على قتل الوليد جاءوا إلى خالد القسرى ودعوه إلى أمرهم ، فلم يجهم . فلما سأله أن يكتم عليهم وعدهم ألا يسمى أحدا منهم . ثم أراد الوليد الحج ، وخشى خالد أن يفتكروا به فى الطريق ، فقال للوليد : يا أمير المؤمنين ! أخر الحج هذا العام ، فلما سأل الوليد خالد عن السبب لم يجبه ، فأمر الوليد بحبس يوسف بن عمر الذى يريده المؤلف - المترجم] .

صورة ، وعذبه حتى مات دون أن يستطيع كسّر كبريائه ، أو حتى أن يبلغ منه أن يتكلم أو يعبس من الألم . ومات خالد تحت العذاب في المحرم سنة ١٢٦ هـ (نوفمبر سنة ٧٤٣ م) ودُفِن في الحيرة .

وقبل ذلك بقليل (الطبري ج ٢ ص ١٨٢٠) كان يحيى بن زيد بن علي قد قُتِل ، وُحِمِل رأسه إلى الوليد ، فأمر بنصب الرأس أمام طائفة من عليّة القوم كان قد دعاهم إلى وليمة . ثم ازدادت المارّة التي أحدثتها أفعالُهُ في دوائر واسعة النطاق في المشرق ، لأنه أمر بأن يُنْعَل بقبيلة كلب في العراق ما فعله العبرانيون من قبل في صنم لهم بأن أحرقوه وذروا رماده في الماء . ومن البديهي أن يكون السخط الذي أحدثه قتل خالد ، بعد عذاب طويل ، شديداً جداً في حينه ، ذلك أن ما فعله الوليد بخالد كان بمثابة تحدٍّ لقبائل اليمن . وكان معنى تسليط يوسف بن عمر على خالد القسري هو إغراء قبائل قيس بقبائل اليمن . وبدا أن الخليفة قد صار هو ويوسف ابن عمر وبقية آل الحجاج حزبا واحداً لا يفصل بينهم فاصل . وبدل على أن هذا كان هو رأى الناس حقيقة أشعار بعضها حقيقى وبعضها موضوع . ولأول مرة حدث تدمرٌ سياى شادل في العراق وفي الشام ، وألف هذا التدمر بين اليمن هنا وهناك ، وكان أشد الناس تأثراً بذلك هم من الشام وخصوصاً كلب ، لأن خالداً كان قد قضى سنه الأخيرة في دمشق ، ونال هناك محبة أصدقاء كثيرين . ولكن التدمر من الخليفة خاصة كان أكثر منه من قيس بوجه عام ، وقد نفخ أعداء الخليفة الشخصيين في نار الفتنة واستغلوا لأغراضهم الخاصة . ولم يكن الاشتراك في الثورة الصغيرة التي نشأت عن ذلك اشتراكاً إجماعياً ، وهى وإن كانت قد جاءت من جانب قبائل اليمن ، فلم يكن اليمانية وحدهم في جانب والقيسيون وحدهم في الجانب الآخر ، بل نجد عبس قيس يقفون في الجانب المعادى للخليفة ، لأنه كان قد أغضبهم بما فعله مع

بنى القعقاع . ومن جهة أخرى لم يأت لنجدة الخليفة الهراثيون^(١) من حمص
فبحسب ، بل جاء أيضاً قوم^٢ من كلب من قبائل عامر وسليمان بن كيسان ،
ولم تندلع النار على الفور في قوة ، لكنها امتدت إلى أوسع نطاق بسبب مقتل
الوليد . وكانت كل مناسبة كافية في إثارة الشر الكامن ، وفي إيجاد منزع
للصدور المتشعبة ، وكان كل نزاع قابلاً لأن ينقلب نزاعاً عاماً بين القبائل .
وقد لعب الإسلام بطبيعة الحال دوراً في ذلك ، فكان أهل الديانة والورع
خائفين على الخليفة الذي لا دين له ، خصوصاً القدرية الذين كانوا أولى
الناس بأن يسخطوا عليه (الطبري ج ٢ ص ١٨٢٧) .

وكان الوقت الذي انقضى بعد تولي الوليد ، وكان فيه خالد بن عبد الله
القسري لا يزال يقيم في دمشق ، كافياً لوضع خطة التآمر على الوليد .
وكان على رأس المتآمرين أعمامه هو ، فكانوا من أمراء بني أمية ،
وإن كان من الجائز أنهم لم يكونوا هم الرؤوس المفكرة المدبرة للمؤامرة
(الطبري ج ٢ ص ١٨٢٣) . وقد كانوا هم نصحاء الطبيعيين ، لكنه
انسحب من زمريتهم ونأى بنفسه عن مشورتهم وإشرافهم ، وأصبح
مسلكه مهذباً بإضاعة ميراث آبائه ، الذي كان لهم أيضاً الحق فيه .
وقد أغضبهم أيضاً بأن عقد البيعة من بعده لاثنتين من أبنائه ، من غير أن
يُدخل بينه وبينهما أحداً ، لأنه كان قد لقي في صباه ما لقي من دخول هشام بينه
وبين أبيه ، وذلك بالرغم من أن ولديه لم يكونا قد بلغا سن الرشد ، وكانا فوق
ذلك ابنيّن لأم ولد كانت جارية عنده^(٢) ، فلم يكونا لهذين السببين وبحسب

(١) يخطئ^١ . مولر في اعتبارهم قيسيين .

(٢) [لا يتفق هذا مع ما يقوله المؤلف فيما بعد من أن أحدهما شكاً من أن أمه من

كلب - فلا شك أن ههنا خطأ - المترجم] .

ما تقضى به العادة العربية والإسلامية أهلًا لولاية الحكم^(١) . وقد شعر أبناء الوليد بن عبد الملك خاصة ، وكانوا كثيرين (الطبرى ج ٢ ص ١٧٩٤) ، أن ما فعله يزيد آذاهم أذى بالغاً ، ذلك أن الوليد بن عبد الملك ، وهو أبوهم ، كان أكبر أبناء عبد الملك ، وكانوا يأملون أن يصلوا إلى الخلافة بعد موت سليمان بن عبد الملك (الطبرى ج ٢ ص ١٣٤٥) ولكن لم يكن دورهم قد جاء بعد ؛ والآن يستحقهم أبناء يزيد بن عبد الملك عن المكانة التي يطمحون إليها . وقد انضم إليهم أيضاً أبناء هشام وغيرهم من بنى مروان . ولم يكن ابن عمهم الوليد راضياً عنهم ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم أنه قد أعد مائة جامعة (سلسلة) من الحديد وكتب على كل واحدة منها اسم رجل من بنى أمية ليقتله بها . وكان من الذين يؤيدونهم : وربما كانوا أيضاً هم الذين كانوا يحرضونهم ، قوم من أشراف كلب^(٢) في دمشق ، وكانوا قواداً وعمالاً ساخطين أزيلوا عن مناصبهم ، ويقال إنهم سعوا إلى خالد بن عبد الله القسرى لكي ينضم إليهم . ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٧٧٨) أسماءهم ، ولكن منصور بن جمهور صار أكثرهم ذكراً عند المؤرخين فيما بعد ، وكان طبيعياً أن ينضم أبناء خالد القسرى إلى حزب هؤلاء المتآمرين على الخليفة ؛ وقد ظهر يزيد بن خالد من مخبئه ولعب في ذلك دوراً كبيراً . ومن جهة أخرى وقف السفانيون إلى جانب الوليد بن يزيد لأنه كان ينتسب إليهم من طريق جدته بنت يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان ، وكان أبرزهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية السفيناني . وكان إلى جانب الوليد أيضاً من بنى مروان العباس بن الوليد بن عبد الملك ، وكان موضع ثقة الوليد .

(١) قارن كتابي الوليد إلى نصر بن سيار عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٥٥ - ١٧٦٤) ، وتاريخهما الثلاثاء ٢٢ رجب سنة ١٢٥ هـ (٢١ مايو سنة ٧٤٣ م) والخميس ١٥ شعبان سنة ١٢٥ هـ (١٣ يونيو سنة ٧٤٣ م) . وقد كتبهما شمال والنضر . وقد رفض خالد القسرى أن يوافق على مبايعة الصبيين قبل أن يبلغا - الطبرى ج ٢ ص ١٧٧٦ .

(٢) وكان يرتبط بكلب بعض قبائل اليمن الخالصة ، وكانوا يسكنون فيما حول دمشق .

ووثب يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان أكثر إخوته طموحاً ، وكانت أمه إحدى بنات ملوك السغد وقعت أسيرة في يد المسلمين ، فأخذ البيعة لنفسه وصار خليفة إلى جانب الوليد بن يزيد . وقد انضم إليه أولياء وأنصار بما بعثه عليهم من المال (تبوفانيس في أخبار سنة ٦٢٣٥ من تاريخ الخليفة) ، واستطاع بفضل فصاحته وبما كان يظهره من النساك والتواضع أن يضم إليه أهل الديانة (الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٧ ، ١٨٦٧) . ولما جاء الوقت الذى واعدهم عليه تنكّر وركب حميراً ، وسار إلى دمشق في سبعة نفر ، وأخذ وهو في دمشق يتصل بأنصاره ، ولم يكن معظمهم في دمشق نفسها ، بل كانوا يسكنون في القرى المحيطة بها . وبمعونتهم دخل المسجد الجامع في يوم الجمعة (١) ، وهو يوم الصلاة الجامعة الذى يقع عليه الاختيار عادة لمثل هذه المناسبة ، وكان في المسجد كثير من السلاح وعدة الحرب . وقبض يزيد على عمال المدينة ، كما أمر بالقبض على أميرها الغائب (٢) وعلى أمير بعلبك . ثم دخل المدينة ، وقد فتحت أبوابها ، ألف وخمسمائة رجل من كلب جاءوا إليه من المزة ، وجاء قوم من غسان ونخلم وكندة وغيرهم من القرى الأخرى المجاورة ، وكان معظمهم من قبائل اليمن خاصة . ولم تقع في أى مكان مقاومة ذات بال ، ويظهر أن الحكومة لم يكن تحت تصرفها عدد يذكر من الجند المستعدين للقتال ، بل كان الجند في الأمصار بعيدين عن الشام . ولم ينصف اليوم التالى حتى بايع الناس في دمشق يزيد بن الوليد ، وكان فرحاً ، وكان يتمثل بأحد أبيات النابغة ، مما عجب له من كان معه من أهل الدين ، لأنه كان قبيل الصبح يسبح وهو الآن ينشد الشعر . ولكن لما انتدب يزيد المتطوعين إلى قتال الخليفة الشرعى لم يجتمع إليه إلا قليلون ، ولم يستطع رغم ما بذل من عطاء كبير أن يحصل على أكثر من ألفى رجل ، وقد

(١) لا يذكر تاريخ دقيق لذلك .

(٢) كان يخاف على نفسه من هواء دمشق ، فكان يقيم في قطن .

أمر عليهم عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، وأخذوا يتناقصون
كلما تقدموا في المسير (١) .

أما الوليد بن يزيد فإنه فوجئ بأول أخبار الثورة ، وقد حمل إليه الخبر
مولى له خرج على فرسه مسرعاً حتى بلغ الوليد من يومه ، وقد نفق فرسه ؛
فكان جزاؤه من الوليد أن ضربه مائة سوط . وقد رفض ما أشار عليه
أولياؤه به من المسير إلى حمص أو تدمر أو إلى حصون أخرى كانت قريبة .
ولم يترك ماء الأغذف إلا في آخر لحظة عندما كان جيش عبد العزيز في طريقه
إليه . وبلغ الوليد إلى حصن البخراء الذي لم يكن بعيداً عنه ، وكان معه
مائتا رجل ، وقد أسرع إلى فرق كثيرة من الفرسان جاءوا من بعيد ومن
قريب ، منهم قوم من كلب ، جاءوا من تدمر (وعلى رأسهم الوليد بن أخي
الأبرش الكلبي) وهرانيون أقبلوا من حمص وغيرهم . ونهض عباس بن
الوليد أيضاً لندجده ومعه أبنائه الثلاثون ، ولكن عبد العزيز عرض له قبل
أن يبلغ الوليد ، فأصره وأرغمه على أن ينضم إلى جيشه .

وجاء الرسل الواحد بعد الآخر ينقلون إلى الوليد أخبار الأعداء الزاحفين إليه ،
ولكنه كان لا يلتفت إلى ما يقوله الرسل إلى أن رأى الأعداء أمامه . كان جنده
التمليلون معسكرين بحسب العادة العربية أمام الحصن ، وكان قد أعطاهم صكوكا
يتقاضونها فيما بعد لأن المال كان قد نفذ من يديه . وقد رأوا أن حاضرتهم ليس
فيه أمل ؛ وأعطاهم انضمام العباس بن الوليد إلى المعسكر الآخر مثلاً خطراً (٢) .

(١) الطبري ج ٢ ص ١٧٩٧ .

(٢) [هذه هي الترجمة الحرفية لكلام المؤلف ، والمقصود إما أنهم قلدوا العباس بن
الوليد في عدوله إلى جيش عبد العزيز ، وبدأت الخيانة ، ويدل على هذا ما جاء في الطبري
(ج ٢ ص ١٨٠٥ - ١٨٠٦) ؛ وإما أن منع العباس من الوصول إلى الوليد وإكراهه على
الانضمام إلى جيش الأعداء (الطبري ج ٢ ص ١٧٩٨ ، ١٨٠٣ - ١٨٠٤) أظهر للمدافعين
غلبة الأعداء . وعلى كل حال ، فقد « أسقط في يد أصحاب الوليد وانكسروا » (الطبري
ج ٢ ص ١٨٠٥) - المترجم] .

وزاد الطين بلة أن كلاب تدمر لم يريدوا أن يقاتلوا كلاب دمشق . ولم يكن أمام عبد العزيز ، لما بدأ الهجوم عند طلوع الشمس ، إلا لعبة سهلة . وقبل اشترك الوليد بن يزيد في المعركة بنفسه وكان أشجع من قاتل ، ولكنه لم يلبث أن وجد أن الجميع تفرقوا عنه ، فرجع إلى الحصن ودخل ، ثم جلس ونشر المصحف يقرأ ، وقال : « يوم كيوم عثمان » . وتلقى الضربات التي قتلته ، وهو على تلك الحال (١) . وأقبل أحد موالى خالد بن عبد الله القسري ، فسلخ من جلد الوليد قنطرة الكف وأتى بها إلى يزيد بن خالد علامة على الثأر لخالد . أما رأسه فقد حُزَّتْ وحُمِلَتْ إلى يزيد ، وكان الذي حَزَّها رجل يلقب بوجه الفلاس (٢) . فأمر يزيد بنصب الرأس على رمح والطواف به في مدينة دمشق . وبعد شهر دُفِعَ الرأس إلى سليمان بن يزيد أخى الوليد ، فلم يجرؤ على دفنه جبناً منه ، وأخذ يتهم أخاه المقتول ويذكر ما كان منه من شرب الخمر والمجون والفسق . وكانت هذه الكارثة يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ الموافق يوم الخميس ١٧ أبريل سنة ٧٤٤ م (٣) . وإذا أراد المؤرخ أن يصدق يزيد بن الوليد فيما يقوله ، فهو يقول إنه ماثار إلا غضباً لله ورسوله ودينه وإنه وصل إلى الخلافة بإرادة الشعب ، ويقول

(١) تذكر أسماء الذين اقتحموا على الوليد وقتلوه عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٣٠ - قارن أيضاً ص ١٨٧٨ . [والذي يذكره المؤلف عن نهاية الوليد مضمون إحدى الروايتين اللتين ذكرهما الطبرى (ج ٢ ص ١٧٩٥ - ١٨٠١) ؟ وعند الطبرى رواية أخرى : ج ٢ ص ١٨٠٦ - ١٨٠٧ - المترجم] .

(٢) [ليس هذا الرجل هو الذى احتز رأس الوليد ، والروايات مختلفة فيمن فعل ذلك - راجع الطبرى ج ٢ ص ١٨٠٠ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٩ - المترجم] .

(٣) يذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٨١٠ س ٦) والمسعودى في كتاب التنبيه (ص ٣٢٤) أن القتل كان لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة وأنه كان يوم الخميس . وفى الطبرى أيضاً (ج ٢ ص ١٨٣٦ س ١٤) أن ذلك كان يوم الأربعاء . ويذكر تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٥) الخميس ١٦ أبريل سنة ٧٤٤ م ، على حين أن إلياس النصيبى يذكر يوم الخميس ٣٥ جمادى الآخرة .

إن الوليد إنما قُتِلَ لأنه رفض ما عُرضَ عليه من أن يكون الأمر شورى ، حيث ينظر المسلمون لأنفسهم من يقلدونه الخلافة ، فلم يجب الوليد إلى ذلك وبادر بالحملة على من أرسلوا إليه لدعوته إلى كتاب الله وسنة رسوله . (الطبري ج ٢ ص ١٨٣٤ فما بعدها وص ١٨٤٣ فما بعدها) (١) .

ولما علم أهل حصص بمقتل الوليد وثبوا على دار العباس بن الوليد وهدموها ، متهمين إياه بخيانة الوليد والانحياز إلى عدوه . وقصدوا دمشق وعلى رأسهم أبو محمد السفيناني يعد أن قال لهم : « لو قد أتيتُ دمشق ونظرتُ إلى أهلها لم تُخَالِفَنِي » ، فأمره عليهم ظناً منهم أنه لن يكاد يظهر أمام المدينة حتى تقع في يديه ، ولكن الذي وقع كان غير ذلك ، فقد هزمهم سليمان بن هشام قريباً من دمشق . وكان مصيرهم الفناء التام لولا أن يزيد بن خالد بن عبد الله القسري وقوما من كلب حالوا بينهم وبينه . أما أبو محمد السفيناني فأُخِذَ إلى الخضراء ، سجن دمشق . وفيه حبس أيضاً ابنا الوليد بن يزيد وآخرون من السفينانيين . واجتمع أمر أهل دمشق وبايعوا يزيد بن الوليد . وقد قامت ثورات أخرى في أنحاء من فلسطين ولكن قضى عليها بالعنف أو بالصاح (٢) .

٥ - وخطب يزيد بن الوليد بعد أن بايعه الناس خطبة افتتح بها عهده ، فضمنها كثيراً من المعاني ، وتشبه بعمر بن عبد العزيز ، قديس بني أمية ، فقال إنه إنما خرج غضباً لله ورسوله ودينه ، ثم هاجم الوليد بن يزيد ، وبعد ذلك وعد الناس بأن لا يضع حجراً على حجر ولا لبينة على لبنة ، وألا يكسرى نهراً

(١) [جاء في الطبري أن عبد العزيز قائد يزيد بن الوليد كان معه كتاب معلق في رمح مكتوب فيه : إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يصير الأمر شورى . أما ما يقوله المؤلف فهو مأخوذ من خطاب كتبه يزيد بن الوليد إلى أهل العراق ، راجع إلى جانب الإشارة التي يذكرها المؤلف ما جاء عند الطبري ج ٢ ص ١٨٠٤ - المترجم] .
(٢) [راجع فيما تقدم مثلاً الطبري ج ٢ ص ١٨٢٦ - ١٨٣٤ - المترجم] .

ولا يكنز مالا ولا يعطيه زوجة ولا ولداً ، ولا ينقل مالا من بلدة إلى بلدة حتى يسدّ ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل شيء نقله إلى البلد الذي يليه من هو أحوج إليه ، وألا يُجسّمَ الجُندَ في الثغور تجنباً لفتنتهم وفتنة أهلهم ، وألا يغلق بابه دون أحد حتى لا يأكل القوى الضعيف ، وألا يحمل على أهل الجزية ما يجلبهم عن بلادهم ويقطع نسلهم ، وكان مما قاله : « وإن لكم أعطياتكم عندى فى كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم ؛ فإن وفيت لكم بما قلتُ فعليكم الطمعُ والطاعة وحسنُ المؤازرة ، وإن أنا لم أفِ لكم فلكم أن تخلعوني إلا أن تستنيبوني ، فإن تُبِتْ قبائسُ منى ، فإن علمتُم أحداً ممن يُعرّف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه ويدخل فى طاعته » ، وختم خطبته قائلاً : « أيها الناس ! إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا وفاء له بنقض العهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يعصى ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم (١) » . وكأنما كان الخليفة يعبر بخطبته عن أحماق نفوس القدرية الذين كانوا فى مبادئهم السياسية متفقين مع المرجئة وهم الذين كان يزيد يتودد إليهم أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٨٦٧ و ١٨٧٤ و ١٨٩١ ص ١٢) . ولما انتهى يزيد من خطبته قام قيس بن هانىء العبسى ، وكان رجلاً صالحاً غوغائياً (ديماجوجياً) ، فأنشأ على يزيد ثناء ممقوتاً ، لأنه قال : « يا أمير المؤمنين ! لا تقبل الله ودُّم على ما أنت عليه ، فإقام مقامك أحد من أهل بيتك ؛ وإن قالوا : عمر بن عبد العزيز !

(١) [خطبة يزيد عند الطبرى ج ٢ ص ١٨٣٤ - ١٨٣٥ . وقد آثرنا اتباع نص الخطبة فى النقط التى اختارها منها المؤلف - المترجم] .

فأنت أخذتها بجمل صالح ، وإن عمر أخذها بجمل سوء ^(١) . وقد رأى مروان ابن محمد أن هذا المتعلق قد ذم جميع الأمويين وذم عمر بن عبد العزيز معهم ، ولما ولي مروان بعث إليه رجلاً فقتله . وإذا كان يزيد قد وعد بدفع الأعطيات في كل سنة والأرزاق في كل شهر فإن ذلك وعد لم يتحقق أكثر مما يتحقق مثله في تركيا ^(٢) ، ذلك أنه نقص الناس الزيادة التي كان للوليد بن يزيد قد زادهم إياها في أعطياتهم ، فسُمي لذلك : يزيد الناقص ، أو δειπνός ^(٣) ،

وقد اعتمد يزيد على أهل اليمن وخصوصاً كلباً ، اعتماداً ظاهراً . فلم يكن يرى أحداً من قيس يغشاه أو يقف بهابه (الطبري ج ٢ ص ١٨٣٧) . وعين على العراق منصور بن جمهور الكلابي ، وكان أعرابياً جافياً ، مشهوراً ، ولم يكن من أهل الدين . فذهب منصور إلى العراق في اليوم الذي قتل فيه الوليد بن يزيد . وقد تعرض له خمسمائة من كلب وأرادوا أن يأخذوا عليه الطريق . ولكنهم لم يهايجوه ، فانزع سلاحهم منهم وأدخلهم الكوفة ، هذا مع أنه لم يكن معه سوى ثلاثين من رجاله ، وفي رواية أخرى أنه كان معه سبعة نفر ^(٤) . ولم يجد يوسف بن عمر من يوثقه بين جند الشام في الحيرة والكوفة ، ولم يكن من الممكن ، في ذلك الوقت ، الاعتماد على المقاتلة من أهل العراق . وأخفق يوسف في محاولته أن يفرق ما بين قيس وكتب ، فجعل يعتمد إلى من يحضرته من البغائية

(١) [راعينا هنا ما جاء في الطبري ج ٢ ص ١٨٣٥ - ١٨٣٦ ، غير متقيدين بما يقوله المؤلف ما هو استنتاج من خطبة قيس بن هاني العبسي القصيرة جداً على كل حال - المترجم] .

(٢) [ظهر كتاب المؤلف في سنة ١٩٠٢ - المترجم] .

(٣) [هذه الكلمة اليونانية معناها : المنقص] ، ولا شك أنها جاءت في كتاب تيوفانيس الذي يعتمد عليه المؤلف في بعض الأحيان ، على أن في تسمية يزيد بالناقص أكثر من توجه (الطبري ج ٢ ص ١٨٢٥ ، ١٨٧٤) - المترجم] .

(٤) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٣٦ - ١٨٤١ - المترجم] .

فيلقيهم في السجون ، ثم جعل يخلو بالرجل بعد الرجل من المُضَرِّيَّة .
 فيقول له : « ما عندك إن اضطرب جيلٌ أو انفتق فتقٌ » ، فيقول : « أنا
 رجلٌ من أهل الشام ، أباع من بايعوا وأفعل ما فعلوا » (١) ، ذلك أن
 جند الشام لم يكن لهم إمامٌ بعد مقتل الوليد بن يزيد ، فلم يكونوا يعرفون
 الخليفة الذي عليهم أن يقاتلوا من أجله . وتردد يوسف بن الغناد والتهدى ،
 وبين الشجاعة والخور ، فكان أحياناً يتعالى كأنما يتف على أطراف أصابع
 قدميه ، وأحياناً أخرى ينكمش في نفسه . وكان لا محالة واقعاً في يد
 منصور بن جمهور ، وكان منصور يريد أخذه ، أولاً أن سليمان بن سامم الكابي
 أنقذه بأن استمحقته على الفرار وسمه عليه ، فخرج يوسف إلى البلقاء ،
 من أعمال شرق الأردن ، وهناك اختبأ . ولكن اختبائه لم يتطَّل ، فقتله
 وجهٌ يزيد بن الوليد محمد بن سعيد الكابي ، أحد قواده ، للتفتيش عنه في
 البلقاء ، فأخرجه من بين أهله ونسائه وبناته ، وكان قد لبس ملابس النساء .
 ثم أخذه فزج به في سجن الخضراء . وكان يوسف بن عمر من أعظم
 الناس ليحيةً ، حتى كانت لحيته تجوز سُرَّتَه ، وكان من أصغرهم قامة ،
 فأضحك الناس لما بدا عليه من حق وخوف لا معنى له ، وأطول لحيته
 التي أغرت الخرس ، فأخذ أحدهم بها وهزها ونف بها (٢) .

ودخل منصور بن جمهور الحيرة والكوفة في أوائل رجب سنة ١٢٦ هـ
 (آخر أبريل سنة ٧٤٤ م) ، فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء والأرزاق ،
 وأطلق من كان ألقى بهم يوسف بن عمر في السجون من العمال وأهل الخراج (٣) .
 واستولى عماله على واسط والبصرة دون مقاومة ، ولكنه لم يبق طويلاً على

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٣٧ - ١٨٣٨ - المترجم] .
 (٢) يحدد القارئ خبر عزل يوسف بن عمر وما أصابه عند الطبري ج ٢ ص ١٨٣٦ -
 ١٨٤٣ مثلاً - المترجم] .
 (٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٤١ ، ١٨٥٤ - ١٨٥٥ ، على الولاء - المترجم] .

لمرة العراق ، فعزله يزيد في رمضان أو شوال سنة ١٢٦ هـ (بوليه سنة ٧٤٤ م) وعين مكانه عبد الله بن عمرو بن عبد العزيز . وكان يزيد يعتقد أنه بذلك يرضي أهل العراق ، لأن عبد الله كان شبيهاً بأبيه ، ولأن أهل العراق كانوا يميلون إلى عمر بن عبد العزيز^(١) .

وقد اعترفت ولايتا سجستان والسند بالخليفة الجديد ، وعين هو عايمم والياً من كلب . وقد خضعت له مصر أيضاً ، فيما يقوله تيوفانيس : ولكن ليس صحيحاً ما يزعمه المؤرخ الإسباني الذي كتب كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور إذ يقول : *Omnes suae patriae (eum) ocius recognoscunt* (= وقد بايعه كل أهل بلاده) ، ذلك أن نصر بن سيار في خراسان ومروان بن محمد في أمينية والجزيرة لم يشعرا أنهما عمال للخليفة الجديد ، واتخذوا موقف ترقب^(٢) . ولم يطل انتظارهما ، لأن يزيد مات في يوم الجمعة ١٢ من ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ (٢٥ سبتمبر سنة ٧٤٤ م) ، وكان ذلك بعد أن تولى الخلافة بمائة واثنين وستين يوماً^(٣) . وكان يزيد قبل موته قد أخذ لأخيه إبراهيم بن الوليد البيعة على الناس ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد إبراهيم . ويقول المؤرخون إن القدرية لم تول تحشمه على البيعة لمن يخلفه وتقول له إنه لا يحل له أن يحمل أمر الأمة ، حتى بايع لأخيه ولمن يأتي بعد أخيه^(٤) . وعلى هذا فلم يكن تأثير القدرية على يزيد تأثيراً دينياً فحسب :

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٤١ ، ١٨٥٤ - ١٨٥٥ ، على الولاء - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٨٤٥ ، ١٨٧٦ - المترجم] .

(٣) هذا هو الصواب كما يقول إلياس النصيبى [وفي الطبري (ج ٢ ص ١٧٨٣ - ١٨٧٤) أنه توفي سلخ ذى الحجة في رواية ، ولعشر بقين منه في رواية أخرى ، وبعد الأضحي في رواية ثالثة ، وأن مدة خلافته خمسة أشهر وليتين أو خمسة أشهر واثني عشر يوماً أو ستة أشهر وأياماً - المترجم] .

(٤) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٦٩ - المترجم] .

الفصل السابع

مروان بن محمد والحرب الأهلية الثالثة

١ - كان مقتل الوليد بن يزيد بمثابة العلامة التي آذنت بسقوط أسرة بني أمية . وكانت هذه الأسرة الحاكمة قد انتحرت عند ذلك انتحاراً سياسياً . وكان عهد الإيمان بحقها الشرعى فى الملك وبقداسته خلافتها قد ولى ، حتى فى الشام : ذلك أن بلاد الشام نفسها ، وكانت حجر الزاوية فى النظام الذى كان قائماً ، قد لفتها دوامة الثورة ، وكان الثوار من أهل الديانة والورع قد ثبتت قدمهم وازدادت قوتهم فى الشام أيضاً . أما رجال قبيلة كلب الذين كانوا حتى ذلك الحين أخلص أولياء الدولة ، وكانوا هم الجيش الذى تعتد به الحكومة كما تعتد القبيلة برجالها ، فإنهم أيضاً خرجوا على الولاء لها وانزلوا إلى الثورة على الخليفة ، بعد أن كانوا يؤمنون بحقه الشرعى (١) . ويستطيع الإنسان أن يصور لنفسه مقدار ما كان لتزعزع سلطان الدولة فى القلب من تأثير على الأطراف ؛ فأخذت تنحل فى كل مكان تلك العرى التى كانت تمسكها القوة المركزية ، وقامت أنواع مختلفة من التمرد والعصيان فى كل مكان ، وفى وسط ذلك الاضطراب كانت تظهر تجمعات لا تلبث أن تزول . فكانت تختلف العناصر الهائجة تنجمع حول نقطة واحدة ، ثم تتفرق بعد ذلك وتدخل فى تنظيمات أخرى ، وكانت تلك الفترة أنسب ما يكون للمغامرين والمتغلبين : وكان الواحد منهم تصبح له فى أقصر وقت قوة كبيرة ، ثم كان يختفى من جديد من غير أن يترك أى أثر .

(١) راجع مثلاً ما قاله مروان بن محمد عما كان من أهل الشام من وفاء وطاعة ، ثم من شكك وانتفاض - الطبرى ج ٢ ص ١٨٥ - المترجم .

وقد ظهر على المسرح رجل لم يولد على فراش أبيه (٢) ، وهو مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم ، من فرع جانبي في الأسرة الحاكمة ، ليحارب أبناء عبد الملك ، وخصوصاً أبناء الوليد وهشام ابني عبد الملك اللذين كانوا يحملون الوزر في مقتل الوليد بن يزيد وكانوا هم الذين استفادوا منه . وكان مروان إذاك بين الخمسين والستين من العمر (الطبرى ج ٢ ص ٩٤٠) ، وكان يلقب على سبيل الاستمراء : بالحمار ، لأنه كان يحب أكل الفاونيا (Päonie) ، وهى تسمى وردة الحمار (٣) . . وكان أبوه محمد ، أحد أخوة عبد الملك ، أميراً على أرض الجزيرة وأرمينية سنين كثيرة ، وكان وهو في هذا المنصب يقود الحرب مع الروم ، ثم حل محله مسلمة ابن عبد الملك وغيره . وفي سنة ١١٥ هـ ارتفع نجم مروان من جديد ، وأسندت إليه على الأقل أرمينية وآذربيجان ، وكان هذا المنصب يتطلب جندياً ، وقد كان مروان عند حسن الظن به ، فقد استطاع أن يدافع عن ثغر القوقاز أمام هجمات الترك دفاعاً لا يلين ، وأن يقوم بغزوات موفقة في أرض الترك ، وكان هذا المنصب الذى لبث فيه اثني عشر عاماً بمثابة مدرسة حربية له . وكان نظام الجيوش في ذلك العصر قد أخذ يتغير شيئاً فشيئاً ، وأخذت الجيوش تنظم تنظيمًا فنيًا . ذلك أن نظام المقاتلة القديم أخذ يبدو نظاماً غير صالح للغزوات الطويلة الشاقة البعيدة ، كما أخذ يتجلى أن هؤلاء المقاتلة لا يصلحون لتحقيق غايات بعيدة عن نفوسهم ، فترزحوا عن مكانهم وحل محلهم جند الدولة من أهل الشام . وكانت الأعطيات المستمرة التى تُعطى لكل عربي قادر على القتال قليلة الجدوى في الأغراض العسكرية ، وكان الحاكم إذا أراد رجالاً يخضعون للنظام ويسيطرون

(١) أنساب الأشراف ص ٢٦ .

(٢) هذا ما يقوله مؤرخو الشام ، أما أ . مولر (A. Müller, I, 453) فهو يفسر هذه التسمية من عنده على أنها مدح . وهو يشير في ذلك إلى ما يقوله إلياس (II, 558) . ويسمى مروان أيضاً بالحمدى ، ولا أعرف سبب هذه التسمية - قارن الطبرى ج ٢ ص ١٩١٢ [كان يسمى بالحمدى لأنه تتلمذ على الحمد بن درهم - المترجم] .

أينما وجههم ، لا بد له أن يجتنبهم بالمال . فثلاً دفع يزيد بن معاوية إلى جانب عطاء سنة كاملة مائة دينار لكل من كان مستعداً أن يذهب في الجيش الذي وجهه إلى المدينة ، وعرض يزيد بن الوليد على من يتقدم لمحاربة الوليد بن يزيد ألقي درهم ، وأعطى الوليد بن يزيد للمدافعين عنه كلاً منهم خمسمائة درهم ، وأعطى كل من خرج من أهل الشام لمحاربة الخوارج في اليمن في سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) مائة دينار وفارس وحيوان للحمل ، بل يحكى أن الضحاك بن قيس ، وهو أحد الخوارج ، إنما حصل على أتباع له بأن كان يعطيهم أرزاقاً كبيرة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٣٩) . أما الآن فقد بدأت تجل محل القبائل التي كانت تؤلف فرق الجيش في النظام القديم فرقاً بالمعنى الحقيقي لتكون صلب الجيش ، وحل القواد المحترفون محل رؤساء القبائل ، وكانت كل فرقة تحمل أحياناً اسم قائدها كالوضاحية والدكوانية نسبة إلى عمر بن الوضاح ومسلم بن ذكوان . وقد سار مع هذا التنظيم جنباً إلى جنب تقدمٌ في الخطط العسكرية ، ذلك أنه فيما سبق من الزمان كان الجند يحاربون صفوفاً طويلة طبقاً للعادة العربية وللنظام الذي صار سنة بعد أن وضعه النبي عليه السلام . وبين الصنفين المتقاتلين كانت تقع المبارزات الفردية ، وكانت نتيجة هذه المبارزات في كثير من الأحيان هي التي تعين مصير المعركة : إما بالتقدم من الجانبين وإما بالفرار . أما الآن فقد انحل نظام الصفوف القديم ، بعد أن تجل ما فيه من ضعف وحل محله نظام الكراديس ، أعني الوحدات الصغيرة التي كانت أكثر تماسكاً فيما بينها وكانت أسرع حركة . وينسب إلى مروان بن محمد إنشاء نظام الكراديس هذا . وهو وإن كان يجوز أن بداياته ترجع إلى ما قبل ذلك فإن مروان هو الذي نَمَدَه (١) . وإذا كان مروان يعتبر هو واضع هذا النظام ففي ذلك ما يدل على مقدار كبر شهرته :

(١) [راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٩٤١ ، ١٩٤٤ - المترجم] .

ولكن مروان كان إلى جانب ذلك علياً بالأعيب السياسة ودسائسها ، فكانت له علاقات بجميع الجهات ، وكان على علم تام بما يرسم من الخطط في كل مكان (١) . فلما ضارت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بعث يهنته من كل قلبه ويستبشر بعهدده . ومع أن هشام بن عبد الملك هو الذي كان قد عين مروان بن محمد في منصبه فإن مروان في كتابه انتقد هشاماً وما كان منه من تصغير بالوليد ومحاولة تنحيته ، وذلك في كتاب مملوء بالجد ، بعث به مروان إلى الوليد (٢) . ولكن مروان في الحقيقة كان يرى في الوليد غير ذلك وفعل غير ما قاله له (الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٣) . ومهما يكن من شيء فإن قتل الوليد بن يزيد جاء ملائماً لأغراضه ، فقد استطاع أن ينهض للنار من القاتلين وأن يأخذ من أيديهم الغنيمة مستنداً إلى اعتبارات وجية . فلم يكده يسمع بقتل الوليد حتى أعلن العصيان على يزيد بن الوليد ، فخرج من أرمينية متجهاً إلى الجزيرة ، وكان ابنه عبد الملك قد وثب على سحران ومدائن الجزيرة فاستولى عليها (الطبرى ج ٢ ص ٨٧٠) ، لأن واليها من قبل الوليد ، وهو عبدة بن رباح الغساني ، خرج منها إلى الشام لما بلغه قتل الوليد ، ولكنه لم يكده يسير حتى وثب في ظهره اليمانيون من جند الشام تحت إمرة ثابت بن نعيم الجذامي . وكان مروان قد ترك هؤلاء اليمانيين في أرمينية على أبواب القوقاز لكي يصدوا هجمات الترك ، وخصوصاً أنه لم يكن يطمئن إليهم كل الاطمئنان . فاضطر إلى القفول راجعاً ، وقبل أن تبدأ المعركة أمر منادياً أن ينادى فيسألهم عن سبب انشقاقهم عليه وعما ينقمون منه مع حسن سيرته فيهم . وولايته عليهم ، فأجابوه : « إنا كنا نطيعك بطاعة خليفتنا ، وقد قُتل خليفتنا وباع أهل الشام يزيد بن الوليد ، فرضينا بولاية ثابت ورأسناه ليسير بنا على

(١) [راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٨٥٣ : كان يقول ليس من أهل هوى إلا وقد أعطيتهم الرضا حتى أخبروني بذات أنفسهم - المترجم] .
(٢) [تجد هذا الكتاب عند الطبرى ج ٢ ص ١٧٥٢ - ١٧٥٤ - المترجم] .

ألوينا حتى نرد على أجنادنا » . ولكن مروان أمر مناديه أن ينادى فيهم :
وقد كذبتكم ، وإنما أردتم أن تتركبوا رؤوسكم ، فتغصبوا من مَرَرْتُمْ به من
أهل الذمة أموالهم وأطعمتهم وأعلافهم ، وما بيني وبينكم إلا السيف حتى
تنقادوا إلى فأسير بكم حتى أوردكم الفرات ، ثم أخلى عن كل قائد
وجنده ، فتلحقون بأجنادكم ، فلما رأوا منه الجِد ، انقادوا إليه وأمكنوه
من ثابت بن نعيم وأولاده الأربعة ، فوضع السلاسل في أرجلهم . وأعطى
مروان جند الشام ما أرادوا من العودة إلى بلادهم ، فأخذهم معه وضمهم
عن الاعتداء والظلم . وكانت جنود قيس من أهل الجزيرة يكوّنون نواة
جيشه . حتى إذا ورد حرّان خلتى سبيل جند الشام . أما هو فقد بقي في
حرّان ، ووجد أن من الحكمة أن يبائع يزيد بن الوليد ، وخصوصاً أن
يزيد كاتبه على أن يباعه ويتولى في مقابل ذلك جميع البلاد التي كان أبوه
محمد بن مروان يتولاها أيام عبد الملك ، وهي الجزيرة وأرمينية والموصل
وأذربيجان :

ولكن يزيد بن الوليد مات بعد أن تولى الخلافة ستة أشهر ، وكان قد
عقد البيعة لأخيه إبراهيم بن الوليد خلفاً له ، فلم يتم له أمره ولم يبائع له إلا أهل
جنوب الشام^(١) . فعاد مروان إلى خطته القديمة على الفور . وعبر الفرات إلى
الشام وانضمت إليه قيس قنسرين تحت قيادة يزيد^(٢) بن عمر بن هبيرة ، كما انماز
إليه عرب حمص^(٣) . ولم يجد مقاومة إلا في عين الجرد عند نهر في سلسلة جبال .

(١) [يقول الطبري ج ٢ ص ١٨٧٥ : « وكان يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمرة :
وجمعة لا يسلمون عليه بالخلافة ولا بالإمرة ... وكانت ولايته سبعين ليلة » - المترجم] .
(٢) يقول المؤلف : يوسف بن عمر . . . وهذا خلاف لما في الطبري ج ٢
ص ١٨٧٦ - المترجم] .
(٣) ويجب بطبيعة الحال تصحيح كلمة Edesa التي وردت عند تيوفانيس في أخبار سنة
٦٢٣٥ ، بحيث تصحح Emesa . أعني حمص .

لبنان الشرقية (Antilibanus) ، حيث يلتقي نهر الليطاني (Lita) ، وهناك كان جيش جنوب الشام يقوده سليمان بن الخليفة هشام^(١) ، وكان سليمان ابن هشام هذا قد قضى كل صباه في حرب الروم ، وكان أحب شيء إليه أن يكون في ميدان القتال على رأس جنوده ، وكان الذكوانية هم الحرس للذي يحميه^(٢) ، ولكنه لم يكن كفواً لمروان ، فاشتبك معه عند ذلك الحين لأول مرة ، ثم اشتبك معه بعد ذلك مرات كثيرة ، فهزم سليمان وفر راجعاً إلى دمشق ، وتفرق جيشه الكبير . ولكن مروان بعد أن انتصر اصطنع العفو والحوادة ، فلم يقتل سوى اثنين من كلب وقعا في يده ، وكان لهما ضلع في مقتل الوليد بن يزيد . أما بقية الأسرى فقد خلى عنهم بعد أن قوى كل واحد منهم بدينار وألحقهم بأهلهم ، ولكن بعد أن أخذ عليهم البيعة للحكماء وعثمان ابني الوليد بن يزيد ، وكانا عند ذلك محبوسين في دمشق ، وكان من حكمة مروان أنه لم يخرج مطالباً بحق لنفسه ، بل أظهر أنه المدافع عن حق ورثة الوليد بن يزيد . وقد دفع ابنا الوليد حياتهما ثمناً لذلك ، لأنهما كانا في يد الأعداء ، فلما وصل سليمان بن هشام منهزماً إلى دمشق اجتمع إليه وإلى إبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج رؤوس من معهم ، مثال يزيد بن خالد القسري والأصبغ بن ذواله الكلي ، فقال بعضهم لبعض : « إن بقي الغلامان ، ابنا الوليد ، حتى يقدم مروان ويخرجهما من الحبس ويصير الأمر إليهما ، لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما ، والرائى أن تقتلهما ! » ، فولّوا ذلك يزيد بن خالد القسري ، فأرسل يزيد مولى لأبيه في حدة من أصحابه فدخل السجن وشدخ الغلامين بالعمد ، وقتل يزيد يوسف

(١) ويصف تيوفاني ذلك الموضع ؛ وهو يسميه Garis ويترجم كلمة Sita كما لو كان معناها : الملمون ؛ أما في السريانية فالموضع يسمى En Gara ، قارن DMZ ، ١٨٩٧ ص ٥٨١ وعين الجر تقع على الطريق بين بعلبك ودمشق (الطبري ج ٣ ص ٤٨) .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٩٢ ص ١٢ - المترجم] .

ابن عمر : وكان في نفس السجن . أما أبو محمد السفيناني فإنه تحصن في بيت من بيوت السجن ولم يمكن أخذه ، حتى دخلت خيل مروان بن محمد دمشق . وقبل أن يصل مروان كان سليمان قد استطاع في الوقت المناسب أن ينهب ما كان في بيت المال ويقسمه فيمن كان معه من الجنود ويخرج من المدينة^(١) ، وذهب مع إبراهيم بن الوليد إلى تدمر ، مقر قبيلة كلب . وبعد أن أسندت الأقدار مروان بن محمد بإزالة ابني الوليد بن يزيد من طريقه أخذ البيعة لنفسه في دمشق يوم الاثنين ٢٦ صفر سنة ١٢٧ هـ ، الموافق ٧ ديسمبر سنة ٧٤٤ م^(٢) . وكان أبو محمد السفيناني أول من بايعه . وزعم أن الحَكَمَ وعثمان ابني الوليد ، وهما يعالجان الموت ، قد أوصيا بأن يكون مروان هو الخليفة بعدهما ، وأنشد أبو محمد السفيناني قصيدة للحكم ابن الوليد ، قالها وهو في السجن ، يستغيث فيها بمروان ويصف يزيد بن الوليد بأنه : « الناقص القدرى » الذى أشعل نار الحرب ؛ وهى تنتهى بهذه الأبيات :

أَتُنْكَثُ بِيَعْتِي مِنْ أَجْلِ أُمِّي فَقَدْ بَايَعْتُمُ قَبْلِي هَجِينَا
فَلَيْتَ خُوُولَتِي مِنْ غَيْرِ كَلْبٍ فَكُنَّا مِنْ وِلَاةِ آخِرِينَا
فَإِنْ أَهْلِكَ أَنَا وَوَلِيَّ عَهْدِي فَمُرَّانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَا

وهكذا يشكو الحَكَمَ^(٣) من أنه ينتسب من جهة أمه إلى قبيلة كلب البغيضة ومن أنه قد فقد حقه في الخلافة لهذا السبب . ويزعم تيوفانيس أن

(١) [راجع في هذا مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٨٧٦ - ٧٨٧٩ - المترجم] .
(٢) هذا هو الصواب كما يقول إلياس النصيصي ، غير أنه يجب تصحيح يوم الثلاثاء الذى يذكره بحيث يكون يوم الاثنين ، وذلك طبقاً لما جاء في كتاب التنبيه للمسعودى ص ٣٢٥ ، وإن كان التاريخ الذى يذكره المسعودى غير صحيح .
(٣) [ظن المؤلف خطأ أن الشاكى هو أبو محمد السفيناني - المترجم] .

مروان ، بعد أن دخل دمشق ، قتل كثيراً من أشراف الناس ومن كان لهم
ضلع في مقتل الوليد وابنيه الحكم وعثمان ، وأنه قطع أيدي قوم آخرين
وأرجلهم ؛ ولكن الأغلب أن هذا ليس صحيحاً . ومن الجائز أن يكون
مروان قد أخذ بعض من هم ضلع حقيقي في مقتل الوليد بن يزيد بجريرتهم ،
إن كانوا قد وقعوا في يده . ويظهر أيضاً أن مروان قد اشتد مع الثائرين
من أهل الدين ، فهو قد قتل قيس بن هاني العبسي الذي تكلم عند بيعة
يزيد بن الوليد كلاماً جاوز فيه الحدود وأذى به بنى أمية جميعاً ، كما أن
مروان تعقب القدرية الذين كان يزيد قد قربهم إليه^(١) . ولكن الروايات
العربية تقول إنه دخل دمشق في المرة الأولى دون قتال ، وإنه لم يظهر ، ظهر
المنتقم . وإذا كان موالى الوليد بن يزيد قد ثاروا إلى عبد العزيز بن الحجاج
ابن عبد الملك فقتلوه ، وإلى قبر يزيد بن الوليد فنبشوه وصلبوه ، فإن ذلك
لم يحدث بأمر من مروان ؛ بل يحكى أن مروان سمح للعرب في الأقسام
الأربعة الكبرى التي كانت تتألف منها الشام^(٢) بأن يختاروا بأنفسهم من
يحبون أن يولوه على أجنادهم ، وهو لم يمانع ، عملاً منه بالمبدأ الذي سار عليه ،
في أن يكون ثابت بن نعيم الجذامي والياً على أجناد فلسطين ، مع أن ثابتاً كان
هو الذي تزعم حركة العصيان التي قام بها جند الشام في أرمينية ، وخروجاً منهم على
طاعة مروان . وقد أراد مروان بذلك كله أن يبعث الثقة في النفوس وأن يهدئ
الخواطر ، حتى إذا أتم عمله واستوت له الشام وعاد إلى منزله من حران ، طلب
الأمان منه خصمه الكبيران : سليمان بن هشام والخليفة إبراهيم بن الوليد ؛ فآهناهما

(١) يصف تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٤١) مروان بأنه جبرى (Fatalist) ، وذلك
لإنكاره القول بالاختيار ، والحقيقة أن مروان لم يكن بطبيعة الحال يراعى اعتبارات اعتقادية ،
بل اعتبارات سياسية .

(٢) هي فلسطين والأردن ودمشق وحمص . أما قنسرين ، فنظراً لأنها كانت لقيس
فهي لاحقة بأرض الجزيرة وكانت تعتبر منفصلة عن الشام .

مصطفي العفر والفضل . وقد قدما عليه في حرّان وصاروا في عسكره ، وكان يكرمهما ويدنيهما ، وكان يسيران معه في موكبه (١) .

وكان قتال مروان لأبناء عبد الملك قتالاً لكلب وقضاعة ، وقد انضمت إليه قيس وحاربت معه ، وهو أيضاً اتخذ مقر إقامته بين قيس ، في حرّان بأرض الجزيرة ، وهناك كان يقيم أبوه ، وكان هناك نما هو وترعرع ، وهناك كان يشعر أنه في وطنه (٢) . ويقول صاحب كتاب التنبيه إن جميع من ملك قبله من بني أمية كانوا ينزلون دمشق ، وأن منهم من كان يتبدّى (٣) . ومهما يكن من شيء فإن بعض خلفاء بني أمية ، وإن كانوا قد آثروا الإقامة بعيداً عن دمشق ، فإنهم لم يفعلوا ذلك لأسباب سياسية ، ولم يكن مقصدهم أن يُجسّروا دمشق من مكانتها كعاصمة للدولة . أما مروان فيظهر أنه كان في الحقيقة يقصد ذلك . فقد نقل مقر حكومته إلى حرّان ، ونقل إليها - كما يقول تيوفانيس - كل الأشياء والخزائن التي كانت في دمشق ، وقد جرّ هذا على مروان عواقب خطيرة ، ذلك أنه بعد حرمان دمشق من مكانتها أحسّ الشام كلّه - عدا الأجزاء الشمالية - أنه أيضاً قد انتزعت منه السيادة . وقد أخذت الخلافات بين الأحزاب تختفي وسط هذا الشعور شيئاً فشيئاً ، وأخذ الناس يشاققون إلى عودة العهد السابق . وإلى جانب ذلك لم يكن من اليسير بطبيعة الحال القضاء على ما كان هناك من ميل إلى البيت الشرعي الذي أُزيل عن العرش وكانت له علاقات وأواصر بجميع البلاد وتحويل هذا الميل إلى غاصب غريب عن أهل الشام ، أمّه أم ولد .

(١) [راجع في هذه الحوادث الطبري مثلاً (ج ٢ ص ١٨٩٠ - ١٨٩٢) - المترجم] .

(٢) [ويضمّر تيوفانيس ميل مروان إلى مذهب الجبرية بأنه كانت له علاقة وثيقة بالكراميين الذين بقوا في حرّان على وثنيهم .]

(٣) [راجع كتاب التنبيه والإشراف للمسمودي ص ٣٢٥ من طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ - المترجم] .

ولم ينتقض عام ١٢٧ هـ حتى انتقض الشام على مروان (١). ويظهر أن الثورة نشأت من جانب أهل فلسطين، لأن ثابت بن نعيم الجذامي كان هو روح الثورة؛ ولكنها امتدت إلى جميع الجهات ووصلت حتى إلى مدينة حصص التي كانت حتى ذلك الحين في جانب الوليد بن يزيد وجانب مروان. وفي الثاني من شوال سنة ١٢٧ هـ، الموافق ٧ يولييه سنة ٧٤٥ م (٢)، ظهر مروان أمام حصص، فذهبت عن أهلها شجاعتهم وسمحوا له أن يدخل المدينة، وغدروا بألف فارس من كلب كانوا قد جاءوا من تدمر مسرعين إلى نجدتهم (٣). وعند ذلك أرسل مروان جيشاً كبيراً إلى دمشق لكي يفك الحصار الذي ضربه عليها عرب الغوطة تحت قيادة يزيد بن خالد القسري، فشنت شمل المحاصرين وقتل يزيد ابن خالد القسري، وأحرقت المزة التي كانت عساً لرجال كلب. وبعد ذلك انجبه الجيش إلى مدينة طبرية قصبة الأردن، فطرد ثابت بن نعيم الذي كان يحاصرها،

(١) يذكر الواقدي (الطبري ج ٢ ص ١٧٤٢) سنة ١٢٨ هـ. بل يذكر إلياس النصيبى سنة ١٢٩ هـ. وأنا أتابع تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) كما أتابع الرواية الأساسية عند الطبري (ج ٢ ص ١٨٩٠) فابعداها). وستبين أسباب ذلك في أثناء كلامنا التالي، وكان من الممكن الخلط في التواريخ لأن مروان حاصر حصص مرتين: في سنة ١٢٧ هـ، ١٢٨ هـ. (٢) بعد عيد الفطر بيومين سنة ١٢٧ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٨٩٣).

(٣) يقول تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) إلى مروان صلب مائة وعشرين من كلب (Xδδβevoi). أما الطبري (ج ٢ ص ١٨٩٣ - ١٨٩٤) فهو يقول إن مروان صلب القتلى حول المدينة. وكان العباس بن الوليد يقيم في حصص. وفي سنة ١٢٦ هـ كان أهل حصص قد هدموا داره لأنه انحاز إلى جانب أعداء الوليد بن يزيد. ولكن يظهر أنه قد صار له من جديد تأثير على أهل حصص، وأنه غير اتجاههم السياسي وأثارهم على مروان، لأن مروان بعد أن استولى على حصص أخذه وحبسه. وجاء زنجى فوضع رأسه في كيس من الخبز كان قد جىء به للطبخ. وقد فرح لذلك النصارى، لأن العباس، وكان مسلماً متحمساً، قد أغضبهم على نفسه. وكان النصارى في ذلك الوقت لا يزالون كثيرين في حصص، ويحوز أنهم قاموا بنصيبهم في تسليم المدينة إلى مروان الذي كان بعيداً عن التمسك الدينى - راجع تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦)؛ والمعلومات الدقيقة التي يذكرها هذا المؤرخ أجدر بالتقديم على ما جاء في الطبري (ج ٣ ص ٤٣) من رواية موحدة.

ثم هُزم ثابت مرة أخرى في فلسطين وأُسر آخر الأمر (١) ؛ فأمر مروان بثابت وبنيه فقطعت أيديهم وأرجلهم ، ثم حُمِلوا إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدِها ، ثم قُتِلوا وصُلِبوا على أبواب دمشق . وأخيراً جاء دور مدينة تدمر ، المقر الأساسي لكُلب ، وكانت هي المدينة الوحيدة التي لا تزال قائمة . وقد توجه إليها مروان بنفسه ، ولكن الأبرش بن الوليد استأذن مروان في استعمال السياسة وطريق المفاوضة والتخويف ، فأفلح في تفادي الحرب ووصل إلى إقناع أهل تدمر بمبايعة مروان . وشخص كبار أهل المدينة أمام مروان ، ولم يهرب إلا أفراد قليلون خافوا على أنفسهم منه ، ففروا إلى بركة كلب (٢) .

وأخذ مروان البيعة لابنيه : عبد الله وعبيد الله ، في دمشق ، وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك ، وجمع للاحتفال بالزواج جميع بني أمية ، وكان هذا الزواج بمثابة حفلة رسمية للدولة . وكان مروان يعتقد في ذلك الوقت أنه قد استطاع أن يصلح ما بينه وبين أسرة بني أمية وأن يضعها إلى جانبه ، ثم دعا أهل الشام إلى الخروج في الحملة التي كان ينوي القيام بها على العراق ، ولم تكن العراق قد خضعت له بعد ، فتقدموا ، وأخذ منهم عشرة آلاف رجل ، وجهزهم بالسلاح والخيول ، وأمرهم أن يلحقوا بالجيش الآخر الذي كان يتألف من عشرين ألف رجل من أهل الجزيرة وأهل قنسرين ، وكان يسير تحت إمرة يزيد بن عمر بن هبيرة مع الفرات . أول سنة ١٢٨ هـ (ربيع سنة ٧٤٥ م) . فلما مر جيش العشرة آلاف رجل بالرصافة ، أقبلوا على سليمان بن هشام - وكان قد استأذن مروان ، وهو عائد معه من تدمر ، في أن يقيم في الرصافة أياماً حتى يحتم هو

(١) بحسب رواية الواقدي (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٢) كان ذلك في شوال سنة ١٢٨ هـ ، ويتجلى من تسميته بالأمم القديم : ابن الندائ ، أن نعيم بن ثابت هو عين ثابت ابن نعيم .

(٢) [راجع في هذا الطبري مثلاً (ج ٢ ص ١٨٩٢ - ١٨٩٧) - المترجم] .

ومواليه - ودعوه إلى خلع مروان ومحاربته ، وقالوا له : « أنت أرضى منه وأولى بالخلافة » . واستزله الشيطان ، فأجابهم . ومع أن مروان كان قد آمنه وأكرمه وأنه كان عنده من الأسباب ما يدعوه إلى أن يرعى عهد الولاء له ، فإن سليمان ، وهو القائد المحب للحرب الذي لا يحتمل الحياة الهادئة ، لم يستطع أن يقاوم الفتنة التي جاءت له ، فخرج إلى الثوار بإخوته وولده ومواليه واستولى على قنسرين التي كانت مجردة من الجند ، وتدفق إليه أهل الشام من كل ناحية ، حتى ليرى أن سبعين ألفاً كانوا في آخر الأمر تحت رايته . وعند ذلك أمر مروان فريقاً صغيراً من الجيش الذي كان في طريقه إلى الكوفة بالوقوف عند دورين تحت إمرة ابن هبيرة ، وقاد هو الجزء الأكبر من الجيش راجعاً إلى النائر الذي وثب في ظهره . وهاجم مروان سليمان في معسكره عند قرية يقال لها خساف^(١) ، غير بعيد من قنسرين ، فهزمه ، ولم يعامل العرب الذين أسرههم بشيء من العفو ، فكان لا بد لهم من الموت ، إلا من قال منهم أنه عبد مملوك ، ليُبقى على نفسه . ويذكر الطبري أن مروان قتل ما يزيد على ثلاثين ألف أسير ، أما عند تيوفانيس فإن عدد القتلى في جملتهم لا يتجاوز سبعة آلاف . أما سليمان بن هشام فقد انحاز مع فلول جيشه إلى حمص ، ولكنه بعد أن اقترب منه مروان فر إلى تدمر ومنها إلى الكوفة . وبقي الجيش في حمص بقيادة أخيه سعيد بن هشام ، فحاصر مروان مدينة حمص للمرة الثانية ولم يستطع أن يجبرها على التسليم في هذه المرة إلا بعد حصار أربعة أشهر واثنتين وعشرين يوماً^(٢) ، وبعد أن نصب عليها نيفاً وثمانين

(١) [يقول المؤلف : الخفاف ، وهذا يخالف ما عند الطبري ج ٢ ص ١٩٠٦ ص ١٤]

و ١٩١٣ ص ٢ - المترجم] .

(٢) هذا ما يقوله إلياس ، قارن أيضاً تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٧) . ويذكر الطبري (ج ٢ ص ١٩١٢) أن الحصار دام عشرة أشهر ، ولكن لا مجال لذلك ، ولعل حملة سنة ١٢٨ هـ كلها لم تدم أكثر من عشرة أشهر .

منجنيقاً تقذفها بالحجارة ليلاً ونهاراً ، حتى تتابع على أهلها البلاء والذل وطلبوا الأمان . وقتل مروان قوماً من ألد أعدائه . أما سعيد بن هشام وأبناؤه فبقوا أسرىهم وحبسهم^(١) . ولا يقال متى أخذ أبا محمد السفيفي وحبسه ، ولكن أخذته ثابتاً مما جاء في الطبري (ج ٣ ص ٤٣) ، وهو حادث طريف ، لأنه يدل على أن هذا الأموي أيضاً قد جرفته تيار الثورة التي لم تترك أحداً ، وقد هدم مروان أسوار حمص وبلعبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام الكبرى ، إلا أنطاكية فإنه لم يهدم أسوارها ، لأن أغلب أهلها كانوا نصاري^(٢) . ويدل هدم مروان للأسوار على أنه قد لاقى مقاومة من هذه المدن^(٣) . وفي سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) كان مروان قد انتهى من إخضاع الشام ، ف وقعت ممزقة تحت قدميه^(٤) .

٢ - وفي أثناء ذلك كان كل شيء في شرق الدولة مضطرباً وكان يزيد ابن الوليد في رمضان أو في شوال سنة ١٢٦ هـ قد أسند الولاية على العراق إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، وذلك مكان منصور بن جمهور الكلبي الذي ظل رغم هذا محتفظاً بمكانة لها تأثيرها في الكوفة . أما مقر الحكومة ومقر جند الشام فقد بقي في الحيرة ، وكانت الحيرة بمثابة مفتاح الكوفة . وإلى جانب هذا أمكن القبض على زمامها بفضل القصر الذي كان فيه صاحب الشرطة

(١) يقول تيوفانيس إن مروان قتل كل أفارب هشام وآله ، ولكن هذا غير صحيح (قارن بين ما جاء في الطبري ج ٣ ص ٤٣ وبين ما جاء في ج ٢ ص ١٩١٢) . ويدكر نفس الرواية قتل السكسكي الذي كان يعتبر فارس من أهل الشام مرتين في صورتين مختلفتين (الطبري ج ٢ ص ١٩١٢) . ومن الجائز أنه يجب التمييز بين معاوية السكسكي وأبي علاقة السكسكي ، والأخير منهما يسمى القضاعي ، وإن كانت سكسك إنما لحقت بقضاعة وانضمت إليها من غير أن يرجع نسبها إليها في الحقيقة .

(٢) راجع ما يقوله تيوفانيس في أخبار سنتي ٦٢٣٧ ، ٦٢٤١ .

(٣) ربما كان الراقدي غير محلي في أنه قد جعل أسر ثابت بن نعيم وقتله حوالى هذا الوقت .

(٤) [راجع في الحوادث المتقدمة الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٩٠٨ - ١٩١٣ - المترجم] .

ورجاله . وطبيعي أن يكون أهل الكوفة على غير رُودٍ مع جند الشام والغزاة عنهم . وقد عمل عبد الله بن عمر على ما فيه استرضائهم ، وربما كان بعض ما قصده من التغيير المستمر للعالم وأصحاب الشرطة (الطبري ج ٢ ص ١٩٠٢) هو أن يحقق هذا الغرض نفسه ، ولكن كان المال هو وسيلته الكبرى في ذلك ، فأعاد إلى مقاتلة الكوفة أرزاقهم وأعطياتهم ، بعد أن كانت قد منّعت عنهم لأنهم لم يكونوا في الحقيقة يؤدون واجبات حربية ولم يكونوا يستخدمون السلاح إلا في الثورة . وبعد أن مات يزيد ابن الوليد وتولى الخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد زاد عمر في الأعطيات . وقد تدمر قواد أهل الشام من ذلك ونازعوه فيه قائلين : « نُنْتَسِمُ على هؤلاء فَيَنْتِنَا ، وهم عدونا ! »^(١) . ولكن أهل الكوفة لم يرو فيا بلدا من روح الخير عند ابن عمر إلا دليلاً على الضعف ، فلما مات يزيد بن الوليد ظنوا أن مركزه قد تزعزع إلى حد أنهم اجتمعوا عليه بالثورة^(٢) .

ذلك أنه كان يقيم بين أهل الكوفة في ذلك الوقت رجل يمكن أن يعتبر من آل بيت النبي عليه السلام ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . فهو أحد أحفاد جعفر بن أبي طالب أخى على بن أبي طالب^(٣) ، وكان قد وفد هو وإخوته على عبد الله بن عمر يلتزم صِلَتَهُ ، لكنه بقي في الكوفة لا يريد عنها رحيلاً ، وتزوج من أسرة ذات نباهة . ونظراً للنسب

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٥٤ - ١٨٥٥ لتري أيضاً كيف استطاع ابن عمر أن يتغلب على الموقف بأن أخرج جند الشام من جهة وأراد أن يكبح جماحهم بجند الكوفة من جهة أخرى - المترجم] .

(٢) [وقد جاء هذا من جانب الشيعة بنوع خاص - راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٨٣ - المترجم] .

(٣) [تجد أخبار خروج عبد الله بن معاوية والروايات المختلفة في ذلك والظروف التي دعا فيها لنفسه أو حسن له غيره أن يفعل ذلك ، وما كان من جميع أمره عند الطبري ج ٢ ص ١٨٧٩ - ١٨٨٧ و ص ١٩٧٦ - ١٩٨١ - المترجم] .

فقد بدأ أنه أهل^(١) للخلافة (١) ، وقد أظهر استعداداه للخروج من أجلها ، وكان الزيدية ، أعنى الشيعة الذين كانوا قبل ذلك بوضع سنين قد ثاروا على حكومة هشام وعلى رأسهم زيد بن علي ، يكوّنون نواة أنصاره ، فجاءوا به وأدخلوه القصر وحالوا بين صاحب الشرطة وبين القصر ، وكان بينهم كثير من الموالي ، ولكن بقية أهل الكوفة بايعوه ، ثم خرجوا معه يريدون ابن عمر في الحيرة . ولم يكن في ابن عمر شيء من التراخي ، ولكن لم يكن من الممكن أن يخرج عن هدوئه شيء مهما كان . وكان إذا لم يستطع تغيير مجرى الأمور غام في تياراتها ، وقد ثبت له من التجربة أن ذلك يؤدي به إلى الغرض . وبينما كان يأكل ويشرب ترك لجنده من أهل الشام أن يصدوا المهاجرين ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد فرّ أهل الكوفة عند ما بدأ القتال ، وذلك في المحرم سنة ١٢٧ هـ (أكتوبر - نوفمبر سنة ٧٤٤ م) . ولكن كان الزيدية هم الذين قاتلوا قتال الشجعان ، بل صمدوا في القتال أياماً في القصر وفي شوارع الكوفة ، حتى حصلوا على الأمان لأنفسهم ولعبد الله بن معاوية ، يذهبون حيث شاءوا ، لا يمنعهم أحد (٢) .

فخرج ابن معاوية من الكوفة ، ولم يكن قد انتهى الدور الذي أراده ، وقصد إلى المدائن وبلاد الجبل (ميديا) ، فبايعه أهلها ، وكان قد أتاه قوم من

(١) [قال له أهل الكوفة ، بعد قيام النزاع بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد : أدع لنفسك ، فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان] الطبري ج ٢ ص ١٨٨٠ - المترجم [.
(٢) [يحكي المؤلف القصة كلها في اقضاب ؛ فلا بد من الرجوع إلى المواضع التي أشرت إليها في هامش سابق . أما ما يقوله عن عبد الله بن عمر فليس دقيقاً تماماً ، لأن الذي حصل هو أن ابن عمر كان رجلاً سياسياً هادئاً ، فلما جاءه خبر قدوم ابن معاوية إلى الحيرة لقتاله ، وخادمه بين يديه ليأذن له بتقديم الطعام ، لم ينزعج ، بل أطرق ملياً يفكر ، وكأنما أراد أن يجعل فترة تناول الطعام فترة رسم الخطة ، فلما انتهى من طعامه استدعى قواده ففريق فيهم الأموال ، وخرج بنفسه مع الجند وأدار المعركة على طريقته الخاصة ، وهي كما يقول المؤلف (ص ٣٦٩ عما تقدم) تعتمد على المال كوسيلة أساسية - راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٨٥ - ١٨٨٧ مثلا - المترجم] .

أهل الكوفة : ثم خرج إلى بلاد الجبل فغلب عليها ، وعلى حلوان وقومس وأصبهان والري ، وانضم إليه خصوصاً كثير من العبيد والموالي ، أى من الفرس . فاستقر أولاً في أصبهان ، لكنه ذهب إلى أصطخر في فارس سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ - ٧٤٦ م) ، وخضعت له أجزاء كبيرة من بلاد الجبل والأهواز وفارس وكرمان ، لأنه بدأ بحكم نسبه أهلاً للخلافة . وبايعه أيضاً آخرون من صغار الثوار الذين ظهروا في ذلك الوقت في تلك الناحية ، وانوا يريدون أن يُقَرِّهَم على ما غلبوا عليه ، ومنهم محارب بن موسى وسليمان بن حبيب (١) . وجاء آخرون من بني أمية وبني العباس ممن لم يأمنوا على أنفسهم في أوطانهم ، فاستتروا تحت جناحه ، طامعين في أن ينالوا منه صِالةً أو ولاية . أما التشيع الذي ارتفع شأن ابن معاوية بسببه فقد كان عنده شيئاً ثانوياً ، وقد التفّ حوله كل ألوان الناس : وهكذا قامت فجأة في المشرق الذي لم يكن له سيّد دولة شاسعة من الدول السريعة الزوال : وهذا من العلامات التي كان يتميز بها ذلك العصر .

ثم إن ابن عمر أسعده الحظ بالتخلص من عبد الله بن معاوية (في المحرم سنة ١٢٧ هـ) . ولكن ابن عمر لم يعترف بخلافة مروان بن محمد (صفر سنة ١٢٧ هـ) ، بل هو بعد أن سقطت حكومة الأمويين في الشام كان هو الذي يمثلها في العراق دون أن يظهر بمظهر الخلافة ، وكان مُعَوَّلُهُ على قبائل البغاثية من أهل الشام (قضاة وكتب) ، وهى على كل حال لم تتعلق به إلا لأنه لم يكن هناك خير منه . وكان أهل اليمن قبل ذلك بزمان طويل يؤثفون الشطر الأكبر من جنود الدولة ، وصاروا يكوّنون ما يشبه المستعمرة في الكوفة والحيرة ، ولكنهم إذ ذاك برزوا أكثر من ذي قبل ، بعد أن ثقل عليهم العناء والسأم من أمر بلادهم ،

(١) لا شك أن هذا شخص آخر غير القاضى المسمى بالاسم نفسه والذي كان قاضياً في الشام في عهد الوليد وسليمان وهشام ، أبناء عبد الملك .

وبعد أن أصبحت أبوابها موصلةً دونهم . وقد شد من أزرهم مهاجرةٌ آخرون ، لم يستطيعوا ، أو هم لم يريدوا ، أن يسالموا مروان ، كما زادهم قوةً إخوةً وأبناءً لخالد القسرى وقوادٍ من كلب ، من طراز منصور بن جمهور ، وآخرون من زعماء أحزاب الأقلية في الشام ، ممن جاءوا بأهلهم معهم ، وعندما يرد عند الطبرى ذكر أهل اليمن في حروب ذلك العصر ، فإن المقصود عادة هم يمن الشام في الكوفة .

ولم يستطع مروان في أول الأمر أن يفعل أكثر من أن يعيّن على العراق أحد كبار رجاله ليكون والياً مُضْتَادّاً لعبد الله بن عمر ، وهو النضر بن سعيد الحرشى . وكان النضر قيسياً ؛ وكان أبوه قائداً وعاملاً ناهياً تخرج في مدرسة الحجاج ؛ وقد أفلح في أن يضم إليه المُضْطَرِّين الذين كانوا في جيش الشام ، ولكن أهل اليمن ، وخصوصاً كلباً - وكانوا هم الغالبية وكان منهم الأصبغ بن ذواله القائد الكبير وأحد قتلة الوليد بن يزيد - بقوا على ولائهم لعبد الله بن عمر ، والى القديم . فاستطاع عبد الله أن يثبت في الحيرة ، على حين نزل الحرشى في دير هند . وقد لبث الواليان المتنافسان أربعة أشهر يتناوشان فيما بين الحيرة والكوفة ولكن لم يكده يحدث في هذه المناوشات اشتباك دموى حقيقى ، ثم اضطرهما إلى الصلح خطرٌ هددتهما معاً (١) .

وذلك أن الخوارج ظهروا على المسرح واحتلوا المكان الأول حيناً من الزمان ، وكانوا دائماً فيما قبل قليل العدد . ولذلك كان لا بد لهم من الاكتفاء بالحروب الصغيرة . ومع ذلك استطاعوا أن يتعبوا أميراً كبيراً كالحجاج ، بما كلفوه بذله من جهد ، لكنهم لم يكن عندهم اهتمام جدوى بالتوصل إلى تولى الحكم ، بل كانت سياستهم « غير سياسية بقية » ، وكانت غايتهم أن ينجوا بأرواحهم من شرور هذه الدنيا ، لا أن يسيطروا على العالم الإسلامى ، لأنهم

(١) [راجع الطبرى مثلاً ج ٢ ص ١٨٩٧ فما بعدها - المترجم] .

كانوا يتبرؤون من غيرهم من المسلمين . فأما الآن فقد تَصَخَّصَتْ جماعتهم الصغيرة ، فصارت جماهير كبيرة ، هذا إلى أنهم تركوا ما كانوا عليه من تشدد أخرجهم على الناس وباعد الناس عنهم ، وصاروا يقبلون كل من ينضم إليهم ليعينهم على تحقيق أغراضهم . وهم وإن كانوا قد أخذوا من كان ينحاز إليهم بأن يقول بمقاتلتهم في الدين ، فإنهم لم يطردوا حليفاً أراد أن يقاتل في صفوفهم . على أنهم الآن لم يكونوا في الحقيقة يسعون إلى الجنة ، بل صاروا يطمعون في ملك الدنيا ، وصاروا في مبدان التدافع من أجل السيادة المتداعية ينافسون غيرهم بنفس وسائل هؤلاء ، ولم يكن بينهم وبين الظفر إلا قليل ، ولو أنهم ظفروا لما بقوا خوارج النزعة كما كانوا .

وقد بدأت الحركة في أرض الجزيرة ، وهي الولاية التي كانت بمثابة وطن مروان ، لكنها لم تبدأ بين قيس في الجنوب بل بين ربيعة في الشمال ، وكانت ربيعة من قبل متباعدة دائماً بعض التباعد عن بقية العرب المسلمين ، خصوصاً عن مضر ، منافسيهم القدماء . وكانت ربيعة قد اضطروا أن يتخلوا لمضر عن أرضهم القديمة ولم تكن نفوسهم راضية بأن تكون في مضر النبوة والخلافة . وكانت شيبان بكر بنوع خاص — وكانوا يقطنون ناحية الموصل على ضفتي نهر الدجلة — هم مقدمة جيوش الخوارج منذ أيام شبيب ابن يزيد . وبعد أن قتل الوليد بن يزيد ثار بينهم سعيد بن همدل الشيباني وباع لنفسه خليفة على الخوارج ، وهو بعد أن تغلب على بسطام البهسي — وكان هذا قد خرج منافساً له في وطنه ومفارقاً لرأيه — خرج إلى الكوفة حيث كانت تلوح له آمال في النجاح أكثر مما كانت تلوح في البلاد التي كانت لمروان . ولكن سعيداً مات وهو في الطريق ، فخلفه في منصبه شيباني آخر ، هو الضمحاك بن قيس ، من بيت مُرَّة النابه الذي كان منه شبيب أيضاً ، فانهاز إليه الخوارج في شهرزور وأمينية وآذربيجان ، حتى صارت

تحت لوائه آلاف كثيرة . وتوجه معهم إلى الكوفة ، وقد تضافر عليه
الواليان المتنازعان هناك (ابن عمر والحرشى) ، ولكنهما لم يستطيعا صدّه ،
وهُزمَا في رجب سنة ١٢٧ هـ (ابريل سنة ٧٤٥ م) أقبح هزيمة . وعلى
أثرها أخليا الكوفة ، فأما الحرشى فإنه توجه إلى مروان في الشام ، وأما ابن
عمر فإنه لحق بواسط^(١) ، وكان قد سبقه إليها بعض أصحابه من كلب ،
وفي شعبان سنة ١٢٧ هـ (مايو سنة ٧٤٥ م) اتبعه الضحاك وحاصره .
وقد تميز في قتال الخوارج منصور بن جمهور ، ولكنه كان أول من جنى
إليهم^(٢) وقبيل مقاتلتهم في الدين ، وذلك بأن أعلن أنه قد أسلم وامتنل
لكلام الله^(٣) . وفي أواخر شوال سنة ١٢٧ هـ (أول أغسطس ٧٤٥ م)
سلم لهم ابن عمر أيضاً بعد شيء من التردد ، ودخل في طاعة الضحاك
وصلّى خلفه ، فقال أحد الشعراء في هذه البيعة :

ألم تر أن الله أظهر دينه فصلت قريش خلف بكر بن وائل

(١) هذا ما جاء عند الطبرى (ج ٢ ص ١٨٩٩) . أما أبو عبيدة (الطبرى ج ٢
ص ١٩٠٢) فهو يقول إنهما جميعاً هربا إلى واسط وعادا هناك إلى نزاعهما السابق ، ولم
يصبرا يداً واحدة إلا بعد أن ظهر الخوارج ، ولكن أبا عبيدة يقول أيضاً إن الحرشى في
واسط لم يشترك في قتال الخوارج ولا في الصلح معهم . فلا بد إذن من أن يكون قد اختفى
سرياً وذهب من واسط إلى الشام (الطبرى ج ٢ ص ١٩١٣) ، وفي هذه الحالة يجوز أن
يكون قد قتل عامل الكوفة من قبل الضحاك ، كما يحكى أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٠٣ ،
١٩١٤) . أما بحسب ما جاء في رواية عند الطبرى (ج ٢ ص ١٨٩٩) فما بعدها ،
ص ١٩٣٨) فإن الذى فعل ذلك هو عطية التغلبى ، وهو يشق طريقه من واسط إلى الكوفة
فالشام ، في سبعين أو ثمانين من قومه .

(٢) [كان الخوارج يقاتلون كأنهم الأسد عند أشبالها ، وقد هرب جنود ابن عمر
والحرشى أمام شدة بأسهم . وقد قاتلهم منصور بن جمهور أشد قتال ، حتى إذا رأى ألا أمل
في قهرهم أشار على ابن عمر أن يرخصهم ويحمل بأسهم على مروان بن محمد ، فتردد ابن عمر ،
فانحاز منصور إلى الخوارج وناداهم : إني جانيح أريد أن أسلم وأسمع كلام الله . وكان لابد لمن
يريد أن ينضم إليهم من أن يقول ذلك ، وكان ذلك امتحانهم له . وقد لحق بهم منصور
وبأيدهم — المترجم عن الطبرى ج ٢ ص ١٩٠١ ، ١٩٠٧ المترجم] .

(٣) كان الخوارج يعتبرن أنهم هم وحدهم المسلمون ، وكانوا يعتبرون من عداهم من
جماعة المسلمين غير أهل هذه التسمية .

والشاعر يعبر هنا عن صجبه من أن أحد الأمويين بايع خارجياً من شبليان على الإمامة ، ذلك أن الانتقال السياسي في هذه الحالة كان في نفس الوقت انتقالاً دينياً . والحقيقة أن هذا التغير كان عجبياً ، وفوق هذا لم يأنف ابن عمر أن يكون والياً من قبل الخوارج على كسكر وميسان ودستميسان وكور دجلة والأهواز وفارس وفي أن يبقى في واسط . ووقع ابن عمر وهو في هذا المنصب في نزاع مع عبد الله بن معاوية ، جاره من جهة المشرق :

أما الضحاك فقد رجع إلى الكوفة ، ومنها صار يحكم النصف الغربي من دولته ، ويُروى أنه بعد أن بقي بعيداً عن وطنه عشرين شهراً^(١) رجع إليه في أرض الجزيرة في وقت كان فيه مروان مشغول باليدين تماماً في الشام ، ولكن لاشك أن رجوعه لم يكن قبل منتصف سنة ١٢٨ هـ (ربيع ٧٤٦ م) ، جاء الضحاك واستولى على الموصل وأخرج منها عاملها ، وكانت قد التفت إليه جموع كثيرة ، وخصوصاً أنه كان يدفع لهم أعطيات كبيرة . ويقال إن جيشه بلغ مائة وعشرين ألف رجل . وطبعت أن هذا العدد يستند إلى تقدير شعبي . ولكن تيوفانيس يقول إن الضحاك كان له جيش هائل وكان معه مهاجرة كلب ومغامروهم ، ويمكن أن نعتقد منهم سليمان بن هشام ابن عبد الملك الذي كان قد أنقذ فرقة الذكوانية من هزيمة معركة يوم خنساف وانحاز في أربعة آلاف رجل إلى الخوارج :

وبينا كان مروان يخضع الشام كان يتعرض لخطر ضياع أرض الجزيرة من

(١) هكذا عند الطبري (ج ٢ ص ١٩٣٨) . أما أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ١٩١٤) فيقول إن الضحاك خرج إلى الجزيرة في ذي القعدة سنة ١٢٧ هـ (أغسطس - سبتمبر سنة ٧٤٥ م) كما يقول أيضاً إن مروان انتهى من إخماد حمص في نفس الشهر من السنة نفسها (الطبري ج ٢ ص ١٩١٣) ، ففرغ للضحاك . والتاريخان مرتبطان ، ولكن السنة غير صحيحة في الحالين ، أما في التاريخ الثاني فالشهر صحيح .

يده ، وهى القاعدة التى كانت تستند قوتُه إليها . ولكنه لم يترك ما كان مشغولاً به من حصار حصص ، بل اكتفى مؤقتاً بأن كلف ابنه عبد الله - وكان قد تحلفه وراءه على أرض الجزيرة - بأن يخرج إلى نصيبين ليشغل الضحاك عن توسط بلاد الجزيرة ، بعد أن كان مروان قد غلب على الموصل . فسار عبد الله حتى بلغ نصيبين ، ولكنه بعد قتال لم يمكنه المضى فيه لكثرة جيش الضحاك تفهقر إلى ما وراء أسوار المدينة وحوصر هناك : غير أن الضحاك أخفق فى محاولته الاستيلاء على الفرات عند الرقة . وكان مروان فيما بين ذلك قد استطاع أخيراً أن يقهر حصص ، ثم خرج بنفسه إلى الرقة لقتال الخوارج ، والتقى الجيشان عند كَفَرْتُوثَا ، فقتل فى اليوم الأول للمعركة ، لأنه كان من عادته أن ينزل الميدان ولا يبالى . وهو فى مساء ذلك اليوم ترجل فى أهل الثبات من أصحابه - وأكثر جنده لا يعلمون ما كان منه - فأحدقت به خيل مروان فألححت عليه هو وأصحابه حتى قتلهم عند العتمة ، ولم يكن يعلم بقتله أحد . ولما علم مروان أرسل فى البحث عنه على ضوء النيران والشمع ، فوجدوه ، وتبين أنه كان فى وجهه أكثر من عشرين ضربة . وتولى قيادة الخوارج بعده رجل من بنى شيبان اسمه الخبيري ، فعادوا الهجوم من بعد غده ، وتقدم حتى اقتحم معسكر الأعداء ، ففر مروان فى قلب جيشه ، ووصل الخبيري إلى حجرة مروان وجلس على فرشه . ولكن تكاثر عليه عبيد من أهل العسكر ، وضربوه بعمد الخيام وقتلوه . وكان ذلك فى أواخر سنة ١٢٨ هـ (الموافق حوالى سبتمبر سنة ٧٤٦ م) (١) .

(١) يتفق تيوفانيس (أخبار سنة ٦٢٣٦) مع عبد الوهاب صاحب الرواية الأساسية عند الطبرى ، فهو يقول إن الضحاك ثار سنة ١٢٧ هـ فى Persis ، أى فى العراق ، وإنه ظهر فى أرض الجزيرة سنة ١٢٨ هـ ، وأرسل إليه مروان ابنه فى أول الأمر ثم خرج إليه مروان بنفسه بعد فتح حصص وقتل الثوار .

ولكن الخوارج لم يُغلبوا إلا في السنة التالية^(١) ، وكان لا يزال لهم جيش في أربعين ألف رجل ، وقد بايعوا شيبان بن عبد العزيز البشكري (أبا دلف) خليفة عليهم . وأشار عليهم سليمان بن عبد الملك بأن يرجعوا إلى الضفة الشرقية من نهر دجلة بإزاء الموصل ، ولكن الموصل كانت ما تزال بأيديهم وكانوا يعبرون إليها على جسر من المراكب . وكان مروان معسكراً قبالتهم على الضفة اليمنى ، وقضى أشهراً طويلة من سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ - ٧٤٧ م) من غير أن يصل إلى انتصار حاسم . ولم يتزحزح الخوارج عن موقفهم على نهر الدجلة إلا بعد أن فقدوا سيادتهم على العراق ، فعند ذلك لم يستطيعوا أن يصدوا الجيش الذي كان مسرعاً من جهة الكوفة لمساعدة مروان وأرادوا أن يتجنبوا الوقوف بين نارين ، فتخلوا عن مركزهم في الموصل حوالى آخر سنة ١٢٩ هـ (أغسطس ٧٤٧ م) واجتازوا الجبال قاصدين جهة المشرق .

وكان عامل مروان الذي انتزع العراق من يد الخوارج ، فجعل مقامهم على الدجلة مستحيلاً ، هو يزيد بن عمر بن هبيرة ، من قيس قنسرين ، وكان أبوه في عهد يزيد بن عبد الملك أميراً على الكوفة . وكان قد خرج إلى هناك في أوائل سنة ١٢٨ هـ ، ولكنه اضطر إلى أن يقف طويلاً على الحدود عند قرقيسيا ، ولم يستطع الهجوم إلا في أواخر تلك السنة أو في أوائل سنة ١٢٩ هـ ، وبعد اشتباكات كثيرة موفقة مع المثني بن عمران — وكان هو من قبل الخوارج الوالى الذى كان منصور بن جهمور يحارب تحت إمرته — أفلح في دخول الكوفة في رمضان سنة ١٢٩ هـ (مايو أو يونيو سنة ٧٤٧ م)^(٢) ، وبعد ذلك استولى

(١) تيوفانيس — في أخبار سنة ٦٢٣٩ = ١٢٩ هـ .

(٢) هذا ما يقوله أبو مخنف (الطبرى ج ٢ ص ١٩٤٦) ، وهو وإن يكن مؤرخاً عالماً كالواقدي فإنه في هذه الحكاية لابد أنه كان على علم بالامر ، لأنه كان في ذلك الزمان يعيش في الكوفة شيخاً كبيراً ، أما أبو عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ١٩١٤) فما بعدما فهو يذكر أخباراً أخرى ، ولكنه ليس أهلاً للثقة ، وهو وإن كان يعرف تفاصيل طريفة ويقتص قصصاً متنازلاً فإنه من حيث هو مؤرخ لا تصح مقارنته بأبي مخنف .

وعلى مدينة واسط وأسر عبد الله بن عمر . أما منصور بن جمهور فقد فرّ مع أصحابه من كلب إلى بلاد عبد الله بن معاوية ، وكان الخوارج الذين كانوا يقاتلون مروان على الدجلة قد تفهقروا هم أيضاً إلى هناك ، فارتفع شأن ابن معاوية بحكم هذه الظروف حيناً ، بعد أن لم يكن له كبير شأن ، ولا شك أنه لم يكن يحلم بذلك . فقد اجتمع إليه الشيعة والخوارج وكتب العباسيون والأمويون . وقد بدا أن كل الفوارق في هذه الكلمة المتعصبة الموالية لمروان قد تلاشت . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تفرقت هذه القلول المختلفة التي ألفت بينها الضرورة ولم تحتل الحياة معها (١) .

وعاد مروان إلى مقر حكومته في الحيرة ، وكان له أن يعطى نفسه شيئاً من الراحة (٢) ، ذلك أن أهم ولايات الدولة : الجزيرة والعراق والشام ومصر ، كانت قد خضعت له ، وأيضاً كان قد تم القضاء على خوارج حضرموت الذين فتحوا صنعاء ومكة والمدينة في جزيرة العرب ، وكان القضاء عليهم في سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) . وقد لبث مروان في ميدان القتال ما يقرب من ثلاث سنين ، حقق فيها وهو يحارب عالماً معادياً له ، انتصارات غير مألوفة ، وقد فاق كل من كان قبله من ملوك بني أمية بفضل قدرته الشخصية على احتمال الجهد والمشقة .

وهو قد ترك محاربة الخوارج ومحاربة ابن معاوية في المشرق لابن هبيرة ، عامله على العراق . أما الجيش الذي أرسله إليه ابن هبيرة لمساعدته في حرب الخوارج عندما كانوا على نهر دجلة فقد كان تحت إمرة عامر بن ضبارة ، فكلّفه مروان بمطاردتهم ، ففعل حتى دخل بلاد ابن معاوية . وكان معه قائد

(١) [راجع فيما يتعلق بحرب مروان مع الخوارج منذ الضحاك وخلقاؤه الطبري مثلاً ج ٢ ص ١٨٩٧ - ١٩٠٨ ، ١٩١٣ - ١٩١٦ ، ١٩٣٨ - ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ - ١٩٤٩ - المترجم] .

(٢) ومن المشكوك فيه أنه كان ينوي ذلك . وقد استفاد الروم من الحرب الأهلية ، فوسّعوا حدودهم نحو الشرق ، وربما أن مروان كان إذ ذاك يريد أن يتحول لمحاربهم . على أنه هاجم قبرس من مصر ، لكن دون أن يظفر بما أراد .

آخر من قواد ابن هبيرة هو ثباتة بن حنظلة . وقد هُزم ابن معاوية وهو يحارب ابن ضهارة في مرو الشاذان سنة ١٣٠ هـ ، فترك دولته وشأنها وفرّ من الأعداء إلى خراسان ، وهناك قتله أصحابه . أما شيبان بن عبد العزيز اليشكري ، قائد الخوارج ، فإنه ذهب إلى الساحل الشرقي من جزيرة العرب ، وقتل أخيراً ، وهو يحارب بني جلعندى أمراء عمان ، وكانوا قد استوطنوها منذ زمان طويل ، وكان قتله سنة ١٣٤ هـ^(١) . وأما ساجان بن هشام ومنصور ابن جمهور فقد عبرا البحر متوجهين إلى أرض السند^(٢) .

حتى إذا أفلح قواد ابن هبيرة في تثبيت هذه الكتلة ، التي تألفت من مغامرين ، وكانوا على أحسن أهبة لإخضاع العرب في فارس لسيادة مروان إخضاعاً تاماً ، انبرى لهم خصوم جدد لا قتل لهم بهم ، وهم أهل خراسان تحت اللواء الأسود لبني العباس . وقد حاول نصر بن سيار عامل بني أمية على خراسان في ثنانيا سنين طويلة أن يحذرهم من الخطر الداهم ، وهو ألح أيضاً في طلب المعونة لإخماد النار قبل الضرام ، فذهب سعيه سدى . ذلك أن مروان كان عنده في وسط الدولة من المشاغل ما يكفيه ، وكان لا يريد أكثر من أن يستطيع المحافظة على ما صار في يده . حتى إذا كان مروان في ذروة نجاحه برز له فجأة ذلك الشبح الأسود الذي لم يكن قد فطن إليه . واستطاع أهل خراسان أن يضيعوا عليه ثمرة عمله الشاق ، وذلك في الوقت الذي كان يبدو فيه أنه قد وصل إلى الغرض . والواقع أنه لما ظهر أبو مسلم كان أقوى من مروان .

(١) هكذا عند الطبري ج ٣ ص ٧٨ ، قارن أيضاً ج ٢ ص ١٩٤٥ ، ١٩٤٩ ، ١٩٧٩ ، أما أبو مخنف (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٨) فهو يقول إن شيبان بن عبد العزيز قتل في سجستان سنة ١٣٠ هـ . والأرجح أنه يخلط بينه وبين شيبان بن سلمة الحروري الذي لعب في ذلك الوقت نفسه دوراً في خراسان وقتل بالفعل سنة ١٣٠ هـ ، لكن لا في سجستان بل في سرخس .

(٢) راجع نهاية أمرهما في الأغاني (ج ٤ ص ٩٦) واليعقوبي (ج ٢ ص ٤٣٠) .
و الطبري (ج ٢ ص ٧٢ ، ٨٠) .

الفصل الثامن

القبائل العربية في خراسان

١ - كانت ثورة الفرس من أهل التشيع في خراسان هي السبب في السقوط النهائي لدولة بني أمية ، لكن الذي مهد لهذه الثورة هو ما سبق ذلك من أحداث في تاريخ خراسان ، وخصوصاً تلك العداوة المستمرة التي كانت بين قبائل العرب هناك ، وهي عداوة كانت قد بدأت في البصرة من قبل ، وذلك أن خراسان كانت أشبه بمستعمرة تابعة للبصرة ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الموقف في خراسان فإن عليه أن يرجع إلى معرفة الأحوال التي كانت في البصرة من قبل أو تطورت عما كان هناك .

وفي أول العصر الأموي ، أدى التحاسد بين القبائل في الكوفة إلى ضروب من التوتر ، لكنه لم يؤدّ إلى انفجارات معها أعمال عنيفة ، ولم يكن النظام من الدموي إلا بين الأحزاب السياسية . أما في البصرة فكانت الظروف في أول الأمر تكاد تكون شبيهة بما كانت عليه في الجاهلية ، فكانت السمخات في صورتها الكامنة والظاهرة تملأ نفوس القبائل ، لكنها كانت بين مجموعات القبائل أكثر مما كانت بين القبائل منفردة . وكانت أكبر مجموعة قبلية تتألف من تميم ورباب ، وكان قد انضم إليها أساورة الفرس ، ودخل الزط والسيابية من الهنود في حماها ، لأنها كانت أقوى مجموعة (١) . وكان ما بين تميم ورباب متبايناً منذ الزمن القديم ، ثم انضمت عبد القيس إلى بكر في البصرة ، وكانت عبد القيس

(١) البلاذري (ص ٣٧٢ فا بعدها) ، والكامل (ص ٨٢ س ١٦ فا بعده) .

قليلة العدد في الكوفة ، وكانت الأزدي هي التي تمثل قبائل اليمن ، على حين أن مذحج وهمدان وكندة - وهي القبائل العربية الأصيلة الناهية - كانت هي أكبر القبائل في الكوفة (١) .

ولم تنفوا الأزدي في البصرة إلا من طريق هجرة جاءت متأخرة ، في أواخر أيام معاوية وفي أيام يزيد ابنه (الطبري ج ٢ ص ٤٥٠ والبلاذري ص ٢٧٣) . ولم يرض الناس أن يكون هؤلاء المهاجرين المحدثين الذين لم يشتركوا في الفتوحات الكبرى في عهد عمر وعثمان ما كان للقبائل القديمة من حقوق (الطبري ج ٢ ص ٧٧٩) . وكان مجيء هؤلاء الأزدي سبباً في تغيير ما كان للقبائل حتى ذلك الحين من قوة ، بعضها بالنسبة لبعض ، وإن كان الأزدي لم يبلغوا أوج عزهم إلا على يد المهلب وأبنائه . وكانت تميم تريد في أول الأمر أن تكسب صداقة الأزدي وأن تجعل منهم حليفاً لها ، ولكنها لم تخطُ الخطوة الأولى في سبيل ذلك ، لأن الأحنف بن قيس حكيمها الأكبر وصاحب الكلمة النافذة ، قال لها إن من يبدأ بطلب الحلف يكون له دائماً الشان الثاني فيه (٢) . لذلك سبقتهم ربيعة إلى ذلك ، فحالفوا الأزدي حلفاً أكدته اليهود والمواثيق (الطبري ج ٢ ص ٤٥٠ ، ١٤٩٧) . ولما كانت تميم حليفة لأهل العالمة ، أعنى متحدة مع قيس ، فقد نشأ عن ذلك انقسام

(١) ويقابل أرباع الكوفة أخماس البصرة وخراسان وهي : ١ - بكر ، ٢ - عبد القيس ، ٣ - تميم ، ٤ - الأزدي ، ٥ - أهل العالمة (أهل المدينة) خصوصاً قيس - الطبري (ج ٢ ص ٤٦١ س ٢١ ، ١٣٨٢) ، ومعنى الربع والخمس معروف ، لكنهما يستعملان كما نستعمل نحن كلمة : الحزب أو القوم ، في تقسيم لا يتحتم أن يكون في الحقيقة ربعاً أو خماسياً ، ذلك أنه كان يلحق بالقبائل الكبرى التي تسمى الأخماس طبقاً لها ، أجزاء من قبائل أصغر ، مثل لحاق كندة وطى بقبائل بكر في البصرة .

(٢) [لما نزل الأزدي في البصرة قالت تميم للأحنف : بادر إلى هؤلاء قبل أن تسبقنا إليهم ربيعة ! فقال الأحنف : إن أنوكم فاقبلوهم ، وإلا فلا تأنوهم ، فإنكم إن أنيتوهم ، صرتم لهم أتباعاً . ولما سعت ربيعة لمخالفة الأزدي ، قال الأحنف في ربيعة : أما إذ أنوهم فلن يزالوا لهم أتباعاً أذناباً] المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٤٥٠ .

إلى قسمين ، فكان هناك الأزدي (البن) وحلفاؤهم من ربيعة في جانب ، وكانت مضرب (تميم وقيس) في الجانب الآخر . ولكن لا يصح أن يظن الإنسان أن جميع الأزدي لم يهاجروا إلى البصرة إلا حوالي سنة ٦٠ هـ ، بل كان هناك أزدي من قبل وكانوا هم وأزدي الكوفة ينتمون إلى الفرع الغربي ، خصوصاً إلى دوس ، وكان هذا الفرع يقطن جبال الصراة ، لكن لم يكن لهم كبير شأن حتى زادت قوتهم بفضل العدد الجديد الذي لحق بهم وكان أكبر منهم بكثير ، وهو قد جاء من عمان على الساحل الشرقي للجزيرة العرب . وكان أزدي عمان ، خلافاً لأزدي الصراة ، يسمون مزون ، ولكنهم كانوا يكرهون هذه التسمية لما كان يبدو فيها من إشارة إلى أصلهم المشترك ، فقد كان يقطن عُمان كثير من غير العرب ، وكانوا يُسَبِّزُون بصناعتهم القديمة ، وهي صيد السمك ، كما كان يُسَبِّزُ أزدي غرب الجزيرة باشتغالهم بالحياكة .

وفي سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ وَجَّه معاويةٌ إلى البصرة بابن الحضرمي لكي يؤتَّب على عليّ ، مستعيناً بتميم . ولا بد أن يكون قد أفصح أن يضم إليه شطراً كبيراً من تميم ، لأن زياد بن أبيه ، ذلك العامل الشاب الذي كان إذ ذاك حليفاً لأمير البصرة ، طلب من بكر أن ينزلوه في جوارهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا كلمتهم ، فاجأ إلى أزدي الصراة فوجد ركناً حصيناً لنفسه وليت المال عند رئيسهم صبرة بن شَيْمَانَ الحداني (من دوس) ، ولكن علياً قام بمحاولات بواسطة أوليائه من تميم لكي يصرف تميم البصرة عن ابن الحضرمي ، فقتل أول رسول كلفه بذلك ، لكن ورسوله الثاني ، وكان جارية بن قدامة ، أصاب نجاحاً ، فتخالت تميم عن ابن الحضرمي ، وتحاصره جارية في دير سنبل وأحرقه هو وأتباعه . وقد حفظت لنا الأيام أبياتاً في ذم تميم بسبب هذا الحادث الذي ظل عاره لاحقاً بهم زماناً طويلاً (راجع رواية المدائني عند الطبري ج ١ ص ٣٤١٤ فما بعدها) .

وكان ذلك هو مبدأ المودة بين الأزد وبين زياد وأسرته ، وكان زياد يحفظ لهم الجميل دائماً (الطبرى ج ٢ ص ٨٠) ، وأوصى أبناءه بأن ياجأوا إليهم ، إذا ضاقت بهم ضائقة (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٠) . وكان الأزد فى أصل الأمر عنصراً محايداً أمام التنافس بين تميم وبكر ، فكانوا لذلك عنصراً من شأنه أن يكون ملائماً لاعتماد الحكومة عليه .

ولم يقع الانفجار الحقيقى فيما كان بين القبائل من سخائم إلا بعد هجرة أزد عمان إلى البصرة وإلا بعد موت يزيد بن معاوية ، وكان هذا الانفجار سبباً فى زلزلة سيادة الأمويين فى كل مكان . وأخبار ذلك مُفَصَّلة تفصيلاً وافياً عند الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٣ فما بعدها) ، لكنها لا تخلو من تعقيد . ومما يعود على الباحث بالفائدة أن محل العقد ويتبين الخطوط البسيطة ، وخصوصاً أنه لا يكاد بدون ذلك أن يفهم كلمة تقال عن تلك الحوادث بما كان لها من عواقب خطيرة ولا أن يفهم كلمة عنها فهماً صحيحاً . وأكبر رواة الطبرى فى ذلك هو أبو عبيدة ، ذلك الجامع الكثير لأخبار القبائل العربية ، وروايته ، وإن لم تكن لدينا كاملة ، فإن من الممكن إكمالها بمساعدة رواية وهب بن جرير ، وهو يوافق أبا عبيدة فى الجملة والجوهر :

عن أبى عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٣٥ س ١٧ وص ٤٣٦ س ١٥) (١) :
لما قَتَلَ عبيدُ الله بن زياد الحسين بن على وإخوته بعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية ، فسُرَّ بقتلهم أولاً وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده . ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ندم على قتل الحسين ، فكان يقول : وما كان علىّ لو احتملت الأذى وأنزلته معى فى دارى وحكمته فيما يريد . . . حفظاً لرسول الله صلعم ورعاية لحقبة وقرابته ، لعن الله ابنَ مرجانة ! . . . قتله ، فبعثنى بقتله إلى

(١) وتقابل ذلك رواية وهب - الطبرى (ج ٢ ص ٤٣٣ س ١٢) .

المسلمين ، وزرع لي في قلوبهم العداوة ، فبغضني البر والفاجر . . . وكان لعبيد الله مولى ؛ يُقال له أيوب بن حمران ، قد جعله في الشام رسولا ليأتيه بأخبار يزيد . فلما كان ذات يوم جاء أيوب إلى البصرة . مسرعاً ، وأبلغ عبيد الله موت يزيد واختلاف أمر الناس في الشام . فأمر عبيد الله بدعوة الناس إلى الاجتماع في المسجد ، فأعلن لهم النبأ ، وعرض بذئب يزيد ، ثم تكلم عن أعماله هو في أثناء ولايته البصرة . فقال إنه لما تولى البصرة ، كان ديوان المقاتلة (من العرب) يشتمل على سبعين ألفاً ، وكان ديوان العمال (من الموالى) يشتمل على تسعين ألفاً ؛ أما الآن بعد ولايته فقد صار ديوان المقاتلة يشتمل على ثمانين ألفاً ، وديوان العمال على مائة وخمسين ألفاً . وقال إنه ما ترك صاحب ظنّة يخاف منه على أهل البصرة — وكان يقصد الخوارج خاصة — إلاّ سَجَسَتْهُ . ثم قال لأهل البصرة : « إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفى ، وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعزّضه فينا وأوسع به بلاداً ، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم ! فأنّا أوّل راضٍ من رضيتموه ؛ فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه دخلتم فما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتُم ذلك كنستم على جسد يلتزكم ، حتى تعطوا حاجتكم ؛ فابكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ، وما يستغنى الناس عنكم ! » . وكان عبيد الله يقصد أن يرشح نفسه أميراً إلى أن يأتي أمير ، ذلك أنه بموت الخليفة انتهى واجب الطاعة للحكومة ، وهو واجب يلتزم بحكم البيعة لشخص الخليفة . فقام أهل البصرة خطباء ، وقالوا له : أيها الأمير ! إننا والله لا نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهلتُم نبيّعتك ! فامنع عبيد الله مراراً ، فألحوا عليه ، حتى بسط يده وباعوه ، ثم انصرفوا . فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكفهم بالباب والحيطان وهم يقولون : « يظن ابن مرجانة أننا نولّيه وننقاد له في الفرقة ؛ كذّب والله ! » ثم صاروا يأمرهم

بِالْأَمْرِ فَلَا يُطِيعُونَ وَبِالرَّأْيِ فَيَرُدُّونَهُ عَلَيْهِ ، وَيَأْمُرُ رِجَالَهُ بِحَبْسِ الْمَذْنِبِ فَيَحْبُوتُونَ
بَيْنَ رِجَالِهِ وَبَيْنَ هَذَا الْمَذْنِبِ ، وَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ نَبَذُوا كُلَّ طَاعَةٍ لَهُ وَوَثَبُوا عَلَيْهِ (١) ،
عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ (الطَّبْرِي ج ٢ ص ٤٣٧ س ١٥) : كَانَ الَّذِي أُعْطِيَ الْإِشَارَةَ
لِلثُورَةِ هُوَ سَلَمَةُ بْنُ ذَوْيَبِ التَّمِيمِيِّ ؛ فَقَدْ ظَهَرَ فِي سَوَاقِ الْإِبِلِ عَلَى فَرَسِهِ ،
وَقَدْ تَقَنَّعَ بِسِلَاحٍ وَفِي يَدِهِ لَوَاءٌ ، وَهُوَ يَدْعُو النَّاسَ لِلْمَبَايَعَةِ الْعَائِثَةِ بِمَكَّةَ ،
يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ (٢) . فَعِنْدَ ذَلِكَ جَمَعَ عُبَيْدُ اللَّهِ أَهْلَ الْبَصْرَةِ فِي الْمَسْجِدِ
وَأَنْشَأَ يَقْصُ عَلَيْهِمْ أَوَّلَ أَمْرِهِ وَأَمْرَهُمْ وَيَقُولُ إِنَّهُ قَدْ كَانَ دَعَاهُمْ إِلَى اخْتِيَارِ
أَمِيرٍ يَرْضَوْنَهُ : فَبَايَعَهُ مَعَهُمْ ، وَلَهُمْ رَغَمٌ ذَلِكَ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يَبَايَعُوهُ هُوَ . ثُمَّ
قَالَ لَهُمْ : إِنَّكُمْ مَسْحُومٌ أَكْثَفُكُمْ بِالْحَيِطَانِ وَبَابُ الدَّارِ وَقُلْتُمْ مَا قُلْتُمْ ، وَإِنِّي
أَمَرْتُ بِالْأَمْرِ فَلَا يُنْفَعُ ، وَيُرَدُّ عَلَى رَأْيِي ، وَتَحُولُ الْقِبَالُ بَيْنَ أَعْوَانِي وَبَيْنَ
طَلِبَتِي ، ثُمَّ هَذَا سَلَمَةُ بْنُ ذَوْيَبٍ يَدْعُو إِلَى الْخِلَافِ عَلَيْكُمْ لِإِرَادَةِ
أَنْ يَفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ وَيَضْرِبَ بَعْضُكُمْ بِحَيَاةِ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ . فَقَالَ
الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ بْنُ تَمِيمٍ وَالنَّاسُ جَمِيعاً : نَحْنُ نَأْتِيكَ بِسَلَمَةَ ، فَأَتَوْا
سَلَمَةَ ، فَإِذَا جَمَعَهُ قَدْ كَشَفَ وَإِذَا الْفَتْقُ قَدْ اتَّسَعَ عَلَى الرَّاتِقِ ،
وَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ؛ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَعَدُوا عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ فَلَمْ يَأْتَوْهُ .

عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ (الطَّبْرِي ج ٢ ص ٤٣٩ س ٢٠) (٣) : كَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ فِي

(١) اسْتَطَاعَ عُبَيْدُ اللَّهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنْ يَكْتَسِبَ الْحِمَةَ بِأَنْ أَمَرَ عَمَالَهُ أَنْ يَفْرُقُوا مَا فِي
بَيْتِ الْمَالِ فِي الْقِبَالِ وَالْمَقَاتِلَةِ لَيْلَ نَهَارٍ — وَكَانَ ذَلِكَ الْمَالُ بِحَسَبِ الطَّبْرِيِّ (ج ٢ ص ٤٣٩)
ثَمَانِيَةَ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ أَوْ تِسْعَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ (قَارَنَ ج ٢ ص ٤٤٣) ، وَكَانَ لِلْقِبَالِ
وَالْمَقَاتِلَةِ الْحَقُّ فِي مَالِ الْقِيَمِ الَّذِي أَخَذَتْهُ الْحُكُومَةُ وَجَمَعَتْهُ بَعْدَ مَا صَرَفَ مِنْهُ مِنْ أَعْطِيَا ،
وَلَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ عَصَوْهُ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ . وَلَمَّا هَرَبَ أَخَذَ مَعَهُ مَا تَبَقِيَ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، وَكَانَتْ
خَفَائِصُ ذَلِكَ لَا تَزَالُ تَرُدُّ فِي آلِ بَيْتِهِ — أَبُو عُبَيْدَةَ (الطَّبْرِي ج ٢ ص ٤٣٩ س ١٠ فَا بَعْدَهُ) .

(٢) يَدْعَى بَرُونُوفُ (Brünnow) مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ أَنْ سَلَمَةُ كَانَ مَبْعُوثَ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، كَمَا يَدْعَى
أ. مَوْلَرُ أَنَّهُ خَلِيفَةُ . أَمَّا الرِّوَايَاتُ فَلَا تَعْرِفُ عَنْ ذَلِكَ شَيْئاً ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَخْتَرَعَهُ الْمَوْرِخُ ،
ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْيَدِيسِيِّ أَنْ تَنْجُو أَنْظَارُ الْمَعَارِضِينَ لِبَنِي أُمَيَّةَ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ . هَذَا إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ
مِنْ شَأْنِ مَنْ يَرِيدُ أَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى مَبَايَعَةِ خَلِيفَةٍ أَنْ يَظْهَرَ فِي السُّوقِ عَلَى فَرَسٍ وَمَعَهُ لَوَاءٌ —
قَارَنَ الطَّبْرِي ج ٢ ص ٤٥٢ س ١٥ ، ص ٤٦٥ س ٢ .

(٣) تَقَابَلُ ذَلِكَ رِوَايَةُ وَهْبٍ — الطَّبْرِي ج ٢ ص ٤٤١ س ٢٠ .

(٢٥ — الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ)

موقف سيئ ، حتى إنه دعا رجال الشرطة^(١) ، فأرادهم أن يقتلوا معه ، فقالوا : إن أمرنا قوادنا . فقال له إخوته : والله ما من خليفة فقتل عنه ، فإن هُزِمَتْ فَيُسْتَلَمَ إليه وإن استمددته أمدك ! وقد علمت أن الحرب دُول ، فلا ندري لعلها تدول عليك ، وقد اتخذنا بين أظهر هؤلاء القوم أموالاً ، فإن ظفروا أهلكونا وامتلكوها ، فلم تبق لك باقية . وقال له أخوه عبد الله لأبيه وأمه مرجانة : « والله لئن قاتلت القوم لأعتمدن على ظُبة السيف ، حتى يخرج من صلبى » ، فلما رأى ذلك عبیدُ الله قرر — كما فعل أبوه من قبل ، وكما أوصاه أيضاً — أن يلتجئ إلى الأزدي ، طلباً لحمايتهم من ثورة تميم . فلما جاء الليلُ خرج بخزائنه وذهب مع الحارث بن قيس إلى مسعود بن عمرو العتكي . رئيس الأزدي ، وذهب معه جميع إخوته^(٢) ، ولم يحسر على الخروج نهراً مخافة أن يقتل ، وكان في الليل معرضاً لأن تصيبه سهامُ الحراس الذين كانوا يخرجون لمطاردة الخوارج . وقد عرفه رجلٌ ، فرماه بسهم وقع في كور عمامته حتى إذا وصل بسلام إلى مسعود ارتاع مسعود وقال للحارث : كان يُسَعَّوْذُ من سوء طوارق الليل ، فنعوذ بالله من شر ما طرقتنا به . وذلك أن مسعوداً لم يشأ أن يعادي جميع أهل البصرة من أجل عبید الله ، وخصوصاً أن الأزدي كانوا قد أبْلَوْا من قبل في حماية زياد فلم يكافأوا على ذلك وأن مسعوداً وقومه كانوا قد بايعوا لابن الزبير ، فهَدَّأ الحارثُ من روعه وأفهمه أن إجارته لعبید الله لا تتعارض مع البيعة التي بايعها وأن كل ما يُراد منه هو أن يُسَبِّحَ عبید الله بن زياد مكاناً آمناً خارج البصرة^(٣) .

(١) يسمون عند الطبري البخارية . (قارن أيضاً ص ٤٦٤ وخصوصاً البلاذري ص ٤١١) ، وإلا فيسمون خاصة السلطان ، أعني جند الحكومة خاصة في مقابل المقاتلة .

(٢) عتيك أنبه بطون أزدي عمان ، وكان مواطنهم القديم في دِما ، ومنهم أيضاً المهلب ابن أبي صفرة .

(٣) رواية أخرى لأبي عبيدة — الطبري ج ٢ ص ٤٤٥ س ٧ ، أما بحسب رواية وهب فإن مسعوداً أظهر استعداداً على الفور — الطبري ج ٢ ص ٤٤١ س ١٠ .

عن أبي عبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٤٦ س ٣) (١) : لما هرب عبيد الله ابن زياد أصبح أهل البصرة بغير أمير ، واختلفوا فيمن يأمرهم عليهم ، ثم ارتضوا قيس بن الهيثم السلمى ونعمان بن سفيان الراسي لكي يختارا أميراً يرضيانه لهم ، وتم اختيار رجل له قرابة بالنبي عليه السلام وبمعاوية ، وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وأمه هند بنت أبي سفيان ، وكان يلقب بسبّة ؛ ودخل بسبّة القصر في أول جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ .

عن أبي عبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٤٧ س ١٢ وص ٤٤٩ س ٢٠) : وحدث بعد ذلك أن وفد على بسبّة رجل من ولد عبد الله بن عامر القرشي آتياً برسالة من عبد الله بن خازم فيها يبعثه : وجلس القرشي في حلقة بالمسجد فيها مالك ابن مسمع . وحدث أن قام نزاع ، فأغلظ القرشي لمالك بن مسمع فقام رجل من بني بكر بن وائل ولطم القرشي . وهاج من كان هناك من مضر وربيعه ، وكادت تقع حرب حقيقية ، لولا تدخل مالك بن مسمع . ثم وقع أن رجلاً من بني يشكر كان جالساً مع رجل من بني ضبّة في المسجد ، فتذكرا لطمة البكري للقرشي ، ففخر بها اليشكري وقال للضبي : « ذَهَبْتَ طَلِقاً » ، يقصد أن القرشي احتمل اللطمة دون أن يثور لكرامته . فعند ذلك غضب الرجل الضبي ، وقام إلى اليشكري فوجأ عنقه ، ووقد الناس ذلك اليشكري فحُمِل إلى أهله ميتاً ، وعند ذلك ثارت بكر كلها وهبّت لمحاربة تميم ، وكان على رأسهم مالك بن مسمع رئيسهم القديم ، لأن أشيم بن شقيق رئيسهم الجديد لم يشأ أن يقودهم إلا بعد أن يرسل إلى تميم رسولا (٢) ، واستخفت بكر مالك بن مسمع ، فخفف ، ولكنه قبل أن يهاجم تميماً طلب إلى الأزدي أن يجددوا

(١) رواية وهب عند الطبري ج ٢ ص ٤٤٤ س ٦ و س ١٧ .

(٢) ويتجلى نفوس التنافس والخلاف بين القواد فيما يحكيه الطبري ج ٢ ص ٣٤١٤ -

قارن ج ٢ ص ٤٤٨ - أما بحسب ص ٤٥٥ س ٥ فابعدا فإن أشيم ، لا مالكا ، كان هو القائد .

الحلف الذى كان عقد قديماً بين الأزد وبكر^(١) وبلغ عبيد الله ، وهو فى بيت مسعود بن عمرو ، ما حدث من تباعد بين بكر وتميم ، فأعان مالك ابن مسمع بأموال جزيلة ، حتى أمكن التغلب على قوم كانوا معارضين فى تجديد الحلف . ولم يترض الأزد بأن يسيروا إلا أن يكون الرئيس منهم ، فرضيت بكر بأن يتولى الرياسة مسعود بن عمرو الأزدي ، فقال مسعود لعبيد الله بن زياد : سير معنّا حتى نعيدك إلى الدار ! — يقصد قصر الإمارة ، فأبى وأمر برواحله فشُدَّتْ عليها أدواتها وأعدّ متاعه وتأهب للاستفر ، ولكن الأزد أنقوا له كرسيّاً على باب مسعود ، ففعل عليه ، وبعث غلماناً له على خيل مع مسعود ليأتوه بما يحدث خيراً كان أو شراً ، وانتهى مسعود إلى المسجد فدخله وصعد المنبر وأبى بَبَّةُ أن يتعرّض له . ولما لم يحل أحدٌ بين مسعود وبين صعود المنبر خرج مالك بن مسمع فأحرق دور قوم من بنى العدوية ، فبينما هو فى ذلك إذ أتاه من أبلفه قَتِيل مسعود .

عن أبى عبيدة (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٢ س ٦) : جاء بنو تميم إلى الأحنف حكيمهم ورئيسهم فقالوا له إن ربيعة والأزد قد دخلوا المسجد ، فقال لهم : لستم بأحق بالمسجد منهم ؛ ثم أتوه بعد هنية ، فقالوا : قد دخل القصر فقال : لستم بأحق بالقصر منهم . كل ذلك ، والأحنف هادئ ، فعند ذلك قام سلمة ابن ذؤيب ونادى : إلى يا معشر تميم ! فإنما هذا جيس لا خير لكم عنده ، يقصد الأحنف . وهدرت «ذؤبانُ بنى تميم» ، وانتدب مع سلمة خمسمائة ، وانضم إليهم أربعمائة من الموالى (كانوا من الأساورة) على رأسهم ماه أفريدون . ثم تقابعت الأخبار السيئة ، وعند ذلك ارتأى الأحنف ضرورة استعمال السيف

(١) أردعت إحدى الوثيقتين عند الصلت بن حريث الحنفى (الطبرى ج ٢ ص ٤٤٩ :

س ١٧ — فارق الكامل ص ٦٢٧ س ١٠) .

فسأل عن عباد بن حصين ، فلم يجده ، فسأل عن عيسى بن طلق الصريمي فوجده ، فحلّ عمامته وعقدها في رمح ، وسلم هذا اللواء لعيسى بن طلق ، وعند ذلك صاح الناس : « هاجت زيرا » ، ويرا هذه كانت أمة للأحنف ، وإنما كنوا بها عنه . ولما سار عيسى بن طلق وجاء عباد بن حصين في ستين فارساً . وسأل عن القائد الذي خرج على رأس القوم ، فلما عرف أنه عيسى ابن طلق قفل راجعاً إلى أهله ، لأنه لم يرض أن يحارب تحت لواء عيسى .

عن إسحاق بن سويد (الطبري ج ٢ ص ٤٥٤ س ٦) (١) : وأبلى ما أفريدون وقومه أحسن البلاء في القتال إلى جانب تميم ، وكان كل واحد منهم يرمى خمس نشابات في رمية ، فلم تثبت بكر أمام هذا الوابل من السهام . ودخلت تميم المسجد وأنزلت مسعوداً من على المنبر وقتلته . وبادر أشيم بن شقيق من بكر هارباً ، وكان هذا في أول شوال سنة ٦٤ هـ ويذكر أبو عبيدة (الطبري ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٦) أن فرار عبيد الله كان في هذا التاريخ نفسه ، لأنه يرى أن عبيد الله هرب إلى الشام بعد مقتل مسعود (الطبري ج ٢ ، ص ٤٣٩ س ١٠) .

عن أبي عبيدة (الكامل ص ٨١) (٢) . قام بالثار لمقتل مسعود أخوه زياد بن عمرو العتكي ، وكان لا يزال غلاماً حدثاً ، فدخل المربد في اليوم التالي وجمع جيشاً وجعل بكرأ على ميمته وعبد القيس على الميسرة والأزد في القلب .

(١) أغفل الطبري رواية أبي عبيدة للاشتباك بين الفزيين فلم يذكر منها (ص ٤٥٥ س ٩) سوى ما قاله الحسن البصري متهكاً بمسعود من أنه يدعو الناس إلى السنة وينهى عن الفتنه ، فقد قال له الحسن : « ألا إن من السنة أن تأخذ فوق يدك » وسوى ما روى من أن القوم لم يلبثوا أن أنزلوا مسعوداً من على المنبر وقتلوه . وإسحاق بن سويد يملأ الفجوة ، وهو بالجملة (وأيضاً في التواريخ) يتابع أبا عبيدة ويختلف عنه في تفاصيل صغيرة ، فعنده مثلاً أن القائد لم يكن مالكا ، بل أشيم .

(٢) وهذه القطعة الأخيرة من رواية أبي عبيدة غير موجودة أيضاً عند الطبري ، وهو يذكر مكانها رواية أخرى لمؤنة (ص ٤٦١ س ١٨) .

ونظم الأحنف تميمًا وأعد جيشاً ، فوقفت بجنداء الأزد سعداً ورباباً ، وعلى رأسهم سعد بن طلق الصريمي . ووقفت بجنداء بكر بنو حنظلة ، وعلى رأسهم حارثة بن بدر . ووقفت أمام عبد القيس بنو عمرو بن تميم . ولكن لم يقع قتال ، وذلك أنهم لما توافقوا بعث الأحنف إلى الأزد وربيعة يقول لهم : « يا معشر الأزد وربيعة من أهل البصرة ! أنتم والله أحب إلينا من تميم الكوفة ، وأنتم جيراننا في الدار ويسدُّنا على العدو ، وأنتم بدأتمونا بالأمس ووطئتم حريمنا وحرقتم علينا ، فدفعنا عن أنفسنا . ولا حاجة لنا في الشر ما أصبنا في الخير مسلكاً ، فتيتموا بنا طريقاً قاصدة ! فوجهه إليه زياد بن عمرو : تسخيرٌ فخلَّة من ثلاث ، إن شئت فأنزل أنت وقومك على حكمنا ، وإن شئت فخل لنا عن البصرة وأرحل أنت وقومك إلى حيث شئتم ، وإلا فندوا قتلانا وأهدروا دماءكم ، وليؤد مسعود دية المعشرة ، يقصد أن تدفع له عشر ديات ، شأن من كان يودى من ملوك الجاهلية . فبعث إليه الأحنف : سنختار ، فانصرفوا في يومكم هذا ! فhez القوم رأيتهم وانصرفوا . فلما كان الغد بعث الأحنف إليهم : إنكم خيرتمونا خللاً ، ليس فيها خيار : أما النزول على حكمكم ، فكيف يكون ، والكتل يقطر دماً ! وأما ترك ديارنا فهو أخو القتل ، قال الله عز وجل : « ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو آخرجوا من دياركم ما فعلناه » ، ولكن الثالثة إنما هي حمل على المال ، فنحن نبطل دماءنا ونودي قتلاكم ، وإنما مسعود رجل من المسلمين ، وقد أذهب الله أمر الجاهلية . فاجتمع القوم على أن يقفوا أمر مسعود ويسمّد السيف ويؤدى سائر القتل من الأزد وربيعة ، فتضامن ذلك الأحنف ، ودفع إياس بن قتادة المجاشعي رهينة ، وقد أعطى يديه مختاراً ، وتشهد بذلك أبيات للفرزدق : وقد نهض الأحنف ، على عادته ، في هذه المناسبة بأهم واجبات السيد العربي ، وهو حفظ السلام^(١) ، على نحو نادر المثال . وإلى جانبه اشتهر إياس بن قتادة ، أحد أثرياء

(١) قد بولغ في بيان فضل الأحنف على كل حال ، ويحكى المدائن (الطبري ج ٢ ص ٤٦٥ س ٦٠٥) أن اثنين كانا هما اللذين توسلا في الصلح .

تميم ، شهرة كبيرة ، لأنه احتمال الشطر الأكبر من الديات (أنساب الأشراف ص ١٨٧) .

ويمكن تصحيح رواية أبي عبيدة في بعض النقط بالاستعانة بقطع من روايات لرواة آخرين ، لم يكن هروب عبيد الله بعد مقتل مسعود في شوال سنة ٦٤ هـ (الطبري ج ٢ ص ٤٥٥ س ١٨) ، بل الذي يؤخذ من أبيات للهيثم بن الأسود (الطبري ج ٢ ص ٤٦٣ س ٥) هو أن مسعوداً بنفسه ممكنه من الخروج إلى الشام . وهذا ما يقوله أيضاً وهب بن جرير (الطبري ج ٢ ص ٤٥٦) . وكذلك يروى عوانة (ص ٤٦١) أن عبيد الله ذهب إلى الشام في منتصف جمادى الثانية أى بعد موت يزيد بتسعين يوماً . وعلى هذا فلم يكن عبيد الله أمام الحوادث الدامية يقف متفرجاً صامتاً ، بل هو لم يكن حاضراً على الإطلاق ، ولم يقع في أثناء حضوره الاختيار للأمير ، لأن من العسير أن يكون قد تم الاتفاق على ذلك في مثل تلك الفترة المقتضبة ، بل وقع اختيار الأمير نتيجة لعقد السلام بين القبائل بعد انقسامها انقساماً أندر بالخطر . وهذا ما يقوله عوانة (الطبري ج ٢ ص ٤٦٣) : بعد قتل مسعود وحسم النزاع اجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم أميراً يصلحهم ، حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله ابن عامر أميراً ثم أمروا بنبهة إلى أن عيّن ابن الزبير عليهم والياً بعد ثلاثة أشهر . وهذا هو الذي يفسر لنا ما جاء في رواية أبي عبيدة من أن نبهة التزم السكوت التام ، لما دخل الأزدي المسجد والقصر ، وما ذلك إلا لأنه لم يكن بعد صار أميراً .

ويروى عوانة فوق ذلك (ص ٤٦١) أن عبيد الله بن زياد ، لما هرب ، استخلف مسعوداً على البصرة . ومهما يكن من شيء فإن ما فعله مسعود قد وقع أثناء الفترة التي كان فيها خليفة لعبيد الله ، بعد أن كان هذا قد هرب . فأراد أن يعين من منصب الإمارة الخالي (ص ٤٥٦ س ١٦) ، فلم يخرج لقتال تميم ، بل

دخول المسجد والقصر ، وأخذ على سبيل التعبير الظاهر عن ذلك مكان الأمير على المنبر ؛ وهو من على المنبر قد أنزل . وكانت تميم قد أخرجت عبيد الله . فلم تشأ الأزدي أن تترك الأمر في أيدي تميم ، بل شاعت أن تستتبق تميمًا وتأخذ الأمر من يدها ، ووقع القتال حول ذلك . ويتجلى من هذا أيضاً أن مسعوداً إنما تدخل من نفسه ولمصلحته الشخصية ، وأنه لم ينتظر حتى تدفعه ربيعة إلى ذلك . فأما حكاية الصفعة فهي مسألة ثانوية تماماً .

ويتجلى الوضع المعنوي الإجمالي من رواية عوانة تجلياً واضحاً : فشأت محاولة قبيلة ورثيس لها ، يجوز أنه كان مقصوداً من قبل الأمير الهارب ، في الوصول إلى الإمارة وتحطمت تماماً بسبب معارضة قبيلة أخرى منافسة لها ، ذلك أن الإمارة لم تكن ممكنة إلا في قريش ، لأنها كانت تقف خارج ما بين القبائل من نزاع وتنافس . ويخطئ عوانة (ص ٤٦١) في روايته : إذ يقول : إن رجلاً من عصابة الخوارج الذين انضموا إلى تميم كان هو الذي قتل مسعوداً . أما عند غيره من الرواة فالذين فعلوا ذلك هم الفرس تحت قيادة ماه أفريدون ، أو هم الأساورة على وجه التدقيق (ص ٤٦٥) ، وكانوا قد انضموا إلى تميم منذ زمان طويل . أما الخوارج فكانوا العدو المشترك لجميع قبائل البصرة ، وهذا الخطر المنتظر من جانب الخوارج هو أكبر ما دعا قبائل البصرة إلى الكف عن السير في طريق الخصام وإلى الاتفاق على أمير . وقد اضطر الأمير الذي اختاروه إلى التنازل عن الإمارة ، لأنه لم يحقق الغرض الذي اختير من أجله ولم يجد في مقاتلة الخوارج ، ورواية المدائني حاسمة في هذه المسألة (ص ٤٦٥) فهو يقول : إن الأزدي هم الذين زعموا أن الأزدي قتلوا مسعوداً ، لأن الأزدي أرادوا أن يمحوا عن أنفسهم حاراً أن تكون تميم قتل أميرهم وأن يكونوا قد درءوا عن أنفسهم متاعب الأخذ بثأره يقبلهم الدية . وما يلاحظه عوانة (ص ٤٦١ س ١٠) من أن الخوارج الذين قتلوا مسعوداً كانوا يقطنون عند نهر الأساورة يتم عن عدم اطمئنانه إلى ما يقول .

٢ - وهذا نشأت العداوة بين الأزد وتميم واليمن ومضر من حادثة معينة يمكن تحديد تاريخها ، كما يتجلى من الحكاية المتقدمة التي لها من أجل ذلك أهميتها . ولم يقض الصلح على التوتر الذي كان موجوداً وكاد أن ينفجر بعد ذلك بعامين ، عندما شرع المختار الثقفي في ثورته بالبصرة (الطبرى ج ٢ ص ٦٨٠ فما بعدها) . على أن هذا الخصام قد تحول إلى تسابق في محاربة الخوارج ، هذه المحاربة التي كان لها أثر الدواء لما كان هناك من خصام . ولم تشأ تميم أن تتخلف وراء الأزد الذين كان يقودهم المهلب بن أبي صفرة ، على أنه إذا كان العدا بين القبائل قد خفت حدته في البصرة ، فإنه أخذ في خراسان صورة أشدّ خطراً ، وكان ما بين القبائل من عدا قد انتقل من البصرة إلى خراسان ، لأن فتح خراسان كان من جهة البصرة ، وكان عرب خراسان من أهل العراق ، وكان أغلبهم بصريين وكانوا مُتَسَمِّين عسكرياً إلى خمسة أقسام ، كما كان الحال في البصرة . وكان والى خراسان في العادة تابعاً لأمير العراق ، رغم أن الخليفة كان في كثير من الأحيان هو الذي يعينه وكان في بعض الأحيان تابعاً للخليفة مباشرة .

وكانت خراسان بمثابة ذلك الركن من أركان الدولة الذي لا تزال القلاقل تحدث فيه ، وكان لما يقع فيه من أحداث أثر على قلب الدولة أكثر مما كان لإفريقية أو الأندلس مثلاً . ولم يندم في خراسان سلام قط ، ولا كانت لها حدود ثابتة . وكان العرب هناك في صراع دائم مع الفرس والترك ، ولكنهم فوق ذلك كانوا يغتسمون فترات الهدوء في إفناء بعضهم بعضاً . ومع أنهم كانوا معرضين للأخطار فإن طريقتهم في الحياة كانت غير سياسية وشبهية تمام الشبه بما كانت عليه في وطنهم القديم . وبالرغم من أنهم لم يذهبوا إلى خراسان من تلقاء أنفسهم فإنهم كانوا يشعرون بالارتياح إلى أرضهم الجديدة وإلى سعة أرجائها ، لأنها صراوية من وجوه شتى . وقد كان يهددهم الخطر من الخارج ، لكن ذلك لم يجمع كلمتهم : بل هو هيجتهم وجعلهم أكثر خشونة وأشدّ غلظة . وكان الإسلام

أيضاً سبباً جديداً من أسباب الثورة واليهاب (١) . فأصبحت خراسان أشبه
شئءً بجزيرة عرب ثانية مع فرق ، هو أن جزيرة العرب الجديدة هذه كانت
في أرض الأعداء وأن ظروفها كانت أكثر تعقيداً وأحداثها أوسع نطاقاً
وأنها كانت تسمح للنزعات الفوضوية بالظهور على نحو بعيد عن الاكتراث
وعن التقيد بالقيود .

وروايات المدائني ، وهو الراوية الذي لا يكاد الطبرى فيما يتعلق بحوادث
خراسان يعتمد إلا عليه تُذكر الإنسان إلى حد ما بحكايات الأبطال في
العصر الجاهلي ، كما هي معروفة من كتاب الأغاني . وفي كثير من الأحيان
لا يجد الإنسان سوى مجموعة روايات مفككة تتضمن أخبار القبائل ، أو عبارة
أخرى ، مجموعة من « أيام » العرب (الطبرى ج ٢ ص ١٥١٦ س ١٦) ،
يغلب عليها الاهتمامُ بذكر ما يتعلق بالبطولة والأبطال وذكر ما يدور حول
غزوات النهب والسلب . وكان عرب خراسان ، وخصوصاً تميم ، يعتزّون
بالتمسك بقوميتهم فضوا في الشرق الأقصى من الدولة العربية على حياتهم
القبلية القديمة وعلى تغنيهم القديم وفخرهم بما يفعلون وبه يشعرون . ولكن
كان يُعزّز ذلك تلك الصبغة الواقعة المتزنة العميقة التي تصطبغ بها الآثار
الباقية للعروبة الأصيلة القديمة .

وكان فتح إيران من جهة البصرة تحت إمرة عبد الله بن عامر الأموي
في عهد عثمان . وكان ذلك الفتح عبارةً عن سلسلة من الحملات ، وُجّهت إلى
نواحٍ مختلفة في وقت واحد . ولم يتمّ الفتح دفعة واحدة في سنة واحدة ، وكثيراً
ما كانت تعقد معاهدات صلح بمقتضاها يحتفظ مَرَاذِبَةُ الفرس بمركزهم القديم
في صورة مُعَدَّلة ومُقيّدة بعض الشيء . وإلى جانب الحملات الكبرى التي
وُجّهت تحت إمرة قواد تعيينهم الدولة ، وهي الحملات التي أوقعت الضربات

(١) [يقصد المؤلف ، كما قد تبين من مواضع كثيرة من كتابه وكما سيتبين فيما يلي ، أن
الدولة لم تعمل بمبادئ الإسلام الاجتماعية والاقتصادية ، فدعا ذلك إلى الثورة عليها من جانب
أهل الديانة ومن جانب المظلومين . وثورة خراسان التي أسقطت الدولة كانت باسم الدين وباسم
المساواة التي جاء بها - المترجم] .

الأولى بالفرس ، كانت هناك غزوات صغرى قام بها أهل القبائل من أجل أنفسهم . لا باسم أحد ، وذلك لكي يستقرُّوا أينما أمكنهم . وفي غرب إيران ، وفيها كانت تقع العاصمة ، وهى مدينة أبرشهر (نيسابور) كانت قيس هى الغالبة ، خصوصاً فى العصر الأخير (الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٩) ، أما فى الشرق فقد كانت أرض بكر وأرض تميم متداخلتين : وكانت هاتان القبيلتان تتنازعا على بعض الأماكن ، تدعى كل منهما أنها هى التى احتلتها قبل الأخرى . وهما لم تكونا تتنافسان فى خراسان وحدها ، بل فى سجستان أيضاً . وهاتان الولايتان المتجاورتان متصلتان ، رغم أن كلاهما فى كثير من الأحيان كان يديرها وال على حدة . وبعد أن كان الشأن الأكبر فى أول الأمر لسجستان انتقل إلى خراسان . وكانت زرنج هى عاصمة سجستان ، كما كانت مرو عاصمة خراسان .

وكان قواد جيوش الفتح بحسب العادة القديمة يكافأون بأن تُسند إليهم إدارة الجهات التى يسعدهم الحظ بالتغلب عليها . وقد لعب الأحنف فى ذلك العهد دوراً رائعاً من الناحية العسكرية أيضاً ، ولكنه لم يبق فى ولاية البلاد التى فتحها مدة طويلة . ولعله ، بحكم أنه كان سيد تميم فى البصرة ، قد أحس أنه أكبر من ذلك وكان أقدم أمراء خراسان (أو أجزاء منها) الذين يحدثنا عنهم التاريخ هما قيس بن الهيثم وعبد الله بن خازم ، وكلاهما من سليم إحدى قبائل قيس . وكان للاضطرابات التى أعقبت مقتل عثمان صداها فى أقصى المشرق من الدولة العربية ، فتمد استطاع ماهويه ، مرزبان مرو — وكان هو الذى خان آخر شاهانشاه فى فارس — أن يحصل من على بن أبى طالب على الموافقة على أن يؤدَّى الدهاقنة والأساورة والدهشلارين إليه الجزية . ولكنه رغم هذا التساهل لم يحافظ على احترام سيادة على^(١) . أما كيف أعيد سلطان الدولة

(١) وفى نفس الوقت استولى الحبطات من العرب ، وقد ظهوروا بمظهر المائلين إلى عثمان (أى بمظهر الحياذ) على عاصمة سجستان ولم يخصهم إلا الحصين بن مالك ، قائد على ، بعد عامين ، وعلى اسم هذا القائد سُمى مولاه المشهور فيروز حصين [البلاذرى (ص ٣٩٢ - ٣٩٦ . المترجم]

العربية في شرق الدولة بعد مقتل عثمان فهذا ما لا نعرفه (قارن البلاذري ص ٤٠٩) . وفي عهد معاوية عيين قيس بن الهيثم والياً ، ثم عيين بعده متافيسه عبد الله بن خازم^(١) . ولما جاء زياد بن أبيه إلى البصرة والياً عليها (في سنة ٤٥ هـ) ضمت إليه ولاية خراسان وسجستان ، فصار هو الذي يعين العمال عليهما فقسّم خراسان إلى أربعة أقسام مستقلة : مرو ، أبرشهر (نيسابور) ، مرو الروذ (ومعها فارياب والطالقان) ، هراة (ومعها باذغيس وقادس وبوشنج) ؛ ولكنه جمعها في سنة ٤٧ هـ تحت إمرة الحكم بن عمرو الغفاري الذي توفي سنة ٥٠ هـ . فجاء بعده الربيع بن زياد الحارثي ، وكان آدم أصهب أفنوه ، وهو الذي فتح سجستان وأرغم المرازبة على طلب الصلح ، فاستقبلهم في ميدان القتال حيث جلس هو ومن معه من العرب على أجساد القتلى هادين^(٢) . وكان الربيع مسلماً صالحاً ، ويقال إنه اغتم كثيراً لمقتل حُجْر بن عدى . وفي تلك الأيام كان قد هاجر إلى خراسان خمسة وعشرون ألفاً من أهل البصرة ، ومثلهم من أهل الكوفة ؛ ولعلهم لم يكونوا أهدأ الرؤوس . وبعد موت زياد (سنة ٥٣ هـ) جاءت فترة في أثناءها بدا كأنما قد أصبح شرق الدولة العربية ضبعة يستغلها أبناؤه . ففي أواخر أيام معاوية وفي عهد ابنه يزيد كان على خراسان عبد الله بن زياد ، ثم جاء بعده ، بعد فترة انقطاع ، عبد الرحمن بن زياد ، وأخيراً جاء سلم بن زياد . أما في سجستان فكان هناك عباد بن زياد ويزيد بن زياد . وكانوا جميعاً شباناً ، ولكن كان للذين يقومون بتدبير شئون تلك البلاد القواد والعمال القدماء الخبيرون بأحوالها ، أمثال قيس بن الهيثم السلمي وأسلم بن زرعة .

(١) خلافاً لما يقوله البلاذري ، ص ٤٠٨ ، قارن الطبري ج ٢ ص ٦٥ فا بعدها .

(٢) [كان الربيع بن زياد أول من شرب من نهر بلخ وأول من صلى وراءه ؛ أما ما يقوله المؤلف عن جلوسه على جيش القتلى فليس موجوداً عند الطبري ولكنه موجود عند البلاذري . ص ٣٩٤ - ولا شك أن ذلك كان يقصد إرهاب الأعداء - المترجم] .

الكلائي وغيرهما ، وكان بعضهم يترقب بعض ولا يكف عنه الأذى ،
إذا كانت القوة في يده .

ولما مات يزيد بن معاوية بدأت في خراسان أيضاً المنازعات القبلية ،
ووثب زنبيل كابل وهزم يزيد بن زياد والى سجستان ، وأسر أخاه
أبا عبيدة . وعند ذلك حلّ طلحة الطلحات ، ذلك الخراعى الثرى ،
محل يزيد ، فصالح الزنبيل وافتدى أبا عبيدة من الأسر بمال كثير . ولكنه
لم يلبث أن مات ، وجاء بعده وال من قبيلة بكر ، كان قد استخلفه ، فلم
تخضع له تميم ، بل طردته . وعلى أثر ذلك انفجر العداء بين مضر وربيعه ،
وجنى الزنبيل ثمرة ذلك (ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨٤ والبلاذرى ص ٩٧) .
وكان لذلك أثره في خراسان . وأراد سلم بن زياد ، وكان والياً هناك ، أن
يكتّم عن الناس موت الخليفة وما أصاب إخوته أبناء زياد (في سجستان
والبصرة) ، حتى إذا لم يمكن كتم الأمور دعا سكتّم الناس إلى أن يبايعوه ،
على أن يقوم بتدبير الأمور إلى أن يجتمع الناس على خليفة ، فبايعوه . غير
أنهم سرعان ما نكثوا به فاختنق هارباً ، وختلف على مرو المهلب بن أبي
صفرة الأزدي ، وكان سلم قد حاء بالمهلب معه من البصرة . ولكن بعض
رؤساء القبائل العربية لم يرضوا عن ذلك فولى سلم سليمان بن مرثد البكري
على مرو الروذ والفارياب والطارقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة بن زفر ،
وهو من بكر أيضاً ، على هراة ، حتى إذا صار سلم بنيسابور ولقى عبد الله
ابن خازم السلمي سأله عبد الله : من وليت على خراسان ؟ فأخبره ، فلامه
قائلاً : « أما وجدت في مضر رجلاً تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر
ابن وائل ومزؤون عمان ! » وطلب عبد الله من سلم أن يكتب له عهداً على
خراسان ، فتعجب سلم قائلاً : أولى أنا خراسان ! قال : اكتب لي عهداً ،
ونحلاك ذم ! وكتب سلم العهد لعبد الله ، وأعطاه فوق هذا مائة ألف درهم طلبها
منه . فخرج المهلب من مرو ، لأنه لم تكن له قبيلة تؤيده ، وذلك أن الأزدي

لم يكونوا كثيرين بخراسان ، واستمخلف رجلاً من بني جشم بن سعد ابن زيد بن مناة بن تميم ، أراد هذا أن يمنع ابن خازم لما أقبل على مرو ، فكانت بينهما مناوشة أصيب فيها التيمي ثم تجاوز الفريقان ، ودخل عبد الله مرو الروذ ، ومات التيمي بعد ذلك بيومين (الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٠) .

وقد وقفت تميم إلى جانب ابن خازم بوجه عام ، وإن كان لا ينتمى إليهم بل إلى مضر ، وكان معادياً لبكر^(١) وهو بمعونة تميم بدأ يحارب بكرأ . وقد خرج أولاً من مرو إلى مرو الروذ ، وحارب سليمان بن مرثد فقتله ، وتوجه بعد ذلك إلى محاربة أخيه عمرو بن مرثد في الطالقان ، فقتله أيضاً . ولجأ الهاربون من بكر إلى أوس بن ثعلبة في مدينة هراة ، وهناك تجمع عند أوس كل البكرين ، وكانوا قد حنقوا حنقاً شديداً بسبب ضياع مدينة مرو الروذ والطالقان من أيديهم^(٢) ، فأرادوا أن يخرجوا جميع مضر من خراسان كلها ، وقالوا : لا تتسع خراسان لمضر وربيعة . وقد أكرمت تميم عبد الله بن خازم على أن يفاوض بكرأ ، ولكن المفاوضات فشلت ، كما كان يتوقع عبد الله . وكان أحدهم قد اعترض عليه في قتال بكر ، وطالب إليه ألا يقاتلهم إلا بعد الإعذار إليهم ، فبعثه رسولاً إليهم ، فلما عاد يائساً بسبب تشدد قبائل بكر^(٣) قال له عبد الله بن خازم : « لقد أخبرتك أن ربيعة لم تزل غاضبة على ربها منذ بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم من مضر » . ويقال إن القتال قد استمر أمام مدينة هراة

(١) بحسب ما جاء في البلاذرى ص ١٤٤ أقر ابن الزبير عبد الله بن خازم على الولاية .
(٢) [يقول المؤلف : بسبب ضياع هراة ، ولكن هراة ، بحسب كلامه لم تكن قد سقطت بعد ، أما الذى كان قد سقط فهو مدينة مرو الروذ والطالقان . على أن الذى أحرقهم أشد الحرق هو قتل سليمان وعمرو ابني مرثد (راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٧ والبلاذرى ص ٤١٤ - المترجم] .

(٣) [فشلت المفاوضات أمام تشدد بني صهيب بن موالى بكر ، حتى سخر البعض من ذلك ، راجع الطبرى ج ٢ ص ٤٩١ - ٤٩٣ - المترجم] .

أكثر من عام^(١) . فجعلت بكر^٢ ظهرها إلى المدينة وخذق رجالها حول المدينة واحتموا بالخذق أمامهم ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجمات ابن خازم ، حتى نال من شرفهم وشجاعتهم بأن ناداهم قائلاً : « يا معشر ربيعة ! إنكم قد اعتصمتم بخندقكم ، أفرضيت من خراسان بهذا الخندق ! » . فأحفظهم ذلك وخرجوا من موقعهم الحصين إلى القتال في الميدان الواسع ، فهزموا ونحسروا نحسائر كبيرة ، وأقسم ابن خازم ليقتلن منهم كل أسير يؤتى به ، حتى تغيب الشمس . وهرب أوس بن ثعلبة إلى سجستان ، وكانت في تلك الأيام في يد الزنجيل ، ولكنه مات هناك من جراحاته . وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الحرب دائرة بين قبائل بكر وتميم في المشرق ، كانت هناك حرب أخرى تدور بين قبائل كلب وقيس في المغرب ، وذلك في سنة ٦٤ - ٦٥ هـ (الطبري ج ٢ ص ٤٩٠ - ٤٩٦) . وقد كان من أثرها إضعاف بكر إضعافاً دائماً^(٣) .

أعانت تميم عبد الله بن خازم على من كان بخراسان من ربيعة ، حتى قهرهم وأخضع مدينة هراة وصفت له خراسان . ولكنه جفا تيمما وأتى أن يمكنهم من الاستقرار في هراة استقرار الفاحش . فعين على هراة ابناً صغيراً له اسمه محمد وضم إليه بُكَيْر بن وشاخ^(٤) وجعله على شرطته ، وأمره ألا يمكن

(١) إن حكاية سليمان بن مجالد ، أحد معاصري أبي نخف ، وأبو نخف يذكره كثيراً ، هذه الحكاية الموجودة عند الطبري ج ٢ ص ٤٩٣ س ٦ - ٤٩٤ س ١٧ ، لا تدخل في هذا الموضع ، بل في عصر بعد ذلك بكثير ؛ أما رواية أبي الحسن الخراساني (الطبري ج ٢ ص ٤٩٤ س ١٨ - ٤٩٥ س ٧) فهي تملأ فجوة في الرواية الأساسية للمدائني .
(٢) قُتِلت بكر في هراة قتلاً ذريعاً ، فحسروا ثمانية آلاف رجل (الطبري ج ٢ ص ٤٩٦ - المترجم) .

(٣) كان تميمياً من بني سعد ، أما تسميته عند الطبري (ج ٢ ص ٤٩٥ س ٧) بالبقعي فهي خطأ - قارن الطبري ج ٢ ص ٨٦٠ س ١٠ فما بعده و ١٠٢٢ س ١ وص ١٠٣٠ س ١٣ و ٢٠ فما بعده و ص ١٠٤٧ س ١٨ . [وكان عبد الله بن خازم قد جعل شماس ابن دثار الطاردي مع ابنه أيضاً ، وأوصى الرجلين بنصحه وتربيته والعناية بأمره . ثم انشق شماس وانضم إلى تميم ، وكان له شأن في الخصومة القائمة ، كما سيلي ، وقد أسقط المؤلف حكايته هذه - المترجم فقلاً عن الطبري ج ٢ ص ٥٩٢ - ٥٩٤] .

تميماً من دخول هراة . وقد عرض بكير عليهم أموالاً كثيرة على أن ينصرفوا ، ولكن هذه الطريقة للتخلص منهم زادتهم عناداً وأحدثت مرارة في نفوسهم ، فاقترحوا المدينة على محمد بن عبد الله بن خازم وشدوه وثاقاً وشربوا ليلتهم ، وجعل كلّا أراد رجل منهم البَول بآل عليه ، ثم قتلوه في الصباح (١) . وكان معنى هذا أن تميما نبذوا عهد الصداقة لوالده عبد الله ، فخرجوا إلى مرو وازدادوا قوة بعد أن انضم إليهم من كان فيها من قومهم ، وولوا عليهم حريش بن هلال القريني ، وأرادوا محاربة ابن خازم . وكانت هذه الحرب على الطراز القديم ، فلم تكن هناك معارك ، بل كان هناك فرسان أبطال ، لم يُدرك مِثلُهم ، « الرجل منهم كتيبة » وكانوا يغيرون ويأتون المغامرات ، فيُحْكِي مثلاً أن الأشعث بن ذؤيب ، وهو أخ لزهير ابن ذؤيب العدوي (من تميم) ، قُتِل في تلك الحرب فسئل ، وكان به رمق : « من قتلك ؟ » فقال : « لا أدري ! طعنني رجل على برذون أصفر » ، فكان زهير لا يرى أحداً على برذون أصفر إلا حمل عليه ، فنهزم من يقاتله ومنهم من يهرب ، فتحامى أهل العسكر البراذين الصفر ، فكانت مُحَلَاة في العسكر لا يركبها أحد ، وهذه صورة مُسَمَّيَّة لأحداث تلك الحرب ، حتى إذا طالت الحرب سنتين وضججها الفريقان وملاها تَفَرَّقَت تميم ، فأضعفت نفسها بذلك ، فتوجه شماس بن دثار العطاردي إلى سجستان (الطبري ج ٢ ص ٥٤٦ و ١٠٢٦) ، وحريش بن هلال إلى مرو والروذ واستطاع أن يثبت هناك زماناً (٢) ، لكنه اضطر آخر الأمر إلى الخروج من نخراسان

(١) [هنا يمزج المؤلف بين روايتين عند الطبري (ج ٢ ص ٥٩٤) . وليس من المألوف أن يكونوا دخلوا المدينة دون معركة ، ونحن لانسمع عن هذه المعركة ، بل الأحرى أن يكونوا دخلوها بعد قتله ، وأنهم قتلوه خارج المدينة : ترصدوا له وأخذوه وهو يتصيد وفعلوا ما فعلوا . وهذا شطر من إحدى الروايتين . وإن قضاء ليلة شراب على النحو المتقدم لا يتيسر في مدينة ، حتى ولا بعد معركة - المترجم] .

(٢) يقول حريش (الطبري ج ٢ ص ٥٩٨ س ٣) : حولين ما اغتمضت عيني بمنزلة * إلا وكفى وساد لي على حجر . ولا يتحتم من هذا الطبري ج ٢ ص ٥٩٥ س ١٤) أنه ظل -

«الطبرى ج ٢ ص ٥٩٣ - ٦٩٨) وبلغ الآخرون من فرسان تميم بقيادة زهير بن ذؤيب إلى قصر فَرْتَنَسَا ، غير بعيد من مرو الروز . وهناك حاصرهم ابن خازم واضطروهم إلى التسليم وقتلهم دون رحمة (الطبرى ج ٢ ص ٦٩٦ - ٧٠٠) ، ويظهر أنه استطاع أن يحكم مرو حيناً لا يعكس حكمه شىء ، غير أنه بعد سنين قليلة اضطر إلى إخماد ثورة جديدة قامت بها تميم في أبرشهر بقيادة بحير بن ورقاء الصرمى (الطبرى ج ٢ ص ٥٩٦ س ٩) ، واستخلف ابن خازم بمرو بكير بن وشاح ، ولكنه لم يترك ابنه موسى فيها لأنه لم يأمن عليه من تميم ، فأمره أن يخرج منها بكنوزه وثقله فيعبر نهر بلخ ويلجأ إلى بعض الملوك أو إلى حصن يقيم فيه ، ثم تقدم قاصداً أبرشهر . وبينما كان يحارب بحير بن ورقاء هناك أتاه في آخر سنة ٧٢ هـ (١) كتاب عبد الملك بن مروان ، يعيده بأن تكون خراسان له طعمة سبع سنين ، إذا بايع له . فتصور ابن خازم أن فى ذلك إهانة له ، لأنه كان يريد أن يكون له الأمر بقوته الخاصة ، وأمر رسول عبد الملك بأن يأكل الصحيفة التى حملها إليه . ولما رفض ابن خازم ما عرضه عليه عبد الملك كتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح ، وكان ابن خازم قد استخلفه على مرو ، يعهد إليه بولاية خراسان ويعيده ويمنّيه ، فقبل الولاية . ولم يستطع ابن خازم أن يتغلب على بكير وبحير مجتمعين ، فحاول أن يذهب إلى ابنه موسى فى ترمذ ، ولكن بحراً لحقه . وقتل ابن خازم بعد أن اعتوره بالطنن ثلاثة فرسان ، فدفعهم عن نفسه دفعاً شديداً ، حتى صرعوه ، فلما وقع قعد على صدره وكيع بن الدورقية ، لينجحه (٢) . وكان وكيع أحد الموالى

= يقاتل ابن خازم حوّلين . ويجوز أنه يندخل فى هذين الحولين فترة الحرب مع بكر ، ذلك أننا نجده فى سنة ٦٦ هـ خارج خراسان . انظر ما كتبتاه عن الخوارج ص ٣٤ ، وقد قتل حريش سنة ٨٢ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٠٦٦ س ١٥) .
(١) يذكر الطبرى (ج ٢ ص ٨٣٤) تاريخاً متأخراً عن ذلك .
(٢) يسمى باسم أمه ، وكانت من سبى دورق ، من خوزستان (راجع البلاذرى ص ٤١٥ - ٤١٦) .

الغلاظ الحفافة ، وقد ذكر ابن خازم بثأر أخ له لأمه كان ابن خازم قد قتله ، فعند ذلك تنخّم ابن خازم في وجه وكيع مستنكفاً من أن يكون أحد الموالى مساوياً له : وذبحه وكيع ، واحتُزّت رأسه ، فاغتصبها بكير ابن وشاح من يد بحير وأرسلها إلى عبد الملك ، مدّعيّاً أنه هو الذي قهر ابن خازم وقتله . أما بحير ، وهو المنتصر الحقيقي على ابن خازم ، فقد قيّدته بكير وحبسه حيناً (الطبرى ج ٢ ص ٨٣١ - ٨٣٥) .

وكان هذا سبباً في حرب بين أخوين من تميم ، وخصوصاً من بني سعد بن تميم ، وكان بنو سعد في خراسان ، وخصوصاً في مرو ، أكثر منهم في البصرة ، وكان كل من بكير وبحير ينتمى إلى بني سعد . واختلفت تميم ، فتعصّبت مُقاعِسُ والبطون لبجير ، وتعصّب بنو عوف^(١) والأبناء لبكير ، ولكن لما تبين عرب خراسان آخر الأمر أن سيادتهم على خراسان لا محالة زائلة ، إن لم ينقذوها من أخطار التطاحن وإن لم تكتسب صبغة شرعية بفضل تأييد يأتيها من قبيل سلطنة عليا ، عند ذلك طلبوا هم أنفسهم من عبد الملك بن مروان سنة ٧٤ هـ أن يُعيّن على خراسان والياً قرشياً يكون فوق تباعض القبائل وتحاسدها^(٢) . فبعث عبد الملك أحد الأمويين من أسرته ، وهو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن العيص ، وكان فتي سيداً كريماً وسهلاً ليناً يحب العافية ، فلما بلغ أبر شهر خرج بحير بن ورقاء لاستقباله ، وحاول أن يسعى ببكير عنده وأن يُحدّثه منه ومن غدره ، ولكن بحيراً لم يفلح فيما أراد ، فأقرّ أمية كل عمال بكير في مناصبهم وعرض عليه أن يوليه شرطته ، فلما زهد بكير أُنْفَمَةً منه في هذا المنصب ،

(١) [يقول المؤلف أوس والأبناء ، ويظهر أن هنا تحريفاً ، لأن الذى يؤثر عند المؤرخين هو قبائل بنى عوف ، راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٩ - المترجم] .
(٢) [جاء في الطبرى ما يأتى : خاف أهل خراسان أن تعود الحرب وتفسد البلاد . ويقهرهم عدوهم من المشركين ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن خراسان لا تصلح بعهده . الفتنة إلا على رجل من قریش لا يحسدونه ولا يتعصبون عليه - المترجم] .

مع أن صاحب الشرطة كان في نفس الوقت يقوم بخلافة الأمير إذا غاب ، عند ذلك أعطى أمية المنصب لعدوه بجير (الطبرى ج ٢ ص ٨٥٩ - ٨٦٢) ، وغضب بكير وحنق ، لأنه اضطر أن يخلى المجال أمام الأمير القرشى (١) ، فاغتنم فرصة خروج الأمير في حملة حربية ، وثاؤ في ظهره بمدينة مرو (٢) ، وكان أهل الجنود الذين خرجوا في الحملة في قبضة بكير (٣) ، فسارع أمية بالعودة وتساهل في مفاوضة بكير والبرّ به ، ففضى عنه ديونه وأمنه أربعين يوماً حتى يخرج إلى إحدى مدن خراسان إذا شاء . ولكن بكير أبقى في مرو ، ومضى يحرض على أمية ، فاتهمه بجير بالتدبير لأمية ونقل إلى أمية كلاماً لبكير عنه : ولكن أمية كذّبه ، حتى تأيدت له الشكوى من جانب آخر ، وعند ذلك قبض الأمير على بكير ، وتبين أن التهمة صحيحة ، لأن شهودها لا معجز فيهم (٤) ، وقتل بكير بسيفه في يوم جمعة ، قتلته بجير ، لأن أحداً لم يرض أن يقتله . وقال بجير وهو يقتله : لا يصلح بنو سعد ما دنا حبيبتين (الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٢ - ١٠٣١) (٥) .

ولكن آخر فصل من قصة الحرب بين بني سعد لم ينته إلا في سنة ٨١ هـ .

-
- (١) [إنما أحق بكبيراً سميُّ بجير بالوشاية والإفساد بينه وبين أمية سعيّاً دائماً ، ذلك أن أمية عامل بكبيراً معاملة السيد الكريم فقطع أسباب العداوة ، ولكن لم يزل بكبير بالأمير حتى صار يتصرف مع بكبير تصرفاً أغضبته ، وجعله يشعر بأن الأمير يضارّه ويرتاب به - المترجم نقلاً عن النصوص التي ذكرها المؤلف] .
- (٢) من العسير أن يكون ذلك لم يقع إلا في سنة ٧٧ هـ آخر سنى أمية ، قارن بين الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٣ وبين ١٠٢٨ ، وبين البلاذرى ص ٤١٦ .
- (٣) [هدد بكبير بأن يرمى كل من يرمى سهما من المحاصرين له برأس رجل من ولده وأهله ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٠٢٧ - المترجم] .
- (٤) [لا يؤخذ ذلك من النصوص ، فقد اتهمهم بكبير بأنهم أعداؤه ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٠٣٠ - المترجم] .
- (٥) يختصر المؤلف هنا اختصاراً كبيراً ، وليرجع القارئ إلى الموضع المشار إليه عند الطبرى ليرى الرواية مفصلة ، ونحن قد تابعناه في الترجمة محاولين بقدر الإمكان أن نراعى النص العربي - المترجم] .

فتعاقد سبعة عشر رجلاً من الأبناء ، وهم عشيرة بكير ، على قتل بحير ، ولكنهم لم يقصدوا إليه مجتمعين ، بل ذهب كل واحد منهم منفرداً معتمداً على يده وحدهما ، وقد أفلح أحدهم ، وهو صعصعة بن حرب العوفى : فى اغتياله . فسار حتى جاور قرابة لبجير ، ولم يزل يأتهم ويجالسهم وبلاطهم حتى أنسوا به وأعطوه كتاباً إلى بحير ، وفيه أوصوه أن يساعده على الحصول على ميراث كان له : ثم قصد إلى بحير ، ولم يزل عنده حتى أنس به . ثم طعنه غيلة بنحجر كان قد غمسه مراراً فى ابن أتان ليزداد حدة . وكان طعنه له أمام الناس ، كما ينبغي للثائر أن يفعل ، وقد صاح ، وهو يقطعنه ، قائلاً : « يا لثارات بكير ، أنا ثائرٌ ببكير ! » فقُبِضَ عليه وقتل ، فاحتمل الموت صابراً سخيةً بذلك نفسه . وذهب إليه الأبناء فى السجن وقبلوا رأسه . ولكنهم بعد مقتله غضبوا وقالوا : علام قُتِل صاحبنا ، وإنما طَلَبَ بثَّاره ! ولم تهلأ ثائرهم إلا بعد أن دُفِعت له دية ، وذلك بعد أن مضى وقت ، فيه أوشك الخصام بين الأبناء وبين البطون أن يثور من جديد (الطبرى ج ٢ ص ١٠٤٧ - ١٠٥١) (١) .

وكانت لاتزال هناك لثورة عبد الله بن خازم القيسى بقية لم يتم القضاء عليها ، ذلك أن سيادته وجدت من يمثلها ويرثها إلى ما بعد مقتله باثني عشر عاماً . ذلك أن ابنه موسى - وكان ثظماً (٢) - قد استطاع أن ينجو بنفسه من مرو فى الوقت المناسب وأن يخرج ، ومعه بضعة مئات من فرسان كانوا معه ومن

(١) [لا يطلى كلام المؤلف حقيقة الوضع ، ونجد عند الطبرى (ج ٢ ص ١٠٥١) أن النزاع وقع بين عوف بن كعب والأبناء وبين مقاعس والبطون ، حتى خاف الناس أنه يعظم البأس بينهم ، فقال أهل الحبي : احموا دم صعصعة واجعلوا دم بحير بواءً بدم بكير ، فودوا صعصعة . ثم وُدَى صعصعة مرة أخرى . ولو أن دفع الدية وحده يكنى فى تسكين ثائرة الموتورين ، كما يؤخذ من كلام المؤلف لما بلغ الخصام عند العرب من أجل الأخذ بالثأر المبالغ الذى نعرفه - المترجم] .

(٢) [الخط الخفيف شعر اللحية ، وهو وصف موسى ، وهو من كلام المهلب بن أبي صفرة عنه مع أولاده - راجع هامشاً تالياً - المترجم] .

صعاليك ضووا إليه ، حتى جاوز نهر بلخ ، وقد حاول المرة بعد المرة أن يجد ملجأً يستقر فيه ، ولكنه كان لا يأتي بلداً إلا كره أهلها مقامته فيهم وسألوه أن يخرج عنهم ، وذلك لما كانوا قد سمعوه من أمره . وأخيراً تمكن بدهاء وممّاكسرة وملاطفة ، ثم بحيلة جريئة فيها شيء من الغدر ، من أن يستقر في ترمذ جنوب بلخ على الشاطئ الآخر من النهر ، في حصن يقع على صخرة بارزة تشرف على النهر . وتجمعت له فلول قيس ، حتى صار تحت تصرفه ألف ومائة رجل ، جعل يغير بهم على من حوله : وكان جيرانه يخافونه هو وفرسانه كما يخافون من الجن (١) . وقد فشلت حملة وجهها إليه أمية بن عبد الله أمير مرو . فلما جاء بعده المهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد ابن المهلب لم يتعرضا لموسى (٢) ، ثم زاد جشده بمن انضم إليهم من فلول جيش ابن الأشعث ، حتى بلغوا ثمانية آلاف رجل . وأخذ يقوم بغزوات أخرى أبعد مدى ، وقد شدّ أزره في ذلك قائدان من قواد الفرس ، هما حريرث بن قنطبة وأخوه ثابت ، انحازا إليه بمن كان معهما ، من مشقة على الجيش العربي ، جيش المهلب ، وكانا قبل ذلك على صلوات بالأسر الحاكمة من أهل البلاد ، وخصوصاً بطرخون صاحب سمرقند ، واستطاعا بمعونة أهل البلاد أن يُعيداً جيشاً ليقا تل السادة العرب مع موسى . ولم يرد موسى رغم ذلك أن يقدم بيده على مهاجمة يزيد بن المهلب في خراسان ، بل أراد أن يخرج صمّالته من أرض ما وراء النهر . وقد أمكن أيضاً تطهير أرض ما وراء النهر من بقايا السيادة العربية تطهيراً تاماً ، ولكن حريثاً وثابتاً كانا في أثناء ذلك قد قوى أمرهما ، وصار لهما التدبير الحقيقى وموسى اسم الإمارة . فثار الحسد لهما في

(١) [راجع في ذلك قصة طريقة وحيلة عجيبة بلغا إليها موسى لكى يوقع الرعب في نفوس أهل البلاد ، ذكرها الطبرى (ج ٢ ص ١١٤٨ - ١١٤٩ - المترجم) .
(٢) [قال المهلب لبنيه : إياكم وموسى ! فإنكم لا تزالون ولاية هذا الثغر ما أقام هذا الشطّ بمكانه ، فإن قتل كان أول طالع عليكم أميراً على خراسان رجل من قيس - المترجم نقلًا عن الطبرى ج ٢ ص ١١٥١ - ١١٥٢] .

النفوس ، وأراد بعض أصحاب موسى منه أن يقتلها فأبى أن يغدر بها ، ولم يزالوا به يُلهِجُون عليه ، حتى أفسدوا قلبه عليهما . وإنهم لفي ذلك إذ جاء هجومٌ على أرض ما وراء النهر ، فخرجت على موسى الهياطة والشيبة والترك ، وكان موسى قد أفلح قبل ذلك في صد هجوم لهم ، وقد ردهم عن ترمذ في هذه المرة أيضاً وأبعدهم مسافة كبيرة . ثم بدأ من جانبه في الهجوم ، وألحق بهم عند كفتان^(١) هزيمة شتتت جمعهم ، وفي هذه المعركة قتل حُرَيْث بن قطيبة ، ولم يجزع موسى لذلك ، بل ربما كانت تفرعينه لو أنه تخلص من أخيه ثابت أيضاً . وقد أراد لذلك أن يغتال ثابتاً^(٢) ، ولكن أحد عيون ثابت أبلغه ذلك ، فهرب إلى مدينة خُشَوْرَاغ^(٣) ، وخرج إليه كثير من العرب والعجم ، وأقبل لنجدته أيضاً طرخون صاحب سمرقند بجيش كبير وتقدم الرجال معاً إلى ترمذ فحاصروها وضيقوا الخناق على موسى ، ولكن أحد الفدائيين العرب استطاع أن يتسلل إلى ثابت وأن يقتله . وعند ذلك تجرأ موسى على بيات^(٤) معسكر الأعداء ، فتوصل إلى أن رحلوا عنه . ولكن لم يلبث المفضل بن المهلب ، أخو يزيد ابن المهلب وخليفته على خراسان ، أن حالف طرخون السغد وسبّل الختل على موسى ، فلم يستطع موسى أن يثبت أمام هذا التكتل ، وقتل وهو يحاربهم ، عثرت به فرسه ، فسقط ، فابتدروه فقتلوه . وسلمت ترمذ ، وقتل الأسرى من جنودها ، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ .

٣ — وفي الفترة التي كانت فيها قوة عرب خراسان تتلاشى في هذه الخلافات الدامية ، ضاعت الفتوحات الأولى التي قاموا بها في أرض ما وراء

(١) [في بعض النصوص : كفتان ؛ وفي بعضها كفيان — المترجم] .

(٢) [يجد القارئ تفصيل حكاية موسى عند الطبري ج ٢ ص ١١٤٥ — ١١٤٦] .

المترجم] .

(٣) هكذا تجب قراءة الكلمة ، قارن الطبري ج ٢ ص ١٥٩٤ س ٩ .

(٤) [يعني الهجوم في الليل — المترجم] .

النهر^(١) ضياعاً تاماً ، بل اغتتم الترك ذلك وتجاسروا على الهجوم على خراسان حتى وصلت غارات النهب على أيديهم إلى قرب نيسابور (البلاذري ص ٤١٤) . وبعد أن عاد الهدوء والنظام جدد العرب أيضاً غزواتهم السابقة ، وكان أمية بن عبد الله أمير خراسان هو أول من عبر نهر بلخ . بعد فترة وقوف طويلة . ولكنه لم يكن رجل حرب ، ومن قبل لم يمكن بقاؤه على لمرّة العراق ، لأنه هرب أمام أبي فديك الخارجي هروياً مخزياً . ولم يستطع في خراسان أن يقيم شرفه المتداعي . وبعد أن أصاب شيئاً من النجاح (بلاذري ص ٤٢٦ س ١٠ فما بعده) هُزِم أخيراً هزيمة حاسمة ، ولم يستطع أن ينجو بجيشه عبر نهر الشاش منصرفاً إلا بعد جهد وإشراف على الهلاك ، وجلب على نفسه استهزاء الشعراء حتى قال أحدهم :

ومن سَمّاك ، إذْ قَسَمَ الأَسامى : أمية ، إذْ وُلِدَتْ ، فقد أصابا^(٢)
وعلى أثر ذلك عزله عبد الملك من منصبه سنة ٧٨ هـ . فلما أسندت إلى الحجاج مع ولاية العراق ولاية خراسان وسجستان ، عين مكانه المهلب بن أبي صفرة الأزدي ، وكان المهلب قد انتهى في منتصف سنة ٧٨ هـ من القضاء على الخوارج في كرمان ، ولكنه لم يأت إلى مرو بنفسه إلا في سنة ٧٩ هـ^(٣) . ولم يستطع المهلب ، فيما وراء النهر ، أن يفعل ما فعله أسلافه ، وفي آخر سني ولايته حاصر مدينة كيش^(٤) فأخفق^(٥) ، ورضى بأن يدفع أهلها إتاوة ، ثم انصرف عنهم ،

(١) وفي عهد عبد الله بن عامر من قبل كانت قد وُجّهت حملات إلى أرض ما وراء النهر ، ثم تجددت على يد عبيد الله بن زياد ، وكان قد جاء إلى البصرة بجيش من أسرى بخارى ثم جدد الحملات سعيد بن عثمان خليفة عبد الله . وقد قتله خذمه من السغد ، كما جددتها سلم بن زياد ، وقد ولدت له امرأته ولداً في سمرقند .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٠٣١ - المترجم] .

(٣) [الطبري ج ٢ ص ١٠٣٢ - ١٠٣٥ - المترجم] .

(٤) يحكى المدائني حصار كيش مرتين في ظروف هي هي ، في سنة ٨٠ هـ ، ٨٢ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٠٤٠ و ١٠٧٧ فما بعدها) . ويمكن تسوية هذا الفرق في التاريخ وتعليله بأن الحصار دام عامين (من منتصف ٨٠ إلى ٨٢ هـ) .

ومات في زاغول (قرب مرو الروذ) وهو راجع ، وذلك في ذى الحجة ٨٨٢ هـ ، الموافق يناير سنة ٧٠٢ م . فلم يزد مسجده الحربى في خراسان . عما كان عليه ، ولكن ذهابه إلى خراسان كانت له أهمية كبيرة ، فقد أخذت قبيلته معه ، وكانت حتى ذلك الحين ، تحارب الخوارج تحت إمرة (١) . وقد تحالف الأزد أيضاً في خراسان مع بكر وربيعة (٢) . وبذلك فقدت مضمر (تميم وقيس) ما كان لها من تغلب وخصوصاً عند ما كان الأمير يضع قوة منصبه الرسمي في الجانب المعادى لمضمر .

وقد استخلف المهلب في منصبه وفي رئاسة قبيلته المتنوعة في تكوينها ابنه يزيد موقتاً ، ثم أقره الحجاج في منصبه ، وقد قام يزيد بحروب في فرغانة وخوارزم ، كما حارب فيها دون النهر أيضاً في باذغيس ، ولكن دون أى كسب جديد ، أو على الأقل دون أى كسب دائم ، وكان يزيد رغم ولعه بالنساء والطعام وضخامة جسمه رجلاً نشيطاً قادراً على النهوض بالأعمال ، ولكن طموحه وزهوه كان أكثر من مقدرته على العمل ، وكان يشعر بشيء من المضاضة أن يكون تابعاً للحجاج ، وخصوصاً أنه رئيس الأزد ، على حين أن الحجاج ، ذلك الرجل المصحح ، كان من قيس وهو لم يقض على ثوار أهل العراق الذين هربوا إلى خراسان بعد إخضاع ثورة ابن الأشعث إلا كارهاً ، ولما وقع في يده الثوار نخلتى سبيل اليمنيين منهم ولم يُسَلِّمْ إلا المضمرين ، ولم يغفل الحجاج عن

(١) جاء الشاعر ثابت قطنه والشاعر كعب الأشقرى ، وكلاهما أزدي ، من فارس وكرمان وكان فيهما ميدان القتال ضد الخوارج ، إلى خراسان . ويجوز أن أفراداً من الأزد كانوا قد هاجروا قبل ذلك ، ولكن شأن قبيلة الأزد لم يرتفع إلا بمجيء المهلب ، ولا يسمع الإنسان أقل إشارة إلى الحلف بين أزد وبكر في الحروب السابقة بين تميم وبكر .

(٢) فيما يتعلق بالنسبة بين الأقسام (الأخماس) من حيث العدد (راجع الطبرى ج ٢ ص ١٢٩١) فقد كان بتميم عشرة آلاف مقاتل وللأزد مثلها ، ولقيس (أهل العالية) تسعة آلاف ولبكر سبعة آلاف ، ولعبد القيس أربعة آلاف . والحملة أربعون ألف مقاتل ، وعلى هذا فإن حملة العرب في خراسان لم تكد تتجاوز مائتى ألف .

معرفة روح يزيد هذه ، فعزله في ربيع الآخر سنة ٨٥ هـ (إبريل سنة ٧٠٤ م) وعين مكانه المفضل بن المهلب أخا يزيد لأبيه ، وكان المفضل يسعى بيزيد . وربما كان أحب شيء إلى الحجاج أن ينتزع خراسان من قبضة المهالبة والأزد جملة ، ولكنه لم يقدم على ذلك طالما كان موسى بن خازم ثابتاً قوى الجانب في ترمذ وبلاد ما وراء النهر . وقد ظن الناس ذلك على الأقل ، والأغلب أنهم في ظنهم كانوا صادقين ، وكان المهلب ويزيد ابنة مقتنمين .
 أنهما لن بطيقتا والياً قيسياً إذا ذهب موسى ، لأن موسى نفسه كان من قيس وكانت أهواء قيس إلى جانبه ، ولذلك لم يتعرض المهالبة لموسى ، بل حافظوا عليه كما يحافظ الإنسان على عدو مفيد له ، وذلك لأن الحاجة إليهم ستظل قائمة وشأنهم سيظل مرتفعاً ما دام موسى في مكانه . ولكن المفضل انحرف عن هذه السياسة التي انتهجها المهالبة . ووجد في حرب موسى بن خازم ، وبذلك قوّض الأساس الذي كان يستند إليه ، فإنه لم يكد ينتمى من القضاء على موسى حتى عزّل من منصبه ، بعد أن قضى فيه تسعة أشهر . وكذلك عزّل حبيب بن المهلب وعبد الملك بن المهلب من منصبهما أيضاً ، وحُبِسَ يزيد بن المهلب نفسه ، ثم عين قتيبة بن مسلم والياً على خراسان (سنة ٨٥ أو ٨٦ هـ) . وكان ابناً لمسلم بن عمرو الباهلي البصري الذي كان مخلصاً لحكومة الأمويين موالياً لها ، وبذلك انكسرت شوكة التغلب الذي كان للأزد وربيعة في خراسان . وكانوا يسمون خاصة اليمن . وكان العرب في أيام قتيبة يسمون المضربين بوجه عام (الطبرى ج ٢ ص ١١٨٥ س ٥) ، أما قتيبة فكان ينتمى إلى قبيلة مزقة غير ناهية ، هي قبيلة باهلة التي كانت خارج المجموعات الكبرى للقبائل ، وكان من العسير أن تجسد مكانها في أنساب القبائل ومناشئها ، ولكنها انضمت إلى قيس بحكم الظروف (١) ، ولم يكن شيء

(١) وكذلك أيضاً في أرض الجزيرة ، قارن الطبرى ج ٢ ص ١٣٠٠ ، وابن الأثير

ج ٤ ص ٢٥٦ فابدها وانظر ما تقدم ص ١٩٦ هامش رقم ١ .

أحب إلى الحمّاج من أن يكون قتيبة ليست له عشيرة قوية ، فيدعوه ذلك إلى أن يعول على الدولة .

ولم يكن العرب قبل عهد قتيبة بن مسلم قد غزوا إلا بعض البلدان الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق من خراسان ، وهى أيضاً لم تكن قد أخضعت إلا إخضاعاً مؤقتاً . وهذا ما يتيبئه الإنسان من أخبار موسى بن عبد الله بن خازم . وكان قتيبة هو أول من شق الطريق لفتح هذه البلاد ، وأقل ما يمكن أن يقال أنه هو الذى شق طريق الفتح الحقيقى لها . ولكى يتسنى لنا أن نفهم الحملات التى قام بها فهماً جيداً يحسن أن نسلم بشىء موجز من الملاحظات الجغرافية والملاحظات المتعلقة بأحوال الأمم ، وذلك فيما يتعلق بشغرى خراسان .

كان أحد هذين الثغرين هو طخارستان أى أرض بلخ أو البكتريان (Bakterien) القديمة . وطخارستان هى فى الحقيقة تلك الأرض الجبلية الواقعة على ضفتى نهر بلخ الأوسط حتى بلد نخشان ، وتدخل فى ذلك أيضاً ، بحسب ما جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١١٨٠ س ٧) شومان وآخرون . أما فى العادة فلا يُفهم من طخارستان سوى الأرض الواقعة جنوب نهر بلخ . وكان العرب يعتبرون ذلك جزءاً من إقليم مدينة مرو الروذ ، وكانت أقصى مدن معسكراتهم فى جهة المشرق ، وذلك أنهم لم يحتلوا مدينة بلخ (بكترا Baktra) احتلالاً دائماً ، ولكن بلخ كانت لا تزال هى العاصمة الحقيقية لتلك البلاد ، وكان يقع فى منطقة بلخ إلى جهة المشرق خُلم والطالقان والفارياب وغيرها من المدن ، أما إلى الجنوب وفى أعلى بلاد الغور (Paropamisus) فكانت تقع رساتيق جوزجان أو جوزستان وغرستان أو غرجستان (مع مدينة باميان التى تتحكم فى الممر بين الجبال) . وإلى الغرب كانت تقع باذغيس بين وادى مرغاب وهريرود . أما إلى الجنوب الشرقى فكانت غازنين وولشتن تبغان كابلستان وسجستان .

أما النهر الآخر الذى كان أعظم شأنًا فى خراسان فقد كان أرض ما وراء
النهر ، ويتبع ذلك بوجه عام من جهة المشرق أرض الختلان وأرض جبال
(جبل الملح ١٥٩٦) الختل التى تمتد من بلخشان إلى الغرب حتى نهر
ونخشاب^(١) ، ثم تأتى بعد ذلك أرض الصغانيان ، أو أرض الصغان^(٢) ،
أما إلى الغرب ، فيما بين ترمذ على نهر بلخ وسمرقند على نهر السغد
(Polytimetus) فكانت تقع مدن شومان وآخرون ، ثم كيش ونسّسف ؛
والمدينتان الأخيرتان تلحقان عند المقدسى (ص ٢٦٧ ، ٢٨٢ فما بعدها)
بأرض الصغانيان ، ولكنهما عادة تلحقان بأرض السغد ، وأرض السغد
تقع إلى جانبي نهر السغد الأدنى الذى يسير حتى يتلاشى فى واحة بخارى
دون أن يبلغ نهر بلخ^(٣) . والعاصمة القديمة لأرض السغد هى سمرقند ،
وإذا ذكر اسم السغد فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو سكان مدينة سمرقند
وأرضها . وإلى المشرق من أرض السغد تقع من جهة بلاد أشروسنه ابلخية
على المجرى الأعلى الضيق لنهر السغد ، ومن جهة أخرى إلى شمال الجبال
تقع أراضى الشاش وفرغانة على نهر الشاش (Jaxartes) عند أبواب بلاد
الترك . أما المجرى الأدنى لنهر بلخ فهو بعد أن ينحنى نحو الشمال يخترق
صحراوات حتى يكون آخر الأمر واحة خوارزم . والمعبر الأكبر فى هذه
المسافة يكون عند آمل ، ويكون العبور على جسر من السفن .

أما سكان كل هذه البلاد الواسعة ولغتهم وحضارتهم^(٤) فقد كانت إيرانية ،

(١) وهى الآن سرخاب ، وفى تسمية وخش - آب بقى اسم نهر (Oxus) ، وقد صار
لا يستعمل فى تسمية للنهر الأكبر .

(٢) يسمى ملك هذه البلاد صغان - خرداه ، راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٦ و ١٦٠٠
فما بعدها .

(٣) يسمى الآن زرفشن واسم (Polytimetus) غير مفهوم والأولى أن يكون اسمه
(Polytimetus) ، ذلك لأن النهر مؤلف من نهيرات كثيرة ينقسم إليها ، ونظام الرى القديم فى
هذه البلاد هائل ومشهور لا يفوته نظام آخر .

(٤) وإلى جانب نظام الزراعة القائم على نظام الرى الذى كانت التجارة أيضاً (الفراء ،
الحمرير ، الماء ، الرقيق) مهمة جداً على الطريق إلى الصين .

وأما من الناحية السياسية فقد كان يسودها انقسام كبير ، وهذا الانقسام لم يأت مع سقوط الدولة الساسانية ، بل كان قد وقع قبل ذلك . فكانت هناك طبقة الأشراف الذين يسمون الدهاقنة ، وقد تميز من بينهم حكام ينتمون إلى أسر ويحكمون الأشراف العاديين ، وهم كبار الملاك والحكام في القرى ، ونجد في الرسائل المتفرقة وفي المدن الكبيرة أمراء فيهم وراثية الحكم ، ولهم ألقاب خاصة بهم^(١) . وليست كل هذه الألقاب آرية ، فمنها ألقاب غير آرية ، وذلك أن الإيرانيين ، وهم قد كانوا ممزقين كل ممزق ، لم يبقوا بنجوة من الاختلاط بغيرهم ولا من الخضوع لهم ، ففي إقليم Parātacene جاء الختل وكونوا طبقة فوقهم وملكهم يسمى السبيل^(٢) . ويظهر أنهم هم الهياطل (Hephthaliten) القدماء ، وكان هؤلاء من قبل يحكمون أرض ما وراء النهر كلها ، ولذلك يسميها المقدسي بلاد الهياطل ، بإطلاق هذه التسمية . ولكن في الفترة التي تعيننا دراستها هنا كان الهياطلة قد اندحروا وراء الترك ، وكان الموطن الحقيقي لهؤلاء يقع إلى الشرق من نهر الشاش ، ولكنهم في أثناء الغارات التي كانوا يقومون بها من هناك ، متوغلين مسافات بعيدة جداً ، كانوا كثيراً ما يتقدمون إلى المدن الإيرانية ويستقرون فيها ويؤسسون أسراً حاكمة ويأخذون إتاوة من البلاد ، ونجد اللقب التركي « طرخون » أو « طرخان » موجوداً فيما دون نهر بلخ وفيما وراءه ، وهو يطلق على الأمير التابع للخاقان^(٣) .

(١) كثيراً ما نجد لقب خدهاء ، ونجد لقب الشاه في خوازم والأصهبند في باخ والأكشيد في فرغانة والشير في غرستان .
أما لقب الإخريد و لقب الفياك في كش و لقب الأشقند في نسف و لقب الأفشين في أشروسنة فهي في الحقيقة أسماء أعلام .

(٢) إن لم يكن هذا اللقب اسم علم - قارن جيش (حنش) بن سبيل .

(٣) الطبري ج ٣ ص ٦٤٧ ، حيث نجد عبارة الخاقان وطراخنته ، قارن لقب الرُبْعَن في رُب و التُسَيْك (الترسل) في الفارياب والسهرك (الدهرب) في الطالقان والشاذ - وكلها في طخارستان . وسيد الترك يسمى دائماً بالخاقان ، كما لم يكن هناك سوى خاقان واحد .

فكان الترك في ذلك الزمان هم في الحقيقة الشعب الحاكم فيما وراء النهر وفي طخارستان ، وكان على العرب أن يحاربوا الترك خاصة في طخارستان على الأقل ، وقد ردّهم العرب وأخرجوهم من خراسان ووضعوا حداً لغارات السلب من جانبهم . وصار العرب ينافسون الترك في السيادة على السكان الإيرانيين منافسة ناجحة . ولكن العرب أيضاً كانوا يكتفون بإخضاع البلاد إخضاعاً سطحياً جداً ، وكانوا في جميع الجهات يتركون الساطة المحلية على ما هي عليه ، ويأخذون إتاوة كانت تسمى فدية ، أى مقابل الكف عن شن الغارات وعن النهب ، فإذا لم تدفع هذه الفدية - وهذا ما كان يقع بمنتهى السهولة - فعند ذلك تبدأ الحروب من جديد . ولم يكن العرب دائماً يكرهون أن تتكرر المناسبات التي تمكنهم من القيام بغارات النهب .

ولم يحدث على يد قتيبة تغيير أساسى في هذا الوضع ، ولكنه وسّع نطاق السيادة العربية إلى ما وراء الشغور توسيعاً أهدأ أثراً مما كان لها من قبل ، فلبث سنين كثيرة يخرج للغزو ، وفي كل ربيع كانت تأتى المقاتلة من أبرشهر وأبيورد وسرخس ومن هراة ومرو الروز إلى مرو ، لكى تخرج في الغزو دون أن يحتاج قتيبة إلى دعوتها . وفي سنة ٨٦ هـ قام قتيبة بحملة على آخرون وشومان كان قد أعد لها سلفه (بعد فتح ترمذ) ، وقد تعهد الملك بدفع الإتاوة . وفي السنة التالية توجه قتيبة لغزو المدن الواقعة في واحة بخارى ، وفي سنة ٨٧ و ٨٨ هـ فتح بيكنند وتومشكت ورامدين ، وقد غنم في مدينة بيكنند ، وهى مدينة تجارية ذات مخازن كبيرة للبضائع^(١) ، مستودعاً غنياً بالأسلحة ، فجهز به جنده العرب ، وكانت عدته الحربية حتى ذلك الحين قليلة ، ولم يكن جنده يملكون إلا ثلاثمائة درع (الطبرى ج ٢ ص ١٨٠ فما بعدها) وفي سنة ٨٩ - ٩٠ هـ غلب على بخارى نفسها ، وقد

(١) ويظهر أن إلياس النصيبى يقصد هذه المدينة فيما ذكره من أخبار سنة ٨٧ هـ .

حشته الجحاج على ذلك ، وكان الجحاج قد طلب أن ترسل إليه خريطة لتلك البلاد ، وتولى هو وضع الخطة الحربية . وفي سنة ٩١ هـ اشتغل قتيبة في طخارستان بإخضاع ثورة متشعبة تشعباً كبيراً ، وكان الطرخان نيزك هو روح هذه الثورة ، فاستدرجه قتيبة من الحصن الذي كان قد لجأ إليه بمدينة إسكيمشت^(١) ، ثم قتله غدرًا هو وآخرين من الطراخنة والدهاقنة ، ثم عبر بعد ذلك نهر بلخ وافتتح مدينة شومان ، وكان ملكها أيضاً قد اشترك في الثورة التي قام بها الطرخان نيزك ، ثم تقدم قتيبة عبر الباب الحديدى^(٢) وأخضع مدينتي كيش ونسف^(٣) ، وأقام في بخارى حكومةً جديدة بعد أن قام بقتل من اقضى الحال قتلهم . وفي سنة ٩٢ هـ كان في سيجستان ، ويروى أنه أرغم زنبيل كابل على دفع الإتاوة . ثم أغار في سنة ٩٣ هـ على مدينة خوارزم إغارة لم تكن متوقعة على الإطلاق .

وقد كان دعاه إلى ذلك سرًا شاه خوارزم ، فأخذ قتيبة في أول الأمر أيضاً جانب الشاه على أخيه الأصغر ، ولكنه بعد ذلك أخرجه من خوارزم وأقام حكومة عربية في البلاد . ومن خوارزم توجه إلى سمرقند تخفياً مقصده عن جنوده ما أمكنه ذلك ، وكان طرخون سمرقند في سنة ٩١ هـ قد صالح قتيبة على إتاوة ، ولكن رعاياه أسقطوه بسبب هذه الذلة واضطروه إلى الانتحار وحل محله أخشيد غوزك ، وقد رحب قتيبة بهذا السبب للتدخل ، وتمّ الصلح بعد حصار طويل ، وتعهد الغوزك بدفع الإتاوة ، وتمّ الاتفاق على أن يدخل قتيبة سمرقند ويقيم الصلاة في مسجد جديد يؤسس لذلك ، ثم يخرج من المدينة على الفور .

(١) راجع الأصطخرى (ص ٢٧٥) ، وهذه المدينة تقع إلى الشمال قليلا من خط عرض ٣٦° وإلى الشرق قليلا من خط ٦٩° وتسمى في المصورات الإنكليزية باسم إسكيمش ، قارن Marquart : Eranschahr ، ١٩٠١ ، ص ٢١٩ .

(٢) هذا هو اسم مر ضيق مشهور يقع على فرع النهر الذي يسمى الآن بنهر كشكه ، وقد صوره ريكلوس (Reclus, 6, 502) .

(٣) المقصود من فارياب عند الطبرى (ج ٢ ص ١٢٢٩ س ٣) هو فرياب - قارن الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٦ س ٣ .

ولكن قتيبة بعد أن دخل المدينة لم يخرج منها ، بل جعلها مدينة لحامية العربية وقاعدة لفتوحات أخرى . فمن هناك تقدم في السنين الثلاث الأخيرة لولايتيه (من سنة ٩٤ إلى ٩٦ هـ) ، فدخل وادي زرفشان الأعلى ودخل أرض الشاش وفرغانة ؛ بل يروى أنه بلغ كشغر حتى اتصل بالصين (١) . وتتفق رواية المدائني ، كما حكاه الطبري ، مع رواية البلاذري في الحملة ، غير أن المدائني لا يذكر سجستان وكشغر ، ولكن أشعاراً كثيرة من ذلك العصر تؤيد رواية المدائني (٢) .

وكان من عادة قتيبة أن يترك الأمراء في البلاد التي يفتحها على حالهم ، إذا صالحوه على إتاوة ، وإنما كان يضم إليهم رقباء أو نواباً من العرب في كثير من الأحيان ؛ أما بعض المواضع التي تكون لها أهمية كبيرة فكانت « تُسَمَّعُ سَمَرٌ » ، إذا ساغ أن نعبر بالتعبير الروماني ، أي أنها كانت تُخَصَّصُ لتكون مقرراً للعروبة وللإسلام ، وإن لم يُخَرَّج منها أهلها السابقون وإن بقي لهم أيضاً فوق ذلك شيء من الاستقلال الإداري في ظل حكامهم القدماء . وكان هؤلاء خاصة فرض الضرائب وجبايتها . وقد جُعِلَتْ سمرقند خاصة مقرراً للجيش العربي . فجاءت إليها حامية قوية معدة بكل عدة الحرب ، فاجتاحتها وهدمت بيوت النار ومعابد

(١) قارن الأشعار الموجودة عند الطبري (ج ٢ ص ١٢٧٩) فما بعدها وما ذكره البلاذري ص ٤٢٦ س ١٨ .

(٢) أهم شعراء خراسان هم ثابت قطنة الأزدي (الأغاني ج ١٣ ص ٤٩ فما بعدها) وكمب الأشقر الأزدي (الأغاني ج ١٣ ص ٥٦ فما بعدها) ونهار بن توسعة البكري (الأغاني ج ١٤ ص ١١٥) وزباد الأعجم مولى عبد القيس (الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ فما بعدها) والمغيرة بن حبيب التميمي (الأغاني ج ١١ ص ١٦٢ فما بعدها) ، وثم شعراء آخرون غير معروفين لا يذكرهم إلا الطبري . والفرزدق والكنيت والطرماس ، كلهم أيضاً يتناولون بين حين وآخر أموراً من أمور خراسان ، وكان الشعراء يتمصبون دائماً لقبائهم ، واهتمامهم بالاشياء وحكمهم عليها يتبعان ذلك ، رغم ما يقوله نهار بن توسعة في الكامل (ص ٥٣٨ س ١٥) . وعلى هذا فلا يصح الاعتماد على ما يقوله الشعراء إلا مع الحذر ، وإن كانت أشعارهم فيما يتعلق بالحوادث المجردة في ذاتها يمكن أن تعتبر شواهد تاريخية لها قيمتها الكاملة .

الأوثان : ويروى أنه صدر الأمر بأن يحلوا عنها كل وثني من ليلته : وكذلك اتخذت فيما يظهر في خوارزم وبخارى إجراءات مماثلة ، وإن لم تبلغ من الصرامة مبلغ الإجراءات التي اتخذت في سمرقند . وقضى أيضاً على الوثنية في بخارى . أما الرواية القائلة بأنه كان فيها بيت للنار ومعبد وثني كانت الطواويس توضع فيه فلا بد من إكمالها بالرواية القائلة بأن هذه المعالم الوثنية قد اختفت بعد ذلك (١) ، وكان يقصد من هذه المدن المتقدمة أن تقوم بالنسبة للبلاد المحيطة بها مقام المدن العسكرية العربية مثل نيسابور ومرو ومروالروذ وهراة بالنسبة لأرض خراسان . ولا شك في أن « استعمار » تلك المدن كان خطوة أبعد مما كان يطمح إليه المسلمون ومما كانوا قد وصلوا إليه في تلك الناحية وكان لهذا « الاستعمار » أثره الدائم في جعل بخارى وسمرقند وخوارزم أيضاً حواضر كبيرة انتشر فيها الإسلام وصارت حواضر للعناية بالعلوم العربية :

وعلى هذا فلم يكن زهو العرب بما أصابوه من نجاح ، كما نعب عن ذلك الزهو الأشعار الكثيرة ، زهواً أجوف ، وذلك أن الحرب في تلك البلاد لم تكن بالأمر اليسير عليهم . فقد كانوا في أول الأمر قليلة في العدد ، ولم يكن سلاحهم كافياً ، وكان بُعد المسافات وصعوبة الأرض وظروف المناخ كلها مصدراً لعقبات كبيرة قامت في سبيلهم ، وكان لابد لهم أن يحملوا معهم المؤن والملابس التي تقيهم البرد ، ولم يكونوا يستطيعون الخروج إلى الغزو إلا في الفصل المناسب لذلك من العام ، ولم يكن أعداؤهم بالذين يستهان بهم . وكان العرب إذا حاصروا مدينة جاءت لنجدتها في معظم الأحيان جيوش جرارة ، وهي كانت تأتي من بلاد بعيدة في الغالب ، وكان معظم هذه الجيوش يتألف من الترك ، وكان يقودها الترك أيضاً . والحق أن العرب كانوا يحاربون الترك من أجل السيطرة على تلك

(١) يجب أن لا يمزب عن البال بوجه عام أن الرعايا الإيرانيين لم يطالبوا قط بالدخول في الإسلام وأنهم قد تركت لهم الحرية في الدين .

النواحي ، وقد انتزعوها من أيدي الترك . وكان هذا في الواقع عملاً كبيراً استحق به العرب السيادة على الإيرانيين ، لأن هؤلاء ما كانوا ليستطيعوا أن يردوا الترك عن بلادهم . ويجب أن يُعزى الشطر الأكبر من الفضل في ذلك لقتيبة بن مسلم قائد الجيوش العربية ، فقد شأى سلفه جميعاً ، وكان له عند كبار الإيرانيين من الهيبة أكثر مما كان للمهلب وابنه يزيد^(١) . ولقد كان يسلك في الحرب مسلكاً قاسياً وخبثاً ، وكان في سبيل الله وفي سبيل الإسلام لا يهرب الغدر^(٢) ، وكثيراً ما يرجع الفضل في نجاحه إلى قلة مبالاته بالمبادئ ، ولكنه لم يتميز بذلك عن الطراز العادي لمن تكون بيده القوة من العرب^(٣) .

على أنه لما بلغ قتيبة أوج مجده وقوته جاء سقوطه . وقد أثار هذا الحادث دهشة كبيرة في العالم الإسلامي ، والمدايني يدخل روايته المفصلة في ذلك أجزاء من رواية لأبي مخنف . مات الوليد بن عبد الملك منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ (أو آخر فبراير سنة ٧١٥ م) وجاء بعده سليمان ابن عبد الملك وكان يبغض الحجاج وأتباعه ، لأنهم سعوا في أن يبعده عن ولاية الخلافة^(٤) . ولكن الحجاج أنقذه الموت من انتقام سليمان ، فاستطاع هذا أن يبرد نار الثأر في قتيبة ثم جاء يزيد بن المهلب وعبد الملك بن الأهم فحرضاه على قتيبة وزادا من جنقه عليه . ولما بلغ قتيبة خبر موت الوليد وولاية سليمان الخلافة بعده كان مع الجيش في ميدان القتال بأرض فرغانة ، وقد كان يعلم أن مصيره لن يقتصر على العزل ، بل إنه سيتعرض لأن ينزل به ما هو أسوأ من ذلك بكثير ، فلم يرَ أن يظل ساكناً حتى يحل به هذا

-
- (١) [قال الأصمهدي : « لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى حجر في الأرض مكبلاً بالحديد » يزيد (ابن المهلب) معنا في بلادنا وال علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد » ، ولقد كان قتيبة في نظر الترك بمثابة ملك العرب - المترجم - الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ .]
 (٢) [كتب الحجاج إلى قتيبة : اختلهم واقتلهم في الله - المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٠ .]
 (٣) [ومن غير العرب أيضاً - المترجم .]
 (٤) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٤ - المترجم .]
 (٢٧ - الدولة العربية)

كله ، غير أنه لبث حيناً من الزمان قبل أن يتخذ قراراً حاسماً^(١) . وقد أشار عليه أحد أخوته أن يبعث غزوةً ويوجه فيها كل من يخافه ، وأن يسير حتى ينزل سمرقند ويقول لمن معه : « من أحبَّ المقام فله المواساة » ومن أراد الانصرافَ فغَيِّرْ مُسْتَسْكِرَهُ ولا متبوع بسوء » ، حتى لا يبقى مع قتيبة بعد ذلك إلا مُنْصَاحٌ . وأشار عليه أخ آخر بأن يخاع سليمان على الفور وأن يدعو الناس إلى ذلك^(٢) . فآثر قتيبة أن يلف الجيش كله معه في الثورة على الخليفة ، فخطب في مسجد فرغانة وبينَّ لمثلئ الجيش من هو ومن سليمان . ويزيد بن المهلب ، وذكر للناس ما صنعه من التآليف بينهم والعدل فيهم وقسمة الفء وإجرائه الأعطيات وتأمينه البلاد ، وقارن بين عهده وعهد الولاة قبله^(٣) ، ثم طلب من الناس أن يؤيدوه . ولكن الناس كانوا إذذاك في آخر حملتهم الحربية لتلك السنة^(٤) ، وكانوا يحنّون إلى الأهل والولد ، فلم يشعروا برغبة كبيرة في مشروع خطر بعيد النهاية ، ولم يحبه أحد منهم . ولم يكن قتيبة يتوقع ذلك ، فغضب وفقد توازنه حتى صار لا يدرى ما يقول ، وانفجر ، وهو على المنبر ، يتناول باللوم والتقريع الشديد والتشنيع المؤلم جميع القبائل ، وذكر كل ما قيل في التشنيع عابها ولم يؤفّر عرض أية قبيلة . ولما نزل

(١) يروى أنه كتب لسليمان ثلاثة كتب ، ولكنه لم ينتظر جوابها ، فعلم رسول سليمان ، وهو في حلوان ، بأخبار ثورة قتيبة ، أما ما يذكره فايل (1555s.) من أن سليمان كتب لقتيبة كتابين فلا ذكر له عند الطبري ، وفي ذلك من الخطأ أن قتيبة لا يزال يعتبر موجوداً في مرو وأنه يؤمر بالخروج إلى فرغانة . وقبيلة باسلة ، التي كثيراً ما تعتبر هنا عند المدائن صاحبة تراث خاص ، قد حاولوا أن يبرئوا صاحبهم قتيبة ، انظر مثلاً (الطبري ج ٢ ص ١٣١١) . [ويوجد القاري أخبار الكتب الثلاثة التي كتبها قتيبة لسليمان عند الطبري ج ٢ ص ١٢٨٤ - ١٢٨٥ . على أن قيساً تزعم أن قتيبة لم يخلع سليمان ولم يخرج عن طاعته (الطبري ج ٣ ص ١٣١١ - المترجم) .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٦ فما بعدها - المترجم] .

(٣) [الطبري ج ٢ ص ١٢٨٧ - المترجم] .

(٤) من الميسر أن يكون خبر وفاة الوليد قد بلغ فرغانة قبل شهر يولية ، ثم إنه قد مضى وقت بعد ذلك قبل أن يظهر قتيبة بخطته .

عن المنبر ودخل منزله آتاه أهل بيته ونبّهوه إلى ما كان منه من إغصاب أعدائه وأنصاره على السواء ، فقال إنه لما لم يجبه أحد غضب حتى لم يندّر ما يقول — ثم أعاد تشنيعه على القبائل .

وبذلك أسخط قتيبة كل من في الجيش من العرب واستفزهم بشتائم من شأنها أن تغضبهم أشد الغضب ، فشى بعضهم إلى بعض سراً يتآمرون على خلع هذا الوالى الخائن للخليفة . وكان الأزدي حائقين عليه من أول الأمر ، لأنه أخرج المهالبة . وكانوا أشد الناس ضيقاً به ، فنفاهموا مع حلفائهم من ربيعة وجعلوا حُضَيْنَ بن المنذر البكري مستشاراً لهم ، ولكن حُضَيْنًا خشي منافسة مضر وتميم بما كان لهم من قوة ، وقال لهم : إن أخرجتم مضر من الأمر أعانوا قتيبة : فلما قالوا له إن تيمماً مواتورة من قتيبة قال لهم : لا تنظروا لهذا ، فإنهم يتعصبون للمضرية . وهكذا ترك المجال لتميم لتكون هى البائدة ، ونصبح حُضَيْنَ قومه أن يجعلوا الرياسة في تميم وأن يختاروا وكيع بن الحسن ابن أبي سود ، لأنه مقدم لا يبالى ما ركب ولأن له عشيرة كثيرة وهو مواتور من قتيبة . والحق أن تيمماً كانت غاضبة من قتيبة ، لأنه وترهم بقتله ابن الأهم ، وذلك أن قتيبة كان قبل ذلك بسنوات في أثناء غزوة بخارى قد استمخلف عبد الله بن الأهم على مرو ، فاغتم عبد الله ذلك للسعى بقتيبة والدس له عند الحجاج ، ولكنه أخفق واضطر إلى أن يهرب إلى سليمان بن عبد الملك في الشام ، وكان سليمان إذ ذاك ولياً للعهد ، يصارع من أجل المحافظة على حقه . فانتقم قتيبة من أخى ابن الأهم ومن ابن عمه ، فأثار بذلك على نفسه التهمة من جانب تميم (١) . وفوق ذلك كان قتيبة نفسه قد أغضب وكيع بن الحسن بن أبي سود (٢) ، سيد تميم ، وذلك أن وكيعاً انتصر مرة على الترك نصراً كبيراً ، فكتب

(١) البلاذرى ص ٤٢٥ فا بعدها ، والأغاني ج ٣ ص ١ الطبرى ج ٢ ص ٨١٧ و ١٣٠٩ فا بعدها و ١٣١٢ .
(٢) لا يصح الخلط بينه وبين سميه الذى قتل ابن خازم ، وكان تميمياً أيضاً ولكن من فرع آخر .

به قتيبة إلى الخليفة ولم يجعل مجد النصر لوكيح بن الحسن ، وهو الذى أحرزه واستحقه ، بل هو جعله لأخيه عمرو بن مسلم . ثم أغضب قتيبة وكيعاً أكثر من ذلك بأن أخذ منه قيادة الخمس (فرقة) تميم وجعلها لرجل من بنى ضبة ، فتولى وكيح قيادة الثورة على قتيبة وأيده حيّان النبطي^(١) ، أحد التواد الإيرانيين ، وكان قلبه مترعاً بالحنق على قتيبة لأسباب لا تحتاج إلى بيان (الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٣)^(٢) . وكان حيّان هذا رجلاً خطراً فى مركز متوسط بين السادة العرب وبين الموالى ، له تأثير كبير ، وكان يعرف كيف يدبّر المؤامرات على نحو ما يعرفه العرب ، وكان له شأن خاص بحكم أنه زعيم الموالى ، أولئك الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام ، وكانوا يؤثفون فرقة خاصة بهم تحارب فى الجيش العربى ، وكانوا هم أنفسهم موالين لقتيبة ، ولكن حيّاناً عرف كيف يصرفهم عنه وينفرهم منه ، فقال للعجم : هؤلاء — يقصد العرب — يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً ؛ فأجابوه إلى ذلك ٥

وقد أنزل قتيبة فى أول الأمر ما وصل إليه من تحذير منزلة كلام أهل الحسد ، ولكنه دهش أخيراً من أن وكيعاً صار لا يحضر مجلسه ، فدعاه إليه ، فمارض ، فلذهب إليه رسول قتيبة ، فوجده قد طلى على رجله مغرة^٣ ، ووجد على ساقه خرزاً وودعاً ، وعنده رجلان يرقيان رجله ، فلما قال الرسول لوكيح : أعجب الأمير ! قال : قد ترى ما برجلى ! فرجع الرسول إلى قتيبة ، وانتهى الأمر إلى أن أراد قتيبة حمل وكيح إليه بالقوة . فلما عرف وكيح ذلك قطع الخرز الذى كان على

(١) كان يسمى النبطى لا لأنه نبطى ، بل لكنته ، أى لأنه لم يكن يحسن النطق بالعربية (الطبرى ج ٢ ص ١٢٩١) . [وكان حيّان قائد جيش الموالى بخراسان ، وكانوا حبة آلاف ، فعرض على وكيح أن يكف عنه على أن يجعل له وكيح خراج جانب نهر بلخ طول حياته — المترجم] .

(٢) [وكان قتيبة قد أمر بضرب حيّان وحلقه — المترجم] .

رجله ولبس سلاحه وانتقل من فراش المرض المزعوم إلى ظهر فرسه . وقد خرج وحده ، ولكنه جعل حوله جماعة كافية ، لكي يستطيع أن يهجم على قتيبة . أما قتيبة فلم يجتمع إليه إلا أهل بيته من إخوته وأبناء عمومته القلائل من باهلة وآخرون من ثقاته . أما الأعاجم وعلى رأسهم قائدهم حيسان - وكان قتيبة يعتقد أنه يستطيع أن يُعَوِّل عليهم - فقد انحازوا إلى المهاجرين ، ونادى قتيبة في الناس ، فلم يُجِبه أحد حقاً عليه ، فتعزى عن اليأس بالصبر ودعا بـردون له مُدَرَّب ، كان يركبه في الزحوف ، فلما قُرب إليه ليركبه جعل يقمص حتى أعياه . فعاد قتيبة إلى سريره أمام حصن فرغانة ، ينتظر ، وهو مستسلم ، تلك النهاية التي لا بد أن تنتهي إليها المعركة وشيكاً . فسُئِلَ إخوته وأنصاره وقتل هو أيضاً ، واحتز رأسه رجلٌ من الأزد . ولقد أخطأ قتيبة في تقدير ما ظن أنه يقدر عليه من إثارة الجيش معه على الخليفة . ولو أنه كانت له قبيلةٌ تؤيِّده بحرى الأمر على غير ذلك (الطبرى ج ٢ ص ١٦٥٩ فما بعدها) ، ولكن لم يكن له ما كان يحتاج إليه ، فقد كانت باهلة قبيلة ضعيفة ، وتخلت عن قتيبة قيسٌ التي كان يعتز بها ، كما تخلت عن مساعدته الأعاجم . ورغم قوة تلك الفكرة التي أراد بها أن يؤثر في الجماهير فإنها لم تأت له بأنصار ، لأنه ما كان يريد سوى المحافظة على نفسه وعلى منصبه . وليس من السهل على إنسان مهما كان كفواً عظيم القدرة ، ما دام لا يربطه بالعرب إلا منصبه ، أن يستطيع ضمهم إلى جانبه عند ما يكون نائراً على السلطة العليا التي يستند إليها في شرعية منصبه . وقد لقي عبيد الله بن زياد في البصرة وأخوه سلم بن زياد ما لقوا من عواقب هذه التجربة ، فقد أخطأ في الحسبان ، لما ظن أنهما يستطيعان المضى في حكم الولايات التي كانا عليها حكماً مستقلاً عن الخلافة ، وذلك أن أميراً أياً كان ، ما لم يكن في نفس الوقت رئيس قبيلة ، لا يستطيع شيئاً من غير الخليفة ، وهو أيضاً لا يستطيع شيئاً إذا أراد الخروج على الخليفة ، لأن القيمة الشخصية للأمير ليست كافية في أن تكفل له النجاح . على أن أمراء الأعاجم قد استنكروا مسلك العرب إزاء قتيبة

واعتبروا ذلك أشبه شيء بالانتحار . وقد كانوا على حق ، لأن سقوط قتيبة ألحق بالسيادة العربية على الثغور التي افتتحها وأسس فيها القواعد العربية ضربة قاسية (١) .

وقد وقعت الكارثة في سنة ٩٦ هـ ، بحسب ما جاء عند الطبري (٢) ، وفي أول سنة ٩٧ هـ ، بحسب ما جاء عند ابن قتيبة . وبعد أن قُتل قتيبة ونال وكيع اعتراف القبائل بالإمارة له مؤقتاً طالب برأس قتيبة المقطوع ، فلما امتنع الأزدي الذي كانت عنده الرأس — لأن الأزدي حرصته على ذلك — أشار وكيع إلى خشب جاء به ونصبه وقال : « إن هذه الخيل (يريد الخشب المنسوب) لا بد لها من فرسان » ، ومعنى ذلك أنه يهدد المحتشمين عن الإتيان بالرأس بأن يصلبهم . وقد كان لكلمته تأثيرها ، فحُسمِل إليه الرأس ، وأرسله إلى الخليفة ، لكنه أرسله مع رجال من قبائل شتى ولم يبعث من بني تميم أحداً ، لأن تيميا لم تكن لترضى عن ذلك ، ثم خطب في المسجد (٣) خطبة قصيرة افتتح بها عهده ، وكانت تتكون من مجموعة من أمثال بذيئة تمّ عن روح العنف ومن أبيات من الشعر ، ولكنها كانت كافية للإفصاح عن رأيه ، وقال في آخر خطبته : « والله لأقتلن ولأصلبن ثم لأصلبن : إني والغ دماً : إن مرزبانكم هذا ابن الزانية قد أغلى عليكم أسعاركم ، والله ليصيرن الففيز في السوق غداً بأربعة (دراهم) أو لأصلبته — صلوا على نبيكم ! » ، وهو يقصد من ذكر المرزبان ، فيما يظهر ، قتيبة ، كما كان قتيبة أحد كبار العلوج من الطراز الإيراني (٤) . أما وكيع نفسه فقد ظهر بمظهر العربي من النموذج الأصلي

(١) [يذكر الطبري (ج ٢ ص ١٣٠٠) قول رجل من العجم : يا معشر العرب ! قتلتم قتيبة ، والله لو كان قتيبة منافات فينا لجعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا ، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة — قارن الطبري ج ٢ ص ١٣٠٢ — المترجم] .

(٢) [تجد كل ما يتعلق بقتيبة بن مسلم وبثورته ومقتله عند الطبري مثلاً (ج ٢ ص ١٢٨٣ — ١٢٩٧) — المترجم] .

(٣) [لاشك أن ذلك كان في مرو لا في فرغانة] تجد خطبته عند الطبري ج ٢ ص ١٢٩٨ — المترجم] .

(٤) على أنه قد كان في مرو رجل يسمى المرزبان حقيقة ، وربما كان على الشرطة في السوق .

«القديم» ، وكان جاداً في إسلامه ، ولكنه مثلاً لم يكن يأخذ الناس بعقوبة الجلد التي جعلها القرآن حداً لبعض الجرائم . فقد جرى له يوماً بسكران ، فأمر به فتمشيل ، فقبل له : « ليس عليه القتل ، إنما عليه الجلد » ، فقال : « لا أعاقب بالسياط ، ولكني أعاقب بالسيف » . ولما قتل قتيبة أمر وكيع^(١) رجلاً فنادى : لا يُسَلِّبَنَّ قَتِيلٌ ؛ فسَلِّبَ رجلٌ من العرب أحد قتلى باهلة ، فضرب وكيع^(٢) عُنُقَهُ^(٣) ؛ ومنع من مثل ذلك العمل منعاً شديداً . وهكذا كانت لو كيع طريقته الخاصة . وقد أقره سليمان بن عبد الملك في الولاية في أول الأمر ، ولكن بعد تسعة أشهر أو عشرة حل محله يزيد بن المهلب ، فتولى خراسان إلى جانب ولايته العراق ، وكان عليها من قبل . وكان ليزيد ، خلافاً لقتيبة ، قبيلة وراءه تشد أزره ، والإنسان يلاحظ ذلك . ولما ولي يزيد وصلت الأزد إلى دفة الحكم وإلى موارد الغنائم ، وأزيلت تعمير عن مكانها ، ولقي وكيع من العذاب ما لقي . هذا إلى أن يزيد بن المهلب جاء بجند من جند الدولة في الشام فأدخلهم إلى خراسان ، بعد أن كان الحجاج قد تعمد أن يجعلهم بعيدين عن خراسان (الطبري ج ٢ ص ١٢٥٧) ، وكان لا يستعملهم إلا في الهند . وملاً يزيد جميع المناصب بأبنائه وأقربائه كما هي العادة ، وكان يحس في خراسان أنه في بيته ، فكان في خراسان أقلّ مخرجاً مما كان في العراق . وقد أتاحت له في الولاية الجديدة فرصة أكثر مواتاة للنهب وابتزاز الأموال ، وكان لا بد له من المال في حاجاته الغالية الثمن — مثل الجوارى الحسنان — لأنه كان يظهر بمظهر الأبهة الكبيرة :

ويُروى أنه كلما كان قتيبة يفتح فتحاً ، كان يُسرُّ به سليمان بن عبد الملك^(٤) ، فيقول ليزيد بن المهلب : « أما ترى ما يصنع الله على يد قتيبة ! » ، فيجيب

(١) [تدل هذه القسوة على شطط في العقوبة يتجاوز حدود الشرع مبالغة في الردع ، دون أن تدل على استنكار الحدود الشرعية — المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٢٧ — المترجم] .

يزيد بأن هذه الفتوح ليست بشيء وأن الشأن لجرجان التي تحول بين الناس وبين الطريق الأعظم إلى خراسان . والواقع أن البلاد الجبلية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر الخزر كانت منطقة تقطع اتصال الأرض الإسلامية قطعاً يضايق مواصلات الدولة . فلما ولي يزيد بن المهلب خراسان لم يكن له همٌّ غير فتح جرجان ، ولكن لم يبدعه إلى ذلك شعوره بما يوجبه عليه الشرف ، بعد أن قال في فتوحات قتبية ما قال ، بمقدار ما دعت إليه فرصة سانحة أتاحت له فتح جرجان^(١) . وذلك أنه كان في جرجان في ذلك الوقت نزاعٌ على الملك بين الأمير فيروز بن قول مرزبان جرجان وبين ابن عم له يقال له المرزبان ، وكان المرزبان هذا حليفاً لصول التركي صاحب دهستان . ففرَّ فيروز وقصد إلى يزيد بن المهلب وطلب المعونة منه ، وفي ربيع سنة ٩٨هـ^(٢) خرج يزيد في جيش جرار لا نظير له من قبل ، وكان الجزء الأصغر منه من أهل خراسان ، أما الأكبر فكان يتألف من أهل العراق ومن أهل الشام . فأعاد فيروز إلى عرشه من غير قتال ، وكان فيروز قد أشار على يزيد باستدراج الصول من معقله في الجبال إلى البحيرة ، ففعل ، وحاصره فغلبه ، ويقال إنه قتل أربعة عشر ألفاً من أسرى الترك صبراً . ولأنه غنم غنائم لا يمكن إحصائها . وبعد أن تمَّ ليزيد إخضاع أرض دهستان وبساسان تقدم قاصداً أصهبند طبرستان ، فبعث إليه الأصهبند يطالب .

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ١٣١٧ فا بعدها ، خصوصاً ١٣٢٣ فا بعدها - المترجم .
(٢) يروى أن ذلك كان في سنة ٩٨ هـ ، ومن البديهي أن تكون الحملة قد بدأت في الربيع ، وهو يقع في النصف الثاني من هذه السنة ، ولا يمكن أن تكون الحملة قد استمرت إلى ما بعد الخريف ، وفي الخريف كان في الشام موت سليمان بن عبد الملك ، فخلفه عمر بن عبد العزيز ، وقد أعقب هذا التنير في الخلافة سقوط يزيد بن المهلب . وإذا كان هذا هو الثابت ، فإنه لا يمكن أن يكون حصاد الصول قد دام ستة أشهر وحصار المرزبان قد دام سبعة أشهر . أما الصحيح فهو أنه لابد أن يكون يزيد قد خرج إلى جرجان بعد وصوله إلى خراسان بثلاثة أشهر أو أربعة ووصوله كان في النصف الأول من سنة ٩٨ هـ وكان قد أرسل ابنه مخلداً ليسبقه إلى خراسان .

الصلح ، فأبى يزيد ، رجاء فتح طبرستان عنوة ، لأن ذلك يؤتبه غنائم أكثر . ولكن يزيد هزم هزيمة كبيرة ، ووجد أنه في نفس الوقت مهدد في ظهره بسبب ثورة في جرجان ، وعند ذلك لجأ إلى حيتان النبطي ، رغم ما كان منه من إساءة إلى حيتان ، لكي ينصح له ويتوسط في الصلح ، فذهب حيتان إلى الأصمهيد وقال له : « أنا رجل منكم ، وإن كان الدين قد فرق بيني وبينكم ، وأنت أحب إلى من يزيد . وقد بعث يستمد ، وأمداده منه قريبة ، وإنما أصابوا منه طرفاً ، ولست آمن أن يأتيك ما لا تقوم له ، فأرح نفسك منه وصالحه ، فإنك إن صالحته صير حدة على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا » ، فصالح الأصمهيد على إتاحة انفق مع حيتان عليها ، ورجع حيتان إلى ابن المهلب وأبلغه شروط الصلح ، فلم يكدم ابن المهلب بصدق ، من سوء ما كان يتوقع . حتى إذا تخلص ابن المهلب من هذا المأزق رجع إلى جرجان : وكان المرزبان قد ثار فيها من جديد والتجأ إلى حصن ، فاستولى عليه ابن المهلب بعد حصار طويل . وكان ابن المهلب ، بعد أن نكث أهل جرجان وغدروا بجنده ، قد أعطى الله عهداً لأن ظفر بهم ألا يقبل عنهم ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه ، فبعد أن انتصر أراد أن يبر بيمينه ، فأجرى الماء في الوادي على الدماء ، وكان على الوادي أرحاء ، فطحن واختبز وأكل . ثم بنى مدينة جرجان ، ولم تكن قبل ذلك مدينة . وكتب يزيد ابن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك يخبره بالفتح العظيم الذي تم على يديه ، ويقول إنه كان قد أحى ملوك الفرس وخلفاء الإسلام ، حتى فتحه الله سليمان ابن عبد الملك ، فافتخر بذلك الفتح الذي لم يكن رائعاً ولم يكن على كل حال إلا فتحاً مؤقتاً . غير أنه في كتابه أخبر الخليفة أنه قد صار عنده من خمس الفىء ، بعد أن صار إلى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة ، أربعة آلاف أو ستة آلاف ألف درهم ، ووعد بأنه سيحملها إلى الخليفة . وقد نصح يزيد كاتبه ألا يرتبط

مع الخليفة ببيان مقدار المال تجسباً للنتائج المتنوعة التي تنتج عن ذلك ، فأبى يزيد ومهّد بما فعل إلى نزول القدر الذي يستحقه ، وذلك أن سليمان بن عبد الملك توفي في صفر سنة ٩٩ هـ ، في صيف (١) السنة التي كانت فيها الحملة الحربية على جرجان ، وجاء بعده عمر بن عبد العزيز ، فدعا يزيد وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال يزيد بن المهلب إنه إنما كتب بذلك إلى سليمان ليستمع الناس به ، فقال له عمر إن تلك الأموال إنما هي حقوق للمسلمين لا يسعه تركها ، وطلب من يزيد أن يؤدّيها . فلما لم يفعل حبسه حتى يؤدى ما عليه .

٤ - لقد ارتفع شأن الأزد في خراسان بارتفاع المهالبة ، وهم كذلك سقطوا بسقوطهم ، فتأخروا إلى المحل الثاني وانتقلوا إلى جانب المعارضين للحكومة . وقد كان عمر بن عبد العزيز إنما خالف سلفه من الخلفاء بأن لزم الحياد بالنسبة للقبائل ، ولم يظهر بمظهر العداء للأزد ، وإن كان قد قضى على سطوتهم بأن عزل رئيسهم يزيد بن المهلب . ولكن لما انتهى عهد عمر بن عبد العزيز وجاء عهد خلفه بدأ ردّ فعل قوامه التنعصّب على الحزب الذي مالاه سليمان بن عبد الملك ، وخصوصاً بعد القضاء على تلك الثورة الكبيرة التي كان المهالبة قد قاموا بها في العراق ، فلما جاء يزيد بن عبد الملك جعل الانتقام من المهالبة وأتباعهم شعار حكومته ، وقد ذاق وبال ذلك من كان من الأزد في خراسان أيضاً ، وإن لم يكونوا قد اشتركوا في تلك الثورة على الإطلاق . فأقصى المهالبة عن جميع مناصبهم وعُدّب رؤسائهم وأسلموا لباهلة لكي ينتقموا منهم لمقتل قتيبة بن مسلم ، وعادت السيادة للضريرة أخرى وعلى رأسهم تميم ، ولكن الأمير نفسه لم يكن من تميم ، وإن كان منها في كثير من الأحيان نائبه صاحب الشرطة ، وهم جنود الحكومة الملائمين للعاصمة ،

(١) سبتمبر سنة ٧١٧ هـ ، وكان الانتقال من سنة ٩٨-٩٩ هـ يقع في منتصف أغسطس سنة ٧١٧ م .

بل كان الولاية دائماً من قيس ، وكان منها أعمال الدولة منذ أيام الحجاج ، ولكن ارتباط أمراء قيس برابطة النسب القبلية وتكوينهم حزياً واحداً لم يكفهم عن العداوة والشر فيما بينهم ، فكان الخلف منهم في الغالب يعذب سلفه ويبتز منه المال بدعوى أنه يطالب بما كان تحت تصرفه من أموال الدولة ، وكان الأمير يفعل مثل ذلك مع العمال الذين استعملهم سلفه ؛ وكانت هذه هي صورة المسؤولية الوزارية عند العرب . وكان التغير المستمر المفاجئ في الحكومة عائفاً دون تنفيذ سياسة متصلة ، وكان الحكم أمراً شخصياً محضاً ، وكان بمثابة سياسة نهب يسرع الوالى في استثمارها أو في التهام الغنيمة التاماً ، إذا صح التعبير . ولم يكن ذلك مقصوداً على خراسان ، لكنه كان يجرى فيها على أوقع صورة وعلى أخطر أيضاً ، لأن الحاجة إلى حكومة ثابتة الأركان دائمة السلطان في تلك البلاد النائية المعرضة لهجمات الأعداء كانت أشد ما تكون ، وكان من تأثير هذه الظروف أنه لم تلبث أن تزعزت أركان الفتوحات التي قام بها قتيبة بن مسلم ، وصارت الحاجة دائماً تدعو إلى إعادة فتح ما فتح . وقد أمكن بطبيعة الحال الاحتفاظ بالقواعد الثابتة التي أسسها قتيبة للعروبة والإسلام في بلاد السغد ، خصوصاً سمرقند وبخارى ، كما أن العمل على صبغ تلك البلاد بالصبغة الإسلامية استمر هناك وازداد .

ولكن نشأ من ذلك خطرٌ جديد على السيادة العربية لم يكن متوقفاً ، ولم يزل خطبته يتفاقم باستمرار . فقد كان الأمير الذي وجهه عمر بن عبد العزيز إلى خراسان ليحل محل يزيد بن المهلب هو الجراح بن عبد الله الحكى ، وكان من مدرسة الحجاج ، فغزا الختل في أرض Parāiacene بعد أن لم يكن قد غزاهم أحد من قبل غزواً يستحق الذكر ، وكتب الجراح يخبر الخليفة بذلك (١) . وأوفد وفداً : رجلين من العرب ورجلاً من موالي بني ضبة يسكنى أبا الصيداء . وكان أبو الصيداء هذا رجلاً فاضلاً في دينه ، فتكلم العربيان ، وهو جالس

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٥٣ فا بعدها - المترجم] .

لم يتكلم ، فقال له عمر : « أمّا أنت من الوفد ؟ » قال : « بلى » ، قال :
 « فما بمنعك من الكلام ! » . وهنا وجد أبو الصيداء — وإن كان عربياً
 بالولاء (١) — أن الدين يقضى عليه بأن يقول كلمة طيبة في مصاحبة الأعاجم
 للمدين دخلوا في الإسلام ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! عشرون ألفاً من
 الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق ، وميثلتهم قد أسلموا من أهل الذمة ،
 يؤخذون بالخراج . وأميرنا عَصَبِيٌّ جاف ، يقوم على منبرنا فيقول :
 « أَتَيْتُكُمْ حَقِيئَةً ، وأنا اليوم عَصَبِيٌّ » ، والله لرجلٌ من قومي أحبُّ إلى من
 مائة من غيرهم . . . » ، وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم
 والعدوان » ، فقال عمر : « إِذَنْ مِثْلُكَ فليُوفد » ، وكتب عمر إلى
 الجراح يأمره بأن يضع الجزية عن كل مسلم ، فسارع الناس إلى الإسلام (٢).
 ولما قبل للجراح . إن الناس إنما سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية ،
 ونصحوه أن يمتحنهم بالختان ، كتب بذلك إلى عمر ، فردّ عليه عمر يقول :
 « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ، ولم يبعثه خاتناً . واستدعى
 عمرُ الجراحَ ثم عزله بعد أن كان قد قضى في الولاية ما يقرب من عام
 ونصف ، وذلك في رمضان سنة ١٠٠ هـ (إبريل سنة ٧١٩ م) ، وعين
 مكانه والياً أكثر ليناً ، وكان ضعيفاً يحب العافية (٣) ، وهو عيد الرحمن
 ابن نعيم الغامدي ، وكان أزدياً ، لكنه لم يكن من أزد عمان ، أعنى من
 الحزب الأزدى في خراسان . وقد جعله عمر على الحرب والصلاة ، وضم
 إليه على الجراح عبد الرحمن بن عبد الله القشيري من قيس ، وكان رجلاً
 ذا همة وإقدام . وبقي ابن نعيم بعد موت عمر في منصبه حيناً ، ثم عُيِّنَ
 مكانه في سنة ١٠٢ هـ سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص
 أحد الأمراء الأمويين ، وهو المعروف باسم سعيد خُدَّيْنَةُ ، لأنه كان رجلاً

(١) وكان لا يعرف الفارسية (الطبري ج ٢ ص ١٥٠٧) ، أما إنه كان مولى ،
 فإن هذا لا يجعله إيرانياً .

(٢) فدخل في الإسلام كثير من الملوك فيما وراء النهر (البلاذري ص ٤٢٦) .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٣٥٦ — المترجم] .

لبنياً سهلاً^(١) . وقد زاد بأمر يزيد بن عبد الملك في الإساءة إلى الأزد
وفى معاداتهم ، ولكنه لم يشتد في معاملة الأعاجم ، أو على الأقل في محاربة
السعد الذين كانوا قد ثاروا على العرب في ذلك الوقت بجهة سمرقند — ولم
يثوروا في العاصمة نفسها — ولحقوا بالترك ، بعد أن كانوا قد عادوا إلى
الهجوم على ما حولهم ، وساعدوهم على العرب . وبسبب هذا اللين الذي
بدا للعرب أنه قد وُضِعَ في غير موضعه عُزِلَ سعيد خديجة عن منصبه ،
وعُيِّنَ مكانه سعيد بن عمرو الحرشي^(٢) . فاشتد سعيد مع أهل الفتنة ،
وخافوا على أنفسهم منه ، فأجمعوا على الخروج من بلادهم والهجرة إلى
فرغانة . ولم يكن للعرب في فرغانة ما كان لهم في غيرها من سلطان ؛ وقد
هاجر منهم خاصة أهل مدن قَى وإشتيخن وبياركت وبُنْجِيكْت
وبُزْماجَن^(٣) ، وقد خرجوا معهم أمراؤهم وعلى رأسهم كارزنج صاحب
مدينة قَى ، وكان في الحقيقة شأنه شأن غيره من أمراء السعد تركي
الأصل^(٤) . وقد توجه معظم المهاجرين^(٥) إلى مدينة خُجَنْدَة (خوكند) على نهر
الشاش ، ولكن سعيداً اتبعهم وحصرهم في مدينة خجندة . وكان ملك فرغانة

(١) الطبري ج ٢ ص ١٣٥٧ ، ١٤١٧ ، ١٤٢١ ، ١٨٦٧ ، والبلاذري ص ٤٢٧
وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٢ .

(٢) ينتمي إلى بني الحريش بن كعب من أهل الجاهلية .

(٣) [الطبري ج ٢ ص ١٤٣٩] وكانت اشتيخن وبزماجن تقعان غير بعيد من سمرقند ،
أما بَنْجِيكْت فهي ليست مدينة أشروسنه ، بل المدينة المسماة بالاسم نفسه قرب سمرقند ، وكذلك
كانت مدينة قَى (الطبري ج ٢ ص ١٤٢٢ ص ١٦ و ١٤٤١ ص ٤) تقع قريباً من سمرقند
على نهر زرقشن . وفيما يتعلق باسم بياركت قارن الاسم العلم بيار عند الطبري (ج ٢ ص ١٤٤٦
ص ١٠) . والمقطع كِت هو أشهر مقطع يرد في آخر أسماء المدن .

(٤) في بيت الشعر المذكور عند الطبري (ج ٢ ص ١٢٨١ ص ٥) وهو مملوط ،
كُنيت كلمة كارزنج بدلا من كلمة كارزنج ، قارن الطبري (ج ٢ ص ١٤٤٦ ص ١٠) .
وبحسب الطبري (ج ٢ ص ١٤٢٢ ص ١٦) كان ملك قَى ، وكان يلقب هناك بلقت ترك
خاقان ، في أول الأمر صديقاً للعرب .

(٥) خلافا لما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٤٤١ ص ٧) و ص ١٤٤٦ فما بعدها ؛
قارن الطبري (ج ٢ ص ١٤١٨ ص ١) .

قد أخبر سعيداً بأمرهم وأشار عليه بأن يعاجلهم لأنه لم يكن لهم جوارٌ عنده ، ولم يكن قد حل الأجل المضروب لدخولهم في جواره ، وهكذا خاب ظن المهاجرين في معونة ملك فرغانة لهم ، فسلموا وطلبوا الصلح والأمان والعودة إلى بلادهم ، على أن يؤدوا ما عليهم من إتاوة وينفذوا شروطاً اشترطها عليهم . وكان من هذه الشروط أن يردوا من أيديهم من نساء العرب وألا يغتالوا أحداً ولا حلت دماؤهم . ولكن أحد أمراءهم قتل امرأة كانت في أيديهم ، فلما تيقن الحرشي من ذلك قتل أميراً لهم . وخاف كارزنج مثل هذا المصير على نفسه ، وكان نازلاً عند العرب ، فاحتال في طلب المعونة من ابن أخيه ، وقال لأيوب بن أبي حسان الذي كان نازلاً عنده : « إني ضيفك وصديقك ، فلا يحمل بك أن يقتل صديقك في سراويل خلت ، فخذ سراويلي » ، ثم قال : « وهذا لا يحمل ، أن أقتل في سراويلاتكم ، فسرح غلامك إلى جلتنج ابن أخي يميني بسراويل جديدة » . وكان قد قال لابن أخيه : إذا أرسلت إليك أطلب سراويل ، فاعلم أنه القتل^(١) . فجاء جلتنج وحاول الهجوم على معسكر المسلمين ، ولكنه أخفق . وكان السغد قد قتلوا أسرى من المسلمين في أيديهم ، فعند ذلك أمر الحرشي بقتل جميع جنود السغد ، الأمراء ومن معهم . وقد حاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم بالخشب ، لأنه لم يكن معهم سلاح ؛ ولكن ذلك لم يُغن عنهم شيئاً . وفي اليوم التالي قتل الحرشي عدة آلاف من الحرّاثين . على أنه كان في اليوم السابق قد عزل التجار ولم يقتلهم ، وكان معهم مالٌ عظيم قدموا به من الصين ، وكان عددهم أربعائة ، ورغم ذلك بقي في فرغانة كثير من أهل السغد ، لأنهم لم ينزلوا جميعاً في مدينة خُجندة (الطبري ج ٢ ص ١٦١٣ فما بعده ١٧١٧) .

(١) [نظراً لأن المؤلف يختصر اختصاراً لا يكون معه الكلام مفهوماً تماماً ، فصلنا الترجمة بمض الشيء طبقاً للطبري ج ٢ ص ١٤٤١ - ١٤٤٩ - المترجم] .

وأخضع الحرشي ، وهو في طريقه راجعاً ، مدناً وقلاعاً أخرى كانت قد شقت عصا الطاعة ، وقد غلب عليها صاحباً وتسليماً في معظم الأحيان . ولكنه كان إذا عرف أن في القلعة مالاً كثيراً صالح أصحابها بعد قبض ما في القلعة^(١) . وقد أراد عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق - وكان الحرشي تابعاً له - أن يجعل من ذلك سبيلاً للموجدة على الحرشي^(٢) ، ولكن هذا الغضب كانت له في الحقيقة أسباب أخرى ، وذلك أن سعيداً الحرشي كان في كثير من الأحيان يتجاهل ابن هبيرة ، وهو أيضاً لم يتفد أمراً له باستخراج الأموال من قوم من العرب كانوا في نخراسان ، وكانت أهواؤهم مع ابن المهلب^(٣) . هذا إلى أن ابن هبيرة وجهه معقل بن عروة إلى هراة ، فلم يمر على الحرشي ، بل قصد إلى هراة رأساً . فأمر الحرشي بحمله وسأله : « ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هراة ؟ » فأجاب : « أنا عامل لابن هبيرة ، ولاتني كما ولاتك » ، فضربه الحرشي مائتين وحلقه ؛ ولهذا عزله ابن هبيرة وأمر بأن يحمل من مرو إلى الكوفة مقيداً ، وعذبه ونفخ في بطنه النمل . وكان ذلك مظهراً من مظاهر العداء بين رجال قيس الذين كانت لهم السيطرة الكاملة في عهد يزيد بن عبد الملك ، وذلك أن كلاً من ابن هبيرة وسعيد الحرشي كان قيسياً ، وخصوصاً ابن هبيرة نفسه^(٤) ، وهذا في الوقت نفسه مثال يقتنع المتأمل ويبين كيف كان رجال قيس لا يبالون بجميع

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٤٧ - ٤٤٨ - المترجم] .

(٢) [راجع في معرفة أسباب موجدة ابن هبيرة على الحرشي الطبري (ج ٢ ص ٩٤٤٦

- ١٤٥٧) - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٥ - ١٤٦٠ - المترجم] .

(٤) [لم تكن أم الحرشي عربية وهذا ما يؤخذ مما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٦ -

١٤٥٧) - المترجم] .

الاعتبارات إذا كان الأمر أمر المناصب وأمر الجشع في طلب المال^(١) - ومع هذا كانوا يبدأ واحدة على من عدا قيس :

وجاء بعد سعيد الحرشي مسلم بن سعيد بن أسلم الكلابي^(٢) . وهو أيضاً قيسى تخرج في مدرسة الحجاج ، وكان الحجاج قد ضم مسلماً ، بعد أن مات أبوه ، إلى أولاده فتأدب معهم ونسب . وكان عدى بن أرطاة قد ولى مسلماً من قبل ولاية خفيفة لكي يبدأ حياته ويرتفع ، فقام بها وضبطها وأحسن ، فلما وقعت فتنة يزيد بن المهلب حمل مسلم الأموال التي كانت تحت يده إلى الشام . فلما قدم ابن هبيرة على العراق أجمع على أن يوليه ولاية ، فدعاه ليلة إلى سمره ، ويظهر أنه أعجب به ، فعقد له على خراسان وعهد إليه بأخذ أموال من قوم أغنياء كانوا قد اقتطعوها واتهمهم أعيان العرب في خراسان بأنها عندهم . ولم يكن ابن هبيرة يبالي من أين يأتي المال ، ما دام يصل إليه^(٣) . وواصل مسلم الحرب مع السغد والترك ، ففي ربيع سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤ م) جهز حملة على فرغانة وخرج فيها^(٤) ، ولكن الأزدي وربيعة وثبوا في طخارستان وامتنعوا من اللحاق به^(٥) ، وكان

(١) [تدل الروايات المتقدمة في العداوة بين ابن هبيرة والحرشي على أنها نشأت خصوصاً من كبرياء الحرشي واستخفافه بابن هبيرة - المترجم] .

(٢) [راجع فيما يتعلق بولاية مسلم على خراسان الطبري ج ٢ ص ١٤٥٧ - ١٤٦٣ - المترجم] .

(٣) [لا يؤخذ هذا بسهولة مما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٤٥٩ - ١٤٦١) ، وقد حاولنا بقدر الإمكان التمسق مع الأصل العربي - المترجم] .

(٤) ليس من الواضح إن كان مسلم قد افتتح أفشينة في هذه الحملة ، أو هو فتحها قبل ذلك ، وأفشينة مدينة تلحق بكور سمرقند (الطبري ج ٢ ص ١٤٦٢ ص ٩ و ١٤٦٣ ص ١ و ١٥١٧ ص ٨) . أما البلاذري (ص ٤٢٨ ص ٣) فهو يجعل اسم الأفشين اسم علم على شخص .

(٥) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٧٣ فما بعدها - المترجم] .

على رأسهم عمرو بن مسلم الباهلي ، أخو قتيبة بن مسلم (١) ، فبعث مسلم خليفته نصر بن سيار الكناني ، فهزمهم عند بروقان ، وكانت مقرأ للجامية العربية في بلخ ؛ ولم يكن من شأن ذلك أن يولف بين مضر واليمن ؛ وبعد ذلك سار مسلم بنفسه حتى إذا وصل إلى بخارى بلغه الخبر بوفاة يزيد بن عبد الملك ، وتولى هشام بن عبد الملك الخلافة (شعبان سنة ١٠٥ هـ - يناير سنة ٧٢٤ م) وأن هشاماً عزل ابن هبرة القيسى وعيّن مكانه على العراق خالد بن عبد الله القسرى (من بجيلة) ، فكان من أثر ذلك أن هرب كثير من جنده ، ولكنه مضى في المسير حتى جاوز خُجَنْدَةَ ودخل أرض الترك ، ولكنهم هجموا عليه وهزموه ، فلم يستطع أن ينصرف راجعاً إلى خُجَنْدَةَ عبر نهر الشاش إلا بمشقة كبيرة (٣) ، وهناك بلغه خبر عزله (سنة ١٠٦ هـ - صيف أو خريف سنة ٧٢٤ م) ، فجاء بعلمه أسد ابن عبد الله أخو خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق ، وكان أسد لا يزال شاباً .

وكان أسد ، شأنه شأن أخيه ، يميل إلى قبائل اليمن ، وإن لم يكن في الحقيقة ينتسب إليهم من حيث القبيلة . وذلك أن بجيلة كانت مثل باهلة ، تقف خارج مجموعات القبائل المتنازعة . فضرب (٢) قوماً من عرب خراسان أصحاب المناصب الكبيرة ، منهم البخترى بن أبي درهم البكرى (٤) (من نسل حارث بن عباد) ،

(١) كانت باهلة تدير موقفها من مجموعات القبائل بحسب الظروف لأنها لم تكن بطبيعتها تنتمي إلى مجموعة ما .

(٢) في رواية قصيرة ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٤٦٢ - ١٤٦٣) مقدماً ، وهي في الحقيقة نفس الرواية التي يذكرها فيما بعد (ص ١٤٧٧ فما بعدها) ، نجد أنه يذكر نهر بلخ ، مع أنه لا يمكن أن يكون إلا نهر الشاش ، والعرب يقولون في كثير من الأحيان : " النهر " فحسب ، ويتركون معرفة أي نهر هو المقصود لمعرفة القارئ بالجغرافية .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٧ فما بعدها] - المترجم .

(٤) [يسمى ابن درهم وابن أبي درهم الطبري ج ٢ ص ١٤٧٣ ، ١٤٧٥ ،

١٤٩٩ ، ١٦٠٥ - المترجم] .

فاحتمل العذاب من غير جزع ، لأن نصر بن سيار لقي من العذاب مثل ما لقي . وكان البختري يبغي نصر بن سيار بسبب يوم البروقان^(١) ، وكان بعض العمال الذين عينهم أسد بن عبد الله من الأزد ، ولكن فترَح الأزد بخروجهم من الظلام إلى ضوء الشمس لم يدم طويلاً ، وذلك أن الخليفة أمر بعزل أسد في سنة ١٠٩ هـ ، وكان أسد يواد دهاقنة خراسان ، فصحبوه إلى العراق^(٢) .

[وكان الوالي الذي جاء بعده هو أشرس بن عبد الله السلمي^(٣) ، وكان أيضاً من قيس : فحاول أن يهدي نائرة السغد المعاندين ، سالكاً في ذلك الطريق الذي سلكه عمر بن عبد العزيز . وكان الذي دعاه إلى ذلك كاتبه عميرة اليشكري ، أحد الموالى من الأعاجم ، وبعث أشرس يدعو ذلك الرجل الذي كان ذهب في وفد من أهل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز وكان سبباً في أن عمر أمر بالمساواة بين العرب وبين الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام ، وهو أبو الصيداء صالح بن طريف مولى بني ضبّة ، فوجهه إلى بلاد السغد لدعوة أهلها إلى الإسلام ، على أن يضع الجزية عن يدهم في الإسلام ، فذهب أبو الصيداء ، ومعه قوم من العرب على رأيه وطريقته ، قاصداً سمرقند ، فساعدته على ما أراد ابن أبي العسَـرَـطَة البكتلي ، وهو ابن ذلك الشيعي الكوفي الذي كان قد خرج بسيفه من قبل يحارب من أجل حمير بن عدى ، وكان ابن أبي العسَـرَـطَة إذ ذاك والياً

(١) قارن على كل حال الطبري (ج ٣ ص ١٥٣٠) .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٧ فابعدا] . ثم رجع أسد إلى خراسان فيما بعد والياً ، والبلاذري يجمع ولايته معاً ، ورواية المدائني كما هي عند الطبري مضطربة فيما تضمنته من ذلك ، وإذا كان أسد قد نقل مقر ولايته إلى بلخ فلا شك أن ذلك كان في أثناء ولايته الثانية ، لأننا نجد بعد ذلك أن مرو قد صارت مقراً لولايته مرة أخرى ، ولانجد ذكراً لثبوتها في ذلك ، ويجوز أيضاً أن يكون نصر بن سيار قد وقع في ولاية أسد الثانية . أمّا ولايته الأولى فليس المعروف عنها بكثير .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٠٤ فابعدا و ١٥٠٧ فابعدا - المترجم] .

على حرب سمرقند وصلاتها . وقد نجحت دعوة أبي الصيداء نجاحاً كبيراً ،
فأنشئت مساجد كثيرة وأخذ الوثنيون يدخلون في الإسلام زرافات ، ولكن
من العجيب أن الدهاقين الذين كانت الحكومة العربية قد تركتهم على سلطانهم
لم يكونوا راضين بذلك ، لأنهم كانوا هم المسؤولين عن تحصيل الجزية ،
وكان من العسير عليهم أن يحصلوا على الأموال الكبيرة - وكانت مفروضة
عليهم بمقدار لا يصح أن ينقص - إذا سقطت الجزية بسبب الدخول في
الإسلام ممن كان يدفعها حتى ذلك الحين . ولهذا شكوا لأشرس وقالوا له :
« ممن نأخذُ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً (١) ؟ » ويؤكد من
الدهاقين الذين جاءوا إلى أشرس دهاقين بخارى خصوصاً غوزك ، أنخشد
سمرقند الذي عرفنا أمره أيام قتيبة . فحاول أشرس أن يتخلص من نتائج عمله ،
فبدأ بتضييق الطريق على الداخليين في الإسلام ، وذلك بأن أخذ يطالبهم
بالاختتان وإقامة الفرائض وقراءة سورة من القرآن ونحو ذلك ، فلما لم يكنف
هذا عزل ابن أبي العمرطة وعين مكانه عمالاً آخرين وأمرهم أن يأخذوا
الجزية ممن كانوا يأخذونها منهم ، فأعادوا الجزية على من أسلم ، فامتنع
هؤلاء من دفعها ، واعتزل قوم من أهل السغد ، وكانوا سبعة آلاف ،
فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند ، وكانوا حانقين . وخرج أبو الصيداء
وقوم معه من مختلف قبائل العرب (من تميم والأزد وبكر) لينصروهم ،
وكان منهم ثابت قطنة الشاعر وأبو فاطمة الأزدى وبشر بن جرموز وغيرهم ؛
ولكن أمكن صرف هؤلاء العرب بشيء من الشدة وشيء من السياسة عن
القضية التي تعصبوا لها ، وبذلك فقد المتمردون في سمرقند من يؤيدهم
وأعيدوا إلى خضوعهم القديم ، وألح العمال في جباية الجزية واستخفوا
بأشراف العجم وعظماهم وعاملوهم معاملة غير كريمة (٢) .

(١) [يقصدون أنهم قد تعربوا أي أصبحوا مسلمين على دين العرب - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٧ - ١٥١٠ - المترجم] .

ولكن المشكلة لم تنته بذلك ، وكان العدول عن سياسة المسالمة والعودة إلى سياسة الشدة سبباً في إثارة السغد في جميع تلك الناحية وفي إسقاطهم إلى أكبر حد ، وهم لكي يتحرروا من سلطان العرب استجاشوا الترك . ويروى أن خسرو ، أحد أبناء يزدجرد آخر ملوك الساسانيين ، كان معهم . وكان مركز الثورة في واحة بخارى ، وجاء الخاقان إلى هناك ، ومعهم جيش كبير من الترك والفرس . وفي سنة ١١٠ هـ ، في أواخر هذه السنة على الأرجح (١) ، أعنى في ربيع سنة ٧٢٩ م ، خرج أشرس على رأس الجيش العربي من مرو لكي يدرأ ذلك الخطر ، ولكن الترك سدوا أمامه طريق العبور على نهر بلخ ، فلم يستطع أن يعبره ويتقدم إلى بيكند ويعسكر فيها إلا بعد فترة جهد وقتال . وعند ذلك قطع الترك عنه الماء وأصاب الجيش من العطش جهداً شديداً ، فمات منه سبعمائة ، وعجز الناس عن القتال . وأخيراً قام الحارث بن سريج فحضر الناس وقال لهم : القتل بالسيف أكرم في الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً ، وتقدم بعض الفوارس فخطبوا بأنفسهم وقتل بعضهم ، ولكنهم قاتلوا الترك فكشفوهم وأزالوهم عن الماء ، وابتدر الناس فشربوا ، وقتل من فرسان المسلمين ثابت قطنة وعبد الملك بن دثار الباهلي وغيرهما . وواصل العرب سيرهم وقاتلوا قتالاً شديداً ، ولحق غوزك سمرقند بالترك ، وشق العرب طريقهم إلى بخارى فمكروا فيها ، ومن هناك قاموا بحملات أخرى (على خوارزم مثلاً) ، ولكن بعض فرق الجيش العربي انقطعت ، فذهبت فرقة إلى كسمرجة (قرب بيكند) ، فاتجه الخاقان بكل قوته إليهم وحصرهم في كسمرجة ، ولكنهم استماتوا في الدفاع ورفضوا

(١) لم يخرج أسد إلا سنة ١٠٩ هـ (في رمضان) ؛ وبعدة أبي الصياد . وما كان لها من نتائج تحتاج أيضاً إلى حين من الزمان .

كل اقتراح من العدو ، حتى وجد الترك ألا فائدة من الحصار وأعطوهم الأمان على ألا يتوجهوا للحاق بالجيوش الأساسية في بخارى ، بل حلى أن يعودوا إلى الدبوسية (١) .

وهكذا أصبحت يد الخاقان طليقة لكي يتفرغ إلى أشرس في بخارى ، ولم يستطع أشرس أن يفتح أرضاً جديدة ، ويظهر أيضاً أنه لم يكن قادراً على مثل ذلك . ولهذا عين الخليفة والياً ليخلفه بعد أن يفك عنه الحصار ، فجاء الجنيد بن عبد الرحمن المرئي (٢) ، وكان حتى ذلك الحين في الهند ورجع منها معه خمسمائة من جنده الشام ، وبادر بعد وصوله (٣) لنجدة أشرس ، فاستطاع بعد مشقة أن يواصله ، وأفلح في هزيمة الترك عند زرمان وفي فك الحصار عن سمرقند ، وبعد ذلك نجح في قيادة جيشه سالماً إلى خراسان ، وربما كان هذا هو غرضه الأكبر (٤) .

وكان الجنيد في أواخر سنة ١١٢ هـ - ربيع سنة ٧٣١ (٥) قد وجه بعوثاً من الجيوش العربية في نواح شتى ، خصوصاً إلى طخارستان ، وعند ذلك جاءته استغاثة سورة بن الحر التيمي من سمرقند ، لأن الخاقان وأمراء من الأعاجم تحالفوا معه كانوا قد هاجموا سمرقند ، وعلى الرغم من أن الجنيد لم تكن لديه قوة كافية ، فإنه نهض على الفور وسار عبر نهر بلخ حتى بلغ كيش ، وكان هناك

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ١٥١٢ - ١٥٢٥ - المترجم [.

(٢) كثيراً ما يذكر في اسمه : المزني ، وهو خطأ - (مثلاً الطبري ج ٢ ص

١٦٢٧ ص ٣) .

(٣) سنة ١١١ هـ ، لكن لم يأت قبل آخر تلك السنة ، وذلك أن الطريق من بخارى إلى الشام ومن الشام إلى الهند ومنها إلى خراسان كان طويلاً شاقاً ، ولا شك أن أشرس بقى في بخارى في الشتاء (سنة ١١١ هـ) .

(٤) راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٢٧ - ١٥٣٠ المترجم [.

(٥) يمكن أن يفهم من قولنا ربيع ١١٢ هـ أول هذه السنة أو آخرها ، لكن آخرها ، بحسب الظروف ، هو الأرجح هنا ، والتواريخ تختلف فيما يلي سنة ، فهي تتردد بين ١١٢ و ١١٣ و ١١٤ ، وأنا أعتبر أن الأعداد الكبرى هي الصواب .

طريقان يؤديان من كيش^١ إلى سمرقند : أحدهما طريق المحترقة ، يخرق منطقة المروج والحشائش والأشجار ، وقد تجنبه الجنيد ، لأن الزمان كان فصل الصيف ولأنه خاف أن يُشعل العدو النار في العشب والشجر ؛ وكان الطريق الثاني ، ويسمى طريق العقبة ، يخرق الجبال ، فاختره الجنيد ؛ ولكن الترك هاجموا في شعب غير بعيد من سمرقند ، ولولا شجاعة نصير ابن سيار ، وخصوصاً لولا شجاعة الغلمان من الموالي الذين كانوا تابعين للجيوش ، لقتل الجنيد ومن معه ، ذلك أن هؤلاء الغلمان ، بعد أن طال القتال وسقط الأبطال وكلت السيوف حتى صارت لا تقطع ، قطعوا العمود وصاروا يقاتلون بها ، حتى ملّ الفريقان وتجاوزا^(١) . ولكن الأشترس كان لا يزال في موقفه الخطر ، وهو لكي ينقذ نفسه طلب من سورة أن يأتي إليه من سمرقند ؛ ولو أن سورة ومن معه من جند العرب خرجوا من سمرقند لهلكوا ، ولكن الجنيد استطاع أن ينقذ نفسه وأن يدخل سمرقند . فاتجه الخاقان إلى بخارى ، وكان عليها أحد أبناء قتيبة ، فحاصرها ، ولكن الجنيد أتبعه من أقصر طريق وهزمه عند الطواويس ، وذلك في شهر رمضان ، ودخل بخارى في يوم عيد المهرجان^(٢) . حتى إذا قرت عين الجنيد بتأمينه بخارى وسمرقند قفل راجعاً قبل دخول الشتاء . أما الجنيد الذين كان هشام قد أرسلهم إليه من

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٢٢ - ١٥٣٦ المترجم] .

(٢) لا شك أن ذلك لم يكن في سنة ١١٢ هـ كما تذكر الروايات بل في سنة ١١٣ هـ (نوفبر سنة ٧٣١ م) ، وعلى هذا فلا بد أن يكون عيد المهرجان في ذلك الوقت قد احتفل به بعد الانقلاب الحريفي الطبري ج ٢ ص ١٥٥٢ س ٧ ، وقارن ص ١٥٥٠ س ١٣ فإ بعده . وكذلك كان عيد النيروز بحسب الطبري (ج ٢ ص ١٨٤٦ س ١٦) بعد الاعتدال الربيعي بكثير ، وعلى هذا فلا بد أن يكون خطأ ما جاء في الطبري ج ٢ ص ١٦٣٥ س ١٨ . ويظهر أنه في أيام العباسيين أصلح تقويم الأعياد ، في سنة ٢٣٩ هـ وافق يوم النيروز يوم شعبان النصارى الطبري (ج ٣ ص ١٤٢٠) . وفي سنة ٢٤٥ هـ أخصر عيد النيروز أكثر من ذلك (الطبري ج ٣ ص ١٤٤٨) ، قارن أيضاً الطبري ج ٣ ص ٢٠٢٤ و ص ٢١٤٣ فإ بعدها و ص ٢١٧٣) .

البصرة والكوفة ، وكانوا في الصغانيان في طريقهم إليه ، فقد وجههم إلى
سمرقند . ولا يذكر عن الجنييد شيء في أخبار سنتي ١١٤ و ١١٥ هـ (١) .
وفي أول سنة ١١٦ هـ (ربيع سنة ٧٣٤ م) عزل عن منصبه وحل محله عاصم
ابن عبد الله الهلالي (٢) ، وكان عاصم أيضاً من قيس ، ولكن هشام بن
عبد الملك عينه مكان الجنييد لكي يغلبه ويذهب نفسه لأنه كان عدواً للجنييد ،
وذلك أن هشاماً كان غاضباً على الجنييد لأنه تزوج الفاضلة ابنة يزيد بن
المهلب (الطبري ج ٢ ص ١٦٣٣) ، وكان في نظر هشام أكبر الثوار ،
ولكن الجنييد كان قد مرض بسقي البطن فمات لحسن حفظه قبل أن يصل
عاصم إلى مرو ، فلم يستطع هذا أكثر من أن يجلس عمارة بن حريم ابن عم
الجنييد وخليفته وأن يأخذ عمال الجنييد ويعذبهم (٣) .

٥ - وقد تزلزلت السيادة العربية في أرض ما وراء النهر زلزلة شديدة
بسبب التردد بين اللين والشدة تردداً ليس له ضابط ، وكان عمر بن عبد العزيز
قد حاول أن يمزج الرعايا الأعاجم بالعرب من طريق الإسلام ، وذلك بأن
سوى بين الداخلين في الإسلام وبين العرب من الناحية السياسية وبأن أسقط
عنهم الجزية ، ولكن يظهر أن هذا المبدأ لم يلبث أن ألغى في عهد خلفه ، وهذا وإن
لم تبلغنا عنه رواية صريحة فإنه يمكن أن يؤخذ بلا شك من أنه بعد موته أصبح
لا بد من استعمال سياسة العنف مع أهل السغد لإرغامهم على دفع الجزية ؛ وقد
امتنعوا عن ذلك بطبيعة الحال ، لأنهم قد صاروا مسلمين . ويمكن أيضاً
الاستدلال على مخالفة المبدأ الذي قرره عمر بأن كثير من أهل السغد أرادوا أن
يتخلصوا من دفع الجزية ، فتركوا البلادهم وأمرأؤهم وذهبوا إلى بلاد الترك

(١) [راجع بقية أخبار الجنييد عند الطبري ج ٢ ص ١٥٣٦ - ١٥٥٣ ، ١٥٦٤

- ١٥٦٥ - المترجم] .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٦٤ فما بعدها - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٦٤ - ١٥٦٥ - المترجم] .

ليدخلوا في محامهم . ويجب أن نلاحظ في هذا المقام أنه وإن كان المبدأ الذي وضعه عمر كان يجب أن يظل مبدأ مقررًا فإن مسلمي الأعاجم في خراسان لم يثوروا عند ما خولف ، وذلك أنهم كانوا منذ سنين كثيرة قد تعودوا التبعية السياسية للعرب ، وأن رابطة الإسلام كانت قد ألفت بينهم وبين العرب ، ولكنهم إلى جانب ذلك لم يكونوا في الحقيقة قادرين على الثورة ، وهذا يصدق أيضاً بالنسبة للمدن مثل بخارى وسمرقند ، وكانت قد توطدت فيها قواعد السيادة العربية . أما الثوار فكانوا هم أهل السغد ، أعنى أنهم كانوا خارج المدن الكبرى ولم يكونوا قد خضعوا للسيادة العربية إلا خضوعاً مزعزاً للغاية ، وكانوا حداثي عهد بالإسلام ، وهم لم يعتنقوه إلا طلباً لمزايا مادية ونفوراً من دفع الجزية ، فاتبعوا أمراءهم ، ولا شك أنهم في نفس الوقت ارتدوا عن الإسلام ، لأنه لم يكن بعد قد رسخت عروقه في نفوسهم . ويتجلى مقدار قلة العمل بالمبدأ الذي وضعه عمر وحاول تطبيقه تجلياً أوضح مما تقدم من أن الأشرس قرره للمرة الثانية^(١) ، وعند ذلك تكرر الموقف من جديد ، وكان أبو الصبيداء ومن على رأيه وطريقته — وهم الذين كانوا قد بعثوا عمر بن عبد العزيز على تقرير المبدأ الذي قرره — هم أيضاً الداعمين من جديد إلى الإصلاح ، وقد فشل هذا الإصلاح مرة أخرى ، وذلك للأسباب المالية التي لا شك أنها كانت في المرة الأولى أيضاً هي الأسباب الحاسمة . وأيضاً لم يكن عجم خراسان بل عجم السغد هم الذين ثاروا من أجل ذلك . بل يظهر أن الوعد بإسقاط الجزية في عهد الأشرس لم يكن موجهاً إلى الموالى بإطلاق معنى هذه الكلمة ، ولا كان موجهاً إلى موالى خراسان ، بل إلى من

(١) . [يقصد المؤلف أن الأشرس أعاد ما فعله عمر من دعوة أهل ما وراء النهر إلى الدخول في الإسلام على أن يسقط عنهم الجزية (الطبرى ج ٢ ص ٥٠٧) ، ويقصد من تكرار الموقف من جديد أنهم دخلوا الإسلام للتخلص من الجزية ، فانكسر الخراج ، فأعاد وضع الجزية على الداخلين في الإسلام ، وكانت الثورة (الطبرى ج ٢ ص ٥٠٧) فلا بد أن يكون المترجم] .

دخل الإسلام في بلاد السغد فحسب . غير أن ثورة السغد في أيام أشرس كانت أوسع نطاقاً وأشد خطراً من الثورة التي كانت بعد موت عمر بن عبد العزيز ، وخصوصاً أن الترك كانوا قد دخلوا البلاد وتوالوا الزعامة . وقد استطاع العرب أن يثبتوا وأن يحافظوا على ساطنتهم في المدن الكبرى وفي نقط أخرى حصينة ، وأمكن القضاء على حركة الثورة في سمرقند نفسها من غير كبير مشقة^(١) .

ثم جاءت محاولة ثالثة ترمى إلى مساعدة مسلمي الأعاجم على المساواة الكاملة بالعرب في الحقوق الوطنية في الدولة التيقراطية ، غير أنها لم تأت من أعلى ، بل جاءت من أسفل ، من قبيل الخارث بن سريج ، من أمل الدبوسية ، وهو الذي صادفناه محارباً شجاعاً فيما تقدم^(٢) . ويقال إنه كان في أوائل أمره أحد ثوار الخوارج المتشددين في الدين ، ولكنه في الحقيقة لم يكن متشديداً في متابعة الآراء المتطرفة التي تعصب لها الخوارج ، وهو لم يعتقد الخلافة لنفسه ، ولا بايع غيره عليها ، وظهر بأنه يرى رأى المرجئة ، وكان كاتبه الجهم بن صفوان أشهر متكلم لهذه الفرقة^(٣) . وأيضاً كان الخارث نفسه يدخل في مناظرات حول مبادئها الأساسية^(٤) ، وانتهى مذهب المرجئة بالفعل إلى أن صار بمثابة سياسة للتوفيق بين المتخالفين ، فتركت مسائل الخلاف وخصوصاً مسألة الإمام الحق - وهي المسألة التي لم يمكن قط أن يوصل فيها إلى حل - في المحل الثاني ، وهي قد تركت لكي يحكم الله فيها . وفي مقابل ذلك صارت الجماعة النائرة تؤكد شيئاً

(١) راجع في هذا وفيما يلي كتاب O. van Vloten : Recherches sur la domination arabe, Verhandl. der Amsterdamer Akademie, 1894, Letterkunde I, 3.

(٢) راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٢٣ س ٣ و ص ١٩٢٧ س ١٢ وقارن أيضاً ص ١٨٩٠ س ٧ .

(٣) [هذا ما يقوله المؤلف . وليس من السهل معرفة قصده ، والأغلب أنه يقصد المرجئة ، ولكننا نعلم أن الجهم صار فيما بعد رأس فرقة بأكملها - المترجم] .

(٤) [يؤخذ من الطبري ج ٢ ص ١٥٦٧ و ص ١٥٧٠-١٥٧١ و ص ١٥٧٧ و ١٥٨٣ ، أن الخارث أراد أن يؤيد ثورته بالدين ، وأنه طلب من يناظره فيما ثار لأجله - المترجم] .

يمكن أن تتفق عليه كلمة الطوائف المختلفة لأهل الديانة من الثائرين ، وهى الدفاع عن الأسس التى تقوم عليها الدولة التيوقراطية ومعارضة الاستبداد الذى كان قائماً ونصر بجانب الحق الذى قدسه الدين على جانب الظلم والعسف . وكان الولاة الذين عينتهم حكومة الأمويين من قيس قد أفقدوا هذه الحكومة فى خراسان كل ثقة عند الصديق وعند العدو ، وكانت سياستهم مع السغد خاصة سبباً فى جلب خطر خارجى عظيم ، وليس هذا فحسب ، بل هى قد تركت وراءها سخطاً أدبياً عميقاً تجاوز الطائفة التى أصابها نتائج تلك السياسة فبلغ إلى أبعد منها بكثير . وقد بدأ الحارث ثورته^(١) مستنداً إلى هذا التذمر ، فحرض الموالى وأثارهم بأن وعدهم بإحقاق حقهم فيما وعدوا به من إسقاط الجزية عنهم كما وعدهم بأن يشركهم فى الأعطيات التى كانت تعطى للمقاتلة . وانضوى الدهاقنة وأهل القرى تحت رايته السوداء ، وهكذا سار الحارث على أثر أبى الصيداء ، وكان من بقى من أصحاب أبى الصيداء فى عداد حاشيته ، مثل أبى فاطمة الأيادى (من الأزد) وبشر بن جرموز الضبى (من تميم) . وهكذا تولى العرب مرة أخرى قيادة الحركة لإنصاف الأعاجم الذين دخلوا الإسلام باعتبارهم مواطنين فى الدولة التيوقراطية ، ولكن اشترك فى الثورة على الحكومة عدا هؤلاء القادة عربٌ كثيرون من تميم والأزد ، ولم تكن الثورة بوجه من الرجوع مقصورة على المرجئة ، وكان الحارث يقبل كل من يؤيده .

وكانت البلاد التى ظهر فيها هى أرض « الثغرين » ، وقد رفع الراية السوداء فى بلاد ما وراء النهر أول الأمر ، وكان ذلك فى السنين الأخيرة من ولاية الحنيد ،

(١) [راجع فيما يتعلق بثورة ابن سريج (الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٦ - ١٥٧٢ ، ١٥٧٦ - ١٥٧٧ ، ١٥٧٩ - ١٥٨٠ ، ١٥٨١ - ١٥٨٦ ، ١٥٨٩ - ١٥٩١ - المترجم] .

وهي السنين التي لا يذكر فيها من أمره شيء . وعند مجيء عاصم بن عبد الله والياً على خراسان امتدت الثورة فشملت طخارستان أيضاً . وأقبل الحارث من جهة السخند حتى وصل إلى الفارياب ، وسار منها إلى بلخ بعد أن قاتل حتى عبر النهر قتالاً كئيباً بالنجاح ، ولم يستطع عمال بلخ ومرو الروذ وهراة وغيرها أن يثبتوا أمامه . وخضعت له طخارستان كلها ، كما خضع له أيضاً العرب أنفسهم ، وكانوا هناك يتألفون من الأزدي وبكر بنو خاص ، وقد انضم إليه أيضاً جيفويه نائب ملك الترك في طخارستان العليا ، كما انضم إليه أمير الخمتل .

ولم يكن قد بقي في يد حكومة الأمويين (الطبري ج ٢ ص ١٥٨٢) من مدن لم ينازعها عليها الحارث سوى مرو وأبرشهر ، وكلاهما في غرب خراسان ، وقد تضعف جيش الحارث بعد انتصاراته في طخارستان تضعفاً كبيراً ، وفي هذا الجيش اجتمع فرسان من العرب ورجالة من جند الأعاجم ، فتقدم الحارث إلى مرو ومعه جيش جرار ، وكان قد كاتب تميمياً في مرو لأن أصله كان من هناك (الطبري ج ٢ ص ١٨٩٠) ، وكان عاصم يريد أن يتقهقر أمامه إلى أبرشهر ، أي إلى أرض قيس ، ولم يفلح رجاله في إقناعه بالشباب إلا بمشقة كبيرة ، وكان قد اطمأن تماماً بعد أن حلفوا له بالطلاق والعناق على الصديق في القتال . واستطاع عاصم أن يرد أول هجوم قام به الحارث ، ولكنه لما بلغه إقبال أسد بن عبد الله القسري ليحل محله على خراسان أوشك أن ينضم إلى الحارث ، ولكن يحيى بن حُضَيْن رده عن ذلك ، وكانت بكر في ذلك الوقت ، مع أنها كانت مع الأزدي في الحزب المعارض ، قد غيرت اتجاهها ورأىها بقيادة هذا الرجل العاقل ، لأن بكرأ قد تبينت أن المصلحة العامة للأمة العربية كانت معرضة للخطر ، وقد تميزت بكر عن غيرها في مقاتلة الحارث ، فهزم الحارث مرة أخرى ورجع عبر النهر ، وحاصر هناك مدينة ترمذ ، وكانت مدينة هامة ،

ويُذكر أن خراسان كانت في تلك الفترة خاضعة للخليفة مباشرة ،
وقد كان الخليفة نفسه قد عين عاصم بن عبد الله والياً عليها ، ففعل عاصم
ما كان سبباً في عزل هشام بن عبد الملك إياه عن ولايتها في أول سنة ١١٧ هـ
(٧٣٥ م) ، وذلك أنه كتب إلى هشام^(١) على سبيل الإخلاص في النصيحة :
أن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى صاحب العراق فتكون موادها ومنافعها
ومعونتها في الأحداث والنوائب قريبة إليها نظراً ليعبد الخليفة عنها ، وتباطؤ
غيائه لها . فعزل هشام ، واغتم ذلك خالد بن عبد الله القسري ، فعين
أخاه أسد بن عبد الله والياً على خراسان ، ولكن كان قد آن الأوان لكي
تنتهي سيادة قيس في خراسان . وفي رواية أخرى^(٢) أن هشاماً نفسه أمر
خالد أن يعين أخاه مكان عاصم ، فاستطاع أسد بن عبد الله أن يتعد من
الفخر لنفسه أنه أرسل إلى خراسان للمرة الثانية وفي ظروف عصيبة ، وقد
أثبت أنه كان أهلاً للثقة التي وضعت فيه ، فاستخلف جديعاً الكرماني
الأزدى . وهو على كل حال لم يسلم نفسه للأطماع الحزبية لأهل اليمن ،
وخلى سبيل عمال الجنيد الذين كان عاصم قد حبسهم ، وإن كانوا يحكم
أنهم من قيس أعداء لأسد بن عبد الله (الطبري ج ٢ ص ١٥٨١ س
١٣ - ١٥) .

وبدأ أسد قتاله للحارث في أرض ما وراء النهر ، فأنضج هناك كثيراً من
المدن التي كانت قد وقعت في يد الحارث ، مستعملاً في ذلك السياسة والصاح
أحياناً والسيف أحياناً أخرى - ويجوز أن سمرقند كانت من تلك المدن^(٣) .

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٧٣ فابعدهما - المترجم] .

(٢) [الطبري ، ج ٢ ص ١٥٨١ فابعدهما - المترجم] .

(٣) لا يذكر أن سمرقند سقطت في يد الحارث ولا أن أسداً استردها ، بل يذكر فقط
أن أسداً ذهب إلى هناك وقطع الماء عن المدينة . ولكن لا يمكن أن نفهم من ذلك أكثر من عمل
عدائي ، ذلك أن الماء كان يأتي من ورغسر حيث كان يوجد مركز خروج الأنهر ، وكلمة
ورغس معناها السكر ، أما كلمة سمر فمعناها هو معنى كلمة رأس اللغات السامية ، وهي تدل على
النقطة التي ينتدئ منها توزيع الماء بواسطة السكر [راجع الطبري ج ٢ ص ١٥٨٦ - المترجم] .

غير أن أسداً لم يفعل شيئاً مع الحارث لما كان الحارث أمام ترمذ ، ولكن أهل ترمذ ، مع أنهم عجم ، دافعوا عنها دفاع الأبطال ، حتى رأى الحارث أن ينصرف عنها قاصداً طخارستان ، وتفرق عنه أنصاره وحلفاؤه .

وعند ذلك تحول أسد إلى طخارستان ، وكانت هذه البلاد قد أخضعها قتيبة بن مسلم من قبل ، ولكن لم يكن فيها - فيما عدا مرو الروذ - قاعدة للسيادة العربية ثابتة ثباتاً ما سوى مدينة بلخ ، فدخلها أسد واتخذها داراً ونقل إليها الدواوين ونقل إليها من كان بالبروقان من الجند ، وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكن بقدر مسكنه ، ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكناً - وبدل هذا على مقدار أهمية طخارستان في نظره . ولكنه خلط بين الجند ولم يجعلهم أقساماً (أخماساً) كما كانوا في البروقان من قبل غير مختلطين بالأعاجم ، وإنما أراد بذلك أن يخلط بين الجند من مختلف القبائل ليتجنب تعصب بعضهم على بعض . وهو قد حافظ على ما كان بينه وبين الدهاقنة من مودة - وكان محبوباً عندهم من قبل - وذلك لكي يستطيع من طريقهم أن يؤثر في الطبقات الدنيا للشعب . وكلف الرعايا الأعاجم بإعادة بناء مدينة بلخ ، ولكنه أسقط قيمة العمل الذي بذلوه في ذلك من الحراج الذي كان مفروضاً عليهم ، وعهد إلى برمك بالإشراف على البناء ، وكان برمك دهقان النوبهار ، وهو جد البرامكة الذين صار لأسرتهم شأن كبير فيما بعد^(١) . وعلى هذا فقد كان أسد يسعى إلى إيجاد روح التفاهم بين العناصر المتعادية وإلى مزجهم شيئاً فشيئاً في حدود معقولة .

وكان الحارث بن سريج قد هرب إلى طخارستان العليا لاثناً بأصهاره التغلبيين الذين كانوا في قلعة التوشكان ، ولكن أصهاره لم يريدوا أن يضحوا

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٤٩٠ ، ١٥٩١ س ١٨ - ٢٠ ، والمؤلف لا يذكر أن نقل الجند كان في سنة ١٠٧ هـ - المترجم] .

بأنفسهم من أجله ، فأخرجوه ومن كان معه ودخلوا في مفاوضات مع أسد ، ولكن أسداً عرف من مفاوضاته جاءوا إليه فغدروا بقومهم أن أهل القلعة ليس عندهم طعام ولا ماء وأن القلعة لا تكاد تصمد للدفاع ، فأرسل الكرماني لمهاجمتها ، فاضطر من فيها إلى التسليم بعد أن أجهدهم الجوع والعطش ، وقتل الأسرى (الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٨)^(١) وبيع النساء والأولاد - رغم أنهم من دم عربى - فى سوق بلخ على من يزيد فى شرائهم .

وفى سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ م)^(٢) قام أسد بغزو الختل فى شمال نهر بلخ وفى مواجهة بلخ نفسها ، وكانوا لم يتم إخضاعهم بعد ، وكانوا أيضاً قد حالفوا الخازن بن سريج ، وكان أميرهم يقيم فى نواكث ، فاستجاش بخاقان الترك طالباً نجده ، ولكن لما خرج الخاقان من سويات متقدماً إلى خشتوراه أخبر بذلك أسداً لكى يحذره ، وكان الخاقان لا يريد النصر للترك بل كان يزاحم العرب : وبعد أن تردد أسد بعض التردد رأى أن يقفل راجعاً ، ولكن بعد أن عبر النهر ظهر الأعداء على الضفة الأخرى ، ثم ضربوا بكوساتهم وعبروا على دوابهم وهى تنخر أشد النخير ، ولكنهم لم يهاجوا الجيش الأساسى لأسد ، بل هاجوا فرقة كان قد سرحها أمامه بالأنقال والغنائم من الشاء والماشية حتى بلغت بطن واد ، فأصابها العدو واستطاع أسد أن ينقذ الجند ، وكان ذلك فى آخر رمضان سنة ١١٨ هـ^(٣) .

(١) [راجع أيضاً الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٩ - ١٥٩١ - المترجم] .

(٢) [يذكر الطبرى ذلك فى أحداث ١١٨ هـ (ج ٢ ص ١٥٩٣ فما بعدها) - المترجم] .

(٣) ١١ أكتوبر سنة ٧٣٦ م وتاريخ السنة هنا يختلف سنة ، ويذكر أن « يوم الأتقال » كان فى سنة ١١٩ هـ ، ولكن لو حسينا السنين من الخلف لتبين أن سنة ١١٨ هـ هى الصحيحة .

ولا بد أنه قد سُـرَّ بالنجاة بجلده إلى بلخ ، فتغنى الصبيان بالفارسية بأغاني يغيظونه بها (١) .

ولكن الخاقان لم يدع أسداً يستمتع بالهدوء ، فذهب الخاقان إلى جبغوية المخرأسخي (٢) في شرق طخارستان ، ويروى أن الحارث بن سريج - وكان يقيم هناك - قد استجلبه إلى طخارستان ، فخرج في وسط الشتاء ومعه أتباعه وحلفاؤه متوجهاً إلى الغرب ، وعلم أسد بخبر ذلك في ليلة الأضحى من سنة ١١٨ هـ (١٩ ديسمبر سنة ٧٣٦ م) ، فأمر برفع النيران على المدينة لكي ينجوا الناس بأنفسهم إلى بلخ ، واستخلف الكرمانى بن على (٣) في المدينة وسار بنفسه من غير تردد ، وأخذ معه من كان عنده من أهل الشام - لأنه كان قد صرف بقية الجند إلى أوطانهم في أول الشتاء - وقصد الخاقان . وكان الخاقان معسكراً غير بعيد من مدينة جوزجان : وكان قد بث الغارات في جميع النواحي ، ولم يبق معه إلا أربعة آلاف رجل ، فهاجمه أسد (٤) ، فوجه فرقة قادها أمير الجوزجان من طريق كان يعرفه ،

(١) [مثل :

أزختلان آمدى برونباہ آمدى
بيدل فراز آمدى

ومثل :

أزختلان آمديه برونباہ آمديه
آبار باز آمديه خشك نزار آمديه

لكن هذا أيضاً يذكر في تاريخ سابق (سنة ١٠٨ هـ) . أما ما نحن بصدده هنا فهو من حوادث سنة ١١٩ هـ (راجع الطبرى ج ٢ ص ١٤٩٢ ، ١٤٩٤ ، ١٥٩٣ - ١٦١٩) ويظهر أن ثم خلطاً بين حوادث ولايتى أسد على خراسان - المترجم [(٢) خراسن قبيلة تركية (ابن خردادبه ص ٣١) ويذكر في أيام قتيبة أن جبغوية كان رئيس الشاذ ورئيس طرخان نيزك الذى كان تابعاً للشاذ أو منضماً إليه - قارن ما أرسل إلى الخليفة في ذلك وهو عند الطبرى ج ٢ ص ١٦١٥ .

(٣) المقصود هو جديع بن على الكرمانى ، وكلمة « بن على » غير موجودة في الأصل الألماني ، ولكنها موجودة في الطبرى ج ٢ ص ١٦٠٥ . [المترجم]

(٤) كان على ميمنة أسد الأزدي وبنوهم وينو الجوزجان وأهل الشام من فلسطين وقنشرين وكان على ميسرته ربيعة وأهل حصص والأردن ، وكان في المقدمة أهل دمشق والشرطة والحرس وغلماؤه . وكان جند الشام بطبيعة الحال مع الأمير دائماً ، ولم يكونوا يذهبون في الشتاء إلى =

وهاجم الخاقان من الخلف ، فاضطره بذلك إلى الإسراع في الحرب ، وأراد
الخصي أن يحمل امرأة الخاقان ، فأعجله العرب ، فلم يجد طريقاً لتجنب
عار وقوعها في يد العرب ، إلا أن يقطعها بخنجر . وظفر المسلمون
بالمعسكر ، فوجدوها تتحرك ، ووجدوا القادور تغلى ، فأطلقوا أسرى
المسلمين الذين كانوا هناك ووقع في يدهم كثير من سبي الترك وغنائم
لا تخصي من الشاء والدواب والدروع وغيرها من آنية الفضة ، فبعث أسد
بجواري الترك إلى دهاقين خراسان^(١) ليستنقذ من كان في أيديهم من أسرى
المسلمين . وتلقف أسد^(٢) خيلاً للترك كانت منصرفة لتغير على بلخ ، فارتدت
بعد أن كانت قد بلغت بيعة مرو الروذ .

وحال الشتاء دون المضي في مطاردة الخاقان ، فهكث الخاقان عند جبغوية
في طخارستان حيناً ، ثم عاد إلى بلاده من طريق أشروسنة ومعه الحارث
ابن سريج . وبعد ذلك بقليل قتله أحد كبار رجاله ، وهو كورصول
الترقيشي الذي يرد ذكره كثيراً ، وعلى أثر ذلك ظل الترك في خلاف فيما
بينهم^(٣) ، وتركوا العرب ينعمون بفترة من الهدوء .

وقد أمر أسد ، بعد أن عاد إلى بلخ^(٤) ، بالصوم شكراً لله لما فتحه عليه ،

== أوطانهم كما يفعل عرب خراسان . وكان مع الخاقان الحارث بن سريج وأصحابه (من أهل السغد
والبابية) وملك السغد وأمير الشاش وخرابرة من أشروسنة (وهو جد أفشين كاوس
المشهور) وصاحب الختل وجبغوية . أما ملك السغد فربما أنه صاحب أشتيخن الذي تبع هو
وأشكند نسف الخاقان للحرب في بلاد الختلان ، على حين أن صفان - خداه كان يحارب
في صمدوف أسد ، وهكذا كان العجم يحاربون في الجانيين ، ولكن يابوح ما جاء في الطبري
(ج ٢ ص ١٦١٣ ص ٢ فما بعده) كأنما لو كان خرابرة قد بقي في وطنه أشروسنة ، وقد
كان في قلبه معادياً للخابقان .

(١) يقصر فان نلوثن (ص ٢٥ هامش ٢) هذا الخبر البسيط (الطبري ج ٢ ص ١٦١١)
تفسيراً سيئاً - راجع كتابه ص ٢٥ هامش رقم ٢ .

(٢) راجع فيما تقدم الطبري ج ٢ ص ١٥٩٣ - ١٦١٤ - المترجم .

(٣) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٦١٥ قارن ص ١٦١٤ - المترجم] .

«ولما بلغ خبر الانتصار على الخاقان إلى هشام في دمشق لم يكذب بصدقته ، وأيده في ذلك من كان عنده من قيس حسداً منهم لأسد : ولم يكن هشام يفتلق من خراسان من قبل سوى أخبار النكبات ، فطلب توجيه مقاتل ابن حبيّان النبطي من خراسان إليه ، وكان مقاتل رجلاً صادقاً ، فقصّ على الخليفة أخبار غزو أسد بلاد الختّل وما كان من تطور في القتال حتى استباح المسلمون عسكر خاقان وأجلّوه عنه ، وكان هشام يستمع إلى مقاتل وهو مهمكئ ، فلما أخبره مقاتل باستباحة عسكر خاقان استوى جالساً :

وفي صيف سنة ١١٩ هـ (٧٣٧ م) استأنف أسد الحرب مع الختّل (١) ، ولم يكن الترك قادرين على مساعدتهم ، هذا إلى أن الختّل كانوا فيما يظهر مختلفين فيما بينهم ، وذلك أن بدر طرخان خرج من أرض الباميان واغتصب الحكم (قارن الطبري ج ٢ ص ١٦٩٤) وقد وقع هذا الغاصب من طريق غدر شائن في يد أسد ، فأسلمه إلى رجل من الأزد كان له عنده ثأر لكي يقتله (٢) : ولكن أسداً مع هذا لم يفعل كثيراً ، بل اكتفى بتوجيه خيله في غارات في أودية بلاد الختّل ، وفي الشتاء التالي لذلك ، في أول سنة ١٢٠ هـ ، عاجله الموت بغتة ، ولكن موته نجّاه في الحقيقة من الوقوع في عواقب سقوط أخيه خالد (٣) :

(١) [راجع فيما يلي الطبري ج ٢ ص ١٦٢٩ - ١٦٣٣ - المترجم] .

(٢) كان أسد قد أعطاه الأمان وجعل له عهد الله والنبي والخليفة والمسلمين ، فلما لم يحافظ أسد على عهده قذف بدر طرخان بحجر في الهواء وقال : هذا عهد الله ، ثم قذف ثلاثة أحجار أخرى قائلا : هذا عهد أمير المؤمنين وعهد المسلمين . [الحقيقة أن أسداً لم يغير الغدر الذي يصفه المؤلف ، وكل ما في الأمر أنه تساهل جداً مع بدر طرخان ، فلما أراد أن يتدارك الأمر وأرسل رجلاً وراء بدر طرخان ، ظن هذا أن أسداً نقض العهد فقال ما قال ، فعاقبه أسد] المترجم نقلاً عن الطبري ج ٢ ص ١٦٢٩ فابعدا .

(٣) عزل خالد في جمادى الأولى سنة ١٢٠ هـ (مايو سنة ٧٣٨ م) ، ولكنه تلقى خبر موت أخيه وهو لا يزال في منصبه (الطبري ج ٢ ص ١٦٥٠ س ١٢) ، وفي رجب سنة ١٢٠ هـ خلف نصر بن سيار أسداً على ولاية خراسان ، وكان بينهما فترة أربعة أشهر - (٢٩ - الدولة العربية)

وكان كبار العرب وكبار العجم يجلبونه فيقدون إليه ويقدمون له الهدايا القيمة ، وقد قدم إليه في يوم المهرجان ، فيمن قدم إليه بالهدايا ، خراسان ، دهقان هراة ، فقام بين يدي أسد خطيباً وبين من كريم صفاته وشجاعته وأعماله العظيمة ما رفعه به إلى السماء السابعة (١) . ثم مرض أسد ، وأفاق إفاقةً ، فخرج يوماً ، فقد مات له كثرى ، وأراد أن يتلطف بخراسان ، دهقان هراة ، فرى إليه بواحدة وكان في جوف أسد فيما ذكر ، دُبَيْلَةً ، فانقطعت عند ذلك ومات — هذا ما يحكى ، ولكن ما يذكر من أن ذلك كان بمناسبة عيد المهرجان فهو غير صحيح ، وهو يزيد الشك في القصة التي تشبه في ذاتها ما يقال في الأساطير (٢) .

٦١ — وكان سقوط خالد بن عبد الله القسرى ، الذى ظل أميراً على العراق سنين طويلة ، فاتحة الفترة الأخيرة الحملة بالكوارث والى انتهت بسقوط الدولة الأموية ؛ فقد خلفه على العراق وال قيسى لحماً ودماً ، متعصب لقيس ، وهو يوسف بن عمر ، من أسرة الحجاج ، ولا شك أنه لم يكن شئ أحب إليه من أن يعين على خراسان والياً من قيس ، لولا أن هشام بن عبد الملك حال دون ذلك وعين نصر بن سيار خلفاً لأسد ، وكان نصر من ذوى الأسنان القلائل جداً الذين ظهروا في تاريخ تلك الحقبة ، ولم تؤثر سنوه الكثيرة في حدة ذهنه وبقظته . كما تشهد بذلك أفعاله ، بسله القصائد التي ظل ينشئها حتى أواخر أيامه . وكان

= الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٨ . وعلى هذا يكون قد مات في صفر سنة ١٢٠ هـ (فبراير سنة ٦٣٨ م . أما الرواية القائلة بأنه مات في يوم عيد المهرجان فلا يمكن الأخذ بها ، لأنه ذلك العيد وقع في الحريص ، ولا يمكن أن يصلح حريص ١١٩ ولا حريص ١٢٠ هـ تاريخاً لذلك .

(١) [يجد القارئ هذه الخطبة عند الطبرى ج ٢ ص ١٦٣٦ - ١٦٣٧ ، وهي تدل على فكرة أحد دهاقنة إيران عن أنفسهم وعن العرب - المترجم] .

(٢) [يؤخذ من الطبرى (ج ٢ ص ١٦٣٨) أنه قد انقضت فترة بين يوم المهرجان وموت أسد - المترجم] .

قد نشأ في أرض خراسان وشاب وهو في خدمة الدولة ، وكان مما دعى الخليفة إلى إيثاره على غيره أنه لم تكن له عشيرة قوية يضطر إلى أن يستند إليها^(١) ، وذلك أنه لم ينتسب إلى أى من القبائل الكبرى في خراسان ، بل كان من كنانة التي كانت قليلة العدد هناك . ولما كان كنانياً فقد كان من الطبيعي أن يعيل إلى تميم ، لأن تيمماً وكنانة ينتسبان جميعاً إلى خنيدف ، فعزل العمال الذين قد عينهم سلفه وعدوه أسد بن عبد الله - ولكن من غير أن يعدّ بهم - وعين مكانهم خنيدفيتين أى عمالاً من تميم بنوع خاص^(٢) . وإلى جانب المدن الأربعة^(٣) التي كانت في خراسان حواضر للدولة ، كانت هناك بلخ وخوارزم وسمرقند (الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٤) ، فنقل نصر مقر الحكومة من بلخ وأعادته إلى مرو ، أى من طرف أرض السيادة العربية إلى وسطها .

وقد قام نصر في الفترة الأولى من ولايته بمحاربة الترك ، وكان هو البادئ بمهاجمتهم . فخرج من بلخ وغزا ما وراء النهر من ناحية باب الحديد ، ورمدينة ورغسسر قاصداً سمرقند ، وهناك وقع في يده اثنان من دهاقنة بخارى كانا قد أسلما على يديه ، ولكنهما ثارا ، اعتقاداً منهما بأن ظالماً وقع عليهما ، وأجمعا على الفتك بواصل بن عمرو القيسى عامل بخارى وببخار اخذاه رئيس المسلحة : حتى إذا كان نصر يستمع إلى أمرهما من بخار اخذاه ، قالاً : نموت كريمين ؛ فشد أحدهما

(١) [لما استشار هشام بن عبد الملك أصحابه في رجل يصلح لولاية خراسان استبعد من رشحوها له من كان صاحب شراب أو فيه تبه وعظمة أو كان موقوراً أو غير عفيف أو كان منتسباً إلى قبيلة لا يعتمد عليها في سد الثغور وهكذا ، فلما قيل له إن نصر بن سيار ليست له عشيرة ، قال : أنا عشيرته - المترجم نقلاً عن الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٠ فابعدا] .

(٢) [كان هشام بن عبد الملك لا يعيل إلى قيس ولا إلى ربيعة (الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٢ ، ١٦٦٣) ، وكذلك لم يكن نصر بن سيار يعيل إلى قيس . ويذكر الطبرى (ج ٢ ص ١٦٦٤) أن نصر ظل أربع سنين لم يستعمل فيها إلا مضريناً - المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً ما تقدم ص ٣٩٦ - المترجم] .

على واصل فطعنه في بطنه بسكين ، فضربه واصل بسيفه ضربة أطارت
قحف رأسه ، فمات واصل : وأما الثاني فطعن بخنجر اخذاه ، ولكن
بحوزجان بن الحوزجان شد عليه فقتله . والمظنون هو أن الظلم الذي شكوا
منه هذان الدهقانان هو إلزامهما بدفع الجزية مع أنهما كانا مسالمين . وبعد
أن فتح نصر سمرقند توجه إلى أشروسنة ، وقد زاد جيشه بمن انضم إليه
من الأعاجم ، ثم خرج إلى الشاش ، وكان في الشاش في ذلك الوقت
كورصول ، قاتل الخاقان ، وكان أميراً على جماعة تبلغ أربعة آلاف قُبَّة ،
فوقع في يد العرب بعد اشتباك ، وقتله نصر وصلبه على شاطئ النهر . وكان
الحارث بن سريج يقاتل العرب في صفوف الترك ، وكان معه عرادتان ،
فلم يرض أن ينصبهما تلقاء تميم ، لأن تميمياً كانوا من قبيلته ، وانتهى الأمر
بأن صالح نصر أهل الشاش واشترط عليهم يُخْرِجُوا الحارث بن سريج ،
وبعد ذلك صار نصر إلى فرعانة ، ولكنه اكتفى بأن صالح أهلها وقتل
راجعاً دون أن يسير إلى ما وراء نهر الشاش . ومن الجائز أن تكون هذه
الحملة قد تطلبت أكثر من عام من الزمان ، أما المدائن فهو يجعلها ثلاث
حملات ، وهذا غير معقول^(١) ، وهو إنما ينوع في الروايات ويجمع كل
التفاصيل الممكنة ويهتم خاصة بذكر ما هو من قبيل الحكايات العجيبة ؛ أما
البلاذري (ص ٤٧٩) فلا يذكر لنصر إلا حملة واحدة ، وهي حملة أشروسنة ،
ويقول إنها انتهت نهاية غير موفقة^(٢) . أما الأعمال الرائعة التي ينسبها إلى نصر أ -
مولر (A. Müller, 1, 412) متابعاً لفأيل (Weil, 1, 632) ، فلا شك أن
نصر لم يعملها ، ولكنه استطاع أن يرغم الترك في بلاد الشاش على التخلي عن
التأثير المهيِّج ، الحارث بن سريج ، وعلى إخراجه من بلادهم ، وإن كانوا لم يسلموه

(١) يقول المدائني إن نصراً توجه إلى : أ - باب الحديد ورجع ، ب - وإلى سمرقند
ورجع ، ج - وإلى الشاش ، ولكن أوب مجرد مراحل لج .
(٢) والقول بأن تاريخ ذلك كان في عهد مروان بن محمد بعيد جداً عن الصواب .

له . وقد خرج الخارث إلى القارياب وأقام حيناً إلى أن اندلعت نار الحرب الأهلية بعد مقتل يزيد بن الوليد . وكذلك سمح نصر لأهل السغد الذين كانوا قد خرجوا من ديارهم ، ولم تصبح لهم في بلاد الشاش وفرغانة شوكة بعد الاضطرابات التي أعقبت مقتل الخاقان ، بأن يعودوا إلى أوطانهم ، ولكنهم كانوا قد اشترطوا للعودة شروطاً كرهها وأنكرها أمراء خراسان ، مثل عدم معاقبة من ارتد منهم عن الإسلام وعدم أخذهم بما عليهم لبيت المال ونحو ذلك . ولم يرض نصر بهذه الشروط ، ولم يرض بها هشام بن عبد الملك ، إلا تألفا لأهل السغد وتجنباً لنكابتهم في المسلمين (الطبرى ج ٢ ص ١٧١٧ - ١٧١٨) .

ولإصلاح نظام الخراج الذى قام به نصر من شأنه أن يلقى ضوءاً على سياسته الداخلية ، وبرى المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١٦٨٨ فما بعدها) أخبار ذلك . وقد أعلن نصر برنامج هذا الإصلاح في خطبة خطبها في مسجد مرو فقال : « ألا إن بهرامسيس كان مانح المجوس ، يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم على المسلمين ؛ ألا إن إشداد بن جريجور (١) كان مانح النصرى ؛ ألا إن عقيبة اليهودى كان مانح اليهود يفعل ذلك ؛ ألا إنى مانح المسلمين ، أمنحهم وأدفع عنهم وأحمل أثقالهم على المشركين ؛ ألا إنه لا يُقبل منى إلا توفى الخراج على ما كُتِبَ ورُفِع (٢) ، وقد استعملت عليكم منصور بن عمر بن أبى الخرقاء ، وأمرته بالعدل عليكم ؛ فأما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه

(١) هكذا تجب قراءة الأسماء المسيحية التي يصعب التصرف عليها مكتوبة بالعربية .

(٢) إن القراءة الصحيحة موجودة في هامش ص ١٦٨٨ مع علامة ٧ (توفير بدلا من توفى) ، [نجد في المتن عند الطبرى : « توفى الخراج على ما كتب ورفع » . وبحسب القراءات التي ذكرها الناشر في الهوامش يمكن قراءة المتن هكذا « توفى الخراج على ما كتب ودفع » - ومن الثابت أن قراءة المتن الصحيحة وإن كانت القراءة بحسب الهوامش غير مسجلة - المترجم] .

أو تُقْلَع عليه في خراجيه ونُحْفَف مثل ذلك عن المشركين فليُسَرِّعْ ذلك إلى منصور بن عمر ، يحوله عن المسلم إلى المشرك » . ويروى أنه لم تأت الجمعة الثانية حتى أتى ثلاثون ألف مسلم ، كانوا يؤدون الجزية عن رؤسهم ، وثمانون ألف رجل من المشركين قد أُتْقِيت عنهم جزيتهم ، فمَحْوُل ذلك عليهم وألقيَ عن المسلمين ، ثم صُنِفَ نصر الخراج حتى وضعه مواضعه ، ثم وظَّف الوظيفة التي جرى عليها الصلح ، وكان يؤخذ من مرو في أيام بني أمية مائة ألف درهم سوى الخراج ^(١) .

وعلى هذا صارت الجماعات الدينية غير الإسلامية هي الجماعات التي تدفع الجزية ، وكان رِبَّان اليهود يأخذ الجزية من اليهود ، وأسقف النصارى يأخذها من النصارى ، والمرزبان ^(٢) يأخذها من المجوس ، وكان المجوس بطبيعة الحال هم الغالبية الكبرى ، وإن كان عدد النصارى لم يكن قليلاً ^(٣) . ولكن كيف كان رؤساء الجماعات الدينية هؤلاء قد استطاعوا أن يحولوا الجزية من المجوس والنصارى واليهود ويلقوها على كاهل المسلمين تحت نظر الحكومة العربية ؟ إن كلام المدافعي في هذا الموضوع غير مفهوم ، ومما لا يمكن تصديقه أبداً أن تكون الجزية

(١) وإذن فالمرزبان في هذه الحالة ، هو رئيس المجوس - قارن الطبري ج ٢ ص ١٤٦٢ س ١٣ .

(٢) كان النساطرة السريان قد انتشروا في الشرق انتشاراً بعيداً ، كما هو معلوم ، وقد وضع أسقف أو مطران مرو جسداً يزددجرد آخر ملوك الساسانيين في ناووس (الطبري ج ١ ص ٢٨٧٤ فا بعدها و ص ٢٨٨١ و ٢٨٨٣ - قارن ج ٢ ص ١٤٤٨ س ٥ و ص ١٥٤٣ س ١) . وتذكر منازل الرهبان ويذكر مكان القديس مار-رجستان عند مرو ، وتذكر بيعة في مرو أيضاً وبيعة عند مرو الروذ (الطبري ج ٢ ص ١٥٧٢ س ٢ و ص ١٩٢٥ س ١٣ و ص ١٩٥٧ س ١٤ و ص ١٥٦٩ س ١٤ و ص ١٦١٢ س ١١) وفي قرية النصرانية خلف نصر بن سيار زوجته المرزبانة ، وهو يحاول الهروب من مرو الطبري ج ٢ ص ١٩٩٥ س ١٠ وقارن ١٨٨٩ س ٦) . وكان في طخارستان موضع هام يسمى اليهودية .

تقد ألفت عن ثمانين ألفاً كان يجب عليهم أن يؤدوها ، وأن تلقى على ثلاثين ألفاً لا يجب عليهم أدائها ؛ فلا بد أن يكون الموقف هنا بحسب كل ما هو معروف من المواقف المشابهة له ، هو أن دخول غير العرب في الإسلام كان لا يخرجهم عن تبعيتهم للجماعة التي كان عليها أن تؤدي الجزية . وكانت الجزية بحسب ما جرى عليه الصلح من قبل قد تقرر على مقدار ثابت لا يتغير ، بحيث إن لم يدفعها الداخلون في الإسلام وجب على بقية الجماعة التي ينتمون إليها أن تدفعها عنهم حتى انتهى الأمر بأن أصبح جمع ذلك المبلغ المحدد غير ممكن ، وعلى هذا فإن واجب أداء الجزية كان قد صار عبئاً على من وقع على كاهلهم بمقتضى شروط الصلح ، يورثونه أبناءهم من بعدهم ، حتى لو دخل هؤلاء الأبناء في الإسلام بعد ذلك . وكان الرؤساء المحليون من غير العرب يعملون بهذا المبدأ بإذن من الدولة العربية ، وقد تبين أن ما حاوله عمر بن عبد العزيز قبل غيره من إحداث تغيير أساسي في هذا الوضع كان شيئاً لا يمكن تنفيذه ، ولكن تبين في الوقت نفسه أن مما يخالف روح الإسلام أن يبقى الداخلون فيه — وهم بحكم إسلامهم مواطنون في الدولة التیوقراطية — مشفقين بعبء الجزية ، شأنهم شأن غير المسلمين ممن ليسوا مواطنين في الدولة الإسلامية وإنما كانوا يتمتعون بتسامح المسلمين معهم ، فكان لا بد من التمييز بين الفريقين ، ولكن بشرط أن لا يتقص مال الجزية عن المبلغ المقرر لها ، وقد قام نصر بذلك على النحو الذي لا بد منه على كل حال ، وكان الخراج من قبل يأتي من ضرائب متنوعة . وكان يشتمل على الخراج الذي يدفعه ملاك الأرض أو من يقوم مقامهم ، ولما كانت كل أنواع الضرائب تسمى خراجاً فلم يكن هناك سوى ضريبة واحدة تسمى الخراج أو الجزية ، وكان معنى هاتين الكلمتين حتى ذلك الحين واحداً (الطبري ج ٢ ص ١٥٠٧ فما بعدها) ، أما في عهد نصر بن سيار فقد وضع نظام يقضى بأن يُجبي الخراج بالمقدار الثابت الذي تقرر على المدن والنواحي ، كل على حدة ، ومن الأرض وحدها ، وعلى

هذا حدُّ مقدار الخراج من جديد ، وصار يؤخذ من جميع ملاك الأرض بحسب ما يملكونه ، سواء كانوا مسلمين أو كانوا رعايا غير مسلمين خاضعين للدولة الإسلامية^(١) . ولما كان الخراج يؤخذ عن عين الأرض لا عن الشخص الذى يملكها ، فلم يكن فى ذلك ما يُشعره بالصغار . وقد حدث مع ذلك جنباً إلى جنب فصلٌ تام بين خراج الأرض — فأصبح وحده هو الذى يسمى خراجاً — وبين ضريبة الرأس التى بقى لها اسم الجزية . أما ضريبة الرأس ، التى كانت تختلف فى المقدار وكان ما يتحصل منها يقل عاماً بعد عام كلما زاد عدد الداخلين فى الإسلام ، فقد صارت باباً يمكن الاستغناء عنه فى الخراج الثابت للدولة ، وخصوصاً أنها أسقطت عن المسلمين بالكليّة وأصبحت لا تؤخذ إلا من غير المسلمين منهم جميعاً ، بقصد تكليفهم ما يبين قلة قيمتهم الشخصية^(٢) . وتتجلى لأول وهلة صلاحية النظام الجديد الذى وضعه نصر ، إذا قورن بذلك النظام الذى كان من قبل يُعتبر هو النظام المتفق مع الشرع ، والذى بمقتضاه كان المسلمون يُعفىون من دفع الخراج . وهكذا ظل الفرق بين معاملة الدولة للمسلمين وغير المسلمين قائماً ، أما المسلمون ، عرباً كانوا أو موالى ، فقد صاروا من حيث المبدأ والقانون يقدفون على قدم

(١) انتقلت الأرض إلى أيدي المسلمين ، لا من طريق دخول مالكيها السابقين فى الإسلام فحسب ، بل أيضاً من طريق حصول العرب عليها وشراهم لها . ويظهر مما جاء فى الطبرى (ج ٢ ص ١٠٢٩ ص ٦) أنه حتى قبل عهد نصر بن سيار كان على العرب الذين اقتنوا أرضاً أن يدفعوا خراجها ، وأن يعطوه إلى الدهاقين ، وكانوا بطبيعة الحال يدفعون الخراج عنها .

(٢) [هذا مايقوله المؤلف ، والحق أن مشكلة دفع غير المسلمين للجزية فى الدولة الإسلامية قد قام حولها كلام كثير ، مع أنها ليست شيئاً عجبياً فى عصرها ، وما هى إلا بمثابة ضريبة خائية فى مقابل دفاع الدولة الإسلامية عن غير المسلمين فيها وضمان حقوقهم وإعاقبتهم من الواجبات الحربية — المترجم .

المساواة^(١) ، وعلى هذا الوجه أمكن تفادى النقص فى الدخل الثابت للدولة ، وذلك أن تفاوت مقدار ما كان يتحصل من مال الجزية - وهو لم يكن كثيراً - وكذلك تناقصه المستمر شيئاً فشيئاً لم يكن له شأن له كبير . ومن الأرجح جداً أن النظم التى وضعها نصر لم تقتصر على ناحية مرو ، بل شملت كل الولاية فيما دون نهر بلخ وفيما وراءه ، لأن هذه النظم لم تكن شيئاً خاصاً ، وقد عُمل بها فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية التى كانت أحوالها مشابهة لأحوال خراسان وما لحق بها ، وصارت هذه النظم هى القانون الصحيح الذى زعم الفقهاء فيما بعد أنه كان موجوداً من أول الأمر ، مع أنه فى الحقيقة لم يتكون إلا شيئاً فشيئاً . وهذا هو السبب فى أن المدائنى تأثر بمزاعم المتأخرين فلم يستطع أن يفهم ما وجدته نصر وما ألغاه وفى أنه يتصور فى إصلاحات نصر أشياء عجيبة وجد أنها تخالف القانون بعض المخالفة . على أن المدائنى يذكر الوقائع صحيحة : وهى أن المقدار الثابت للمخراج وُظف على جميع ملاك الأرض حتى على المسلمين منهم ، أما الجزية فقد أسيطت عن المسلمين وفُرضت على غير المسلمين وحدهم .

وربما كان من الممكن على أساس هذه المساواة بين المسلمين أن يتحقق توازن دائم بين العرب والأعاجم ، ولكن لم يكن هناك وقت لذلك ، فقد عاد العرب فى خراسان إلى التنازع وإهلاك بعضهم بعضاً ، وكانت الثورة فى الشام هى التى بعثت فى هذه المرة على الثورة فى خراسان ، وكانت تلك الثورة رد فعل من جانب الحزب الثائر على طغيان حزب قيس فى أيام الوليد بن يزيد . وجاء الوليد بن يزيد بعد هشام فى أول ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ (فبراير سنة ٧٤٣ م) فأقر نصرأ فى منصبه أول

(١) ولكن بطبيعة الحال كان الأعاجم يدفعون فى الواقع أكثر مما يدفعه العرب لأن معظم الأرض كانت فى أيدي الأعاجم وخصوصاً فى أيدي الدهاقنة الذين كانوا من جانبهم يتمصون دم الزراع . ولكن دفع الأعاجم أكثر مما يدفعه العرب لم يكن والحالة هذه ظلماً .

الأمير (١) ، ولكنه بتأثير رئيس قيس ، وهو يوسف بن عمر (٢) أمير العراق ، عزله بعد فترة ما ، ودعاه إلى دمشق وكلّفه أن يحضر معه أشياء كثيرة من الجوارى والبراذين والحيل والآنية والصنوج والدفوف وغيرها من الأشياء الجميلة ، وأن يقدم عليه في وجوه أهل خراسان . فتباطأ نصر في الاستعداد لذلك متعمداً ، حتى كان لا يزال بخراسان في يوم النيروز سنة ١٢٠ هـ (٣) ، لما بلغه خبر مقتل الوليد ، فلم يعترف يزيد بن الوليد الذي ثار على الوليد بن يزيد ، ولا اعترف بأمره الذي بعثه إلى العراق ، أو على الأقل لم يعترف نصر اعترافاً عملياً ، بل دعا القبائل إلى مبايعته أميراً على العراق حتى تنتهي الفتنة وتتفق الكلمة على خليفة وحتى يأتي أمير من قبّله . وقد انضمت إليه الأزد وبريعة ، مع أنهم كانوا حتى ذلك الحين غير راضين عنه ، وصار نصر لا يقصمهم عن المناصب كما كان يفعل من قبل ، وقد عمل في الحقيقة عن جمع كلمة عرب خراسان حتى يعتبروا أن الحكومة حكومتهم جميعاً ولا يعتبروها شيئاً يتنازعون عليه ، وقد سهّل عليه ما أراده من اتخاذ موقف الحياد وعدم الميل إلى حزب دون حزب أنه كان كنانياً لا ينتسب إلى المجموعات الكبرى للقبائل ، ولكن الحكومة كانت في نفس الوقت في يده لأنه على رأسها ، ويروى أن شاعراً موالياً له تغنى باسمه قائلاً : نحن بريعة نكبح جماح

(١) [راجع في هذا وفيما يل الطبري ج ٢ ص ١٧٦٤-١٧٦٨ ، ١٨٤٥ - ١٨٥٠ ، ١٨٥٥-١٨٦٦ - المترجم] .

(٢) وكان يوسف بن عمر نفسه هو وقيس قد دسوا لنصر بن سيار (سنة ١٢٣ هـ) عند هشام بن عبد الملك ولكنهم أخفقوا .

(٣) قتل الوليد بن يزيد في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ (منتصف إبريل سنة ٧٤٤ م) ، وقد علم قصر بقتله سراً من رجل كان من عمال البريد قبيل وصول الخبر الرسمي بضرورة أيام ، وذلك أن كلمة « السكك » التي جاءت عند الطبري (ج ٢ ص ١٨٤٥ س ٢١ - قارن ١٨٤٩ س ١٠) هي سكك البريد - قارن الطبري (ج ٢ ص ١٧٠٩ والاسان ج ٤ ص ٥٣) . ومن العسير أن يكون الخبر وصل إلى نصر في أقل من شهر ، وعلى هذا فإن النيروز لم يقع في تلك السنة قبل منتصف مايو - انظر ماتقدم ص ٤٣٨ هامش رقم ٢ -

قيس وبالأزد نكسر شوكة تميم فيكون الأمر لكثانة^(١) . فغضب نصر غضباً شديداً على هذا الشاعر المتفسد المجرد من كل فهم سياه ، لأنه بما قال لا يخدم إلا أغراض خصوم نصر .

ولكنه لم يمض وقت طويل حتى انتفضت الأزد على نصر ومعها ربيعة ، ويجب ألا ننسى أنهم بحكم أنهم يمانية لا بد أن يقفوا في جانب يزيد بن الوليد ومن يؤيده من قبائل كلب ، ولما لم يدفع لهم نصر أعطياتهم نقداً ، بل من آنية الذهب والفضة التي كان قد أعدها للوليد بن يزيد ، جاهدوا بالثورة . وكان على رأسهم جندب الكرماني من الأزد ، وجهر جديع بأنه كان يرى من وراء طاعته للأمويين أن يطلب بثأر بني المهلب (الطبري ج ٢ ص ١٨٥٨ س ١١) الذين قتلهم الأمويون قتلاً لا رحمة فيه وهو بذلك قال كلمة كان لها صدغى في قلوب الأزد جميعاً : وذلك أنهم استطاعوا أيام المهلب وأولاده أن « يأكلوا » خراسان ، ولم يتمكنوا من ذلك بعد أيام المهالبة ، ولم ينالوا في أيام أسد بن عبد الله ما كانوا يريدون . وقد استطاع نصر أن يقبض على الكرماني نفسه وأن يحبس في قهندز مرو في آخر رمضان سنة ١٢٦ هـ (منتصف يولييه سنة ٧٤٤ م) ، ولكنه هرب من الحبس بعد شهر وذهب إلى موضع بجهة مرو ، وهناك اجتمع إليه جيش من الأزد وربيعة . وخرج نصر لقتاله ، ولكن لم يشتبك الفريقان وأشفق كل منهما من ذلك ، وبدأت بينهما مفاوضات للصلح ، لكنها لم تؤد إلى نتيجة ، لأن الكرماني كان يكره نصرأ كرهاً عميقاً ولم يرد أن يعاهد نصرأ لأنه لم يكن بأمنه .

وكانت الطامة الكبرى خروج الحارث بن سريج من بلاد الترك وظهوره

(١) [هذا معنى ما يذكره المؤلف وهو لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه حتى نستطيع ذكر كلام الشاعر بنصه — المترجم] .

على المسرح من جديد - وربما كان ذلك قبل آخر سنة ١٢٦ هـ ، لأن يزيد ابن الوليد - وكان قد آمنه^(١) - مات آخر سنة^(٢) ١٢٦ هـ . ولما كان الحارث عدواً للكرماني فإن نصراً دعاه لكي يخرج من سمرقند^(٣) - وكان قد نزلها أول الأمر - ويأتي إلى مرو ، فأقبل الحارث إلى مرو في آخر رمضان سنة ١٢٧ هـ (أول يولييه سنة ٧٤٥ م) . وعلى كثرة أنواع التكريم والهدايا التي غمره بها نصر فإنه لم يلزم جانب نصر ، وظل متمسكاً بمطالب المرجئة كما كان يفهمها من الناحية العملية ؛ وهو طالب بها نصراً أيضاً^(٥) . وقد انضم إلى الحارث ثلاثة آلاف رجل من قبيلته تميم ، والحق أن نصراً أفرط في التساهل مع

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٨٦٦ - ١٨٦٩ ، ١٨٨٨ - ١٨٩٠ ، ١٩١٧ فابعدا - المترجم] .

(٢) كانت أم يزيد بن الوليد أميرة من أميرات السغد (الطبري ج ٢ ص ١٨٧٤) ، وربما كان من أجل ذلك ميالا إلى أهل السغد [ولكن الذي يقوله الطبري هنا هو أن أم يزيد كانت أم ولد اسمها شاه أفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كمرى - المترجم] .

(٣) [يقول الطبري (ج ٢ ص ١٨٨٨) إن الحارث وافي مرو لثلاث بقين من بخاري الآخرة سنة ١٢٧ هـ - المترجم] .

(٤) [وفي رواية أن نصراً أراد مصالحة الحارث دون إذن أمير المراق ودون إذن الخليفة ، وذلك خوفاً من مجيء الحارث إليه هو وأصحابه والترك معه وطعماً في مخالفته ومناصحته - الطبري ج ٢ ص ١٨٦٧ - ١٨٦٨ - المترجم] .

(٥) [أطلق نصر أبناء الحارث ورد له أمواله وأجرى عليه خمسين درهما كل يوم وأنزله قصرًا ، ولكن الحارث باع ما أهدى إليه وفرقه في أصحابه ، وعرض عليه نصر أن يولييه ولاية وأن يعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل ، وأرسل إلى نصر يقول له : « لست من هذه الدنيا ولا من هذه اللذات ولا من تزويج عقائل العرب في شيء وإنما أسأل كتاب الله عز وجل والعمل بالسنة واستعمال أهل العدل والفضل ، فإن فعلت ذلك ساعدتك على عدوك » ، وأرسل إلى الكرماني يقول : « إن أعطاني نصر العمل بكتاب الله وما سألته من استعمال أهل العدل والفضل عضدته وقمت بأمر الله ، وإن لم يفعل استعنت عليه وأعتك إن ضمنت ما أريد من القيام بالعدل والسنة » . وظل الحارث على مبدئه الذي ثار من أحله قبل ذلك ، وقد قال لنصر : « خرجت من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور ، وأنت تريدني عليه » . ولكن ليس هذا مبدأً خاصاً للمرجئة ، بل هو أولى أن يكون رأى الخوارج . راجع فيما يتعلق بالنصوص الطبري ج ٢ ص ١٨٨٨ - ١٨٩٠ ، ١٩١٩ - المترجم] .

هذا المنافس الخطر الذى جلبه على نفسه^(١) ، وكان الحارث من أول الأمر وضع نفسه فى خدمة قضية الأعاجم فى أرض الثغرين ، وكتب لهم كتاباً يسميته وسياسته وأغراضه فى إحقاق الحق والعدل ، وكان رجاله يقرأون ذلك فى الطرق والمساجد ، وقد رضى نصر أن يبعث إلى ثغرى سمرقند وطخارستان من يرصده أصحاب الحارث ، كما عرض على الحارث أن يوليه ما وراء النهر . ولكن ذلك لم يغن نصراً شيئاً ، لأن الحارث لم يكن يطمئن إليه ولا يثق فى أنه سيعادى حكومة الأمويين ذلك العداء الحاسم الذى يلا نفس الحارث ومن تحت رايته السوداء من الأتباع . هذا إلى أن الحارث لم يكن من غير شك يريد بدافع الأناية أن يسمح لنصر بأن يكون له سلطان إلى جانب سلطانه ، ويروى أن الحارث ونصرا تناظرا فتراضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان وجهم بن صفوان ، فحكما بأن يعتزل نصر ويكون الأمر شورى ، فلم يرض نصر . وعند ذلك بدأ النزاع الصريح ، ونزل الحارث معسكراً أمام مرو ، ومن هناك حاول أن يستولى على المدينة ، وذلك فى أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٨ هـ آخر مارس سنة ٧٤٦ م . وفشلت المحاولة بطبيعة الحال ، فأسير جهم بن صفوان وقتل ، وكان الجهم هو الداعى إلى مذهب المرجئة^(٢) وهو المؤلف لكتاب عن سيرة الحارث وبرنامه ، وكان يقرؤه على الناس^(٣) . ولكن الحارث بعد ذلك كتب إلى الكرماني ،

- (١) [يجد القارئ اعتراف نصر نفسه بذلك عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ س ١١ قارن ص ١٩٣٠ س ١٠ - ١١ - المترجم] .
- (٢) [كان جهم فى الحقيقة صاحب فرقة قائمة بلاتها لها آراؤها الخاصة بها ، وهى فرقة الجهمية - قارن الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ - المترجم] .
- (٣) [المذكور عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩١٨ - ١٩١٩) هو أن الجهم هو الذى كتب كتاباً فيه سيرة الحارث ، وكان يقرؤه على الناس وأنه كان « يقص » فى عسكر الحارث . وعند الطبرى أيضاً (ص ١٩٢٠) أن الحارث بن سريج كتب سيرته ، أن سيرة نفسه ، فكانت تقرأ فى طريق مرو والمساجد . على أن المشهور أن جهماً كان كاتباً لابن سريج ، ولا يمكن أن يتبادر إلى الذهن أنه كان هناك كتاب بمعنى مصنف ، بل المقصود من الكتاب ما يشبه منشور الدعاية اليوم ، وفيه سياسة صاحب الدعاية وأغراضه وسأفله - المترجم] .

ونحن نسمع عنه الآن من جديد لأول مرة بعد أن اختفى من مسرح السياسة سنة ونصف سنة ، فدخل الكرمانى فى النزاع وغير وجهته ، وبعد قتال دام أياماً رأى نصر أن يرجع إلى نيسابور ، مقر قيس ، وأن يلقى مرواً للشائرين .

ولكن الثوار من أصحاب الحارث والكرمانى لم يلبثوا حتى اختلفوا ، وذلك أن من كان من الحارث من تميم ندموا على أنهم قد أعانوا الأزد على إخوانهم الذين كانوا فى مرو يحاربون مع نصر ، وهم لا ينسوا للكرمانى أنه فى أيام ولاية أسد بن عبد الله قتل عدة مئات من أصحاب الحارث بعد الاستيلاء على قلعة التبوشكان ، وأنه بقر بطون خمسين رجلاً منهم وقطع أيدي ثلاثمائة منهم وأرجلهم إلى غير ذلك مما نغموه عليه^(١) . وكان أول من نبذ هذا التحالف غير الطبيعى بين الحارث والكرمانى هو بشر بن جرموز ، أكبر أنصار الحارث ، فخرج يدعو إلى الكتاب والسنة وقال للحارث إنه إنما قاتل معه طلباً للعدل ، وإن انضمام الحارث إلى الكرمانى معناه القتال لأجل الغلبة والعصبية . فاعتزل بشر فى خمسة آلاف أو أربعة آلاف وخمسمائة ، ولما بدأ القتال بعد ذلك انضم الحارث إلى بشر وانفصل عن الكرمانى ، ولكن الأزد وحلفاءهم غلبوا تميماً ومضر فى آخر رجب سنة ١٢٨ هـ (إبريل سنة ٧٤٦ م) وأخرجوهم من مرو وخربوا عسكرهم ، وقتل الحارث نفسه وصلب جسده عند مدينة مرو بغير رأس ، فنال الجزاء العادل على أعماله ، مهما كانت آراؤه ومقاصده . فهو فى محاولته نصر الإسلام على العروبة ونصر المظلومين على الظالمين قد حالف الموت والشيطان على السلطة القائمة وحشد قوى الخير والشر جميعاً فى محاربة الحكومة الأموية ، وهو فى أول ظهوره قاد للترك لمحاربة العرب . فلما أخفق ظل لاجئاً عند الترك سنين كثيرة ، فلما ظهر من جديد فترق كلمة تميم ، وكان لاتحاد كلمتهم فى ذلك

(١) [جاء عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٢٨) أن الحارث بعد أن هزم نصرأ بعث إليه أن سيكف عن قتاله لأن اليمانية عيروه بهزيمته .

الوقت الشأن كل الشأن في المحافظة على السيادة العربية : وقد كان الحارث بذلك سبباً في أن اليمانية لم يكتفوا بإسقاط الحكومة ، بل في أنهم أوردوا مضر كلها ، ويحق ما قيل عنه من أنه رجل مشؤم^(١) ، وأنه كان المهمل الحقيقى لأبى مسلم^(٢) .

وعلى الرغم من أن نصرأكان من قبل قد تعصب على قيس ، فإنهم ، لما رجع إلى نيسابور ، أحسنوا لقاءه في ذلك الوقت العصيب^(٣) ، كما انحاز إليه المضربون الذين أخرجوا من مرو . ويروى أنه حاول قبل ذلك أن يستنجد بالخلافة ، ولكن طالما كانت العراق وما يلحق بها من بلاد العجم في قبضة الخوارج وفي قبضة عبد الله بن معاوية بن جعفر فإن الطريق كان مقطوعاً بين نصر وبين مقر الحكومة الأموية في الشام ، ولم تنغير الحال إلا في سنة ١٢٩ هـ ، لما خضعت العراق لمروان بن محمد ، على يد يزيد بن عمر بن هبيرة ، فاعترف له نصر بالرياسة باعتبار أنه رئيسه المباشر^(٤) ، ولم يكن من نيته قط أن يخرج على الأمويين ، وإنما كان ينتظر أن يهدأ الاضطراب والنزاع بين بنى أمية حول الخلافة في الشام . وربما يكون قد بايع مروان بن محمد بعد توليه الأمر بقليل ولكن إمكان اتصال نصر بن سيار بيزيد بن هبيرة لم يُغْنِهِ إلا قليلاً ، فبقى

(١) [راجع أبياتاً تنسب لنصر بن سيار وغيره فيما أدخله الحارث على العرب من ذلك والشوم المردى ، وهى عند الطبرى ج ٢ ص ١٩٣٥ - ١٩٣٦ - المترجم] .
(٢) وقد فسر لون علمه الأسود (الطبرى ج ٢ ص ١٩١٩ س ٢ فا بعده) على هذا الوجه ، وإن كان ذلك بغير حق كامل ، أما الصحيح فإنه يوصف في الأشعار بأنه أمدى مضرأ وأنه حالف الكفار على العرب (الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٤ س ١٠ ، ١٩٣٥ فا بعدها) .
و ص ١٥٧٥ فا بعدها . وقد قال له نصر بن سيار :

إرجاؤكم لركم والشرك في قرن فأنتم أهل إشراك ومرجونا

(٣) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٢٩ - المترجم] .
(٤) إن الروايات القائلة بأن ابن هبيرة قد اتصل في أول سنة ١٢٧ هـ بنصر بن سيار تتضمن خطأ كبيراً في التواريخ .

مضطراً إلى الاعتماد على نفسه ، عندما أراد في سنة ١٢٩ هـ أن يقوم بمهمة استرداد مرو^(١) . وبعد أن قام قواده بحملات كثيرة للهجوم لم تجد شيئاً تقدم نصر نفسه ، وكان في الثمانين من العمر ، ووضع كل قوته في المعركة . وخرج الكرمانى لمحاربته ، وعسكر الفريقان خارج المدينة في « الخندقين » اللذين بقيت آثارهما زماناً طويلاً ، وظلاً يقتتلان فترة طويلة من غير أن يقع القتال الحاسم . وقد بعث نصر إلى مروان بن محمد وإلى ابن هبيرة يلح في الاستغاثة وطلب العون ويصف الخطر وصفاً يحرك الهمم ، ولكنه لم يظفر من استغاثته بطائل^(٢) . غير أن تخوف العرب من عدو لهم جميعاً دعاهم إلى العقل والاتحاد مرة أخرى^(٣) ، وقد رأوا بأعينهم أن شيعة بنى العباس - ومعظمهم من الأعاجم - قد تجمعوا تحت راية أبي مسلم ونزلوا معسكراً حصيناً غير بعيد من مرو ، فدخلت ربيعة - التي مع أنها كانت حتى ذلك الحين حليفة للأزد فقد كان لها بطبيعتها موقف وسط - في الفرجة التي كانت تفصل بين اليمن ومصر ، فاتحد يحيى بن نعيم ابن هبيرة ، أكبر سادات بكر ، مع نصر بن سيار ، ووجد أن السبيل الوحيد الممكن لنجاة القبائل العربية هو في موازنة الحكومة^(٤) . وبدأت مفاوضات بين نصر وبين جديع الكرمانى ، لكنها انقطعت بسبب ابن للحارث بن سريج كان مع نصر بن سيار ، فاغتم الفرصة ليثار من قاتلى

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٠ - ١٩٧٦ .

(٢) وأبيات نصر بن سيار المشهورة التي ذكرها الطبرى (ج ٢ ص ١٨٧٣) تدخل في وصف هذا الموقف [غير أنها تشير إلى الخطر الذي جاء من قبل أبي مسلم . والمؤلف لا يشير هنا إلى الدور الذي لعبه أبو مسلم في التفرقة بين نصر والكرمانى . راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٢ - المترجم] .

(٣) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٢ فما بعدها و ١٩٧٥ فما بعدها - المترجم] .

(٤) راجع قصيدة نصر التي نادى بها ربيعة ، وهي موجودة عند Nöldeke في Delectus

أبيه ، فاغتال الكرمانى خلصة^(١) . غير أن ذلك لم يكن هو السبب الذى أدى إلى فشل المفاوضات . لكن سقوط مدينة هراة ، تلك المدينة الهامة ، فى يد أبى مسلم راع العرب كثيراً وفتح أعينهم أيضاً ، فحل محل الكرمانى رجل من أنصاره لا نعرف عنه شيئاً حتى ذلك الحين ، وهو شيبان بن سلامة الحرورى الخارجى^(٢) ، فدعاه يحيى بن نعيم^(٣) بن هبيرة إلى مواعدة نصر بن سيار ، فوادعه سنة ، فاستطاع نصر أن يدخل مرو فى آخر سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧ م) . ولم يكن الأزد وحدهم هم الذين دخلوا فى هذه الهدنة ، بل دخل فيها أيضاً على ابن زعيمهم المقتول : جديع الكرمانى . ولم يكن من المؤكد أن ينتهى القتال بانتصار أبى مسلم ، غير أن أبى مسلم عرف كيف يقنع على بن جديع الكرمانى بأن قتل أبيه إنما كان بإيعاز من نصر نفسه ، وكان يريد بذلك أن يضم علياً إلى جانبه (أول سنة ١٣٠ هـ - سبتمبر سنة ٧٤٧ م) . وعلى هذا عاد الكرمانى ومن تبعه من الأزد إلى قتال نصر من جديد . ويظهر أن القتال استمر فى ضواحي مرو وفى شوارعها مدة طويلة ، وقد

(١) والروايات تريد على كل حال أن تظهر نصراً بمظهر المشترك فى مقتل الكرمانى ، وذلك بأن تقول إن نصراً صلبه ومعه سمكة ، وهى علامة الإزراء بالأزد . ولكن نصراً كان جاداً فى المفاوضات ، ولم تكن هى بقصد اغتيال الكرمانى ، لأن ذلك كان يهددها بالفشل . ولو أنه صلب رئيس الأزد ، رخصوا لو أنه صلب معه سمكة ، لما أمكن أن يبقى الأزد بعد ذلك على ود مع نصر لحظة واحدة . وإذا كان ابن الرئيس المقتول قد صالح نصراً بعد قتل أبيه على الفور فلا بد أنه فى ذلك الحين لم يكن مقتنعاً بأن القتل كان يعلم من نصر . أما أول من أوحى إليه بفكرة اشترائك نصر فى قتل أبيه فهو أبو مسلم . وعلى هذا فلا يمكن أن يكون قد وجد دليل ثابت يدل على رضا نصر عن الجريمة ، مثل أن يأمر بصلب جسد الكرمانى ويصلب معه سمكة . ولو أنه فعل ذلك لكأن له نتائج أخرى ولأدى إلى ضرب وجه سياسة التفاهم التى أرادها نصر . أما التاعدة القائلة بأن نصراً fecit cui prodest (فعل ما يفيد) ، فلها لو طبقت هنا لكان تطبقها خطأ .

(٢) قارن ص ٣٧٨ - ٣٧٩ مما تقدم .

(٣) [هنا وفيما سبق قبل بتلخيص يقول المؤلف : يحيى بن حنظل ، والغالب أن هنا

سجوا - راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٦ و ١٢ و ١٩٦٧ ص ٢ - المترجم] .

(٣٠ - الدولة العربية)

انتهى هذا القتال بأن صار أبو مسلم سيد الموقف ، ذلك أنه تدخل في القتال عندما بدا له أن الوقت مناسب ، وقرر مصير المعركة من غير استعمال السيف ، وكان ذلك في ربيع الثاني سنة ١٣٠ هـ - ديسمبر سنة ٧٤٨ م (١) .. وفي صباح اليوم التالي هرب نصر إلى سرخس وطوس ومنها إلى نيسابور ، فكان ذلك آخر السيادة العربية في خراسان وبلد نهاية السيادة العربية على الإطلاق .

(١) سنن من ذكر التفاصيل والوقائع في الفصل التالي .

الفصل التاسع

سقوط الدولة العربية

١ - إن ما قلناه في الفصل السابق عن العلاقة بين العرب والأعاجم ينصبّ خاصة على أرض « الثغرين » ، وهو ينصبّ على أرض السغد أكثر مما ينصبّ على أرض طخارستان . وهناك كان الفريقان لا يزالان على قدم الحزب ، وكان الإسلام قد صارت له بعض المواقع الحصينة ، ولكن قدمه لم تكن قد رسخت ؛ أما في خراسان الحقيقية فكانت قوى الفريقين قد تعادلت وتكونت من ذلك طريقة في التفاهم (modus vivendi) . وكان العمل الذي نجده لا يزال سائراً فيما وراء النهر قد تم في خراسان الحقيقية ولا نعرف عنه شيئاً ، لأننا ليس لدينا أخبار كافية عن بداية العصر الذي أعقب الفتح الأول . ولكن يمكن الإلمام إلى حد ما بالنتيجة ، أعنى بالأحوال فيما بين سنتي ١٠٠ إلى ١٣٠ هـ (١) .

لم يكن العرب والأعاجم منفصلين في الحياة الظاهرة ، أعنى أنهم لم يكونوا يسكنون منفصلين . وقد بقي في مدن الجيوش العربية مثل نيسابور (أبيورد) ، سرخس ، نيسا ، ومرو ومرو الروذ وهراة سكانها الأصليون ؛ أما القلاع والحصون فقد احتلها الفاتحون بطبيعة الحال . وأيضاً لم يظل العرب متجمعين في نقاط قليلة خاصة بهم ، وهم لم يكونوا يعيشون فقط في المدن التي كانوا قد اختاروها لتكون بمثابة « مستعمرات حربية » ، بل كانت لهم أملاك وضياع وأهل في القرى ، ومنهم

(١) قارن كتاب فان فلوطن Van Vloten : Recherches sur la Domination arabe : Amsterdam , 1894 .

وهو ضمن Verhandelingen der K. Akademie te Amsterdam, Afd. Letterk 1,3 .
أمستردام ، ١٨٩٤ .

من كانوا يقيمون هناك ، خصوصاً في واحة مرو . وكانت مدينة مرو حاضرة لقرى كثيرة ترتبط فيما بينها بنظام رى موحد ، وكان للعرب بطانة وموال من الأعاجم ، كما أنهم تزوجوا نساء أعجميات ، وكان لا بد أن يظهر أثر ذلك في أبنائهم منذ الجيل الثاني . وإنه وإن كانت هجرات العرب المتتالية من العراق إلى خراسان قد زادت من قوة العنصر العربي في بلاد الحجم فإن ذلك لم يصل إلى حد أن يجعل العرب من حيث العدد مكافئين للأعاجم ، وخصوصاً أن الحروب التي لم تنقطع كانت تأكل العرب أكلا فظيماً . وفي بعض الروايات التي ترد بعد حين وآخر : أنه كان خراسان ما يقرب من خمسين ألفاً من مقاتلة العرب . ومع أن نسبة من يقومون بواجب الحرب بين العرب كانت كبيرة ، بحيث كانت تبلغ نصف مجموع الذكور ، فإن مجموع السكان العرب في خراسان لا يمكن أن يكون قد تجاوز المئتي ألف نفس بكثير . وقد تأقلم العرب في وطنهم الجديد ، وكانوا يشعرون أنه لا فرق بينهم وبين أبناء البلاد في الوطن المشترك بينهم ، فكانوا يحسون أنهم خراسانيون ، وكانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهل خراسان (الطبري ج ٢ ص ١٥٣٠) ، وكانوا يشربون النبيذ ويحتفلون بعيد النيروز والمهرجان . . وأخذ أشراف العرب يظهرهم بمظهر المرازبة وأسلوبهم في الحياة ، وكان الاشتراك في الحياة العملية مما دعى إلى التفاهم بين العرب والأعاجم ، حتى كانت الفارسية في الكوفة والبصرة لغة يتكلمها الناس في السوق كما يتكلمون العربية على الأقل . وإذا حكى لنا أن رجلاً مثل أبي الصيداء كان لا يتكلم إلا العربية وأنه لذلك لم يكن يصلح وحده رسولا إلى أهل السغد الذين لم يكونوا يتكلمون سوى الفارسية ، فإن أمر أبي الصيداء يبدو شاذاً . أما في جيش أبي مسلم فكان العرب يتكلمون الفارسية في الغالب (١) .

(١) الطبري ج ٣ ص ٥١ و ٤ و ص ٦٤ و ص ١٨ و ص ٦٥ و ١٤ و ١٦ .

وكذلك لم يقف الأعاجم من جانبهم لزاء العرب في خراسان كتلة واحدة ، ولا هم وقفوا من العرب موقف العداء أو النفور ، ولم يكن تأثير الأعاجم بعملية المزج بين العنصرين أقل من تأثير العرب بها ، وخصوصاً أن الفتح لم يغير أحوال المغلوبين ، وهو لم يزددها سوءاً . وقد أفلح العرب في حماية البلاد من الخارج ، أعنى من غزو الترك ، أحسن مما أفلح في ذلك ملوك الساسانيين^(١) . ولم يتدخل للعرب كثيراً في الأمور الداخلية ، بل تركوا إدارة البلاد في يد المرازبة والدهاقنة . ولم يكونوا يتصلون بالشعب المغلوب إلا من طريق هؤلاء المرازبة والدهاقنة . وأيضاً ظلت السلطات المحلية السابقة في المدن العسكرية العربية وفي حواضر الدولة باقية إلى جانب السلطات العربية ، وكان للسلطات المحلية جباية الخراج بنوع خاص ، وكانت هي المسئولة أمام الفاتحين عن دخوله بيت المال على المقدار الصحيح المتفق عليه ، أما سواد الشعب البائس الذى عليه أن يدفع (*misera contribuens plebs*) فلا شك أنه لم يكن في عهد الساسانيين يدفع من الخراج أقل مما كان يدفع في عهد العرب . هذا إلى أن العرب لم يتدخلوا في المسائل الدينية للأعاجم ، وكان الأساس في المعاهدات التى يقرض فيها دفع إتاوات أن يبقى أهل البلاد على دينهم ، بل كان للأعاجم أن يبقوا على دينهم حتى في المدن التى كان يسكنها العرب ، وإن كان ربما تحتم عليهم أن يخفوا المظاهر الخارجية لاثنية . ولكن يظهر أن الأعاجم لم تكن تربطهم بدين زرادشت رابطة جدية ، وكان أهم ما يعينهم هو الشعائر المصطبغة بصبغة المرح والسرور بالحياة ، وكانت هذه الشعائر تتجلى في أعظم صورها في الاحتفال بعيدى النيروز والمهرجان ، وكان للأعاجم أن يحتفلوا بهذين العيدين حتى بعد دخولهم في الإسلام ، لأن العرب أنفسهم كانوا يشتركون في الاحتفالات الدينية للأعاجم ، ما دامت هذه

(١) ولم يستطع الترك أن يصلوا في غاراتهم إلى مقربة من نيسابور إلا في أثناء الحرب بين قبائل تميم (البلاذرى ص ٤١٤ - ٤١٥) .

الاحتفالات بحالاً للسرور والتسلية . وإذا كان الأعاجم قد أقبلوا في بادئ الأمر على الدخول في الإسلام فإنهم لم يفعلوا ذلك من أجل الإسلام نفسه بمقدار ما فعلوه ابتغاء المزايا التي كان يُمكنهم منها ، فهم قد اتخذوا الإسلام وسيلة للتقرب من الطبقة الحاكمة وللشاركة فيما كان لها من مزايا ، أي هم اتخذوه وسيلة لكي يستعربوا وينالوا ما كان للعرب من حقوق ومزايا ، ثم سموا أنفسهم بأسماء عربية وألحقوا بالقبائل العربية (١) . وقد استطاع بعض أهل الطموح منهم أن ينالوا حظوة عند العرب ، وأن يلعبوا دوراً ذا وجهين في التوسط بين القوميتين العربية والفارسية ، وكانوا يسمون النصحاء ، وأشهرهم سليم ومحيان النبطي .

ونظراً لاستمرار الحروب في تلك الحقبة وتلك البلاد ، فقد كانت أكثر المناسبات ملائمة للدخول في الإسلام ما يتعرض من النهوض بأعباء الحرب في الجيش الإسلامي . وقد اقتدى السادة من العرب بأشراف الأعاجم ، فكانوا يأخذون معهم إلى الميدان حاشية من الغلمان تكون لهم خاصة (وهم الشاكرية) ، وكان هؤلاء الغلمان أيضاً يشتركون في القتال ، وكانوا يقررون مصير المعركة في بعض الأحيان . وإلى جانب ذلك كانت هناك في الجيش العربي فيرق من الأعاجم خاصة على رأسها قواد منهم ، ومن أمثلة ذلك حريث بن قطبة وأخوه ثابت في الحقبة الأولى ، ومحيان النبطي وابنه مقاتل في الحقبة الأخيرة (٢) . فكان الموالي — وهذه هي بوجه عام التسمية التي كانت تطلق على من دخل في الإسلام

(١) قارن البلاذري ص ٤١ : أسلم بعض الملوك وتسموا بأسماء عربية ، على أننا لا نجد في ذلك الوقت مسلمين أعاجم بأسمائهم الأعجمية ، وكثيراً جداً ما نجدهم يستعملون الكنية ، مثل : أبو داود ، أبو عون ، أبو مسلم ، أبو نصر ، وهكذا ، والكنية عند عرب خراسان هي من وجه ما اسم حرب (بالمعنى الحقيقي) راجع الطبري ج ٢ ص ١٢٨٩ س ١٥ و ١٤٣٠ س ٣ و ١٥٩٣ س ١٦ (أبومزاحم) و ١٦٢٧ س ٤ (أبو الموت) و ١٦٣١ س ١٥ وتجد اسماً آخر من أسماء الحرب في ص ١٥٣٨ ص ٧ .

(٢) وإلى جانب ذلك كانت هناك فرق الأمراء التابعين للدولة العربية ، وكان عليها أن يجاربوا إلى جانب العرب ، ولكنهم كانوا في الغالب لا يزالون على وثوقيتهم .

من غير العرب والحق بالقبائل العربية — يحاربون إلى جانب العرب ويحاربون الأعداء القدماء لوطنهم ، وهم الترك ، ولكنهم أيضاً كانوا من أجل الإسلام يحاربون أبناء وطنهم من السغد ، إذا عادى هؤلاء الإسلام وحالفوا الترك . وهكذا تأصل الإسلام في قلوبهم ، بعد أن كانوا في أول الأمر قد اعتنقوه لأسباب خارجية . ولقد كانوا في إسلامهم أكثر إخلاصاً من العرب أنفسهم (١) .

ولكن العرب رغم ذلك لم يكونوا ينظرون إلى الموالى نظرتهم إلى أنفسهم ، فإذا كان الموالى في الجيش فلأنهم كانوا يحاربون مترجلين لا على الخيل ، وكانوا إذا برزوا يُستَظَر إليهم بشيء من الرتبة . وهم وإن كانوا يتقاضون رزقاً ويأخذون نصيباً في الغنيمة فإنهم لم تكن لهم أعطيات ثابتة ، فلم يَكُونُوا مقيدين في الديوان ، أعنى في سجل المقاتلة الذين تُعَرَض لهم الأعطيات . ومع أنهم كانوا قد اندمجوا في القبائل العربية ، فلمهم كانوا يسمون « أهل القرى » تمييزاً لهم عن « أهل القبائل » . ومع أنهم كانوا مسلمين ، فإنهم لم تسقط عنهم الجزية . أما الخراج الذي كان يؤديه كل من يملك أرضاً حتى العرب منهم ، فيظهر أنه على كل حال لم يُحدث من التدمير بين أهل خراسان ما أحدثه بين أهل ما وراء النهر ، لأن هؤلاء لم يدخلوا الإسلام إلا على أمل أن تسقط عنهم الجزية ، ولكن لا شك في أن عدوى التدمير تسربت من أهل السغد إلى أهل خراسان — وقد عمل الخارث ابن سريج وغيره على ذلك .

ولو أن العرب عاملوا من دخل في الإسلام من الأعاجم معاملة المساوين لهم

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٢٩١ من ٩ : لم يرد الأعاجم أن يحاربوا في صفوف العرب إلا إذا كان ذلك لأجل الدين [الحقيقة أن استئجار المؤلف فيه مُعْتَف . وحتى لو فرضنا أن بعض الأعاجم كان أشد تحمساً للدين من بعض العرب فهل كان ذلك لأنهم أعاجم ؟ أما النص الذى يستند إليه المؤلف فهو يتخلص في أنه في أثناء فتنة من الفتن أراد قائد فرقة الموالى في الجيش أن يفتن الفرصة ليناك ولاية بأكلها طول حياته واتفق مع أعداء قواد العرب على ذلك . وقال لمواليه : هؤلاء العرب يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً — المترجم] .

لكان من الممكن أن يتحقق مزج بين الأمتين ، لكن العرب بما صنعوه ربّوا في أحضانهم أعداء لأنفسهم ، حتى كبر هؤلاء الأعداء . ثم إن الإسلام لم يساعد على إزالة الخصومة بين الفريقين ، بل جعلها أشد خطراً (١) ، لأنه أحبي الأعاجم من جديد وشد أزهم ووضع في يدهم سلاحاً على ساداتهم العرب ، وذلك أن إسقاط الدولة العربية لم يأت من أهل ما وراء النهر الذين بقوا على عجمتهم وعلى عدائهم للعرب ، بل جاء من قبل من أسلم من أهل خراسان ، وهم إنما قاموا بمحاربة السيادة العربية مستندين إلى الإسلام ، والإسلام هو الذى جمع كلمتهم وكلمة أولئك العرب الذين كانوا يعارضون حكومة بنى أمية مهتدين بالمبادئ التى يجب أن تقوم عليها الدولة التيقراطية في نظر الإسلام — والعرب هم الذين كانوا أول من أثار الموالى ونظلمهم .

والإسلام الأول يجعل المحافظة على وحدة « الجماعة » ، أعنى على وحدة الأمة الإسلامية ، فوق كل شيء ، وهو أيضاً يدعو إلى شد أزرها بحكومته وإلى طاعتها (٢) ، ولكن بعد أن حادت الحكومة عن المبادئ التى يجب أن تقوم عليها الحكومة التيقراطية جاء الإسلام الثائر فجعل تلك المبادئ أساساً لمحاربة نظام الحكم الذى كان قائماً إذ ذاك ، وجعل يدعو للحرب نصراً لله على بنى أمية وعلى عمالهم ، ونصراً للحق على الطغيان والعسف . أما الخوارج فلا نسمع عنهم في شرق الدولة الإسلامية إلا قليلاً ، ولكن لا شك في أنهم كان لهم من الشأن

(١) [يقصد المؤلف أن الإسلام بما تضمنه من تقرير مبدأ المساواة التامة بين المسلمين ، بصرف النظر عن الجنس أو اللغة ، في جميع الحقوق والواجبات كان هو السند الذى استندت إليه الثورة التى أسقطت الدولة الأموية استناداً إلى أنها لم تراع مبدأ المساواة بين المسلمين — المترجم] .
(٢) [يأمر الإسلام بالتمسك بالوحدة في الجماعة الإسلامية وينهى عن الفرقة والشقاق ، كما أنه يأمر بطاعة ولي الأمر أياً كان ، ما دام يحكم بالحق والعدل ، وينفذ أحكام الدين . ولكن الإسلام لا يقر الخضوع للظلم ، ولا يقر الحكومة الظالمة ، وقد دخل هذا في مبادئ الفرق السياسية والدينية — المترجم] .

هناك أكثر مما يمكننا أن تأخذه من الأخبار القليلة التي تذكر عنهم . وليس من الممكن أن ينشأ شيبان بن سلمة الحروري وأتباعه الكثيرون من الأرض فجأة ، على ما بدا عليه ظهورهم في خراسان . ولكن المرجئة كانوا من غير شك أكبر شأنًا من الخوارج [في ذلك الوقت وفي تلك الجهة من الدولة الإسلامية] ، وقد تدخلوا بقيادة الحارث بن سريج في تاريخ تلك الحقبة تدخلًا كان له أثره الكبير . وكل من الخوارج والمرجئة قد استنكروا ، من حيث المبدأ ، كل تمييز للعرب على الموالى المسلمين . ولكن كلاً من الخوارج والمرجئة تراجعوا آخر الأمر إلى الحل الثاني تماماً أمام الشيعة الذين كانوا قد انتشروا في خراسان في وقت مبكر ، ثم جاءوا بالعمل الحاسم في إسقاط الدولة العربية .

وكان مقر الشيعة في العراق ، شأنها شأن الأحزاب التي كانت تتخذ من الدين سنداً لمقاومة حكومة بني أمية ، على أن فتح شرق بلاد العجم كان من جهة العراق ، ومن العراق كانت قبائل العرب لا تزال تهاجر إلى بلاد العجم . ثم ظل الاتصال بين العراق وبلاد العجم قويا على الدوام ، وكان لا يزال يأتي من جهة العراق سيل القبائل العربية إلى أرض النهر ، ولم يكن هؤلاء المهاجرون أهدأ العرب نفوساً . ويظهر أن أمراء الأمويين في العراق ، ولا سيما زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، أرادوا أن يصرفوا العناصر الخطرة عن الكوفة والبصرة فيوجهوها إلى خراسان ويستنفدوا توّنها وطاقتها على العمل في جهاد المشركين ويتخلصوا بذلك من شرها . ومما له مغزاه أن الحجاج كان حريصاً على إبعاد جنود الشام عن بلاد الأعاجم لكيلا تنتقل إليهم عدوى روح الشر . أما بدايات ظهور الشيعة في خراسان فليس عندنا عنها روايات دقيقة ، وهذا طبيعي . ويبدو كأنما كانت بدور مبادئهم تطير في الهواء وتنتشر من تلقاء نفسها ؛ أما إلى أي حد كانت أهواء الناس مع الشيعة في خراسان فهذا ما يمكن أن يتبينه الإنسان من أن زياد بن علي لما أخفق في محاولته الثورة في الكوفة أشار البعض

على ابنه يحيى بأن يخرج إلى خراسان . وقد عمل يحيى بهذه المشورة ، وهو وإن كان قد قُتل وهو يقاتل ضد الدولة ، فإن استشهاده أثار سخطاً عند الجميع ، حتى يروى أن كل الصبيان الذين ولدوا في خراسان في تلك السنة سُمِّوا باسمه (المسعودى ج ٦ ص ٣) . وإذا كان أبو مسلم قد ظهر بمظهر المطالب بثأر يحيى فإنه كان لا شك يعلم تأثير ذلك في النفوس ، وهو بذلك ضرب نعمة وجدت صدئى عند الجميع (الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٥ و ج ٣ ص ٥٠٦ فما بعدها) ، وأيضاً كان عبد الله بن معاوية بن جعفر يعتقد أنه إذا خرج إلى خراسان فهو مصيب مكاناً أميناً ، ولكن أخطأ ظنه في أبى مسلم ، لأن أبى مسلم لم يكن عنده مكان لعلوى حتى أكثر مما كان عنده لعلوى ميت ، فدس على بن معاوية من قضى عليه سراً . ولكن ابن معاوية أيضاً ظل يعتبر في خراسان شهيداً يقدره الناس زماناً طويلاً ، وكان قبره هناك يزار كثيراً .

ولو أن العرب في خراسان اتحدوا فيما بينهم وشدوا أزر الحكومة لما استطاع الشيعة بطبيعة الحال أن يندسوا في الفجوات التى أوجدها الشقاق . ولكن كما أن العرب لم يريدوا أن يقاسموا الموالى السلطان فإنهم أيضاً لم يستمتع بعضهم به بعضاً . وكانت المناصب والمغانم التى كانت فى يد الدولة تمنحها وتمنعها موضوعاً وسبباً للتحاسد الشديد بين القبائل ، وظلت العصبية داء العرب الباقى على الزمان ، حتى إذا بدأ يتزلزل عرش بنى أمية آخر الأمر اشتدت العصبية اشتداداً مروعاً ، كما رأينا . وقد استغل الشيعة — بالمعنى الخاص للكلمة — هذا الموقف ، وكان العباسيون قد اتحدوا معهم منذ أن انفصلوا عن العلويين وخرجوا من المدينة إلى الحُمَيْمِيَّة في الأرض الجبلية (أرض الشراة) الواقعة بين جزيرة العرب وبين الشام ^(١) ، حيث لا يمكن أن ينافسهم العلويون .

(١) يرجع نسب العباسيين إلى عبد الله بن عباس ، المحدث الورع ، ابن عم النبى عليه السلام وابن عم على بن أبى طالب رضى الله عنه . وبعد أن قتل على وصالح ابن عباس معاوية =

وكان الشيعة فرقتين كبيرتين ، وإن كان التمييز بينهما لم يكن دائماً تمييزاً دقيقاً : فرقة معتدلة لا تختلف عن سائر المسلمين إلا في المبدأ السياسي القائل بأن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي عليه السلام ، وفرقة متطرفة لها مذهبها الخاص في العقائد ، وهو مذهب غريب تماماً عن الإسلام الأول . وقد سمي الشيعة الغلاة بأسماء مختلفة ، ولكنها لا تدل إلا على فوارق قليلة الشأن . ففي أول الأمر سُموا السبئية ، وفي رأى سيف بن عمر أن هؤلاء السبئية كانوا من أول الأمر أصل الشر والبلاء كله في تاريخ الدولة الإسلامية ، وهم قتلة عثمان وفتحوا باب الفتنة والحرب الأهلية ، ومؤسسو حزب الخوارج الثائرين ، وهم السبب في قتل المسلمين بعضهم بعضاً ، والحقيقة أن السبئية لم يصبح لهم شأنهم التاريخي إلا على يد المختار الثقفي ، وإن كانوا قد كانوا موجودين قبل ذلك^(١) ، وكان موطنهم الكوفة وسوادها ، ولم يكونوا من العرب فحسب بل كان معظمهم من الموالي ، وكانوا يؤمنون بما ذهب إليه ابن سبأ من الرجعة ، أعني رجعة الأرواح في أجساد مختلفة — وخصوصاً رجعة روح النبي عليه السلام في أبنائه . وهذه النقطة الثلاثة هي النقاط الجوهرية التي تميزهم . أما أشرف العلويين ، أعني أبناء السيدة فاطمة بنت النبي عليه السلام ، فإنهم لم يخرجوا عن أصول الإسلام

== نزل على علاقة طيبة مع الأمويين ولم يكن يعمل ضدهم إلا خفية . فلما جاء ابنه علي بن عبد الله بعده ، وكان مثله في الورع وكان يلقب بالسجاد أو بنى الثغفات ، لم يفعل غير ما فعله أبوه . وفي عهد عبد الملك بن مروان انتقل إلى دمشق . ولكن الوليد بن عبد الملك ، بعد أن مات عبد الملك أساء به ، فانتقل في سنة ٩٥ هـ مكرهاً كما يروى ، وسكن الحميمة عند أذرح على طريق الحن الآلى من الشام ، ومات وهو شيخ كبير في سنة ١١٨ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٥٩٢) . وكان لابنه محمد بن علي شأن أكبر منه بكثير ، حتى وهو على قيده الحياة ، فظهر أولاً بدعوى إمامة الشيعة ، وكان هو مؤسس الدعوة العباسية السرية ، وجعلها تعمل من أجله في الكوفة وخراسان ، في حين أنه لم يترك مكانه في الحميمة ، ومات في ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ (الطبرى ج ٢ ص ١٧٦٩) ، وبعد وفاته جاء ابنه إبراهيم بن محمد إماماً ثانياً للعباسيين . وقد ولد إبراهيم هذا في سنة ٨٢ هـ .

(١) راجع فيما يتعلق بالمختار ما قلته عن الشيعة في كتابي ، ص ٧٤ فابعدا .

الأول ولا عن أصول العروبة ، ولذلك نبذوا السبئية فتمسك هؤلاء السبئية بأحد أبناء علي من زوجة أخرى له ، وهو يسمى محمد بن الحنفية باسم أمه . فلم يعترض هذا على أن اتخذ السبئية بمثابة الصنم الذي كانوا يحتاجون إليه في مذهبهم ، ولم يكن هناك بأس من أن يتوارى ابن الحنفية دون أن يفعل شيئاً ، لأنه حتى لو كان ميتاً لما كانت فائدته أقل منه حياً . ولقد قيل حيناً من الدهر إنه لم يموت ، بل كان لا يزال حياً غائباً في جبل رضوى عند المدينة ، مستعداً للظهور في الوقت المناسب . ولكن صار ابنه أبو هاشم عبد الله هو الإمام ، ولم يكن شأنه من حيث وراثة الإمامة أكبر من شأن أبيه . ولم يجد غلاة الشيعة الكوفيين ما كانوا يريدونه عند زيد بن علي ابن الحسين : على أن أبا هاشم انتقل إلى الحميمة وأقام بها واتصل هناك بالعباسيين^(١) ، ويروى أنه لما مات سنة ٩٨ هـ أوصى وصية صريحة بأن تكون الإمامة لمحمد بن عبد الله بن العباس .

وقد نبه فان فلوتن (van Vloten) على أهمية هذه الرواية الأخيرة تنبيهاً شديداً^(٢) ، ومهما يكن من شيء فالراجح أنها في صورتها هذه مختلعة^(٣) ، ولكن اختراعها كان منذ زمن مبكر ، لأن لها شواهد قوية^(٤) ، ولولا ذلك لحذر العباسيون فيما بعد من أن يقيموا حقهم على مثل ذلك الأساس . وهذه

(١) ربما كان هناك قبل العباسيين وانضموا إليه (٩٥ هـ) ولم يكن هو الذي انضم إليهم .

(٢) راجع كتاب فان فلوتن Opkomst der Abbasiden ، ليدن ١٨٩٠ ص ١٨ فابعداها ص ١٤٨ .

(٣) جاء في الشهرستاني (ص ١١٢ س ١٩) أن أبا هاشم ، في رأى بعض فرق الهاشمية ، أوصى الآخرين منهم عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي .

(٤) انظر رواية المدائني عند الطبري (ج ٣ ص ٢٤) ، ورواية ابن سعد في Wüstenfeld Register ص ١٩ و ١٣٠ . وعند فان فلوتن في كتابه Opkomst ص ١٤٨ .

الرواية تتضمن أيضاً قدرأ من الحق ، فقد كان أبو هاشم في الواقع سلفاً لمحمد ابن علي ، وإن كان يجوز أنه لم يعينه خليفة له تعييناً حقيقياً . وقد كان لأبي هاشم حزبه الخاص ، وكان أتباعه يسمون الهاشمية^(١) ، وهم بعد أن مات أبو هاشم قد صاروا إلى محمد بن علي (الطبري ج ٢ ص ٢٥٠٠) وبحسب ما جاء في الطبري (ج ٢ ص ١٥٨٩) كان على رأسهم خلدش ، وهو من أكر دعاة الشيعة نجاحاً ، وكان في أول الأمر يدعو إلى محمد بن علي . وعلى هذا ففي خبر تلك الوصية شيء من الحق : فالعباسيون والوا أبا هاشم لكي يضموا الهاشمية إلى دعوتهم .

وفي هذا ما يدل على الصلة بين العباسيين وبين السبئية أصحاب المختار ، ذلك أنه من بين أصحاب ابن الحنفية ظهر أصحاب ابنه وهم الهاشمية . ولم يقتص على السبئية في الكوفة بقتل المختار ، بل هم بقوا بين الطبقات الدنيا للشعب . والآراء التي كان يكتسها الهاشمية ، كما يذكرها الشهرستاني ، لا تختلف عن آراء ابن سبأ في شيء . وتآمر العباسيين يشبه تآمر السبئية كما يصفه سيف^(٢) شهاً تاماً ، وكان مقر العباسيين في الكوفة أيضاً ، ومن هناك كانوا ينشرون دعوتهم في خراسان ، وفي كلا الدعوتين : دعوة الهاشمية ودعوة العباسيين ، استندت الحركة إلى الموالي من الأعاجم وصارت موجهة إلى محاربة العروبة باسم الإسلام . وإذن فالشبه بين الدعوتين يشمل كل النقط الهامة ، فيشمل الآراء وطريقة الدعوة ومقرها والحزب الذي كونه . ويستطيع الإنسان أن يزيد على ذلك نقطتين من حيث التفاصيل : كانت العمدة الخشبية هي السلاح الوطني عند أهل الطبقة الدنيا من سكان بلاد

(١) راجع الشهرستاني ص ١١٢ فما بعدها ، أما عند الطبري فلا يرد اسم الهاشمية على أنه تسمية واضحة لفرقة إلا في ج ٢ ص ١٥٨٩ و ١٩٨٧ و ١٩٨٩ . أما في العادة فيستعمل اسم الهاشمية مشتقاً من هاشم لا من أبي هاشم ، ويقصد منه ما يقصد من قول الهاشمين ، ويجوز أن العباسيين لم يكرهوا هذا المعنى المزدوج لكلمة الهاشمية . وهاشميات في شعر الكيت قصائد عن أبناء فاطمة .

(٢) راجع كتابنا ... Skizzen ، قم ٦ ص ١٢٤ ، والكتب اليهودية الأولى في الملاحم تلعب دوراً في الحاليين .

العجم ، وقد سميت هذه العملة باسم كفر كوبات عند خشبية المختار ، فكانت هذه التسمية عندهم سابقة لتسميتها عند خشبية أبي مسلم^(١) . وكان أقدم أتباع المختار هم الموالى الذين كانوا في ضيعته في قرية الخطرنية من سواد الكوفة ، وبحسب ما جاء في الطبرى (ج ٢ ص ١٩٦٠) أن أبا مسلم كان من أهل الخطرنية (راجع المسعودى ج ٢ ص ٥٩) . وإذا شك الإنسان في صحة هاتين الروايتين فإن ذلك لا يفقد هما شأنهما ، لأن الاختراع هو الذى بعث عليهما ، ونحن يكفيننا الباعث . أما إذا كان العباسيون بعد أن كانوا قد ارتفعوا على أكتاف الشيعة تنكروا لهم ونبلوهم (ج ٣ ص ٢٩ س ١٧) فليس ذلك عجباً ، لأنهم تضايقوا منهم ، وكان على الشيعة أن ينصرفوا بعد أن أدوا مههمتهم .

يدل هذا كله على وجود علاقة وثيقة بين ثورة المختار التى أشتقت وثورة أبي مسلم التى نجحت . وبالرغم من أن نار الثورة التى قامت في ٦٧ هـ قد أطفأتها الدماء فيما يظهر ، فإنها ظلت تومض تحت الرماد ، وانتقام من الكوفة إلى خراسان . وكانت أرض خراسان أكثر ملاءمة ، لأن الموالى كانوا فيها أكثر تماسكاً ، وكان العرب بالنسبة لهم أقل مما كانوا في الكوفة بكثير . ولقد كان المختار رجلاً من أكبر شخصيات التاريخ الإسلامى ، وقد توقع ما يحدث في المستقبل . وإذا صححت نظرية الرجعة فإن روح العربى الذى ثار في قرية الخطرنية قد رجعت في أبي مسلم ، أحد موالى هذه القرية .

٢ - وفي سنة ١٠٠ هـ ووجه^(٢) محمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو بأرض الشراة ميسرة إلى العراق ، ووجه محمد بن خنيس وأبا بكرمة السراج الذى يسمى أيضاً أبا محمد الصادق ، وحيثان العطار خال إبراهيم بن سامة ، وكلهم من أهل

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٢) الوجه بحسب الطبرى (ج ٢ ص ١٣٥٨) هو محمد نفسه ، ولكن بحسب

(ج ٢ ص ١٤٣٤) الذى وجه في الحقيقة ميسرة — [قارن الطبرى ج ٢

ص ١٩٨٨ — المترجم] .

الكوفة ، إلى خراسان ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته . فلقوا من لقوا ، ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم ، فدفعوا الكتب إلى ميسرة ، فبعث بها إلى محمد بن علي . واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر نقيباً ، واختار سبعين رجلاً غيرهم (من أهل خراسان) ، وأعطاهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثلاً وسيرة يسيرون بها . وهذا ما يحكيه الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٨) ، ولكن كون ذلك في سنة ١٠٠ هـ ، كما يقول الطبري (ج ٣ ص ٢٤) وكذلك ذكر أن عدد النقباء كان اثني عشر وأن عدد التابعين لهم كان سبعين رجلاً ، كل ذلك يثير الشك^(١) . والروايات المذكورة في حوادث السنوات التالية تتضافر على إثبات أن أمر الدعوة لم يكن بدون تنظيم ، ومعظم الروايات غير مؤسّدة لأصحابها ، ولا يذكر المدائني أسماء الرواة إلا في ثلاث روايات ، وها أنا ذاكر ما تضمنته :

الطبري ٢ ص ١٤٣٤ (في أحداث سنة ١٠٢ هـ) : وجه ميسرة رساله من العراق إلى خراسان ، وظهر أمر الدعوة بها ، فجاء رجل من بني تميم إلى سعيد خديجة ، أمير خراسان من قبيل يزيد بن عبد الملك ، فقال له : ها هنا قوم قد ظهر منهم كلام قبيح ، فبعث إليهم سعيد ، فأتى بهم ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : لا ندري ، قال : جئتم دعاة ؟ فقالوا : إن لنا في أنفسنا وفي تجارتنا شغلاً عن هذا . فسأل سعيد : من يعرف هؤلاء ؟ فجاء أناس من أهل خراسان جلّهم من ربيعة

(١) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٩٨٨ ، أرسل محمد بن علي في سنة ١٠٢ أو ١٠٣ هـ رسوله (في صيغة المفرد) إلى خراسان . وبعد أن استجاب له سبعون رجلاً أخذ منهم اثني عشر نقيباً ، وتختلف أسماء هؤلاء النقباء في هذا الموضع من كتاب الطبري عنها في الموضع الآخر (ج ٢ ص ١٣٥٨) وفي أسماء بعضهم اختلاف أيضاً ، هذا إلى أن ترتيب ذكر الأسماء ليس واحداً ، ويجوز أن يكون ما جاء في كتب الملاحم اليهودية من ذكر رقم المائة قد لعب دوراً . [عند الطبري ، في الموضع الذي يشير إليه المؤلف من نهج أن إرسال الرسول كان في سنة ١٠٣ أو ١٠٤ هـ - المترجم] .

والذين ، فقالوا : نحن نعرفهم ، وهم علينا ، إن أتاك منهم شيء تكرهه ،
فخلى سعيد سبيلهم .

الطبري ج ٢ ص ١٤٦٧ (في أحداث سنة ١٠٥ هـ) قدم بكير بن ماهان
من السند ، وكان بها مع الجعيد بن عبد الرحمن ترجماً له^(١) ، فلما عزّل
الجعيد بن عبد الرحمن قدم الكوفة ومعه أربع لبيئات من فضة ولينة من
ذهب ، فلقى أبا عكرمة الصادق وميسرة ومحمد بن خنيس وسالماً الأعين
وأبا يحيى مولى بني سلمة ، فذكروا له أمر دعوة بني هاشم ، فقبل ذلك ورضيه
وأنفق ما معه عليهم ، ودخل إلى محمد بن علي . ومات ميسرة ، فوجه محمد
ابن علي بكير بن ماهان إلى العراق مكان ميسرة ، فأقامه مقامه .

الطبري ج ٢ ص ١٤٨٨ (في أحداث سنة ١٠٧ هـ) وجه بكير بن ماهان
أبا عكرمة وأبا محمد الصادق^(٢) ومحمد بن خنيس وعماراً العبادي ، في عدة
من شيعتهم ، معهم زياد خال الوليد الأزرق ، دعاة إلى خراسان ، فجاء
رجل من كندة إلى أسد بن عبد الله ، فوشى بهم إليه ، فأتى بأبي عكرمة
ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه ، ونجا عمار ، فقطع أسد أيدي من ظفر به
منهم وأرجلهم ، وصلبهم . فأقبل عمار إلى بكير بن ماهان ، فأخبره الخبر ،
فكتب به إلى محمد بن علي ، فأجابه : « الحمد لله الذي صدق مقاتلكم
ودعوتكم ، وقد بقيت منكم قتلى منتقل » .

الطبري ج ٢ ص ١٤٩٢ : نجد هنا نفس الرواية المذكورة في أحداث
سنة ١٠٧ هـ المذكورة في أحداث سنة ١٠٨ هـ ، ولكن مع فرق : هو أن أسد
ابن عبد الله أخذ عماراً فقطع يديه ورجليه ، ونجا أصحابه وأخبروا بكير بن ماهان

(١) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ من ١٠ كان بكير كاتباً لبعض عمال السند .

(٢) بحسب الطبري ج ٢ ص ١٣٥٨ من ٤ و ص ٤٦٧ من ٧ : أبو عكرمة
هو أبو محمد .

بالخير ، فكتب به إلى محمد بن علي ، فأجاب محمد بن علي : الحمد لله الذي صدق دعوتكم ونجى شيعتكم .

الطبرى ج ٢ ص ١٥٠١ — ١٥٠٣ (في أحداث سنة ١٠٩ هـ) ، رواية المدائني : أول من قدم خراسان من دعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى همدان ، في ولاية أسد بن عبد الله الأولى ، بعثه محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس وقال له : أدعُ الناس إلينا ، وانزل في اليمن ، والطف بمُضَترٍّ ؛ ونهاه عن رجل من أبرشهر (نيسابور) يُسمَّى له غالب ، لأنه كان مفراطاً في حب بني فاطمة . ويقال : أول من جاء أهل خراسان بكتاب محمد بن علي ، حربُ بن عثمان مولى بني قيس بن ثعلبة ؛ من أهل بلخ ، قال : فلما قدم زياد أبو محمد دعى إلى بني العباس وذكر سيرة بني مروان وظالمهم وجعل يطعم الناس الطعام ، فقدم عليه غالب من أبرشهر ، فكانت بينهم منازعة : غالبٌ يُفضل آل أبي طالب ، وزيادٌ يفضل بني العباس ؛ ففارقه غالب ، وأقام زياد بمرو شتوةً ، وكان يختلف إليه من أهل مرو يحيى بن عقيل الخزاعي وإبراهيم بن الخطَّاب العدوي . . . وكان على خراج مرو الحسن بن شيخ ، فبلغه أمره ، فأخبر به أسد بن عبد الله ، فدعا به وكان معه رجل يكنى أبا موسى ، فلما نظر إليه أسد قال له : أعرفك ؟ قال : نعم ، قال له أسد : رأيتك في حانوت بدمشق ، قال : نعم ، قال أسد لزياد : فما هذا الذي بلغني عنك ؟ قال رُفِعَ إليك الباطل ، إنما قدمت خراسان في تجارة ، وقد فرقت مالي على الناس ، فإذا صار إلى خرجتُ ، قال له أسد : اخرج عن بلادى ! فانصرف فعاد إلى أمره ، فعاد الحسنُ أسداً وعظَّم عليه أمره ، فأرسل إليه ، فلما نظر إليه قال : ألم أنهك عن المقام بخراسان ؟ قال : ليس عليك أمها الأمر منى بأس ، فأحفظ ذلك أشداً ، وأمر بقتلهم ، فقال له أبو موسى : فاقض ما أنت قاض ! فازداد أسد غضباً ، وقال له : أنزلتني منزلة فرعون ! فقال له : ما أنزلتك ، ولكن الله أنزلك ! فقتلوا وكانوا عشرة من أهل الكوفة ، فلم ينج منهم يومئذ إلا غلامان استصغرها . . .

وقال آخرون : عرض عليهم أسد البراءة ، فن تبرأ منهم مما رُفِع عليه خلتى سبيله ؛ فأبى البراءة ثمانية منهم ، وتبرأ اثنان ؛ فلما كان الغد أقبل أحدهما ، وأسد في مجلسه المشرف على السوق بالمدينة العتيقة ، فقال : أليس هذا أسيرنا بالأمس ؟ فأتاه ، فقال له : أسألك أن تلحقنى بأصحابى ! فأشرفوا به على السوق ، وهو يقول : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه نبياً ؛ فدعا أسد بسيف بخار اخذاه ، فضرب عنقه بيده ، قبل الأضحى بأربعة أيام . ثم قدم بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيراً ، فنزل على أبى النجم ، فكان يأتيه الذين لقوا زياداً ، فيحدثهم ويدعوهم ، فكان ذلك سنة أو سنتين ، وكان أميناً ، فقدم عليه خدش ، وهو في قرية تدعى مرعم ، فغلب كثيراً على أمره ؛ ويقال كان اسمه عمارة^(١) ، فسمى خدشاً لأنه خدش الدين^(٢)

الطبرى ج ٢ ص ١٥٦٠ (في أحداث سنة ١١٣ هـ) : سار من دعاة بنى العباس جماعة إلى خراسان ، فأخذ الجنيد بن عبد الرحمن رجلاً منهم فقتله ، وقال : من أصيب منهم فدمه هدر .
الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٦ فما بعدها (في أحداث سنة ١١٧) : أخذ أسد ابن عبد الله جماعة من دعاة بنى العباس بخراسان ، فقتل بعضهم ومثّل ببعضهم . وجلس بعضهم ، وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى ابن كعب ولاهز بن قريظ (من تميم) وخالد بن إبراهيم (من بكر) وطلحة بن زريق ، فأبى بهم ، فقال لهم : ألم يقل الله تعالى : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه » ، والله عزيز ذو انتقام ؟ فلم يكر أن

(١) بحسب الطبرى ج ٢ ص ١٥٨٨ س ٩ اسمه عمار بن يزيد ، أما خدش فهو يسمون في العادة خدشاً ، لا خدشاً ، ولو أن اسمه كان خدشاً لزم استعمال الأداة مع الاسم فقول الخدش [هذا ما يقوله المؤلف ، ولكن يسمى خدشاً بهذا الاسم لأنه خدش الدين . — نقله عن الطبرى ج ٢ ص ١٥٠٣ س ١٠ - ١١ - المترجم] .

(٢) زدنا في بعض النصوص التي يذكرها المؤلف مستنديين إلى الأصل - المترجم] -

سليمان بن كشير قال : أتكلّم أم أسكت ؟ قال : بل تكلم ! قال : نحن والله كما قال الشاعر :

لو بغير الماء حلّقتي شرق* كنت كالغصّان بالماء اعتصاري
تدري ما قصتنا ؟ صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير ، إنا أناس من قومك ، وإن هذه المضّربة إنما رفعوا إليك هذا لأننا كنا أشد الناس على قتيبة ابن مسلم ، وإنما طلبوا بثأرهم : فتكلم ابن شريك بن الصامت الباهلي ، وقال : إن هؤلاء القوم قد أخذوا مرة بعد مرة ، فقال مالك بن الهيثم : أصلح الله الأمير ! ينبغي لك أن تعتبر كلام هذا بغيره ، فقال : كأنك يا أخا باهلة تطالبنا بثأر قتيبة ، نحن والله كنا أشد الناس عليه : فبعث بهم أسدا إلى الجبلين ، ثم استشار في أمرهم ، وانتهى الأمر بأن أطلق أسد من كان منهم من خزاعة وبكر وعاقب من كان منهم من تميم . أما موسى بن كعب فأمر به فألجم بلجام حمار ، وأمر يجذب اللجام حتى تحطمت أسنان موسى . ثم عاد بلاهز بن قريظ ، فاحتج لاهز على ترك الخزاعيين والبكرين ، فأمر أسد بضربه ثلاثمائة سوط ، ثم قال : اصلبوه ، فدخل رجل من الأزدي سبيّا تخلية سبيل لاهز والآخرين^(١) .

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٨ (في أحداث ١١٨ هـ) : وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى خراسان والياً على شيعة بني العباس ، فنزل مرو وغير اسمه ، وتسمي بخند آش ، ودعا إلى محمد بن علي ، فسارع إليه الناس ، وقبلوا ما جاءهم به ، وسمعوا إليه وأطاعوا . ثم غير ما دعاهم إليه وتكذب وأظهر دين الخوارج ودعا إليه ، ورنحّص لبعضهم في نساء بعض ، وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن علي ، فبلغ أسد بن عبد الله خبره ، فوضع عليه العيون حتى ظفّره ، فسأله عن حاله .

(١) لم يكن يستطيع أن يقتل عرب خراسان ، كما فعل مع الموالي .

فأغلاظ خيداش له القول ، فأمر به أسد ففقطعت يده ، ونخلع لسانه ،
وسمّلت عينه .

الطبري ج ٢ ص ١٥٨٩ : رواية المدائني : لما قدم أسد آمل في سنة
١١٨ هـ أتوه بخداش صاحب الهاشمية ، فأمر به قرعة الطبيب ، ففقطع لسانه
وسمل عينه ، ثم دفعه إلى عامل آمل ، فقتله وصلبه .

الطبري ج ٢ ص ١٦٣٩ فما بعدها (في أحداث سنة ١٢٠ هـ) :
وجهت شيعة بني العباس بخراسان سليمان بن كثير إلى محمد بن علي
ابن العباس ليعلمه أمرهم وما هم عليه ، وكان السبب في ذلك أن محمد بن علي
ابن العباس كان واجداً على من كان بخراسان من شيعته من أجل طاعتهم
لخدّاش وقبولهم منه ما روى عن محمد من الكذب ، فترك مكاتبهم : فلما
أبطأ عليهم اجتمعوا فذكروا ذلك بينهم ، فأجمعوا على الرضا بسليمان بن كثير
للبقاء بأمرهم ويخبره عنهم ويرجع إليهم بما يردّ عليه . فقدم سليمان بن كثير
على محمد بن علي ، وهو متنكر لمن بخراسان من شيعته ، فأخبره عنهم ،
فغضبهم في اتباعهم خدّاشاً وما كان دعا إليه وقال : لعن الله خدّاشاً ومن
كان على دينه . ثم صرف سليمان إلى خراسان وكتب إليهم معه كتاباً ،
فقدم عليهم ومعه الكتاب مختوماً ، ففحصوا خاتمه فلم يجدوا فيه شيئاً إلا :
بسم الله الرحمن الرحيم ، فغلظ ذلك عليهم ، وعلموا أن ما أبلغهم خدّاش عن
محمد بن علي كان عن غير أمر محمد . وبعد ذلك وجه محمد بن علي بكير
ابن ماهان إلى شيعته بخراسان بعد انصراف سليمان بن كثير من عنده إليهم ،
وكتب معه كتاباً إليهم يعلمهم أن خدّاشاً حمل شيعته على غير منهاجه ، فلما
قدم بكير بالكتاب لم يصدقوه واستخفّوا به ، فرجع بكير إلى محمد بن علي
فبعث معه بعضي مضبّبة ، بعضها بالحديد وبعضها بالشبه ، فقدم بها بكير وجمع

التقباء والشيعية ودفع إلى كل رجل منهم عصاً ؛ فعلموا^(١) أنهم مخالفون لسيرته ، فرجعوا وتابوا .

الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ (في أحداث سنة ١٢٤ هـ) ، رواية المدائني :
قدم جماعة من شيعة بنى العباس ، من خراسان ، الكوفة ، وهم يريدون مكة ، وكان معهم بكير بن ماهان ، وكانوا يجتمعون في الكوفة في دار ، فتعصّب بهم فأخذوا ، فحبس رئيسهم بكير بن ماهان ، وكان في الحبس يونس أبو عاصم وعيسى بن معقل العجلي ، وكان مع عيسى أبو مسلم يخدمه ؛ فدعاهم بكير ، فأجابوه إلى رأيه . وسأل بكير عيسى عن الغلام الذي معه ، فقال إنه مملوك له ، ثم اشتراه بكير بأربعائة درهم . ثم خرجوا ، فبعث ابن ماهان بأبي مسلم إلى إبراهيم بن محمد بن علي فدفعه هذا إلى موسى السراج ، فسمع منه وحفظه ، ثم صار إلى أن اختلف إلى خراسان^(٢) .

ولنذكر إلى جانب ما تقدم رواية أخرى جاءت عند الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ فما بعدها وص ١٧٦٩ : وقال غير المدائني : توجه سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب ، وكانوا تقباء شيعة بنى العباس في خراسان ، وهم يريدون مكة في سنة ١٢٤ هـ ، فلما دخلوا الكوفة أتوا عاصم بن يونس العجلي ، وهو في الحبس قد اتهم بالدعاء إلى ولد العباس ، ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل — حبسهما يوسف بن عمر فيمن حبس من عمال خالد بن عبد الله القسري — ومعهما أبو مسلم يخدمهما ، فأروا فيه العلامات فقالوا : من هذا ؟ قالوا : « غلام معنا من السرايين » . وقد كان أبو مسلم يسمع عيسى وإدريس يتكلمان في هذا

(١) لابد أنهم فهموا معنى المصى أحسن مما أفهمه أنا ، ولا يمكن أن تكون المصى مجرد علامة تفويض لابن ماهان .

(٢) فيما يتعلق بالمعبرة التي ليست واضحة تماماً عند الطبري ج ٢ ص ١٧٢٦ ص ١٧ قارن

بقية الرواية ج ٢ ص ١٩٤٩ ص ١٤

الأمر ، فإذا سمعهما بكى ، فلما رأوا ذلك منه دعوه إلى ما هم عليه ، فأجاب
وقبل : وقدم القوم مكة^(١) ، فلقوا ، في قول بعض أهل السير ، محمد
ابن علي ، فأخبروه بقصة أبي مسلم وما رأوا منه ، فسألهم : أحر هو أم
عبد ؟ قالوا : أما عيسى فيزعم أنه عبد ، وأما هو فيزعم أنه حر ، قال :
فاشتروه وأعتقوه . وأعطوا محمد بن علي مائتي ألف درهم وكسب بثلاثين
ألف درهم ، وقال : ما أظنكم تلقوني بعد عامي هذا ، فإن حدثت بي
حدث فصاحبكم إبراهيم بن محمد (ابنه) ، فإني أثق به ، وأوصيكم به
خبراً ، فقد أوصيته بكم ، فصددوا من عنده ، وتوفي محمد بن علي في
مستهل ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ وهو ابن ثلاث وسنين سنة . وكان بين وفاته
وبين وفاة أبيه على سبع سنين .

الطبري ج ٢ ص ١٨٦٩ (في أحداث سنة ١٢٦ هـ) : وجه إبراهيم
ابن محمد الإمام أبا هاشم بكير بن ماهان إلى خراسان ، وبعث معه بالسيرة
والوصية ، فقدم مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة ، فنعى لهم الإمام
محمد بن علي ودعاهم إلى إبراهيم ودفع إليهم كتاب إبراهيم فقبلوه . ودفعوا
إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة ، فقدم بها بكير على إبراهيم
ابن محمد .

الطبري ج ٢ ص ١٩١٦ فما بعدها (في أحداث سنة ١٢٧ هـ) : كتب بكير
ابن ماهان إلى إبراهيم بن محمد يخبره أنه في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم
من أيام الدنيا ، وأنه قد استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان بن الخلال مولى
السهبي ، وهو رضى للأمر ، وكتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بأمر
أصحابه ، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند الأمر إليه . ومضى أبو سلمة
إلى خراسان فصدقه وقبلوا أمره ، ودفعوا إليه ما اجتمع قبيلهم من نفقات الشيعة

(١) في آخر سنة ١٢٤ هـ ، وإذا كان الطبري يذكر ذلك في أخبار سنة ١٢٥ هـ
فليس لذلك كبير شأن ، لأن الحج يقع في نهاية العام وأول العام الذي يليه .

ونخمس أموالهم ، وكان يلقب : « وزير آل محمد » (الطبرى ج ٣
ص ٢٠ و ٦٠) .

في كل هذه الروايات نجد أن الكوفة مهد دعوة العباسيين ومركزها ،
وفي الكوفة كان نواب الإمام الغائب وخلفاؤه ، وهم ميسرة وابن ماهان
وأبو سلمة ، وكان بالكوفة أيضاً عدتهم وأعوانهم ، وكلهم موال ومن
أمة الأعاجم ، ومهنتهم التجارة والصناعة . ولا شك أنه قد كان هناك
عرب في شيعة بنى العباس ، لكنهم لم تكن لهم الرياسة ، وكانت الدعوة تنشر
في خراسان ، أعنى في مرو آتية من الكوفة . وبعد سنة ١٠٠ هـ بزمان طويل
كان الدعاة هناك من أهل الكوفة خاصة ، وكانوا تجاراً غريباء ، وكانت
مبادئ الدعوة غير ظاهرة ، وكاد يقضى عليها في مهدها ، وكان أول من نجح
في الدعوة خدش ، وأول ما نجد ذكره في سنة ١٠٩ هـ . ويلبغى أن يشك
الإنسان في أنه في ذلك الوقت كان قد بدأ يقوم بالدعوة فعلاً ، ولكن من
البعيد عن الحقيقة أيضاً أن يكون إنما قدم من الكوفة إلى خراسان في سنة
١١٨ هـ ، وهى السنة التى قتل فيها . وقد تدفق إليه أهل مرو كالسيل ،
وقبلوا كلامه واتبعوه ، فالظاهر أنه هو المؤسس الحقيقى لشيعة بنى العباس
في مرو . ويظهر أيضاً أنه هو الذى نظمهم ، فلا عجب إذن أن نسمع في
سنة ١١٧ هـ ، لأول مرة ، أخبار الدعاة النقباء من أهل خراسان ، وهم الذين كان
محمد بن على بن العباس نفسه قد اختارهم في سنة ١٠٠ هـ ، كما نسمع أن هؤلاء
الدعاة النقباء صاروا أكثر تعلقاً بخدش منهم بمحمد بن على نفسه . وعلى حين
كان سواد شيعة بنى العباس في مرو من الموالى كان الدعاة الأولون عرباً ، ويذكر
الطبرى (ج ٢ ص ١٥٨٦) ستة منهم ، وكان أكبرهم ، وهو الذى صار رئيسهم
بعد موت خدش ، سليمان بن كثير . وكان سليمان من خزاعة ، وكان لخزاعة
قرى في واحة مرو ، وقد كان فيهم وفيمن كان معهم من الأكثارين الأعاجم طائفة
كبيرة جداً تؤيد دعوة شيعة العباسيين ، وكان يربط بين خزاعة وبين آل بيت

النبي عليه السلام حلف قديم ، هذا إلى أنهم كانوا ينتسبون إلى الأزدي ، وكان الأزدي منذ سقوط المهالبة يقفون على الدوام تقريباً في صفوف الحزب المعارض لحكومة بني أمية ، فكانوا أقرب للتأثر بالثورة على هذه الحكومة من قبائل مضر . على أنه كان من بين الدعاة الستة الذين أخذهم أسد في سنة ١١٧ هـ ثلاثة من خزاعة وواحد من بكر واثنان من تميم . وعلى هذا لا يصحح أن يعلق الإنسان كبير شأن على الفوارق بين القبائل . وكان هؤلاء الشيعة ، ومن بينهم العرب أيضاً ، يعارضون روح القومية العربية ، وكانوا يرون أن الإسلام ، لا العروبة ، هو الذي يجعل للإنسان حقوق المواطن في الدولة التيقراطية ، ولم يكن الموالي أيضاً يحرمون من أن يكون لهم مكان للزعامة في الحزب ، ونجد من بين الدعاة الاثني عشر الذين يذكرهم الطبري (ج ٢ ص ١٣٥٨) ، أربعة من الموالي إلى جانب ثمانية من العرب .

ولكن محمد بن علي لم ينتكّر لخدّاش إلا بعد موت خدّاش ، وهو لم ينتكّر له قبل ذلك ، فقبل عنه لأنه الخارج المضلل الذي بذر بذور الفساد في الدعوة وحمل الشيعة والدعاة على غير منهاج الإمام ، كأنما كان خدّاش قد وجد حزب الشيعة أمامه ، وكأنما كان قد وجده منسّطاً قبل أن يدخل هو فيه . وقبل أيضاً إن الخميعة أو الطعم الذي رمى به بين مبادئ الحزب هو مذهب الحرّمية ، ولاشك أن الحزب الذي نشر مبادئه خدّاش وتزعمه كان هو حزب الهاشمية ، أما الحرّمية فلم تكن حزباً ، بل كانت نزعة إباحية عامة . وكان الحرّمية ، كما يزعمون ، لا يرضون عما في الإسلام من نزعة يهودية ، أعنى أنهم كانوا يعترضون على روح التطهر والتشدد الحزينة في ذلك ، فكانوا يريدون أن يجعلوا للطبيعة وللمرح مكانهما في الدين . وهم في ذلك يصلون مذهبهم بالديانة الوثنية التي كانت في بلاد العجم من قبل ، ويجوز أنهم كانوا إلى جانب ذلك متأثرين بمبادئ اجتماعية كانت تلائم ما يطمح إليه الموالي أحسن ملائمة . ويروى أن الحرّمية والراوندية قد

جددوا الدعوة إلى الشيوعية . النساء ، وهى الشيوعية التى كان مزدك قد دعى إليها من قبل . وعلى هذا فإن مما يمكن تصديقه كل التصديق أن يكون خداش لم يحارب هذا الاتجاه الشيوعى ، بل أن يكون قد أتته واستفاد منه . غير أنه يجب على الإنسان أن يستبعد القول بأن يكون ذلك بمثابة حجر العثرة الذى من أجله نفر العباسيون من خداش ، لأن العباسيين فى ذلك الوقت جمعوا الزنادقة حولهم ، وهم لم يبنوهم إلا فيما بعد ، ولم يظهروا بمظهر المتمسكين بمذهب الجماعة وأهل السنة إلا بعد أن وصلوا إلى غايتهم^(١) ، أما فى أول أمر دعوتهم فإنهم كانوا يحاولون أن يستغلوا كل معارضة من جانب فرق الشيعة للحكومة بنى أمية ، أيا كان لون مذهب هؤلاء الشيعة ، وكانت الغاية الأولى للعباسيين هى الناحية السلبية ، أعنى إسقاط حكومة الأمويين ، فأما الناحية الإيجابية ، وهى التغلب على الخلافة ، فقد جعلوها فى المحل الثانى ، وهم لم يكونوا فى الحملة يظهرون أمام أتباعهم بأنهم طلاب خلافة بقدر ما كانوا يزعمون أنهم الأداة التى أرادها الله لقلب حكومة بنى أمية . فهم لم يُقدِّموا أشخاصهم بل قدموا القضية التى أرادوا الدفاع عنها ، وهى الكفاح لنصر الحق والعدل على الباطل والظلم . وهم لم يكونوا يأخذون البيعة لأنفسهم وباسمهم ، بل كانوا يأخذونها لمرضى مجهول من آل بيت النبي عليه السلام ، ستفق عليه الكلمة فيما بعد . بل إنه فى بعض الأحيان لم تنفتح أعين أنصارهم الذين اتخذوهم وسيلة لذلك ، حتى رأوا الغرض الحقيقى ، إلا فى وقت متأخر عن بدء الدعوة . وكان العباسيون يعملون ما استطاعوا على أن يخفوا عن الناس أنهم كانوا يريدون تنحية بنى فاطمة ، بل هم كانوا يظهرون أنهم يعملون من أجل بنى فاطمة . وهم قد ظهروا فى خراسان

(١) [إن كلام المؤلف هنا مبالغ فيه دون أى شك ، ولقد كان غرض بنى العباس أن يصلوا إلى الخلافة ، ولكن أسلوب بنى أمية فى الحكم وسيرة بعضهم هو الذى مكّنهم بحق من النجاح فى دعوتهم ، أما أنهم استعانوا بالزنادقة كما يقول المؤلف ، فليس عليه دليل تاريخى ولا حقيقى — المترجم] .

وفي غيرها بدعوى أنهم يريدون أن يثأروا لشهداء أبناء فاطمة . ولذلك لم يكونوا يستطيعون أن يتنكبوا للحزب الآخر من الشيعة (١) ولا أن ينفذوه ، لأنهم كانوا لا بد لهم أن يتخذوه عماداً لهم إزاء بني فاطمة . فأما أن يعتقد الشيعة ما يشاءون ، وأن تكون سيرتهم في الحياة كما يحبون ، فكان العباسيون يعتبرون ذلك مسألة يمكن حلها فيما بعد . وكان همهم الأول هو أن يتعلق الشيعة بهم ، فلم يعابوا بالإباحية التي كانت موجودة عند الهاشمية . أما الذي كان يقلقهم فهو التنظيم الذي صار للشيعة بخراسان وصار مستقلاً عنهم وجاء على أثر اشتداد أمرهم اشتداداً كبيراً برئاسة خدائش هناك . وقد تكونت في مرو رئاسة محلية من أهل خراسان ، وهي لم تشأ — وهذا ما يستطيع الإنسان أن يتبينه بوضوح تام — أن تخضع لتوجيه رئاسة الكوفة وتأتمر بأمرها ، وإن كان ذلك على كل حال لا يؤثر على الولاء لمحمد ابن علي نفسه . ولكن نشأ أيضاً خطراً بالنسبة لمحمد بن علي ، وهو أن يفلت من يده زمام أهل خراسان ، ذلك أنه إنما كان يسيطر عليهم من طريق شيعته الكوفة ، ولذلك استعمل مكانته وسلطته الشخصية التي كانت له على دعائته في خراسان في أن يحملهم على النزول عن استقلالهم والخضوع للوزير في الكوفة . وقد أفلح بمشقة في آخر الأمر في أن يضم إليه رئيسهم سليمان بن كثير . وعلى حين أن أهل خراسان ردوا « وزير الكوفة » سنة ١٢٠ هـ ، لما جاء إليهم في مرو ، فإننا نجد أنهم رحبوا به في سنة ١٢٦ هـ ، وأعطوه أيضاً ما اجتمع قبيلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم ، وكانوا من قبل يحملون الأموال إلى الإمام نفسه ، وكانوا لا يزورونه في الحميمية بل كانوا يلقونه في مكة : وكان الحج إلى مكة فرصة مواتية لاجتماع العناصر الثائرة دون أن تلتفت إليهم الأنظار ، وقد صارت العلاقة الشخصية بين الأتباع

(١) [يقصد المؤلف في الغالب شيعة خدائش — المترجم] .

وبين الإمام تأخذ طابعاً أكثر حيوية ، كما صارت من طريق المال تأخذ طابعاً أكثر واقعية .

٣ - وقد اتخذ إبراهيم بن محمد بن علي وخليفته خطوة حاسمة لكي يقبض على زمام الأمر في خراسان قبضاً تاماً ، وذلك بأن وجه أبا مسلم إلى خراسان (١) . وأصل أبي مسلم غامض والروايات فيه مختلفة ؛ أما الذي لا شك فيه فهو أنه لم يكن عربياً بل كان أعجمياً ، وكان مملوكاً أو مولى في الكوفة . وقد استرعى ، وهو ما يزال في سن الصغر ، انتباه شيعة بنى العباس هناك ، مما دعا إلى إرساله إلى إبراهيم بن محمد ، فأخذه إبراهيم وضمه إلى أسرته وعلمه لنفسه وجعله من خاصته . وفي سنة ١٢٨ هـ صار أبو مسلم هو الممثل الدائم لبيت ابن العباس في خراسان ، فأقام هناك وجعل رئيساً للدعوة ، وكان قد أصبح معروفاً في خراسان بعد زيارته المتكررة إليها . ثم آن الأوان ، فكانت القبائل العربية الثائرة في خراسان قد أخرجت نصر بن سيار من مرو وأصبحت أيدي الحكومة الأموية مشغولة بثورات من كل نوع وفي كل مكان (٢) .

وقد بدا أن مولى يتخذ العباسيون أليق وأجدر بالثقة في خراسان من عربي حر كان حتى ذلك الحين على رأس الهاشمية هناك . ولم يكن المقصود من توجيه أبي مسلم هو أن ينحى سليمان بن كثير عن مكانه ، لأن الإمام إبراهيم بن محمد أوصاه بالألا يخالفه ولا يعصيه وأن يكتفي عند ما يشكل عليه أمر بالرجوع إليه . ولكن صار لسليمان ، في شخص أبي مسلم ، منافس يهدد مركزه . ومن السهل أن نفهم أن سليمان ، جرياً على ما فعله غيره من

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٩٤٧ - المترجم] .

(٢) يحيى تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠ من تاريخ الخليفة) : « ولما كان بنو أمية منذ مقتل الوليد قد وقعوا في حروب بينهم وكانوا مشغولين بذلك إلى أقصى حد ، فقد اغتنم ذلك بنو هاشم وأبناء علي ، وهم أيضاً قرابة للنبي عليه السلام ، ولكنهم كانوا يعيشون مخففين . وهارون بن جزيرة العرب الصغرى ، فاتحدوا تحت رئاسة إبراهيم ، وبعثوا أبا مسلم مولاها إلى خراسان ، إلى رجال لم نفوذ هناك لكي يدعواهم إلى الاشتراك في محاربة مروان » .

قبل ، لم يستقبل أبا مسلم فائحاً ذراعيه ، وكان من أثر ذلك أن صعب على أبي مسلم المقام في مرو . وهو لم يفده زواجه من ابنة أبي النجم — وكان هذا من أسرة أحد الدعاة — شيئاً ، وظل أبو مسلم يُعْتَبَر دُخِيلاً ، ولم يستطع أن يقف إزاء سليمان ، فرأى أن يخلي الميدان .

فخرج أبو مسلم من مرو راجعاً إلى الكوفة^(١) ، ولكنه لما بلغ مدينة قومس وأوشك أن يخرج من أرض خراسان ، أمره إبراهيم بن محمد بالعودة وأرسل له راية النصر . وذلك أن تغيراً حدث في مرو ، وأبدت شيعة بنى العباس استعدادها لطاعة أبي مسلم نائباً مفوضاً من قبيل آل البيت . فتولى أبو مسلم إعداد الثورة بنجاح كبير ، ويظهر أن نشاطه في ذلك قد انقطع بسبب رحلة قام بها في جمادى الآخرة سنة ١٢٩ هـ إلى مكة ، ومعه بعض أصحابه ، ليلقي الإمام هناك ويحمل إليه ما اجتمع من أموال^(٢) . ولكنه لما بلغ الحدود العربية لخراسان وجه قحطبة بن شبيب الطائي إلى مكة^(٣) ، وعاد هو إلى مرو . فهو لم يكن يقصد من الحج سوى غرض ظاهر ، أما ما كان يريده في الحقيقة فهو أن يزور الشيعة المتفرقين ، على اختلاف ألوانهم ، لكي يدعوهم إلى الدعوة العباسية ، ويهيئهم إلى الثورة القريبة . وهو لكي يتصل بزعمائهم جاب كل خراسان الغربية حتى بلغ حدود جرجان ذهاباً وإياباً ، وكان يقيم في كثير من المواضع الهامة للشيعة بعض الوقت ، حتى إذا عاد إلى مرو بدأ في الظهور جهرة . وإني فيما يتعلق بالتمييز بين رحلتين قام بهما أبو مسلم أتابع تلك الرواية التي ذكرها الطبري (ج ٢ ص ١٩٦٠ فما بعدها) دون أن ينسبها إلى أحد : ففي الرحلة الأولى خرج أبو مسلم من مرو ، لأنه

(١) [يجد القارئ تفصيلاً في هذا عند الطبري ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها - المترجم] .

(٢) التاريخ الذي يذكره الطبري (ج ٢ ص ١٩٦٢) هو بالنسبة للقيام بالحج تاريخ مبكر بعض الشيء .

(٣) [وكان هذا أيضاً بأمر من الإمام نفسه - الطبري ج ٢ ص ١٩٥١ - المترجم] .

لم يستطع المقام هناك بسبب رد الشيعة له لحدائثة سنه خوفهم ألا يقوى على الدعوة وفي الرحلة الثانية جاب غرب خراسان بقصد إثارة الناس ، لكنه كان يظهر الخروج للحج . أما المدائني (الطبري ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها) فهو لا يعرف لأبي مسلم سوى رحلة واحدة : هي الرحلة الثانية ، والمدائني لا يذكر شيئاً عما كان بين أبي مسلم وبين سليمان بن كثير من تباعد يسهل أن يكون سبباً في النزاع . لكن كل القرائن والأسباب ترجح وجود هذا النزاع ، كما أبرز ذلك فان فلوتن بحق^(١) . ولكن يستطيع الإنسان رغم هذا أن يكتفى برحلة واحدة ، وأن يفترض أن أبا مسلم ، بعد أن لم يستطع المقام في مرو ، حاول بمجهوده الخاص أن يوجد لنفسه مركزاً في غرب خراسان . ولكن خروجه للحج مع قوم من أهل مرو لا يتفق مع هذا الغرض ، وخصوصاً أن صعوبات ترجع إلى التواريخ تقوم دون ذلك ، لأن أيام الحج الذي كان هو الغاية من السفر كانت ستحل في آخر سنة ١٢٩ هـ ، وأن قحطية لم يرجع من مكة إلا في سنة ١٣٠ هـ . ولكن في هذا الوقت كانت الثورة قد نظمت في مرو تحت رئاسة أبي مسلم تنظيماً تاماً ، وهي قد بدأت على الفور بعد عودته من رحلته التي قام بها لدعوة الناس ، ولإعدادهم للثورة . فلا بد أن يكون خلاف أبي مسلم مع سليمان بن كثير واضطراره إلى الخروج من مرو على أثر هذا الخلاف قد حدث بعد ذلك ، أي قبل وصوله إلى مرو لأول مرة سنة ١٢٨ هـ ، وربما كان بلوغ أبي مسلم في تينكما الرحلتين إلى الحدود الغربية لخراسان ، ثم عودته من هناك ، قد دعا إلى اعتبار الرحلتين رحلة واحدة .

وفيما يتعلق بالثورة في قرى خزاة عند مرو في النصف الثاني من سنة ١٢٩ هـ (صيف ٧٤٧ م) يذكر الطبري رواية المدائني (ج ٢ ص ١٩٤٩ فما بعدها ،

(١) قارن نص المقرئ الذي ذكره فان فلوتن عن أهل الكافية وذلك في كتابه

وص ١٩٦٥ فما بعدها ، وص ١٩٨٩ فما بعدها) ورواية أبي الخطاب (ص ١٩٥٣ فما بعدها وص ١٩٦٧ فما بعدها و ١٩٨٤ فما بعدها) وأيضاً رواية لقوم لا يذكر أسماءهم (ص ١٩٦٠ فما بعدها و ١٩٧٠ فما بعدها و ١٩٩٢ فما بعدها) . وهذه الروايات متفقة في بعض الخطوط الكبرى ، وأيضاً في بعض التفاصيل التي تسترعى النظر ، ولكنها تختلف فيما بينها بعض الاختلاف ، وهي أيضاً ليست متسقة فيما بينها ، وكلها بعيدة كل البعد عن أن تكون كافية .

وأقرب الروايات للصواب وأحقها بالثقة رواية أبي الخطاب ، وهي تبدو عند النظرة الأولى أكثر الروايات تماسكاً ؛ فهو يقول إن أبا مسلم عاد إلى مرو منصرفاً من قومس في يوم الثلاثاء ٩ شعبان سنة ١٢٩ هـ (الثلاثاء ٢٥ إبريل سنة ٧٤٧ م) فنزل أول الأمر قرية تدعى فستين ، وهي قرية أبي داود بن إبراهيم البكري^(١) ، وفي الثاني من رمضان (١٧ مايو) خرج أبو مسلم من هناك إلى قرية سيقندنج ، وهي قرية سليمان بن كثير الخزاعي ، وجعل يوم ٢٥ رمضان هو يوم الظهور بالثورة ، وأخبر بذلك الأتباع في مرو الروذ وطخارستان وخوارزم . وفي هذا اليوم في الحقيقة عقد اللواءان اللذان كان الإمام قد بعث بهما ، ورفعا في سيقندنج وأوقدت النيران للشيعية من سكان القرى المجاورة ، وكانت هي العلامة بينهم ، فجاءوا في اليوم التالي واجتمعوا أولاً في قرية سقندنج في ٢٧ رمضان ، وبلغ عدد العسكر ألفين ومائتين من الرجال وستة وخمسين من الفرسان . وفي يوم عيد الفطر ، وهو يوم الجمعة أول شوال سنة ١٢٩ هـ ، أقيمت في سيقندنج أول صلاة على مذهب العباسيين ، وصلى بالناس سليمان بن كثير . وبعد الصلاة والخطبة انصرف أبو مسلم والشيعية معاً إلى طعام كان قد أعد له أبو مسلم ، فطعموا مستبشرين ، وبعد ظهور أبي مسلم بالدعوة بمائة عشر يوماً^(٢) أقبلت إليه خيل عظيمة بعثها نصر

(١) قارن الطبري ج ٢ ص ١٩٦٠ من ١٤ - ١٥ .

(٢) ما جاء عند الطبري (ج ٢ ص ١٩٥٧ من ١٧) من ذكر أن نصرأ روجه خيله

لخاربة أبي مسلم بعد ثمانية عشر شهراً من ظهوره خطأ .

ابن سيار أمير خراسان بقيادة مولى له يسمى زيدا ، لقتال أبي مسلم ، فوجه أبو مسلم أبنا نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، فهزم خيل نصر عند قرية آلين ، وجرح زيد وأسر ، وأمر أبو مسلم أحد رجاله بأن يعالج هذا القائد من الجراحات التي أصيب بها وأن يحسن تعهده ، حتى إذا اندملت الجراح دعاه أبو مسلم وخيَّره بين الإقامة معه والدخول في الدعوة أو الرجوع إلى مولا نصر بن سيار ، على أن يُعطى عهد الله ألا يحارب أبنا مسلم وقومه ولا يكذب عليهم ولا يقول فيهم غير ما رأى ، فاختار الرجوع إلى مولا وخيَّس له الطريق ، وإنما كان أبو مسلم يقصد من حسن معاملة قائد نصر أن يكون شاهداً على أبي مسلم وشيعته في إقامتهم الصلاة وتلاوتهم القرآن ... الخ . وأن يكون ذلك سبباً في رد أهل الورك والصلاح عند محاربة الثائرين . وقد شهد مولى نصر أمامه بذلك ، وصرح بأنه لولا ما يربطه بنصر من رابطة الولاء لما رجع إليه ولأقام عند أبي مسلم (١) .

وفي أول ذي القعدة استولى خازم بن خزيمة التميمي على مدينة مرو الروذ ، وقتل عامل نصر بن سيار الذي كان عليها ، ومكث أبو مسلم في الحملة اثنتين وأربعين يوماً في سيقندنج ، وفي يوم الأربعاء ٩ من ذي القعدة (السبت ٢٢ يولييه) نقل عسكره إلى الماخوان التي ضارت بغد ذلك مقرأ لقوم من كبار الشيعة ، وهنا أعد أبو مسلم نفسه لمقام طويل وعين العمال وحصن المكان . ولو أنه كان رجلاً من طرز آخر لاتخذ عند ذلك الحين مظهر الأمراء ، وكان جيشه يبلغ سبعة آلاف رجل ، فأمر بأن يُقسِّد في السجل كل جندي بحسب اسم أبيه واسم قريته ، وكان الرزق الذي يعطيه لكل منهم يتراوح بين ثلاثة وأربعة دراهم في الشهر ، ووجه أبو مسلم أهل سقادم - وكانوا تسعمائة رجل - إلى جيرانج ، لكي يخذلوا هناك ويقطعوا مادة نصر بن سيار من مرو الروذ وكور بلخ وطخارستان . أما العبيد فقد جعلهم في خندق خاص بهم ، ثم وجههم

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٥٣ - ١٩٥٩ - المترجم] .

بعد ذلك إلى موسى بن كعب التميمي في أبيورد ، وبعد أربعة أشهر انتقل أبو مسلم من الماخوان ، لأنها كانت سافلة الماء فخاف أن يقطع نصر بن سيار عليه الماء ، وكان يخشى هجوماً من جانب عرب مرو الذين عقدوا صلحاً فيما بينهم لمحاربته ، فتحول إلى آلين ، واحتفل فيها بعيد الأضحى (٢٢ أغسطس سنة ٧٤٧ م) . وقد صح ما توقعه ، فجاءت جند الحكومة بالفعل لمحاربته ، وعاثوا في القرى وأفسدوا كل أنواع الفساد ، حتى وجه أبو مسلم إليهم خيلاً هزمتهم . وقد وقع في يده بعض الأسرى مجروحين ، فأمر بأن يعالجوا ، حتى اندملت جروحهم كسأهم وخطى سبيلهم^(١) . ولكن اتحاد أعداء أبي مسلم لم يدم طويلاً : لأن سليمان بن كثير أقنع علي بن جندب الكرماني بأن ينقض الصلح الذي كان بين القبائل^(٢) . فقد بعث نصر بن سيار إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر ، وبعث ربيعة وقحطان إلى أبي مسلم بمثل ذلك ، فطلب أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين لكي يختار أحدهما ، وأمر من عنده من الشيعة أن يختاروا قحطان وربيعة ، فلما أقبل الوفدان أدخل وفد قحطان في بستان أدخلهم فيه ، وقعد هو في بيت ، وأذن لوفد مضر فدخلوا عليه . وكان مع أبي مسلم سبعون رجلاً من الشيعة ، وكان قد أوعز إليهم بما يقولونه ، فقام رجال منهم فقالوا إن مضر قتل آل النبي عليه السلام وأعوان بني أمية وعمال مروان الجعدي (مروان بن محمد) ، وإن دماء المسلمين في أعناقهم وأموالهم في أيديهم ، وإن نصر بن سيار عامل مروان ينفذ أمره ويدعوله ويسميه أمير المؤمنين ، وانتهوا بأن يختاروا علي بن الكرماني وأصحابه من ربيعة وقحطان على نصر بن سيار

(١) راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٦٥ - ١٩٧٠ - المترجم .

(٢) [اتحدت قبائل العرب على محاربة أبي مسلم وإلى الوقوف إلى جانب نصر بن سيار . ولكن سليمان بن كثير استطاع بتدبير أبي مسلم أن يقتنع علي بن الكرماني بالانتفاض على نصر . فبعث نصر إلى أبيه جديع الكرماني وبصلبه ، فأدركت الحفيظة علي بن الكرماني فانشق على الخلف وانتفض صاحب العرب (الطبري ج ٢ ص ١٩٨٤ - ١٩٨٥ - المترجم) .

وأصحابه من مضر ، فنهض وفد مضر ، وعليهم الذلة والكآبة ، ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين . وبعد أن أقام أبو مسلم في آلين تسعة وعشرين يوماً رجع إلى الماخوان وأمر أصحابه أن يبنوا المساكن ويستعدوا للشتاء ، لأن الله قد أعفاهم من اجتماع كلمة العرب . وكان رجوع أبي مسلم إلى الماخوان في يوم الخميس للنصف من شهر صفر سنة ١٣٠ هـ (٢٥ أكتوبر سنة ٧٤٧ م) . فأقام أبو مسلم في الماخوان ثلاثة أشهر ، ثم دخل مرو في يوم الخميس ٩ جمادى الأولى (١) . وكانت مدينة مرو نفسها في يد نصر بن سيار ، فعند ذلك هاجم علي بن جديع مرواً من جهة ، وهاجما أحد قواد أبي مسلم من جهة أخرى ، ثم دخلها أبو مسلم والقتال دائر . ووادع نصر أبا مسلم ، ولكنه هرب في اليوم التالي ومعه أصحابه ، وقتل أبو مسلم أربعة وعشرين من العرب من بينهم سلم بن أحوز التيمي (٢) .

وليس في هذه الرواية دقة ولا كبير تماسك ، وذلك يتجلى مثلاً في التكرار المتعلق برد هجوم قام به أعداء أبي مسلم على آلين ، ويتعهد أبي مسلم للأشركى الجرجى وحسن معاملته لهم . غير أنه يتجلى خاصة في بعض المعلومات المتعلقة بتحديد التواريخ ، وهذه المعلومات هي التي تتضمن أكبر التناقض ، والفترات الطويلة المذكورة خاصة لا تتفق مع تواريخها المحددة لها في تقويم التواريخ : يأتي أبو مسلم إلى سيقذنج في ٢ رمضان سنة ١٢٩ هـ (١٧ مايو سنة ٧٤٧ م) ويمكث فيها اثنين وأربعين يوماً ، أي حتى

(١) عند الطبري ج ٢ ص ١٩٨٦ من ١٨ وص ١٩٨٧ من ١٤ ، كان ذلك في جمادى الأولى ، ولكن ولكن بحسب ص ١٩٨٤ من ١٤ كان ذلك في جمادى الآخرة . وإذا كان أبو مسلم قد بقى في الماخوان ثلاثة أشهر تبدأ في منتصف صفر فإن الأصح هو جمادى الأولى ، أما إذا كان دخول مرو يوم الخميس فإن جمادى الآخرة يكون هو الأصح ، وذلك أن التاسع من جمادى الأولى كان يوافق يوم الاثنين ، والتاسع من جمادى الآخرة يوافق يوم الأربعاء ، و فرق يوم واحد ليس له شأن ، لأن أول الشهر كثيراً ما يختلف يوماً .

(٢) [راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٨٤ - ١٩٩٥ - المترجم] .

منتصف شوال (آخر يونيه) . ولكنه لا يخرج من سيقه نرج إلى الماخوانه إلا في ٩ من ذى القعدة (٢٢ يوليه) ، ومن جهة أخرى يذكر أن الفترة الأولى التي أقامها أبو مسلم في الماخوان كانت أربعة أشهر ، ولكن نجده في آئين في أول ذى الحجة (منتصف أغسطس) أى بعد شهر أو أقل ، ثم هو يقيم في آئين ٢٩ يوماً ، أى حتى أول المحرم سنة ١٣٠ هـ (منتصف سبتمبر) ، لكنه لا يرجع إلى الماخوان إلا في منتصف صفر (آخر أكتوبر) .. أما الفترة الثانية التي يقيمها أبو مسلم في الماخوان فهي ثلاثة أشهر ، أى حتى منتصف جمادى الأولى ، ويتفق مع هذا على وجه التقريب تاريخ دخوله مرو ، إذا قبلنا القول بأن ذلك كان في التاسع من جمادى الأولى لا في التاسع من جمادى الثانية .

وعلى هذا لا بد من تصحيح رواية أبي الخطاب بالرجوع إلى رواية المدائني . أما الرواية التي يذكرها الطبري ولا ينسبها إلى أحد بعينه فهي تقف في موقف وسط بين الروایتين : فأما المدائني فهو يقول إن أبا مسلم لم يذهب إلى الماخوان مرتين بل مرة واحدة ، أما الأربعة أشهر التي يذكرها أبو الخطاب للفترة الأولى التي أقامها أبو مسلم فهي في الحقيقة كل الفترة التي أقامها أبو مسلم هناك ، وعلى هذا فإن الثمانية أشهر (أربعة أشهر + ٢٩ يوماً + ثلاثة أشهر) ، التي يحسبها أبو الخطاب منذ أول مجيء أبي مسلم إلى الماخوان حتى خروجه منها نهائياً تنخفض إلى النصف . على أن مقام أبي مسلم في الماخوان قد قطعتة ، بحسب رواية المدائني أيضاً ، رحلة قام بها أبو مسلم نفسه إلى مرو . ويقول المدائني إنه بعد أن رجع من هذه الرحلة أقام في الماخوان ثلاثة أشهر ، وهذا ما يتفق مع التسعين يوماً التي يذكرها أبو الخطاب . وكانت عودة أبي مسلم ، بحسب رواية المدائني وبحسب بعض رواية أبي الخطاب ، في أول سنة ١٣٠ هـ . فإذا حسبنا ثلاثة أشهر أو تسعين يوماً مبتدئين بأول سنة ١٣٠ هـ ، فإن أبا مسلم يكون قد خرج بعسكره من الماخوان

في أول ربيع الثاني وتوجه إلى مرو : والواقع أن المدائني يذكر أن أبا مسلم دخل مرو في ٩ ربيع الثاني ، ويوافقه على ذلك صاحب الرواية التي لم يذكر اسمه الطبري^(١) . ويؤيد هذا التاريخ ، إلى جانب ما تقدم ، ما يُذكر من أن النهار كان إذ ذاك قصيراً (الطبري ج ٢ ص ١٩٩٠ سطر ٢٠) ، وذلك أن يوم ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٠ هـ كان يوافق يوم ١٧ ديسمبر سنة ٧٤٧ م . أما اليوم الذي يذكره أبو الخطاب بدلاً من ذلك ، وهو يوم ٩ من جمادى الأولى أو جمادى الآخرة (١٥ يناير أو ١٤ فبراير سنة ٧٤٨ م) فكان بعد الانقلاب الشتوي للشمس بمدة طويلة إلى حد ما أو إلى حد كبير . وإذا رجعنا إلى الوراء أو أكثر من ذلك وصلنا إلى أول ذى الحجة سنة ١٢٩ هـ ليكون أول فترة مقام أبي مسلم في الماخوان ، وهي الفترة التي تبلغ في جملتها أربعة أشهر . وإذا كان أبو مسلم قد عسكر في آلين فإن ذلك لم يقطع فترة الإقامة في الماخوان ، بل كان قبلها . وبحسب رواية المدائني كان أبو مسلم هناك^(٢) في ذى القعدة سنة ١٢٩ هـ ، والروايات متفقة على أنه كان في سيقندنج وفنين في شوال ورمضان . فالإثنان والأربعون يوماً التي يقول أبو الخطاب إن أبا مسلم أقامها في سيقندنج ، يقول المدائني إن أبا مسلم أقامها في آلين ، ولكن لا شك أن أبا الخطاب هو المصيب : ويستطيع الإنسان أن يأخذ بما يقوله أبو الخطاب أيضاً من أن أبا مسلم ذهب إلى فنين قبل أن يذهب إلى سيقندنج^(٣) .

وإذا كان هذا هو الوصف الإجمالي للحوادث استطاع الإنسان أن يحصل

(١) ويذكر أيضاً أن دخول مرو كان في السابع من ربيع الثاني ، وكثيراً ما يحدث الخلط بين السابع والتاسع في الكتابة العربية .

(٢) بالين (الطبري ج ٢ ص ١٩٥٢ س ١٠) هي آلين أو آلين ، ولعلها نشأت من بـ + آلين ، أي في آلين .

(٣) قارن كتاب Opkomst der Abbasiden : van Vloten ، ص ٧٩ .

على الصور التالية عن مجراها . إن قرى خزاعة^(١) التي كان أبو مسلم يغير معسكره فيما بينها كانت تقع متقاربة في أرض خرقان ، وكان المهدي الأصلي للثورة في قرية سيقذنج التي كان يقيم فيها سليمان بن كثير رئيس دعاة الهاشمية ، وفي قرية سيقذنج عقد اللوآان الأسودان اللذان بعث بهما إبراهيم بن محمد ، وفيها أيضاً أوقدت النيران لتضيئه الشيعة ، وفي سيقذنج تجمع هؤلاء الشيعة الذين كانوا في القرى المجاورة ، من قرب ومن بعد ، وفي سيقذنج أيضاً أقيمت في يوم عيد الفطر سنة ١٢٩ هـ أول صلاة جامعة لشيعة بني العباس وعلى مذهبهم ، وأمّ الناس في ذلك اليوم سليمان بن كثير . أما القول بأنه إنما فعل ذلك بأمر من أبي مسلم فهذا ما لا يصح تصديقه ، بل كان لا يمكن في سيقذنج ، في ذلك الحين ، تنحية سليمان عن المكانة الأولى ، فكان له مظهر الرئيس على الأقل ، وإن كانت قيادة الثورة قد خرجت من يده . وكان أبو مسلم يشعر بأن سليمان يضيق بسلطانه ، ولذلك خرج من سيقذنج بعد اثنين وأربعين يوماً ، إلى آلين أولاً ، ومنها توجه ، قرب آخر سنة ١٢٩ هـ ، إلى الماخوان . وفي الماخوان ظهر بمظهر الرئيس والامر ، وزاد جيشه وزادت بذلك قوته ومكانته . وعند ذلك أثار لأول مرة القلق في نفوس العرب الذين كان يحارب بعضهم بعضاً في مرو . وقد زاد قلق العرب بسبب النجاح الذي أحرزته حركة الشيعة في نفس الوقت مواضع أخرى في إيورد ومرو الروذ ، وخصوصاً في هراة (الطبري ج ٢ ص ١٩٦٦) . وقد دعت بكر أولاً شيان الحروري ، وكانت بكر تحت إمرته ، إلى مصالحة نصر ، ويظهر أن علي بن جديع الكرمانى حلوا شيان . وكأنما أدرك العرب أخيراً ذلك الخطر الذي كان يهددهم ، فأرادوا أن يواجهوه متحدين ، ولكن الريبة كانت عملاً نفوسهم بعضهم من بعض ، فلم يجدوا في التضافر على حرب أبي مسلم ، وأكثر ما قاموا

(١) . هذه هي التسمية المشهورة . لأن قريتي فنين والماخوان لم تكونا خزايعتين خاصة .

به أنهم أغاروا مرة على جهة من البلاد التي كانت خاضعة له ، فرد أبو مسلم هذه الغارة من غير مشقة^(١) ، وبعد فترة قصيرة أفلح أبو مسلم في إفساد الحلف بين أولئك الإخوان المتعادين ، فتوجته بنفسه من الماخوان إلى مرو ، واستطاع أن يؤثر على علي بن جديع الكرمانى ومن معه من ربيعة وقحطان ، حتى نقضوا عهدهم مع نصر بن سيار وانقلبوا عليه وعلى مضره

وعاد أبو مسلم في أول سنة ١٣٠ هـ إلى الماخوان ، وكان إذ ذاك آمناً كل الأمن من خطر العرب ، فاستطاع مطمئناً أن يترك بعضهم لبعض ، حتى يحين الوقت الذى يحين هو فيه ثمرة نزاعهم وقتلهم بعضهم بعضاً . وإذا كان قد أفلح في ضم ربيعة وقحطان إلى جانبه فإن ذلك لم يفسد علاقته بمضر بأى وجه من الوجوه . فيروى أنهم على خلاف ذلك كانوا قد حاولوا أن يبعده عن ربيعة وقحطان وأن يضموه إلى جانبهم : وإذن فقد كان الجميع يسعون إلى كسب مودته ورضاه . ومهما كان الأمر فإنهم قد أصبحوا لا يتجاسرون على أن يعاملوا أبا مسلم معاملة العدو ، وهكذا أمكن أن يحدث أن أبا مسلم دخل مرواً قاضياً وحكماً ، وأنه بتدخله أنهى النزاع القاسى الذى استنفدت فيه القبائل العربية قوتها . وقد حكم أبو مسلم لربيعة وقحطان على مضر ، وهذا ما بدا لأول وهلة على الأقل . أما المنظر الذى يصفه أبو الخطاب لهذه الواقعة الحقيقية وبيان كيف ظهر وفد ربيعة وقحطان ووفد مضر أمام أبى مسلم وهو معسكر فى الماخوان ، وكيف وضعوا أمامه نزاعهم ليسكم فيه ، وكيف قضى بينهم ومعه السبعون رجلاً من الشيعة ، فهو تصوير

(١) وقد أشرت من قبل إلى أن أبا الخطاب يذكر روايتين فى الواقعة نفسها (الطبرى ج ٢ ص ١٩٥٨ فما بعدها و ١٩٧٠) فى آئين ، وكل منهما تنتهى بأن أبا مسلم أحسن معاملة الأسرى المرحى لكى يكونوا دعاة له ، وكلا الروايتين فيها تكلف وبالغة . أما بحسب ما جاء فى الطبرى (ص ١٩٧٠) فقد كان القتال يتلخص فى أن بعض جند نصر بن سيار آذوا الفلاحين وعسفهم وذبحوا الدجاج والبقر والحمام وكلفوا الناس الطعام والعلف .

لا يخلو من تحريف ، وأيضاً فإن أبا مسلم لم يفاوض جديعاً الكرمانى ، بل هو لم يفاوض إلا ابنه عالياً . وذلك فى آخر سنة ١٢٩ هـ أو فى أول سنة ١٣٠ هـ ، وكان أبو مسلم هو البادى وكان الساعى إلى كسب مودة الكرمانى ولم يكن الكرمانى هو الساعى إلى مودته ، وقد لاحظ ذلك فان فلوتن بحق . وكأنما تبين للناس فيما بعد مقدار ما لحق بسمعة أبى مسلم من جراء هذا الموقف ، لأنه لم يكن يتفق مع الفكرة التى كونوها لأنفسهم عنه أن يُبدل نفسه على هذا الوجه ، فقالوا إلى أن يعتبروا أن قوة موقف أبى مسلم والسلطان الذى لم يصل إليه إلا فى آخر الأمر قد كانا له فى وقت سابق على ذلك . ولكن إذا قبلنا هذا لم نستطع أن نفهم لماذا انتظر طويلاً حتى تدخل آخر الأمر : فالحقيقة أن أبا مسلم لم يكن له فى أول الأمر من القوة ما يمكنه من أن يتحدى العرب تحدياً صريحاً ، بل هو تصرف بحكمة سياسية ، فاستوقفهم وذر الرماد فى عيونهم ، بل هو لم يفسد ما بينه وبين مضر إلى حد يجعلهم يعتبرونه عدواً صريحاً لهم^(١) . وإذا كان قد دعا إلى الثورة على حكومة الأمويين فإن ذلك كان فى ذلك الحين شيئاً مألوفاً لا يستنكره أحد . على أن أبا مسلم لم يضع أوراقه مكشوفة على المائدة ، ويحكى المدائنى (الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٥) أن فتية نسطاكا من أهل مرو كانوا يطلبون الفقه أتوا إليه فى معسكره ليسأله عن نسبه ، فقال لهم : « خبرى خير لكم من نسبى » ، فلما سأله عن أشياء فى الفقه ، قال لهم : « أمركم بالمعروف ونهيتكم

(١) [يحد القارئ فى رواية عند (الطبرى ج ٢ ص ١٩٩٢) أن أبا مسلم بعد أن نزل قرية الماخوان فافوض كلا من على بن جديع الكرمانى ونصر بن سيار وعرض عليهما المسألة واجتماع الكلمة والدخول فى الطاعة ، فقبل ذلك منه على بن جديع الكرمانى . فلما استوثق منه كتب إلى نصر بن سيار أن يبعث إليه وفداً يسمعون مقالته ومقالة أصحابه ، وهذا مما يؤيد رأى المؤلف فى حاجة أبى مسلم إلى السياسة والمصانعة . حتى قوى مركزه بضم البيانة وحلفائهم من ربيعة إليه ونصرهم على المضريّة أنصار الدولة الأموية - المترجم] .

عن المنكر خير لكم من هذا ، ونحن في شغل ، ونحن إلى معونتكم أحوج منا إلى مسألتكم ، فأعفونا .

وكان أكثر أتباع أبي مسلم من الزرع الأعاجم ، من الموالي في قرى مرو ، ولكن كان بينهم بعض العرب ، وكان لمعظمهم مكان الرياسة ، وكانت الرابطة التي تربط بين أنصار أبي مسلم هي الدين والمذهب ، وكانت نواة جيش خراسان ، أعنى « جند » بنى العباس ، تتكون من الهاشمية ، كما يصرح الطبري بذلك (ج ٢ ص ١٩٨٧) . وقد دخل أبو مسلم في مرو على رأس الهاشمية ، ومن الهاشمية أمر أن تؤخذ البيعة بعد دخوله ، وكان الذي يأخذ البيعة منهم هو أبو منصور طلحة بن رزيق الخراساني (١) - أما هذه البيعة فكانت : « أبايعكم على كتاب الله عز وجل وستة نبيه صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعناق والمشي إلى بيت الله ، وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأ بكم ولاتكم (٢) ، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم » . ومما يستلفت النظر في البيعة التي كان يأخذها أبو منصور ، وهو الذي يذكر أنه كان رجلاً فصيحاً مفضواً عالمياً بحجج الهاشمية وغوامض أمورهم ، أنها لا تطلع الجند على غايتها الحقيقية ، بل هي بيعة إجمالية في صيغتها ، وهي لا تصرح بشخص الإمام العباسي من بين أهل بيت الرسول عليه السلام . وأول ما أخذه على الجند هو الطاعة التامة لولاتهم ، والواقع أن هؤلاء الثائرين قد استخدموا الدين على مبادئ حربية ؛ فلم يكن الرجل العادي بحاجة إلى أن يعرف أسرار قاداته ، بل كان يكفيه الإيمان بالراية السوداء . وكان للأحزاب الإسلامية قبل ذلك بزمان طويل ألوية من كل لون (٣) ، ولكن لم يبرز شأن

(١) قارن في هذا ما قاله فان قلوثن عن أهل الكفاية (الكفاية ٢) في كتابه :

Recherchen ، ص ٦٦ ، ٨٠ .

(٢) [راجع فيما يلي الطبري (ج ٢ ص ١٩٨٧ - ١٩٨٩ - المترجم] .

(٣) كان لون العلم أحمر عند الخوارج (الأغاني ج ٢ ص ٢٠ ص ١١٢ س ٢١) وكان أسود =

اللواء ولونه وأهميته عند أحد بروزه عند شيعة بنى العباس فى خراسان ، وكانوا يحملون اللواء الأسود على أبدانهم ، ويسمىهم نيوفانييس $\chi\omicron\upsilon\tau\alpha\sigma\acute{\alpha}\nu\iota\omicron\iota$ (١) $\mu\alpha\upsilon\rho\omicron\phi\omicron\rho\omicron\iota$ أى : الخراسانيون لابسو السواد ، كما يسمون عند صاحب كتاب الصلة لتاريخ إيزيدور (نشرة Mommsen ، فصل ١٣٤) : *Persarum pullata demonia* ، أى الشياطين السود من أهل فارس . ويقال إن لواء النبى عليه السلام كان أسود ، لذلك اتخذ العباسيون لواء أسود . وفى كتب النبوءات ورد ذكر الرجل صاحب العلم الأسود الذى يبدأ عصره جديداً . ولكن الحارث بن سريج ، وكان أول من قاد ثورة الموالى باسم الإسلام ، كان له أيضاً علم أسود . ويجوز أن أبا مسلم أخذ عن ابن سريج دون غيره العلم الأسود لأن هذا العلم كان قد أصبح محبباً إلى نفوس الموالى .

خاطب نصر بن سيار ، أمير مرو من قبيل بنى أمية ، العرب بالآيات التالية التى حفظها لنا الدينورى (ص ٣٦٠) ،

أبلغ ربيعة فى مرو وإخوتها أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضب

= بحسب الأغاني أيضاً وبحسب ص ٩٩ من ٩ ، قارن أيضاً (الطبرى ج ٢ ص ١٩٨١ و ص ٢٠٠٧ ، ولسان العرب ج ١١ ص ٣٢٩) . أما خصوم العباسيين فقد اختاروا اللون الأبيض ، ولم يقتصر ذلك على أهل الشام الموالين لبني أمية ، بل اختار العلويون أيضاً اللون الأبيض (الطبرى ج ٣ ص ٢٢٣ و ٢٧١ و ٢٩٥ و ٢٩٨ و ٣٦١ و ٥٠٨) . وكان بعض الثوار (الخرمية) فى بلاد الجبل يلبسون اللون الأحمر ، فسموا لذلك بالخمسة (الطبرى ج ٣ ص ٤٩٣ و ٦٤٥ فا بعدها و ١٢٣٥) . وكان مع الحسن بن على بن الحسن المعروف بالأنطاس علم أصفر فيه صورة حية (الطبرى ج ٢ ص ٢٣٧) . وكان لبعض الرجال العظاماء اللون الخاص الذى اتخذوه شعاراً لهم ، وكان يلبسه أيضاً والهم وأتباعهم (الطبرى ج ٣ ص ٥١٦) . أما عند العرب القدماء ، فكان اللون الأسود هو لون الأخس بالهأر (الأغاني ج ٨ ص ٧٥ س ٢٠) .

(١) الكتابة الصحيحة لهذه الكلمة هى $\chi\omicron\tau\alpha\sigma\alpha\nu$ أو $\chi\omicron\tau\alpha\sigma\alpha\nu$ ، ذلك أن تيوفانييس يجرى على ما جرى عليه المريان من استعمال $\sigma\upsilon$ على أنه حرف قصير ، أما كتابة الكلمة هكذا $\chi\omicron\tau\alpha\sigma\alpha\nu$ فهى خطأ ، وكذا الـ α حرف مدود .

ما بالكم تُلقيحون الحرب بينكمُ كأن أهل الحجى عن فعلكم غيبُ
وتركون عدواً قد أظلمكم ممن تأشَّب ، لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا ، فنعرفهم ولا صميم الموالى ، إنهم تُسيبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ، ولا جاءت به الكتب
فن يكن سائلى عن أصل دينهمُ فإن دينهم أن تُقتل العرب

وفى رواية عند الطبرى (ج ٢ ص ١٩٣٧ و ١٩٧٤ و ج ٣ ص ٢٥)
أن الإمام إبراهيم بن محمد نفسه أوصى أبا مسلم وصية صريحة : بأنه إن
استطاع ألا يدع فى خراسان من يتكلم العربية فليقل ، وأن يقتل كل غلام
بلغ خمسة أشبار يتهمه (١) . ويحكى تيوفانيسر (فى أخبار سنة ٦٢٤٠ من تاريخ
الخليقة) أن العبيد الذين أثارهم أبو مسلم فى خراسان قتلوا سادتهم فى ليلة
وأخذوا أسلحتهم وخيلهم وأموالهم وتجهزوا بها للحرب . أما فيما يرويه
الطبرى من أخبار تاريخية لدخول أبى مسلم مدينة مرو فلا يجد الإنسان شيئاً
من ذلك ، وكل ما يقال هو أن أبا مسلم قتل أربعة وعشرين من ثقات
أصحاب نصر وصناديدهم (٢) بعد أن هرب نصر . أما جند أبى مسلم فقد أمرهم
أبو مسلم بالتزام أدق نظام ، وحرّم عليهم أن يقتلوا أحداً من تلقاء أنفسهم .
وإذن فن الجائز أن تكون الروايات هنا كما فى أحوال أخرى قد لطفت
من ذكر الحوادث ، مراعاةً لجانب بنى العباس وإرضاء لهم ، ومن الجائز
أن يكون الموالى قد أطلقوا لغضبهم العنان فى عنف أشد مما يبدو من
الروايات التى ذكرها الطبرى . ولكن لا يجوز أن يبالغ الإنسان رغم ذلك
فى تأكيد القول بعداوة الموالى للعرب على أساس الشعور القومى عند
الموالى ، وذلك لأن حركة الثورة لم تأت من جانب أمة الأعاجم ،
بل من جانب فرقة ضيقة النطاق إلى حد ما ، ولم يكن العرب يُمتنعون من

(١) [قارن أيضاً الدينورى ٣٥٨ - المترجم] .

(٢) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٨٩ ، ١٩٩٥ - المترجم] .

للدخول فيها ، وكانت الثورة تستند إلى مبادئ دينية ذات طابع سياسى واجتماعى ، وأصلها فى الإسلام . ولم تكن حركة الثورة من حيث مبادئها موجهة ضد الأجانب ، بل كانت موجهة ضد الزنادقة . ولذلك سميت أسلحة الموالى بأنها كافركوبات^(١) . وكان أخص أخصاء أبى مسلم ، وهم أبو نصر وأبو داود وغيرهم ، ولم يكن القتال موجهاً إلى العرب من حيث هم عرب ؛ بل إلى العرب الحاكمين وبلاستناد إلى الإسلام ، لأنهم كانوا لا يحكمون بالعدل ولا يستندون فى حكومتهم إلى الحق والشرع ، ولأنهم كانوا يؤيدون حكومة بنى أمية الخارجة على الدين ، ولا يعترفون بمبدأ المساواة فى الحقوق بين المسلمين من العرب وغير العرب فى الدولة التيوقراطية . أما الأحزاب العربية التى كانت معارضة لبنى أمية كأهل العراق وقبائل اليمن فى خراسان فكان الأعاجم يعتبرونهم حلفاء لهم أولاً وقبل كل شئ . على أن مجاربة العربوبة فى الدولة الإسلامية باسم الإسلام قد انتهت فى الواقع بأن علا شأن الأعاجم وبأن صار العرب منذ انتهت سيادتهم بانتهاء سيادة بنى أمية أمة مضطهدة . وقد تنبأ بذلك نصر بن سيار . وكان ذلك أيضاً مما تقضى به طبيعة الأشياء ، لكنه لم يكن المقصد الأصلي . وقد غلبت قومية الغالبين على الإسلام نفسه ، بعد أن كبرت وترعرعت بين أحضانه . ولكن الإسلام ، لا فكرة القومية ، هو الذى كان القوة الدافعة فى نهوض أهل خراسان ، كما أن الإسلام كان من قبل هو القوة الدافعة فى نهوض العرب أنفسهم ، وهنا فى خراسان كان الإسلام مفهوماً فهماً جديداً حليفاً لأمة جديدة^(٢) .

(١) الأغاني ج ٤ ص ٩٣ والدينورى ص ٣٦٠ ، أما الطبرى فهو لا يذكر الكافركوبات إلا عند الكلام عن خشية المختار ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٢) [هذا رأى المؤلف . ولكن عداوة الموالى للعرب على أساس الشعور القومى شئ طبيعى ، ولا شك أنه قد كان له تأثير ، أما الإسلام الجديد الذى يتكلم عنه فهو الإسلام الأول تماماً ، وهو دين المساواة بين معتنقيه . ولكن لم يكن من طبيعة الأشياء ولا مما تقتضيه سياسة الدولة وتمكينها أن يكون العرب دولة ثم يسلموها للأعاجم فى أول الأمر - المترجم] .

٤ - وجهه أبو مسلم أبا داود خالد بن إبراهيم البكري ، أحد أنصاره المخلصين ، إلى طخارستان . وكان أبو داود في هذه البلاد من قبل يقوم بالدعوة (الطبرى ج ٢ ص ١٩٦٠ س ١٤ فما بعده) . وبعد أن أفلح أبو داود في إخراج زياد بن عبد الرحمن القشيري ، عامل بنى أمية ، من مدينة بلخ ، كتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم إليه ، وجهه مكانه يحيى بن نعيم البكري . ولكن يحيى كاتب زياداً في أن « تصير أيدىهم واحدة » ، وكان زياد لا يزال ثابتاً محتفظاً بسلطانه في مدينة ترمذ الحصينة ، غير بعيد من بلخ . وعند ذلك اتحدت كلمة جميع العرب في تلك الناحية ، مضربهم وديانتهم وربيعتهم ، على قتال المسوذة ، شيعة بنى العباس ، وانضم إليهم الأعاجم هناك ، وجعلوا الولاية عليهم لمقاتل بن حيان النبطي ، كراهة أن يكون القائد من الطوائف الثلاث . وإن اتحاد كلمة العرب والأعاجم على قتال شيعة بنى العباس يمكن أن يتخذ سنداً لتصورات خاطئة ، وما يستحق الانتباه أن بعض أعلام هؤلاء المتحالفين كانت سوداء - فلا شك أنها كانت أعلام الحارث بن سريج : وجهه أبو مسلم صاحبه أبا داود إلى الميدان من جديد ، وبعد معركة على نهر السرجنان خرج المتحالفون من بلخ مرة أخرى وتراجعوا إلى مدينة ترمذ . ثم كتب أبو مسلم إلى أبي داود يأمره للمرة الثانية بالقدوم عليه ، وجهه النضر بن صبيح المري إلى بلخ ، وقدم أبو داود على أبي مسلم ، واجتمع رأيهما على أن يفرقا بين علي وعثمان ابني جديع الكرمانى ، فبعث أبو مسلم عثمان عاملاً على بلخ ، ولكنه لم يستطع الثبات هناك لأن المضربة أقبلوا من ترمذ بقيادة مسلم بن عبد الرحمن الهاهلي ابن أخى قتيبة بن مسلم المشهور ، فأخرجوه من بلخ ، فكان لا بد أن يعود أبو داود إلى هناك للمرة الثالثة ، لأنه لم يكن عنه غنى . هذه هى الرواية التى يذكرها الطبرى

(ج ٢ ص ١٩٩٧ فما بعدها) ، وهي رواية لا يمكن أن تقوم رواية مقامها أحسن منها^(١) .

وصارت في يد أبي مسلم في أرض خراسان الحقيقية الولايات الشرقية الثلاث : وهي مرو ومرو الروذ وهرارة ، أما في القسم الغربي من خراسان ، وهو ولاية نيسابور ، فلم يكن في يده سوى مدينتي نسا وابيورد : وكان نصر بن سيار ، عامل خراسان ، يقيم في مدينة نيسابور : أما في سرخس فكان هناك شيبان بن سلمة الحروري^(٢) ، وكان قد تنحى هو أيضاً عن مرو بعد هروب نصر بن سيار منها ، ذلك أن شيبان لم يكن يستطيع البقاء هناك ، لأنه كان يرى رأى الخوارج ، وكان من قبل حليفاً لعلي بن جديع الكرمانى على قتال نصر ، لأن نصراً كان من عمال مروان بن محمد . فلما صالح على^٣ أبا مسلم اضطرب شيبان إلى الخروج من مرو ، علماً منه أنه لا طاقة له بحرب أبي مسلم وعلى بن جديع مجتمعين . فأرسل أبو مسلم إلى شيبان يدعوه إلى البيعة ، فأجاب شيبان قائلاً : أنا أدعوك إلى بيعتي ، فأرسل إليه أبو مسلم أن يختار بين الدخول في البيعة وبين الرحيل ، فسار شيبان إلى سرخس واجتمع إليه جمع كثير من قبائل بكر ، ولما لم يستجب إلى دعوة وجهها إليه أبو مسلم مرة أخرى بعث أبو مسلم جيشاً إليه فهزمه وقتله ، وفر جند شيبان ، وكان معظمهم من بكر ، إلى نيسابور ، ولحقوا بنصر بن سيار . ثم بدأ أبو مسلم في قتال نصر ، فنشأت الحرب الكبيرة التي أدت إلى انهيار دولة الأمويين أمام « الشياطين السود » ، ولم يتول أبو مسلم نفسه القيادة في هذه الحرب ، بل ولى قحطبة بن شبيب ، وكان عربياً من طي^(٢) . وكان قحطبة في

(١) فيما يتعلق بثورات على أبي مسلم ، قامت بعد ذلك في بلاد السغد ، راجع الطبري . ج ٣ ص ٧٤ و ٧٩ فما بعدها ، وكان للعباسيين يد في ذلك ، ولم يمكن إخضاع ما وراء النهر لسلطان الإسلام إخضاعاً تاماً إلا على يد أبي مسلم والعباسيين .

(٢) [فيما يتعلق بشيخان ومقتله راجع الطبري ج ٢ ص ١٩٩٥-١٩٩٧ - المترجم] .

(٣) قرن الحماصة ص ٣٠٣ فما بعدها .

أثناء الثورة غائباً في مكة وكان قد ذهب إليها للقاء الإمام إبراهيم بن محمد في أيام الحج ، ولم يعد إلا بعد أن استولى أبو مسلم على مدينة مرو . ولما انصرف قحطبة من عند إبراهيم بن محمد عقد له إبراهيم لواء وجعله على مقدمة أبي مسلم ، وجعل له القيادة والعزل والاستعمال ، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له (١) . وأقر أبو مسلم ذلك ، وأسند إليه القيادة : فخرج قحطبة في الجيش (٢) ، ومعه أو تحت إمرته أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي ونخازم بن خزيمة التميمي ونخالد بن برمك البلخي وغيرهم من القواد (٣) ، فوجه نصر بن سيار ابنه تمياً للقاء جيش أبي مسلم ، وبعد أن قاتل تميم وقتل في طوس ، خرج نصر من نيسابور في آخر شوال سنة ١٣٠ هـ ، الموافق آخر يونيه سنة ٧٤٨ م (الطبري ج ٢ ص ٢٠١٦) . وبعد ذلك بقليل من الزمان تحول أبو مسلم من مرو إلى نيسابور فنزلها (٤) ، وأخذ معه حليفه علي بن جديع الكرمانى وقتله في الطريق : وفي نفس الوقت قتل أبو داود البكري عثمان بن جديع الكرمانى في طخارستان (الطبري ج ٢ ص ١٩٩٩) . وهكذا أدى الحلف بين ربيعة وقحطان وبين شيعة العباسيين مهيمته ، وهو الحلف الذى أمكن بفضل الاستيلاء على مرو ، وأمكن القضاء على منافسة مقلقة بفضل قتل زعيم ربيعة وقحطان ، لأنه يظهر أنه كان لا يزال له في مرو مكانة قوية توازى مكانة أبي مسلم .

وكان نصر بن سيار قد خرج من نيسابور إلى قومس على حدود جرجان ، وكان معه العرب الذين هربوا من خراسان ، من قبائل تميم وبكر وقيس ، وكتب مروان بن محمد إلى يزيد بن هبيرة أمير العراق بأن يوجه نُباتة بن حنظلة الكلابي

(١) راجع في هذا الطبري ج ٢ ص ٢٠٠٠ - المترجم .

(٢) راجع الطبري أيضاً ج ٢ ص ٢٠٠٠ - ٢٠٠٣ - المترجم .

(٣) نجد عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠) أنه يضع قحطبة في مكانة ليست أقل من مكانة أبي مسلم .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٣ ، لكن قارن ج ٣ ص ٥٩ .

إلى جرجان^(١) : ولكن نباتة لم يتعاون مع نصر ، بل زاده ضعفاً ، لأن من كان في جيش نصر من قيس المخازوا إلى نباتة ، فقصد قحطبة إلى نباتة أولاً ، فدخل جرجان في ذي القعدة سنة ١٣٠ هـ ، ثم قاتل نباتة في يوم الجمعة مستهل ذي القعدة (الخميس أول أغسطس سنة ٧٤٨ م) ، وكانت معركة انهزم فيها نباتة وقتل ، ويظهر أن نصراً كان في أثناء ذلك قد أفلح في مقاومة الحسن بن قحطبة الذي كان قد توجه لقتاله ، وذلك أنه لما اقترب الجيش من نصر المخاز إلى أبو كامل - وكان أحد قواد الشيعة - وصار مع نصر وأعلمه مكان الحسن ، ولكن بعد أن قُتل نباتة لم يكت نصر في قومس طويلاً ، فهرب مخترباً المفازة حتى بلغ همدان ، ولكنه لم يجد في أي مكان تأييداً من عمال بني أمية^(٢) . وفي أحد الشهور الأولى من سنة ١٣١ هـ التقى قحطبة مع ابنه الحسن في قومس ، وخرج من هناك متوجهاً إلى الغرب ، وأرسل ابنه أمامه ، وسألت له الري وهمدان . ولكن جند الشام الذين كانوا في همدان فروا منها بقيادة مالك بن أدهم ، عامل همدان ، وكذلك جند خراسان الذين كانوا مع نصر بن سيار ، اجتمعوا جميعاً في نهاوند^(٣) وقاتلوا الحسن ابن قحطبة قتالاً شديداً لما جاء وحاصروهم هناك ، ثم أقبل عامر بن ضُبارة المُرِّي ، ومعه جيش كبير العدد حسن العدة من أهل الشام ، ليفك الحصار عن نهاوند ، فدخل أرض كرمان بجيشه ، وذلك بعد أن كان قد هزم عبد الله بن معاوية واضطره إلى الفرار ، ولكن بينا هو في طريقه إلى نهاوند هاجمه قحطبة بنفسه فهزمه وقتله^(٤) . ووقعت هذه المعركة الدامية عند جابلق من

(١) [راجع الطبري ج ٢ ص ٢٠٠٢ - ٢٠٠٦ ، ٢٠١٦ ، ٢٠١٧ - المترجم] .

(٢) مات نصر في ساوه قرب همدان في ربيع الأول سنة ١٣١ هـ (٩ نوفمبر سنة ٧٤٨ م) وهو ابن خمس وثمانين سنة [راجع في ذلك وفي وفاة نصر الطبري ج ٣ ص ١ - ٢ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبري ج ٣ ص ٣ - ٩ - المترجم] .

(٤) يجب بدلا من كلمة *Ibūdāqa* عند تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٠) أن نقرأ كلمة *Ibūdābaqa* بحسب ما جاء عند أنسطاسيوس ، لأن المقصود هو ابن ضبارة لا نباتة ، كما يظن رابسكه (Abulfeda, I, adn. 238) خطأ .

أعمال أصبهان في يوم السبت لسبع بقين من رجب سنة ١٣١ هـ (للثلاثاء ١٨ مارس سنة ٧٤٩ م) ، وبعد ذلك التقى قحطبة وابنه أمام نهاوند ، وبعد أن حاصرها ثلاثة أشهر (الطبرى ج ٣ ص ٧ س ١٨) طلب أهل الشام الأمان لأنفسهم ، وأهل خراسان لا يعلمون ، فنالوا الأمان دون زملائهم من أهل خراسان ، فنجوا ، وقتل أهل خراسان .

وعند ذلك أصبح الطريق إلى العراق مفتوحاً أمام قحطبة (١) ، فوجّه ابنه الحسن أمامه ، ثم خرج من نهاوند ولحق به ، ماراً بقرمسين ، حتى بلغ حلوان وخانقين . وكان ابن هبيرة ، أمير العراق من قبل مروان بن محمد ، قد خرج بجيش كبير عبر الفرات للقاء قحطبة ووصل إلى جلولة وعسكر بها ، فتجنّبه قحطبة بمهارة ، وعبر دجلة وتقدم إلى الكوفة من غير أن يمر بمعسكر ابن هبيرة ، ووقف حيناً عند الأنبار على الفرات . فأسرع ابن هبيرة في اللحاق به وعسكر إلى الجنوب على الشاطئ الأيسر لنهر الفرات ، عند الموضع المسمى فم الفرات في الفلوجة العليا حيث يتفرع النهر إلى الكوفة ، وأرسل حوثة بن سهيل الباهلي في مقدمة أمامه إلى الكوفة ، ولكن قحطبة عبر الفرات عند ديمسّا وسار مع الضفة اليمنى حتى بلغ الحائرة ، في مواجهة المكان الذي كان ابن هبيرة قد عسكر فيه . وفي ليلة الأربعاء ٨ المحرم سنة ١٣٢ هـ (الأربعاء ٢٧ أغسطس سنة ٧٤٩ م) عبر قحطبة الفرات عند مخاضة ، ومعه فرقة صغيرة ، وهاجم معسكر ابن هبيرة (٢) . فانهزم جيش ابن هبيرة وأصحابه مأخوذون ، فانسحبوا إلى فم النيل أولاً ، ولكن ابن هبيرة لم يمكث هناك ، بل سار مع جدول النيل حتى لجأ إلى مدينة واسط الحصينة التي كانت مقر الحكومة . ولما علم حوثة بذلك ، وكان قد تقدم حتى بلغ قصر

(١) [راجع الطبرى ج ٣ ص ١٠ - ١٨ - المترجم] .

(٢) وكل هذا جاء مشبهاً للخطط الحربية التي عمل بها مسلمة بن عبد الملك ، وهو

يحارب يزيد بن المهلب سنة ١٠١ أو ١٠٢ هـ .

ابن هبيرة^(١) ، لم يجرؤ على دخول الكوفة ، بل هو لحق بابن هبيرة في واسط ، وانتصر قحطبة انتصاراً تاماً ، ولكنه دفع حياته ثمناً لهذا النصر ، وذلك أنه في أثناء اضطراب الليل قُتِلَ على صورة خفية^(٢) ، ولا شك أن قحطبة قد قام ، من الناحية العسكرية ، بالعمل الأكبر في نصر العباسيين ، ولقد عقد النصر للواء الأسود ، ووطد في الأذهان أن هذا اللواء لا يُغلب . وتولى القيادة بعده ابنه الحسن ، وكان قد بقي على الضفة اليمنى ، فاستطاع أن يدخل الكوفة من غير قتال ، وذلك أن محمد بن خالد القسرى - وهو ابن خالد بن عبد الله القسرى الذي قتله بنو أمية ، وجعلوه من الشهداء - كان قد تجاسر ، ومعه اليمانية ، على القيام بالثورة تأييداً لبني العباس واستولى على القصر^(٣) . وبعد أن كان حوثة قد خرج لم يتعرض له أحد . وكتب محمد بن خالد إلى قحطبة ، ولم يكن يعلم بهلكه ، يخبره أنه قد ظفر بالكوفة ، فوقع الكتاب في يد الحسن بن قحطبة ، فجاء ودخل الكوفة في يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ١٣٢ هـ^(٤) (٢ سبتمبر سنة ٧٤٩ م) . أما في البصرة فقد حاول سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، ومعه اليمانية وحلفاؤهم من ربيعة ، أن يقوم بثورة لإسقاط حكومة الأمويين^(٥) ، ولكنها أخفقت ، وذلك أن أحياء قيس ومضر ومن كان معهم من أهل الشام ومن بنى أمية ومواليهم ناهضوه تحت قيادة سلم بن قتيبة الباهلي ، حامل البصرة ، فأخذوا حركة اليمانية وربيعه . فأخذ هؤلاء في كل مكان ينضمون إلى ثورة أهل

(١) [اسم مكان بنى فيه ابن هبيرة قصرأ ، فسمى فيما بعد قصر ابن هبيرة - المترجم] .

(٢) [راجع الطبرى ج ٢ ص ١٤ - ١٨ - المترجم] .

(٣) [راجع الطبرى ج ٣ ص ١٨ فابعدا - المترجم] .

(٤) [عند الطبرى (ج ٣ ص ٢ ص ١) أن الحسن بن قحطبة صبح محمد بن خالد في الكوفة يوم الاثنين - المترجم] .

(٥) [راجع في ذلك الطبرى (ج ٣ ص ٢١ - ٢٣ المترجم] .

خراسان ، على حين ظلت مضر تحارب وحدها من أجل سيادة العروبة (١) .

وعند ذلك ظهرت الحكومة السريّة لبني العباس أمام الناس في الكوفة (٢) ، وخرج أبو سامة « وزير آل محمد » من مخبئه وتسلم مقاليد الحكومة . فأقام في حمام أعين ، حيث كان يعسكر جند خراسان . وكان قد آن الأوان لبني العباس ، لكي يخرجوا من الركن الذي كانوا منزوين فيه ويتقدموا إلى الرياسة . ولكن كان قد وقع في يد مروان بن محمد كتاب من إبراهيم بن محمد بن العباس إلى أبي مسلم يوصيه فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية في خراسان ، فأمر الخليفة مروان بن محمد بالقبض على إبراهيم ابن العباس وبجعله من الحميمة إليه . ويروى أن إبراهيم بن العباس حين أخذ للمضى به إلى مروان بن محمد نعى نفسه إلى أهل بيته حين شيعوه ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وأمرهم بالسمع والطاعة له ، وأنه أوصى إلى أخيه أبي العباس وجعله الخليفة بعده . وإذن فلا بد أن يكون القبض على إبراهيم بن محمد قد وقع قبل دخول أهل خراسان في الكوفة بوقت قصير . وذلك لأنه لم يكمل يمضي شهر بعد هذا الحادث حتى وصل العباسيون إلى الكوفة في صفر سنة ١٣٢ هـ . وكانوا أربعة عشر رجلاً ، من أجيال مختلفة ، منهم أولاً أبناء علي بن عبد الله بن عباس : داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد ، وموسى بن داود ، ثم أبناء محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : أبو العباس وأبو جعفر ويحيى ، وأحفاد محمد بن علي : عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد وأخوه محمد وعيسى بن موسى

(١) أخذت هنا برواية الراوية القديم أبي مخنف ، وهذه آخر رواية عل لسانه عند الطبري (ج ٣ ص ١٠ و ١٤ و ١٥ و ٢٠) وعلى هذا فإن أبا مخنف قد شهد الكارثة ، ولكن لا بد أنه قد كان إذ ذاك قد بلغ من الكبر عتياً . والمدافئ وهو أكبر الرواة الذين يذكرهم الطبري يخالف أبا مخنف في نقط غير ذات شأن ، وهو يذكر تفاصيل أدق . قارن المسعودي ج ٦ ص ٧٣ واليعقوبي ج ٢ ص ٤١٢ والحماسة ص ٤٠٣ فما بعدها .

(٢) [راجع في هذا وفيما يلي الطبري ج ٢ ص ٢٤ - ٢٧ - المترجم] .

(٣٣ - الدولة العربية)

ابن محمد ، وأخيراً يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس من أحد فروع بني العباس (١) .

على أن هؤلاء العباسيين لم يُستقبلوا في الكوفة بذراعين مفتوحتين . وذلك أن أبا سلمة « وزير آل محمد » ، بعد موت إبراهيم بن محمد ، لم يعتبر حقهم في الخلافة حقاً بديهيّاً ، وخصوصاً أن أبا سلمة كانت تربطه بنبي العباس البيعة التي أعطاه للإمام إبراهيم بن محمد نفسه . وقد ضاق أبو سلمة بالعباسيين ، وحاول أن يكتّم أمر مجيئهم إلى الكوفة ، فأخفاه نحواً من أربعين يوماً عن جميع القواد والشيعه ، ومنع الناس من الاتصال بالعباسيين ، وكان يأمرهم بالاختفاء ، وكان إذا سُئِلَ عن ظهور الإمام يدعى أن وقت ظهوره لم يحن بعد ، وأن واسطاً لم تُفتّح بعد ، بل هو لم يبعث لأبي العباس بمائة دينار سأله إياها ليعطيها للجمال كراء الجمال التي حملتهم إلى الكوفة . وكان أبو سلمة يفكر ، بعد موت الإمام إبراهيم بن محمد ، في تحويل الأمر إلى آل أبي طالب . ولكن أبا الجهم ، أحد

(١) داود بن علي وابنه موسى لم يكونا مع الذين جاءوا من الحيرة ، بل هم لم ينضموا إلى العباسيين الذين خرجوا من هناك إلا وهم في طريقهم عند دومة الجندل . وقد حاول داود أن يثنّهم عن عزيمتهم في الذهاب إلى الكوفة . [وخصوصاً أن شيخ بني مروان ، مروان بن محمد ، كان بحراً مثلاً على أهل العراق ومعه أهل الشام وأن شيخ العرب ، يزيد بن عمر بن هبيرة ، كان في العراق في حابة العرب . ولكن بني العباس لم يستمعوا إليه وساروا وشعارهم كلمة قالها رئيسهم وهي : من أحب الحياة ، ذل ، وبيت للأعشى وهو :

فَمَا مَسِيَّتُهُ إِنْ مَسَّتْهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسُ غَوْلُهَا

فعند ذلك التفت داود إلى ابنه موسى وقال له : صدق والله ابن عمك ، فارجع بنا معه . نعيش أعضاء أو نمت كراماً - الطبري ج ٢ ص ٣٣ - ٣٤ - المترجم] . على أن الأسرة العباسية لم تكن دائماً مجمعة على الإمام إبراهيم بن محمد ، وقد انضم عيسى وعبد الله أبنا علي بن عبد الله بن عباس ، وأيضاً أبو جعفر ، أخو الإمام إبراهيم ، إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر لما خرج علي بن أمية (الطبري ج ٢ ص ١٩٧٧) . ويظهر أن سليمان بن علي أيضاً ، لا داود بن علي وحده - وسليمان لا يذكر بين العباسيين الأربعة عشر - لم يكن في الحيرة ، بل كان يقيم في العراق - قارن أيضاً اليعقوبي ج ٢ ص ٤١٩ .

خاصة أبي مسلم الخراساني ، استطاع أن يتصل بالإمام إبراهيم دون علم أبي سلمة ، وركب معه اثنا عشر من قواد أهل خراسان ، وخرج من معسكر حمام أعين فوجه إلى الكوفة ودخل على العباسيين وسلم هو ومن معه على أبي العباس بالخلافة . فاضطر أبو سلمة ، بعد أن علم ذلك ، إلى أن يذهب إلى هناك ويسلم هو أيضاً على أبي العباس بالخلافة^(١) . وكان أبو جهم ، بعد أن عاد ، قد خلف بعض أصحابه هناك ليروا ما سيفعله أبو سلمة وليضربوا عنقه إن لم يتبأع الإمام ، فلما فعل قال له أبو حميد أحد القواد : على رغم أنفك يا . . . فقال له أبو العباس : مه . وفي يوم الجمعة ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ (الجمعة ٢٨ نوفمبر سنة ٧٤٩ م) تمت البيعة العامة لأبي العباس وللأسرة الجديدة في المسجد الجامع بالكوفة . وصعد أبو العباس المنبر وخطب ، وكان موعوفاً ، فاشتد به الوعك فجلس على المنبر . وعند ذلك صعد عمه داود بن علي ، وكان دونه على مراقبي المنبر ، فخطب أيضاً ، والخطبتان قد وصلتا إلينا ، لكنهما غير صحيحتين ، وإن كان ما تضمنتهما يناسب الموقف ، فقد جاء فيهما بيان فضل بيت الرسول وحقوقهم ، وذكر آيات من القرآن في ذلك ، كما أشارت خطبة الإمام إلى الدعوة الباطلة التي يدعيها البعض في أن غير العباسيين أحق^٢ منهم بالرياسة والخلافة^(٢) ، والمقصود هنا هم العلويون . وقد تضمنت الخطبتان تأكيد المودة والمصلحة المشتركة بين العباسيين وبين أهل الكوفة^(٣) ، فعاطبهم الخليفة قائلاً : « يا أهل الكوفة ! أنتم محل

(١) هكذا يروي المدائني (الطبري ج ٣ ص ٢٨ فا بعدها) . وثم رواية أخرى تختلف عن ذلك (الطبري ج ٢ ص ٣٤ فا بعدها) ، قارن المسعودي ج ٦ ص ٩٢ فا بعدها واليعقوبي ج ٢ ص ٤١٣ .

(٢) جاء في خطبة الإمام : وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة منا . الخ . . . (الطبري ج ٣ ص ٢٩ س ١٧) . [والمؤلف على حق فيما يراه من أن السبئية كلمة تشيع تطلق على بعض شيعة علي الأولين - المترجم] .

(٣) قارن ما جاء على لسان خالد بن عبد الله القسري (الطبري ج ٢ ص ١٨١٦ س ٧) من تهديده هشام بن عبد الملك بالدعوة إلى « عراقى الهوى شأى الدار حجازى الأصل » ، بقصد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يتسنيكم عن ذلك تحامل
 أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا وأناكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس
 بنا وأكرمهم علينا . وخاطبهم داود بن علي قائلاً : « يا أهل الكوفة !
 إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا
 أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجبنا ، وأظهر بهم دولتنا ،
 وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه نتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة
 من هاشم وبيّض بهم وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم
 السلطان وعز الإسلام ، ومن عليكم بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن
 الإيالة . فخذوا ما آتاكم الله بشكر وألزموا طاعتنا ، ولا تسخذعوا عن
 أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، وإن لكل أهل بيت ميصراً ، وإنكم
 ميصرنا » . وهكذا نجد بني العباس يقولون إن شيعتهم من أهل خراسان ،
 وهم إذ قضوا على سلطان بني أمية حرروا أهل العراق أيضاً من نير أهل
 الشام . وهكذا أيضاً انتهى الصراع الذي دام بين أهل العراق وبين أهل
 الشام قرابة قرن ، دون أن يصل إلى نتيجة ، ينصر أهل العراق . وعاد
 مقر الخلافة إلى الكوفة التي كانت مقر علي بن أبي طالب من قبل . والعبارة
 البارزة في خطبة داود بن علي هي قوله لأهل الكوفة : « إن لكل أهل
 بيت مصراً ، وإنكم ميصرنا » . وكان لا بد من ذلك بطبيعة الحال
 لإرضاء شعور أهل الكوفة ، ولكن محور الثقل في الدولة الإسلامية قد
 انتقل بالفعل من دمشق إلى الكوفة والعراق ، وكان ذلك حادثاً له شأن
 حاسم (١) .

على أن أبا العباس لم يكن عظيم الثقة بأهل الكوفة (٢) ، فلم يجعل مقامه في
 مدينتهم ، بل أقام في حمام أعين ، بين أهل خراسان . وبعد حين من الزمان

(١) راجع نيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤) .

(٢) [راجع في هذا أو فيما يلي الطبري ج ٢ ص ٣٧ ، ٥٨ ، فابعدهما - المترجم] .

انتقل إلى الحيرة ، ثم انتقل منها إلى الهاشمية ، وذلك ، فيما يذكر ، لكي
يبعد بنفسه عن أبي سلمة : وكان أبو سلمة يقيم في حمام أعين ، وظل ما بين
الإمام وبين أبي سلمة متباعداً ، فكان أبو سلمة يميل إلى العلويين ، وكان
يجاهر بذلك حتى ثبتت الريبة به وثبت أنه لم يكن في ذلك وحده ، وخصوصاً
أن أزمّة قيادة حزب الشيعة كانت في يده حتى ذلك الحين : ولم يجروا
الخليفة على أن ينفرد بمواخذته ، وذلك أن الخليفة لم تكن له قوة وكان
في الواقع من صنع القوم الذين كان في الظاهر يستخدمهم في الوصول إلى
غاياته - كان من صنع أهل خراسان ، صنّاع الملوكة ، وكان هؤلاء
الخراسانيون ، إلى جانب ذلك يعلمون حق العلم ضعف السند الشرعي
لخلافته ، فكان الخليفة مفتقراً كل الافتقار إلى حسن نوايا قوم آخرين كان
لهم من النفوذ والقوة أكثر مما كان له ، فأرسل أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد
إلى خراسان ليعلم له رأى أبي مسلم ، صاحب النفوذ الأكبر على جيش
خراسان ، وليعرف هل كان مسلك أبي سلمة إزاءه عن رأى أبي مسلم
أم لا . وكان من حسن الحظ أن أبا مسلم لم تكن له يد فيما صنع أبو سلمة ،
ولا شك أنه قد أقرّ عين العباسيين ، لما بعث لأبي سلمة من قتله . وفي
الوقت نفسه قتل أبو مسلم منافسه القديم سايمان بن كثير رئيس النقباء ،
وذلك أن أبا مسلم بلغه عن سايمان كلام يدل على ميله مع أبي سلمة إلى
العلويين ، فاعتزم أبو مسلم ذلك وقتله ، شفاء لما كان في قلبه من بغض
له . وكان أبو جهم ، وهو من خاصة أبي مسلم ، عند الخليفة أبي العباس
ليراقب ما يصنع ، وكان غالباً على أبي العباس (١) :

وبينما كانت هذه الأمور تجري في المشرق ، كان المغرب أيضاً مسرحاً
لحوادث تهز النفوس (٢) . فبعد سقوط نهاوند في ذى القعدة سنة ١٣١ هـ ، وجه

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٣ والطبري ج ٢ ص ٦٧ و ٨٨ .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٩ فا بعدها و ص ٣٨ فا بعدها نقلاً عن المدائني في الغالب .

قمحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي إلى شهرزور ، وبعد معركة كان له فيها النصر في ذي الحجة سنة ١٣١ هـ (١٠ أغسطس سنة ٧٤٩ م) أخرج أبو عون جند الشام من شهرزور ، ونزل أرض الموصل إلى شمال نهر الدجلة وثبت أقدامه هناك ، وبعد الاستيلاء على الكوفة جاءته إمدادات من هناك ، لكنه اضطر إلى أن ينزل عن القيادة إلى عبد الله بن علي بن العباس . وسار الخليفة مروان بن محمد من حران ومعه جنود الجزيرة والشام من العرب وتقدم عبر الفرات لقتال أهل خراسان . ووقعت المعركة على ضفة نهر الزاب الكبير ، وبدأت في ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ . وانتهت في يوم السبت ١١ جمادى (الأحد ٢٥ يناير) هزيمة مروان هزيمة قبيحة . ويقول تيوفانيس إن جيش مروان كان يتألف من ثلاثمائة ألف رجل ، وأنه قد فرّ من جيشه آلاف أمام ألف واحد وعشرة آلاف أمام ألفين من جيش أعدائه . ونجد في روايات أخرى ذكر الفارق الكبير بين عدد كل من الجيشين المتقاتلين . ومن السهل أن نفهم المقصود من ذلك ، وهو إثبات القاعدة الكبرى ، وهي أن النصر من عند الله ، فهو الذي ياقى الرعب في قلوب الفئة الكبيرة من الكافرين أمام الفئة القليلة من المؤمنين . أما بحسب رواية للمدائني (الطبري ج ٣ ص ٤٧) فلم يكن جيش مروان يزيد عن اثني عشر ألف رجل ، وكانت كفة مروان في أول الأمر هي الراجحة ، ولكن الهزيمة القبيحة جاءت من أن قيساً لم تشأ أن تقاوم دون قضاعة (١) . على أنه مما لا شك فيه أن الثقة في النصر وصدق العزم على القتال كانا في جانب أهل خراسان ، وكان العرب قد فقدوا الثقة ، ولم يريدوا أن يضحوا بأنفسهم . وقد أخرج مروان الأموال ووعدهم أن يعطيها لهم ، إن

(١) [لما هجم أهل خراسان قال مروان لقضاعة : انزلوا ! فقالوا : قل لبني سليم فليزلوا . فأرسل إلى السيكاسك أن اخلوا ، فقالوا : قل لبني عامر فليحملوا ... وهكذا (الطبري ج ٢ ص ٤٠ - ٤١) - المترجم] .

حصيروا وقاتلوا ، ولكنهم مالوا على الأموال فأخذوها ، حتى إذا قيل : « الهزيمة » ، انهزموا . وغرق كثير من الهاربين في نهر الزاب ، لأن الجسر كان قد قطع .

وعبر مروان نهر الدجلة راجعاً إلى حران ، فبقي هناك نيفاً وعشرين يوماً ، ومما يحسب له من الفضل والنبل أنه عند ذلك خلّى سبيل المعتقلين السياسيين الذين وجدهم في الحبس أمامه ، أما الذين كانوا قد حاولوا الهروب قبل وصوله فقد قتلهم أولياؤه من أهل حران . وذهب مروان من حران إلى قنسرين ومنها إلى حمص ثم إلى دمشق ثم إلى حصن أبي فطرس عند Jope (يافا ؟) ، ونزل هناك في جوار رجل من أمراء جندام بني روح ابن زنباغ ، وذلك لأن أرض فلسطين كانت قد خرجت من يد حكومة بني أمية . ومن أبي فطرس هرب مروان إلى مدينة القرما من ساحل مصر ، لما اقترب مطارذوه مهديين له . وتبعه عبد الله بن علي ، في جند خراسان ، وانضم إليه في أثناء الطريق أخوه عبد الصمد وأخوه صالح ، فسار إلى الموصل ومنها إلى حران فنبج فقنسرين فبعلبك فعين الجر ، حتى بلغ المزة قرب دمشق ، وهناك نزل ، فاستولى على مدن الشام من غير قتال . وطبعي أن هذه المدن لم تكن متعلقة بمروان (المسعودي ج ٦ ص ٨٤ فما بعدها) ، ولكن عبد الله اضطر أن يحاصر دمشق ، وكان مروان قد استخلف فيها الوليد ابن معاوية بن مروان بن الحكم ، وكانت له القيادة . غير أن أهل دمشق لم يقفوا إلى جانبه بقوى متحدة ، ثم تعصب الناس فيها ، فقتل بعضهم بعضاً وأخيراً قاتلوا مروان وفتحوا أبواب المدينة لعبد الله بن علي في يوم الأربعاء العاشر من رمضان (١) سنة ١٣٢ هـ . وبعد أربعة عشر يوماً سار عبد الله إلى فلسطين ، ومنها ارتحل إلى الأردن . ثم أتى نهر أبي فطرس ، وبعد ذلك وجه أخاه صالح بن علي في طلب مروان في مصر ، ومعه أبو عون . فخرج صالح في ذي القعدة سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) قاصداً مصر ، وفر مروان أمامه من مكان إلى مكان حتى انتهى إلى بوصير عند

(١) [يقول المؤلف في ١٤ رمضان . وقد تابعا الطبري ج ٣ ص ٤٨ - المترجم] .

الروضة في جهة الأشمونين من بلاد الصعيد ، وهناك عُرف مكان مروان ،
وتفرق عنه أصحابه بعد قتال شديد (تيوفانيس) وقتل (١) . وقد هاجمه
عربي من أهل خراسان من بلحارث اليميني في جماعة من أصحابه ، وكان هذا
الخراساني وهو يهاجم مروان يقول لأصحابه بالفارسية : دهيد يا جوانگان ،
أي اضربوا أيها الفتيان ! وقتل مروان ، وكان ذلك في آخر سنة ١٣٢ هـ -
أول أغسطس سنة ٧٥٠ م (٢) - وأرسل برأسه وشارات الخلافة أيضاً ،
بحسب رواية المسعودي ، إلى أبي العباس . وفي بيت شعر يذكره ابن الأثير
(ج ٢ ص ٣٢٧) أن لسان مروان قد أكله هرث . وبقي أبو عون في مصر ،
وكان هو في الواقع القائد الحقيقي للحملة .

أما مدينة واسط ، وهي الحصن الذي كان الحجاج قد بناه في أرض القصب
من وادي دجلة ، فإنها لم تكن قد غلبت بعد . وكان ابن هبيرة ، ومعه أهل
الشام ، قد لاذ بها ، بعد أن هزمه قحطبة عند بابل . وقد اجتمع إليه أيضاً بعض
عرب خراسان ، خصوصاً من بكر ، تحت قيادة يحيى بن نعيم (٣) ، فأتبعه الحسن
ابن قحطبة وحاصره هناك . وبعد حين أمر الخليفة أبو العباس أخاه أبا جعفر أن
يتوجه إلى واسط مع الحسن وأن يتولى القيادة ، ولكن الحسن كان في الواقع
هو المدبر للعسكر . ولم يكن الحسن في الحقيقة تابعاً للخليفة ، بل لأبي مسلم ، وقد

(١) [أخبر أسرى من جند مروان وقعوا في يد الخراسانيين بمكان مروان على أن
يقمنهم الخراسانيون ، وبلغه الخراسانيون في آخر الليل ، « فهرب الجند وخرج إليهم مروان في
فريسيير فأحاطوا به فقتلوه » . راجع الظهري ج ٣ ص ٤٩ ، وتجد تفاصيل ما يقوله المؤلف من
أمر قاتل مروان في ص ٤٩ - ٥١ - المترجم] .

(٢) قارن الأغاني ج ٤ ص ٩٢ والمسعودي ج ٦ ص ٧٦ فما بعدها ، والثنييه ص ٣٥٨ ،
وابن الأثير ج ٥ ص ٣٢٦ فما بعدها ، واليعقوبي ج ٢ ص ٤١٤ ، وياقوت ج ٤ ص ٦٧٠ ،
ويوم الاثنين (٢٧ الحجة) ، الذي يذكر هنا لا يتفق مع يوم الأسبوع ، لا الأحد
ولا الاثنين .

(٣) لا يصح الخلط بينه وبين يحيى بن حصبين .

أرسل أبو مسلم أبا نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، ومعه جند من أهل خراسان ، لشدة أزر الحسن . ولم يكن الاتحاد سائداً بين أهل المدينة المحصورين ، وتشاجرت اليمن ونزار (أى مضر وربيعة) ، ولكن المدينة رغم ذلك قاومت الحصار أحد عشر شهراً . ولم يدخل ابن هبيرة في مفاوضات إلا بعد أن علم بمقتل مروان ، أى فى أحد الشهور الأولى من سنة ١٣٣ هـ (خريف ٧٥٠ م) ، ودامت المفاوضات أربعين يوماً ، إلى أن وضع العلماء الأمان الذى كتب على نحو يرضى الطرفين (١) . وقد أقره أبو العباس ، ولكن بنى العباس لم يقفوا بما جاء فى كتاب الأمان الذى كتبه لابن هبيرة ، فقتلوا القواد الذين كانوا أسرى فى أيديهم ، وكانوا يحملون الخواتيم دلالة على مناصبهم ، وقتلوا الزاريين دون البغاثيين ، وأخيراً لقي ابن هبيرة نفس المصير ، بعد أن جرّد من حرسه وأُخذ ما كان فى يده من أموال (٢) .

ويروى الطبرى أيضاً هذا الحادث الذى تتجلى فيه القسوة والغدر الشائن :
على أن الطبرى يؤثّر السكوت عن رواية الاحتفالات الدامية التى جعلها

(١) [لما طال الحصار على ابن هبيرة تجنّى عليه أصحابه ، فقال البغاثية : لا نعين مروان وآثاره فيما . وقالت النزارية : لا نقاتل حتى يقاتل معنا البغاثية . وكان إنما يقاتل معه الصامانيون . والفتيان . وهم ابن هبيرة بأن يدعو إلى أحد العلويين ، فكتب إليه ، لكنه أبطأ فى الجواب . ثم كاتب أبو العباس أصحاب ابن هبيرة البغاثية وأطمعهم ، وخبرج إلى أبي العباس بعفهم ، ووعدوا ابن هبيرة أن يصلحوا له ناحية أبي العباس ، لكنهم لم يفعلوا . « وجرت السفراء بين أبي جعفر وبين ابن هبيرة ، حتى جعلوا له أماناً ، وكتب به كتاباً مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ابن هبيرة ، ثم أنفذ إلى أبي جعفر ، فأنفذ أبو جعفر إلى أبي العباس ، فأمره بإمضائه . « وكان رأى أبي جعفر الوفاء لابن هبيرة ، ولكن أبا العباس اضطر أن يأخذ رأى أبي مسلم ، لأنه كان لا يقطع أمراً دونّه ، فقال له أبو مسلم : « إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد . لا والله ! لا يصالح طريق فيه ابن هبيرة » . الطبرى (ج ٣ ص ٦٧) . وتجدر قصة الغدر بابن هبيرة وقتله فى ص ٦٧ - ٧٠ - المترجم] .

(٢) تجدر مراثى لابن هبيرة عند الطبرى ج ٣ ص ٧٠ وفى الحماسة ص ٣٧٢ فما بعدها والأغانى ج ١٦ ص ٨٣ فما بعدها .

بنو العباس من مظاهر الاحتفال بانتصارهم^(١) . ولقد كان الأمويون عاملوا بنى العباس بكرم وعفو لم يكن لهما داع^(٢) ، فشكر لهم بنو العباس ذلك بأن استأصلوا شأفتهم واستصفوا أموالهم ولم يراعوا فى ذلك أى اعتبار لإنسانى ، بل صبوا جام الغضب الإلهى والانتقام الشرعى على رعو س بنى أمية . ولما كان ليس لديهم من موجبات الأخذ بالتأثر لإقلال ، فإنهم استعاروا شيئاً من أسباب التأثر التى كانت عند العلويين وظهروا بمظهر التأثيرين لهم^(٣) ، فأتاهم ذلك فى الوقت نفسه وسيلة لمنحبة العلويين ، وذلك لأن الذى يمهّد الطريق إلى الرياسة ، بل الذى يزيد الحق فيها^(٤) ، ليس هو أن يكون عند الإنسان ما يوجب الأخذ بالتأثر ، بل هو الأخذ بالتأثر بالفعل . أما الباحث الحقيقى للعباسيين فقد كان سياسياً بطبيعة الحال ، لأنهم كانوا يريدون أن يقضوا على شر الأسرة الأموية بعد أن أسقطوها قضاءً تاماً . وكل ما فعله العباسيون يعيد إلى الأذهان ما صنعه « الأنبياء » من إفناء بيت عمرى^(٥) .

وكان المسرح الأكبر للمفطائع التى ارتكبتها العباسيون مع بنى أمية هو بلاد الشام ، وكان عبد الله بن على هو الذى تولى القيادة فى الشام . أما وزر هذه

(١) تجد أخبار ذلك عند اليعقوبى والمسعودى وابن الأثير وفى كتاب الأغاني . ومن الأهمية بمكان أيضاً قصيدة من ذلك العصر لرجل من العبلات أو المولى لهم ، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة عند ياقوت ج ٤ ص ٢٣٩ و ٣٣٦ و ٨٣١ ، وفى كتاب الأغاني ج ٤ ص ٩١ وج ١٠ ص ١٠٥ ، والعبلات أحد فروع بيت بنى أمية .

(٢) [لم يقتل بنو أمية من العلويين والعباسيين إلا من ثار على دولتهم ، وقد أحسن عمر بن عبد العزيز إلى آل البيت كما كان سليمان بن هشام يقضى حوائج العباسيين ويهرهم - الأغاني فى ج ٤ ص ٩٣ - ٩٦ - المترجم] .

(٣) [راجع مثلاً اليعقوبى ج ٢ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ والمروج للمسعودى ج ٢ ص ٢٠٧ ط القاهرة ١٣٤٦ هـ - المترجم] .

(٤) [ما يقصده المؤلف استناد بنى أمية فى محاولتهم الوصول إلى الخلافة ، إلى أنهم أصحاب التأثر لمقتل عثمان - المترجم] .

(٥) [فى تاريخ بنى اسرائيل - المترجم] .

الفظائع فلا يقع على كاهل أهل خراسان ، ويدل على ذلك ما جاء في كتاب الأغاني (ج ٤ ص ٩٤ و ٩٦) : وذلك أن أهل خراسان كانوا جنوداً يلتزمون روح النظام الدقيق ، ولم يكونوا يفعلون شيئاً إلا إذا أمروا به ، بل وقعت الأعمال الفظيعة بأمر من العباسيين (اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٧) . وما له مغزاه أنه لم يقلت من العتاب موتى الأمويين أنفسهم ؛ فنُبِشت قبور الخلفاء وغيرهم من بني أمية في دمشق ودابق والرصافة وفي قنسرين وغيرها من الأماكن ، وأُحرقت جثثهم بالنار ، إن كان قد بقي في قبورهم شيء منها . ومما يستلفت النظر أن عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبي سفيان لم يُمسَسَا بسوء ، وقد صبّ بنو العباس جام غضبهم على هشام بن عبد الملك ، وكان هشام قد فعل ما دعا بني العباس إلى ذلك (١) ، ولم يكن قد مضى على موته وقت طويل ، فنُبش عبد الله بن علي قبره وأخرج جثثته ولم يكن قد بلى منها إلا أرنبه أنفه ، وضربها بالسوط وصلبها ، ثم حرقته بعد ذلك وأذرى رمادها في الريح (المسعودي ج ٥ ص ٤٧١ فما بعدها) . وقد فعل عبد الله بن علي بمن كان على قيد الحياة من بني أمية أفظح فعلة في أبي فطرس ، وكان قد أقام هناك حيناً بعد أن كان قد أخرج مروان . فقد استدرج ، فيما يذكر ، أكثر من ثمانين من بني أمية ، فأمرهم أن يحضروا لأخذ الجوائز والعطايا ، ثم دعاهم إلى طعام ، كأنه قد اتخذ Jehu (ياهو) مثلاً له يحتذيه ، ثم ألقى بعض موالى العباسيين وبني هاشم أبياتاً من الشعر ، يحرضون بها عبد الله على الفتك ببني أمية والنار لمقتل العلويين والإمام إبراهيم بن محمد ، فلما سمعها عبد الله بدا كأنما التهب قلبه بنار النار ، فأمر بالأمويين فشدّخوا بالعمد وبُسِطت الأنطاع على جثث القتلى ونصبت عليها مائدة الطعام ، فأكل ، وهو

(١) [جاء في كتاب اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ أن هشام بن عبد الملك كان قد ضرب على بن عبد الله بن العباس ستين سوطاً ، فلما جاء ابنه عبد الله بن علي ثار لأبيه ، فنُبش قبر هشام وضربه مائة وعشرين سوطاً ، وهو يتناثر ، ثم جمعه وأحرقه - المترجم] .

يستمع إلى أنين الضحايا (١) حتى ماتوا جميعاً . وهذا المنظر ، بما فيه من استدراج الضحايا بدعوتهم إلى وليمة ومن إنشاد قصيدة تدعو إلى انفجار غضب يبدو غير مصطنع ، يتكرر في مناسبة أخرى تُضاف إلى أبي العباس . أو داود بن علي بدلا منه (٢) — وهذا مما يدعو إلى الشك في صحتها . أما وقائع المذابح والتمثيل نفسها فهي لا شك فيها . وقد بقيت في نفوس عرب الشام ولم تنمح ذكراها ، كما لم تنمح من ذاكرة الإسرائيليين القدماء تلك المذبحة التي قُضِي فيها على بيت عمرى . وقد وضع يوم أبي فطرس طابعه في جهة بنى العباس ، كما وضع يوم عزريل طابعه في جهة بيت Jehu . ويذكر المسعودى (ج ٦ ص ٧٦) أن ذلك الحادث المروع كان في ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يونيو سنة ٧٥٠ م) . أما تيوفانيس فهو يخطئ في جعله بعد ذلك بعامين (٣) . ولكن إشارته القصيرة التي لم يتنبه إليها أحد حتى الآن لها أهميتها ، لأنه يتضح منها أن الموضع المسمى بأبي فطرس هو المكان القديم الذي كان يسمى باسم أنتيپاتريس (Antipatris) :

أما في المدينة ومكة فقد كان داود بن علي هو جلاّد بني أمية (٤) ، وكان

(١) الكامل ص ٧٠٧ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٣٢٩ فا بعدها ، وثم رواية أخرى عند اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٥ فا بعدها ، وفي الأغاني ج ٤ ص ١٦٠ فا بعدها .
(٢) الأغاني ج ٤ ص ٩٤ ، وقتل الأعداء ، وهم مدعوون إلى طعام ، ظاهرة تروى كثيراً .

(٣) يقول تيوفانيس : « في سنة ٦٢٤٣ ، قتل الحاكم الجديد معظم (المسيحيين باعتبارهم) أقرباء الأسرة السابقة ، وذلك بأن قضوا عليهم في أنتيپاتريس في فلسطين بحيلة دبروها » . والذي يدل على أن الموضع المسمى عند العرب بأبي فطرس هو نفس المكان القديم الذي كان يسمى أنتيپاتريس هو اسم فطرس (Putrus=Patris) والحادث نفسه . والموضع القديم الذي كان يسمى أنتيپاتريس أو كفسربا Kapharsaba (راجع Josephus Ant, 16, 142, 13, 390) كان يقع في وادي الموجا عند الموضع الذي يجب أن نلتصق فيه حصن أبي فطرس بحسب وصف العرب . أما الشيء الذي لا يفهمه الإنسان فهو وصف الأمويين بأنهم نصارى فلا بد أن يكون هناك خطأ أو إدخال كلمة أضيفت إلى النص فيما بعد .

(٤) تجد مناظر مذبحتهم في كُندا عند صاحب الأغاني ج ٤ ص ٩١ فا بعدها وعند ياقوت ج ٤ ص ٢٤٤ .

سليمان بن علي جلادهم في البصرة ، أما في الحيرة فقد أمر أبو العباس نفسه بقتل من حُجِّل إليه من بني أمية أو من جاء إليه يلتمس الأمان . وكان من هؤلاء سليمان بن هشام ، الذي كان ألد أعداء مروان بن محمد ، فكان لذلك يعتقد أنه سينال الأمان التام . بل إنه بعد أن كَفَّ العباسيون آخر الأمر عن تعقب بني أمية كان من بقي من هؤلاء لا يأمنون على أنفسهم لو ظهروا ، فظَلَّوْا متسترين ، وقضوا حياتهم في الشدة والضر ، وكانوا دائماً يخشون أن يُؤْخَذوا فيُقتلوا إن عرفهم الناس . ولم ينسجُ منهم إلا حفيدة لهشام بن عبد الملك ، هرب إلى إسبانيا ووصل هناك إلى الرياسة .

ولكن أهل الشام الذين كان ملكهم حتى ذلك الحين ملكاً سلبياً أحنقهم آخر الأمر قتل أسرهم السابقة واستئصال شأقتها على هذا النحو القاطع ، ولم يكن حنق قيس على ذلك بأقل من حنق كلب . فثار قيس في قنسرين خاصة ، وكان على رأسهم أشرف رجل فيهم ، وهو أبو الورد مَجَزَّة بن كوثر ، أحد أحفاد زفر بن الحارث . وقد انضمت إلى قيس قبائل كلب في تدمر ، كما انضم إليهم عرب حمص ، فبايعوا لأبي محمد السفيفاني الذي كان مروان بن محمد قد خلى سبيله في آخر لحظة . وقد بايعه أبو الورد على أنه الوارث الشرعي للخلافة ، ولكن هؤلاء النائرين هُزِموا وشُتَّتْ شملهم على يد عبد الله بن علي عند مرج أحرم قرب قنسرين ، وذلك في آخر سنة ١٣٣ هـ (١) ، أي في آخر يولييه سنة ٧٥١ م ، وقتل أبو الورد ومعه خمسمائة رجل من أهل بيته وقومه . وهرب أبو محمد السفيفاني في أنصاره من كلب ، فتوجَّه إلى تدمر أولاً ، ثم هام في أرض الحجاز هارباً ،

(١) بنسب الطبري ج ٣ ص ٥٥ كان ذلك في آخر يوم من ذي الحجة سنة ١٣٣ هـ ، لكن ذلك اليوم لم يكن يوم ثلاثاء كما هو مذكور ، بل كان يوم خيس . أما تيوفانيس (في أخبار سنة ٦٢٤٢) فهو لم يكن يذكر أن ذلك في قنسرين بل حمص - ومن الجائز أن يكون قد وقع هناك قتال أيضاً .

حتى قبض عليه آخر الأمر ، وقتل في أيام أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس . ومما يستلفت النظر أن أهل الشام انصروا عن بني مروان الذين كانت فيهم الخلافة إلى السفينانيين الذين كانوا قد أزيلوا عنها ، وذلك أن المكانة التي وصل إليها أبو محمد السفيناني بعد مقتل الوليد بن يزيد على الفور ، لم تكن ترجع إلى صفاته الشخصية ، بل كانت ترجع إلى أنه لم يكن من أبناء مروان بن الحكم وعبد الملك ، بل من أبناء معاوية ويزيد ابنه . وهو لم يشتهر باسمه الخاص به بل بنسبته إلى بيت أبي سفينان ، فكان يسمى السفيناني ، بإطلاق هذه التسمية . ولم يختلف شأنه بموته ، بل هو زاد ، فكان السفيناني يعتبر في أول الأمر ، عند أهل الشام ، المهدي المنتظر ، وكان أهل الشام يعلقون آمالهم السياسية على عودته إلى الظهور من جديد . وفي آخر الأمر ، لما آلت الرئاسة إلى أعداء أهل الشام ، صار يقال إن السفيناني هو الرجل الذي سيظهر قبل ظهور المسيح الدجال ، وعلى هذا فإن شيخ بيت الأمويين قد بقي بعد سقوطهم أحد مظاهر اقتراب نهاية الدنيا (١) .

٥ - وسمى العباسيون حكومتهم باسم الدولة ، أعنى العهد الجديد (٢) . والواقع أن الانقلاب الذي كان قد تم في ذلك العصر كان هائلاً . وبسقوط بني أمية اندحر أهل الشام أيضاً إلى الوراء ، وقد كانوا قبل ذلك قد أسلموا مروان بن محمد الذي كان بغيضاً إليهم ، إلى مصيره المقدر له . وهم

(١) راجع كتاب Snouck Hurgronje, Mahdi, p. 11 ومجلة DMZ ، سنة ١٩٠١ ص ٦٩٠ فأبعدها .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٨٥ س ١٦ و ج ٩٦ س ١٩ ص ١٤٥ س ٩ ، وأبناء الدولة هم أهل خراسان الذين كانوا في خدمة بني العباس ، وكتاب الدولة - الطبري ج ٣ ص ٤٩٧ س ١ - اسم لكتاب كانت فيه نبوءات عن مستقبل بني العباس . أما فيما بعد فإن كلمة الدولة أصبحت تدل بوجه عام على الأسرة المالكة ، أو على المملكة . ويوجد شبيهه لذلك في تدبير معنى كلمتي نوبة وعقبة (Hudh. 47, 38) ، ولكن المعنى الأصلي للكلمة ظل باقياً إلى جانب ذلك ، فكان يقال مثلاً : صار المال دولة ، أي انتقل من يد إلى يد أخرى .

لم يهتبا لمقاتلة بنى العباس قبل فوات الوقت المناسب ، وهم بعد ذلك لم يستطيعوا أن يغيروا الموقف ، فانتصر السواد وفقد البياض ملكه ، ولكن أهل الشام ظلوا فى الحقيقة على محبتهم لأسرتهم السابقة (١) ، وقد عبروا عن ذلك بالفعل أيضاً ، ولكن جهودهم ذهبت سدى ؛ لأنه كان يعوزهم التنظيم ، ولم يبصروا الحقيقة إلا فيما بعد ، وهى أن القضية كانت قضيتهم وأنهم هم الذين خسروا ، فانتقل مقر الحكومة من دمشق إلى الكوفة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد ، وفقدت الشام سيادتها ، وتحجرت العراق من نير السيادة الأجنبية بعد أن ظلت تحاول أن تطرحه عن عائقها مائة عام فذهبت جهودها سدى . وبدى الآن أنها قد استعادت السيادة التى كانت لها فى أيام على بن أبى طالب ، وقد صرح بنو العباس فى وصف نزعتهم السياسية بأنها عراقية مضادة للسياسة الشامية .

ولكن انتهت فى الوقت نفسه سيادة العرب بالمعنى الحقيقى ، تلك السيادة التى كان يمثلها بنو أمية وأهل الشام ، ونحرب وطن العرب القديم ، وأوحش لإحاشاً تاماً ، حتى صار الحج غير آمن ، ولم تصبح القبائل العربية هى العناصر التى تتكون منها الدولة التيوقراطية . وفقدت القبائل مكان الصدارة فقدماً تاماً ، وتحجرت الموالى ، وزال الفارق بين المسلمين من العرب ومن غير العرب . وبعد أن نُحيت العروبة عن مكانها الذى كان يستند فى الأصل إلى قانون الحرب ، هذا القانون الذى لم يكن فيه محل لغير العرب ، تراجعت العروبة إلى الميدان المدنى المسالم ، وصارت حضارة عالمية يشترك فيها كل المسلمين - وكان أساس تلك الحضارة هو الدين . ولكن دين العرب لم ينهدم بانهدام الأمة العربية ، بل هو ازداد قوة ، وظلت اللغة العربية لغة الإسلام وابتلعت لغات أهم الأمم النصرانية فى

(١) ومن الطريف تلك الأخبار التى ذكرها الطبرى (ج ٣ س ٢١٦ فا بعدها) ، وكانت الدكرات تتصل بمعاوية خاصة ، وقد رأينا أن قبره ظل يزار إلى ما بعد وفاته بقرون .

آسيا القربية وإفريقية ، وإلى جانب ذلك رُسخت قدمها بين الكتاب والعلماء من أهل إيران ، أما شعرهم فقد ظل باللغة الإيرانية وبلغ بها مكانة رفيعة .

بل قد رجع شأن الموالى على شأن العرب ، لا بوجه عام بطبيعة الحال بل من بعض الوجوه . وكان أهل خراسان قد أعانوا العباسيين على النصر ، ففاسدوهم الغنيمة ، وصاروا من وجه ما ، هم الورثة لسلطان أهل الشام ، وإن كان موقفهم من رئاسة الدولة موقفاً غير موقف أولئك . فكانوا يسمون الشيعة والأنصار ، أو أبناء الدولة^(١) ، وكانت في يدهم القوة الظاهرة ، وكانوا منظمين تنظيمًا حربيًا ، وكانت في أيديهم مناصب القيادة ، واستطاع قوادهم أن يظهرُوا بمظهر السادة الكبراء . وكان يتألف منهم الجيش المرابط حول الخليفة ، وكان الخليفة يقيم بين حرسه هذا ، هذا ولم يكن ابتداءً بغداد في الحقيقة لكى تكون حاضرة عالمية ، بل لتكون معسكراً لجند خراسان . وقد أراد الخليفة أن يقيم في هذا المعسكر بعيداً عن الكوفة . ولكن أهل خراسان كانوا ، وهم في معسكرهم ، على صلة بوطنهم ، ثم صار رُجُحان شأنهم ، من حيث هم حزب وجيش في خدمة بنى العباس ، رُجُحاناً لأمتهم وبلادهم ، أى أن الكفة الراجحة صارت لبلاد العجم الشرقية ، وانتصرت العجمة (الإيرانية Iranismus) على العروبة تحت ستار الإسلام ، لا باعتباره ديناً للعرب ، بل ديناً للأمم .

وقد تغيرت بتغير الأسرة الحاكمة طريقةُ الحكومة الداخلية أيضاً . أما إن النفوذ الفارسي كان هو الراجح في ذلك فهو غير مؤكد ، فأما الذى لا شك فيه فهو أن نظام الحكم الداخلى لم يصبح عربياً على الإطلاق ، وكان العرب يحكم أنهم الأمة الفاتحة قد أصبحوا طبقة أروستقراطية حاكمة ، وكانت شبكة القبائل بما كان بينها من أنساب تمتد في الظاهر على البلاد التى تكونت منها دولةُ العرب ، وظل

(١) قارن إنجيل متى ، الأصحاح السابع عشر ، الفقرة الخامسة والعشرين .

هذا النظام القديم موجوداً في خطوطه الكبرى أيام الأمويين ، وإن كان قد تبين بعد قليل أنه نظام لا يمكن الاحتفاظ به في أيام بني العباس فقد زال هذا النظام بزوال ما كان يستند إليه من فوارق بين الطبقات ، ولم يكن بنو العباس ، كما كان الأمويون قبلهم ، يقفون على رأس طبقة أرستقراطية واسعة النطاق وينتسبون إليها ؛ وذلك أن أهل خراسان الذين كان بنو العباس يستندون إليهم لم يكونوا بمثابة عصبية لبني العباس أساسها وحدة الدم والاشتراك في النسب ، بل كانوا مجرد أداة لهم . وكان جميع المسلمين أمام بني العباس سواء ، ليس بينهم تفاوت طبيعي في الحقوق السياسية ، وكان للعباسيين وحدهم الحق المقدس في الرئاسة باعتبار أنهم ورثة النبي عليه السلام ، ولم يكن أمامهم عقبات في سبيل تنظيم الحكومة طبقاً للاعتبارات الفنية ، التي يبدو أنها تلائم طبيعة الأشياء وتلائم مصالحهم الخاصة ، فأصلحوا من نظام الإدارة إصلاحاً كبيراً وأصلحوا خاصة نظام الخراج والقضاء . وقد أبدوا عناية كبيرة في الاستماع إلى شكوى من يلجأ إليهم باعتبارهم السلطة العليا وفي إزالة أسباب هذه الشكوى ؛ ولكن بني العباس أخذوا في الناس روح الاهتمام بمسائل السياسة ، بعد أن كان هذا من قبل جزءاً من الدين ، وأفلحوا في إضعاف هذا الاهتمام أكثر بكثير مما أفلح الأمويون ؛ فأصبح المسلمون جميعاً ، العرب منهم وغير العرب ، مجرد رعايا ، ولم يكونوا يستطيعون أن يأخذوا بنصيبهم في تدبير الأمور العامة للدولة ، فاندحروا إلى ميدان الصناعات أو الاشتغال بالعلوم والفنون ، ولم يكونوا يستطيعون أكثر من التآمر سرّاً ؛ وانكشفت الدولة حتى أصبحت مقصورة على بلاط الخليفة ، وكان يحيط بالخليفة في أول الأمر عدد كبير متنوع من الخدام من الأمتين العربية والفارسية ، ثم أصبح محوطاً بطائفة كبيرة جداً أيضاً من أبناء الأسرة من الهاشميين . ولكن كان ينتمى لبلاط الخلافة إلى جانب ذلك الجيش أيضاً ، وكانت نواة الجيش متجمعة دائماً في مقر الخليفة ، فكانت بغداد من هذا الوجه لا تختلف عن مدينة الرسول

فحسب ، بل عن دمشق أيضاً . وكان في بلاط الخليفة بعد هذا عدد كبير من الموظفين المدنيين ، ليسوا من قواد الجيش ، ومعظمهم كانوا صنائع للخليفة وأصحاب حظوة عنده ، وكانت غالبيتهم من الموالي ، وكان لهم في أول الأمر تأثير من طراز تأثير أهل البطانة والمشورة الخاصة ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى أعلى المناصب الرسمية ، وكان الخليفة يرفعهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم يخفضهم فلا يجعل لهم شأنًا . وكانت الكوارث والدسائس التي تؤدي إلى ذلك شيئاً جارياً في بلاط الخليفة ، وكان الخليفة لا يقرب إليه رجالاً من ذوى النباهة ، لهم شأنهم ونباهتهم التي لا ترجع إلى مجرد المنصب ، إلا على كره منه ، ولم يكن العباسيون يهتمون بالأرومة والنسب حتى فيما يتعلق بنسائهم ، فلم يكن كرم الخند هو السبيل إلى الرفعة ، بل كان الخليفة هو الذي يرفع من يشاء ، فكان يمنح المكانة والجاه والكرامة بأنواع الكسبي والحلل المميزة (الطراز) ، فكان الخياطون والذين يوشون الخال يجردون ما يشغلهم . وقد حل محل الأرستقراطية السابقة موظفون في بلاط الخليفة بعضهم فوق بعض ، وكان بعضهم يتميز عن البعض ويشرف على عمله ، وكان على رأسهم وزير يدير الديوان ، وقد صار هذا الوزير في عصر متأخر هو الممثل المرئي للخليفة غير المرئي ، بحيث صار الخليفة لا يظهر على المسرح إلا أشبه بممثل بين حين وآخر ، وصار يوضع على عرش الخلافة بعد عاصفة من النزاع والتوتر الشديد . ثم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً نظام يجعل أمراء الأمصار ينيبون عنهم من يدبر أمور الولايات التي تسند إليهم ، أما هم فكانوا يقيمون في بلاط الخليفة ، خصوصاً إذا كان لهم ما يميزهم من انتساب إلى بيت الخلافة . وكان صغار الموظفين في الديوان من اليهود والنصارى ، وكان من السهل أن يجلبوا على أنفسهم بعض جمهور المسلمين وحسبهم ، وربما كان السيف هو أبرز شخص بين الموظفين في بلاط الخليفة بعد الوزير ، ولم يكن

العرب يعرفون هذا السياف ، ولا كان للأمويين سياف : أما بنو العباس فلم يكن لهم عنه غنى ، وكان النطع^(١) الذى يوضع إلى بجانب كرسى الخلافة ويقوم مقام خشبة الصلب من شارات الخلافة ، وكان القتل الذى ينفذ على الفور ، وكذلك تعمّد التعذيب القاسى ، مما يزيد فى الرهبة من جلال الخلافة . وإذا كان العباسيون قد فعلوا ذلك فهم إنما كانوا يحذون حذو الفرس ، وذلك أن شاه الفرس كان له الحق فى أن يقتل رعاياه أو يقيهم على قيد الحياة : وكذلك قلد العباسيون الفرس فى اتخاذهم للمعجم الذى كان للبلاط ، فكان يُسأل فيما يراد الشروع فيه من الأعمال الهامة ، بل كان يصحب الجيش فى الحملات الحربية : وأخيراً يجب التنبيه إلى أن استعمال عمال البريد كان من مميزات حكومة بنى العباس ، وكان أصحاب البريد فى الأمصار بمثابة حواس مرسلّة من دار الخلافة إلى جميع النواحي ، وكانوا يُختارون من بين أهل الثقة ، وكانوا أيضاً عيوناً تراقب أمراء الأمصار دون أن يشعروا . فكان البريد فى خدمة الجاسوسية ، وكان نقل الأخبار فى تلك الدولة المترامية الأطراف منظماً أحسن تنظيم ، حتى نجد الطبرى فى أواخر كتابه لا يكتفى بذكر تاريخ الحوادث ، بل هو يهتم بأن يذكر تاريخ بلوغ أنصارها إلى دار الخلافة .

وأهم ما يميز بين العهد الجديد وبين العهد القديم هو العلاقة بين الدولة وبين الدين ، فكان العباسيون يستندون فى حقهم فى الخلافة إلى أنهم جعلوا كلمة الإسلام هى العليا بعد أن عطل الأمويون أحكامه فى زعمهم ، وكانوا يقولون لهم يريدون إحياء السنة النبوية التى قد درست ، فدعوا علماء الشريعة من المدينة ، وكانت مقراً لهم حتى ذلك الحين ، إلى بغداد ، وكانوا دائماً يسألونهم رأيهم ، وذلك بأن كانوا يحرصون على وضع المشكلات السياسية فى ثوب فقهى .

(١) الأنطاع هى فرش تتخذ من الجلد ، كان يوضع عليها من يراد قتله .

ويعملون على أن يكون الحكم فيها طبقاً للقرآن والسنة : أما الحقيقة فهي أنهم كانوا يستغلون الإسلام في أغراضهم الخاصة ، وكانوا يربون علماء الشريعة في قصورهم ، وكانوا يحصلون منهم على الإفتاء بصحة أشد الإجراءات بعداً عن الحق . وهكذا تخلص العباسيون من متاعب المعارضة من جانب أهل الديانة بأن ساعدوهم على النصر وجعلوهم مرجعاً لهم : ولما كانت معارضة أهل الديانة قد وصلت بإسقاطها حكومة الأمويين إلى غايتها فهي تستطيع الآن أن تطمئن ، وذلك أن السياسة قد أصبحت في أيدي أمينة ، وليس على المسلمين بعد هذا أن يشتغلوا بها . ولما كان قد تحقق قيام الدولة التيوقراطية فيجب أن يزول مبدأ الثورة على السلطة القائمة . وقد أفلح العباسيون في أن يوجهوا الرأي العام هذه الوجهة ، وقد ساعدوهم على ذلك حاجة أهل ذلك العصر إلى الراحة بعد ثورات وحروب لم تنقطع ، وذلك أن العرب كانوا قد استفرغوا في القتال كل طاقة كانت لهم واستنزفوا دماء أنفسهم .

ويجب أن يتوقع الإنسان من العباسيين أن يحابوا الشيعة ، بعد أن كانوا حلفاء لهم في أصل الأمر ، ولكن العباسيين غيروا سياستهم . وبعد أن كانوا يعتبرون العلويين وأنفسهم حزباً واحداً صاروا يعادون العلويين تفادياً لأطباعهم ، وكذلك نبذ العباسيون خاصة أنصارهم ، وهم الشيعة الغلاة (الراوندية) الذين كانوا منتشرين في فارس بنوع خاص . وعلى هذا فإن العباسيين فيما يتعلق بالدين قد انصرفوا عن الفرس إلى العرب ، وتنكروا لأصل نشأتهم في طرف من الدولة بعد أن استقروا في وسطها وأصبحت في أيديهم السيادة على أرض الدولة كلها ، وانقادوا للمذهب الجماعية التي ليس لها آراء خاصة ، بل تأخذ الدين بالقبول على أنه مأثور منقول ، وتكتفي بالمأثور المنقول الذي ينظم الحياة العامة لجميع الناس على نحو واحد من طريق أداء العبادات وتطبيق أحكام الشريعة .

على أن العباسيين من هذه الوجهة ساروا في الطريق الذي سار فيه الأمويون ، رغم ما يبدو خلافاً لذلك ، غير أنهم كانوا أشد من الأمويين تمسكاً بما عليه الجماعة وأشدّ ضرباً على أيدي الفِرَق التي تنحرف عن مذهب الجماعة وتفسد الوحدة الدينية والسياسية ، ولما كان العباسيون ورثة الرسول عليه السلام فإنهم استفادوا أكثر مما استفاد الأمويون من الفكرة القائلة بأن واجهم لا يقتصر على النهوض بأعباء الرياسة الدنيوية بل هو يشمل الرياسة الروحية ، أعنى الإمامة ، وعلى حين أن أكبر ما اعتمد عليه الأمويون هو القومية العربية ، فإن بني العباس أقاموا سيادتهم على الدين وعلى حرس اتخذه لهم ، ويستطيع الإنسان أن يصف خلافتهم بأنها سيادة الدولة على الدين (Cäsareopapie) . وقد استعملوا من يطارد الزنادقة ؛ وأنشأوا نظاماً في امتحان عقائد الناس ، وذلك بقصد تعقب الزنادقة في أول الأمر ، ويظهر أن هؤلاء كانوا من نابعة الشيعة الغلاة في فارس .

وكذلك آل أمر أهل خراسان إلى أن صاروا فيما بعد قذرى في أعين العباسيين ، فتخلص المنصور من وصاية أبي مسلم بعد أن أصبح غير محتاج إليه . ولم يكن للمنصور من الصفات الكبيرة ما يداني به ما كان لأبي مسلم ، ولكن المنصور عرف كيف يكيد لأبي مسلم حتى قتله ، على أنه في أول الأمر لم يكن لبني العباس من الناحية الحربية غنى عن أهل خراسان ، بل لم يمكن القضاء على أهل خراسان أو تنحيهم جانباً ، حتى فيما بعد ، وقد حاول العباسيون بعد موت الرشيد محاولة من هذا النوع ، ولكنهم لم تؤد إلا إلى تثبيت أقدام الخراسانيين وزيادة قوتهم . وكذلك لم يفلح بنو العباس في أن يتحرروا من سلطان أهل خراسان باتخاذهم عدداً كبيراً من الجنود المرتزقة من البربر والصقالبة وأهل السغد والترك وتسليحهم وتنظيمهم للاستعانة بهم على الخراسانيين . وكل ما أفلحوا فيه لا يعدو أنهم أوقعوا أنفسهم تحت رحمة هؤلاء المماليك واستبدادهم ، خصوصاً

الترك من بينهم ، وانتهى الأمر بأن فقد العباسيون كل حول وقوة
وانحلت دولتهم :

وقد احتفظ الأعاجم بمركزهم الذى جعلهم أصحاب السلطان فى الدولة
نحواً من قرنين : ولكنهم لم يستطيعوا ، على مرور الزمان ، أن يحتفظوا
بسلطانهم فى وطنهم ، ولم يستطيعوا أن يصدوا تقدم الترك فى أرض
ما وراء النهر وفى طخارستان وخراسان ، هذا التقدم الذى كان للعرب قد
ردوه ووقفوا سداً منيعاً فى سبيله حقبة من الدهر . وهكذا صار الترك
آخر الأمور ورثة الدولة الإسلامية ، بعد أن كانوا قد عشنوا فيها بممالك
من قبل ، ويستطيع الإنسان بالإجمال أن يعتبر المغول منهم ، هؤلاء المغول
الذين لم يتوطنوا على كل حال فى بلاد الإسلام توطناً حقيقياً ، بل
اجتاحوها كالعاصفة المدمرة دون أن يتركوا وراءهم سوى آثار الخراب .

(انتهى الكتاب بحمد الله)

فهرس الأشخاص

(١)

ابن سبيخت : انظر فيروز حمدين
 ابن السوداء : انظر عبد الله بن سبأ
 ابن شريك بن الصامت الباهلي : ٤٨٣
 ابن عائذ : ٢٨٠
 ابن عباس : انظر عبد الله بن عباس
 ابن مرجانة : انظر عبيد الله بن زياد
 ابن أبيه
 ابن مُفَرِّغ (المغني) : ١١٥
 ابن مُلجَم : انظر عبد الرحمن بن ملجم المرادي
 أبو الأسود الدؤلي : ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٥
 أبو الأعور السلمي : ٩٣
 أبو أمامة : ٧٦
 أبو بكر (رضى الله عنه) : ٣٣ : ٣٤ ،
 ٣٩ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٩ ،
 ١٣٤ ، ١٤١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ،
 ٢٨٧
 أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : ٢٥٦
 أبو بكرة : ١١٣
 أبو بلال الخارجي : ١٢٢
 أبو جعفر (المنصور) : ٩٩ ، ٢٤٥ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٠ ، ٣٣٥ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ،
 ٥٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٢٣
 أبو الجهم : ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٧
 أبو خنيد : ٥١٥
 أبو خراش : ٥٤
 أبو داود البكري : انظر خالد بن إبراهيم
 البكري
 أبو الدرداء : ٧٦

أبان بن عقبة بن أبي معيط : ١٨٧
 إبراهيم (عليه السلام) : ١ ، ٣ ،
 ١٧ - ١٩
 إبراهيم بن الأشتر : ١٨٢ ، ١٨٧ ،
 ١٩١ ، ١٩٢
 إبراهيم بن الخطاب العدوي : ٤٨١
 إبراهيم بن سلمة : ٤٧٨
 إبراهيم بن محمد بن طلحة : ٢٨٧
 إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس :
 ٤٧٥ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩١ ،
 ٤٩٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ،
 ٥١٣ - ٥١٥ ، ٥٢٣
 إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الخزومي :
 ٣٤٠
 إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك : ٣٥٥ ،
 ٣٦٠ - ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
 الأبرد بن قرة التيمي : ٢٣٠
 الأبرش الكلبي : ٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٩
 الأبرش بن الوليد : ٣٦٦
 ابن أبي العرصة الكندي : ٤٣٤ ، ٤٣٥
 ابن أبي مياس المرادي : ٩٨
 ابن أثال (الطيب) : ١٣١
 ابن الأشعث : انظر عبد الرحمن بن محمد
 ابن بحدل : انظر حسان بن مالك
 ابن الحضرمي : ١٢٠ : ٣٨٢
 ابن الزبير : انظر عبد الله بن الزبير

أبو مسلم الخراساني : ٣٧٩ ، ٤٦٣ - ٤٦٦ ،
 ٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٨٥ ،
 ٤٨٦ ، ٤٩١ - ٥٠٩ ، ٥١٣ ،
 ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٣٣

أبو موسى : ٤٨١
 أبو موسى الأشعري : ٤٥ ، ٧٤ ، ٧٩ ،
 ٨٤ - ٨٨ ، ١٠٣ ، ٣١٨

أبو المنجم : ٤٨٢ ، ٤٩٢
 أبو يحيى (مولى بني سلمة) : ٤٨٠
 الأحنف بن قيس التميمي : ١٢٠ ، ١٣٢ ،
 ١٣٦ ، ٢٠٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ،
 ٣٨٩ ، ٣٩٥

الأخطل (الشاعر) : ١٩٩ ، ٢٠١ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٩

أخو مراد : أنظر عبد الرحمن بن ملجم
 المرادي

إدريس بن معقل العجلي : ٤٨٥

أرتنبيل : ٢٢٣

أرميا (النبي) : ٣٠٥

إسحق بن محمد بن الأشعث : ٢٢٥

أسد بن عبد الله القسري : ٣١٨ ، ٤٣٣ ،
 ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٣ - ٤٥١ ،

٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٨٠ - ٤٨٤

أسلم بن زرعة الكلابي : ٣٩٦

أسماء بنت أبي بكر الصديق : ١٩٤

إسماعيل (عليه السلام) : ١٧

إسماعيل بن الأشعث : ٢٣٧ ، ٢٣٨

إسماعيل بن جرير بن عبد الله القسري :
 ٣٢٣

إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر : ٢٦٢ ،
 ٢٨٥

إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس :
 ٥١٣

إسماعيل بن عياش : ٢٨٠

إشبوشتا : ١٦٦

إشداد بن جريحور : ٤٥٣

أبو دلف : أنظر شيبان بن عبد العزيز
 اليشكري

أبو ذر الغفاري : ٤٢

أبو روبة : ٣٠٨

أبو الزناد (الفقيه) : ٢٦٣ ، ٣٣٤ ،
 ٣٤١

أبو سعيد الهمداني : ٢٣٩

أبو سفيان بن حرب بن أمية : ١٦ ، ١٩ ،
 ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ١٥٨ ،

١٨٧ ، ٥٢٦

أبو سلمة الخلال : ٤٨٦ ، ٤٨٧ ،
 ٥١٣ - ٥١٥ ، ٥١٧

أبو صخر (الشاعر الهذلي) : ١٩٥

أبو الصميداء (مولى بني ضبة) : ٢٨٤ ،
 ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ - ٤٣٦ ،

٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٦٨

أبو العاص : ١٧٠

أبو العباس (السقاج) : ٥١٣ - ٥١٦ ،
 ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥

أبو عبيدة بن زياد بن أبيه : ٣٩٧

أبو عكرمة السراج : أنظر أبو محمد الصادق ،
 أبو عكرمة : ٤٨٠

أبو عمرو : ٣٢٤

أبو علاقة السكسكي : ٣٦٨

أبو علاقة القضاعي : أنظر أبو علاقة السكسكي

أبو عون : أنظر عبد الملك بن يزيد الأزدي

أبو فاطمة الإيادي الأزدي : ٤٣٥ ، ٤٤٢

أبو فديك الخارجي : ٤٠٧

أبو قطيفة : ١٥٩

أبو كامل (أحد قواد الشيعة) : ٥١٠

أبو لؤلؤة : ١٠٩

أبو محمد السفيناني : أنظر زياد بن عبد الله

ابن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

أبو محمد الصادق : ٤٧٨ - ٤٨٠

أشرس بن عبد الله السلمي : ٤٣٤ - ٤٣٨ ،

٤٤٠ ، ٤٤١

الأشعث : ١٥٩

الأشعث بن ذؤيب المدوي : ٤٠٠

الأشعث بن قيس الكندي : ٨٠ ، ٩٩

أشيم بن شقيق : ٣٨٧ ، ٣٨٩

الأصمغ بن ذؤالة الكلبي : ٣٦١ ، ٣٧٢

اصطفان (الراهب) : ٣٣٥

أعشى همدان (الشاعر) : ٢٣٩ ، ٢٤٠

الأفشين : ٤٣٢

أفشين كاس : ٤٤٨

الأنقري : أنظر يزيد بن هشام

الله (جل جلاله) : ٨ ، ٣٤٢ ، ١٣٤١٠

أمامة بن قحطبة : ٥١٠

أم أيوب بنت عمارة بن عقبة بن أبي معيط :

١٢١

أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب :

٢٥٩

أمين سلامة : ١٦٦

أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن العيص :

٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧

أودو (قائد الفرنج) : ٣٢٩ ، ٣٣٠

أوس بن ثعلبة بن زفر : ٣٩٧ - ٣٩٩

أوكوبا : أنظر عقبة بن الحجاج السلوي

إيلاس بن قتادة المجاشعي : ٣٩٠

أيوب بن أبي حسان : ٤٣٠

أيوب بن حمران : ٣٨٤

أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٢٥٦

(ب)

ببسة : ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١

بمير بن ورقاء الصريمي : ٤٠١ - ٤٠٤

بجوار اخذاه : ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٨٢

البخترى بن أبي درهم البكري : ٤٣٣ ،

٤٣٤

بدر طرخان : ٤٤٩

برمك : ٤٤٥

البريق بن عياض : ٥٤

بسر بن أرطاة : ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،

١١١ ، ١١٣

بسطام البيهي : ٣٧٣

بسطام بن مصقلة بن هيرة الشيباني : ٣٣٩

بشر بن جرموز الضبسي : ٤٣٥ ، ٤٤٢ ،

٤٦٢

بشر بن مروان : ٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ،

٢٢٠

بشر النصراني : ٣١٤

بطرس الدمشقي (الأسقف) : ٣٤٢

بطرس الميوسي : ٣٤٢

بكير بن حمران : ١٤٤

بكير بن ماهان : ٤٨٠ ، ٤٨٣ - ٤٨٧

بكير بن وشاح : ٣٩٩ - ٤٠٤

بلج بن بشر : ٣٣٢

بهراميس : ٤٥٣

بهلول بن بشر : ٣١٧ ، ٣١٩

بيان بن سمعان : ٣١٧

بيلاتوس : ٣١٦

(ت)

تميم بن نصر بن سيار : ٥٠٩

(ث)

ثابت بن قطبة : ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٣٦ ،

٤٧٠

ثابت قطنة الأزدي (الشاعر) : ٤٠٨ ،

٤١٥ ، ٤٣٥

ثابت بن نعيم الخداعي : ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،

٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨

ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السلمي :

١٦٩

الحارث بن قيس : ٣٨٦

حارثة بن بدر : ٣٩٠

حباية (المغنية) : ٣١٣ ، ٣١٤

حبیب بن عبد الله بن الزبير : ١٩٤

حبیب بن المهلب : ٣٠٦ ، ٤٠٩

الحنات بن يزيد : ١٢٠

الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل الثقفي :

٥٨ ، ١٠٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،

١٦٣ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ،

١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ،

٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٦ — ٢١٨ ،

٢٢٠ — ٢٢٦ ، ٢٢٨ — ٢٣٢ ،

٢٣٤ — ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ،

٢٦٢ — ٢٦٤ ، ٢٧٠ — ٢٧٣ ،

٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ،

٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ،

٣٠٥ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ،

٣٢٠ — ٣٢٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ،

٣٧٢ ، ٤٠٧ — ٤١٠ ، ٤١٤ ،

٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ،

٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٥٠ ، ٤٧٣ ،

٥٢٠

مُحَجَّر بن علي الكندي : ١١٠ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ٣٩٦ ، ٤٣٤

مُحَدِّقَة المدائني : ٧٨

حرب بن عثمان : ٤٨١

الحرب بن عبد الرحمن الثقفي : ٣٢٩

حريث بن قطبة : ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٧٠ ،

حريش بن هلال القريني : ٤٠٠ ، ٤٠١ ،

حسان بن مالك بن بحدل الكلبی :

١٦٧ — ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،

١٧٧ ، ١٧٩ ، ٢٠٥

حسان البطي : ٢٤٤ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،

الحسن البصري : ٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥ ،

٣٨٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥

(ج)

جابر بن وهب الراسبي : ١٢٠

جارية بن قدامة : ٩٦ ، ٣٨٢

الجايستار : ٩٠

جيفويه الحرثي : ٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،

جبلة بن زحر : ٢٤٠

جبلة بن مسروق : ٩٣

الجحاف بن حكيم السليمي : ٢٠١ ، ٢٠٢ ،

جديع الكرماني الأزدي : ٤٤٤ ، ٤٤٦ ،

٤٤٧ ، ٤٥٩ — ٤٦٢ ، ٤٦٤ ،

٤٦٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٢

الجراح بن سنان : ١٠٢

الجراح بن عبد الله الحكمي : ٢٦٠ — ٢٦٢ ،

٢٨٤ ، ٣٠٩ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨

جرير (البابا) : ٢٨٩

جرير (الشاعر) : ٢٤٩

جرير بن سعيد بن قيس : ٢٣٩

جرير بن عبد الله البجلي : ٧١

جعفر بن أبي طالب : ٣٦٩

جعيد بن عبد الرحمن المرسي : ٤٣٧ — ٤٣٩ ،

٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ،

الجهم بن صفوان : ٤٤١ ، ٤٦١

الجوزجان بن الجوزجان : ٤٥٢

جوسنيان (الثاني) : ٢٠٩ ، ٢١٠

(ح)

الحارث الأصغر الغساني : ١٢٨

الحارث بن بدر الغدافي : ١٢٤

الحارث بن سريج : ٤٣٦ ، ٤٤١ — ٤٤٨ ،

٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٩ — ٤٦٤ ،

٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٥٠٤ — ٥٠٧

الحارث بن عبد الله الأزدي : ١١٢

(خ)

- خازم بن خزيمه القيمي : ٤٩٥ ، ٥٠٩ ،
خاقان : ٣٠٩
خالد بن ابراهيم البكري (أبو داود) :
٤٨٢ ، ٤٩٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩
خالد بن برمك البلخي : ٥٠٩
خالد بن جرير بن عبد الله القسري : ٢٥٧ ،
٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ : ٣٠٥ ،
٣١١ ، ٣١٦-٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ،
٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣-٣٤٧ ،
٣٥٠ ، ٣٧٢ ، ٤٣٣ ، ٤٤٤ ،
٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٨٥ ، ٥١٢ ، ٥١٥
خالد الخريت : افظر خالد بن جرير بن
عبد الله القسري
خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد : ٣١٥ ،
٢١٩
خالد بن الوليد : ١٣١
خالد بن يزيد بن معاوية : ١٦٩-١٧١ ،
١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٠٠ ،
٢١٠ ، ٢١٥
خداش : ٤٧٧ ، ٤٨٢-٤٨٤ ، ٤٨٧-٤٩٠
خرايغرة : ٤٤٨
خراش بن جابر : ٢٧٤
الخريت بن راشد : ٨٠-٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٤
خمسرو بن يزدجرد : ٤٣٦
الخيرى : ٣٧٦

(د)

- داود (عليه السلام) : ١٦٦
داود بن سليمان بن عبد الملك : ٢٥٧

- الحسن بن شيخ : ٤٨١
الحسن بن علي بن أبي طالب : ٥٧ ،
٩٩-١٠٦ ، ١١٤ ، ١٧٨
الحسن بن علي بن الحسن (الأفطس) :
٥٠٤
الحسن بن قحطبة : ٥١٠-٥١٢ ، ٥٢٠ ، ٥٢١
الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٠١-١٣٦ ،
١٣٩-١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ،
١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ٣٨٣
الحسين بن تميم القيمي : ١٥٦
الحسين بن مالك : ٣٩٥
الحسين بن نمير السكوني : ١٤٧ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢
حصفين بن المنذر البكري : ٤١٩
الحطيفة (الشاعر) : ١٣٤
حفص بن سليمان بن الخلاّل : افظر أبو سلمة
الخلاّل
الحكم بن أيوب الثقفي : ٢٧٥
الحكم بن عمرو النفازي : ٣٩٦
الحكم بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك :
٣٦١-٣٦٣
همران بن أبان : ١١١
حمزة بن عبد الله بن الزبير : ١٩٤
حميد بن حريث بن بحدل : ١٩٧-٢٠١ ، ٢٠٤
حميد بن عبد الملك بن المهلب : ٣٠٥
حوثرة بن سهيل الباهلي : ٥١١ ، ٥١٢
حيان العطار : ٤٧٨
حيان النبطي : ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٧٠

٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ،
٢٤٦ ، ٣١٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،
٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٧٣

زياد الأعجم (الشاعر) : ٤١٥

زياد بن عبد الرحمن القشيري : ٥٠٧

زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ابن
أبي سفيان (أبو محمد) : ٣٤٧ ،
٣٥١ : ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٥٢٥ ،

٥٢٦

زياد بن عمرو العتكي : ٣٨٩ ، ٣٩٠

زيد (مولى نصر بن سيار) : ٤٩٥

زيد بن ثابت : ٤٤

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب :
٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ، ٣٧٠ ،

٤٧٣ ، ٤٧٦

زيرا (أمة الأحنف بن قيس) : ٣٨٩

(س)

سالم الأعين : ٤٨٠

سرجون بن منصور : ١٢٨ ، ١٢٩ ،
٢١٢

سعد بن أبي وقاص : ٢٩ ، ٤٠ ، ٨٤

سعد بن طلق الصريمي : ٣٩٠

سعد بن عباد : ٨٩

سعيد بن مهدي الشيباني : ٣٧٣

سعيد خديجة (خديجة) : ٤٢٨ ، ٤٢٩ ،
٤٧٩ ، ٤٨٠

سعيد بن العاص : ٤٥ ، ١٣٠

سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم ابن
أبي العاص : انظر سعيد خديجة

سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن صفان :

٢٩٩

سعيد بن عثمان : ٤٠٧

داود بن علي بن عبد الله بن عباس :
٥١٣ - ٥١٦ ، ٥٢٤

(ر)

الربيع بن زياد الحارثي : ٣٩٦

رجاء بن حيوة الكندي : ٢٠٩ ، ٢٥٦ -
٢٥٧ ، ٢٥٨

الرشيد (هارون) : ٥٣٣

روح بن زباغ الجذامي : ١٧٨ ، ٢٠٥

(ز)

زاذان فروخ بن يري : ٢١١ ، ٢٢٧

زائدة بن قدامة : ١٩٢

الزبير بن العوام : ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ - ٥٣ ،
٥٥ ، ١٢٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠٠

زرادشت : ٤٦٩

زفر بن الحارث الكلبي : ١٥٢ ، ١٦٧ ،

١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ،

١٨١ ، ١٨٥ ، ١٩٦ - ١٩٩ ،

٢٠٥ ، ٣١١ ، ٥٢٥

الزنبيل : ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ - ٢٣٤ ،

٢٣٨ ، ٢٥٣ ، ٣٠٩ ، ٣٩٧ ،

٣٩٩ ، ٤١٤

زُنْكَيْلُ ابْنِي : ٢٢٣

الزهرى (المحدث) : ٣٣٤ ، ٣٤١

زهير بن ذؤيب العلوي : ٤٠٠ ، ٤٠١

زياد (خال الوليد الأزرق) : ٤٨٠

زياد أبو محمد (مولى همدان) : ٤٨١ ،
٤٨٢

زياد بن أبيه : ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ،

١١٢ - ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ،

سليمان بن يزيد بن عبد الملك : ٣٥٠
 السمع بن مالك الخولاني : ٢٨٥ ، ٢٦٢ ،
 ٣٢٩ ، ٢٨٦
 سمرة بن جندب الفزاري : ١٢٢ ، ١٢٥
 السميدع الكندي : ٣٠٨
 سمية (أم زياد) : ١١٣
 سورة بن الحر التميمي : ٤٣٧ ، ٤٣٨
 سولون : ٢٢

(ش)

شارل مارتل (قارلة) : ٣٣٠
 شاه آفرید بنت فيروز بن يزديجرد بن شهریار
 ابن كسرى (أم يزيد بن الوليد) :
 ٤٦٠
 شاول (ملك اليهود) : ٨ ، ١٦٦
 شيث بن ربيعي الرياحي : ٧٨ ، ٨٠
 شبيب بن يزيد : ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٤٠ ،
 ٣٧٣
 شريح بن هاني الخارثي : ٨٤
 شريك بن الأعور الخارثي : ١٢٢
 الشعبي (القاضي) : ٢٣٩ ، ٢٤٧ ،
 ٢٦٣
 شماس بن دثار الطاردي : ٣٩٩ ، ٤٠٠
 شمر بن ذي الجوشن : ١٥٦
 شميل الألماني (الدكتور) : ١٤
 شيبان بن سلمة الحروري الخارجي : ٣٧٩ ،
 ٤٦٥ ، ٤٧٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠٨
 شيبان بن عبد العزيز اليشكري : ٣٧٧ ،
 ٣٧٩

(ص)

صالح بن طريف : انظر أبو الصيدا
 صالح بن عبد الرحمن : ٢١١ ، ٢١٢ ،
 ٢٥٨ ، ٢٥١

سعيد بن عمرو الحرشي : ٣١٠ ، ٣١١ ،
 ٤٢٩ - ٤٣٢
 سعيد بن مالك بن بحدل الكلبي : ١٦٧
 سعيد بن المسيب : ٥٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 سعيد بن هشام بن عبد الملك : ٣٦٧ ، ٣٦٨
 صفيان بن الأبرد الكلبي : ١٦٩ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣٠
 صفيان بن عوف : ٩٥
 صفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب : ٥١٢
 سفيانة (السيدة سفيانة الرسول) : ١٥٩
 سلافة (المغنية) : ٣١٣
 سلم بن أحوز التميمي : ٤٩٧
 سلم بن زياد : ١٦٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،
 ٤٠٧ ، ٤٢١
 سلم بن قتيبة الباهلي : ٥١٢
 سلمة بن ذؤيب التميمي : ٣٨٨ ، ٣٨٥
 سليمان بن حبيب : ٣٧١
 سليمان بن سعد : ٢١٢
 سليمان بن سلم الكلبي : ٣٥٤
 سليمان صرمد : ١٨١
 سليمان بن عبد الملك : ٢١٧ ، ٢٤٩ -
 ٢٥١ ، ٢٥٣ - ٢٦١ ، ٢٧٩ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ،
 ٣٢٩ ، ٣٤٧ ، ٣٨١ ، ٤١٧ -
 ٤١٩ ، ٤٢٣ - ٤٢٦
 سليمان بن عتبة : ٢٨٠
 سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس :
 ٥١٤ ، ٥٢٥
 سليمان بن كثير : ٤٨٢ - ٤٨٥ ، ٤٨٧ ،
 ٤٩٠ - ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ ،
 ٥١٧
 سليمان بن مرثد البكري : ٣٩٧ ، ٣٩٨
 سليمان بن هشام بن عبد الملك : ٣٢٧ ،
 ٣٤٠ ، ٣٥١ ، ٣٦١ - ٣٦٣ ،
 ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
 ٣٧٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥

عاموس (النبي) : ٢ ، ٢٠٣
عائشة بنت أبي بكر (أم المؤمنين) : ٤٠ ،
٩٣ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٢
عائشة بنت عثمان بن عفان : ١٥٢
عباد بن حصين : ٢٢٧ ، ٣٨٩
عباد بن زياد بن أبيه : ٣٩٦
العباس بن الوليد بن عبد الملك : ٣٤٧ ،
٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٥
عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي : ٢٦١ ،
٢٦٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
عبد الرحمن بن أبي بكر : ١٣٦ ، ١٣٩ ،
١٤٠

عبد الرحمن بن أبي ليلى : ٢٢٨
عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى : ١٢٥
عبد الرحمن بن الحكم : ١١٥ ، ١٨٦
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي :
١٣١ ، ١٣٠

عبد الرحمن بن زياد بن أبيه : ٣٩٦
عبد الرحمن بن العباس الهاشمي القرشي :
٢٣٩ ، ٢٣٢ ، ٢٢٨
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي : ٣٢٩ ،
٣٣٠

عبد الرحمن بن عبد الله القشيري : ٤٢٨
عبد الرحمن بن عديس البلوي : ٤٩
عبد الرحمن بن عوف : ٤٠ ، ٥١
عبد الرحمن بن قطن الفهري : ٣٣٠

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٢٢٤ ،
٢٢٦ - ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦
٢٥٢ ، ٢٧٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٩ ،
٣١١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨

عبد الرحمن بن ملجم المرادي التنجوي :
٩٨ ، ٩٩

عبد الرحمن بن موسى بن نصير : ٢٥٢
عبد الرحمن بن نعيم الغامدي : ٤٢٨

صالح بن علي بن عبد الله بن عباس : ٥١٣ ،
٥١٩

صبرة بن شيمان الحداني : ١٢٠ ، ١٢١ ،
٣٨٢

الصحاري بن شبيب : ٣١٧

صمصمة بن حرب العوفي : ٤٠٤

صفية (روجة عبد الله بن عمر) : ١٤٢

الصلت بن حريث الحنفي : ٣٨٨

صموئيل (ملك اليهود) : ٨

صول التركي : ٤٢٤

(ض)

الضحاك بن قيس الفهري : ٩٥ ، ١٢٥ ،
١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٦٧ - ١٧٧ ،
٣٥٨ ، ٣٧٣ - ٣٧٦

(ط)

طارق بن عمرو : ١٩٣

الطرماح : ٤١٥

طلحة بن الزبير : ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥١ -

٢٩٩ ، ٢٦٦ ، ١٢٩ ، ٥٥ ، ٥٣

طلحة بن زريق الخزاعي (أبو منصور) :

٤٨٢ ، ٥٠٣

طلحة الطلمحات الخزاعي : ٣٩٧

(ع)

عاتكة بنت يزيد بن معاوية : ٢١٥ ، ٣٠٢

عاصم بن عبد الله الهلال : ٤٣٩ ، ٤٤٣ ،
٤٤٤

عاصم بن يونس العجلي : ٤٨٥

عامر الشعبي : انظر الشعبي القاضي

عامر بن ضبارة المري : ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،

٥١٠

عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٤٥ ، ٤٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠

عبد الله بن عامر الأموي القرشي : ١١١ ، ١١٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧

عبد الله بن عباس : ١٨ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣

عبد الله بن عبد الملك بن مروان : ٢٢٩ ، عبد الله بن مضاه الأشعري : ١٤٦ ، ١٤٧

عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس : ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥

عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٨٤ ، ٨٥ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، ٢٠٢

عبد الله بن عمر بن عبد العزيز : ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨

عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي : ٤٧٦ ، عبد الله بن عمرو بن الحضرمي : ٩٥ ، عبد الله بن عمرو بن غيلان : ١٢٥ ، عبد الله بن الكواء اليشكري : ٧٨ ، عبد الله بن محمد بن الحنفية (أبو هاشم) : ٤٧٦ ، ٤٧٧

عبد الله بن محمد بن علي بن عباس (أبو العباس) : ٥١٣ ، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : انظر أبو جعفر المنصور ، عبد الله بن مروان بن محمد : ٣٦٦ ، ٣٧٦

عبد الله بن مسعدة الفزاري : ٩٥ ، ١٤٦ ، عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر : ابن أبي طالب : ٣٦٩ ، ٣٧١

عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني (الغوي) : ٣٣٧

عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ٥١٩ ، ٥١٣ ، عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك : ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٣

عبد العزيز بن مروان : ١٤٦ ، ١٧٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٥٩ ، ٣١٠ ، عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨

عبد الله بن بديل بن ورقاء : ٧٦ ، عبد الله البطال : ٣٢٨ ، عبد الله بن الحارود : ٢٣٦

عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب : انظر بيته ، عبد الله بن حنظلة الأنصاري : ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٣ ، عبد الله بن خازم السلمى القيمي : ٦٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٩

عبد الله بن خالد بن أسيد : ١٢٥ ، عبد الله بن جناب بن الأرت : ٧٩

عبد الله بن الزبير : ٦٥ ، ٨٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٤٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٩١

عبد الله بن زياد بن أبيه : ٣٨٦ ، عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) : ٤٣ ، ٤٨ ، ٦٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧

١٥٦ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧١ - ١٧٥ ،
 ١٨١ - ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ،
 ٢١٣ ، ٣٨٣ - ٣٨٩ ، ٣٩١ ،
 ٣٩٢ ، ٣٩٦ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ،
 عبيد الله بن زياد بن ظبيان البكري : ١٨٥ :
 ١٨٠ ، ١٩٢ ،
 عبيد الله بن عباس : ١٠٢ - ١٠٦ ،
 عبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس القرشي :
 ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ،
 عبيد الله بن كعب النخعي : ١٣٥ ، ١٣٨ ،
 عبيد الله بن مروان بن محمد : ٣٦٦ ،
 عتاب بن ورقاء التميمي : ١٩٢ ،
 عتبة بن غزوان : ١٠٩ ،
 عثمان بن جديع الكرمانى : ٥٠٧ ، ٥٠٩ ،
 عثمان بن حيان المري : ٢٤٣ ،
 عثمان بن عفان (رضى الله عنه) :
 ٣٩ - ٥٣ ، ٥٥ - ٥٧ ، ٥٩ ،
 ٦١ ، ٦٢ ، ٧٠ - ٧٢ ، ٨٤ - ٩٠ ،
 ٩٢ - ٩٤ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٩ ،
 ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٢ ،
 ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٨٠ ،
 ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ - ٢٨١ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩١ ، ٣٠٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ - ٣٩٦ ،
 ٤٧٥ ، ٥٥٢ ،
 عثمان بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك :
 ٣٦١ - ٣٦٣ ،
 عدى بن أرمطة الفزاري : ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
 ٣٠٣ - ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣٢٢ ،
 عروة بن المغيرة : ١٣٥ ،
 عروة بن هاني المرادي : ١٤٤ ،
 عطية التغلبي : ٣٧٤ ،
 عقبة بن الحجاج السلولي : ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 عقبة بن زرة : ٢٦٢ ،
 عقيبة اليهودي : ٤٥٣ ،

٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٤٦٣ ،
 ٤٧٤ ، ٥١٠ ، ٥١٤ ،
 عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي : ٧٩ ،
 عبد الله بن يزيد : ٢٨٠ ،
 عبد الله بن يزيد بن معاوية : ١٦٩ ، ١٧٨ ،
 عبد الملك بن الأحم : ٤١٧ ، ٤١٩ ،
 عبد الملك بن دينار الباهلي : ٤٣٦ ،
 عبد الملك بن عبد الله بن عامر : ٣٩١ ،
 عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف
 الثقفي : ٣٤١ ،
 عبد الملك بن مروان (الخليفة) : ٩٥ ،
 ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ،
 ١٥٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ - ١٨٨ ،
 ١٩٠ - ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
 ١٩٩ - ٢٠٢ ، ٢٠٤ - ٢٢٠ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٥ ،
 ٣٥٧ ، ٣٦٤ ، ٤٠١ ،
 ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٧٥ ، ٥٢٦ ،
 عبد الملك بن مروان بن محمد ، ٣٥٩ ،
 عبد الملك بن المهلب : ٤٠٩ ،
 عبد الملك بن يزيد الأزدي (أبو عون) :
 ٥٠٩ ، ٥١٨ - ٥٢٠ ،
 عبد المؤمن بن شعث بن ربيعي : ٢٣٩ ،
 عيدة بن رباح الغساني : ٣٥٩ ،
 عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي
 ابن عبد الله بن عباس : ٥١٣ ،
 عيس بن طلق الصريمي : ٣٨٩ ،
 عبيد الله بن أبي بكرة : ١١٣ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٨ ،
 عبيد الله بن الحر الجعفي : ١٨٥ ،
 عبيد الله بن زياد بن أبيه : ١٢٢ ، ١٢٥ ،
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،

عقيل بن أبي طالب : ٧٧

علقمة النخعي : ٧٨

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : ٣٧

٣٨ : ٤٠ ، ٤٣ - ٤٦ ، ٤٨

٥١ - ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤

٧٠ - ٧٤ ، ٧٦ - ٨٢ ، ٨٤

٩٩ ، ١٠١ - ١٠٦ ، ١١٠

١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٠

١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ٢٨٢

٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣٥٠

٣٦٩ ، ٣٨٢ ، ٣٩٥ ، ٤٧٤

٤٩١ ، ٥١٦ ، ٥٢٧

علي بن جديع الكرماني : ٤٦٥ ، ٤٩٦

٤٩٧ ، ٥٠٠ - ٥٠٢ ، ٥٠٧

٥٠٩

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٥٢

١٥٨

علي بن عبد الله بن عباس : ٤٧٥ ، ٤٧٦

٥٤٣ ، ٥١٨ ، ٥٢٣

عمار العبدي : ٤٨٠

عمار بن ياسر : ٧٦ ، ٧٨ ، ١٠٩

عمارة بن تميم اللخمي : ٢٣١ ، ٢٣٢

عمارة بن حريم : ٤٣٩

عمارة بن عقبة بن أبي معيط : ١٢١

عمارة بن يزيد : انظر خدائن

عمر بن أبي ربيعة : ٣١٩

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ٢٣

٢٦ ، ٢٩ - ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣

٥٦ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٥

١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤١ ، ١٥٧

٢٠٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ -

٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤

٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨١

٢٨٦ - ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٣٥ ، ٣٨١

عمر بن شبة : ١٢٢ ، ٢٢٠

عمر بن عبد العزيز : ٢٠٨ ، ٢١٦

٢١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠

٢٥٥ - ٢٦٤ ، ٢٧١ - ٢٧٣

٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ -

٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٦

٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧

٣٥١ - ٣٥٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦

٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩ - ٤٤١

٤٥٥ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣

عمر بن هيرة الغزاري القيسي : ٢٦١

٢٦٢ ، ٣١٠ - ٣١٢ ، ٣١٤

٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٤١ ، ٤٣١ -

٤٣٣

عمر بن الوضاح : ٣٥٨

عمر بن الحرث : ١٨٨

عمر بن الزبير : ١٤٨

عمر بن سعيد بن العاص : ١٤٢ ، ١٤٥

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٧٠ -

١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٨١

١٨٤ - ١٨٦

عمر بن سعيد بن مروان : ٢١٤

عمر بن العاص : ٤٣ ، ٤٥ ، ٧١

٧٢ ، ٧٤ ، ٨٤ - ٨٧ ، ٩٠

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠١

١٢٩ ، ١٣١

عمر بن عثمان بن عفان : ١٥٣ ، ١٥٨

عمر بن مرثد : ٣٩٨

عمر بن مسلم الباهلي : ٢٦٢ ، ٤٢٠

٤٣٣

عمر بن يزيد الحكمي : ١٦٩ ، ٣٠٥

عمر بن الحباب : ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٧

١٩٧ - ١٩٩ ، ٢٠١

عميرة اليشكري : ٤٣٤

عذبة بن سحيم الكلبي : ٣٢٩

عوف بن كعب : ٤٠٤

(٣٥ - الدولة العربية)

٤٥١ ، ٤٨ ، ٤٥ — ٤٣ ، ٣٩
 ٤٦٤ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٤
 ٤١٠٧ ، ٩٧ ، ٨٤ ، ٧٨ ، ٧٦
 ٤١٤٢ ، ١٢٤ ، ١١٠ ، ١٠٨
 — ١٥٦ ، ١٥٤ ، ١٥٠ ، ١٤٧
 ٤١٥٨ ، ٢١١ ، ٢٠٧ ، ١٧٨ ، ١٥٨
 ٤٢٧٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٥٩
 ٤٢٨٤ ، ٢٨٠ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦
 ٤٣٠٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩١
 ٤٣٤٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٠ ، ٣٠٨
 ٤٣٦٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٠
 ٤٤٢٨ ، ٣٩٨ ، ٣٨٧ ، ٣٨٣
 ٤٤٨٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٤ ، ٤٤٩
 ٤٤٩٦ ، ٤٩١ ، ٤٨٩ ، ٤٨٨
 ٥٠٣ — ٥٠٢ ، ٥٠١ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣

محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله
 ابن عباس : ٥١٣
 محمد بن أبي بكر : ٤٦ ، ٥٠ ، ٨٩ ، ٩٠
 ٩٤ — ٩٢ ، ٩٠
 محمد بن أبي حذيفة : ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٢ ، ٧٤
 ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤
 محمد بن أبي سفيان : ١٤٩
 محمد بن الأشعث : ١٤٣
 محمد بن الحنفية : ٤٧٦ ، ٤٧٧
 محمد بن خالد بن عبد الله القسري : ٥١٢
 محمد بن خنيس : ٤٧٨ ، ٤٨٠
 محمد بن زريق : ٢٨٠
 محمد بن السائب الكلبي : ٢٣٩
 محمد بن سعد بن أبي وقاص : ٢٣٩
 محمد بن سعيد الكلبي : ٣٥٤
 محمد بن عبد الله بن خازم : ٣٩٩ ، ٤٠٠
 محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ٣٢٤ ، ٤٧٥
 — ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤
 ٤٨٦ — ٤٩٠ ، ٥١٣ ، ٥١٥

كلثوم بن مياض القسري : ٣٢٣ ، ٣٢٤
 الكهيت (الشاعر) : ٣١٧ ، ١٣٣ ، ٤١٥ ، ٤٧٧
 كنانة بن بشر التميمي : ٩٣ ، ٥٠
 كوثر بن زافر بن الحارث : ٣١١ ، ٢٠٥
 كور صول الترقشي : ٤٤٨ ، ٤٥٢
 كونستانس (الهرقل) : ٩٥ ، ٤٦

(ل)

لاهر بن قريظ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥
 لوزريق : ٣٣١
 ليو (قيصر الروم) : ٢٨٩ ، ٣١٤

(م)

مايسر جسان (القديس) : ٤٥٤
 مالك بن أدهم : ٥١٠
 مالك الأشتر : ٤٥ ، ٥٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢
 ٩٤ ، ١٣١ ، ٣٠٩
 مالك بن مسمع : ٣٨٧ — ٣٨٩
 مالك بن هبيرة : ١٧١
 مالك بن الهيثم الخزاعي : ٤٨٢ ، ٤٨٣
 ٤٨٥ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، ٥٢١
 المأمون (الخليفة) : ٢٠٦
 ماني : ٢٨٩
 ماء أفريدون : ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢
 ماهبوش : ٢٢٤
 ماهويه : ٣٩٥
 المثنى بن عمران : ٣٧٧
 مجزأة بن كوثر (أبو الورد) : ٥٢٥
 محارب بن موسى : ٣٧١
 محمد (صلى الله عليه وسلم) : ١ — ١٣ ، ١٥
 — ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٨

محمد بن عمرو بن حزم : ٢٥٦
 محمد بن عمير بن عطار : ٢٢٠
 محمد بن القاسم الثقفي : ١٠٨ ، ٢٤٤ ،
 ٢٥١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٥
 محمد بن مروان بن الحكم : ١٨٦ ، ١٩٢ ،
 ٢٠٩ ، ٣١٤ ، ٢٢٩ ، ٣٥٧ ،
 ٣٦٠
 محمد بن المهلب : ٣٠٣
 محمد بن هشام بن إسماعيل الخزومي : ٣٤٠
 محمد بن هشام بن عبيد الملك : ٣٣٥
 محمد بن يزيد (مولى الأنصار) : ٣١٣
 محمد بن يوسف الثقفي : ٢٨٧ ، ٣٠٢
 المختار الثقفي : ٦٤ ، ١٠٨ ، ١٨١ ،
 ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
 ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٩ ، ٣٩٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ ،
 ٤٧٨
 مخلد بن يزيد بن المهلب : ٤٢٤
 مرداشاه بن زاذان فروخ : ٢١١
 المرزبان (من أهل مر) : ٤٢٢
 المرزبانة (زوجة نصر بن سيار) : ٤٥٤
 مروان بن الحكم : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
 ٩١ ، ١١٥ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ،
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
 ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،
 ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
 ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ٢٠٦ ،
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٨٧ ، ٢٢٦
 مروان بن محمد (الخليفة) : ٣٢٨ ، ٣٥٣ ،
 ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩ ،
 ٤٥٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩١ ،
 ٤٩٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢١ ،
 ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦
 مروان بن المهلب : ٣٠٥

مريم (السيدة) : ٩٧ ، ١٢٨
 مزدك : ٤٨٩
 المستورد بن علفة التيمي الخارجي : ١١٠ ،
 ١١١
 مسعر بن فدكي التيمي : ٧٩
 مسعود بن عمرو العتكي الأزدي : ٢٠٣ ،
 ٣٨٦ - ٣٩٢
 مسلم بن ذكوان : ٣٥٨
 مسلم بن سعيد بن أسلم الكلاني : ٤٣٢
 مسلم بن عبد الرحمن الباهلي : ٥٠٧
 مسلم بن عقبة المري : ١٣٩ ، ١٥٢ -
 ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٥
 مسلم بن عقيل بن أبي طالب : ١٤٣ ،
 ١٤٤
 مسلم بن عمرو الباهلي البصري : ٤٠٩
 مسلمة بن عبد الملك : ٢٤٤ ، ٢٦٢ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ - ٣١٠ ،
 ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٨ ،
 ٣٥٧ ، ٥١١
 مسلمة بن مخلد الأنصاري : ٨٨ ، ٩٢
 مسلمة بن هشام بن عبيد الملك : ٣٣٨ - ٣٤٠
 المسيح (عليه السلام) : ٢ ، ٢١٠
 المسيح (الدجال) : ٥٢٦
 مصعب بن الزبير : ١٨١ - ١٨٨ ،
 ١٩٠ - ١٩٣ ، ١٩٦ - ١٩٨ ،
 ٢١٨ ، ٢١٩
 مطر بن فاحية التيمي : ٢٢٨
 معاوية بن أبي سفيان : ٢٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ - ٥٠ ،
 ٥٥ - ٥٧ ، ٦١ ، ٦٩ - ٧٤ ،
 ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ - ١٠٨ ، ١١٠ -
 ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ،
 ١٢٥ - ١٢٢ ، ١٥٠ ، ١٥٩ ،
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،
 ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ،

المهدي (الخليفة) : ٣٠٠

المهدي المنتظر : ٥٣٦

المهلب بن أبي صفرة الأزدي : ٦٥ ، ١٩١

٣٠٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣

٢٢٦ ، ٢٣٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٦

٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥

٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٧ ، ٤٥٩

موسى بن داود بن علي بن عبد الله ابن

عباس : ٥١٣ ، ٥١٤

موسى السراج : ٤٨٥

موسى بن عبد الله بن خازم : ٢٤٢ ،

٤٠١ ، ٤٠٤ - ٤٠٦ ، ٤٠٩

٤١٠

موسى بن كعب التميمي : ٤٨٢ ، ٤٨٣

٤٩٦

موسى بن المغيرة : ١٣٥

موسى بن نصير : ٢٥٢ ، ٢٨٦

موقوزا البربري : ٣٢٩

ميسرة الصفري : ٣٣١ ، ٤٧٨ - ٤٨٠ ،

٤٨٧

(ن)

النابغة (الشاعر) : ١١ ، ١٢٨

ناتل بن قيس الجذامي : ١٦٧ ، ١٦٩ ،

١٧٢ ، ١٨٢

ناغضة اللبي : ١٦٨

نائلة الكلبي (أرملة عثمان رضي الله عنه) :

٥٠ ، ٧٠ ، ١٢٧

نباقة بن حنظلة الكلابي : ٣٧٩ ، ٥٥٩ ،

٥١٠

النجاحي (الشاعر) : ٧٦

نجدة بن عامر الخارجي : ١٦٢ ، ١٩٥

نصر بن سيار الكناني : ٦٩ ، ٢٧٢ ،

٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ،

٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ،

٢٢٢ ، ٢٢٤ - ٢٤٦ ، ٢٤٦

٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،

٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،

٣٣٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ،

٣٩٦ ، ٤٧٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ،

٥٢٧

معاوية بن حديج السكوني الكندي : ٨٩ ،

٩٢ ، ٩٣

معاوية السكسكي القضاعي : ٣٦٨

معاوية بن هشام بن عبد الملك : ١٣٣ ،

٣٢٧

معاوية (الثاني) بن يزيد : ١٦٦ - ١٦٩ ،

١٧٣ ، ١٧٨

معاوية بن يزيد بن المهلب : ٢٥١ ، ٣٠٩ ،

معقل بن سنان الأشجعي : ١٥٤ ، ١٥٧ ،

معقل بن عروة : ٣١٠ ، ٣١١ ، ٤٣١ ،

معقل بن قيس التميمي : ٨١

المغيرة بن حبياء التميمي (الشاعر) : ٤١٥ ،

المغيرة بن زياد بن أبيه : ١٢١

المغيرة بن سعيد (الساحر) : ٣١٧ ،

المغيرة بن شعبة : ١٠٢ ، ١٠٦ - ١١٥ ،

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،

١٣٨

المغيرة بن عبد الله الثقفي : ٢٠٣

المفضل بن المهلب : ٤٠٦ ، ٤٠٩ ،

مقاتل بن حيان النبطي : ٤٠٩ ، ٤٦١ ،

٤٧٠ ، ٥٠٧

المنذر بن أسد بن جرير بن عبد الله القسري :

٣٢٣

منصور بن جمهور الكلبي : ٣٤٧ ، ٣٥٣ ،

٣٥٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،

٣٧٧ - ٣٧٩

منصور بن عمر بن أبي الخرقاء : ٤٥٣ ،

٤٥٤

الهيثم بن الأسود : ٣٩١
الهيثم بن عبد الكافي : ٣٢٩
الهيثم بن واقد : ٢٥٦

(و)

واصل بن عمرو القيسى : ٤٥٢ ، ٤٥١
وجه القلس : ٣٥٠
وزير السجستاني : ٣١٧
وكيع بن الحسن بن أبي الأسود : ٤١٩ ، ٤١٨
٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣
وكيع بن الدورقية : ٤٠١ ، ٤٠٢
ولادة بخت العباس العيسى : ٢١٨
الوليد (ابن أخى الأبرش الكلبي) :
٣٤٩

الوليد الأزرق : ٤٨٠

الوليد بن عبد الملك : ٢٠٦ — ٢٠٨ ،
٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٣ — ٢٤٥ ،
٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٥٩ — ٢٦١ ، ٢٧٨ ،
٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٤٧ ،
٣٥٧ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٧٥
الوليد بن عقبة بن أبي سفيان : ١١١ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ،
١٦٨ ، ١٦٩

الوليد بن عقبة بن أبي معيط : ٧١

الوليد بن مسلم : ٢٨٠

الوليد بن يزيد بن عبد الملك : ٣٠٢ ،
٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٧ —
٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ — ٣٥٩ ،
٣٦١ — ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ،
٤٥٧ — ٤٥٩ ، ٤٩١ ، ٥٢٦

٣٥٥ ، ٣٨٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،
٤٣٨ ، ٤٤٩ — ٤٦٦ ، ٤٩١ ،
٤٩٤ — ٤٩٧ ، ٥٠٠ — ٥٠٢ ،
٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ —

٥١٠

النضر بن أنس بن مالك : ٣٠٦

النضر بن سميد الحرثي : ٣٧٢ ، ٣٧٤

النضر بن صبيح المري : ٥٠٧

النعمان بن بشير الأنصاري : ٧٠ ، ٩٥

١١١ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٤٦ —

١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٧٢

نعمان بن سفيان الراسبي : ٣٨٧

نهار بن توسعة الكري (الشاعر) : ٤١٥

نوح بن درّاج : ٢٧٥

نيزك (الطرخان) : ٤١٤ ، ٤٤٧

(ه)

هاشم بن عتبة : ٧٦

هذيل بن زفر بن الحارث : ١٨٧ ، ٣٠٥

٣٠٣ ، ٣١١

هشام بن إسماعيل الخزوي : ٢٠٨ ،

٢١٦ ، ٣١٥

هشام بن عبد الملك : ٣٣ ، ٢٤٤ ،

٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٩ ،

٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ — ٣٢٩ ،

٣٣١ — ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ،

٣٥٨ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،

٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ،

٤٤٩ — ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ،

٤٥٨ ، ٥١٥ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥

هضاب بن طوق : ٢٨٠

هيمان بن عدى السدوسي البكري : ٢٢٤

هند بنت أبي سفيان : ٣٨٧

هند بنت معاوية بن أبي سفيان : ١١٢

هوفان فون فائرزلين : ١٤

٣١٠ ، ٣١٢ - ٣١٥ ، ٣١٩ ،

٣٣٧ ، ٣٤٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ،

٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٧٩ ،

يزيد بن عمر بن هيرة الفزاري : (٣٤١ ،

٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٩ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ،

٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ،

يزيد بن قيس الأرحبي : ٧٨

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : ٢٦ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١١٠ ،

١١٢ ، ١١٥ ، ١٢٧ - ١٢٩ ،

١٣٣ - ١٤١ ، ١٤٥ - ١٥٤ ،

١٥٦ - ١٦١ ، ١٦٣ - ١٦٧ ،

١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ،

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٥٩ ، ٣٠٢ ،

٣٤٧ ، ٣٥٨ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ،

٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩٧ ،

٥٢٦

يزيد بن المهلب : ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،

٢٤٢ ، ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٥١ -

٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٠٢ ،

٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،

٣١٢ ، ٣١٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٧ ، ٨١٨ ،

٤٢٣ - ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،

٥١١

يزيد الناقص : انظر يزيد بن الوليد ابن

عبد الملك

يزيد بن هيرة : ٣١٧

(٥)

يهوذا الإسرائيلي : ٥٢٣ ، ٥٢٤

يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس : ٥١٤

يحيى بن حنن : ٤٤٣ ، ٤٦٥ ، ٥٢٠

يحيى بن الحكم : ١٨٦

يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي

ابن أبي طالب : ٣٢٧ ، ٣٤٥ ،

٣٧٤

يحيى بن عتيل الخزاعي : ٤٨١

يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس :

٥١٣

يحيى بن نعيم البكري : ٥٠٧ ، ٥٢٠

يحيى بن نعيم بن هيرة : ٤٦٤ ، ٤٦٥

يزدجرد (آخر ملوك الساسانيين) : ٤٣٦ ،

٤٥٤

يزيد بن أبي سفيان : ٣٩

يزيد بن أبي مسلم : ٣١٢ ، ٣١٣

يزيد بن أبي النمس النساني : ١٦٩ ، ١٧٠

يزيد بن الحارث الكنتاني : ٨٨

يزيد بن خالد بن جرير بن عبد الله القسري :

٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ،

٣٥١ ، ٣٦١ ، ٣٦٥

يزيد بن زعنة : ١٥٧

يزيد بن زياد بن أبيه : ٣٩٦ ، ٣٩٧

يزيد بن عبد الملك : ٢٥٣ ، ٢٥٦ ،

٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٩ ، ٣٠١ ،

٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ،

يوسف الثقفى (والد الحجاج) : ١٨١	يزيد بن هشام بن عبد الملك : ٣٤٠
يوسف بن عمر الثقفى القيسى : ٣٢٢-٣٢٤	يزيد بن الرليد بن عبد الملك : ٣٤٨
٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠	٣٥٠ - ٣٥٥ ، ٣٥٨ - ٣٦٠
٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣	٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩
٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٥٠	٤٥٢ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠
٤٥٨ ، ٤٨٥	
يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى : ٣٤١	يعقوب (مولى هشام بن عبد الملك) : ٣٣٥
يونس بن حاصم : ٤٨٥	يوحنا (القديس) : ٢٩٠

فهرس الأماكن والمواضع

إسكندرية : ٣٣٦
 إسكيمشت : ٤١٤
 إسموس : ٢١٧
 آسيا : ٥٢٨
 آسيا الصغرى : ٣٠٩ ، ٣٠٧ ، ٣٣٢
 إشتيخن : ٤٤٨ ، ٤٢٩
 أشروسة : ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٢٩ ، ٤٥٣ ، ٤٤٨
 الأشونين : ٥٢٠
 إصطخر : ١١٣ ، ٣٧١
 أصفهان : ٧٨ ، ٩٩ ، ١٩١ ، ٣٧١ ، ٥١١
 الأغاف (ماء) : ٣٣٨ ، ٣٤٩
 أفريقية : ٣٣٨
 إفريقية : ٢٥٠ ، ٢١٤ ، ٢٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٩٣ ، ٥٢٨
 أفشنة : ٤٣٢
 أكرونيوس (مكان) : ٣٢٨
 ألمانيا : ٢٩٣ ، ٢٩٤
 آلين (قرية) : ٤٩٥ ، ٥٠٠
 آمل : ٧١١ ، ٤٨٤
 الأنبار : ٩٥ ، ٣٠٧ ، ٥١١
 أنتيباتريس : ٥٢٤
 الأندلس : ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٩٣ - انظر أيضاً : أسبانيا
 أنطاكية : ٣٣٤ ، ٣٦٨

(١)

أبرشهر : ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٥٢ ، ٤٤٣ ، ٤١٣ ، ٣٣٨
 الأبرق = الأزرق (مكان) : ٣٣٨
 أبو فطرس (حصن) : ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤
 أبو فطرس (نهر) : ٥١٩
 أبيورد : ٣٠٥
 أحد (جبل) : ١٦
 إدوم : ٨٣
 أدريجان : ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ٢٢٢ ، ٣٧٣ ، ٣٦٠ ، ٣٥٧
 أذرح : ٨٣ ، ٤٧٥
 أربونة = نربونة : ٣٢٩
 الأردن : ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٢٤٢ ، ٣١٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٥١٩
 أرض الترك : انظر الترك (بلاد)
 أرض الثغرين : انظر : الثغران
 أرض الختل : انظر الختل (بلاد)
 أرض الروم : انظر الروم (بلاد)
 أرض الشراة : انظر : الشراء (أرض)
 أرمينية : ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٣٠٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣
 الأساورة (نهر) : ٣٩٢
 أسبانيا : ٢١٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٩ ، ٥٢٥ - انظر أيضاً :
 الأندلس

۱۹۱ ، ۱۹۳ ، ۲۰۳ ، ۲۱۴ ،
 ۲۱۵ ، ۲۱۸ — ۲۲۰ ، ۲۲۳ ،
 ۲۲۷ ، ۲۲۸ ، ۲۳۰ ، ۲۳۱ ،
 ۲۳۳ ، ۲۳۵ ، ۲۳۶ ، ۲۳۸ ،
 ۲۴۰ — ۲۴۲ ، ۲۴۸ ، ۲۶۱ ،
 ۲۶۳ ، ۲۶۹ ، ۲۷۲ ، ۲۷۵ ،
 ۲۷۸ ، ۲۸۰ — ۲۸۲ ، ۳۰۶ ، ۳۰۹ ،
 ۳۱۰ ، ۳۱۸ ، ۳۲۵ ، ۳۵۴ ،
 ۳۸۰ — ۳۸۴ ، ۳۹۰ ، ۳۹۱ ،
 ۳۹۳ ، ۳۹۷ ، ۴۰۲ ، ۴۰۷ ،
 ۴۲۱ ، ۴۲۹ ، ۴۶۸ ، ۴۷۳ ،
 ۵۱۲ ، ۵۲۵

بطنان حبيب : ۱۸۳ — ۱۸۵
 بعلبك : ۲۱۷ ، ۲۸۰ ، ۳۴۸ ، ۳۶۸
 ۵۱۹
 بغداد : ۵۲۷ ، ۵۲۹ ، ۵۳۲
 البقيع : ۵۰
 البكتريان : انظر بلخ
 بكة (وادی) : ۲۳۱
 بلخ : ۳۲۷ ، ۴۰۰ ، ۴۱۰ ، ۴۱۳ ،
 ۴۳۳ ، ۴۳۴ ، ۴۳۵ ، ۴۳۶ ، ۴۳۸ — ۴۴۰ ،
 ۴۵۱ ، ۴۹۵ ، ۵۰۷
 بلخ (نهر) : ۳۹۶ ، ۴۰۱ ، ۴۰۵ ،
 ۴۰۷ ، ۴۱۰ — ۴۱۲ ، ۴۲۰ ،
 ۴۳۶ — ۴۳۷ ، ۴۴۶ ، ۴۵۷
 البلقاء : ۳۱۵ ، ۳۵۴
 بلقين (أرض) : ۳۳۸
 البليخ (نهر) : ۱۹۹
 بنجيكت (مدينة) : ۴۳۹
 بواتيه : ۳۲۹
 بوشنج : ۳۹۶
 بوصير : ۵۱۹
 بويب (مكان) : ۷۲
 بياركت : ۴۲۹
 بياسان : ۴۲۴
 بيكنده : ۴۱۳ ، ۴۳۶

الأهواز : ۸۰ ، ۸۱ ، ۹۴ ، ۱۰۹ ،
 ۲۱۹ ، ۲۲۲ ، ۲۴۱ ، ۳۰۶ ،
 ۳۷۱ ، ۳۷۵
 أوروبا : ۳۲۸ ، ۳۳۰
 إيبيريا : انظر : آسيا
 إيران : ۳۹۴ ، ۳۹۵
 إزقياد (مكان) : ۲۳۱
 أيلة : ۲۹۱
 إيليا (بيت القديس) : ۹۷

(ب)

الباب الجديد : ۴۱۴ ، ۴۵۱ ، ۴۵۲
 بابل : ۳۰۷ ، ۵۲۰
 باحيرا : ۱۸۴ ، ۱۸۵ ، ۱۸۸ ، ۱۹۰
 بادغيس : ۳۹۶ ، ۴۰۸ ، ۴۱۰
 ياميان (مدينة) : ۵۱۰ ، ۴۴۹
 البحرين : ۸۱ ، ۱۱۵
 بخارى : ۴۰۷ ، ۴۱۱ ، ۴۱۳ ، ۴۱۴ ،
 ۴۱۶ ، ۴۲۷ ، ۴۳۳ ، ۴۳۵ — ۴۳۸ ،
 ۴۴۰ ، ۴۵۱
 البخره (حصن) : ۳۴۹
 بدر (مكان) : ۱۱ ، ۱۶
 بدخشان : ۴۱۰ ، ۴۱۱
 البرانس (جبال) : ۳۲۹ ، ۲۳۰
 براونشفيج — لونبرج : ۲۹۳
 بردى (مكان) : ۲۸۰
 البروقان : ۴۳۳ ، ۴۴۵
 بزماجن : ۴۲۹
 بست (مكان) : ۲۲۶
 بشر = الرهوب (مكان) : ۲۰۲
 البصرة : ۲۵ ، ۵۲ ، ۵۹ ، ۶۵ — ۶۷ ،
 ۸۶ ، ۹۵ ، ۱۰۳ ، ۱۰۵ — ۱۰۹ ،
 ۱۱۲ — ۱۱۵ ، ۱۱۸ ، ۱۲۰ ،
 ۱۲۲ ، ۱۲۴ — ۱۲۶ ، ۱۳۸ ،
 ۱۶۶ ، ۱۶۸ ، ۱۷۲ ، ۱۸۵

٢٥٢ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٥٥
٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨
٤٠٩ ، ٥١٨

جزيرة العرب : ٦ ، ٧ ، ١٦ ، ١٧
١٩ - ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٥٢ -
٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٥
١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨٧
٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
٣٨٢ ، ٣٩٤ ، ٤٧٤ ، ٤٩١

جسر الفرات : ٢٣٧

جسر منج : ١٨١

جسر الهروان : ٧٩

الجلجلة (جبل) : ٩٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

جلنج : ٤٣٠

جلولاء : ٥١١

جلينقية : ٢٤٤

جوخى : ٧٩ ، ٢٢٢

الجوزجان : ٣٩٧ ، ٤١٠ ، ٤٤٧

جوزستان : ٤١٠

جيتسانى : ٩٧ ، ٢٠٧

جيرنج : ٤٩٥

جيرون : ١٧٤

(ح)

الحائرة (مكان) : ٥١١

الحيشة : ٢١٤

الحجاز : ٨٨ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١٣٨

١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٢

١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٤

٢٤٨ ، ٢٥٩ ، ٢٥٥

حران : ١٦٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣

٣٦٤ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥١٩

الحرة (مكان) : ١٥٣ ، ١٥٤

(ت)

التبوشكان (قلمة) : ٤٤٥ ، ٤٦٢

تقدس : ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠

٣٦٢ ، ٣٦٥ - ٣٦٧ ، ٥٢٥

الترك (بلاد) : ٣٥٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩

تركيا : ٣٥٣

ترمذ : ٢٤٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦

٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٤٣

٤٤٥ ، ٥٠٧

تستر (مكان) : ٢٢٧ ، ٢٣٤

تكريت : ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢٣١

تور : ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢

تولوشة = قولوز : ٣٢٩

تومشكت (مدينة) : ٤١٣

تيماء : ٩٥

(ث)

الثرثار (نهر) : ١٩٩

الثغران : ٤٤٢ ، ٤٦١ ، ٤٦٧

الثغور : ٢٨٨

(ج)

الجابية (مكان) : ١٦٩ - ١٧١

١٧٣ - ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤

جابلق (مكان) : ٥١٠

الجارون (نهر) : ٣٢٩

الجبل (بلاد) : ٢٠٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١

٥٠٤

جبال (مكان) : ٣١٧

جرجان : ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٣٠٣

٤٢٤ - ٤٢٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٠

الجزيرة : ٢٣ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٩٠

٩٩ ، ١٦٧ ، ١٨١ ، ١٨٤

١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢

٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢

٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ،
٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٥ ،
٣٧٩ - ٣٩٣ ، ٣٨١ ، ٣٩٩ ،
٤٠١ - ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ،
٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ،
٤٢٢ - ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ،
٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ،
٤٤٠ ، ٤٤٢ - ٤٤٤ ، ٤٤٨ ،
٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٦ ،
٤٦٩ ، ٤٧٣ - ٤٧٥ ، ٤٧٧ ،
٤٧٩ ، ٤٨١ - ٤٨٧ ، ٤٨٩ ،
٤٩٣ ، ٥٠٤ - ٥٠٦ ، ٥٠٨ ،
٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ، ٥٣٤

غربتا (قرية بمصر) : ٨٨

خرقان (مكان) : ٢٢٧

خرقان (نهر) : ٥٠٠

الخرز (بحر) : ٢٦١ ، ٣٢٨ ، ٤٢٤

الخرز (بلاد) : ٢٦٩

خساف (قرية) : ٣٦٧

خشوراغ (مدينة) : ٤٠٦ ، ٤٤٦

الخضراء : ٣٥١ ، ٣٥٤

الخطرنية (قرية) : ٤٧٨

خلم : ٤١٠

الخناصرة (مكان) : ٣٠١

خوارزم : ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤

٤١٦ ، ٤٣٦ ، ٤٥١ ، ٤٩٤

خوزستان : ٤٠١

(د)

دايق : ٢٥٥ - ٢٥٨ ، ٥٢٣

دارابجرد : ١٠٢

دار الهجرة : انظر : المدينة

الديوسية : ٤٣٧ ، ٤٤١

الدجلة (نهر) : ٧٣ ، ٧٩ ، ٩٥

حروراء (مكان) : ٥٦ ، ٧٨ ، ٨٠

الحشاك (مكان) : ١٩٩

حش كوكب : ٥٠

حلب : ٣٠٩

حلوان (المشرق) : ٤١٨ ، ٥١١

حام أعين : ٥١٣ ، ٥١٥ - ٥١٧

حصص : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٦٧

١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٧

٣١٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩

٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧

٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٥

الحيمية : ٤٧٤ - ٤٧٦ ، ٤٩٠ ، ٥١٣

٥١٤

حوارين : ١٦٥

الحيرة : ٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦

٣٤٥ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٨

٣٧٠ - ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، ٥١٧

٥٢٥

(خ)

الخابور (بلاد) : ١٩٨

الخابور (نهر) : ١٩٩

خائقين : ٥١١

الختل (بلاد) : ٤١١ ، ٤٤٩

الختل (جبال) : ٤١١

خجندة = خولند : ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣

خراسان : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩

٩٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠

١٦٦ ، ١٨٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥

٢٢٣ ، ٢٢٢ - ٢٣٤ ، ٢٤١

٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢

٢٥٤ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٦٨

٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧

٢٨٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨

(ج)

رامدين : ٤١٣
 رامهرمز : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٨١
 راب : ٤١٢
 رستآباد : ٢٢٧ ، ٢٢١
 الرصافة : ٣٢٨ ، ٣٢٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤
 ٥٢٣ ، ٣٦٦
 وضوى (جبل) : ٤٧٦
 الزرقعة : ٣٧٦ ، ٣١٥ ، ٧٣ ، ٧٢
 الزميلة : ٢٥٥ ، ٢٤٩
 الزهوب (مكان) : افظر : بشر
 الروضة : ٥٢٠
 الروم (بلاد) : ٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٢ ، ٢٦١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٤ ، ٢٧٨
 الري : ٥١٠ ، ٣٧١ ، ٩٤ ، ٧٨

(ز)

الزاب الأكبر (نهر) : ٥١٩ ، ٥١٨
 زابل (مكان) : ٢٢٣
 زاغول (مكان) : ٤٠٨
 الزاوية (مكان) : ٢٢٧
 زرفشان (وادي) : ٤١٥
 زرفشن (نهر) : ٤٢٩
 زرمان (مكان) : ٤٣٧
 زرنج (مدينة) : ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣٩٥
 زمزم (بئر) : ٣٢٠
 الزيتونة (مكان) : ٣٠٩
 زيزاء (منزل) : ٣٣٨

(س)

ساباط (قلعة) : ١٠٢

٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٥١١ ، ٥١٨ ، ٥٢٠
 دجيل (نهر) : ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣١
 الدردوني (نهر) : ٣٢٩
 دستميسان : ٣٧٥
 الدسكرة : ٨٠
 دمشق : ٥٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٥ -
 ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ -
 ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ -
 ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٦ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ -
 ٣٢٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ -
 ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٦١ -
 ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٨ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧
 دما (مكان) : ٥١١
 دهستان : ٤٢٤
 دملك (جزيرة) : ٣٤١
 دورق : ٤٠١
 دورين (مكان) : ٣٦٧
 درمة الجندل : ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٤
 دير الجاثليق (مكان) : ١٩٢
 دير الجماعيم (مكان) : ٢٢٩ ، ٢٣٧
 دير سنبل : ٣٨٢
 دير قرعة : ٢٢٩
 دير هند : ٣٧٢

(ش)

الشاذ : ٤٤٧ ، ٤١٢
 الشاش (بلاد) : ٤٤٨ ، ٤١٥ ، ٤١١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢
 الشاش (نهر) : ٤١٢ ، ٤١١ ، ٤٠٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٥٢
 الشام : ٤٨ ، ٤٢ ، ٤٠ ، ٢٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ٩٦
 ١١٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٠
 ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٤١٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧
 شذونة : ٣٣١
 الشراة (أرض) : ٤٧٨ ، ٤٧٤
 شهرزور : ٣٧٣ ، ٥١٨
 شومان : ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٤

سابور (مكان) : ٢٣١

ساوة (مكان) : ٥١٠

سياستيول (مدينة) : ٢٠٩

سبته : ٣٣٢

السيبع : ٤٨٦

سجستان : ١١٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٤

٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤

٣٥٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧

٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٤

٤١٥

المرجنان (نهر) : ٥٠٧

مرخس : ٣٧٩ ، ٤١٣ ، ٤٦٦

٤٦٧ ، ٥٠٨

سرقطة : ٣٣٠

السغد (بلاد) : ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤١

٥٠٨

السغد (نهر) : ٤١١

سقام (قرية) : ٤٩٤

الساوة : ١٩٨ ، ٢٠٠

سفرقند : ٣٨٥ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧

٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٨

٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤

٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٥١ ، ٤٥٢

٤٦٠ ، ٤٦١

السند (بلاد) : ٢٨٤ ، ٢٥٠ ، ٢٤٤

٣٥٥ ، ٣٧٩ ، ٤٨٠

السند (نهر) : ٣٠٩

السواد (أرض) : ٣٠ ، ٣١ ، ٤٥

٩٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨١

٢٨٢ ، ٢٩٥ ، ٤٧٨

السوس : ٢٣١

سويات : ٤٤٦

سيفلنج (مدينة) : ٤٩٤ ، ٤٩٥

٤٩٨ — ٥٠٠

العجم (بلادي) : ٤٧٣ ، ٤٦٨ ، ٤٦٣

٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٨ ، ٥٢٨

العراق : ٢٥ ، ٢٩ - ٣١ ، ٤٠

٥٣ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٤

٨٨ ، ٩٤ - ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٧

١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٢٣

١٢٣ ، ١٢٧ - ١٣٥ ، ١٣٣

١٦٧ ، ١٨٠ - ١٨٢ ، ١٨٤

١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧

٢١١ ، ٢١٨ ، ٢١٩ - ٢٢٣

٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠

٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨

٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦

٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩

٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦

٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٧

٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ - ٣٣٣

٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣

٣٥٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١

٣٧٢ ، ٣٧٦ - ٣٧٨ ، ٣٩٣

٤٠٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣١

٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٤٤ ، ٤٥٠

٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٨

٤٧٣ ، ٤٧٨ - ٤٨٠ ، ٥٠٩

٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٧

انظر أيضاً : السواد

عرفة (جبل - سهل) : ١٩٣

العريش : ٩٠

العقبة (طريق) : ٤٣٨

عقر (مكان) : ٣٠٧ - انظر أيضاً : قصر

عمان : ١١٥ ، ٢٨٧ ، ٣٤٠ ، ٣٧٩

٣٨٢

الدوجا (وادي) : ٥٢٤

عين القمر : ٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٨٢

(ص)

الصراة (جبال) : ٣٨٢

الصميد : ٥٢٠

صغان - صغانيان : ٤١١ ، ٤٣٩

صقين (موضع) : ٨٢ ، ٥٥ ، ٥٦

٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣

صنماء : ٣٧٨

الصين : ٢١٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٠

(ط)

طارق (جبل) : ٣٣١

الطالقان : ٣٩٦ - ٣٩٨ ، ٤١٠

٤١٢

الطائف : ٤ ، ٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨

١٢٩ ، ١٥٢ ، ١٩٣ ، ٢٣٧

٣٤١

طبرستان : ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٣٠٣

٤٢٤ ، ٤٢٥

طبرية : ١٥٤ ، ٣٦٥

طبرستان : ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٤

٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥

٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٧

٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩

٥٣٤

طرابلس : ٢١٤

طوانة (حصن) : ٢١٦

الطواويس (مكان) : ٤٣٨

طوس : ٤٦٦ ، ٥٠٩

(ع)

عادم (سجن) : ١٤٨

الغناء (مكان) : ٢٠٠

١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٨٠ - ١٨٢ ،
١٩٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٣٣٨ ،
٣٥١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٤٤٧ ،
٥١٩ ، ٥٢٤

الفلبوجة : ٥١١

فم الفرات (موضع) : ٥١١

فم النيل (مكان) : ٣٠٧ ، ٥١١

فنين : ٤٩٤ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠

(ق)

قادس (المشرق) : ٣٩٦

قادس (المغرب) : ٢١٤

قبا : ١٥٤

قبرس : ٢٩١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٧٨

قرقيسيا (مكان) : ٧٣ ، ١١٠ ، ١٦٧

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٧

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٣٧٧

قرماسين : ٥١١

القرية : ٣٢٣

القسططنطينية : ١٦٥ ، ٣١٦ ، ٢٤٩

٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٩٦

٣٢٧

القصبة (أرض) : ٥٢٠

قصر : ٣٠٧ - انظر أيضاً : عقر

قصر ابن هيرة (مكان) : ٥١١ ، ٥١٢

قصر فرتنا : ٤٠١

القططانة : ٩٥

قطن : ٣٤٨

القلزم : ٩٠

قنداييل (مكان) : ٣٠٩

قنسرين : ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨٠

١٨٣ ، ٣١٦ ، ٣٤١ ، ٣٦٠

عين الجبر : ٣٦٠ ، ٥١٩
عين وردة : ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٧

(غ)

غازنين : ٤١٠

الغال - غاليس (بلاد) : ٣٣٠

غرجستان - غرشتان : ٤١٠ ، ٤١٢

الغور (بلاد) : ١٩٨ ، ٤١٠

الغوطة : ٢٨٠ ، ٢٩٠

(ف)

فارس : ٢٧ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١١٣

١٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٦٣ ، ٣٠٦

٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٥

٤٠٨ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣

فارط (قرية) : ٣٠٧

الفارياب : ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤١٠

٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٣ ، ٤٥٣

فلك (أرض) : ٢٨٧

الفرات : (نهر) : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨

١٤٤ ، ١٦٧ ، ١٨٠ ، ١٨١

١٨٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩

٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ، ٣٠٧

٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦

٣٧٦ ، ٥١١ ، ٥١٨

فرغانة : ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٥

٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٢

٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٥٢

٤٥٣

الفرما : ٥١٩

فرنسا : ٢٦١

القساط : ٢٥

الفلاييج (مكان) : ٢٢٩

قلسطين : ٨٨ ، ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٦٩

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٤
 ١٥٦ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٨
 ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ١٩٩
 ٢٠١ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٤
 ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٣
 ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٨
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٨
 ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٢
 ٢٧٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٣
 ٣٠٧ - ٣١٠ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣١٩
 ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٦
 ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٤
 ٣٦٧ - ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٠
 ٣٨١ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٨
 ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٨
 ٤٨٠ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ - ٤٩٢
 ٥١١ - ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨

كوم شريك : ٩٣

(ل)

اللاذقية : ٣٦٤

لبنان (جبال) : ٣٦٠ ، ٣٦٦

اللساف = الصف (ماء) : ٢٢٢

اللكام (جبال) : ١٨٤

الوار (نهر) : ٢٣٠

لوقية : ٤٦

الليطاني (نهر) : ٣٦١

(م)

الماخوان (مدينة) : ٤٩٥ - ٥٠٢

مادون النهر (أرض) : ١٢٠ ، ٤٠٨

(٣٦ - الدولة العربية)

٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٤٤٧ ، ٥١٩ ، ٥١٩

٥٢٣ ، ٥٢٥

قنطرة دجلة : ٢٢١

القوقاز : ٣٥٧ ، ٣٥٩

قومس (مدينة) : ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٤

٥٠٩ ، ٥١٠

ق (مدينة) : ٤٢٩

القير اوان : ٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٢

(ك)

كابل - كابل ستان : ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٢

٣٩٧ ، ٤١٠

كابة (أرض) : ١٩٨

الكحيل (مدينة) : ١٩٩

كر بلاه (مكان) : ١٤٤ ، ٣٠٧

كرمان : ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٦

٣٠٩ ، ٣٧١ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٨

٥١٠

كسكس : ٢٤٤ ، ٣٧٥

كش (مدينة) : ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٢

٤١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨

كشغر : ٤١٥

كشكة (نهر) : ٤١٤

كفر توتا : ٣٧٦

كرجة : ٤٣٦

الكوفة : ٢٥ - ٢٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٥

٥٦ - ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٧

٦٨ ، ٧٢ ، ٧٨ - ٨٢ ، ٨٨ ، ٨٨

٨٩ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٣

١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١١٥

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ - ١٢٦ ، ١٢٦

مرو : ٣٩٥ — ٣٩٨ ، ٤٤٠ — ٤٠٤ ،

٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،

٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ،

٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٣ ، ٤٥١ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ —

٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٨١ ،

٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ —

٤٩٤ ، ٤٩٧ — ٥٠١ ، ٥٠٣ —

٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩

مرو الروز : ٣٩٦ — ٣٩٨ ، ٤٠٠ ،

٤٠١ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ،

٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٣ ، ٤٤٨ ،

٤٥٤ ، ٤٦٧ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ —

٥٠٠ ، ٥٠٨

مرو الشاذان : ٣٧٩

المزة : ٢٨٠ ، ٣٤٨ ، ٣٦٥ ، ٣١٩

مسكن : ٩٩ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،

٢٣١

المسناة (مكان) : ٩٣

المشطل (مكان) : ١٥٥

مصر : ٢٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٧١ ،

٧٢ ، ٨٧ — ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

٩٥ ، ١٠٣ ، ١٣١ ، ١٨٠ ،

٢٠١ ، ٢١٠ — ٢١٢ ، ٢١٤ —

٢١٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٩٥ ،

٣١٠ ، ٣٥٠ ، ٣٧٨ ، ٥١٩ ،

٥٢٠

مصوع : ٣٤١

المصينغ (مكان) : ١٩٧

المصيصة : ١٨٢

المغرب (بلاد) : ٣٨٥ ، ٣٣٢

ماوراء النهر (أرض) : ٢١٦ ، ٢٤٤ ،

٢٦١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٣٦ ،

٤٠٥ — ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١١ — ٤١٣ ،

٤٢٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ،

٤٤٤ ، ٤٥١ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ،

٥٠٨ ، ٥٣٤

المحترقة (طريق) : ٤٣٨

المدائن : ٧٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ٢٤١ ،

٣٧٠

المدينة : ١١ ، ٧٥ — ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٥ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ — ٤٦ ، ٥٢ — ٥٤ ،

٥٩ ، ٦٩ ، ٨٨ — ٩١ ، ٩٧ ،

١٠٣ ، ١٠٧ — ١٠٩ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣٥ — ١٣٨ ، ١٤٠ — ١٤٢ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ — ١٥٠ ،

١٥٢ — ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ،

١٧١ — ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٩٣ ،

١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٣ ،

٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ،

٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

٣٥٨ ، ٣٧٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ،

٥٢٤ ، ٥٢٩ ، ٥٣١

المذار (طريق) : ٨٠

مراكش : ٣٣١

مرج أحرم : ٥٢٥

مرج بردى : ٢٨٠

مرج راهط : ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ،

مرج شعبان : ٢٨٠

مرعم (قرية) : ٤٨٢

مرغاب (واى) : ٤١٠

نصيبين : ٣٧٦ ، ١٨٧ ، ٩٠
 نفدورة (موضع) : ٣٣٢
 نهاوند (مدينة) : ٥١٧ ، ٥١١ ، ٥١٠
 النهروان (مكان) : ٢٢٢ ، ٧٩
 نواكش : ٤٤٦
 نوام (نهر) : ٣٢٢
 النوبهار : ٤٤٥
 نيسابور : ٣٩٥ - ٣٩٧ ، ٤٠٧ ،
 ٤١٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ،
 ٤٦٧ ، ٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٥٠٨ ،
 ٥٠٩
 نيل الفرات : ٣٠٧ ، ٥١١ - انظر
 أيضاً : قم النيل

(ه)

هاربورج : ١٨٣
 همجر (مكان) : ٣١٩
 هراة (مدينة) : ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ ،
 ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٩٦ - ٤٠٠ ،
 ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٣١ ، ٤٤٣ ،
 ٤٥٠ ، ٤٦٧ ، ٤٦٥ ، ٥٠٠ ،
 ٥٠٧
 هريروذ (وادي) : ٤١٠
 همذان (مدينة) : ٥١٠
 الهند : ١١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ،
 ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٤٢٣ ،
 ٤٣٧
 الهندية (مدينة) : ٣٠٧
 هيت : ٩٥

مكة : ٤٠١ - ٤٠٨ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٦ ،
 ٣٩ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٨٦ ، ٩٨ ،
 ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ،
 ١٤٠ ، ١٤٢ - ١٤٨ ، ١٥٣ ،
 ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٢ - ١٦٤ ،
 ١٧٢ ، ١٨٨ ، ١٩٣ - ١٩٥ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١٨ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٨٧ ،
 ٣١٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٧٨ ،
 ٣٨٥ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ،
 ٤٩٣ ، ٥٠٩ ، ٥٢٤

الملح (جبال) : انظر : الختل (جبال)
 ملطين (بلاد) : ٣٢٨
 منج : ٥١٩

الموصل : ٩٩ ، ١٨١ ، ٢٢٢ ، ٢٣١ ،
 ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ،
 ٣٧٥ - ٣٧٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩

ميديا : انظر : الجبل (بلاد)
 ميسان : ١٠٩ ، ٢٧٦ ، ٣٧٥

(ن)

نجران : ٢٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٦
 النجرانية (قرية) : ٢٩١
 النخذ : ٤٤٣
 النخيلة (مكان) : ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٢ ،
 ٩٣ ، ٣٠٧
 نربونة (مدينة) : انظر أربونة
 نسا (مدينة) : ٤٦٧ ، ٥٠٨
 نسف : ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٨
 النصرانية (قرية) : ٤٥٤

ورغسر : ٤٤٤ ، ٤٥١

ولشتن : ٤١٠

(و)

(ی)

ياقا : ٥١٩

يثراب : ٢٠ ، ٥

اليمن (بلاد) : ٩٦ ، ١٠٤ ، ١١٢

٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٣٥٨

اليهودية (موضع) : ٤٥٤

واسط : ٥٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤١

٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤

٣٠٧ - ٣٠٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٠

٣٢٢ ، ٣٥٤ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥

٣٧٨ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٤

٥٢٠

ونخشاب (نهر) : ٤١١

فهرس الموضوعات والمواد

٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٦١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ،
٣٦٣ ، ٤٦٨ ، ٥٢٨ - ٣٥٠

أرض الخراج : انظر : الخراج

أرض العشر : انظر : العشر

أرض العنوة : انظر : العنوة

أرض الفتح : انظر : الفتح

الأزارقة : ٢١٩ ، ٢٢١ - ٢٢٣

الأزد (قبيلة) : ٣٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ،

٩٥ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

١٢٦ ، ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦ ،

٢٤٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،

٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٨١ -

٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ،

٤٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ -

٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ،

٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ،

٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،

٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٨٣ ،

٤٨٨

الأساقفة : ٢٧ ، ٤٥٤

الأساورة (من الفرس) : ٣٨٠ ، ٣٨٨ ،

٣٩٢ ، ٣٩٥

الاستعمار (بالمعنى الرومانى) : ٤١٥

استغلال (النفوذ) : ٣٢١

الاستقلال (الإدارى) : ٤١٥

(١)

أبناء الدولة : ٥٢٦

الأبناء (من تميم) : ٤٠٢ ، ٤٠٤

الاتحاد (الألماني) : ١٤

الاجتماعات العامة : ١٠

الاحتلال العسكري (نظام) : ٣١

الأحزاب (دينية - سياسية - قبلية) :

٦٩ ، ١٢٧ ، ١٦١ ، ١٧٧ ،

١٨١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٣١٨ ،

٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢ ،

٤٧٣ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦

الإحماء : ٤٣

الاحتيار (ضد الجبر) : ٢ ، ٣٣٤

الاختيار : ٢٣ ، ٣٨

الاخريد (لقب) : ٤١٢

الاخشيد (لقب) : ٤١٢

الآداب الإسلامية : ٣٠٩

إدارة الدولة : ٢٦ ، ٣١ ، ٢٦٣ ،

٢٩٦ ، ٣٣٧ ، ٤١٣ ، ٤٣٥ ،

٤٥٤ ، ٤٦٩

الأذان : ٢١

الآراميون : ٣٦٤ ، التأثير الآرامى : ٦

الأرزاق : ٣١ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ٢٧٨ ،

٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٣٥٢ - ٣٥٤ ،

٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ٤٢٨ ، ٤٧١ ،

٤٩٥ - قارن أيضاً : أعطيات

الأرستقراطية (عربية ، إسلامية) : ٢٧ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

الأعاجم : ٦٦ ، ٤٠٦ ، ٤٢٠ — ٤٢٣ ،

٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،

٤٣٧ ، ٤٣٩ — ٤٤٣ ، ٤٤٥ ،

٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ،

٤٥٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ —

٤٧٢ ، ٤٧٧ ، ٤٨٧ ، ٥٠٣ ،

٥٠٥ — ٥٠٧ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ،

٥٣٤

الأعراب : ٢٥ ، ٣٧ ، ٢٩١

الأعطيات : ٣١ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ،

٥٨ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ،

١٦٠ ، ١٧١ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ،

٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،

٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،

٢٧٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ — ٢٨٩ ،

٣٠٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ ،

٣٥٢ — ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،

٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٤١٨ ،

٤٢٨ ، ٤٤٢ ، ٤٥٩ ، ٤٧١ —

قارن أيضاً : الأرزاق

الأعياد : ٥

الأعياص : ١٧٠

الأفريقيون : ٢٨٩

الأنشين (لقب) : ٤١٢

الاقباط : ٢١٠

الأنباط (بمعنى غير المنحصرين) : ٢٤١

أكرونيوس (موقعة) : ٣٢٨

أكسفورد (جامعة) : ٣٣٠

الإكليل (موقعة) : ١٩٧

إله : الذات الإلهية : ٢ — ٣

السلطة الإلهية : ٨ — ١٠ ، ١٣

العدل الإلهي : ٣ ، ٩

القدرة الإلهية : ٢ ، ٣

إله الإسلام : ٢

الأسرة : ٣ ، ٤ ، ٧

الأسرى : ٣٠

إسقاط الديون : ٢٢

الإسلام : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٩ ، ١١ ،

١٣ ، ١٥ — ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ،

٥١ ، ٥٣ — ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ،

٦١ ، ٦٤ ، ٦٦ — ٧٨ ، ٨١ ،

٨٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ،

١١٦ ، ١٢٦ — ١٢٩ ، ١٣٤ —

١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ،

١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٦ ،

٢٠٢ : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،

٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ —

٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ،

٢٨١ — ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤

٢٩٤ ، ٢٩٧ — ٣٠٠ ، ٣٠٥ ،

٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ،

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ —

٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٩٣ ،

٣٩٤ ، ٤١٥ — ٤١٧ ، ٤٢٠ ،

٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ،

٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٥٣ ،

٤٥٥ ، ٤٥٦ — ٤٦٢ ، ٤٦٧ ،

٤٦٩ — ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ ،

٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ،

٥٠٨ ، ٥١٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ،

٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤

الأسواق : ٥

أشجع (قبيلة) : ١٥٥

الأشعريون : ١٤٧

الأشعث (لقب) : ٤١٢ ، ٤٤٨

الإصبيد (لقب) : ٤١٢

١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،
 ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٥٦ ،
 ٣١٣
 أهل الأردن : انظر : عرب الأردن
 أهل الإسكندرية : ٣٣٦
 أهل الأمصار : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣
 أهل الأهواز : ٨٠
 أهل إيران : ٥٢٨
 أهل أيلة : ٢٩١
 أهل البحرين : انظر : عرب البحرين
 أهل البصرة : انظر : عرب البصرة
 أهل بلخ : ٤٨١
 أهل (آل) البيت : ٦٢ ، ٦٣ ، ١٠٠ ،
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٣١ ، ١٧٨ ،
 ٢٣٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ،
 ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦ ، ٥٠٣ ،
 ٥٢٢ ، ٥١٥
 أهل تدمر : انظر : عرب تدمر
 أهل ترمذ : ٤٤٥
 أهل جرجان : ٤٢٥
 أهل الجزيرة : انظر : عرب الجزيرة
 أهل الجزية : ٣٥٢
 أهل الحجاز : ١٣٧ ، ١٣٩
 أهل حران : ٥١٩
 أهل الخطوة والحظ : ٣٢١
 أهل الحل والعقد : ٣٣
 أهل حمص : انظر : عرب حمص
 أهل خراسان : ٦٨ ، ٢٨٤ ، ٣٧٩ ،
 ٤٠٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٤ ، ٤٥٨ ،
 ٤٦٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٩ ،
 ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ،
 ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥١١ ، ٥١٢ ،
 ١١٣ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ،

إله الفلاسفة : ٢
 الإمام : ١١ ، ١٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٠ ،
 ٥١ ، ٦١ ، ١٦٤ ، ١٤١ ،
 ٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ،
 ٥١٤ ، ٤٩١
 إمام الصلاة : ١٠ ، ٢٦
 الإمامة : ٣٧٥ ، ٤٧٦ ، ٥٣٣
 الأمة : ٣ ، ٤ ، ٦ ، ١١ ، ١٥ ،
 ٢٠ ، ٢٦
 الأمة (سيادة الأمة) : ٩ - ١٤
 الأمة الإسلامية : ١٥ ، ٥٩ ، ٨١ ،
 ٩٨ ، ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٤٢ ،
 ١٧٣ ، ١٧٨ ، ٢٣٨ ، ٣٥٥ ،
 ٤٧٢
 أمة الله : ٧
 الأمصار : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٨ -
 ٥١ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ١٤٢ ، ١٥٨ ،
 ١٦٦ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٤٨ ، ٥٣٠ ،
 ٥٣١
 الأمويون : انظر : بنو أمية
 أمير المؤمنين (لقب) : ٣٥
 أنباط القرى : ٢٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠
 أنبياء إسرائيل : ٥٢٢
 الانتخاب : ٩ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٨٥
 الإنجيل : ١ ، ٢ ، ١٨ - الاتجاه الإنجيل :
 ٥٩
 الإنسانية الموحدة : ٥
 الأنصار : ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ،
 ٣٥ - ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥١ ،
 ٨٨ ، ١٠٧ ، ١٣١ ، ١٤٦ ،

أهل اللاذقية : ٣١٤
 أهل ما وراء النهر : ٤٧١ ، ٤٧٢
 أهل المجون والفسق : ٢٤٣ ، ٣١٣
 ٣٣٨
 أهل المدينة : ١٢ ، ١٥ ، ٣٧ ، ٤٤
 ٤٦ — ٤٨ ، ٥١ — ٥٣ ، ٨٣
 ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ —
 ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٠٨ ، ٢٥٩
 ٣٤٠
 أهل مرو : ٤٨١ ، ٤٨٧ ، ٤٩٣ ، ٥٠٢
 أهل مصر : انظر : عرب مصر
 أهل مكة : ٣ ، ٦ ، ١١ ، ٢٣ ، ٣٥
 ٢١٩ ، ٣٤٠
 أهل المياه : ٥٢
 أهل النباهة والفضل : ٢٦٦ ، ٣٣٥
 ٤٠٤ ، ٤٦٠ : ٥٠٥
 أهل نجران : ٢٩١ ، ٢٩٢
 أهل الهند ٢٥١
 أهل اليمن : انظر : عرب اليمن
 الأوس : ٧ ، ١٦ ، ٣٦
 أيام العرب : ٣٩٤
 الإيرانيون : ٢٢٣ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤١٦
 الإيمان (رباط الاتحاد) : ١ ، ١٢ ، ٢١

(ب)

البابية : ٤٤٨
 الباب المفتوح (عُثبان رضى الله عنه) : ٥٠
 باهلة (قبيلة) : ١٩٦ ، ٢٥٢ ، ٤٠٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣ ، ٤٨٣
 البترا (خطبة زياد) : ١١٦ ، ١١٨
 بجيلة (قبيلة) : ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٤٣٣
 البخارية : ٣٢٦

٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٣ ، ٥٢٩
 أهل خربت : ٨٩
 أهل دمشق : انظر : عرب دمشق
 أهل الديانة والورع : ٣٧ ، ٥١ ، ٥٤ —
 ٥٦ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٨٤٠
 ١٢٢ ، ١٩٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٤٠ ، ٣٢٠ ، ٣٠٦ ، ٣٢٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥٣ ، ٣٦٣ ، ٣٩٤ ، ٤٤٢ ، ٤٩٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٢
 أهل الذمة : ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣١٩ ، ٣٦٠ ، ٤٢٨
 أهل الردة : ١٦٠
 أهل الرها : ١٢٨
 أهل سقادم : ٤٩٥
 أهل سمرقند : ٢٨٤ ، ٢٨٥
 أهل السواد : ٢٨٢ ، ٣٢٦
 أهل الشام : ٤٥٢
 أهل الشام : انظر : عرب الشام
 أهل الشرك : ٣٢٤
 أهل الشقاق والفتنة : ٣١٦
 أهل العالية : ٣٨١ ، ٤٠٨
 أهل العراق : انظر : عرب العراق
 أهل عين التمر : ٢٨٢
 أهل فارس : ٩٤ ، ٥٠٤
 أهل فلسطين : انظر : عرب فلسطين
 أهل فينيقية : انظر : عرب فينيقية
 أهل قبرس : ٢٩١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢
 أهل القرى : ٤٤٢ ، ٤٧١
 أهل قنسرين : انظر : عرب قنسرين
 أهل الكافية (الكفاية) : ٤٩٣ ، ٥٠٣
 أهل الكتاب : ٢٤
 أهل كرمان : ٩٤
 أهل الكوفة : انظر : عرب الكوفة

٢٥٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٢ ، ٢٣٨
 ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦
 ٢٧٢ ، ٢٧٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣
 ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨١
 ٣٠٠ - ٣٠٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٢ - ٣١٠
 ٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥
 ٣٢٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠
 ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٤٦
 ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦
 ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
 ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٠٢ ، ٤٢٨
 ٤٥٤ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، ٤٧٢ - ٤٧٥
 ٤٨٩ ، ٤٩٦ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦
 ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٤
 ٥١٦ ، ٥٢٢ - ٥٢٧ ، ٥٢٩
 ٥٣١ ، ٥٣٣ - انظر أيضاً : الدولة

الأعوية

بنو جشم (بن معد بن زيد بن مناة بن قهم) :

٣٩٨

بنو جلندى : ٣٧٩

بنو الجوزجان : ٤٤٧

بنو حارثة : ١٥٤

بنو حرب : ١٢٩

بنو الحريش بن كعب : ٤٢٩

بنو حنظلة : ٣٩٠

بنو سعد : ٢٧٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣

بنو سلمة : ٤٨٠

بنو سليم : ٥١٨

بنو شيان : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٧٦

بنو صهيب : ٣٩٨

بنو ضبة : ٣٨٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٧

٤٣٤

بنو عامر : ٥١٨

بنو (موقمة) : ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧

١٨ ، ٣٩ ، ١٣٠

البراءة (من المشركين) : ٣٩

البرامكة : ٤٤٥

البربر : ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣١٢ ، ٣١٣

٣٢٩ - ٣٣٢ ، ٥٣٣

البروقان (موقمة) : ٤٣٤

البريد : ٥٣١

البصريون : افطر : عرب البصرة

بطارقة الروم : ٢٧٨

البطانة : ٥٣٠

بطانة عثمان رضى الله عنه : ٤٠ ، ٤٤

السلطان : ٤ ، ١٠

بكر (قبيلة) : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٨

٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٣٩ ، ٣١٧

٣٧٤ ، ٣٨٠ - ٣٨٣ ، ٣٨٧ - ٣٩٠

٣٩٥ ، ٣٩٧ - ٣٩٩ ، ٤٠٩

٤٠٨ ، ٤٣٥ ، ٤٤٣ ، ٤٦٤

٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨ ، ٥٠٠

٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٢٠

بلاط الخليفة : ٥٢٩ ، ٥٣٠

بلاط دمشق : ٢٠٥

بلاط الشهداء (موقمة) : ٣٣٠

بلحارث (قبيلة) : ٥٢٠

بنات فين (موقمة) : ٢٠٠ ، ٢٠٩

بنو إسرائيل : ٥٠٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣

بنو أمية : ٢٠ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠

٤٦ - ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٧ - ٦٠

٦٢ - ٦٨ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠٧

١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٢٤

١٢٦ ، ١٢٩ - ١٣١ ، ١٤٣

١٤٥ ، ١٤٩ - ١٦٠ ، ١٦٤

١٦٦ ، ١٦٨ - ١٧٥ ، ١٧٧ - ١٧٩

١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ - ٢٠٦

٢٠٨ ، ٢٩٣ - ٢٩٦ ، ٣٧٩

بيت المال : ١٣ ، ٣٧ ، ٣١ ، ٤١ —

٤٣ ، ٥٨ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٥ ،

١١٤ ، ١٢٠ ، ١٣٦ ، ١٧٠ ،

٢٥٨ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ ، ٢٦٩ ،

٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ،

٢٨٦ — ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،

٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ،

٣٤٤ ، ٣٦٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ،

٤٢٧ ، ٤٥٣ ، ٤٦٩ ،

بيت المقدس : ١٨ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ٩٧ ،

١٢٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٧ ،

٣١٦ ، ٣٦٨ ،

البيعة (بولاية العهد) : ٣٨ ، ٥١ ، ٥٣ ،

٩٧ ، ١١٠ ، ١٣٤ — ١٤٢ ،

١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ،

١٦٤ ، ١٦٦ — ١٧٠ ، ١٧٣ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٤٩ ، ٢٥٦ — ٢٥٨ ، ٣١٥ ،

٣٢٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ — ٣٤٨ ،

٣٦٠ — ٣٦٢ ، ٣٧٤ ، ٣٨٤ ،

٤٨٦ ، ٤٨٩ ، ٥٠٣ ، ٥٠٨ ،

٥١٤ ، ٥١٥ ،

البيعة النبوية : ٢٢

(ت)

التابعون (للقباء) : ٤٧٩

تألف القلوب : ٢٠

التبث (قبيلة) : ٤٠٦

التحالف السياسي : ٢٢٧

التحكيم (بين علي ومعاوية) : ٧٨ — ٨٧ ،

٨٩ ، ٩٢ ، ٩٩ ،

بنو العباس : ٦٨ ، ١٠٣ ، ١٣٢ ،

٢١٣ ، ٢٤٥ ، ٢٣٦ ، ٣٧١ ،

٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٤٣٨ ، ٤٦٤ ،

٤٧٤ — ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ،

٤٨٩ — ٤٩١ ، ٤٩٤ ، ٥٠٤ ،

٥٠٥ = ٥٠٨ ، ٥١٢ — ٥١٧ ،

٥٢١ — ٥٣٤

بنو عبد المطلب : ٣ ، ٣٩

بنو عبد مناف : ٣٩

بنو العدوية : ٣٨٨

بنو عمرو بن تميم : ٣٩٠

بنو عوف : ٤٠٢

بنو فاطمة : ٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠

بنو فزارة : ٣١١

بنو القمقاع : ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ،

٣٤٦

بنو قيس بن ثعلبة : ٤٨١

بنو مروان : انظر : المروانيون

بنو المهلب : ٤٥٩

بنو هاشم : ٣ ، ٣٩ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ،

٣٧٠ = ٤٩١ ، ٥١٦ ، ٥٢٣ ،

٥٢٩

بنو يشكر : ٣٨٧

البرانيون : ٣٥٦ ، ٣٤٩

بويب (موقعة) : ٧٢

بيت عمرو (الإسرائيلي) : ٥٢٢ ، ٥٢٤

البيت الحرام : ١٧ — ١٩ ، ١٤٥ ،

١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٩٣ — ١٩٥ ، ٢٠٢ ،

٢٠٦ — ٢٠٨ ، ٢٤٧ ، ٣١٦ ،

٣٢٠

٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨ ،

٥٠٩

التهجد : ٣

التوحيد : ١٨ ، ١٩ ، ٢١

التوحيد : الإسلامي : ٢ : السامى : ١٩ ،

٢١ : العربي : ١٩ ، ٢١

التوراة : ١٠ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٥٧

التوسع الخارجى : ٢٣

(ث)

الثار : ٧ ، ١٤ ، ١٣ ، ٢١ ، ١٩٦ -

٢٠٢ ، ٥٢٢

ثقيف - ثقيفون : ٤ ، ٥ ، ٦٤ ،

٦٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ٢٢٧ ،

٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٣٢٢ ، ٣٤١

الثورة : ٤١ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ،

٥٥ - ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ،

٧١ ، ٧٢ ، ٩٥ ، ١١٠ ، ١١٣ ،

١١٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥١ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،

٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،

٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ - ٣٢٧ ،

٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ،

٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ،

٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٣ ،

٣٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ،

٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٥ ،

٤٢٦ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ - ٤٤٣ ،

٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٧٢ ، ٤٨٣ ،

التدريب العسكري : ١٠

التراث (الدينى الإسلامى) : ٣٧ ، ٥٤ ،

١٥٩ ، ٢٥٩

التراث (المسيحى) : ١٢٨

التراث (النبوى) : ٢٠٨

الترسل : انظر : التسليك

الترك : ٢٢٣ ، ٣٠٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ،

٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٩٣ ، ٤٠٦ ،

٤٠٧ ، ٤١١ - ٤١٣ ، ٤١٦ ،

٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،

٤٣٢ ، ٤٣٦ - ٤٣٨ ، ٤٤١ ،

٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،

٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،

٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٥٣٣ ،

٥٣٤

التسليك (لقب) : ٤١٢

تستمر (موقعة) : ٢٣٣

تغلب (قبيلة) : ٢٣ ، ١٧٧ ، ١٩٨ ،

١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ،

٤٤٥

تتميم : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٩٥ ،

١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

٢٠٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ ،

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ،

٣١٨ ، ٣٧٠ - ٣٨٣ ، ٣٨٦ -

٣٩٥ ، ٣٩٧ - ٤٠٢ ، ٤٠٤ ،

٤٠٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ،

٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ،

٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،

٤٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٤٦٩ ،

٤٧١ ، ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٠
 الجماعة الدينية : ١ ، ١٠ ، ١١ ،
 ٤٥٤
 الجماعة السياسية : ٨ ، ٥
 جماعة الله : ١٢
 الجماعات القديمة المقدسة : ١٠ ، ١١
 الجمل (موقعة) : ٥٣ ، ٥٥ ، ٨٠
 الجمعة (يوم) : ١٧ ، ٢٦
 الجمهورية : ٩
 الخند : ٤١ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ٢٥٦ ،
 ٣٢٢ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ،
 ٤٩٦
 جند احتلال : ٥٨ ، ٩٤ ، ٢٤١
 جند - جيش البصرة : ١١٣ ، ٢٢٠
 ٢٢٦
 جند - جيش بني العباس : ٥٠٣
 جند - جيش خراسان : ٥٠٣ ، ١٠ ،
 ٥١٣ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٨
 جند - جيش الشام : ٤٩ ، ٥٦ ، ٧٣ ،
 ٩٣ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ،
 ١٦٤ ، ١٨٢ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٧ - ٢٣٠ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ -
 ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ،
 ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ،
 ٤٢٣ ، ٤٣٧ ، ٤٤٧ ، ٤٧٣ ،
 ٥١٠ ، ٥١٨

٤٧٨ ، ٤١٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ،
 ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ،
 ٥٠٩ ، ٥١٢ ، ٥٢٢

(ج)

جابلق (معركة) : ٥١٠
 جار - جوار : ١٢ - ١٤ ، ٤٣٠
 الجاسوسية : ٥٣١
 الجاهلية : ٦٥ ، ١١٧ ، ٤١٨ ، ٤٨٠ ،
 ٣٩٠ ، ٤٢٩ - انظر أيضاً :
 الشرك .
 الجبر (ضد الاختيار) : ٢
 الجبرية : ٣٦٤
 جذام (بنو روح بن زنباع) : ٥١٩
 الجراحة : ١٨٢
 الجزية : ٥ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ -
 ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ -
 ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 ٣٣٦ ، ٣٣٣ ، ٣٥٢ ،
 ٤٩٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،
 ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ -
 ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٧١
 الجفرية (جماعة) : ١٨٥ ، ١٨٦
 الجماعة : ٣ - ٧ ، ١٠ - ١٤ ، ٢٦ ،
 ٤٨٩
 الجماعة الإسلامية - الحمديّة : ١ ، ٣ ،
 ١٠ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٥ ،
 ٥٩ ، ١٠٦ ، ١٥١ ، ١٩٥

(ح)

جند - جيش العراق : ١٠٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠
 جند - جيش على : ٥٦ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١٠٠
 جند - جيش الكوفة : ١٤٤ ، ٢١٩ ، ١٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٣٦٩
 جند محليون : ٥٨
 جند - جيش مروان بن محمد : ٥١٨ ، ٥٢٠
 جند - جيش معاوية : ١٠٤
 الجنة : ٢٤
 الجهاد : ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣١
 الجهمية : ٤٦١
 جيرون (موقعة) : ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣
 الجيش : ٨ ، ١٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٦١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٠٥ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٥٠٩ ، ٥٢٩ ، ٥٣١
 قارن أيضاً : جند
 جيش الطواويس : ٢٢٤ ، ٢٣٧
 جيش الله : ٨

حارث بن عباد (قبيلة) : ٤٣٣
 الحطاط (قبيلة) : ٣٩٥
 الحجج : ١٨ ، ٢١ ، ٥١ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ٢٨٩ ، ٢٠٦
 حجة الوداع : ٢١
 الحجر الأسود : ١٨
 الحديث : ٤ ، ٢٤ ، ٦٠ ، ٢٦٣
 الحرب : ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٦١ ، ٢٨٥ ، ٣١٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٨٦ ، ٤٢٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٥٠٦
 الحرب (العامة العربية في الحرب) : ٣٤٩ ، ٣٥٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠
 الحرب الأهلية الأولى : ٥٧ ، ٧٠ فابعدھا ، ١٨٢ ، ١٠٧ فابعدھا ، ٣٨٧ ، ٣٥٦ فابعدھا : ٣٨٧ ، ٤٥٣ ، ٤٧٥

الحرس الخاص : ١٦
 الحرم : انظر : البيت الحرام
 الحرة (موقعة) : ٣٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢
 حروب الردة : ٢٣ ، ٣٧
 الحروية : ٥٦ ، ٧٩
 الحشموينيون : ٦٠
 الحضارة اليونانية الرومانية : ١٢٦
 حق الرئاسة : ٣٨
 الحق الشرعي : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥
 الحقوق الوطنية : ٦٧ ، ٤٤١ ، ٤٨٨
 الحكومة الإسلامية الأولى : ١٠
 الحكومة الأموية : ٣٧١ ، ٤٠٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥١٢
 الحكومة التتوقراطية : ٨ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧

خرائج (قبيلة تركية) : ٤٤٧
 الحرمية : ٤٨٣ ، ٤٨٨ ، ٥٠٤
 خرازة : ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨
 ٤٩٣ ، ٥٠٠
 الخرج : ٧ ، ١٦ ، ٣٦
 خساف (موقعة) : ٣٧٥
 خشبية أبي مسلم : ٤٧٨
 خشبية المختار : ١٨٧ ، ٤٧٨
 خطبة الجبل : ٢
 الخلافة : ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩
 ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ — ٥٨
 ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤
 ٨٤ — ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٧
 ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٦
 ١١٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤
 ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥
 ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٣
 ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٢
 ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤
 ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥
 ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦
 ٢١٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ — ٢٥٧
 ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ —
 ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥
 ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ — ٣٤٣
 ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥
 ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧
 ٣٦٩ — ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٤١٧
 ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٣ ، ٤٤١
 ٤٦٣ ، ٤٧٥ ، ٤٨٩ ، ٥١٤ —
 ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥
 ٥٢٦ ، ٥٣١
 الخلافة الجديدة : ٥٣ ، ١٥٨
 الخلافة الشرعية : ١٥٨
 الخلافة القديمة : ٥٣

٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦١
 ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ١٢٧ ، ٢٠٨
 ٢٤٠ ، ٢٦٧ — انظر أيضاً : الدولة
 التيوقراطية
 الحكومة الجمهورية : ٩
 الحكومة الدينية الإسرائيلية القديمة : ٨
 ١٠
 حكومة القديسين : ١٠
 الحنفية : ١ ، ٣
 الحياة العامة والسياسية : ١١

(خ)

خازر (موقعة) : ١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٩١
 ١٩٧
 خلقان الترك : ٣٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٢٩
 ٤٣٦ — ٤٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨
 ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣
 الختلان — الختلان : ٤٠٦ ، ٤١٢
 ٤٢٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨
 ٤٤٩
 خشم : ٩١ ، ٢٣٠
 خداه (لقب) : ٤١٢
 الخراج : ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤١
 ٤٢ ، ٤٥ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٤
 ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٦٦ ، ١٨٢
 ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣
 ٢٥٤ ، ٢٦٣ — ٢٧٦ ، ٢٧٨ —
 ٢٨٤ ، ٢٨٦ — ٢٨٨ ، ٢٩٢
 ٢٩٣ ، ٢٩٦ — ٢٩٨ ، ٣١٠
 ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٤
 ٤٢٠ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥
 ٤٥٣ — ٤٥٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧١
 ٤٨١ ، ٥٢٩
 الخراسانيون : انظر أهل خراسان

الدولة : ١٤٠١٠٠٨٠٦٤٤٠٣

٠٥٣١٠٥٢٦٠٦٠٠٤٢٠٤١

٥٣٣

الدولة الإسلامية : ٢٠٣٠٦٩٠٢٤٠٥

٠٢٦٣٠٢١٨٠٢١١٠٢٠٥

٠٢٩٨٠٢٧٣٠٢٧٢٠٢٦٧

٠٤٥٧—٤٥٥٠٢٣٣٠٢٢٨

٠٥٠٦٠٤٧٥٠٤٧٣٠٤٧٢

٥٣٤٠٥١٦

دولة الله : ٦٢

الدولة الأموية : ٦٩٠٦٧٠٥٨

٠٣١٢٠٢٩٨٠٢٩٧٠٢٢٤

٠٥٠٢٠٤٧٢٠٤٥٠٠٣٨٠

٥٠٨

الدولة التركية : ٤

الدولة التيوقراطية : ٣٥٠٢٤—٢٢

٠١٦٢٠١٦١٠٦٧٠٦٤٠٤٠

٠٣٠٥٠٢٩٨٠٢٨٣٠٢٧٣

٠٤٧٢٠٤٥٥٠٤٤٢٠٤٤١

—٥٣٢٠٥٢٧٠٥٠٦٠٤٨٨

انظر أيضاً : الحكومة التيوقراطية

دولة دنيوية : ٢٦٣

الدولة الرومانية : ١٢٦٠٢٧

الدولة الساسانية : ٤١٢

الدولة العالمية : ١٢٩

الدولة العربية : ١٧٨٠١٢٧٠٢٧

٠٣٩٦—٣٩٤٠٢٦٩٠٢٤١

٠٤٧٢٠٤٧٠٠٤٦٧٠٤٥٥

٥٢٨٠٤٧٣

دولة وطنية : ١٢٩

الديانة القديمة : ٢٧٧

دير الجاثليق (موقعة) : ١٩٢٠١٨٨

١٩٣

دير الجمام (موقعة) : ٢٤٠٠٢٣٣

٢٨١

الدليل : ٣٠٥

التقليدية : ٤٩٠٤٠٠٢٨٠٢٣٠٢٣٠٢٣٠

٠١١٩٠٨٧٠٦٤٠٥٦٠٥١

٠٢٦٣٠١٧١٠١٣٤٠١٢٩

٠٣٨٦٠٣٨٤٠٣٤٨٠٢٦٥

٥٣٠—٥٢٨٠٥١٣٠٤٤٩

خمس الفينمة : ٢٨٦٠٣٠٠٢٨

٤٢٥

خندف (قبيلة) : ٤٥٩

الخوارج : ٦٣—٦٠٠٥٦٠٣٧

٠٩٤٠٨٢—٧٨٠٦٩٠٦٨

٠١٢٢٠١١٨٠١٩٠٠٩٨

٠٢١٨٠١٩٥٠١٦٢٠١٣٥

٠٢٩٩٠٢٢٤—٢٢١٠٢١٩

٠٣٣١٠٣١٧٠٣٠٨٠٣٠١

٠٣٨٤٠٣٧٩—٣٧٢٠٣٥٨

٠٤٠١٠٣٩٣٠٣٩٢٠٣٨٦

٠٤٤١٠٤٢٨٠٤٠٨٠٤٠٧

٠٤٧٣٠٤٧٢٠٤٦٣٠٤٦٠

٥٠٧٠٤٧٥

(د)

الدستور : ١٠

الدعوة الإسلامية : ١٨٠٥٠٤

الدعوة المباسية : ٤٧٥٠٣٣٧٠٣١٧

٤٩٤٠٤٨٧٠٤٧٧

الدعوة الهاشمية : ٤٨٠٠٤٧٧

الدم : انظر : رابطة الدم

الدمقراطية : ٣٣

الدهشارون : ٣٩٥

دهقان — دهاقنة : ٢٧٠٢١٣٠٢٤٤

٠٤١٤٠٤١٢٠٣٩٥٠٢٨٢

٠٤٤٥٠٤٤٢٠٤٣٥٠٤٣٤

٠٤٥٦٠٤٥٢٠٤٥١٠٤٤٨

٤٦٩٠٤٥٧

دوس (قبيلة) : ٣٨٢

دريمة (قبيلة) : ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٢ ،

١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٤٢ ،

٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ -

٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ،

٣٩٧ - ٣٩٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ،

٤٣٣ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٨ ،

٤٥٩ ، ٤٦٤ ، ٤٧٩ ، ٤٩٦ ،

٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧ ،

٥١٣ ، ٥٢١

للارضة : ٢٣ ، ٣٧ ، ١٠٧

الرسل : ١

للسرور : ٥

للرعية : ٢٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٦٤ ،

١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٦٩ ،

٢٧١ ، ٣٣١ ، ٤١٦ ، ٤٥٦ ،

٥٢٦

للرقيق : ٣ - قارن أيضاً : عبيد

وكوع : ٣

ومضان (شهر الصوم) : ١٧

الزهبان : ١٠

للروح الإسلامية : انظر : الإسلام

للروح الوثنية : انظر : الوثنية

للروح : ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٥ ، ١٠٧ ،

١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،

١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ،

٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،

٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ،

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٤ ،

٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ،

٣٥٧ ، ٣٦١

دومان (التأثير الروماني) : ٦ ، ٥٤ ،

١٢٦ ، ٢١١

للرئاسة : ٦ ، ٨ ، ٢٠ ، ٣٨ ، ٥١٣ ،

٥١٥ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩

للرئاسة الإنسانية : ١٢٦

الدين : ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ٢٥ ،

٥٨ ، ٥٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٣

دين إبراهيم : ١ ، ٣ ، ١٧ ، ١٨ ،

٢١

دين الأنبياء : ٩

دين الكائنات : ٩

الدية : ١٣ ، ٢١ ، ٣٩٠

الديوان (تعريب الديوان) : ٢١١ - ٢١٣

ديوان الأعطيات : ٢٣٥

ديوان البصرة : ١٠٩

ديوان الجيش : ٢٤

ديوان دمشق : ٢١٢

ديوان العمال : ٢٨٤

ديوان الكوفة : ٢١٢

ديوان المال : ٢١١

ديوان المقاتلة : ٢٨٨ ، ٣٨٤ ، ٤٧١

(ذ)

ذبيان (قبيلة) : ١٧٧

الذكوانية : ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٧٥

(ر)

رابطة الإسلام : انظر : الإسلام

رابطة الدم : ٤ ، ٧ ، ١٠ ، ١٣ ،

٣٥ ، ١٧٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢٩

رابطة الدين : ٤ ، ٧ ، ١٥ ، ٣٥ ،

٥٠٣ ، ٥٣٣

رابطة النسب : ٤ ، ٧ ، ١١ ، ٣٥ ،

١٧٧ ، ٤٢٧ ، ٥٢٩

الراوندية : ٤٨٨ ، ٥٣٢

رياب (قبيلة) : ٣٨٠ ، ٣٩٠

رياب اليهود : ٤٥٤

الريجن (لقب) : ٤١٢

الري : ٢١

سكسك (قبيلة) : ١٧٧ ، ١٧٠ ، ٥١٨ ، ٣٦٨

السكون (قبيلة) : ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٧٧

السلام : ٧ ، ٨ ، ١٢ ، ١٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١

السلطة المحلية : ٤١٣ ، ٤٦٩

سليم (قبيلة) : ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٤٦ ، ٤٧٠ ، ٣٩٥

السنة : ٥ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ١٥٧ ، ٢٢٦ ، ٢٧٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٢٦ ، ٣٥١ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٨٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٢

المهرک = المهرب (لقب) : ٤١٢

السيابجة (من الهنود) : ٣٨٠

السيادة العربية : ٢٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٥١٣ ، ٥٢٧

السياسة : ٦ ، ٥٩ ، ٦٨

السياسة الدنيوية : ٦

السياسة الدينية : ٦

السياف : ٥٣٠ ، ٥٣١

السيد (العربي) : ١٣٢ ، ٣٩٠

(ش)

الشاكزية : ٤٧٠

الشاميون : انظر عرب الشام

الشاه (لقب) : ٤١٢

الشرك (الجاملي) : ١ ، ١٧

الشورى : ١٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٥١

(٣٧ - الدولة العربية)

الرئاسة الدنيوية ، السياسية : ٥ - ٨ ، ٥٣٣

الرئاسة الدينية : ٧ ، ٥٣٣

(ز)

الزاوية (موقعة) : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٨

الزراع المصريون : ٢٩

الزط : ٣٨٠

الزكاة (الصنقات) : ٢١ ، ٢٧ ، ٨١ ، ٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٨٢

الزنادقة : ٤٨٩ ، ٥٠٦ ، ٥٣٣

زنبيل كابل : ٣٠٩

الزيدية (فرقة) : ٣٧٠

(س)

السادة : ٦٤

الساسانيون : ١٣٤ ، ٤٦٩

السبئية : ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٤٧٥ - ٤٧٧ ، ٥١٥

سجود : ٣

السريان : ٤٥٤

سعد (قبيلة) : ٣٩٠

السعد : ٢٨٥ ، ٣١٢ ، ٣٣٣ ، ٣٤٨

٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤٢٩

٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ -

٤٣٩ - ٤٤٢ ، ٤٥٣ ، ٤٤٨

٤٦٠ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧١

٥٣٣

السفانيون : ١٠٧ ، ١٦١ ، ١٦٦

١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٧٩

٢١٣ ، ٣٠٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥١

٥٢٦

الصقالية : ٥٣٣
 الصلاة : ٣ ، ١٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ،
 ٣٣ ، ٤٥ ، ١١٩ ، ٤٢٢ ،
 ٤٣٥ ، ٤٩٥

الصلاة الجامعة : ١٧
 الصالح : ٢٣ ، ٢٩
 الصواري (موقعة) : ٤٦
 الصواني (الأملاك) : ٢٨ ، ٢٦٦ ،
 ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٣٠٠ ،
 ٣٣٦

صوم عاشوراء : ١٧
 صوم الغفران : ٢٧
 الصور المقدسة : ٣١٤
 صيام رمضان : ١٧ ، ٢٤
 صيام الأربعين : ١٧

(ض)

الضرائب : ٢٩٣ ، ٤١٥ ، ٤٥٥
 الضرائب الجمركية : ٢٩٣
 ضريبة الرأس : ٤٥٦

(ط)

الطالبيون (آل أبي طالب) : ٤٨١ ، ٥١٤
 طرخان — طرخون — طراخنة : ٤٠٥ ،
 ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٦
 طيء (قبيلة) : ١٧٧ ، ٣٨١ ، ٥٠٨

(ع)

العادة (الضرائب المتنوعة) : ٢٩٣
 عاشوراء : ١٧
 عامر (قبيلة) : ١١٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
 ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٤٦
 العباسيون : انظر : بنو العباس

٨٥ ، ٨٧ ، ١٢٩ ، ١٤١ ،
 ٣٥١ ، ٤٦١
 الشورى (أصحاب الشورى الستة) : ٣٨ ،
 ٤٠ ، ١٠٩

شيبان (قبيلة) : ٣٧٣ ، ٣٧٥
 الشيعة : ٣٧ ، ٦٢ — ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
 ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢١ — ١٢٣ ، ١٤٤ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٠ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦٩ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٤٧٣ —
 ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥١٥ ،
 ٥١٧ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣
 شيعة بني العباس : ٤٨٣ — ٤٨٧ ،
 ٤٩٠ — ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠٤ ،
 ٥٠٧ ، ٥٠٩

الشيوعية (المزدكية) : ٤٨٩

(ص)

الصابئون : ٣
 الصحابة : ٢٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ،
 ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
 ٥١ — ٥٣ ، ٧٩ ، ١٣١ ، ١٣٦ ،
 ١٥٠ ، ١٦١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
 ٢٨٠

الصحيفة : انظر : الكتاب بين النبي
 وأهل يثرب

الصخرية (قبة) : ٢٠٦

صدر الإسلام : ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٤

الصدقات : انظر : الزكاة

صفان — خداه (لقب) : ٤١١ ، ٤٤٨

صفين (موقعة) : ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٠ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ،

٨٣ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٣ ،

١٩٢ ، ٣٠٨

٤٥٢ ، ٤٥٥ — ٤٥٧ ، ٤٦٠ ،
 ٤٦٢ — ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٧ ،
 ٤٨٨ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ — ٥٠٧ ،
 ٥٠٩ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ،
 ٥٢٧ — ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ،
 ٥٣٤ — انظر أيضاً : أعراب
 عرب الأردن : ١٧٠ ، ١٧١ ، ٤٤٧
 عرب البحرين : ٩٤
 عرب البصرة : ٥٣ — ٥٥ ، ٧٢ ، ٨٦
 ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ،
 ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ،
 ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ —
 ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٦
 عرب تدمر : ٣٦٦
 عرب الجزيرة : ٣٦٦
 عرب الجنوب : ١٧٦
 عرب حصن : ١٧٣ ، ٢٨٠ ، ٣٥١ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٤٤٧ ، ٥٢٥
 عرب خراسان : ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٢ ،
 ٤٠٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٣ ، ٤٥٨ ،
 ٤٧٠ ، ٤٨٣ : ٥٢٠
 عرب دمشق : ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٢٨٠ ،
 ٢٩٠ ، ٣٥١ ، ٤٤٧ ، ٥١٩
 عرب سمرقند : ٢٨٥
 عرب الشام : ٥٥ — ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ،
 ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ — ٧٥ ،
 ٧٧ — ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ — ٩٠ ،
 ٩٦ — ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ،
 ١٢٥ — ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،
 ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٥١ ،
 ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٩ — ١٦٤ ،
 ١٦٦ — ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ،
 ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
 ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،

عبد القيس (قبيلة) : ٣١٩ ، ٨١ ،
 ٣٨٠ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤١٥
 عبد ود (قبيلة) : ٢٠٠
 العبرانيون : ٣٤٥
 عيس (قبيلة) : ٢٥٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٥
 العبلات (قبيلة) : ١٧٠ ، ٥٢٢
 العبيد : ٣ ، ٥٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ،
 ٤٩٥ ، ٥٠٥
 عتيك (قبيلة) : ٣٨٦
 المعجم : انظر : الأعاجم
 المعجمة (الإيرانية) : ٥٢٨
 العراقيون : انظر : عرب العراق
 للعرب : ٣ ، ٨ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ —
 ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ،
 ٣٧ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ،
 ٥٨ ، ٦٣ — ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢١ ،
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
 ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ،
 ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ،
 ١٧٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ —
 ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ،
 ٢٦٣ ، ٢٦٥ — ٢٧٤ ، ٢٨٤ —
 ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ،
 ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ —
 ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ،
 ٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٤ ، ٣٩٣ — ٣٩٦ ، ٤٠٤ —
 ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٥ — ٤١٧ ،
 ٤١٩ — ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ —
 ٤٣٢ ، ٤٣٤ — ٤٣٦ ، ٤٣٨ —
 ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ،

عرب مرو : ٤٩٦
 عرب مصر : ٤٥ - ٤٩ ، ٥١ ، ٧١ ،
 ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢
 عرب اليمن : ٣٧ ، ٤٥ ، ٦٦ ، ١٠٢ ،
 ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٦ ،
 ٢٣٢ ، ٢٨٧ ، ٣١٩ ، ٣٥٣ ،
 ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٤٤٤
 العرش : ١٢٧ ، ١٧٨ ، ٢١٦ ، ٢٦٤ ،
 ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣٣٨ ، ٣٦٤
 ٤٧٤ ، ٥٣٠
 العروبة : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٠٩ ، ٢٣٧ ،
 ٣٩٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٧ ، ٤٦٢ ،
 ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٥٠٦ ،
 ٥١٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
 العشر : ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٢ ، ٢٩٣
 عشيرة - عشائر : انظر : قبيلة
 العصبية : ٤ ، ٥ ، ٢١ ، ٤٧٤
 عصر الفتوحات : ٢٩
 المطاء : انظر الأعطيات
 عقاب المثل : ١٣
 عقر (موقعة) : ٣١٠ ، ٣١٢
 علماء المدنية : ٢٥٩ ، ٢٧١ ، ٥٣١ ،
 ٥٣٢
 البلويون : ٣٧ ، ٨٦ ، ٢٥٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٥٠٤ ،
 ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ -
 ٥٣٢
 علم : ٢٠٠
 عمري : انظر : بيت عمري
 العملة (البنائير والذراهم) : ٢١٠ ،
 ٢١١ ، ٢٤٦
 الحنايس (قبيلة) : ١٧٠
 العناصر الأجنبية : ١٥٠
 العنوة (في الفتح) : ٢٣ ، ٢٨ - ٣٠ ،
 ٢٦٥

٢٢٧ ، ٢٢٩ - ٢٣١ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٨٩ ،
 ٣٠٥ - ٣٠٨ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ،
 ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ،
 ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٨٤ ، ٤٢٤ ،
 ٤٤٧ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ - ٥١٢ ،
 ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ -
 ٥٢٨
 عرب الشمال : ١٧٦
 عرب العراق : ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ - ٥٨ ،
 ٦١ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
 ١٢٦ ، ١٣٩ ، ١٦٠ ، ١٨٣ ،
 ١٩٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ - ٢٣١ ،
 ٢٣٦ - ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ - ٢٥٤ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٩٣ ، ٤٠٨ ،
 ٤٢٤ ، ٥٠٦ ، ٥١٤ ، ٥١٦
 عرب الغوطة : ٣٦٥
 عرب فلسطين : ١٧٦ ، ٣٦٥
 عرب فينيقية : ١٧٦
 عرب قنسرين : ٣٦٦
 عرب الكوفة : ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ،
 ٧١ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٤ ،
 ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ،
 ١١١ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ،
 ١٤٣ - ١٤٥ ، ١٩١ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ،
 ٢٣٩ ، ٣٠٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٦ ، ٣٦٩ - ٣٧١ ، ٣٩٦ ،
 ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ،
 ٥١٥

٣٨٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٥ - انظر
أيضاً : غنيمة
الفيلك (لقب) : ٤١٢

(ق)

القادية (موقعة) : ٧٤
قبالة - قبالات : ٢٧٨ ، ٢٨٢
القبائل العربية : ٤ ، ٥ ، ١٠ - ١٦ ،
٢٦ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٦٣ - ٦٥ ،
٦٧ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ٢٠٤ ،
٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ - ٢٥٣ ،
٣١٨ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٨٠ -
٣٨٥ ، ٣٩١ - ٣٩٤ ، ٣٩٧ ،
٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٣٣ ،
٤٣٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ،
٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ،
٤٨٨ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٥٠١ ،
٥٢٧

القبائل اليهودية : ١١

القبيلة : ١٨

القبيلة : ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ -
١٤ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٦٣ ، ١٣٤ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥

قحطان : ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ،
القديرية : ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،
٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣

القرآن : ١ - ٦ ، ١٠ ، ١٨ ، ١٩ ،
٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٠ ،
٦٣ ، ٧٤ ، ١١٦ ، ١٢٥ ،
١٢٧ ، ١٥٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،
٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩

(غ)

غرقد (شجر) : ١٥٦ ، ١٥٨ ،
غسان (قبيلة) : ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ،
٣٤٨
الغسانيون : ٥٤
غطفان : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ،
غنى (قبيلة) : ١٩٦
الغنيمة - الغنائم : ٢٥ ، ٢٨ - ٣٢ ،
٣٥ ، ٤١ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،
٢٦٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ،
٢٩٥ ، ٤٧١

(ف)

الفاروسيون : ٦٠
الفتح (قانون الفتح) : ٢٨ ، ٢٩ ،
٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٣٩٥ - انظر أيضاً :
حرب
فتح مكة : ٢٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ،
فداء الأمرى : ١٣
الفرس : ٣١ ، ٦٤ ، ٦٦ - ٦٨ ،
١٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٤٤ ، ٢٧٣ ،
٣١٧ ، ٣٧١ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ -
٣٩٥ ، ٤٠٥ ، ٤٢٥ ، ٤٣٦ ،
٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٢
فروعون : ٢٩ ، ٢٣١ ، ٤٨١
الفرنجة : ٣٢٩ - ٣٣١
فزارة (قبيلة) : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٤١ ،
٣٣٨
الفقههاء (علماء الشريعة) : ٦٠ ، ٢١١ ،
٢١٧ ، ٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
النبي : ٢٥ ، ٢٩ - ٣١ ، ٤١ - ٤٣ ،
٦٠ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ٢٨٢ ،
٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٢٦

١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ —
 ١٧٧ ، ١٨٠ — ١٨٢ ، ١٨٤
 ١٨٥ ، ١٩٦ — ٢٠٥ ، ٢١٨
 ٢٤٢ ، ٢٥١ — ٢٥٣ ، ٢٦٢
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ — ٣١٢
 ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١
 ٣٢٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣
 ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٣
 ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٥
 ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٨
 ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣١
 ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤
 ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٧ —
 ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٥٠٩
 ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٨ ، ٥٢٥

القيصانية (جماعة) : ٣٢٦

قين (قبيلة) : ١٧٧

(ك)

الكاثوليك : ٢٨٩

الكتاب (الصحيفة) بين النبي وأهل

يثرب : ١١ — ١٣

كتّاب الديوان : انظر : الديوان

الكحيل (موقعة) : ٣١٧

كربلاء (موقعة) : ١٥٢

الكعبة : انظر : البيت الحرام

الكمار — الكافرون : ٥١ ، ٤٦٣ ،

٥١٨

كلب (قبيلة) : ٣٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ،

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ،

١٦٧ — ١٧٢ ، ١٧٤ — ١٧٧

٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ،

٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٢٠ ،

٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٥١ ،

٤٢٣ ، ٤٣٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ،

٤٩٥ ، ٥١٥ ، ٥٣٢

القرآن (علماء القرآن) : ٦٠ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ،

٢٧٥ ، ٣٠٦

القرشيون : انظر : قريش

قريش : ٣ — ٥ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ،

١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٥ ، ٣٧ —

٤٠ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ٨٤ ، ١٠٧ ،

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٩ — ١٤١ ،

١٥١ — ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ٢٠٤ ،

٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٧٨ ، ٣١١ ،

٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٧٤ ، ٣٩٠ ،

٣٩٢ ، ٤٠٢ ، ٤٤٢

قسر (قبيلة) : ٣١١ ، ٣١٧

القضاء : ١٠ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٥٢٩

قضاء : ٦٦ ، ١٢٦ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٤١ ،

٣١٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ،

٥١٨

القطائع — الإقطاعات : ٢٦٦ ، ٢٧٧ —

٢٨٠ ، ٢٨٧

القطيفة (خلمة) : ١٧٠ ، ١٧١

القهرمان : ٢٨٢

القوط : ٣٣١

القومية العربية : ٤٧٠ ، ٤٨٨ ، ٥٣٣

القومية الفارسية : ٤٧٠

قيس (قبيلة) : ٦٥ ، ٦٦ ، ١١٠ ،

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٥٢ ، ١٦٧ —

المخمرة : ٥٠٤
 المحيط الأطلسي : ٦٩
 المحيط الهندي : ٢٩
 مخزوم (قبيلة) : ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٩
 مدن المعسكرات : ٢٥ ، ٢٨ ، ٥٣ ، ٢٧٧ ، ٢٩٨ ، ٢٨٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٦
 المدنيون : انظر أهل المدينة
 المدينة الدولة (Polis) : ٤
 مدحج (قبيلة) : ٧٧ ، ٢٤٠ ، ٣٨١
 مرج راط (موقعة) : ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٩٦ ، ١٨٠ ، ١٧٨
 المرجثة : ٣٠٨ ، ٣٥٢ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٣
 مرزبان - مرازية : ٣٩٦ ، ٤٥٤ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩
 مرقة : ٣٧٣
 المروانيون : ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، الأولون ١٩٦
 ما بعدها ؛ المتأخرون ٣٠٢
 ما بعدها ٣٠٦ ، ٣٤٧ ، ٣٧٠ ، ٤٨١ ، ٥١٤ ، ٥٢٦
 مزدكية : انظر : شيوعية
 مزون (قبيلة) : ٣٨٢ ، ٣٩٧
 مساعدات اجتماعية : ٢١٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٤٠
 المساواة : ١١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٦٩ ، ٣٩٤ ، ٤٤١ ، ٤٥٧ ، ٤٧٢ ، ٥٠٦
 المستشار الأول (لقب) : ٢١٣
 المسجد : ١٠

١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤١ ، ٣١٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٨ ، ٣٩٩ ، ٤٥٩ ، ٤٥٩
 كنانة (قبيلة) : ٤٥١ ، ٤٥٩
 كلدة (قبيلة) : ٣٧ ، ١٧٧ ، ٢٢٤ ، ٢٣٧ ، ١٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٨١ ، ٤٨٠
 الكنيسة المسيحية : ١٠ ، ١٢٦ ، ١٢٩
 الكوفيون : انظر حرب الكوفة

(ل)

اللائت (صم) : ١٠٨
 نخم (قبيلة) : ٣٤٨

(م)

المارونية ١٢٨
 ماكس = ماكسين (موقعة) : ١٩٨
 مال الله : ٤٢
 المجرمون السياسيون : ٢٩٩
 مجلس الرسول : ٣٣
 مجلس الكرادلة : ٣٨
 المجوس : ٢٧٣ ، ٣١٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤
 المحاربون ، ٤١٠ ، ٤١٠ ، ٦٢ - انظر أيضاً :
 مقاتلة
 المحصول (تأخير بيعه) : ٣٢١ ، ٣٣٦
 الحكم والمتشابهة : انظر القرآن

المشيئة الإنسانية ، ٣

المصادر : ٤٣

مصحف دمشق الأعظم : ٧٥

المصريون : انظر : عرب مصر

مصر (قبيلة) : ٦٦ ، ١٠٢ ، ٢٠٢ ،

٢٠٤ ، ٢٢٦ ، ٤٤٢ ، ٢٥٢ ،

٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٢٥٤ ، ٣٧٢ ،

٣٧٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٣ ،

٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ،

٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣ ، ٤٦٢ -

٤٦٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨ ،

٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ،

٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ،

٥٠٧ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٢١

المطلق : ٢

المعارضة الدينية والسياسية : ٦ ، ٣٧ ،

٤٠ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ،

٦٤ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ١٢٤ ، ١٥٩ ،

٢٣٥

المستعمرات الحربية : انظر : مدن المعسكرات

المغول ، ٥٣٤

المقاتلة : ٢٤ ، ٢٨ ، ٣١ ، ١٢ ، ٤٥ ،

٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٥ ،

٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،

٣٣٥ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٩ ،

٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤١٣ ، ٤٨٢ ،

٤٦٨ - انظر أيضاً : جنود - جيش

مقاعس (قبيلة) : ٤٠٢ ، ٤٠٤

المكايل : ٢٤٦

المكيون : انظر أهل مكة

الملاحم اليهودية : ٤٧٩

مسكن (موقعة) : ٢٢٣

المسلمون : ٣ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ،

١٦ ، ٣٥ ، ٢٧ - ٣١ ، ٢٣ ،

٣٤ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٣١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ،

٨٥ ، ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٢٧ - ١٢٩ ،

١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،

١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ،

١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،

١٨٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،

٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٧ ،

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ - ٢٦٧ ،

٢٧١ - ٣٧٣ ، ٢٧٦ - ٢٨٦ ،

٢٨٨ - ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ،

٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ،

٣٣٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،

٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ،

٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ،

٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،

٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٧٠ ،

٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٦ ،

٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢

المسودة : ٥٠٧

المسؤولية الوزارية : ٤٢٧

المسيحية : انظر : النصرانية

المسيحيون : انظر : الانصارى

المشركون : ١٢ ، ١٥ - ١٧ ، ٢١ ،

٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٠ ، ٤٠١ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٧٣

المشيئة الإلهية : ٣

٤٨٨ ، ٥٠٤ - ٥٠٦ ، ٥٢٧ ،

٥٢٨ ، ٥٣٠

الموظفون الدينيون : ١٢

المؤمنون : ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ،

١٥ ، ١٧ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٥١ ،

٦١ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٦٣ ،

٢٦٤ ، ٣٠٦ ، ٥١٨

(ن)

ناجية (قبيلة) : ٨٠ ، ٨١

النبط : ١٣٢

النبوّة : ٣٢ ، ٦٤ ، ٣٠٩ ، ٣٧٣

النبي : ٥ ، ٨ - ١٠

نخع (قبيلة) ٧٧

نزار (قبيلة) : ٥٢١

الناطرة : ٤٥٤

النسب : انظر : رابطة النسب

النصاري : ٨١ ، ١٢٨ ، ٣٠٩ ،

٢١٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ ،

٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ،

٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ،

٤٣٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٣٠

نصاري أيلة : ٢٩١

نصاري الحيرة : ٣٢٢

نصاري قبرس : ٢٩١

نصاري نجران : ٢٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،

٢٩٦

النصحاء : ٤٧٠

الملكانية : ٣٣٤

الملك الدنيوي : ٨

ملكية الأرض : ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ،

٢٨٦

ممالك : ٥٣٣

المنافقون : ١٥

المنجم : ٥٣١

المهاجرون (المهاجرة) : ٨ ، ١١ ،

١٢ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٣٦ ،

٣٧ ، ٨٤ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٩

المهالبة : ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٣٠٣ -

٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ،

٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٥٩ ،

٤٨٨

المهرجان (عيد) : ٤٣٨ ، ٤٦٨ ،

٤٦٩

المواطن : ٥ ، ٢٣ - ٢٥ ، ٤٨٨

الموالي : ٣ ، ٦٧ - ٦٩ ، ٢١٨ ،

٢٣٥ - ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ،

٢٥٩ ، ٢٦٩ - ٢٧٥ ، ٢٨٤ ،

٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ،

٣٠٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٨٤ ،

٢٨٨ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،

٤٢٠ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨ ،

٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧ ،

٤٧٠ - ٤٧٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ،

(و)

- الواجبات الحربية : ٥
الوثنية : (العربية) : ١٩ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠٧ ، ٢١
العمية : : ٤٦٩ ، ٤١٦ ، ٤٨٨
الوثنيون : (العرب) : ٤٠ ، ١٥٨
الأعاجم : : ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٤٣٥
الوحى : : ١٧ ، ١٨
الورق (القراطيس) : ٢١٠
الوزير : ٥٣٠
وصفا، الكوفة : ٣١٧
الوضاحية : ٣٥٨
الولاء : ١٣
الولايات الفارسية : ٩٤ ، ١٠٣ ، ١١٨

(٥)

- اليعاقية : ١٢٨
الين (قبائل) : ٣٧ ، ٧٣ ، ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ - ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٧١

- النصرانية : ١٩ ، ١٧ ، ٧ ، ٦ ، ١ ، ٢٠٢ ، ١٢٧ ، ٩٤ ، ٨١ ، ٢١ ، ٢٠٧
النصرانية (التأثير النصراني) : ٦ ، ١٢٦
النقباه : ٤٨٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٧٨ ، ٥١٧
نهاروند (مرقمة) : ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٠٩
النهر وأن (موقعة) : ٩٨ ، ٨٢ ، ٨٠ ، ١٠٥
نوام (معركة) : ٣٣٢
النيروز (عيد) : ٤٦٩ ، ٤٦٨

(ه)

- الهاشمية (فرقة) : ٤٧٧ ، ٤٧٦ ، ٤٩١ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٥١٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٠
الهجرة : ٦١ ، ٢٥ ، ٥٠
الهدايا للحكام : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٤٥٠
الحرير (ليلة في صيفين) : ٧٣
همدان (قبيلة) : ٧٨ ، ٧٧ ، ٣٧ ، ٣٨١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩
الحنود : ٣٨٠
هوازن : ١٧٧ ، ٢٠
الهياطلة : ٤١٢ ، ٤٠٦

٢٧٣ ، ٢٩١ ، ٣١٩ ، ٤٥٣ ،

٤٥٤ ، ٥٣٠

اليهودية : ١ ، ٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١

اليونان : ٣١

اليونان (التأثير اليوناني) : ٦ ، ٥٤ ،

١٢٦ ، ٢١١

٣٩٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٣٣ ،

٤٦٢ — ٤٦٤ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،

٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥١٢ ،

٥٢١

اليمنيون : انظر : عرب اليمن

اليهود : ٨ ، ١٠ — ١٢ ، ١٥ — ١٩ ،

٢٢ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٢٠٧ ،

القاهرة

مطبعة بحنة النائف والرحمة والنشر

Bibliotheca Alexandrina



0387514

مطبعة بحنة التأليف والترجمة والنشر
٩ شارع الكرداسي - بعابدين